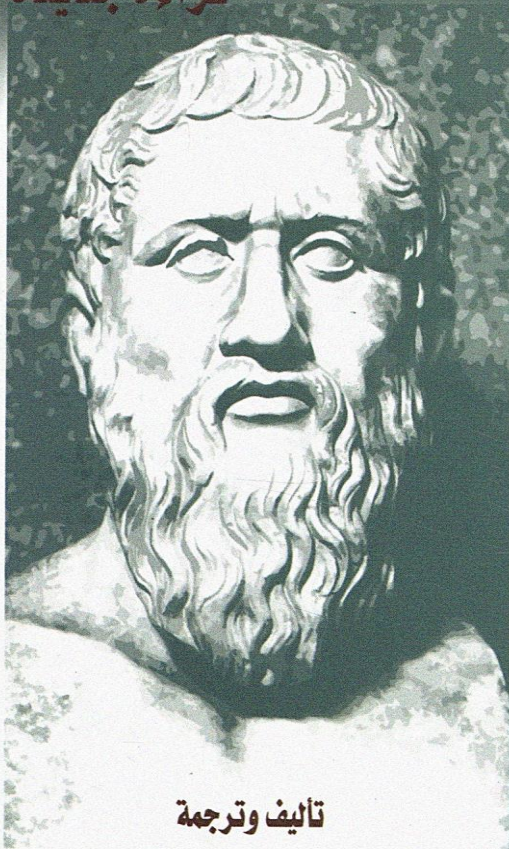


المركز القومي للترجمة

أفلاطون

قراءة جديدة



تأليف وترجمة

داود روفائيل خشبة

1785



المشروع القومي للترجمة

أفلاطون

قراءة جديدة

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر مصطفى

- العدد: 1785
- أفلاطون: قراءة جديدة
- داود روفائيل خشبة
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:

PLATO: An Interpretation

By: D.R. Khashaba

Copyright © 2005 by D.R. Khashaba

Arabic Translation © National Center for Translation, 2012

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة.

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com

Tel.: 27354524

Fax: 27354554

أفلاطون

قراءة جديدة

تأليف وترجمة
داود روفائيل خشبة



2012

خشبة، داود روفائيل.

أفلاطون: قراءة جديدة/ داود روفائيل خشبة
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.

١٠٨ ص: ٢٤ مم. -

تتمك ٩ ٨٢ - ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الأفلاطونية.

٢ - أفلاطون، ٢٤٧ - ٤٢٨ ق. م.

١ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٢/١٩٠٠١

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 082 - 9

ديوى ١٨٤

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعرفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز.

المحتويات

7	إهداء:
9	تصدير:
13	حول هذه الطبعة العربية.....
15	مقدمة: تأويل أفلاطون أو كيف نقرأ أفلاطون
31	الباب الأول: البصيرة الديمقراطية
33	الفصل الأول: الصور المعقولة
67	الفصل الثاني: عقلانية فلسفة سقراط الأخلاقية
81	الفصل الثالث: الحوار الديمقراطي
125	الفصل الرابع: الديموقراطية والتجسس
147	الباب الثاني: الرؤية الأفلاطونية
149	الفصل الخامس: مغزى الديمقراطيين
183	الفصل السادس: المعرفة والحقيقة
205	الفصل السابع: الحجّة في الديمقراطية
309	الباب الثالث: مغامرات الفكر
311	الفصل الثامن: الديموقراطية والديمقراطيين
327	الفصل التاسع: نظرية المعرفة
349	الفصل العاشر: الديموقراطية
363	الفصل الحادي عشر: الديموقراطية
379	الفصل الثاني عشر: الديموقراطية

ملحق 1: حياة أفلاطون .. 395

ملحق 2: أعمال أفلاطون .. 397

ملحق 3: مؤلفات استشهد بها أو أشير إليها في ثنايا الكتاب .. 399 ..

إهداء

إلى

خليل كلفت

الأديب * المفكر * الإنسان

عرفنا بفضلته

تصدير

لقد قيل إن أفلاطون لم يُدرس أبداً، على الأرجح، بمثل التركيز الذى تُرس به فى أواخر القرن العشرين. وللأسف يمكن أن نقول أيضاً إن أفلاطون لم يتعرّض أبداً، على الأرجح، لمثل سوء الفهم والمسخ والتشويه الذى تعرّض له فى نفس تلك الفترة.

حتى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين كان باحثو أفلاطون يقدّمون تأويلاتهم المختلفة لأعمال أفلاطون. أما فى أواخر القرن العشرين فلم يعد الباحثون يؤولون بل صاروا يُشرّحون. اغتالوا أفلاطون ومضوا فى سعادة يمزّقون الجثمان مِرْقاً صغيرة ليفحصوها تحت مجاهرهم التحليلية.

لم يكن غرض أفلاطون فى كتاباته، ولا فى تعليمه الشفهي، أن يقدّم منظومة فلسفية مكتملة. فكما أن الغاية الوحيدة للحوار السقراطى لم تكن، كما يفترض عادة، الوصول إلى تعريفات صحيحة، وإنما كانت غايته ابتعاث تلك الحيرة الخلاقة التى تقود محاوريه للاعتراف بجهلهم ولأن يسعوا للاستنارة بالاتجاه إلى داخل عقولهم، فكذلك كانت غاية أفلاطون أن يقدح فى روح سامعيه وقرانه شرارة الفهم تلك التى "فجأة تولد فى الروح مثلما يومض الضوء حين توقد نار وتتغذى بذاتها من ذاتها"، على حدّ قوله فى الرسالة السابعة.

لهذا فإنه ليس بلا جدوى فحسب، بل هو ضارّ تماماً، أن نُخضع كتابات أفلاطون للتحليل الدقيق والنقد الصورى محاولين أن ننتزع منها عقائد محددة ثابتة أو منظومة نظرية. كتابات أفلاطون يجب أن نقرّبها مُعْمَلين خيالنا، مهَيَّين للتجاوب معها، حتى نلمح تلك الرؤى التى تتلّهى على البوح والتسى يمكن إيصالها فقط عبر الأسطورة والمجاز ولكن لا يمكن أبداً احتواؤها فى صياغات نظرية.

أنا لا أدعى التوصل إلى ما كان أفلاطون يعتقد أو ما كان يُعلم ولا أنتوى أن أحاول ذلك. لا أحد بحق له أن يدعى احتكارا لفهم المعنى 'الحقيقي' لأفلاطون، وأنا بكل تأكيد لا أدعى هذا. لقد ترك لنا أفلاطون نحو ثلاثين عملا مكتوبا، أنشأها لمتعته الخاصة، إن كان لنا أن نهتدى بما جاء في الفايديروس 276-د. وغرضي في هذا العمل أن أقدم الفلسفة التي استمدّها لنفسى، حسبما ارتضيه لنفسى، من كتابات أفلاطون هذه.

إننى أدخل فى حوار حى مع أفلاطون الحى وأقدم الفهم الذى أخرج به نفسى من هذا الحوار، لا أنسب لنفسى أهلية ولا لتأويلي صدقا. إننى أفعل ما فعل أفلوطين، أرد يتابع أفلاطون الفيلسوف لأروى حديقتى، وأقدم صيغتي الخاصة من الأفلاطونية، لا شاهد لها إلا ما تحمله فى قلبها.

نما هذا الكتاب من سلسلة من "استكشافات فى محاورات أفلاطون" كنت قد بدأتها فى وقت ما من عام 2001. الفصول 1، 3-5 إلى 8، هى صيغ معتلة من ستة من تلك الاستكشافات، كانت قد ظهرت فى موقع الإلكتروني لى احتفظت به لعدد من السنين، كما نُشر أولها فى *The Examined Life Online Journal*. الفصل الثانى صيغة معتلة من مقال كنت قد كتبتة، قبل أن أبدأ سلسلة الاستكشافات، تحت عنوان "عقلانية-فلسفة سقراط الأخلاقية"، وقد نُشر أيضا فى موقعى الإلكتروني وكذلك فى *The Examined Life Journal*. بقية الفصول بنيت على ملاحظات كنت أعدها لتلك السلسلة.

نشأة الكتاب من سلسلة من المقالات المنفصلة تفسر وجود الكثير من التكرار، وأحيانا حتى الإعادة الحرفية، على امتداد الكتاب. ولم أحاول استبعاد كل هذا التكرار لسببين. أولا، لأن هذا كان يقتضى إعادة الصياغة وإعادة الهيكلة بصورة متسعة. بجانب ما كان ذلك يتطلبه من وقت وجهد، فإنه كان على الأرجح سيؤثر تأثيرا سلبيا على الوحدة الداخلية والاتساق الذاتى للفصول. ثانيا، أسمح لنفسى بأن أزعم أن ذلك التكرار يتعلّق بأفكار جديدة ومهمة، تتعارض تعارضا مباشرا مع آراء استقرت ورسخت فى الدوائر الأكاديمية؛ وعليه، فهناك مبرر وهناك حاجة لقدر كبير من الإعادة ومن التوكيد حتى تبلغ

تلك الأفكار مقصدها. أعرف ما قد يجزّه علىّ قولي هذا، وأنا راضٍ بأن أحمل وزره.

ترتيب الفصول يمثل مسيرة متواصلة من بصيرة أساسية، أعتقد أنه يجوز لنا أن ننسبها إلى سقراط، عبر رؤية هي على الأرجح تطوير أفلاطوني، إلى أبحاث ومغامرات فكرية يبدو أنها شغلت أفلاطون في وقت متأخر من حياته. إنني لا أرتب في أن أرسم خطأ فاصلاً أو خطوطاً فاصلة عند نقطة معينة أو نقاط معينة من هذه المسيرة. بعض المسائل التي يعالجها أفلاطون بعمق وتركيز في تاريخ متأخر ربما تكون قد أرقت فكره حتى في شبابه. الـ *ليزيس*، مثلاً، تثير مسائل هي، في نظري، أساسية في ديالكتيك الـ *بارمنيديس*. أفلاطون لا يكون أفلاطون إذا لم يكن مهتماً لاستشفاف مسائل جذرية حتى وهو صبي.

ثمة موضوع واحد قد يستغرب قراء كتابي غيابيه، هو السياسة. إنني لا أعتقد أن السياسة تدخل في إطار الفلسفة بمفهومها الدقيق. إن الفيلسوف بوصفه إنساناً يعيش في عالمنا الواقعي سيعنى بالضرورة بالسياسة. وعسى أن يأتي الفيلسوف، رجلاً كان أو امرأة، في تعامله مع السياسة، بأسلوب تفكير صقلته الفلسفة، باهتمام بالقيم غدت الفلسفة، لكنه لن يأتي بمبادئ سياسية أسست فلسفياً. لا وجود لشيء كهذا. إن أفلاطون بوصفه أثينا وبوصفه هيلينياً كان معناً بكلّ جدية بسياسة زمانه وعالمه. هناك ملاء مكتبات كاملة مما كُتب عن فكره السياسي. أنا ليس عندي شيء ذو قيمة أضيفه في هذا المجال وأريح نفسي من الخوض فيه.

كلمة تنبيه أخيرة. ليس هذا كتاباً للباحث المبتدئ؛ ليس هذا الكتاب مقمّة لدراسة أفلاطون. إنه يناسب فقط القراء الذين هم على إلمام جيّد بأعمال أفلاطون والذين يتاح لهم الرجوع لتلك الأعمال.

د. ر. خشبة

مدينة السادس من أكتوبر، مصر

فبراير 2005

حول هذه الطبعة العربية

كل فلسفة أصيلة تأتي معها بلغتها الخاصة، أو، إن أردنا الدقة، تأتي معها بعالمها الخاص مكتسباً بلغته الخاصة. وإنى أزعم أنى أقدم فلسفة أصيلة أتت بمفاهيم جديدة جاءت معها بالضرورة بلغة جديدة. ولقد لقيت عننا فى نقل هذه المفاهيم وإلباسها كساء عربياً، خاصة وأن لغة الفلسفة عندنا تعانى فقراً مدقعا. فالمعاجم والمراجع المشححة المتاحة لا تتفق فيما بينها حتى فى شأن المصطلحات التى يُفترض أن تكون مستقرة، كمصطلحات المنطق مثلاً. وحيث تصادف أن وجدتها تتفق، وجدت فى حالات عديدة أن ما اتفقت عليه لا يفى بغرضى وكان على أن أخالفه. كل ما أرجوه أن يكون ما تحمّلت من عناء فى هذا السبيل قد أسهم بعض الشيء فى إثراء لغتنا الفلسفية فى الأصل الإنجليزى، كما فى معظم كتاباتى، امتنعت عن استخدام الهوامش، لكنى أدخلت العديد من الهوامش على هذه الترجمة، بعضها فيه إضافة وبعضها توضيحي. فكل الهوامش فى الصفحات التالية خاصة بهذه الطبعة العربية، وقد نقلت بعضها من هوامش يوميات سقراط فى السجن.

كذلك فإن الملحقات الثلاثة فى نهاية الكتاب: (1) حياة أفلاطون (2) أعمال أفلاطون (3) مؤلفات استشهد بها أو أشير إليها فى ثنايا الكتاب، هى بدورها إضافة خاصة بهذه الطبعة العربية.

مقدمة

تأويل أفلاطون أو كيف نقرأ أفلاطون

*houtos humôn, ô anthrôpoi, sophôtatos estin, hostis
hôsper Sôkratês egnôken hoti oudenos axios esti têi
alêtheiai pros sophian.*

أكثركم حكمة، أيها الناس، من كان يعرف،
كما يعرف سقراط، أن ليس له حقاً من الحكمة
نصيب. (النداء، 23 ب.)

1

فهنا لأفلاطون وفهمنا لطبيعة الفلسفة هما وجهان لعملة واحدة. المفهوم
الأكاديمي السائد لطبيعة التفكير الفلسفي يفسد كلا من فهمنا للفلسفة وتأويلنا
لأفلاطون.

إن الحال الأليمة التي انحدرت إليها الفلسفة نتجت عن مطالبة الفلسفة بأن
تخدم نفس الأغراض التي يخدمها العلم، وعن انخداع الفلاسفة إذ زعموا أنهم
يلتزمون هذا المطلوب. طوَّبت الفلسفة بالمعنى لمعرفة موضوعية صادقة ومؤكدّة،
وفي جهالة زعم الفلاسفة أنهم يستطيعون ذلك. هذا مُترك على الفلسفة أن تفلت
منه. وللأسف فإن هذا الخلط الضارّ بين الفلسفة والعلم أربك كل المصطلحات

اللازمة لمناقشة المسألة: 'المعرفة'، و'الصدق'، و'الفهم'، و'العقل'، إلخ.، كل هذه المصطلحات تعانى الغموض ويمكن أن تؤدي لكثير من التمشوش وسوء الفهم إذا لم نهتم بالالتفات للاستخدامات الخاصة بكل كاتب يستخدم هذه المصطلحات. ولأني أهدف لمراجعة جنرية لفهمننا لهذه المصطلحات فبني يورقتي إبراكي بأني معرّض بشكل خاص لسوء الفهم عند استخدامها.

تماما كما أن الوقائع المتعلقة بالعالم الطبيعي لا يمكن استخراجها من داخل العقل الإنساني، فإن الفهم لا يمكن أن نجدّه خارج العقل الإنساني. إذا اخترنا، كما هو معقول، أن نقصر مصطلح 'الصدق' على التحقق من الواقع، وحيث إننا لا يمكن أن نستمد معرفة الواقع من العقل الخالص، كما تبين كُنت Kant، فعندئذ يمكننا القول بأن العقل الخالص ليس معنياً بالصدق. معرفتنا بالواقع لا يمكن أن تمتد لتتجاوز تجربتنا، كما أكد لوك Locke وهيوم Hume بحق. وعلى الجانب الآخر، فكل معنى، كل معقولة، 'نجدها' فيما تعطينا إيّاه التجربة من ظواهر، يبئنه العقل في الظواهر. عندئذ فقط تتحوّل الظواهر من مادة تجريبية معتمة ومبهمّة إلى واقع منظم ذي معنى.

بالإضافة لذلك، فإن العقل لا يُصدر فقط أنساقاً تضيف المعنى والمعقولة على محتوى التجربة، وإنما يمضي فيخلق أفكاراً من الرتبة الثانية ومن الرتبة الثالثة ومثلاً كل كينونتها في العقل، وتكون الفكرة ويكون المثل حقيقة (في مصطلحي الحقيقة ضد الوجود) بمعنى خاص مؤداه أن الأفكار والمثل تشكّل مستوى من الكينونة يتحقق في العقل الفاعل الخلاق. 'الله'، و'الروح'، والمثل الأخلاقية والقيم، كل هذه مفاهيم من خلق العقل، هي اختلاقات fictions أو أساطير إن شئت، لكنها تشكّل حقيقة مستوى الكينونة الروحي الذي هو الخاصية المميزة للإنسانية.

يخطئ الدين حين يصوّر هذه المفاهيم على أنها واقع ويُسكنها في المكان والزمان. ويخطئ العلم حين يرفض هذه الحقائق لأنها تسقط بمعايير التثبت الموضوعية. وتخطئ الفلسفة حين تظن نفسها ملزمة بالاختيار بين الانحياز للاعتقالية الاعتقاد الديني من ناحية وقبول شهادة العلم الموضوعي الراضنة من ناحية أخرى.

ينبغي للفلسفة أن ترى نفسها كنوع من الشعر، شعر عقلاني؛ هي تخلق أحلاما وأساطير ذاتية الاتساق، تستكنه حقائق الحياة الروحية، وتعترف في وضوح بأن إبداعاتها هي أحلام واختلاقات وأساطير، لكنها أحلام واختلاقات وأساطير تشكّل حقائقنا الخاصة، الحقّة، التي هي أثنى ما لنا. هذا، في رأيي، هو فحوى بصيرة أفلاطون وروزيته، وهذا أيضا فيما أرى هو جوهر منظور كُنْت Kant، ولو أن كُنْت كان أكثر خضوعا لعقلانية rationalism عصره⁽¹⁾ من أن يستطيع التعبير بصورة تامّة، واضحة، مُسّقة عن منظوره الصحيح في أساسه.

عند نقطة ما من الديابيزون (84ج - 88ب) يثير كل من سيمياس وكيبيس اعتراضات على حُجة سقراط الأولى عن خلود الروح. في ردّه على كيبيس، يبدأ سقراط بأن يعطى بيانا عن تجربته في التفكير الفلسفي - 'السيرة الذاتية' الشهيرة (96أ-101هـ) - يعنى في مضمونه التخلّي عن كل معرفة موضوعية، وليس هذا فحسب، بل ونبذ كل إثبات وكل برهان في الفلسفة. هذا ما أسميه مبدأ الجهل الفلسفي السقراطي.

في الفلسفة لا نسعى لنتائج مثبتة بالبرهان، ولا يمكن أن نحصل على مثل هذه النتائج المثبتة بالبرهان، بل نسعى للمعقولة، للفهم، لرؤية مُسّقة. ونحن نقترّب من ذلك الهدف حين تكون لنا منظومة أو شبكة من المفاهيم والمُثل والعيام ذات وضوح ذاتي، ومسامحة، وذات قدرة على أن تبيّن معنى مختلف مراحل وجوانب تجربتنا الحياتية معنى وقيمة. هكذا تستطيع الفلسفة، والفلسفة وحدها، أن تؤدّي الدور الذي كان الدين يؤديه من قبل في الحياة الإنسانية. فالفلسفة، كما قلت مرارا في مواضع أخرى، تخلق كونا معنويًا universe of discourse يُنشئ مجال معقولة يستطيع العقل فيه أن يمارس حياته الخاصة كعقل فاعل خلاق.

تكن هناك نتائج فلسفية نهائية أو مؤكّدة، كيف يمكننا أن نتجنب النسبية المُطَبّقة في الأخلاق ونتجنب الشك المذهبي scepticism بوجه عام؟ عند هذه

(1) المقصود بالطبع العقلانية بالمعنى الاصطلاحي المحدود، التي كان يمثلها لاهنتس ولوتزة Lotze في مواجهة إمبريقية لوك.

النقطة من الفايون (88ج - 91ج) يحذر سقراط رفاقه من أن يفقدوا إيمانهم بالعقل بعبارات تبدو سطحيًا وكأنها ارتداد عن مبدأ الجهل الفلسفي السقراطي. لكن ذلك يبدو للنظرة المسطحية قتل، فإن سقراط يجد الطمأنينة في الوضوح الذاتي للمعقول. في منتهى الأمر نجد ملاذنا الأيمن الوحيد في حقيقة العقل الفاعل الخلاق؛ نجد أن فاعلية العقل هي كل الفضيلة وهي كل الحقيقة.

مبدأ الجهل الفلسفي السقراطي يتطور عند أفلاطون إلى الـ ديالكتيك⁽²⁾ الذي يدمر كل افتراضاته. للتغلب على الـ بيرونية⁽³⁾ Pyrrhonism، قديمها وحديثها، والنسبية المُطبَّقة، نحتاج مفهومًا للعقلانية الديناميكية، حيث العقل على الدوام في حيوية ونشاط ولا يستقر أبدًا. أنتيستينيس Antisthenes وهجنشتاين Wittgenstein كلاهما عانيا بنفس القدر من غيبة مثل هذا المفهوم السقراطي للمعقول the intelligible هو أساس الأفلاطونية المعقول يولد في العقل. لا مفهوم يأتي إلينا من الخارج. لا إحساس sensation هو في ذاته معقول. مفهوم المتساوي ليس مستمدًا من التجربة. قد نرى مليونًا من الأشياء المتساوية مليون مرة ومع ذلك لا تكون عندنا فكرة 'المتساوي' حتى يومض في العقل وميض يعلن: "بالطبع، هذان متساويان!" وليس من الضروري أن نرى كثيرًا من الأشياء المتساوية كي نكون فكرة 'المتساوي'؛ رؤية زوج واحد من شينين متساويين لمرة واحدة قد توفر المناسبة المطلوبة لخلق المفهوم. وأيضًا، قد نملك مفهوم 'المتساوي' ونطبقه على العديد من الأشياء المتساوية دون أن يكون عندنا مفهوم 'التساوي'، وهذا مفهوم لا ينبغي أن نسميه تجريديًا أعلى بل مفهومًا من رتبة أعلى.

ولا يصدق هذا فقط فيما يتعلّق بالأشياء غير المحسوسة مثل مفهوم 'المتساوي'. قد نرى أشجارًا ولا يكون عندنا مفهوم الشجرة حتى نميزها وسط الكلّ السديمي للأشياء المنظورة ونضفي عليها صفة مميزة. إيصاري للشجرة حديثًا. لكن تسميتي إياها شجرة، معرفتي إياها كشجرة، هذا فعل عقلائي، فعل

⁽²⁾ على عادة أفلاطون في عدم التقيد باستخدام لاصطلاحى صارم، فبِهِ يستعمل كلمة ديالكتيك في مختلف صيغها ومشتقاتها بمعنى مختلفة في سياقات مختلفة، لكنه في الجمهورية يقدم لنا مفهومًا لـ ديالكتيك هو في تقديرى جوهر رأيت للتفكير الفلسفي.

⁽³⁾ مذهب الشك الكامل المطبق.

للعقل خلاق، تصبح به الشجرة عندي، لا شينا معطى، لا انطباعا يدخل إلى من الخارج، بل معنى. هذا جوهر التمييز السقراطى بين المعلوم والمحسوس.

لأن الشاغل الأول لسقراط كان الأخلاق فإنه لم يتكلم عن مفاهيم أشياء عالم الطبيعة بل عن المفاهيم الأخلاقية فقط لكن توسيع نطاق الفكرة وتطويرها لا يبتعد بنا عن البصيرة السقراطية. حين فشل باحثو الفلسفة فى تقدير الأصالة المبدعة لمفهوم سقراط عن عالم المعقول the intelligible realm وعن القدرة الخلاقة للعقل، وإذ نظروا لك 'صور المنفصلة' والك 'روح المنفصلة' عند أفلاطون باعتبارهما نظريتين مستحدثتين بغير أساس فى المسمى السقراطى، جعلوا من سقراط معلما مستكينا لأخلاقيات العامة ومن أفلاطون داعية أحق لنظريات غير مقبولة.

المسألة الفلسفية تفتح للفكر الإنسانى مجالاً للاستكشاف العلى الخلاق. هذا هو أهم ما يسهم به المفكر الأصيل فى تراث الثقافة الإنسانية. أما 'حل' المسألة فهو بمثابة رسم خريطة مساحية للمجال من منظور معين. أعطانا ثاليس (طاليس) Thales مسألة الكون، وجاء أناكسيماندر Anaximander وأناكسيسجوراس Anaxigoras ولايبنتس Leibniz وشوبنهاور Schopenhauer ووايتهد Whitehead (أسماء أوردتها حسبما يتفق) فأعطونا صوراً مساحية مختلفة لمجال المسألة (حسب تعبير الكلمة الألمانية *Problembereich*). وأعطانا سقراط مسألة عالم المعقول ومسألة أزلية الروح (التي تتخفى فى أعمال أفلاطون فى رداء خلود الروح). وأعطانا پارمنيديس Parmenides مسألة الـ حقيقة، التي أعطانا أفلاطون أروع وأسمى مساحة لها فى رؤيته لـ صورة الـ خير. كل هذه مفاهيم خلاقة لا يمكن أن تجدها فى شيء خارج العقل أو أن تستمدّها من شيء خارج العقل.

إننى عبّرت مراراً، فى مواضع أخرى وفى الصفحات التالية، عن رأى يقول بأن الفلسفة مسمى خلاق، يعلن نبوءات بمفاهيم ومثل تضى معنى وقيمة على معطيات التجربة وعلى الحياة الإنسانية. فى التفكير الفلسفى نبدأ من كلّ معين، يكون سديمياً بقدر ما، ونمضى فى فعل خلاق نرى الخيال لنمثله من جديد فى كلّ أكثر أساقفاً. هذا التمثيل إبداعى، لا يمكن لأية قواعد صورية أن

تجعله يُستمد بالضرورة من الكلّ الذي بدأنا به، ولكونه تمثيلاً فهو بالضرورة ينطوى على تزييف. لكونه لا يُستمد بالضرورة فإنه يمكن أن يكون دائماً عرضة للاعتراض عليه. ولكونه بالضرورة ينطوى على تزييف فإن هذا التمثيل يمكن دائماً دحضه. هذا ما يفسّر لنا مجادلات الفلاسفة التي لا نهاية لها. مهما كانت العناية فائقة في صياغة المقدمات، ومهما كان التزام الدقّة في الاستنتاج، فإن النتيجة تأتي بشيء يدين بوجوده لفعل الخلق ولا شيء سواه. إنه دعوى، إلا أنه دعوى إلهي.

الفيلسوف الأصيل، الذي لا يقتصر فقط على إعادة تقديم آراء الآخرين، يستحدث طريقة جديدة للنظر إلى الأشياء. ذلك الفيلسوف، رجلاً كان أو امرأة، يقمّ رؤيته، يبتطها، يوضّحها، يجسدها في أمثلة، يتغنّى بمدحها. كل ذلك هو كما ينبغي أن يكون. لكنه بعد ذلك يمضى فيقول إن كل الآراء الأخرى خاطئة، وهذا سيئ بما فيه الكفاية، لكنّ الأسوأ منه ألا يقف عند هذا بل يمضى لـ 'بيرهن' على أن كل الآراء الأخرى خاطئة على أساس أنها تغفل في أن تظهر ما تظهره رؤيته هو، غير مدرك أن 'الحقيقة' التي يريد إظهارها هي نتاج طريقته الخاصة في النظر إلى الأشياء. هذا مصدر كلّ صراعات الفلاسفة. على الفلاسفة أن يدركوا أن كل فيلسوف يخلق - بالمعنى الدقيق للكلمة - عالماً معقولاً intelligible universe جديداً كاملاً لا يتنافى مع العوالم المعقولة الأخرى.

هناك مقولات يكون كل إنسان جدير بإنسانيته مستعداً للدفاع عنها وللموت في سبيلها، لكنه - إن يكن فيلسوفاً حقاً - لا يزعم لها صدقاً حرفياً ونهائياً. في المناقشات الفلسفية تكون النتيجة، بحسب العبارة التي نلقاها مراراً في محاورات أفلاطون، ضرورة استناداً لما اتّفق عليه *anagkaion ek tôn* ما هو ضروري يكون ضرورياً فقط بحكم ما اتّفق عليه مسبقاً؛ لكن ما اتّفق عليه يمكن دائماً إخضاعه للمساءلة، ويجب دائماً إخضاعه للمساءلة، إذا لم يكن لنا أن نستعيدنا ما قد خلقناه بأنفسنا. لا مقولة في الفلسفة تكون صالحة على الدوام، ببساطة ودون أية تكييفات qualifications.

أفلاطون لا ينسى هذا أبداً. أولئك الذين يتحدّثون في ثقة عن نظرية أفلاطون في هذا ونظريته في ذلك ليتهم يتذكرون هذا.

من مفارقات الفكر الإنساني والتواصل الإنساني أننا مضطرون لأن نُجرى تفكيرنا وحوارنا بكلمات مبهمّة. حلم لايبنتس Leibniz بلغة تامّة الكمال هو وهم. قياستنا أنظمة الرموز المجرّدة، الصورية تماماً، التي، مهما عظمت فاندتها العملية، ينحصر فعلها في نطاق محدود، فإن كل تفكير حي وكل حوار حي، كل تفكير وكل حوار يتعلّق بمواقف أو أوضاع 'واقعية'، 'فعلية'، 'عضوية' (أيما كانت الصفة الملائمة) لا يمكن أن يجرى إلا في كلمات سائلة، غامضة، غائمة، وإلا لكانت غير متعلّقة بوقائع الحياة المتغيرة دوماً، غير المستقرّة أبداً.

لهذا فإنه في الشعر وفي الفلسفة في أحسن أحوالها تكون اللغة في أعلى درجات السيوّلة وفي أعلى درجات القدرة على الإيحاء. حين يغفل الناس عن هذا، يكون تفكير الأفراد نوجماتياً، متعصباً، غير متسامح، وفي النقاش يرمى كل طرف الطرف الآخر بثّتي الاتهامات. أما حين نتحلّى بالوعي الذي عمل كل من سقراط وأفلاطون دواماً ودون كلل على نشره، فيمكننا أن نسعى باستمرار، في تواضع وفي صبر، نحو المزيد من الوضوح في فهمنا لأنفسنا ونحو المزيد من التفهم المتبادل، المتعاطف، مع رفاق إنسانيتنا.

أكثر من مرّة يتحدّث أفلاطون عن تقديم قولٍ حقّ *logos aléthês* حين يكون مزماً أن يقدم لنا أسطورة *muthos*. هذان لا ينفصلان: القول الحقّ لا يمكن تجسيده إلا في أسطورة. هذا هو الدرس الذي كان علينا أن نتعلمه من أفلاطون عن طبيعة التفكير الفلسفي، لكننا كنا أكثر شطارة من أن نستوعبه.

أهدانا أفلاطون أعمق البصائر في أنفسنا وفي الحقيقة في كساء من أساطير مجنّحة، الصور الأزليّة، الروح الخالدة، 'نظرية' التذكّر. لكن باحثينا الجهابذة يحيلون الأساطير إلى عقائد دوجماتية سخيّة، إلى نظريات واضحة الخلل، ويضيع كل شيء: الجوهر الموحى والرؤية الملهمّة، كل ذلك يتبدّد حين تتحطّم صنّفة الأسطورة التي تحويه.

هكذا 'يكتشف' الباحثون في أعمال أفلاطون نظريات يعضون لإثبات بطلانها، وبما أن تلك النظريات هي كل ما يروونه في أفلاطون، أو كل ما يهتمهم منه، فيتدميرها تضعيع كل الروى التى كساها بتلك 'النظريات' روى أثرت الإنسانية، روى نقلت الإنسان حقاً إلى مستوى جديد من الكينونة. صارت حياتنا أكثر فقراً بسبب إصرارنا على أن نكون أكثر شطارة. أصبحنا ماديين بدلا من مثاليين، ونقول لأنفسنا أن لا محيص لنا عن ذلك، إذ أننا بغير ذلك نخدع أنفسنا. ولماذا؟ لا لشيء إلا أننا وقعنا في وهم العلم الموضوعى: نظن أن فلسفتنا يجب أن تلتزم بالنديا وتعطينا المصدق عن النديا. نعجز عن أن نرى أن المادية النظرية والمثالية النظرية ليستا إلا طريقتين للنظر إلى الأشياء وأن فى مقدورنا أن نتخذ هذه النظرة أو تلك. الفلسفة ليست معنىة على الإطلاق بالكيفية التى عليها النديا ولكنها معنىة تماما بكيفية الحياة التى نختار أن نحياها.

من العبث أن نخضع كتابات أفلاطون لصرامة التحليل المنطقى، سواء فعلنا ذلك لنحضه باظهار عدم تناسق مقولاته أو لنزيد به أن نكشف عن التناقض تحت مظهر عدم التناقض. أفلاطون لا يعطينا منظومة فلسفية محددة. أفلاطون يعطينا بصيرة ووحيا يساعداننا على أن ننظر داخل حقيقتنا الذاتية، التى نستطيع بعد ذلك أن نعبّر عنها فى مواقف فلسفية من صنعنا نحن. ينبع تناغم ووحدة مواقف أفلاطون الفلسفية ككل من رؤيته الأساسية لتلك الحقيقة الواحدة، حقيقتنا الذاتية ككائنات عاقلة: تلك الروية تنساب فتتفرع إلى نهيرات تنتشر وتتباع وتقاطع دون أن تتنكر لمنبعها الواحد.

يرهق الباحثون أنفسهم دون داع فى محاولة صياغة مختلف آراء ومواقف أفلاطون فى منظومة متسقة حسنة الترتيب. إنه لم يكن يقدم بيانا عن موجودات موضوعية بل كان يعبر أسطوريا عن حقائق تتأبى على البوح بها، وكان حرا فى أن يعدل فى الصور والأوصاف الإبداعية فى تعبيره. إنك لا تطلب من رسام يرسم عديدا من الصور لموقع طبيعى أثير لديه أن يصنع نسخا مكررة من رسوماته، ولا تطلب من آخر يرسم عدة صور شخصية لشخص واحد، حتى وإن كان يرسمها له فى ذات الفترة من حياته، أن ينتج صورا متطابقة. إن خلطنا بين طبيعة الفلسفة وطبيعة العلم (وهو وحده المعنى بالموجودات الموضوعية) هو أصل الجدل الذى لا نهاية له بين الباحثين والمحاولات العبثية

لقسر أفكار عظماء الفلاسفة المبدعين على أن تتشكّل في قالب محددة تحديداً دقيقاً. وإذا كنا نجد النموذج الصارخ لذلك في الدراسات الخاصة بأفلاطون، فما ذلك إلا لأن أفلاطون هو الأعلى إبداعاً، لكن القول يصدق في حالة كل عظماء الفلاسفة، ويصدق أكثر بمقدار ما يكون الفيلسوف المعنى أكثر عمقا وأصاله.

أنا لا أستند إلى نصّ من أفلاطون لأثبت أو أدمع أو أدافع عن موقف ما. من الممكن دائما أن نمسند لذات النصّ لنصل إلى موقف معارض. إننا بتأويل وتطوير النصّ أصل إلى موقف ذاتيّ الوضوح. إنك تستطيع أن تقدّم تأويلا ميتافيزيقياً لسيمفونية بيتهوفن الخامسة أو لقصيدة *Kubla Khan* لـ كولردج Coleridge، وقد يكون تأويلك ذا قيمة في ذاته، لكن لا يحق لك القول بأن ذلك هو ما كان في ذهن بيتهوفن حين ألف السيمفونية الخامسة أو ما كان في ذهن كولردج حين نظم *Kubla Khan*.

2

إذ يشير أرسطو Aristotle في كتابه عن الطبيعة إلى معادلة أفلاطون للمكان بالمادة في الـ *تيمايوس*، يضيف بطريقة عارضة: "صحيح حقاً أن ما يقوله هناك عن 'المشارك' يختلف عما يقوله فيما يسمى بـ 'تعليمه غير المكتوب'." (الطبيعة، 209ب12-15). عبارة *agrapha dogmata* التي تُرجمت في السطور السابقة بـ 'التعليم غير المكتوب' قد نشأ عنها حدس وتخمين بلا نهاية وبطريقة جامحة في كثير من الأحيان. فهذه العبارة، إذ أُجذت مقترنة بما يقوله أفلاطون في الـ *تيمايوس* وفي الرسالة السابعة معارضا وضع أعمق الفكر الفلسفي في نصّ مكتوب، مع إشارات هنا وهناك لمحاضرة لأفلاطون عن الخير، قد قادت مدرسة توبنجن Tübingen school للقول بأن أفلاطون كانت له فلسفة خفية *esoteric* يعلمها لدائرة حصرية محدودة من تلاميذه.

طوال نحو أربعين من سنّ عمره كان أفلاطون يراس مؤسسة تعليمية. من الطبيعي أنه كان يحاضر، يتحدّث، يتحاور، وكان يعتقد جازاً أن الكتابة تُقصر كثيراً جداً عن الكلمة المنطوقة كوسيلة لإيصال أعمق الأفكار. هل يعطينا هذا مبرراً للقول بأن التعليم اللفظي كان مختلفاً في نوعيته عما يمكننا أن

نستمده من الأعمال المكتوبة؟ لو أن كاتبها أو كاتبة، أيريس مردوك Iris Murdoch مثلا أو أمبرتو إيكو Umberto Eco، يعبر عن نفسه أحيانا فى كتابات نظرية وأحيانا فى قالب الرواية أو المسرحية أو الشعر، فهل نتوقع أن نجد فى الأعمال النظرية أفكارا تختلف اختلافا أساسيا عن تلك التى نجدها فى الأعمال الأدبية؟ ولنفرض أن أفلاطون كان يدرّس فى الأكاديمية أشياء استبعدنا عن قصد من أعماله المكتوبة، فإذا لم نكن نملك بيانا واضحا ويمكن الوثوق به عن تلك التعاليم الخفية - ونحن فى الواقع لا نملك مثل هذا البيان - فماذا تجدينا كل مجادلاتنا ومشاحناتنا حول تلك التعاليم الخفية؟ إذا كان البعض يجدون متعة فى ممارسة هذه اللعبة، فلهم أن يفعلوا وهنينا لهم، ولكن ليس لهم أن يدعوا أنهم يضيفون مقال ذرة لفهمنا لأفلاطون أو لفهمنا الفلسفى عامة.

حين يتحدّث أرسطو عن تعليم أفلاطون غير المكتوب فإنى لا أجد فى ذلك أكثر مما قد أجد اليوم إذا ما أشار كاتب إلى مقال لم يُنشر بعد لمفكر معيّن أو إلى رسالة خاصّة تلقّاها الكاتب من ذلك المفكر أو إلى حديث له جرى معه. حين يقول سقراط فى الجمهورية إنه لا يستطيع أن يعطى بيانا عن الخير، إنما يتحدّث عن وليد رمزى للخير، وحين يقول أفلاطون فى الفايديروس (274 ج - 278 ب) وفى الرسالة السابعة (341 ج - د) إن أعمق الرؤى الفلسفية لا يمكن وضعها فى نصّ مكتوب، فإن سقراط وأفلاطون لا يقولان ذلك لأنهما يحتفظان بتلك الرؤى لدائرة محظوظة من المريدين، وإنما لسبب وجيه جدّا يشرحه أفلاطون بوضوح فى كلّ من الفايديروس والرسالة السابعة، ونستطيع أن ننتيحه أيضا من الأدب والجمهورية: تلك الرؤى لا يمكن النطق بها - بأدقّ معنى لهذا التعبير - لأنها تتجاوز قدرات اللغة، وليس ذلك لأى سبب خفى، وإنما لأن تلك الرؤى هى تجربة ذاتية حيّة يجب أن تُعاش. ولتجنّب إساءة الفهم هنا، أضيف ملاحظتين هامشيتين. أولا، رفض القول بأن أفلاطون احتفظ بأعمق الرؤى ليقتصرها على دائرة محدّدة لا يناقض التسليم بواقع كون الحديث الفلسفى لا يلائم كل جمهور. ثانيا، إذا كان موقف أفلاطون يجعل الرؤية الفلسفية تبدو شديدة الشبه بالاستتارة التصوفية، فإن ذلك لا يمكن إنكاره، إلا أن هناك فارقا فى الخطوات المؤنّية للتجربة التصوفية فى كلّ من الحالتين، وكذلك - وهذا أكثر أهميّة - فى التأويل الذى يضيفه كل من المتصوّف والفيلسوف

على التجربة. المتصوّفون عادة يعيرون عن تجربتهم الذاتية بلغة معتقداتهم التقليدية. حين يفعلون ذلك ببساطة ولضرورة التعبير عن تلك التجارب في صياغة لفظية محدّدة، وحين يُنظر إلى ذلك التعبير صراحةً على أنه رمزية شعرية، فلا تُعارض في هذا مع الفلسفة؛ ولكن حين يؤخذ التأويل بحرفيته على أنه صدق، فإن ذلك يشكّل خرافة تستعبد العقل. لهذا يصرّ أفلاطون على أن أية صياغة محدّدة لمبادئ أو نتائج فلسفية لا يمكن أن تكون نهائية، ولهذا يقول أفلاطون بأن الديالكتيك يجب أن يدخر كلّ الافتراضات.

ما جدوى أن نتجادل فيما إذا كان لأفلاطون فلسفة خفية لم يكن يبسطها إلا لأقرب تلاميذه، ما معنا بطبيعة الحال لا نملك أية وسيلة لمعرفة مضمون تلك الفلسفة الخاصة؟ مهما كان اهتمامنا بالمسألة كأحجية تاريخية، فإنني لا أستطيع أن أرى كيف يمكن أن يكون لها مدلول فلسفي، إلا أن يكون مدلولاً سلبياً يقضى بالأناخذ أعمال أفلاطون التي بقيت لنا مأخذ الجدّ. هذا موقف قد يبدو ظاهر المعقولة، إلا أنني أعارضه بهذين الاعتبارين: (1) إننا نملك في محاورات أفلاطون فلسفة لا تبارى عمقا واتساقا وقيمة؛ (2) إن إصرار أفلاطون على أن النصوص المكتوبة بذاتها لا يمكن أن توصل الرؤية الفلسفية لا يتعارض مع هذا ولا ينفيه، إذ أن محاورات أفلاطون لا تعطينا مقولات محدّدة صادقة، إنّما تتيح لنا أن نفحص روحنا وأن نجد الحقيقة والقيمة داخل أنفسنا.

يبنو في الواقع من إشارات أرسطو إلى آراء أفلاطون غير المكتوبة أن هذه الآراء كانت تتعلّق بصورة رئيسية، أو ربّما بأكملها، بمسائل رياضية. فإذا افترضنا أن أفلاطون كان يستبقى الموضوعات عالية التخصص لتدريسها في الأكاديميا، وهذا شيء معقول تماما، فيجوز لنا أن نطرح سؤالين: (1) هل يمكننا أن نحصل على صورة واضحة لتعليم أفلاطون في تلك الموضوعات؟ (2) إن استطعنا ذلك، فهل يؤثر ذلك جذرياً على فهمنا للموقف الفلسفي الذي يمكن أن نستمدّه من الأعمال المكتوبة؟ إذا كانت 'الآراء غير المكتوبة' تتعلّق بالرياضيات أو الفلك أو غير ذلك من التخصصات العلمية، فإن الإجابة على السؤال الأول قد يهتم بها الرياضيون والفلكيون ومؤرخو العلوم. أمّا عن السؤال الثاني فإن إجابتي تكون نفياً قاطعاً. إنني لا أظن أنّ الـ *Principia Mathematica* تلقى بأى ضوء على العمل الفلسفي الخالص لأى من برتراند

رسل Bertrand Russell أو أ. ن. وايتهد A. N. Whitehead. أعرف أن كثيرين سيرون في قولي هذا ليلًا دامغا على جهلي الصارخ. ولكن.

يخبرنا تيلر A. E. Taylor بأنه "كانت هناك في الجيل التالي عدّة صيغ مختلفة من المحاضرة الشهيرة 'عن الخير'، التي يبدو أنها كانت تحوى أصرح بيان لفلسفته الخاصة" (1926, *Plato: The Man and His Work*), (p.503). هل استطاع أحد أبدا أن يستخرج خلاصة واضحة، لا نزاع بشأنها، لذلك البيان الأصرح؟ يمضى تيلر فيقول: "علينا بالتالي أن نكتشف مواقف أفلاطون الميتافيزيقية النهائية من إشارات غير مباشرة عند أرسطو، مدعمة بشنرات قصيرة عبرة، حفظها المعلقون المتأخرون على أعمال أرسطو، من أقوال معاصري أرسطو الأكاديميين، أمثال زينوكرايتيس Xenocrates وهرمودوروس Hermodorus." هكذا فإتنا في تلمسنا المتخبط لجوهر آراء أفلاطون غير المكتوبة ننحدر إلى الاعتماد على ما يقول أريستوكسينوس Aristoxenus، مثلا، إن أرسطو قد قال إن أفلاطون قد قال في محاضراته عن الخير. ومن المفترض أن نعلق كل أملنا في فهم فلسفة أفلاطون على سعينا لاكتشاف ذلك المجهول.

فلسفة أفلاطون، في رأبي، فلسفة تتشربها من المحاورات، وكلّ من تلك المحاورات لها عادة أكثر من مقصد. والفلسفة التي نستمدّها على هذا النحو هي، على ما أرى، تطوير لمبادئ سقراط الفلسفية ولمنظوره. إذا قلنا إن أفلاطون نقل جوهر تلك الفلسفة لتلاميذه في محاضراته بطريقة مختلفة وبأسلوب مختلف، فإن هذا لهما يتفق مع العقل ومع طبائع الأمور. لكنني أؤكد على نقطتين: (1) إن أفلاطون ما كان يعطى، وما كان يمكنه أن يعطى، في محاضراته نظرية نهائية الصياغة لا عن الخير ولا عن أى شيء آخر، فذلك كان ليناقض مفهومه للديالكتيك. إن إدراك الخير، وهذا أسمى غايات التفلسف، لا يمكن أسره في صياغة لفظية سواء كانت مكتوبة أم منطوقة. إنه ليس 'معرفة' بل هو مستوى من الرشد العقلي نبليغه بعون الممارسة الـديالكتيكية على نحو ما بين أفلاطون في المأدبة والجمهورية والرسالة السابعة. وما ذكره أفلاطون في البيروتاجوراس والفاييروس من مأخذ أخرى على النصوص المكتوبة هو على هامش هذا الموقف الأساسي. (2) محاولتنا

لتركيب منظومة فلسفية تمضي لأبعد مما نجده في المحاورات، مستمدة من تخمينات حول تعاليم لم تدون أبدا كتابة ولم يترك شهودها عنها أية شهادة، أي قيمة يمكن أن تكون لمثل هذه المحاولات؟ لنفرض أنه كان بين ماثور الكلام عندنا قول يقول بأن شكسبير Shakespeare كان يرفض من حيث المبدأ أن يدون كتابة ما كان يعدّه أحسن قصائده، وأنه كان يرفض أن يلقيها أمام جمهور كبير، بل كان يُسمعها لخبية مختارة من الأصدقاء المقربين، وأن أولئك الأصدقاء أشاروا أحيانا لتلك القصائد الملهمة، قائلين إنها تختلف عن كل شعره المنشور، لكنهم لم يسجلوا لنا شيئا من محتواها؛ ثم، واحدا بعد واحد رحل أولئك الأصدقاء عن عالمنا. كان ذلك بالطبع قميئا بأن يشكّل إغراء لا يقاوم لعشرات بل مئات من الشعراء لأن يحاولوا إعادة إبداع تلك القصائد الضائعة، ولكن هل كنا عندئذ نعتبر منظوماتهم إبداعات شكسبيرية؟

يقول سقراط في الدفاع "إنني لم أكن أبدا معلما لأحد، لكن إذا أراد أحد، بينما أنا أتحدث مؤذيا مهمتي، أن يسمع، صغيرا كان أم كبيرا، فإنني أبدا لم أبخل بذلك على أحد"، *egô de didaskalos men oudenos pôpote egenomên. ei de tis mou legontos kai ta emautou prattontos oudenî ، eite neôteros eite presbuteros epithumei akouein pôpote ephthonêsa* (33- أ). لم يكن سقراط يرى أي أحد غير جدير بأن يشارك في نقاش فلسفي، وإذا كان أفلاطون في وقت لاحق قد رأى غير هذا، فربما كان ذلك لأنه اقتنع (مسترجعا بمرارة ما شهده من أحوال ألكيباديس⁽⁴⁾) وآخرين) بأن مثل هذه المناقشات، كي تثمر، يجب أن تتواصل، ممتدة عبر فترة طويلة من الزمن، وأن يأتيها من يأتيها بجذبة وحسن نية، وليس لأن هناك شكلا خاصا من المعرفة أو العقيدة لا يجوز أن يتاح لغير الخالصاء. كان أفلاطون

(4) ألكيباديس: (نحو 450 حتى 404 ق.م.)، قائد وسيلسي أثيني، ربيب بريكليس، كان صديقا لسقراط ومن المعجبين به في حملات شديد، إلا أن طموحه السياسي الغلاب حال دون أن يكون بين رفاق سقراط الذين كرسوا أنفسهم للفلسفة. في محاولة للمأدبة يضع أفلاطون على لسنته صورة نهضة بالحياة لسقراط في سمته الشخصية وسلوكياته. كتبت مسيرة حياة ألكيباديس عاصفة، وكتبت كارتونية بالنسبة لمدينة أثينا وبالذمة لشخصه، وانتهت حياته بان اغتيل في فرجيا (مملكة قديمة، موقعها في منطقة الأناضول في تركيا الحديثة).

يعرف أن الرؤية الفلسفية "ضوء يتقد فجأة كلَّما من شرارة وثَّابة" - ضوء لا يمكن لأى كلمات محدَّدة أن تمثِّله. الكلمات، مكتوبة كانت أم منطوقة، لا يمكنها أن تفعل أكثر من أن تساعد على إطلاق الشرارة. لهذا كان التفاعل المتواصل مع عقل عظيم ضروريا للوصول إلى الرؤية الفلسفية.

إذا كان أفلاطون قد أوصانا بالا نأخذ أى نص مكتوب بجديَّة أكثر مما ينبغى، فإن هذه الوصية ينبغى أن تطبَّق على ذلك النصِّ نفسه الذى يحوى تلك الوصية. لقد ظل أفلاطون يمارس الكتابة فى نشاط منذ شبابه حتى آخر عمره. كان يكتب، من ناحية، لمتعته الخاصة، وكان يكتب، من ناحية أخرى، ليمتع قراءه. لكن ذلك لم يكن كل ما فى الأمر. كانت كتاباته جادَّة، وكانت عميقة، وكانت حيويَّة، وكان يراد لها أن تكون كل ذلك. هل كان هناك 'صدق' فلسفى فوق وفيما وراء ما كانت تلك الكتابات تحويه؟ ليمضِ أولئك الذين يعتقدون هذا فى بحثهم عن ذلك السرِّ الخفى. فى رأى أن أفلاطون كان يعتقد أن 'الصدق' الفلسفى لا يمكن إيصاله فى أى صياغة لفظيَّة محدَّدة، سواء كانت مكتوبة أم منطوقة. البصيرة الفلسفية تُكتسب عن طريق امتحان الذات بمعاونة الحوار العقلانى، وكل كتابات أفلاطون لم تكن غير حوار كهذا، يهدف إلى مساعدة قرائه، سعيًا إلى امتحان الذات وإلى البصيرة الفلسفية. إن تحذير أفلاطون لنا من أن نأخذ أى نص مكتوب بجديَّة أكثر مما ينبغى كان تحذيرا لنا من أن نأخذ أى صياغة لفظيَّة محدَّدة على اعتبار أنها تحوى 'صدقا' محدَّدا، نهائيا. وهذا هو نفس الدرس الذى تلقاه فى المفهوم الأفلاطونى للدialektik.

لم يكن أفلاطون نفسه ليزعم لأعماله المكتوبة أنها يمكن أن تحلَّ محل الحوار الحى. أما بالنسبة لنا فإنها تحقِّق ذلك إن قوربت بتوجِّه صحيح وأخذت فى ضوء كل تحذيرات أفلاطون وتوضيحاته. إن قوربت بتوجِّه صحيح فإنها تمكننا من أن ندخل فى حوار مع أفلاطون، وأهمَّ من ذلك، فى حوار مع أنفسنا. وبالتأكيد فإن حوارا مع أفلاطون، حتى وإن يكن عن طريق الكلمة المطبوعة، لهو أرفع بكثير من حوار وجهها لوجه مع كثيرين من أساتذة الفلسفة المعاصرين. حتى فى يومنا هذا، فإن أفلاطون يظلُّ أفضل مدرسة للفلسفة، الأفضل على الإطلاق.

أذكر حكاية حكاها لنا أبى حين كنت صبيًا. ذهب دعى إلى مجلس الخليفة، زاعما أنه عالم حكيم. أمر الخليفة بأن يخضع الرجل لامتحان يجريه حكيم القصر. واتفق على أن يأخذ الامتحان هيئة حوار بلغة الإشارة. وقف الرجلان وجها لوجه. أشار حكيم القصر بالإصبع السبابة، فأشار الآخر بإصبعين. أشار الحكيم بإصبعه لأعلى، فأشار الآخر بإصبعه لأسفل. أظهر الحكيم بيضة دجاجة، فأظهر الدعى كتكوتا حيا. عندئذ طلب من الزائر الدعى أن يتخى، وسأل الخليفة حكيم القصر أن يدلى بشهادته. أثنى حكيم القصر على الرجل ثناء عاظرا، وقال إنه حقًا علامة حكيم، ثم أوضح قائلا: "لقد امتحنته فى اللاهوت. قلت له: 'الله واحد' فأجابنى: 'لا ثانى له'. قلت له: 'خلق السموات' فردّ قائلا: 'والأرض'. قلت له: 'يُخرج الميت من الحى' فأضاف: 'والحى من الميت'. عندئذ تتخى حكيم القصر وأدخل مدعى الحكمة. سأله الخليفة: "ما قولك فى حكيمنا؟" فأجاب الرجل: "إنه وعد وفتح، لكنى رددت له الصاع صاعين". تساءل الخليفة: "كيف؟" فأجاب الرجل: "قال لى: 'سأحرق لك عينك' فقلت له: 'سأحرق لك الاثنتين'. قال لى: 'سأطبخ بك عاليا' فأجبته: 'أنا سأطرحك أرضا'. قال لى: 'سأجعلك تبيض بيضا' فرددت عليه: 'أنا سأجعلك تقفسه'. — لم يكن أى الرجلين على صواب، ولم يكن أيهما مخطئا، بل نضح كل إبناء بما فيه.

هكذا، لكلّ منا أفلاطونه. فى الصفحات التالية أقدم أفلاطونى الخاص. لا أطلب أحدا بأن يشهد لى بانى على صواب، لكن لا يحق لأحد القول بانى على خطأ. كل ما له أن يقول هو ما إذا كان أفلاطون الذى أقّمه ذا قيمة أو بلا قيمة. "استمعوا إذن إلى حلمى، إن يكن جاء من البوابة القرنيّة أو جاء من البوابة العالجيّة" *eite dia keratôn eite di' akoue dê to emon onar elephantos eléluthen*, الداخارمنيس، 173-أ.

الباب الأول

البصيرة السقراطية

الفصل الأول

الصور المعقولة⁽⁵⁾

تقديم

إن سألت شخصا ليس له سوى إلمام يسير بالفلسفة: "ما أشهر ما يشتهر به أفلاطون؟" فإنه على الأرجح سيجيبك دون تردد: "نظرية المُثُل (الصور)". لكنك إن سألت أي عدد من الفلاسفة المحترفين أن يعطوك بيانا عن تلك النظرية، لما وجدت الكثير من التوافق بين إجاباتهم.

بينما ينسب بعض الباحثين (مثل بيرنيت Burnet و A. E. تيلر Taylor) لسقراط 'النظرية' حسبا تبدو مكتملة النضج، كما يزعمون، في محاورات⁽⁶⁾ الفترة الوسطى ويجدون الدلائل عليها وقيرة في المحاورات الباكراة، وبينما يؤكد بيرنيت Burnet أن 'النظرية' تغيب عن المحاورات 'الأفلاطونية المتميزة' (Ch. IX، Sect. 119) فإن آخرين (مثل ريتشارد كراوت Richard Kraut) يقررون أن 'نظرية المُثُل (الصور)' تظهر أول ما تظهر في محاورات الفترة

(5) من المؤسف أن الاستخدام الشائع لكلمة 'معقول' قد أضعف مدلولها كثيرا. والكلمة محورية في فلسفة سقراط - أفلاطون ولا غنى عنها، فُرجو أن يأخذها القارئ دائما بالمعنى الاصطلاحي السقراطي الذي أعل على توضيحه في هذا الفصل.

(6) يصادف القارئ على امتداد الكتاب عبارات 'المحاورات'، 'المحاورات السقراطية'، 'الحوار السقراطي'، ويحسن أن تميز بين هذه الصيغ الثلاث في هذا الموضوع، فهذه ليست بدائل أو مترادفات. 'المحاورات' تشير إلى كل أعمال أفلاطون التي وصلت إلينا، ومحتملها في صورة محاورات درامية (انظر الملحق 2). 'المحاورات السقراطية' تشير لمحاورات الفترة الباكراة، وهي الأقرب لأن تمثل فكر سقراط وطريقته، تمييزا لها عن محاورات الفترة الوسطى والفترة المتأخرة، التي يُحتمل أن يكون فيها الكثير مما أضافه أفلاطون. عبارة 'الحوار السقراطي' تعني طريقة سقراط في الحوار، التي يطلق عليها *Socratic elenchus*، وكلمة *elenchus* تعني النحض أو التنفيذ، لكني أرى أن هذا الوصف يحمل في طياته كثيرا من إساءة الفهم لحقيقة الطريقة السقراطية، لذا رأيت أن أتجنبه في الترجمة.

الوسطى، وعلى الأخص في الدفايدون. *The Cambridge Companion*
"The intellectual ، ch.2، 1992، ed. Richard Kraut، to Plato
"background"، p.72). كلتا النظرتين، في رأبي، غير وافيتين.

فكرة الصور (المفاهيم) المعقولة هي أساس كل فكر سقراط وهي دعامة الحوار السقراطي. إذا كنا نجد في الدفايدون يقول: "بيدو لي أنه، إذا كان هناك ما هو جميل غير الجمال في ذاته، فإنه لا يكون جميلا لسبب غير أنه يشارك *metechei* في ذلك الجمال" (100 ج)، فما تلك إلا تنويعا أخرى من التنويعات اللفظية التي لا يكف أفلاطون عن التجريب فيها إذ يحاول أن يجعل اللغة المحدودة - التي يعثورها النقص بالضرورة - تعبر عن السرّ *mystery* غير المحدود لحلول الحقيقة فيما هو جوهريا غير حقيقي. في الديونثيفرون نجد صياغة واضحة تماما لمفهوم الصورة المعقولة بنفس العبارات المستخدمة في الدفايدون: "صورة واحدة للثقوى" *mian tina idean* (5 د)، "تلك الصورة في ذاتها التي بها يكون كل ما هو ثقيّ ثقيّا" *ekeino auto to eidos hoi* (6 د). في الدهيباس الكبرى يطرح سقراط السؤال: "ليست كل الأشياء الجميلة جميلة بالجمال؟" (287 ج - د).

من ناحية أخرى فإن المفهوم السقراطي للصور المعقولة كان أساسيا للمنظور الأفلاطوني بكامله وسأحاول أن أبين أننا نجد هذا المفهوم مستقرا راسخا في كل المحاورات المتأخرة حتى القوانين، تماما مثلما في الدفايدون أو أي من المحاورات المبكرة.

على هذا فإني إذا سنتت عما إذا كان لأفلاطون 'نظرية' في المثل (الصور) فإني أجب بـ كلا. أفلاطون استوعب تماما المفهوم السقراطي للصور المعقولة: على امتداد حياته كان ذلك المفهوم محوريا لكل فكره وكان أساسا لكل منظوره لمعنى الحياة والحقيقة. ومنذ وقت باكر في مسيرته وحتى آخر عمره ظلّ يجرب مقاربات وصياغات لعلها تلقى ضوئا على مسألة موقف موجودات عالم المحسوس المتعددة من عالم المعقول. لكنه لم ينظر أبدا لأي من تلك الصياغات باعتبارها أكثر من خدوة معقولة. لم تكن له أبدا 'نظرية مثل' مكتملة ولم يحاول أبدا أن يثبت أو يبرهن على صدق أي من تلك الصياغات. أعرف أني إذ أقول هذا فإني أتقدم بدعاوى شديدة الجراءة. سأحاول فيما يلي أن

أبيّن: (1) أنّ مفهوم الصور كان أساسيًا في فكر سقراط؛ (2) أنّ المفهوم جليّ في المحاورات الباكرة؛ (3) أنّ المفهوم ظلّ منبثقًا في أعمال أفلاطون حتى النهاية؛ (4) أنّه أبدا لم يقدّم، ولا ادّعى أنّ عنده، نظرية متكاملة للمثل (الصور).

عالم المعقول

من المستحيل أن نفصل أيّ وجه من وجوه فكر سقراط عن موقفه الأخلاقي، إذ أنّ سقراط كان رجلا بلغ عنده اتّحاد الفكر والحياة الشخصية حدّ الكمال. ويمكن تلخيص موقفه الأخلاقي فيما يلي: فلاح *eudaimonia* الكائن الإنساني يكمن في تحقّق الميزة *aretê* الخاصّة للكائن الإنساني؛ والميزة الخاصّة للكائن الإنساني هي العقل *phronêsis nous*. أن يحيا الشخص ككائن عاقل يعني أن تقوده في حياته أفكار ومثّل يلدها العقل. هذه الأفكار والمثّل لا توجد في أيّ مكان من عالم الطبيعة. إنها تنبع من العقل ⁽⁷⁾ *psychê*. تلك هي الصور المعقولة *noêta eidê* التي ينبغى لكلّ كائن إنساني أن يمتحنها، أن يفهمها، أن يخلّصها من درن ما أهيل عليها من افتراضات لا فكر فيها. ذلك ما كان مقصودا أن يفعله الحوار السقراطي.

رغم أنه من المتوقّع أن شابًا بمثل ملكات سقراط ينشأ وسط الفوران الفكري والروحي الذي اتّسم به منتصف القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد الإغريق، لا بدّ وأن يكون قد أسره لبعض الوقت سحر المباحث الطبيعية التي كانت تتوالى من كل جانب، إلا أنّه يبدو من 'السيرة الذاتية' في *الفايدون* (95-102) أنّ سقراط سرعان ما تخلّى عن تلك المباحث، ليس فقط بسبب افتقار تلك الدراسات لليقين (كما قد يفهم من ظاهر رواية *الفايدون*)، وإنما أيضا لأن اهتمامات سقراط الحقّة كانت ذات منحى آخر. كان سقراط معنيًا في المكان

(7) أترجم هذه الكلمة اليونانية عادة بـ الروح، لكن في المصطلح الأفلاطوني كثيرا ما يكون الأقرب للنقطة أن تترجم بـ العقل وأحيانا بـ الذات. وقد استخدم فلاسفة العرب كلمة النفس، لكن هذه الكلمة مشبعة بالمفهوم القرآني للنفس، وهو مختلف عن المفهوم السقراطي/الأفلاطوني للروح، لذا رأيت من غير المناسب استخدام لفظ النفس في هذا السياق.

الأول بالحياة الأخلاقية – أو بتعبير أفضل لأنه أشمل – بالحياة الروحية للإنسان.

كان سقراط يرى في وضوح أنه بفضل مفاهيم الشرف والبسالة والوفاء والأتزان وما إليها يكون الإنسان إنسانا؛ كان يرى أنه فقط بالعيش تحت حكم مثل هذه المفاهيم وفي ضوء العقل يحيا الإنسان الحياة الإنسانية المتميزة. وحيث أنه كان يرى أيضا أن كل كرامتنا وكل قيمتنا تكمن في أن نحيا الحياة الخاصة بالكائنات الإنسانية، فقد رأى أن رسالة حياته هي أن يمتحن هو نفسه تلك الأفكار وأن يحدث الآخرين على امتحانها.

في مخاطبته للمحكمة التي قضت بإعدامه يعلن سقراط صراحة أنه يعتبر رسالته أن يمتحن الآخرين وفي امتحانه للآخرين يمتحن نفسه، وأن "أعظم خير للإنسان هو أن يكون حديثه كل يوم عن الفضيلة وعن الأشياء الأخرى التي كنتم تسمعونني أتحدث عنها، إذ أمتحن نفسي وأمتحن الآخرين، فالحياة غير الممحصنة ليست حياة لإنسان" (النداء، 38 أ).

مقولة الصدق الوحيدة التي عاش سقراط بها، وعاش لأجلها، ومات في سبيلها هي أن الكائن الإنساني إنسان بفضل عقله أو فكره أو روحه — سمّه *psychê nous+phronêsis* أو ما شئت. تلك القوة الواحدة هي ما يعطى الحياة الإنسانية معناها وقيمتها، ورعاية تلك القوة ينبغي أن تكون شاغلنا الأول في الحياة. ويتبع من هذا أننا نحيا حياتنا الإنسانية المتميزة في عالم من أفكار تزودنا بها تلك القوة، أن تكون إنسانا يعني أن تحيا — بمعنى الكلمة تماما — في عالم من المفاهيم والمثل والقيم والأحلام (صادقة أم زائفة).

الصور

تلك الصور (المفاهيم) هي عند سقراط وكذلك عند أفلاطون كل ما يهّم وكل ما نعرف. حينما نطلق على عدة أشياء اسما واحدا فذلك لأن العقل يصفى صورة معينة على تلك الأشياء. تلك الصور هي ما نعرف وتلك الصور هي ما يعُرف عالمنا الإنساني المتميز. في محاورات أفلاطون يشار إلى مثل هذه الصورة بأى من الكلمات *ousia*، *idea*، *eidos*، *auto to*، دون تفرقة.

كثير من المحاورات الباكورة لها نمط مشترك. في معرض حديث عابر يأتي ذكر إحدى الفضائل، أو يتحايل سقراط ليأتي اللفظ وكأنه جاء عَرَضاً: في السخارمنيس نجد الأتزان، في اللاخيس الشجاعة، في البيوثيفرون التقوى. يمسك سقراط بتلابيب اللفظ ويعلن أنه يرغب في أن يفهم، بعون محدثه، كنه تلك الفضيلة في ذاتها.

حين يأتي السؤال فإنه يُطرح في صورة بسيطة ومباشرة: "أخبرني ما هو الأتزان في قولك" (خارمنيس، 159 أ). "لنحاول أولاً أن نقول ما هي الشجاعة" (لاخيس، 190 د). "أخبرني ما هي في قولك التقوى وما اللاتقوى" (بيوثيفرون، 5 د). وحين يفشل رفيق الحوار (كما يحدث عادة) في أن يفهم المقصد الحق لسؤال سقراط، فيجيب بأن يعطى أمثلة من الفضيلة المعنية، فإن سقراط يجتهد في أن يوضح أنه لا يطلب مثالا ولا قائمة من أمثلة، بل يطلب ذات الـ ... *auto to*، المفهوم في ذاته، الصورة الواحدة، الـ ⁽⁸⁾ *idea* (بيوثيفرون، 5 د). هكذا يقول لـ بيوثيفرون: "تذكر أن ليس هذا ما طلبت منك، أن تعطيني مثالا أو مثالين من حالات التقوى العديدة، بل أن تعطيني ذات تلك الصورة *auto to eidos* التي بها تكون كل تقوى تقوى" (6 د). هكذا يوضح سقراط ما يسعى إليه حين يطرح سؤالا كهذا: هو يريد الوصول إلى ذلك الذي يعطى الشيء صورته *eidos*. "ليس بالعدل يكون العادل عادلا؟" (هيبياس الكبرى، 287 ج).

تلك البحث عن صورة معقولة، مُمَيَّزة عن الحالات التي تتمثل فيها، والتوكيد على الأسبقية المنطقية والقيمية للصورة المعقولة الواحدة على الموجودات العديدة، ذلك هو لب كل فكر سقراط وذلك هو إسهامه الباقي للفكر الإنساني. وذلك يشكّل محور مثالية أفلاطون وهو منشأ ما أصبح يُعرف بنظرية المثل (الصور).

(8) كلمة *idea* اليونانية، وهي غير الكلمة الإنجليزية 'idea'، يستخدما أفلاطون مرانفا لكلمة *eidos*، وكلتاها تعني الشكل أو الهيئة، أو ما اصطلح على تسميته في فلسفة أفلاطون بالصورة.

في حديثنا نستخدم كلمات مثل خَيْر، ردىء، عدل، شجاع، مساو، صغير، كبير. ليس من الممكن أن نفكر أو أن نتواصل بدون مثل هذه الرموز الدالة على الصور العامة. يقول لنا أرسطو Aristotle إننا نحصل على مفاهيمنا العامة بالتجريد من الأشياء التي نلقاها في تجربتنا. لكن، ما هو التجريد حقاً؟ ألف شجرة نراها الواحدة بعد الأخرى أو نراها الواحدة بجانب الأخرى تبقى ألف انطباع منفصل أو انطباعاً واحداً جامعاً. فقط عندما يخلق العقل الصورة 'شجرة' وعندما يقول: 'ساعدو ذلك الشيء شجرة'، عندئذ فقط تصبح الشجرة شجرة.

كذلك، أرى أشياء عديدة، صغيرة وكبيرة. لكن لا شيء في ذاته هو صغير أو كبير. لا شيء في تجربتي المباشرة هو صغير أو كبير. ليس كافياً أن أرى ألف أو مليون شيء صغير لأكون مفهوم الـ 'صغير'، فلا شيء مما أراه هو صغير حقاً حتى أسميه صغيراً! لا شيء هو صغير أو كبير حتى أخلق التمييز بين 'صغير' و 'كبير'. هذا ينطبق على كل صورة، على كل اسم. يخلق العقل صورة بفعلها يتحول المعطى في التجربة إلى معنى.

في الجمهورية يقول سقراط إننا نفترض صورة *eidos* حيثما نطلق اسماً واحداً على أشياء عديدة (596 أ). كما قيل لنا مراراً، نجد من ناحية عديدة من الأشياء الجميلة وعديداً من الأشياء الخيرة، ومن ناحية أخرى نجد الجميل في ذاته والخير في ذاته، كل منهما صورة *idea* مفردة، كيان واحد، ذاك الذي هو كائن. هكذا نقرأ في الدافيدون: "هلا افترضنا إذن ... نوعين من الكائنات، المرئي من ناحية، واللامرئي من ناحية أخرى؟" *thômen oun ... duo* (كلمة *eidê* (79 أ) *ta de aides; to men horaton eidê tôn ontôn* (صيغة جمع *eidos*) في هذا النص بالطبع تعني ببساطة 'أنواعاً' لا 'صوراً' بالمعنى الأفلاطوني). والصور غير المحسوسة هي "*ho estin*" ذلك الذي هو كائن، ذلك الذي هو حقيقي. عند أفلاطون "*ho estin*"، ذلك الذي هو كائن، هو المعقول ولا شيء غير المعقول. مراراً وتكراراً في المحاورات نجده يستخدم *ho estin; to on ousia* كترادفات؛ نجده أحياناً في نفس الفقرة أو حتى في نفس الجملة يستخدم أحد هذه الألفاظ ثم الآخر كمرادف تام له. في الفقرة الشهيرة من الدافيدون (78 د) نجد مثلاً بارزاً لذلك.

رأى سقراط فى وضوح أن الصور التى هى شرط لإمكانية الحوار لا توجد فى العالم الموضوعى، لا تأتىنا من خارجنا، إنما تولد فى العقل. كل عمل سقراط طوال حياته لا يكون له معنى فى انفصال عن هذا، وسواء نسبنا 'عقيدة' التذكّر anamnesis لسقراط أم لأفلاطون، فإنها كانت تعبيراً أسطورياً رائعاً عن البصيرة القائلة بأن كل فهم هو ازدهار للروح (العقل). المغزى الذى هو لبّ 'عقيدة' التذكّر هو لولوية الصور المعقولة للفهم.

القول بأن المفاهيم هى من خلق العقل لا يعنى أنها اختلاقات fictions اعتبارية: إنها أطر معنوية فيها وبها وحدها تصبح أشياء العالم ذات معنى. طرح پارمنيديس Parmenides لنفسه مشكلة الحقيقة. عادل بين الحقيقة والكمال. ما هو حقيقى تماماً يجب أن يكون تاماً. المحدود، المحدد، المتحوّل، تلك كلها بطريقة أو بأخرى تقصر عن الكمال. كلها تصرخ تطلب شيئاً يتجاوز كينونتها. كينونتها الناقصة لا تفسر ذاتها. كلها غير معقولة. لا يمكن أن تكون حقيقية. فقط ما هو كل، ما هو غنى بذاته، يمكن أن يكون حقيقياً ومعقولاً. إذ نجعل الحقيقة تعادل الكمال نجعلها أيضاً تعادل المعقولة. ما هو حقيقى وحده معقول وما هو معقول وحده حقيقى. كل هذه الأفكار ليست 'طبيعية'، لا يساندها شيء من معطيات تجربتنا ولا هى مستمدة من أى شيء من معطيات تجربتنا. كلها دعوى، أوامر علوية من عقل خلاق لا يعرف قانوناً غير كلمته هو نفسه. ومع ذلك فإن هذه المعادلات رأها المفكرون، من أنسيلم Anselm حتى ديكارت Descartes، وبديهية، وأوها ملزمة للحقيقة.

السببية السقراطية

فى فقرة 'المسيرة الذاتية' من الفايبنون (95-102)، يميّز سقراط بين نوعين من التفسير — تمييزاً جذرياً وحيويًا يبدو لى أن المفكرين الذين جاؤوا بعد سقراط لم يستوعبوه بدرجة كافية. من ناحية هناك التفسير الطبيعى (الفيزيقي). هذا هو التفسير بـ 'الأسباب' الطبيعية، وهو المنهج الذى تختص به العلوم والذى لا أجدنى محتاجاً لأن أصفه أو أشرحه؛ إنه المنهج الذى منحنا كل المعارف التى نملكها الآن وكل منجزاتنا التكنولوجية. هذا المنهج بلغ من النجاح ما يجعله صعباً علينا أن ندرك أن من الممكن أن يكون هناك منهج آخر. ولكن،

كما رأى سقراط في وضوح، فإن هذا المنهج يمكن أن يعطينا معرفة واقعية مفيدة ويعطينا قدرة على التحكم في قوى الطبيعة، لكنه لا يعطينا فهماً.

أراد سقراط توجيهنا المعقولة، ووجد ذلك في المفهوم الخالص. في ضوء المفهوم، الذي هو من خلق العقل، يضيء الشيء في الوضوح الذاتي لحقيقته. هكذا فإن مفهوم الجمال، مثال الجمال، هو ما يفسر جمال الأشياء الجميلة المحددة. حين يكون مثال الجمال حقيقة عند شخص ما، عندئذ يستطيع ذلك الشخص أن يجد الجمال في الأشياء. إن شخصاً لا يكون مفهوم العدل حقيقة عنده لا يمكن أبداً أن يفهم جاره الأمين الذي يرفض أن يستغل ميزة له على آخر حين يكون في مقدوره أن يفعل ذلك وهو آمن. هكذا يصرّ سقراط على أن التفسير الفلسفي (أي الفهم الذي يختلف عن معرفة الواقع) لا يتحقق إلا باستيعاب المفهوم البسيط الخالص. يشرح سقراط الفرق بين المنهجين بمثال ناصع. ما هو يقع في سجنه منتظراً تنفيذ حكم الإعدام فيه. يمكن لعالم أن يعطينا بياناً عن وضعه وهينته بأن يحدثنا عن العضلات والأعصاب، عن العظام والمفاصل، وعن آليات الحركة المتعلقة بها. لكن ذلك لن⁽⁹⁾ يتيح لنا أن نفهم لماذا يبقى في سجنه بائئناً، ينتظر الموت مستكيناً، بدلاً من أن ننعم بالأمان في مدينة أخرى كان أصدقاؤه قد أعدوا العدة لنقله إليها. إن مفاهيمه عن الحقّ

(9) في هذا الكتاب، وفي كثير من كتاباتي الأخرى، أركز كثيراً على حدود العلم الموضوعي. حين كتبت الأصل باللغة الإنجليزية، كنت أخطب حضرة جعلت من العلم ديناً، ولم يكن ثمة خوف من أن يكون موقفي مشجعاً على بئد أو اهمال العلم. لكنني الآن أخطب من هم في أمن الحاجة للعلوم الموضوعية. العلوم الموضوعية الحديثة بالنسبة لنا ضرورة حياة، وأستخدم عبارة 'العلوم الموضوعية الحديثة' لأن لفظ 'العلم' عندنا معرض لأن يفهم فهماً مغلوطاً. إننا لسنا بحاجة فحسب لمجزات العلم، إنما نحن أكثر حاجة لاكتساب العقلية العلمية ومنهج التفكير العلمي. ولا يتسع المجال هنا لتكرار ما أردت أن أقول بجديتي عن حدود العلم، ولكنني أريد أن أؤكد أن نقدي لموقف الفلاسفة المحدثين من العلم ليس أبداً مناهضة للعلم. إذا أردنا معالجة مشاكلنا الحياتية فلا سبيل غير العلم. إذا أردنا أن نبحت في نشأة الكون أو نشأة الحياة أو حتى نشأة العقل ونشأة الأخلاق، فالعلم الموضوعي وحده هو الذي يعطينا بيانا بالمرحل والخطوات التي مرّ بها الكون والحياة والعقل والأخلاق حتى صار كل هذا إلى ما هو عليه الآن. أكرّر: العلم ولا شيء غير العلم يعطينا هذه المعرفة الموضوعية. لكنني في نقدي للعلم أقول إن العلماء يخطئون حين يزعمون أن وصف سيورة الشيء يمنحنا فهم ماهية الشيء. وأقف عند هذا وإلا وجبتي أعيد كتابة كل ما كتبت من قبل.

وعن الشرف هي التي تفتخر بقاءه هناك ليموت بدلاً من أن يهرب (98 ج - 199).

يمضى سقراط فيقول إنه حين وجد أن البحث في أشياء الطبيعة لا ينتج عنه الفهم الذي يطلبه، قرّر أن يلجأ إلى التفكير العقلاني ليفحص هناك حقيقة الكائنات *eis tous logous kataphugonta en ekeinois skopein tôn ontôn tèn alêtheian* (99 هـ). قرّر أن يطرح في كل حالة فكرة *hupothemenos hekastotes logon* تكون في تقديره ذات فعالية، وكل ما يجده متوائماً مع تلك الفكرة يعتبره صحيحاً، وما لا يتواءم معها يعتبره غير صحيح (100 أ).

ما يقوله سقراط بعد هذا عظيم الدلالة. حين يحاول أن يوضح ما يعنيه بالسعي إلى الحقيقي في الـ *logoi* (الأفكار، المفاهيم)، يقول إنه لم يأت بشيء جديد فيما قاله توّاً، بل هو ما كان يقوله دوماً وهو نفس ما قاله في الجزء السابق من حديثهم؛ وإنه كي يشرح نوع الأسباب التي يقترحها، عليه أن يعود إلى حديثه المعتاد ويقرّر أن هناك الجميل في ذاته، والخير، والكبير، وما إلى هذه المفاهيم (100 ب). يجب أن يكون واضحاً من هذا أن ما يُسمى بالطريقة الفرضية ومفهوم الصور المعقولة يشكّلان وحدة متكاملة وأنهما، على الأقل بالنسبة لسقراط، لا ينفصلان.

على الرغم من أن سقراط يبدو كأنما يطرح منهجه في البحث عن طريق الافتراضات باعتباره بديلاً لجأ إليه على مضض حين ينس من السعي إلى منهج للتفسير على أساس مبدئي العقل والخير، فإننا لن نخطئ إذا اعتبرنا هذا القول حيلة أدبية لا أكثر. يتكوّن المنهج من عنصرين مترابطين ترابطاً عضوياً: نهج ومبدأ. يتلخص النهج في طرح فكرة وفحص مضامينها. مسار البحث كله لا ينطوي على شيء غير المفاهيم؛ وذلك بالضبط هو المبدأ. كل 'معرفة' حقّة (المعرفة الفلسفية، الفهم) تبدأ وتنتهي في العقل وفي العقل وحده. لمنا نعرف أي أسباب *aitiai* حقيقية في انفصال عن العقل. "خطر لي أني يجب أن أطلب الملاذ في الـ *logoi* (الأفكار، المفاهيم) وهناك أسعى لحقيقة *alêtheia* الأشياء" (99 ج - هـ).

الفكرة، الـ *logos*، وما يبدو أنه يتواءم معها (100 أ)؛ هذا هو منهج الفلسفة؛ لا دليل برهائياً *demonstrative proof*، لا استنتاج قياسي *syillogistic inference*، إلا كعناية ثانوية، ولا بيئة خارجية (موضوعية)

external evidence. هذا كل الفلسفة كما فهمها سقراط وكما ينبغي، في رأيي، أن نفهمها. إذا حاد بنا استخدام أفلاطون لمصطلح 'الافتراض' في الدقائيق وفي الجمهورية إلى النظر إلى فكرة الصور السقراطية (أو حتى 'النظرية' الأفلاطونية) باعتبارها فرضية كما تفهم الفرضية في العلوم الطبيعية، فإنا سنفتقل تماما في فهم فكر سقراط.

حين يتحدّث 'سقراط' في الجمهورية (510 ج - د) عن افتراض العدد الفردى والعدد الزوجى وثلاثة أنواع الزوايا، ينبغي أن يكون واضحا لنا من هذا أن أفلاطون حين يتحدّث عن تقديم الفرضيات، فإنه يعنى تقديم مفاهيم تؤخذ، في مجال الغرض الذى نكون بصنده، باعتبارها ذاتية الوضوح. فإذا ما أردنا فحص هذه المفاهيم فإننا نحتاج مفاهيم أخرى تؤخذ بدورها على أنها معقولة فى ذاتها وتُقبل دون مساءلة. وهكذا، فى كل مجالات الفكر الأعلى، ننقل دائما من مفاهيم، عبر مفاهيم، إلى مفاهيم، فى منظومة متكاملة ذاتيا، أحقيتها فى أن تُعدّ صائبة تنحصر فى معقوليتها. لا مجال هنا للتطابق أو التوافق مع أى شىء خارج منظومة المفاهيم. وهكذا فحين 'يفترض' سقراط الصور، فإنه لا يقترح 'فرضية' تتطلب التحقق من واقعيتها أو صوابها، إنما يقدم مفهوما إبداعيا يطلب تطبيقه وتطويره. وعلى هذا النحو أيضا، حين يعطينا سبينوزا Spinoza كتابه الأخلاق 'مدعوما بالبرهان الهندسى'، ويقدم له بتعريفاته الثمانية، فإنه يقدم مفاهيم إبداعية تحمل فى جوفها كل جوهر فلسفته، ويمكنه أن يلعب لعبة 'استنتاج' و'برهنة' كل مقولاته لأنها محتواة مسبقا فى 'التعريفات'.

حين ينطلق سقراط من فرضية أن كل مفهوم (صورة) هو شىء ما، فإنه، فى رأيي، لا يعنى أن المفهوم 'موجود'، بل يعنى أن المفهوم هو كينونة *ousia* معقولة. عند سقراط، كل شىء هو ما هو أو يصير ما هو بفعل الصورة. حقيقة الصورة، معقولية الصورة، تجعل الشىء ما هو. فإذا ما مضينا لتطور صيغة 'بفعل الصورة' إلى صيغة 'بالاشتراك فى الصورة'، 'بالمشاركة فى الصورة'، 'بتواجد الصورة'، إلخ، كما يفعل أفلاطون، فكل هذا ليس إلا مجازا وأمثولة وأسلوبا فى التعبير، حتى وإن كنا ننحو أحيانا (مع أفلاطون) لأن نأخذ المجاز بحرفية، لأن التمثيل البصرى أسهل استيعابا من المعنى المجرد.

لهذا حين يقول سقراط مثلا: *hégoumetha ti ton thanaton einai* (فاينون 64 ج)، فإن هذه العبارة لا يمكن أن تعنى: "هل نعتقد أن الموت شيء موجود؟"، لأن هذا يكون قولاً مبتذلاً إلا إذا أخذناه بمعنى متعمق بشكل خاص وهو غير مقصود عند هذه النقطة. السؤال إذا أخذناه أخذاً سليماً يعنى: "عندنا فكرة محدّدة عن الموت، اليس كذلك؟"، أو "اليس لمعنى كلمة الموت معنى محدّد عندنا؟" ينبغى أن يساعدنا هذا على أن نرى أن سقراط حين يسأل، مثلا، فى مجال آخر: "هل نقول بأن هناك شيء هو العدل؟"، فإن هذا لا يجب أن يؤخذ بمعنى أن مفهوم العدل 'موجود' أو أنه شيء وإنما يعنى أن عندنا مفهوم العدل، أن العدل له معنى عندنا.

الحوار السقراطى (10)

فى كل المحاورات المعروفة بمحاورات التعريف، نشرع فى البحث عن معنى صورة (مفهوم) ما، وتخييب كل محاولتنا للتعريف. نجد المرّة تلو المرّة إذ نحاول أن نحدّد طبيعة إحدى الفضائل أو أحد المُثل أننا لا نستطيع أن نحدّد تلك الطبيعة بصفات من خارج المفهوم ذاته. المفهوم هو الحقيقة النهائية التى يجب أن نقف عندها. فى *الهيبياس الكبيرى* نبدأ بالسؤال: ما الجمال؟ — لا نسأل: أى الأشياء جميلة، كما فهم هيبياس من السؤال، إنما نسأل: ما ذلك الذى به تكون كل الأشياء الجميلة جميلة؟ وننتهى بالقول: إنه بالجمال تكون الأشياء الجميلة جميلة. وفى *الفاينون* يقول سقراط صراحة ومؤكّداً أن تلك هى الإجابة الوحيدة الممكنة والسليمة فلسفياً. تلك الصور، تلك المفاهيم، هى المبادئ الأولى للفهم.

(10) يشار إليه عادة بـ *Socratic elenchus*. يُعرّف المعجم الكلمة اليونانية *elenchos* هكذا: "استجواب أو اختبار بغرض الدحض أو التنفيذ". وقد ارتبط اللفظ بطريقة سقراط فى تمييز المفاهيم. وإننى أرى أن طريقة الحوار السقراطية قد ساه فهمها وساه تصويرها فى الدراسات الفلسفية، وأن التركيز على معنى الدحض والتنفيذ لا يؤدى إلا إلى المزيد من سوء الفهم، ولذا فبئى أفضل استخدم تعبير "الحوار السقراطى" فى ترجمة هذا المصطلح. انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

هذا هو الدرس الذي تعلمنا إيّاه محاورات 'التعريف'، التي لا تنتهي أبداً إلى تعريف، وهذا ما تعلمناه لنا الدفاليون كلّواضح ما يكون الموضوع: "يبدو لي أنه إذا كان هناك شيء جميل، غير الجمال في ذاته، فإنه لا يكون جميلاً لسبب غير أنه يشارك في ذلك الجمال. ... إذا قال شخص ما إن شيئاً ما جميل لأن له لونا بهيجاً، أو شكلاً ما، أو أى شيء آخر من هذا القبيل، فإبنتى أترك كل ذلك جانباً (فمثل هذه الأشياء تريكنى)، وأقول لنفسى فقط ببساطة، وربما بسذاجة، أن لا شيء آخر يجعله جميلاً غير حضور الجمال" (100 ج - د). هذا مجمل مبدأ الجهل السقراطى.

نجد بعداً آخر مشتركاً في المحاورات الباكورة، إذ أن كل محاولة لتحديد ماهية الفضيلة، أو أية فضيلة معينة، تقودنا دائماً إلى معادلة الفضيلة بالمعرفة *sophia+epistêmê*. لكن، أى معرفة؟ معرفة ماذا؟ لا نجد أية معرفة معينة تفي بالغرض. نجد أن علينا أن ننبذ ونتجاوز كل أصناف المعرفة النوعية. هكذا نجد سقراط في المحاورات الباكورة مؤكداً لشيء واحد: كل بحث عن الفضيلة (التمييز الإنسانى) يقودنا إلى المعرفة، لكننا نفضل فى أن نصل إلى إدراك ثابت لطبيعة تلك المعرفة، ولا نجد أمامنا غير العقل الحى الفاعل، الـ *nous* الفعّال، الذى تتلخّص حقيقته فى فاعليته ذاتها، الـ *phronêsis*. — هذا هو أعمق معنى للجهل الفلسفى.

ثم نجد مبدأ لا يملّ سقراط أبداً من العودة إليه أو من أن يقود الحوار حتى يصل إليه: لا خير فى شيء، بأى معنى من معانى الخير، إلا فى صحبة العقل. لا شيء فى انفصال عن العقل الفاعل هو خير فى ذاته. كل الأشياء فى انفصال عن العقل *nous*، عن العقل الفاعل *phronêsis*، تكون فى أحسن الأحوال حيادية. العقل الفاعل هو منبع وأساس كل خير. لكن كل أمثلة العقل المحددة، كل حالات العقل المتحقّق كواقع فى ظروف محدّدة، هى نسبية، وعند امتحانها يتبيّن أنها تفتقر للنهائية والثبات. ممارسة العقل فى ذاتها، العقل الفاعل النشط الخلاق، تلك هى الحقيقة الوحيدة التى يمكننا أن نركن إليها. هذه هى النتيجة، المعقولة الصادقة، البصيرة التى يشير إليها الحوار السقراطى المرّة بعد المرّة حتى حيث لا يعلنها صراحة.

يرى الكثير من الباحثين أن الباب الأول من الجمهورية كُتب في الفترة الباكورة من عمل أفلاطون كمحاورة منفصلة. أيًا ما كان الأمر، فهذا الباب الأول هو في شكله ومحتواه مماثل لمحاورات 'التعريف' الباكورة. هناك نجد سقراط يقود الحديث مع كيفالوس الشيخ إلى موضوع العدالة. كان الشيخ قد ذكر أن أعظم نفع للثروة عند الرجل الصالح يكمن في أنها تمكّنه من أن يؤدّي ما هو مدين به للآلهة والناس. عندئذ يطرح سقراط السؤال: هل يمكننا أن نأخذ العدل على أنه يعنى ببساطة أن يردّ المرء ما يكون قد تلقّاه من آخر؟ أليست هناك ظروف لا يكون فيها ذلك الفعل حسنًا؟ لنتصوّر أن رجلاً تلقى سلاحاً من صديق كإمانة في وقت كان فيه الصديق سليم العقل، فإذا ما أصيب ذلك الصديق بالجنون، فمن المؤكّد أنه يكون من الخطأ ردّ السلاح إليه (330 د- 331 ج). أمامنا هنا سمة ثابتة نجدها في كل محاورات 'التعريف'، هي مغلم أساسى فى الحوار السقراطى. كلما حاولنا أن نمسك بحقيقة مفهوم ما فى صيغة محدّدة من الكلمات، نجد أننا نحيط الصيغة بالتكليفات والتمييزات والاشتراطات، فإننا نجدها فى كل مرّة غير وافية بالمطلوب؛ حالما نعطى الكلمات معنى محدّدًا، يمكننا أن نستمدّ منها نتائج غير مقبولة. إنه لمن صميم طبيعة الفكر المُفوضع objectified، بوصفه تعبيراً محدّدًا وبالتالى مخصّصًا، أنه موبوء بالتناقض. العبارة ذات المعنى ينبغى أن تُقبل بروح طيّبة باعتبارها تنقل معنى إيجابيًا. لكن أى صياغة محدّدة يمكن نقضها بأن نبين أنها، إذا ما عزونا إليها النهائية والثبات، يمكن أن تعود إلى نتائج غير مقبولة. الوعى بهذا هو أحد أبعاد الجهل السقراطى. ولهذا السبب يجب أن تكون الحياة الفلسفية امتحانًا لا يتوقّف؛ أن نستكين لأية صياغة محدّدة كمقولة صدق نهائية يحوّل الصدق إلى خرافة ويحوّل الفلسفة إلى عقيدة توجماتية.

فيما بعد يسأل سقراط: هل يُنتظر من الرجل العادل أن يلحق الأذى بإنسان أيًا كان؟ ويجيب بوليمارخوس بأن على الرجل أن يلحق الضرر بأعدائه (335 ب). فى سلسلة من التحليلات نصل إلى القول بأننا إذ نوذى أى شىء فإننا نجعله أسوأ فى ذلك الذى يشكّل جوهر طبيعته. ثم إنه ليس من طبيعة أى فنّ أو أية قوّة أن تبتّ فى شىء آخر ما هو مناقض للتميّز الخاصّ بذلك الفنّ أو تلك القوّة (335 ب - د). ربما نستطيع أن نرى هنا باوضح مما نستطيع أن نرى فى موضع آخر أن حُجج سقراط لم يُقصد بها أبداً أن تقدّم البرهان أو الدليل

بأسلوب منطقي دقيق. حُجج سقراط إثارات تعيننا على التّدبّر إذ تمتدّحت قيما أو مبادئ نقبلها كجزء من تراثنا أو نجدها متناغمة مع شيء متأصل في طبيعتنا. إن أولئك الذين يسمعون لإظهار ضعف أو خطأ حُجج أفلاطون المتعلّقة بمسائل الأخلاق يخطنون القصد تماما. هل استطاع فيلسوف أبدا أن يثبت بالبرهان صحة مبادئ الأخلاق؟ هل استطاع أرسطو Aristotle؟ هل استطاع سبينوزا Spinoza؟ هل استطاع كُنت Kant؟ ومن ذا يستطيع أن يذكر عقليّات أعظم من عقليّات هؤلاء؟ حين يتدخّل ثراسيماخوس في المناقشة فيرفض صراحة المبادئ والقيم التي كان كل من سقراط وپوليمارخوس يفترضانها أساسا مشتركا، فإن المناقشة تأخذ منحى آخر، لكنها تظل خالية من أي برهان دقيق، ويظل ثراسيماخوس، الذي لم يكن أبدا يعوزه الذكاء، غير مقتنع، تماما كما لم يقتنع كاليكليس في الجورجياس.

لم تكن غاية الحوار السقراطي أبدا أن يُرسي بالبرهان مقولة صدق (هذا شيء في رأيي غريب عن الفكر الفلسفي)، بل أن يصل إلى المعقولة؛ لم تكن غايته أن يحاجج بالبرهان، بل أن يجعل أفكارنا تتناغم في كل معقول. غاية الفكر الفلسفي ليست الوصول إلى الصنق، سواء كان تحليليا أم تركيبيا، بل أن يؤكد النزاهة العقلية للمفكّر.

في الجمهورية يقدّم سقراط مفهوم صورة الخير، ولكن حين يُطلب منه أن يوضح، فإنه يلجأ إلى الأمثلة ويتكلّم عن وليد الخير الذي هو العقل *nous*. ذلك فعلا هو (بأكمل وأدقّ معنى للكلمة) الحقيقة الوحيدة التي نعرفها، وهي حقيقة لا يمكن البوح بها لأنها، ببساطة، ليست شيئا موضوعيا يُعرف، بل هي حقيقة تعاش. لهذا يجد أفلاطون أن من المستحيل إيصال حقائق الفلسفة في نصّ مكتوب (الديالوجوس 274-278، الرسالة السابعة 341 ج - د؛ قارن أيضا الديالوجوس 347)، لأن حقائق الفلسفة لا يمكن إدراكها إلا في عملية التمهّيس المتبادل أو تمهّيس الذات. حين توضع حقائق الفلسفة في صياغة محدّدة، فإنها في أحسن أحوالها تكون أساطير ومجازا، تعرّف صراحة بأنها أساطير ومجاز، وتكون في أسوأ أحوالها عقيدة عمياء ووهما. نجد المسعى الفلسفي يوصف بأنه مجاهدة لإدراك ذلك الذي هو كائن حقّا بذاك الذي هو في

الفيلسوف مثل الذي هو كائن حقًا (الجمهورية 490 أ). هذا شعر خالص ولا بد بالضرورة أن يكون كذلك. ونجد نفس الرسالة في المأدبة، والفايدروس. في السوفست نقرأ أننا في ظلام تام في أمر الحقيقة وأن "تعريف الحقيقة في مثل صعوبة تعريف اللاتينية" (246 أ). وكلمة 'صعوبة' هنا لا تكاد تكون الكلمة الملائمة. الحقيقة يستحيل تعريفها؛ الحقيقة هناك ببساطة، وكل ما يستطيعه الفيلسوف هو أن يأخذ بيدنا ويقودنا إلى حيث يمكن أن نبصر الحقيقة، نعيش تجربة الحقيقة، بأن نصبح نحن أنفسنا أشبه ما يمكن أن نكون بالحقيقة. هذا درس الجمهورية، و المأدبة، والفايدروس، والفايدون، وكل أعمال أفلاطون. أفلاطون لم تكن عنده أبدا إجابة نهائية محددة عن أي سؤال. هذا بالضبط ما يجعله سيد كل الفلاسفة، وهذا بالضبط هو الدرس الذي نحتاج كل الحاجة أن نتعلمه منه.

كل واقع محدود محدد هو ناقص. كل نقص ينطوي على تناقض. الفكر المحدد لا يمكن أن يفلت من التناقض. هذا مبدأ يتضمنه الحوار السقراطي، وتعلمه البارمنيديس صراحة. جوهر الديالكتيك أن يزيل، أن يدمر *anairein* الفرضيات (الجمهورية 533 جـ)، لأن 'فرضيات' (مفاهيم، مقولات) الفلسفة، حالما تصاغ في عبارة محددة، ينتابها بالضرورة التناقض المتضمن في محاولة صياغة الكامل والمطلق فيما لا يمكن أن يكون إلا غير كامل ونسبي. هذا ما أعنيه حين أقول إن كل تعبير فلسفي هو بالضرورة أسطوري. (انظر *Let Us Philosophize*، 1998، 2008 و "Philosophy as Prophecy" في *The Sphinx and the Phoenix* (2009).⁽¹¹⁾)

'نظرية' أفلاطون

يقول ريتشارد كراوت Richard Kraut إننا نجد في الفايديون "الأول مرة في كتابات أفلاطون إعلانا قاطعا وحجة على وجود مجال *realm* لأشياء *objects* تختلف اختلافا كليًا عن الأشياء التي نألفها". (*The Cambridge Companion to Plato*، ed. Richard Kraut، 1992،

(11) أمل أن تصدر الترجمة العربية لكلا الكتابين عن المركز القومي للترجمة في وقت غير بعيد.

"Introduction to the study of Plato" (p. 7). وفي الكتاب ذاته يقول ت. هـ. إرون T. H. Irwin: "إذ أن أفلاطون يعتقد في وجود حقيقة مستقلة عن العقل يمكن معرفتها ... (ibid.) "The intellectual background" ، (p. 72). هل يقدم أفلاطون حجة على وجود الصور؟ دعني أترك جانباً كلمة 'وجود' مؤقتاً؛ سأعود إليها فيما بعد. المفهوم، أي مفهوم، لا يطلب برهانا ولا يمكن أن يكون له برهان. ينشئ سقراط مفهوم الصورة المعقولة، كبعد متميز من الكينونة، متميز عن الأمثلة المفردة التي تتجسد فيها الصورة. المفهوم ليس واقعا موضوعياً ولا هو مقولة صدق تثبت بالحجة أو البرهان، إنما ينشأ بفعل إبداعى. هل يقدم أفلاطون حجة على انفصال الصور؟ التمييز السقراطي بين المعقول والمحسوس يقيم بالفعل نوعين من الكينونة كالعالمين (مجالين) متميزين. هل يقدم أفلاطون الحجة على 'الوجود' المنفصل للصور؟ فى الـ *فايدون* يقدم أفلاطون الحجة على الوجود المنفصل للروح، لكنى لا أعتقد أنه يحتاج هناك صراحة أو يقصد أن يحتاج عن 'الوجود المنفصل' للصور. إن أفلاطون يتبنى ويؤكد التمييز السقراطي للـ *ousia*، *idea*، *eidos* من ناحية والأمثلة المفردة المتعددة من ناحية أخرى، لكن كل ما يقوله أفلاطون عن مكان تلك الصور أسطورة، نُقِّم صراحة كأسطورة؛ كل ما يقوله عن كيفية توصلنا إليها هو حدوتة معقولة؛ كل ما يقوله عن كيفية ارتباطها بالأمثلة المفردة هو تلمس تجريبي في سبيل صياغة مُرضية: لا شيء يجعل الأشياء الجميلة جميلة غير حضور *parousia*، أو اجتماع، صُحبة *koinônia* الجمال، أو آنا ما نسمى ذلك، "إذ أنى لا أقرر ذلك بطريقة إيجابية، بل أقول فقط: بالجمال تصير كل الأشياء الجميلة جميلة" (الـ *فايدون* 100 د). فى الإشارة لعلاقة الصور بالمحسوسات المفردة يستخدم أفلاطون الأسماء *koinônia*، *parousia* ، *methexis* والأفعال *metechein*، *dechesthai*، *katechein* بدون تمييز. يبدو لى أن ما يفتر وقوع دارسى الفلسفة فى مثل سوء الفهم الفادح هذا، هو تجاهلهم لدور الأسطورة فى الفلسفة وكونهم لم يستوعبوا الدرس الأساسى للمحاورات، وهو أن التفكير الفلسفى لا يمكن أن يركن إلى أى صياغة نهائية.

لنلقى نظرة على حُجج الـ *فايدون*: البصر والسمع، وهما أكثر حواسنا وضوحاً، لا يعطينانا مدركات دقيقة أو يمكن الاعتماد عليها (65 أ - ب)؛ لا يمكن أن يكونا مصدر مفاهيمنا، التى هى واضحة لا جدال فيها. متى يدرك

العقل (الروح) الحقيقة *alêtheia*؟ العقل لا يجد الحقيقة *ti tôn ontôn* حين يعتمد على الجسد وإنما حين يفكر عقلانياً *logizesthai* (65 ب - ج). (علينا أن نلاحظ هنا معادلة *ti tôn ontôn = alêtheia*). هل نقول بأن هناك العقل؟ فى ذاته *ti einai dikaion auto*، والجمل *to kalon*، والخير *to agathon* هل رأينا أبداً أيًا من هذا بأعيننا؟ كلا، ولا أدركناه بأى حاسة أخرى من حواسنا (65 د). كذلك الضخامة، الصحة، القوة — كل هذه الصفات التى لها كينونة *hapantôn tês ousias tugchanei hekaston on*، كلها تُعقل ولا تبصر أو تدرك بوسيلة أخرى عن طريق الحواس الجسدية.

ليست هذه حُججا عن وجود منفصل إنما هى تمييز لشكلين من الكينونة، مادة محسوسة غير مستقرة من ناحية، وصورة معقولة مستقرة من ناحية أخرى. الصورة لها كيان وهى ذات معنى. من الطبيعى أن نتحدث عنها بوصفها موجودة إلى أن نكتشف أن هذا التعبير مفعم بالمشاكل. لكن أيًا ما كنا نعنى بحديثنا عن وجود الصور، فإننا حالما نجعلها شيئا موضوعيًا ندمر طبيعتها الخاصة، نلثى تميزها عما هو معطى فى التجربة. (انظر "On What Is Real: An Answer to Quine's 'On What There Is'" and "Where Is I?: An examination of Gilbert Ryle's 'Courses of Action or the Uncatchableness of Mental Acts'" المقالين فى (2009) *The Sphinx and the Phoenix*).

عندنا فكرة المتساوى. نفهم ما تعنى. هناك أشياء عديدة مفردة - عيدان وأحجار - نسميها متساوية. يؤكد سقراط أن هذه المفردات قد توفر المناسبة لنشوء الفكرة، لكنها لا تكون أبدا مصدر الفكرة. يقول أفلاطون إن فكرة المتساوى (المطلقة) لا يمكن أن تُستمد من المحسوسات، التى لا ثبات فيها أبدا، ولا من أحاسيسنا، التى لا شىء مؤكدا فيها أبدا. الأحجار المتساوية والعيدان المتساوية، ألا تبدو متساوية لهذا الشخص وغير متساوية لذلك الشخص؟ (الفايرون، 74 أ.ج). حين يتحدث أفلاطون هكذا عن حوار المتعدّد على أساس أن الشىء المفرد قد يبدو متساويا وغير متساو، جميلا وقبيحا، أو عادلا وغير عادل، فإنه يشير إلى الحوار الذى ينطوى عليه كل وجود محدّد، إذ أن الوجود المحدّد لا يكون إلا منسوبا لخلفية محدّدة وظروف محدّدة. هذا بالضبط ما كان

سقراط يبيّنه في كل تمحيصاته كما يظهر لنا من كل محاورات 'التعريف'.
 الحُجّة هنا، أيّما كان حكماً عليها من وجهة النظر المنطقية، ليس القصد منها
 إثبات وجود الفكرة وجوداً منفصلاً عن الأشياء، وإنما القصد منها جلاء الفارق
 الجذري بين طبيعة المحسوس وطبيعة المعقول. التمييز بين المعقول
 والمحسوس والقول بالمصدر الذاتي subjective للصورة eidos
 لاينفصلان.⁽¹²⁾ والحُجّة - مثل كل حُجّة فلسفية - لا تبرهن صدق مقولة بل
 تُظهر مفهوماً. ولهذا فبني أرى أننا نخطئ طبيعة الحُجّة الفلسفية حين نعمل
 على أن نبين عدم كفاية مثل هذه الحُجّة منطقيّاً. غرض الحُجّة عرض فكرة
 يتبناها أفلاطون بالفعل. ليس هذا غرض كل محاكاة فلسفية؟ هناك مجالات
 معيّنة من المعرفة الإنسانية - الرياضيات، علوم الطبيعة، المنازعات القضائية
 - حيث يودى البرهان والدليل وظائف نوعية مختلفة، أما في كل المجالات
 الأخرى فإن غرض المحاكمة لا يكون أبداً البرهنة - وآخر من يحتاج البرهان
 مقدم الحُجّة - إنما يكون الغرض جلاء الفكرة. إن الباحثين المحدثين يحتاجون
 اللجوء لمحاكمات بالغة الالتواء ليبرهنوا على صحة أو خطأ أفلاطون في
 تفكيره، ذلك لأنهم يريدون أن يصنّوا منظور أفلاطون - الذي هو رؤية إبداعية
 - في قالب منطقي جامد ليس مهياً لاحتواء الرؤية.

ذاك الجوهر الذي نسعى لبيّانه، الذي هو غاية التفكير العقلاني، هو دوماً
 هو هو، هو ذلك الذي يكون، الذي هو حقيقي، ذلك الذي يملك الكينونة (الـ
 فاينون، 78 ج - د). وما معنى أن نقول إنه دائماً هو هو، لا يتغيّر؟ حقيقة
 المعقول ليست إلا معقوليته؛ معقوليته هي حقيقته. شاعرية أفلاطون تُلفّ
 بصيرة سقراط في غمام تصوّف. الغور التصوّفي والشعر يتوافقان مع البصيرة
 إلى أن نحاول أن نفرض عليهما ثباتاً وحرقيّة لم يكونا لهما.

حين نقرأ في الفايون أنه حين ينطلق الفكر في أفاقه العليا، في التفكير
 العقلاني، تكون الروح (العقل) في استقلال عن الجسد، لا نسبياً وإنما مطلقاً،
 فإن ذلك لا يشير في المكان الأوّل لانفصال الروح عن الجسد (بصرف النظر

(12) في الأصل الإنجليزي أوضحت لني تحتت هنا عن 'المصدر الذاتي' subjective تجنباً لكلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

عن أن أفلاطون في *الرفاينون* كان بصدد تقديم الحجة على مثل هذا الانفصال)، وإنما يشير لمعنى أعمق، هو أن مثل هذا التفكير يجرى على مستوى من الكينونة يختلف نوعيًا عن كينونة الجسد.

عندنا إذن شكلان من الكينونة، المرنى واللامرنى *duo eidê tôn* (نلاحظ هنا مثالاً آخر لنفور أفلاطون من جمود المصطلحات، فمن المؤكد أنه ما كان ليسمع باعتبار المرنى بعضاً من *tôn ontôn* بالمعنى الدقيق للعبارة) اللامرنى يبقى دواما على طبيعته (إذ أنه ليس إلا جوهرًا وهينة)، والمرنى دائم التحول (79 أ). الصور والمفردات المحسوسة تنتمي لعالَمين متميزين؛ هما ليسا كيانين منفصلين في نفس العالم. كلمة 'وجود' لا يمكن أن تعنى نفس الشيء، حين تطبق على هذين. فإذا قلنا إن المفردات موجودة، عندئذ لا يكون صواباً أن نتحدث عن الصور (المفاهيم) بوصفها موجودة؛ وإذا قلنا إن الصور حقيقة، فعندئذ لا يمكن أن ننسب الحقيقة للمفردات بنفس المعنى. لهذا أرى أن ما أقول به من ضرورة التمييز الجذري بين الوجود والحقيقة (انظر *Let Us Philosophize*، 1998، 2008 خاصة الباب الثاني، الفصل الثاني) قد يساعد في تخفيف الاضطراب المترتب على عزوف أفلاطون عن تثبيت المصطلحات، دون أن نبتعد عن جوهر الموقف السقراطي - الأفلاطوني.

القول بأننا كلما أطلقنا اسماً واحداً على أشياء مفردة عديدة فلا بد أن تكون هناك صورة واحدة تشارك فيها المفردات المتعددة، هذا القول ليس برهانا على وجود الصورة وإنما هو خلق لمفهوم عالم المعقول الذي بفعله يصبح للمفردات المتعددة معنى -- مفهوم بفضل يعي العقل حقيقته الذاتية ويدرك قوته الذاتية. وبالمثل فإننا حين نقول إن المعرفة لا يمكن أن تكون إلا متعلقة بغير المتغير، فإننا بذلك لا نبرهن على وجود غير المتغير، وإنما ننشئ التمييز بين عالم المحسوس المتحول وعالم المعقول المستقر، حتى وإن يكن استقرار عالم المعقول ليس إلا استقراراً تخيلاً يضيفه العقل على وفق عالم الواقع دائم الزوال.

الباحثون ضللتهم شاعرية أفلاطون. لا يصح أن نتحدث عن 'اعتقاد أفلاطون بالصور'، كما يفعل كثير من الباحثين، كأن من الممكن أن يعتقد

المرء بالصور يمثل ما يعتقد بالأشباح. إما أن يملك الشخص مفهوم الصور أو لا يملكه، ومعظم الباحثين المحدثين، ببساطة، لا يملكونه. إنهم يعيشون بدون مفهوم الصور، بدون مفهوم عالم المعقول، وبالفكر عالمهم! من الخطأ أن نتحدث عن الصور ككثيبياء موضوعية. حتى إن شاركنا أفلاطون حلمه بسماء الصور، سيكون علينا أن نفكر في طبيعتها لا كموجودات objects وإنما كمعقولات - لهذا فإبني أرى أن كلمة 'أفكار' ليست غير ملائمة، بشرط أن نأخذها بشيء من الحيطة.

ما هو جوهرى للحياة الفلسفية ليس أن نعرف أو نعرف بـ 'وجود' الصور - وهو موقف لم يعبّر عنه أفلاطون أبداً على وجه التحديد - وإنما أن يكون لنا وعى بالصور وأن نحيا مع الصور بأن نمارس حياة العقل والتأمل. أن نحيا حياة إنسانية حقّة يعني أن نحيا حياة عقلانية، وأن نحيا حياة عقلانية يعني أن نخضع كل ما هو معطى للمساءلة. كل معطى يظل ببساطة معطى هو تقييد للعقل. هذا هو الأساس العقلاني للرسالة التي كرس لها سقراط كل حياته ممتحناً ذاته وممتحناً الآخرين، وهذا هو جوهر الجهل السقراطي: لا معرفة محدّدة يمكن أن تُقبل باعتبارها نهائية. إذ أتقدّم بهذا التاويل أعرف أنى أزع عم زعماً شديد الجراءة. أمل أن الصفحات التالية ستظهر أن زعمى لا يشطح بعيداً جداً.

هل نقول إن الصورة كائن entity؟ ماذا يمكن أن نعني بذلك؟ يمكننا أن نجعل مدلول الكلمة يتسع أو يضيق حسبما نشاء. بالطبع، كل ما نستطيع أن نتحدّث عنه هو شيء نتحدّث عنه، هو شيء يمكن ذكره. لكنّ إذا كنا نعني بهذا اللفظ ما يتجاوز ذلك فينبغي أن نحرص على أن يكون ما نعني واضحاً. الأشياء الممائية توجد: مفروض أننا نعرف معنى ذلك. ولكن ما الذى نعنيه بـ وجود الفكرة؟ الفكرة التى توجد بطريقة ما فى مخى ليست فكرة؛ إنها شيء آخر. الفكرة، كفكرة، لا يمكن أن تكون إلا فى عقلى، وليس فى مخى. إنها ليست مجرد كلمة أو مجرد صوت؛ إنها معنى، إنها لمحة من العقل الفاعل. العقل الفاعل هو الحقيقة، هو كل الحقيقة، والفكرة حقيقة كلمحة من تلك الحقيقة. الفلاسفة المحدثون يسألون عن نوع الكينونة التى تنسبها لـ مدلول الكلى referent of the universal. السؤال، فى رأىى، معيب. إنه يتحدّث عن الكلى ومدلول الكلى وكينونة المدلول. الصحيح أن الكلى هو المدلول وهو كينونة ذاته. إننا كى نستخدم اللغة على الإطلاق، كى نفكر، علينا أن نجزئ ما

هو واحد. كي نفهم علينا أن نعود إلى الواحد. مرّة أخرى نجد مسعنا يرجع بنا لبصيرة سقراط الفذة: في الفكرة البسيطة *ousia·eidos* ولا شيء سواها نجد الحقيقة.

التمييز السقراطي بين المعقول والمحسوس لا يعنى وجود الصور منفصلة عن الأشياء المحسوسة: أن نقول بهذا يعنى أن نضع الصور والأشياء الموضوعية على مستوى واحد من الكينونة، أن نحيل الصور إلى 'مزيد من نفس الشيء'، وبهذا ننفي تميزها. التمييز السقراطي يشير إلى بعدين من الكينونة، يختلفان أحدهما عن الآخر كاختلاف المكان والزمان. لا يسمح أفلاطون أبدا لرؤياه لعالم سماوى من الصور بأن يُعتم التمييز الأصلي بين المعقول والمحسوس.

المسكن السماوى للصور في الفايديروس شعر صريح. أفلاطون أبدا لم يُشر ولو تلمحا لإمكانية أن يكون الأمر غير ذلك. الصعود إلى صورة الجمال في الدائبة لم يكن صعودا في المكان. يكتمل الصعود وتحقق الرؤية في العقل وليس خارج العقل. وكذلك في الجمهورية، نجد المسيرة إلى صورة الخير رحلة روحانية خالصة.

بين المحدثين من قالوا بأن المقولات توجد كأشياء موضوعية مثالية *propositions exist as ideal objects*. هذا الزعم يستند لنفس الأساس الذى تستند إليه فكرة 'وجود' الصور، ويحاول أن يأخذ بعين الاعتبار نفس البصيرة. المقولة تجسد الفكرة في صياغة لغوية محدّدة. المقولة لا تستنفد الفكرة. ليس ممكنا فحسب التعبير عن الفكرة بلغات مختلفة، وإنما حتى في نفس اللغة يمكن أن تكون الفكرة منبعا لما لا نهاية له من الصياغات. إذ يحاول المفكر، رجلا كان أم امرأة، أن يكسو الفكرة بالكلمات، يعيش تجربة مولد الصيغة اللغوية من الفكرة. هذا، في رأى، يشير إلى كون الفكرة حقيقة، حقيقة تتسامى على كل تمثلاتها في تعبير محدّد. هذا، فيما أظنّ، هو المعنى الذى أراد أن يؤكد القائلون بأن للمقولات وجودا موضوعيا مثاليا. لكنى أعتقد أن كلا من كلمة 'وجود' وكلمة 'موضوعي' في هذا القول يجانبهما التوفيق. التعبير أو القول (ولنذغ جانبنا الآن مصطلح المقولة الذى 'يرقص على السلم' بين سماء المعنى وأرض اللفظ) لا يوجد إلا كشيء محدّد، مفرد، متجمّد. الفكرة، حسب

مصطلحي، لا هي توجد ولا هي شيء موضوعي، إنما هي حقيقة، حقيقة حيّة، لها كينونتها في عقل حيّ خلاق. ماذا عن العقل؟ هل للعقل وجود؟ حيث نجعل العقل ضدًا للجسد يكون كلّ من العقل والجسد تجريدين، محض اختلافين mere fictions، لا يقوم أيهما منفصلا بذاته. الكلّ فقط له كينونة، وداخل ذلك الكلّ أتحدّث عن الجسد ك موجود وعن العقل ك حقيقة. في التجريد، أقول إن العقل حقيقي لكنه غير موجود وإن الجسد موجود لكنه غير حقيقي. هذا ليس إلا مصطلحي الخاصّ ولغتي الخاصة، لكنني أعتقد أنه يعبر عن شيء ذي معنى.

نقد أفلاطون الذاتي

البلحثون الذين يعزّون 'نظرية الصور' لسقراط وأولئك الذين يرون أن أفلاطون استحدث 'النظرية' في الفترة الوسطى، كلا الفريقين على حدّ سواء يشيع بينهم القول بأن الجزء الأول من الديارمونيديس يراد به نقد 'النظرية' وأن أفلاطون نبّذها بعد ذلك. هذا القول، في نظري، ليس له ما يبرره. الجزء الأول من الديارمونيديس يبرز ويفحص الصعوبات التي تكتنف صياغة أفلاطون لعلاقة المتعدّد المحسوس بالصورة المعقولة الواحدة، صعوبات لم تكن في أي وقت من الأوقات غائبة عن وعي أفلاطون. وينتهي النقد بتوكيد واضح لضرورة الصور لكل حوار.

المناقشة في الجزء الأول من الديارمونيديس لا تدور حول المفهوم الأساسي للصور *ideai*، إنما تدور حول مسألة خاصّة هي مسألة العلاقة بين الصور والحالات المتعدّدة المفردة التي تتمثل فيها. إنني أميل للاعتقاد بأن سقراط كان يفتح بالقول بأن الأشياء المفردة (الموجودات العديدة المتحوّلة) تكتسب صفاتها المعقولة من المفاهيم التي تولد في العقل. وربما يكون قد تكلم بطريقة غير مدقّقة عن مشاركة الأشياء المحسوسة في الصور. أفلاطون هو من أثار مشكلة صيغة تلك المشاركة، وحتى آخر أيام حياته لم يستقرّ على إجابة مرضية. لماذا؟ لأن هذه واحدة من تلك الأحاجي التي يخلقها التفكير النظري لنفسه والتي لا يمكن أبدا أن يكون لها حلّ نهائي، لأنها، ببساطة، تبدأ بفصل ما لا يفصل. المعقول كلّ، كليّته (كونه كلا) هي حقيقته. لا بأس بأن نتحدّث عن معقوليته من ناحية وعن كينونته من ناحية أخرى: فهكذا يعمل الفهم النظري، بأن يخلق

تمييزات مختلفة *fictitious distinctions*. لكننا حالما نحاول أن نضفي النهائية على تلك التمييزات، نجد أنفسنا في متاهة لانتهائية، بأدق معنى لهذا التعبير. هذا هو لبّ درس الديارمينديس، كما أحاول أن أبين في الفصل الذي أناقش فيه هذه المحاور.

تبدأ المناقشة حيث نجد زينو Zeno يقرأ على الحاضرين كتابه الذي يسعى فيه لأن يقيم الدليل على أن افتراض تعدّد الموجودات يقود بالضرورة لتناقضات. يطلب منه سقراط أن يعيد قراءة الجدلية الأولى التي تحتاج بأن المتعدّد لا مهرب له من أن يكون متماتلا وغير متماتل في آن واحد. يقترح سقراط أننا إذا قبلنا القول بصورة المتماتل في ذاته وصورة اللامتاتل في ذاته، عندئذ لا تكون هناك مشكلة في النظر للأشياء المفردة باعتبارها تشارك في التماثل واللامتماثل في آن واحد. لن يكون هناك شيء غريب في هذا المزج، إنما كان ليدهشه أن يجد خلطا في الصور في ذاتها (127 د - 130 أ). (في الـ سوفيست نجد مسألة امتزاج الصور تناقش مناقشة تفصيلية، مما يُظهر لنا أن أفلاطون لم يتوقّف أبدا عن معالجة مختلف أوجه مشكلة مشاركة المحسوسات في الصور).

هنا يتدخّل پارمنيديس، فيسأل سقراط إن كان هو بنفسه قد جاء بهذا التمييز، الصور من ناحية، والأشياء التي تشارك فيها من ناحية (*chôris* *men* *de* *chôris*)؟ هل يظنّ أن هناك تماثلا غير التماثل الذي فينا؟ (130 ب). إن يكن ثمة 'فصل' هنا فهو فصل نقحه علينا ضرورات اللغة. 'الفصل'، إن يكن لزاما علينا أن نستخدم الكلمة، هو فصل منطقي لا فيزيقي. ليس هناك، جوهرية، مجال لـ 'وجود' منفصل، مهما يكن أفلاطون، بمزاجه التصوفاي والشاعري، قد أسعده أن يمنح الصور دارًا سماوية. إن كان لزاما علينا أن نخصّ الصور بـ 'مكان'، فإن ذلك 'المكان' لا يمكن إلا أن يكون هو العقل. سأتهم حتما بأنني أقحم على أفلاطون فكري الخاص. إنني أعترف بأنني أكسو فكر أفلاطون بلغتي الخاصة، لكنني أقول بأنني إذ أفعل هذا لا أزيّف لبّ ذلك الفكر.

بمضى پارمنيديس ليمتفهم من سقراط عما يعتقد أن له صورا للعدل والجمال والخير؟ بالتأكيد. للإنسان والنار والماء؟ يتردّد سقراط. للشعر والوحل

والقرف؟ يبدو سقراط وجلا ويؤنبه پارمنديس: إنك ما زلت صغيرا يا سقراط ولم تتمكن منك الفلسفة تماما بعد، وإلا لما ازدريت مثل هذه الأشياء (130 ب - هـ). لا يجب أن نحمل هذا على أنه "شيء من سخرية مهذبة" كما يريدنا تيلر Taylor أن نفعل (Plato: the Man and his Work، 1926، p.351)، إنما يجب أن نأخذه بمعنى أنه إذا كانت الصور التي تولد في العقل هي مصدر كل معقولة، فعندئذ يجب أن نقبل بصور لكل ما يمكن إدراكه وما يمكن أن يكون موضوعا للحوار. ربما يكون أفلاطون قد وجد هنا مشكلة. فهو من ناحية يرى أن 'النظرية' تقضى بأن تكون هناك صور لأحقر الأشياء (هكذا نجد في الجمهورية صورة للسريير وللطاولة *trapeza·klinê*)، وهو من ناحية أخرى كان، وجدانيًا، مثنودا إلى الصور باعتبارها مثلا سامية. حين ندرک أن حقيقة الصور تكمن في إبداعية العقل الفاعل، تتلاشى المشكلة: عقلنا هو مصدر وأساس كل معقولة: معقولة ما هو بالغ الكمال وما هو حقيقى تماما، وبالمثل، معقولة ذاك الذى هو غارق تماما فى الزوال واللاحقية.

بمعنى پارمنديس بعد ذلك فيشير سلسلة من الصعوبات المنطقية التى تكتنف فكرة المشاركة كحاشية للتعبير عن علاقة المفردات المتعددة بالصورة الواحدة. الصعوبات كلها من النوع الذى لا بد وأن يكتنف كل صياغة نظرية. مثل هذه الاعتراضات المنطقية، حين تثار ضد فكرة إبداعية أو منظور إبداعى يقوم على بصيرة حقة، لا تنقض أبدا جوهر الفكرة أو المنظور بل تظهر فقط العوار الملازم بالضرورة لكل صياغة فكرية محددة. لبت أكاديميين الذين يتناحرون فى جدل لا ينتهى يعلمون أنهم بذلك لا يكسبون إلا المزيد من عمى البصيرة؛ لو أنهم كانوا دياكتيكين بحق لأدركوا أن وظيفة النقد السوى أن يقود إلى بصر أكثر عمقا بالرأى الذى يتناوله النقد.

عند نقطة معينة من الحوار يطرح پارمنديس حجة كانت لها على مدى الأيام مسيرة حياة زاخرة، اتخذت خلالها أكثر من صورة. سأعلق على هذه الحجة بشيء من الطول هنا، وإن لم يكن بالقدر الذى أمل أن أتناولها به فى موضع آخر. حين نرى عديدا من أشياء تبدو كلها كبيرة، نقول إنها تشارك فى صورة *idea* واحدة، صورة الكبر. لكن صورة الكبر ذاتها وتلك المفردات الكبيرة، ألا تتطلب صورة كبر أخرى تشارك كلها فيها؟ على هذا يبدو أننا

ننساق إلى ارتداد لانهايتي (132 أ - ب). هذه الحجة أو المعضلة تولدت عنها صيغ عديدة سميت بأسماء مختلفة: 'الرجل الثالث'، الارتداد اللامحدود أو اللانهائي indefinite or infinite regress، ومؤخرًا مشكلة أو معضلة التحميل الذاتي self-predication. إنها في الأساس نفس المعضلة التي نشأت عنها مفارقة رسل Russell's paradox. ورغم أن هذه الصيغ تختلف في هيكلها المنطقي، فإنني لا أجده ضروريًا لغرضي هنا أن أميز بينها، فعندي جواب واحد لجميعها.

المعضلة معضلة زانفة. الصورة من الممكن - في لون من ألوان التعبير - أن ننسب إليها صورتها، إنما تنشأ المشكلة إذا أخذنا ذلك بمعنى أننا نستطيع أن نفصل صورة الصورة عن كينونتها. صحيح أننا نجد أحيانًا في المحاورات عبارات تعوزها الدقة مثل: "صورة التقوى لا بد أن تكون تقية". إذا تساهلنا في أمر اللغة قليلًا، فهناك معنى ما يمكن أن نعبر عنه بهذه الكلمات. لكن أفلاطون لم يكن من الغفلة بحيث يغيب عنه أن عبارة 'الكبير كبير' قول سخيف. إنه لمن جوهر الموقف السقراطي أن المفهوم لا يستمد معناه من أي شيء من خارج المفهوم. المفهوم هو حقيقة ذاته. هذا معنى المقولة السقراطية: "بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة". إننا لا نحتاج نظرية مشاركة لتبرير أو تفسير هذه البصيرة. حالما ننظر إلى المفهوم (الكبير) على أنه شيء، وإلى معناه على أنه شيء آخر، ننزلق إلى شتى ألوان المعضلات. هذا هو أس مفارقة رسل الشهيرة، والحل الذي اقترحه رسل، نظرية الأنماط Theory of Types، ليس إلا اعترافًا بأنه عند نقطة ما (لدى سقراط عند كل النقاط) علينا أن نقول: "ذاك هو ذاك!"، علينا أن نتفق بالمفهوم. لأن رسل لم يذهب إلى الحد الذي ذهب إليه سقراط فإن حله يبقى حلاً منقوصاً وتتوالى المفارقات التي تتولد منه. لكن إذا كان أفلاطون قد كشف زيف تلك الحجة، كما يظهر لنا جلياً من الجمهورية 597 ج، فلماذا لم يُزل اللبس هنا؟ لأن أفلاطون لم يكن يعمل على أن يقدم حلاً بل على أن يستحث التفكير. مرارا وتكرارا نجده في المحاورات يطرح مشكلة، أو يتقدم باعترض، أو يدمن مغالطة، ويترك لقرانه أن يعملوا عقولهم لإيجاد الحل.

ثم تأخذ المناقشة منعطفاً قد يرى البعض أنه يستوجب أن أتعامل معه هنا إذ يبدو أنه يتعارض صراحة مع الموقف الذي أتبناه. لكن ربما لا يكون على حَقاً أن أقول الكثير هنا إذ أن الاعتراض المثار هناك هو ما كنت أردّ عليه على امتداد ما كتبت في هذا الفصل.

يقول سقراط: ألا يمكن أن تكون الصورة فكرة *noêma* لا يمكن القول بأنها توجد في موضع *engenesthai* غير العقل *en psuchais*؟ يعترض پارمنيديس قائلاً إن الفكرة لا بدّ أن تكون فكرة لشيء ما. حالما نقرّ هذا فإن أي شخص له إلمام بمبادئ المنطق يمكنه أن يصنع الأوهام (132 ب - ج). يمكن الخطأ في تجزئة الفكرة، التي هي كل، إلى فكرة وذلك الذي تكون الفكرة فكرة له. حين نفكر في الجمال أو في الأحمر، فإنه لا يكون عندنا في كل حالة من الحالتين شيئاً، فكرتنا وذلك الذي تكون فكرتنا فكرة له، بل يكون عندنا (في كل من الحالتين) شيء واحد، فكرة الجمال أو فكرة الأحمر. وجهة النظر هذه لا يلزم أن نقرنها لا بمذهب الاسميّة *nominalism* ولا بمذهب التصورية *conceptualism* كما يرى تيلر *Taylor (Plato: the Man and his Work 1926, p.357)*، على الأقل ليس الاسميّة كما نفهم عادة. خطأ الاسميّة ليس في أنها تأخذ الصور على أنها أفكار وإنما في أنها تأخذها على أنها مجرد أدوات للعقل، (كواين *Quine* إذا لم أخطئ فهمه، لا يُقرّ لها حتى بهذا)، إذ يغيب عنها أن الأفكار هي حياة العقل، هي العقل إذ يحيا. عند أرسطو *Aristotle*، المفاهيم أفكار في العقل، لكن العقل عنده يستمدّها من العالم 'الخارجي'. الاعتبار الهام عند سقراط هو أن المفاهيم تولد في العقل وأنها تُكسب العالم الخارجي ما له من معنى. وجهة النظر هذه لا هي الواقعية *realism* ولا هي الاسميّة *nominalism* اللتين اشتبكنا في جدل عقيم على مدى قرون. وإذا كان لا بدّ لي من أن أمذهب وجهة النظر هذه فهي المثالية، وإن كنت أنفر من كل مذهبية.

هناك من يساندون اعتراض پارمنيديس هنا لأنهم يظنون أننا إن أردنا أن نؤكد موضوعيّة القيم، أو أن نحافظ عليها، فلا يمكننا أن نقرّ بأن المُثل ليست إلا 'مجرد أفكار' في العقل، بل لا بدّ من إرجاعها إلى 'حقائق موضوعيّة'. لكننا

إن قلنا، وهو ما أقول به، إن عقلنا، عقلنا الفاعل، هو الحقيقة الواحدة التي نعيا وعيا مباشرا، عندئذ تكون مثلنا مستقرة تماما في تلك الحقيقة الأولية، حتى وإن كانت المثل في خصوصيتها تلحق بها بالضرورة نسبية وتحول كل ما هو واقع محدد، كل كينونة محدودة. هذا فحوى إجابتي على مسألة النسبي والمطلق في الأخلاق. مبادئ الأخلاق المحددة وقواعد الأخلاق المحددة كلها نسبية، لاشيء مطلقا بصورة مطلقة في الحياة الإنسانية. لكن تلك المبادئ والقواعد تقوم على المطلق من حيث أنها تعكس كلية العقل الفاعل وتعبّر عنه وتجسده في واقع. ليست هناك قاعدة لا يمكن لشخص خبير أن يخالفها، لكن، كي يكون الشخص خيرا لا بد أن يخضع دائما لقاعدة. أعتقد أن هذه هي البصيرة التي عبّر عنها كُنت Kant بمقولة الأمر المطلق categorical imperative؛ لكن كُنت Kant كان يعتقد بأننا نستطيع أن نعطي صياغة نهائية لقاعدة يكون على الشخص الخبير أن يخضع لها، بينما أرى أنا أن هذا غير ممكن. (أطرح هذا التوجه الفكري في "Must Values Be Objective؟" وفي "Free Will" (13) "as Creativity").

بعد هذا الاستطراد الذي طال كثيرا لن أتوقف لأناقش بقية الحجج التي يقدمها پارمنيديس في الجزء الأول من المحاور. يكفي أن نقول إنها حُجج تتعلق بصياغات علاقة الأشياء بالصور أو بهيئة 'وجود' الصور، صياغات قد يكون أفلاطون فُكر فيها في وقت ما إلا أنه، كما هو واضح، لم يجدها مرضية.

كي يجنبنا أفلاطون وهم أن نتصور أن القصد من كل هذا كان نقد لب مفهوم الصور المعقولة، فإنه يعمد لأن يجعل پارمنيديس ينهى هذا الجزء من المناقشة بأن يقول إننا، إذا قادتنا مثل هذه الحجج لرفض الإقرار بحقيقة الصور eidè tòn ontòn einai، فلن نجد عندئذ للفكر dianoia ملاذا، ونكون بذلك قد تمرنا كل إمكانية للحوار (135 ب - ج).

جوهر المفهوم السقراطي للصور أنه حين يكون لشيء ما اسم أو معنى، فإنه يكون للشيء ذلك الاسم أو المعنى بفضل أن في العقل صورة، إذ ينضوي تحتها ذلك الشيء المعين يصبح معقولا. هذه حقيقة الصورة، كمبدأ للمعقولية.

(13) يجدهما القرأى في The Sphinx and the Phoenix، 2009 الذي أمل أن تصدر ترجمته العربية في وقت غير بعيد.

حقيقة الصور هي حقيقة العقل الفاعل الخلاق الذي يلد الصور. كان أفلاطون الشاعر العاشق الحالم يجب أن يُسكن أسمى تلك الصور في سماء خاصّة بها. كان ذلك جائزا ككثير: إنه بعض من أئمن ما حظينا به كمبراث روحى. لكنه حين أخذ حرفيا جعل من الصور أشياء وفتح الطريق أمام الأراء الفجة لـ 'أصدقاء الصور'، الذين أقام أرسطو فى مواجهتهم مفاهيمه الكليّة 'universals'، وهكذا وقفنا فى متاهة جدل لا نهاية له بين الواقعيّة realism، والاسميّة nominalism، (والتصورية conceptualism الحائرة بين هذه وتلك)، وهو جدل لا يزال محتتما حتى اليوم.

الصور فى أعمال أفلاطون المتأخرة

الباحثون الذين يرون أن البارمنيديس تظهر أن أفلاطون غير فكره فى 'نظرية' الصور، يقولون بأن 'النظرية' تغيب عن أعمال الفترة الثالثة. فيما يلى أحوال أن أبين أن قراءة غير متحيزة لأعمال أفلاطون المتأخرة تكشف لنا أنه، رغم أن اهتمامات أفلاطون فى الحقبة الأخيرة من حياته تحولت نوعا ما وأن مسائل جديدة أخذت تسترعى انتباهه، إلا أنه لم يهجر أبدا قناعات سقراط الأساسية.

فلسفة أفلاطون تتوّج المثالية الفلمفية التى بشر بها بارمنيديس: "نفس الشيء هو أن يُعقل وأن يكون": *tauto gar esti noein te kai einai* أو *to gar auto noein estin te kai einai* — من بعد ذلك صارت كل مناظرة فلمفية جذرية لا تعدو أن تكون حلقة فيما وصفه أفلاطون دراميا فى الـ سوفيست بـ معركة الآلهة والمردة.

فى السوفيست يستخدم أفلاطون وصف 'أصدقاء الصور' كتسمية شاملة لمفكرين يجدون الحقيقة فى عالم المعقول. ثمة جدل بين الباحثين بصدد من هم على وجه التحديد 'أصدقاء الصور'، وهو جدل زاده تعقيدا استخدام أرسطو لذات الوصف. أعتقد أننا لسنا ملزمين بأن نعتبر معنى العبارة عند أرسطو مطابقا لمن قصدهم أفلاطون بهذه التسمية فى السوفيست. على أى حال، أيا كان 'أصدقاء الصور' فإن أفلاطون يعدهم بين 'الآلهة'، ومن الواضح أنه يتعاطف معهم تماما. كان أفلاطون على الأرجح يشير إلى أعضاء فى

الأكاديمية أخذوا الفكرة بفهم صارم، وربما كان أرسطو بشير لأعضاء أصاب آراءهم مزيداً من التحجّر.

نقرأ أن 'اصدقاء الصور' يميّزون بين الصيرورة والكينونة الحقّة ويتحدّثون عن انفصال هذين. نحن نتواصل مع الصيرورة بواسطة الجسد ومع الكينونة الحقّة بواسطة الروح عن طريق التفكير (السوفيست، 248 أ). النقد الذى يلى هذا (248 ب-249 د) لا يناقض ولا يقضى بعكس الموقف السقراطى – المعقول هو الحقيقى – إنما يصحّح اللاتوازن فى التركيز على ديمومة ولا تغيّر الصور فى محاورات أفلاطون الوسطى، تركيز ربما كان بعض تلاميذ أفلاطون قد تبنوه دون تحفظ. كان أفلاطون قد أدرك أنه يلزم أن يكون هناك مكان للحياة والعقل الفاعل فى مفهومنا للحقيقة. عند سقراط كانت الصور دائماً وظائف للعقل. لكن أفلاطون فى حميته التصوّفية حلم بسماء لصور خارج الزمن. إلا أنه أدرك أن الحياة والعقل الفاعل هما مفهومان أكثر عمقا. وبالطبع، كان القول بأن ما هو حقيقى تماماً لا بدّ وأن يكون له حياة وعقل دوماً فى صميم منظور أفلاطون الفلسفى، ولو أن صياغاته النظرية الباكّة لم تعبّر عن هذه النظرة تعبيراً وافياً.

فى التيمايوس يلهو أفلاطون بتكوين كوزموجونيا *cosmogony*، هى بهذا الوصف مثل سابقتها التى أدار لها سقراط ظهره. لكننا نجد الصور فى الأساس من المشروع كله. حين نقرأ فى 48 هـ: "ميّزنا مسبقاً بين صورتين *eidē*، والأّن نحتاج نوعاً *genos* ثالثاً"، فقد تكون دلالة هذه العبارة مثارا للجدل، لكنّ حين يمضى أفلاطون فيقول إنّنا قَتَمْنَا "من ناحية، صورة *eidos* أولى، معقولة ومستقرّة، ومن ناحية أخرى، محاكاة *mimēma* للصورة الأولى، خاضعة للصيرورة ومرئية" (48 هـ - 49 أ)، فلعلنا لا نبعد كثيراً عن الصواب إن أخذنا هذا كتعبير عن التمييز السقراطى بين المحسوس والمعقول، الذى هو بمثابة العمود الفقري لمقولة الصور.

'النوع الثالث'، وعاء الصيرورة *geneseōs hupodochēn* الذى يقتمه أفلاطون عند هذه النقطة، لا يستدعى أى تحوّل جذرى عن المقولة. اعتاد

أفلاطون التحدّث عن المحسوس بوصف أنه المتعدّد، ولكنّ في الإطار الكوزموجوني يحتاج أن يصبّب المتعدّد في قالب موحد. الـ *hupodochê* (الوعاء) هو الوجود في تعارضه مع الحقيقة، هو المعطى في تعارضه مع المحدّد إبداعياً، هو مادة *hulê* أرسطو Aristotle، هو المتعدّد من منظور كلية الكون.

في 49 أ - 50 أ حيث يقرّر أفلاطون أننا لا ينبغي أن نتحدّث عن المتغيّر بوصفه شيئاً كاننا ولكن بوصف أن له صفة، لا نقول عنه 'هذا' بل 'هكذا'، نجد توكيدا مجدداً ومحققاً لمقولة الفايديون أن المحسوس، أن الأشياء المتحوّلة، لا حقيقة لها في ذاتها، إنما تمتعير حقيقتها من الصور. سواء كان سقراط قد أعار هذا الجانب من المقولة أى اهتمام أم لا، فإنه يتناغم تماماً مع مفهومه الأساسى لعالم المعقول كموطن لكل الحقيقة.

حتى وإن يكن أفلاطون في بحثه الذى لم يتوقف أبداً عن صياغات قد تمضى بنا خطوة للأمام يبدو كأنما يتحدّث عن الـ *hupodochê* (الوعاء) باعتباره الشيء المستقرّ، إلا أننا سريعا ما نراه يقرّر أن المفردات المتغيرة التى تتوالى دخولاً فيه وخروجاً منه (والتي تشكل فعلاً وجوده الواقعى) هى محاكاة للحقائق الأزلية: *ta de eisionta kai exionta tôn ontôn aei* (50 ج). فى النهاية نجد أن الـ *hupodochê* "غير منظور وغير ذى هيئة، يشمل الكلّ، يشارك بطريقة خفية فى المعقول" *anoraton metalambanon de pandeches eidos ti kai amorphon* (51 أ - ب).

بعد كل ما قلت، لا أستطيع أن أصنع خيراً من أن أقبس السطور التالية دون تعليق، فإنها تعرب عن نفسها: "هل هناك شيء هو 'النار فى ذاتها'؟ وهل كل تلك الحقائق الأخرى التى نستخدم بصدها تعبير 'كذا وكذا فى ذاته' لها كينونة؟ أم أن الأشياء التى نبصرها وندرکها بحواسنا الأخرى هى وحدها الحقائق الحقّة؟ أليس هناك شيء إلى جانبها وهل ترانا نتكلم كلاماً فارغاً حين نقول أن هناك صوراً معقولة للأشياء المفردة؟ ... إذا كان العقل *nous* والظنّ الصواب *doxa alêthês* مختلفان نوعياً، فإن هذه 'الأشياء فى ذاتها' تكون لها

كينونة بالتأكيد، هي صور لا تدركها الحواس ولكن يتبينها الفكر" (517 ب- د). ليس في هذا آية فكرة ما كان سقراط ليؤكد بها بنفس الألفاظ.⁽¹⁴⁾

في *الثنائية* يتيوس 145- د يقول سقراط "بالحكمة، في رأيي، يكون الحكماء" *sophiai de g' oimai sophoi hoi sophoi*، يمكن أن نعبر بهذه العبارة في سياقها الحالي كقول عارض. ولكن لو أن أفلاطون كان قد تخلى عما يسمى بـ 'نظرية الصور' كما يحتاج كثير من الباحثين، لما كان من الممكن أن يكتب هذه الجملة دون أن يضطرب إذ تستدعي لذاكرته قوله سقراط 'السادجة': "بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة". لو أن أفلاطون كان قد نبذ الصور لكان حريصا عند هذه النقطة على أن يتجنب هذه الصيغة اللفظية.

في *القوانين* ينشغل أفلاطون كثيرا بالجوانب العملية للتشريع، لكن حين يتجه لأن يؤسس لمقترحاته التشريعية في الحقيقة النهائية، نجد كلينياس يقول إن المشرع "ينبغي أن يبزر دعوى أن القانون والفن هما من الطبيعة أو أنهما ليسا أقل حقيقة من الطبيعة، إذ أنهما ينتجان من العقل بتفكير صحيح" (890 د. الاقتباس في الطبعة الإنجليزية من ترجمة أ. إ. تيلر A. E. Taylor)⁽¹⁵⁾. علينا أن نتذكر أن 'طبيعي' عند أفلاطون لا تعني الانتماء إلى عالم الظواهر، بل لعالم الحقيقة. وفيما بعد نجد أن حراس القوانين (الذين يتولون الحكم) ينبغي أن يهتموا لا بالمتعدّد فقط وإنما يجب أن يتجهوا إلى معرفة الواحد؛ حين يتعلق الأمر بالחסن والخير، ينبغي لحراس القوانين لا أن يعرفوا الأمثلة المتعددة للحسن والخير فحسب، بل يجب أن يعرفوا الواحد (965 ب - 966 أ).

الصفحات الأخيرة من *القوانين* تُظهر بجلاء خطأ أولئك الذين يعتقدون أن أفلاطون تخلى عن الصور. ثم إن 965 ج - ه تُظهر أنه كان لا يزال يصارع مشكلة وحدة الفضائل التي نوقشت في *البروتاجوراس*، وهذا دليل إضافي،

(14) في الأصل الإنجليزي حيث استخدمت في الفقرة المقبسة ترجمة ديزموند لي Desmond Lee سجلت تعطل على استخدام كلمة 'exist' حيث استخدمت أنا في السطور السابقة عبارة 'تكون لها كينونة'.

(15) فيما يلي، حيثما الحق بالشواهد عبارة 'ترجمة فلان'، فهذا يعني لي في الأصل الإنجليزي القبت من ترجمة فلان. أما الترجمة العربية فهي في كل الأحوال لي.

فيما أرى، على أن مسائل الفلسفة ليست مماثل قابلة لحل نهائي. إنها مسائل تتمتع بالحياة، نار حياة تبقى العقل حياً.

اليوم يستطيع باحثونا المتبحرون في العلم والجماهير الجاهلة على حد سواء أن يروا نون عذاء أن كوزمولوجيا أفلاطون وأن لاهوته محض أساطير. ولكن أن نقف عند هذا يعني أن نقفد ما هو في الدرجة الأولى من الأهمية، وهذا عيب يشترك فيه أكثر معاصرينا علما وأكثرهم جهلا على حد سواء. فإن القلب الذي يدق في أسطورة أفلاطون ينبض صدقا، ينطق ببصيرة أن عالم المعقول هو موطن الحقيقة وأنا في الحياة الروحية نكون على وصال بالحقيقة.

نقد أرسطو

في رأيي - وأعرف أن ما أقول سيجلب لي الأهوال - أن أرسطو أخطأ فهم أفلاطون تماما وأنه كان مصدر الآراء الخاطئة السائدة في شأن 'نظرية المثل' السقراطية-الأفلاطونية. في معظم ما يكتبه أرسطو عن أفلاطون يُظهر فضله التام في فهم روح وجوهر الفكر الأفلاطوني، لأن توجهه الفلسفي يختلف جذريا عن توجه أفلاطون. دمر أرسطو شاعرية الفلسفة، وإذ دمر الشاعرية قضى على روح الفلسفة. حيث أني في هذا الفصل كنت أتناول سوء الفهم ذلك وتلك الآراء الخاطئة ذاتها، فلن أدخل هنا تفصيلا في معالجة أرسطو لأفلاطون، إنما أكتفي بالنماذج التالية.

في الميتافيزيقا، باب 1 فصل 9، نقرأ: "رغم أن الفلسفة عامة تسعى لسبب (علة) الأشياء المحسوسة، فقد تخلينا عن كل هذا (حيث أننا لا نقول شيئا عن السبب الذي يأخذ منه التغيير منشاء)، وبينما نتوهم أننا نقرر جوهر الأشياء المحسوسة، فإننا نقول بوجود نوع آخر من الجوهر، في حين أن حديثنا عن كيفية كونه جوهر الأشياء المحسوسة مجرد كلام بلا معنى؛ إذ أن 'المشاركة' كما قلنا سابقا لا تعني شيئا" (992 أ، ترجمة و. د. روس W. D. Ross). هذا يخطئ تماما المفهوم السقراطي - الأفلاطوني للصور كسبب لوجود الأشياء وإنما لمعقولية الأشياء، مما يتفق مع نبذ سقراط الصريح لأي سعي لمعرفة أسباب الأشياء المحسوسة. ربما يكون أفلاطون في الديتيمايوس قد دأب فكرة الصور كنماذج، ولكن حتى في ذلك الموضع فإن الصور لم يزد لها أن تكون أسبابا بالمعنى الأرسطي للكلمة.

"وهكذا فإن أفلاطون لم يخطئ كثيرا حين قال بأن هناك من الصور بقدر ما هناك من الأشياء الطبيعية (لو أن هناك أصلا صورا متميزة عن أشياء أرضنا هذه)" (الميتافيزيقا، باب 12 فصل 3 صفحة 1070 أ، ترجمة و. د. روس W. D. Ross). مرّة أخرى يتجاهل أرسطو الصور كصفة معقولة ويركز بدلا من ذلك على الصورة كشيء موجود.

فى الأخلاق النيقوماخية *Ethica Nicomachea* نقرا: "ظنّ البعض أنه بجانب هذه الخيرات المتعدّدة هناك خير يقوم بذاته ويسبب أيضا خير كل هذه الأشياء" (باب 1 فصل 4 صفحة 1095 أ، ترجمة و. د. روس W. D. Ross). مرارا وتكرارا يُصرّ أرسطو على أن يأخذ الصور باعتبارها أسبابا بمعنى لم يقصده لا سقراط ولا أفلاطون. وبينما كان أثنى ما منحه أفلاطون للفلسفة هو إدراكه أن أعرق حقائق الفلسفة لا يمكن إيصالتها إلا من خلال الأسطورة والمجاز، فإن أرسطو، إذ يعامل الأسطورة كواقع، يقضى على أعرق بصيرة.

إن 'المفاهيم الكلية السابقة للشيء' *universalia ante rem* عند أفلاطون (وليغفر لنا أفلاطون أن ننطقه بهذا اللسان البربرى) كانت مجرد مجاز وشعر وتحليق فى أجواء التصوّف. كان الشعر والتصوّف يضيئان بنور بصيرة رائعة، لكنّه أبدا لم يحبس البصيرة فى قالب الصلب لنظرية مكتملة. أما 'المفاهيم الكلية فى الشيء' الأرسطية *universalia in re* فهى تبويبات منطقية، مفيدة جدًا، لكنها إذ تفتقر للشعر والتصوّف تُبقي أعيننا مشدودة إلى عالمتنا السفلى.

وللأسف فإن معظم المحدثين يأتون إلى فلسفة أفلاطون عامة، وإلى مفهوم الصور خاصة، وقد ألصقوا بعيونهم عدسات أرسطية، وبالتالي فإنهم يخطئون قراءة كل ما يقول أفلاطون. كى نفهم مقولة الصور السقراطية الأفلاطونية، علينا أن نخلص أنفسنا من كل التراكمات والارتباطات التى تجمعت حول ما يسمّى بمسألة الكليات *universals* بدءا من أرسطو وعبورا بـ أوغسطين Augustine والمدرسين حتى كواين Quine وبتنام Putnam

وأتباعهم. لا يمكننا أن نحظى بفهم صحيح للمبدأ الأصلي باستراق النظر من خلال تلك الأدغال المعتمّة.

الفصل الثانی عقلانية فلسفة سقراط الأخلاقية

1

من المعتاد النظر إلى فلسفة سقراط الأخلاقية بوصفها تتكوّن من مجموعة من المفارقات: وحدة كل الفضائل؛ معادلة الفضيلة بالمعرفة؛ مبدأ أن معاناة الظلم أفضل من اقتراف الظلم؛ وقمة المفارقات أن أحدا لا يقترف الظلم بإرادته. يحيطون الرجل في كتب الفلسفة بكل التبجيل الظاهري الذي يليق بمكانته العتيقة في التاريخ، لكنهم يصرفون النظر عن أرائه بهزة كتفٍ مستهينة: كان من الممكن لسقراط أن يعتنق تلك الآراء لأنه كان من السذاجة بحيث كان يجهل أن الإنسان يتركّب من عديد من الملكات والقوى والنوازع؛ كشف لنا أفلاطون ذلك وأكّده كل فلسفة لاحقة؛ من ذا في يومنا هذا هو من الغباء بحيث لا يعرف أن العقل والإرادة عالمان يفصل بينهما بون شاسع ومن ذا لا يستطيع التحدّث عن جحيم الأغوار المظلمة للعقل الباطن والعقل اللواعي؟ إلا أنني أعتقد أننا نملك في محاورات أفلاطون الباكورة – التي يمكن أن نطمئن لكونها تعطينا بيانا صادقا عن فكر سقراط – فلمسة أخلاقية متعمقة ذاتيا ويمكن تبريرها تماما وأن محاورات الفترة الوسيطة والفترة المتأخرة لا تعدلها ولا تضيف إليها.

دعوني أولا أوضح ما أعني بمصطلح العقلانية، وأبدأ بأن أبين ما لا أعنيه بهذا المصطلح. إنني لا أعني قابلية الإثبات بالبرهان، فالمبادئ والقيم، في

نظري، ليست قابلة للبرهنة ولا للتحقق الموضوعي. ماذا أعنى إذن بالعقلانية؟ يكون الموقف النظري أو التوجّه الفكري عقلانياً حين يتولد في اتساق ووضوح من مفهوم أساسي أو من منظومة أساسية من المفاهيم المترابطة. على أساس هذا الفهم للعقلانية أقول بأن فلسفة سقراط الأخلاقية باهرة العقلانية. واتساقاً مع المعيار الذي اتخذته للعقلانية، من الجلي أن على أن أبداً ببيان المفهوم الأساسي أو منظومة المفاهيم الأساسية التي تولدت عنها تلك الفلسفة.

في اللغة اليونانية (واللغة هي الروح المجدّدة لشعب من الشعوب)، فضيلة *aretê* الشيء هي الخاصية أو الصفة المميّزة لذلك الشيء. فإذا قرنا بهذا منظور أن كل كينونة هي ذات قيمة (وهو منظور يتوافق وطبيعة شعب ممثلي حيوية، محب للطبيعة، مرّحّب بالحياة) نرى أن هذا المفهوم يمكن أن يُترجم في يسر واتساق إلى القول بأن فضيلة *aretê* الشيء هي كماله فيما يتميّز به. لم يكن سقراط بحاجة لأن يخترع هذه الفكرة، فقد كانت جزءاً أصيلاً من تراثه الثقافي.

ما أضافه سقراط المفهوم الأساسي الذي هو البذرة المنبئة لكل فكره، هو أن ما يشكل الصفة المميّزة والكمال الخاصّ للإنسان هو ما كان سقراط غالباً ما يشير إليه ببساطة بعبارة: ذاك الشيء فينا الذي ينفعه فعل ما هو صواب ويضرّه فعل ما هو خطأ. في المحاورات يُطلق أفلاطون على ذلك الشيء اسم الروح *psychê*، لكنني أعتقد أننا نكتسب فهماً أوضح لفكر سقراط إذا ما أسميناه العقل *nous* أو *phronêsis*: ليس التفكير بالمجردات، بل العقل الفاعل، العقل في فعله، وهذا ببساطة هو الفضيلة في أكمل وأحسن معنى. هذا الكلّ، جوهر إنسانيتنا هذا، هو ذاك الشيء فينا الذي الذي يزدهر ويثري بفعل ما هو صواب ويلحق به الأذى بفعل ما هو خطأ.

حالما نرى الفضيلة باعتبارها صلاح جوهرنا المكنون يصبح من السخف أن نطلب تبريراً للفضيلة. أكثرنا يقرّ بأن الحياة بجسد سقيم ليست حياة جديرة بأن نحياها، فهل يجدر بنا أن نحيا إذا ما سقم فينا ذاك الذي يعطينا قيمتنا التي نختصّ بها؟ أهم ما يهمّ إنساناً ذا قيمة حقّة ليس أن يحيا بل أن يحيا الحياة التي يتميّز بها ككائن إنساني. إن يكن الأمر كذلك، فهل نعجب إن وجدنا الفضيلة

والعقل شيئا واحدا؟ إن وجدنا كلَّ الفضائل متحدة؟ إن وجدناه بديهياً أن أحدا لا يرضى - عارفا واعيا - أن يلحق الضرر بذاك الذي هو أئمن ما يملك؟

تماما كما أن سقراط لم يفصل الروح عن الجسد - أو على أي حال لم يركز على الانفصال بقدر ما فعل أفلاطون أحيانا - فإنه بالمثل لم يجرى الروح إلى ملكات منفصلة. تجربة أن يعرف المرء ما هو صواب ويفعل ما هو خطأ لم تكن عند سقراط صراعا بين جزئين أو أجزاء من الروح، بل كانت تعنى فشل الروح ككل، فشل الشخص ككل، في أن يكون واضحا في تحديد أهدافه وترتيب قيمه. لا يمكن فصل الإرادة عن العقل. الإنسان ككل هو الفاعل. ربما كنا في ممارستنا التعليمية نجده ضرورياً أن نتحدث عن ترويض الإرادة إلى جانب ترويض العقل. ولكن ما ذلك إلا لأن الإنسان ينطوى على عدة مستويات من الكينونة وهو لا يحيا دائما على أعلى مستويات كينونته. لكن الإنسان إذ يحيا كما هو جدير بالإنسان أن يحيا، لا يمكن أن يفصل عنده فعل ما هو صواب عن معرفة ما هو صواب. (هذه هي مشكلة الغواية ⁽¹⁶⁾ *akrasia* التي كثر النقاش حولها والتي أتناولها في أكثر من موضع فيما يلي، وعلى الأخص في الفصل الرابع، "البروتاجوراس").

صحيح أن قول سقراط بوحدة الفضيلة والفهم لا يستقيم كسيكولوجيا للسلوك الإنساني، لكنه أبداً لم يقصد به أن يكون كذلك. لم يكن سقراط معنياً بأن يكتشف أو يلاحظ أو يصف أو يفسر كيف يتصرف الناس تحت الظروف المعتادة أو الظروف الواقعية (وهذه كلها مجالات مشروع للبحث العلمي). كان هم سقراط الأوحده أن يبين كيف يتصرف الناس إذا ما تحقق في أنفسهم كمال طبيعتهم الخاصة ككائنات عاقلة وأن يبعث فيهم التطلع لتحقيق ذلك الكمال. حين يقرّر سقراط أن أحدا لا يقترف الخطأ الأخلاقي بإرادته فإنه إنما

(16) الكلمة اليونانية *akrasia* صيغة متأخرة من كلمة *akrateia* التي يعرفها المعجم بالعجز عن ضبط النفس، وقد جهت لأجد كلمة عربية تزدى المعنى المطلوب، ولم أجد خيراً من كلمة 'الغواية'. وقد احتل هذا المفهوم بذرة الكثير من مناقشات الفلسفة الأخلاقية وخاصة في التعقيب على الفلسفة الأخلاقية لسقراط وأفلاطون. وأشهر موضع عالج فيه أفلاطون هذا المفهوم في كتابته نجده في ختام البروتاجوراس، 348ج-360هـ.

يقرّر أن من يقترف الخطأ يتصرّف بإرادة معطوبة، بفهم معطوب وبحريّة معطوبة. الإرادة والفهم والحريّة، بالمعنى الصحيح، هي أوجه وأبعاد من كلّ واحد، من كمال واحد. حين نظنّ أننا نملك أيّاً من هذه في انفصال، فإنّ الفحص الصحيح يُظهر أن العيئة التي بحوزتنا زائفة، أو، في أحسن الأحوال، هي محاكاة هزيلة للحقيقة. هذا درس الحوار السقراطي، حيث نبدأ بالبث عن طبيعة فضيلة معيئة، فإذا بنا نجدها تتحوّل كالهرباء إلى أخرى ثمّ أخرى وفي النهاية تفلت من بين أصابعنا فلا يمكننا الإمساك بها. هذا أيضاً درس محاورّة مثل الديميباس/الصغرى حيث يقود سقراط هيبياس إلى نتيجة لامعقولة مؤدّاها أن من يقترف الخطأ والأمور المشينة لا يمكن أن يكون غير الرجل الخير: الدرس الحقيقي هو أن هذا شيء يستحيل أن يكون. فقط حين تكون شخصيتنا مشرّنة، وعلى مدى ما تبقى شخصيتنا مشرّنة، يمكن لرغبتنا وعقلنا أن يمضيا في طريقين مقترقين لا يلتقيان. حين تكون شخصيتنا متوحّدة بطريقة سوية لا يمكن أن نرغب في شيء يحكم عقلنا بأنه رديء، ولا يمكن أن نحكم بأن شيئاً ما حسن دون أن نرغبه. مفارقة سقراط تبرا من اللامعقوليّة حين تُطبّق على الشخص المثاليّ في عقلانيّته.

حين نرى سقراط كشخص عبيط وحين تبدو لنا فلسفته الأخلاقيّة كتلة متشابكة من المفارقات، فما ذلك إلا لأننا نحكم عليه بمسلماتنا، نحكم عليه بمعايير قيمنا الشائعة. إن الرجل يستحقّ منا أن ننظر لموقفه في ضوء مبادئه. كان سقراط يدرك أن موقفه يبعد كثيراً عما هو مقبول عامّةً وعمّا يُعتبر جلياً وواقعياً. فهو بعد أن يقرّر أننا "ينبغي ألا ننتقم أبداً أو نردّ الشرّ بالشرّ لأيّ أحد، مهما كان الشرّ الذي كابدهناه منه"، يمضى فيقول: "هذا الرأي لم يعتقه أبداً، ولن يعتقه أبداً، عدد كبير من الناس؛ وأولئك الذين يتفقون وأولئك الذين لا يتفقون على هذا ليس بينهم فهم مشترك، ولا يمكن إلا أن يحتقر بعضهم البعض إذ يرون اليون السامع الذي يفصل بينهم." (الكرتيون 49 ج - د. الاقتباس في الأصل الإنجليزي من ترجمة جويت (Jowett)).

حين يقول كرتيون لسقراط إن رأى الكثرة يجب أن يؤخذ في الاعتبار لأنهم قادرون على أن يلحقوا أعظم الشرّ بكلّ من لا يرضون عنه، بجيبه سقراط بقوله: "ليت الأمر كان كذلك، ليت الكثيرين كانوا قادرين على أن

يصنعوا أعظم الشرّ، إذن لكانوا أيضا قادرين على أن يصنعوا أعظم الخير".
 الإرادة قوّة، وهي كلّ لا يتجزأ، وهي وحدة واحدة مع الفاعليّة العاقلة. أولئك
 الذين يقترفون الخطأ ليسوا فاعلين — ما يصدر عنهم ليس فعلا يفعلونه بل هو
 اضطراب تحت سطوة الانفعال، كما يعلمنا سبينوزا Spinoza. إنهم ليسوا
 أحرارا لأنّ 'فعلهم' تحكمه وتحدّده عوامل خارجيّة. إننا لسنا بحاجة لمعادلة
 بارعة تستخدم رموزا حاذقة لنقيم 'البرهان' على هذا الموقف. كل ما يمكن
 لمثل هذه المعادلة أن تبيّنه هو أن نتيجة صوريّة ما يمكن أن تُستمدّ من مفهوم
 صورى ما يمكن دائما مع ذلك تهذيبه بحيث تصبح النتيجة تلك غير متمسكة مع
 المفهوم. سقراط لا يعطينا صيغة نظرية، بل يعطينا فكرة حيّة لا يمكن أبدا أن
 تحتويها أى صياغة محدّدة.

في الجورجياس يرفض كاليكليس أن يقرّ بان "اقتراح الظلم أحقر من
 معاناة الظلم". ولا يستطيع سقراط أن يبرهن له على أن الأمر كذلك، فالمثّل
 والقيم لا تقبل البرهان. لا يستطيع سقراط أن يفعل غير ما 'يتهمه' كاليكليس
 بحقّ بفعله: يقدّم على مستمعيه فكرة 'مبتللة'. هذا فدوى كلّ تعليم أخلاقي.
 ومرة أخرى كان كاليكليس مُحَقّقا، بمعنى ما، في توكيده أن فكرة سقراط أساسها
 فى العُرف وليس فى الطبيعة. هناك طبيعة فطريّة فى طبيعتنا، لكنها طبيعة
 تشاركنا فيها كل الكائنات الحيّة، وربما كل كينونة، لكن هذه ليست هى الطبيعة
 التى نخصّص بها ككائنات إنسانيّة — هذه الطبيعة هى نتاج مثاليّات ننشئها نحن
 ونحتضنها بحريّة.

لكوننا فى جوهرنا كائنات عاقلة، فإننا نحيا الحياة المميّزة لنا كجنس
 إنسانى، الحياة التى ليس لنا حياة حقّة سواها، فى عالم أهل بالمفاهيم والمثّل التى
 ينشئها عقلنا. أن نفهم الطبيعة الحقّة لهذه المفاهيم والمثّل يعنى أن نعرف أنفسنا،
 أن ندرك كمالنا الخاصّ ككائنات إنسانية. برغم كل النقد المنطقي، والتحليل،
 والنقاش، الذى تحويه المحاورات، فإننا لا نجد سقراط يتقدّم بحجّة لإثبات أى
 من مقولاته الأساسيّة أو مبادئه. ففرض سقراط الحقّ، كما كان يقرّر دائما، لم
 يكن أن يمتحن أيّة مقولات أو نظريات، بل أن يمتحن ذاته ويمتحن محدثه.

بعض الباحثين يريدنا أن نصدّق أن سقراط يعادل فعل ما هو حسن بالفلاح
 بسبب فشل سقراط فى أن يتنبّه لازدواجيّة المعنى فى التعبير اليونانى *eu*
pratein الذى كان يستخدم بمعنى أن يُحسين المرء صنع الشئ، وأيضا بمعنى

أن يَحْسُنْ حاله. لكن هذه المعادلة كانت جزءاً لا يتجزأ من فلسفته ككل. بدلا من أن نحسب أن سقراط اختلط عليه الأمر تحت تأثير المعنى المزدوج للتعبير اليوناني، الأجدر بنا أن نرى في ازواج المعنى هذا شاهدا على البصيرة الأخلاقية للشعب الذي أعطى التعبير معناه المزدوج.

أوجب الواجبات للكائن الإنساني عند سقراط هو العناية بأئمن جانب من شخصيتنا، وهو ما يُسمى الروح - ليس، كما قد توحى لفة أفلاطون أحيانا، بالنظر لخلود الروح، ولكن لأن طبيعتنا الحقة وكل قيمتنا تكمن في ذلك: أن نخون ذلك المقصد السامي يساوى انتحارا روحيا.

كى نفهم فلسفة سقراط الأخلاقية بصورة سليمة علينا أن ننظر إليها فى ضوء حياته الخاصة، فلسفته وحياته حقا لا يفصلان. كان سقراط مثالا حيا للاختيار الأخلاقى: كانت حياته كلها اختيارا أخلاقيا واعيا. أن نمارس الاختيار الأخلاقى يعنى أن نعترف بأن المبادئ والقيم الأخلاقية تشكل إنسانية وقيمة الكائن الإنساني. جوهر الاختيار الأخلاقى أن يفضّل الكائن الإنساني، رجلا كان أم امرأة، قيمته الجوهرية على القيم الزائفة التى تتبع من منظور ضيق أو من وهم. لهذا كان سقراط يرى أن اقرار الخطأ الأخلاقى ليس إلا جهلا. هكذا فإن أولئك المُدَّج الذين يسمعون بأن يقع عليهم الظلم من الغير مفضلين ذلك على أن يوقعوا الظلم بالغير هم أكثر حكمة وأحسن حفظا من أولئك الشطّار الذين يُعلون قيمة المكسب المادى أو المجد أو السلطة. إن وجدنا هذا يصعب فهمه أو تصديقه، فما أسوأنا حالا! فإن هذا يُظهر كم لحق بطبيعتنا (طبيعتنا البشرية وطبيعتنا البنينة على حدّ سواء) من فساد بفعل المؤثرات الخبيثة للأيدولوجيات الرديئة والممارسات الرديئة.

2

الـجورجياس واحدة من أحبّ محاورات أفلاطون عندى. فى كل إعادة قراءة أجد نفس المتعة والرفعة الروحية. إنها تتكوّن من ثلاث محاورات كلّ منها مكتملة ذاتيا، إلا أنه يجرى خلال الثلاث تيار تحتى مشترك من الفكر. موضوع المناقشة الظاهرى هو فنّ الخطابة. لكن أفلاطون لا يجعلنا نتنظر

طويلا قبل أن يكشف لنا أنه يعتزم أن يبيّن الفرق بين الخطابة والديالكتيك (بمعنى التحوار المخلص الذي يهدف للفهم لا للنصر في المناظرة). في 448- د يقول سقراط إنه من الواضح مما قاله پولوس أنه كان يمارس الخطابة لا الديالكتيك، *dêlos gar moi Pôlos kai ex hôn eirêken hoti tên kaloumenên rhêtorikên mallon memeletêken ê dialegesthai* ونكتشف أن الخطابة تهدف للإقناع، خيرا كان ذلك أم شرًا، بينما يهدف الديالكتيك لأن يمتحن المرء ذاته ويمتحن محتثه، وفي منتهى الأمر يتّضح أنه يتعلق باهتمام واحد رئيسي: أن يعرف ما أحسن حياة للإنسان. هكذا تقودنا مناقشة طبيعة الخطابة في السجورجياس، في مرحلة إثر مرحلة، عبر الحوارات المتتالية مع جورجياس ثم پولوس ثم كالكليس، إلى تمحيص لمبادئ الأخلاق يتبلور في هذا السؤال تحديدا: ما أفضل حياة للكائن الإنساني؟

في حوار مع كالكليس يقول سقراط إنه هو وكالكليس عاشقان لمحبوبتين مختلفتين تماما. هذا تصوير صحيح للواقع، فسقراط لا يستطيع أن يثبت أن عشق كالكليس غير صحيح، إنما عليه أن يظهر أنه أدنى قيمة.

يؤسس كالكليس دعواه على التمييز بين العُرف والطبيعة. لكننا نستطيع على أساس هذا التمييز ذاته أن نبرّر القول بامتياز أخلاق المثالية 'السامجة'؛ فإن يكن الإنسان إنسانا بفضل أفكاره - وهذا مبدأ سقراط الأساسي - فعندئذ تكون الحياة التي يحكمها عرف معين هي الحياة التي يختصّ بها الكائن الإنساني. أن نحيا بمقتضى الطبيعة (لا بمعنى في تواصل وتناغم مع الطبيعة على مذهب ثورو Thoreau وإنما في خضوع للطبيعة على مذهب هوبز (Hobbes) يعنى أن نحيا على مستوى دون مستوى الإنسان.

خطوة فخطوة يدفع سقراط كالكليس لأن يهتّب فكرته عن الشخص الأسمى إلى أن يتّضح أن هذا السموّ يكمن في العقل ولا شيء سواه.

لا يستطيع كالكليس أن يكون منسقا في التمييز بين الخير واللذة (495أ) ما دام لا يملك معيارا للخير غير اللذة؛ فحتى إن قرّرنا أن نقصر على اختيار اللذات الرفيعة، سنجد أننا نفتقر لمعيار للتمييز بين اللذات الرفيعة وغير الرفيعة، ويلزمنا للتمييز بينها معيار غير اللذة.

يتساءل پولوس مستغرباً: ألا يملك الطغاة والخطباء قدرة عظمى فى الدولة؟ ويجيب سقراط: كلا، إن يكن امتلاك القدرة شيئاً طيباً لمن يملكها، *ouk ei to dunasthai ge legeis agathon ti einai tōi dunamenōi* (466 ب). فى عبارة واحدة خصبة نجد نواة الفلسفة الأخلاقية لسقراط. القوة (القدرة) بغير عقل لا خير فيها. وإن تكن إرادة أى شىء هى استهداف ما هو خير، فإذن تكون الإرادة، من حيث تختلف عن الانجراف مع الظن (الاعتقاد)، لا انفصال لها عن الفهم الحق، ويتبين لنا أن قول سقراط بأن أحداً لا يفعل الشر بإرادته ليس مفارقة بل بديهية. حين يكون الفعل الإرادى معناه العمل بعقلانية، والعمل بعقلانية يعنى استهداف الخير، عندئذ يكون القول بفعل الشر إرادياً منطوياً على تناقض ذاتى. ثم إنه ليس هناك خير غير صلاح العقل الفاعل. حالما نستوعب الفكر الذى تتضمنه الصفحة الواحدة 466 من الجورجياس، ندرك أن كل الجدل الذى يدور بين الباحثين المتبحرين حول مقولة سقراط هذه ما هو إلا تخبُّط فى الظلام.

حين يؤكد سقراط أن الطغاة والخطباء يفعلون ما يظنونه الأحسن ولكنهم لا يفعلون ما يريدون، يعجز پولوس عن إدراك أن سقراط يؤسس تمييزاً ذا مغزى، فيصيح: ما نقوله كلام أخرق وسخيف. باحثونا المتبحرون فى العلم يقفون موقف پولوس حين يفشلون فى أن يروا أن 'مفارقات' سقراط متسقة تماماً حين نراها فى ضوء مفهومه للخير الأوحد والنهائى للإنسان: صلاح روحه.

رغم أن پولوس كان قد أقرّ خلال الحوار أن فعل المرء لما يرغب لا يعنى أنه ذو قوة ولا يعنى أنه يفعل ما يريد (468 هـ)، فإنه يتساءل فى استغراب ما إذا كان سقراط لا يودّ أن يفعل ما يرغب. إنه لا يحاور بل يناظر. لا هو ولا سقراط يعمل على إثبات أطروحة نظرية بالبرهان. كلاهما يدعو لتوجّه معين، يبرّر اختياراً تبنّاه.

يحدّد سقراط موقفه ببساطة تامة: أفدح الشرور أن يقترف المرء الظلم (469 ب). من هذا يتبع بالضرورة أن معاناة الظلم شرّ أهون من اقتراف الظلم

(469 ج). هاتان لازمتان منطقيتان يستتبعهما القول بأن أعظم خير هو صلاح الروح. اقتراف المرء للظلم يؤذي روحه: لا يمكن أن يكون هناك شرٌّ أفدح من هذا. هذا قلب الفلسفة الأخلاقية لسقراط وأفلاطون. نفس الموقف نجده في الـ كريتون، وفي القوانين، وفي القوانين. هذه هي العقيدة التي قادت أفلاطون لأن يرى في سقراط أفضل وأحكم الناس وأكثرهم صلاحا؛ إنها العقيدة التي تمسك بها أفلاطون طوال حياته ودعمها في كل أعماله.

التحدى الذي يلقي به پولوس إلى سقراط في 470 ج - د هو نفس التحدى الذي يتقدم به أنيمانوتوس وجلاوكون في الباب الثاني من الجمهورية، مع اختلاف الروح الموعزة بالتحدى في الحالتين. لا عجب في ذلك، فهما كان ما طوره أفلاطون في الفلسفة التي أخذها عن سقراط وما أضافه لتلك الفلسفة، ففي مجال الفلسفة الأخلاقية بقي أفلاطون سقراطيا خالصا من البداية حتى النهاية.

يسأل پولوس سقراط ما إذا كان يظن أن أرخيلوس ملك مقدونية أو الملك الأعظم (أي ملك الفرس) سعيدا أم شقيًا، فيجيبه سقراط بأنه لا يستطيع أن يحكم إذ أنه لا يعرف ما حظ الرجل من التربية والصلاح *ou gar oida paideias hopôs echei kai dikaiosunês* (470 ه). يتساءل پولوس غير مصتق: "أتجد كل السعادة في هذا؟" - "نعم، الرجل المهذب الطيب أو المرأة المهذبة الطيبة سعيدان، وغير الصالح والشّرير شقيّ" *ton men gar kalon kai ton de agathon andra kai gunaika eudaimona einai phêmi adikon kai ponêron athlion* (470 ه). — كيف يمكن لأي أحد أن يتحدث عن فلسفة سقراط الأخلاقية بوصف أنها تقوم على مفارقات، هذا شيء لا أستطيع فهمه. في هذه الكلمات المعهودة أرى اتساق وعقلانية فلفسة سقراط الأخلاقية واضحة شفافة تماما.

في 474 ج - يسأل سقراط پولوس: أيهما أقيح، اقتراف الظلم أم معاناته؟ يوافق پولوس على أن اقتراف الظلم أقيح. يمضى سقراط قائلا: إذن هو الأسوأ؟ فيردّ پولوس: كلا، على الإطلاق. — كثيرا ما يقول المعلقون إن سقراط في حُججه يستغلّ ازدواجية المعنى في الكلمات *aischron* (قبيح أو سيئ)، *kalon* (جميل أو حسن)، *eu prattein* (يُحسِن عملا أو يَحسُن حالا)، وما إليها. سقراط فيما أرى، لا يستغلّ هذه المعاني المزوجة للمغالطة، إنما يكشف

البصيرة الأخلاقية الحقّة التي عملت في الأصل على مزاجية تلك المعاني في هذه الألفاظ. أحيانا لا يجد أفلاطون ضرورة لأن يظهر عملية الكشف هذه صراحة، لكن في هذه الفقرة نرى بولوس يرفض معادلة *aischron* (القبیح) بـ *kakon* (السيئ)، ويكون على سقراط أن يقدم تبريره لمعادلة المعنيين، ويبيّن أنه لا يستغلّ غموض اللفظ سفسطياً بل يكشف بصيرة حقّة مضمرة في هذا المزيج اللغوي. أعتقد أننا ينبغي أن ننظر للمسألة هكذا، بصرف النظر عما نراه في الحجّة المقّمة هنا (474 د-475 هـ). في رأيي أن الحجّة هنا، ككلّ الحجج في الفلسفة، ليست برهانا على شيء، إنما تكمن قيمتها في أنها تكشف لرفيق الحوار، تكشف لنا، أن أحكامنا العامة عن الصواب والخطأ، عن الحّمّن والرديء، مفعمة بالخلط والغموض — تلك هي الوظيفة الحقّة والقيمة الحقّة للحوار السقراطي.

من الواضح أن الحديث الختامي (في هذا الجزء) الذي يوجّهه سقراط إلى بولوس مقصود به أن يكون عبثياً وألا يؤخذ بجديّة. إنه يتناقض تناقضاً صريحاً وتاماً مع ما يؤكده سقراط في الكريتيون من أنه لا يصح أبداً ردّ الشرّ بالشرّ. (الحاشية التي يذلل بها هاملتون Hamilton هذه الفقرة في ترجمته للـ جورجياس Penguin)، (1960 صانبة تماماً).

4

جاء احتجاج كاليكليس، الذي ربما كان باعته المباشر هذا الخطاب العبثي الأخير لكنه كان في جوهره موجّهاً لموقف سقراط الأساسي، جاء شديد اللامحابة. إذا أخذنا ما يقوله سقراط مأخذ الجدّ، إذن لوجب أن ينقلب سلوك البشر رأساً على عقب، فنحن الآن نفعل العكس تماماً مما ينبغي أن نفعل حسب قول سقراط (481 ب - ج). لكن ذلك بالضبط هو ما ينادى به سقراط.

يؤكد سقراط لكاليكليس أنه سيلتزم دائماً بما تمليه الفلسفة (العقل) حتى لو ناقضه كل شخص آخر (482 أ - ج). رغم أن سقراط يعبر عن موقفه هنا بأسلوب فيه دعابة، إلا أن الموقف هو نفس الموقف الذي يعلنه في الكريتيون بجديّة تامّة: "حيث إنني الآن، وكنت دائماً، لا أقتنع في شئوني بغير ما يشير به

العقل، إذ أتدبر الأمر فأراه الأحسن" *hōs egō ou nun prōton alla kai aei toiousō hoios tōn emōn mēdeni allōi peithesthai ē tōi* (46 ب)، الترجمة الإنجليزية لـ جويت (Jowett).

هجوم كالكليس في 482 ج - هـ رغم عتفه ولغته المسببة، هو في مجمله مُجَوِّقٌ ولَمَاحٌ وفي الصميم — من منظوره هو. إلا أن سقراط لم يكن يستقل قولاً سلّم به محاوره رياءً وبغير اقتناع، بل كان يُظهر مثالا يتبناه هو بإخلاص. مرّة أخرى يعترض كالكليس: "إنك في الواقع يا سقراط برغم ادّعائك السعي للحقيقة، تفحم أقاويل العامة المبتذلة التي ليست حسنة بحكم الطبيعة بل بحكم العُرف" (482 هـ). لا أحد يستطيع أن يقمّ البرهان على أن أخلاق الخير أحسن من أخلاق الشرّ: الشيطان من حقّه أن يُفضّل أن يحكّم في الجحيم على أن يخدم في السماء — ولو أن تلك الخرافة غير واقعية، لأن الشيطان لو كان قد مرّ حقاً بتجربة أن يخدم في سماء روحانية لما قبل أن يستبدل بذلك أي شيء آخر⁽¹⁷⁾. ومن جديد، يقرّر كالكليس أن الفكرة التي يتقّم بها سقراط ليست حسنة بحكم الطبيعة بل بحكم العُرف: *ha phusei men ouk estin kala nomōi de* — هذا صحيح، فالقيم الأخلاقية، في صورتها الإنسانية المميزة، هي إبداعات ثقافية. هذا لا يناقض حقيقة أنّ لها جذورا في الطبيعة، كما يشهد بذلك واقع التعاون والتعاطف والإنصاف وصفات أخرى كهذه نجدها بين غير البشر من الحيوانات.

لن أتوقّف طويلا عند عرض كالكليس لفسفته، فهي شائعة مألوفة بيننا. إن يكن معظم الأفراد في حياتهم الخاصة يتبعونها مع تلطيها ببعض الاعتبار للمعاليات العليا، إلا أنها في المعترك الدولي تكاد تسمود سيادة مطلقة. قنّم للناس آراء مكياڤيللي Machiavelli أو هوبز Hobbes قلن يروا في ذلك غير ما هو مألوف ومستلم به، ولكن حاول أن تعرض آراء تولستوى Tolstoy أو

(17) عبارة "يفضل أن يحكم في الجحيم على أن يخدم في السماء" اقتبس من ملحمة جون ملتون John Milton العروس المفقود *Paradise Lost*.

غاندى Gandhi وسوف يستقبل الناس ذلك بالسماح المهذب والاستمتاع اللائق
بسماع حنوتة خيالية لطيفة.

يواصل كاليكليس نقده المبني القوي المرير، فيعمد أفلاطون لأن يجعله
يخصص الجزء الثاني منه لهجوم على الفلسفة كشاغل يشغل حياة باكملها
(484 ج- 486 د). هذا يضاهي النقد المماثل على لسان أديمانتوس في
الجمهورية 487 ب - د. في كلتا الحالتين يهتم أفلاطون بتصحيح النظرة
الشائعة عن الفلسفة كشيء غريب عن الحياة العملية. عند كل من سقراط
وأفلاطون نجد أن الحياة الفلسفية، التي هي واحدة مع حياة الفضيلة، هي وحدها
الحياة التي يختص بها الكائن الإنساني. الفايديون- إن فهمت فهما صحيحا -
هي في جوهرها دفاع عن الحياة الفلسفية، وكل أعمال أفلاطون بغير استثناء
القصدها منها خدمة تلك الغاية.

في 488 ب - د يتحدث سقراط في وضوح تام وبنقّة موضوع المجابهة بينه
وبين كاليكليس. أتى معنى علينا أن نعطيه لكلمة 'أحسن'؟ كاليكليس عاتل في
وضوح بين 'أحسن' و'أقوى'. فما الذي يجب أن نفيه بهذه الكلمة الأخيرة؟ في
الأمثلة التي أتى بها كاليكليس من محيط السياسة، لا تعنى الكلمة شيئا غير القوة
الغاشمة. يُضطرّ كاليكليس، كما يضطرّ ثراسيماخوس في الجمهورية،
للاعترااف بأن هذا غير مقبول في محيط المعاملات المدنية والشخصية. فيما
يلى ذلك يهدف سقراط لأن يبيّن أنه لا شيء غير العقل والكمال الأخلاقي يمكن
أن يعطينا مفهومهما واضحا للقوة يتسق مع نظرنا لأنفسنا ككائنات عاقلة.

الأمثلة التي يقدّمها سقراط في البداية (490 ب-هـ) لطبيب يأخذ طعاما
أكثر، لنسّاج يحوز على معطف أكبر، لمزارع يستخدم بذورا بكم أكبر في
أرضه، هذه الأمثلة الغرض منها ببساطة إيضاح أن الفكرة التي ينادى بها
كاليكليس هي حتى هذه المرحلة من النقاش غائمة وتنقصها الدقّة. بعد ذلك يقدّم
سقراط فكرة على أعظم قدر من الأهمية هي فكرة سيطرة الإنسان على ذاته
كضرورة للفضيلة. أن يكون المرء محكوما برغباته وانفعالاته، ليس قوة بل هو
على العكس، كما قرّر سبينوزا Spinoza، عجز وعبودية. عند سقراط كما عند
سبينوزا، لا انفصال بين الفعل والإرادة والعقل. لكن هذه مثالية يرفضها
كاليكليس من حيث المبدأ. وعلى هذا، فبدءا من هذه النقطة حتى النهاية لا مجال

لأى حاجة (المحاجة لا يمكن أن تمضى فُتْما إلا على أساس أرضية مشتركة، افتراضات مشتركة)، إنما يكون الأمر مناظرة بين مثالين متعارضين للحياة. لجا سقراط لأمثولات وتشبيهات لا تجد صدق عند كاليكليس، وحتى أولئك من بيننا الذين هم أساسا منحازون لسقراط وأفلاطون يُحتمل أن يروا مبررا لكاليكليس فى هذا. لا نجد أنفسنا مرة أخرى بإزاء أفكار خصبة إلا حين يمضى سقراط فيثير مسألة ما إذا كان علينا أن نعدل اللذة بالسعادة ببساطة وبصورة مطلقة (494 هـ - 495 ب).

فى تذييل على الفقرة 496 هـ يشير هاملتون (Penguin)، (p.99) Hamilton إلى عودة أفلاطون لمناقشة اقتران اللذة بالألم فى السقراطىوس، ثم يضيف: "حجة الجورجياس، التى تتناول كل لذة باعتبارها 'مختلطة'، هى بشكل واضح غير مرضية." لكن لا حجة يمكن أبدا أن تكون مرضية بشكل دائم ونهائى. هنا يحاجج سقراط ضد معادلة كاليكليس المطلقة بين اللذة والخير، ويحاجج على أساس مقدمات نال موافقة كاليكليس الصريحة عليها. هذا هو الاستخدام السلم الوحيد للحجة، الكشف عما ينطوى عليه موقف معين، لا إثبات أو حوض أى مقولة بصورة نهائية. لا يستطيع سقراط بائى حجة أن يُقنع كاليكليس بأن معاناة الظلم أفضل من اقتراف الظلم، لكنه يستطيع أن يظهر له أن معادلته المطلقة للذة والخير لا تستقيم من الناحية الشكلية، حتى أنه يُضطر أخيرا فى 499- ب لنبذ معادلته التبسيطية للذة بالخير، ويعترف بأن هناك لذات حسنة وأخرى رديئة. ولكن إذا كان ممكنا الحكم على اللذات بأنها حسنة أو رديئة، فلا بد أن يكون لنا معيار لما هو حسن غير اللذة. هذه نتيجة شكلية يمكن إثباتها بالحجة المنطقية. لكن ما يكون ذلك المعيار، تلك مسألة لا يمكن تسويتها بالبرهان. يمكن للحوار السقراطى أن يقود شيبا من أمثال أفلاطون وأنتستينيس وأريستينوس وأيسخينيس لأن يكتشفوا ذلك المعيار داخل أنفسهم. لكن تراسيماخوس أو كاليكليس، بعد أن تصلبت وتحجرت مفاهيم ومواقف كل منهما، لا يمكن إقناعه بخطنه فى هذا المجال مثلما يمكن إقناعه بأن طول أحد أضلاع المثلث لا يمكن أن يساوى مجموع طول الضلعين الآخرين أو كما أمكن إقناع الفتى فى الديمون بأن مضاعفة ضلع المربع لا تعطينا ضعف مساحته كما هو مطلوب.

عند 507 ب - جـ يتخلى أفلاطون عن كل مظهر للمحاكاة أو الإثبات بالبرهان ويصوّر ببساطة مثال الشخص الطيب الذي هو نفسه الشخص السعيد، وفيما يلي ذلك فهو ببساطة يعظ ولا يحاجج. إن عقيدة سقراط تلك 'المفارقة' التي كثر سوء الظن بها، مقولة أن أحدا لا يفعل الشر بإرادته، وهو عارف، تأتي ببساطة كنتيجة لازمة من منظور أن من يفعل الشر يؤذى الروح بداخله. هذا المنظور هو ما أسميه فكرة خلاقة، إعلان نبوءة. إنها فكرة تخلق، تأتي إلى الكينونة - بلدق معنى لهذا التعبير - بالروح التي تجد فلاحها في فعل الخير. لأي شخص حظى بمثل هذه الروح، لأي شخص عرف في نفسه مثل هذه الروح، تكون فلسفة سقراط الأخلاقية كلها بديهية. لمن ليس له مثل هذه الروح تكون أي فلسفة أخلاقية خالصة سقراط بلا معنى.

الفصل الثالث الحوار السقراطي

مقدمة

في مجموعة من المحاورات الباكورة، قد تكون أول ما كتبه أفلاطون منها، نجد نمطا مشتركا. في حديث عابر يأتي ذكر فضيلة ما. يُظهر سقراط رغبته في أن يفهم ما نعيه حين نتحدث عن تلك الفضيلة. ما الصفة الخاصة التي نجدها في كل حالات تلك الفضيلة المعيّنة.⁽¹⁸⁾ ذلك ما كان في فكر أرسطو حين قال إن سقراط كان يطلب تعريف المفردات، لكنني أعتقد أننا إن قلنا بهذا نكون قد كسونا سقراط كماءً أرسطوياً، ولن يساعدنا ذلك على فهم المغزى الحق للحوار السقراطي Socratic elenches. يمضى البحث قدماً. يقترح رفيق الحوار إجابة. يطلب سقراط فهما أوضح. لكننا كلما مضينا لأبعد، كلما تعمقنا في البحث أكثر، ازدادت حيرتنا: تبدو كل الفضائل ملتحمة مع بعضها البعض، وبينما نجد بحثنا يشير باستمرار إلى المعرفة، فإننا حين نسأل: "أى معرفة؟"، نجد أنفسنا مرة أخرى تائهين. لا يصل البحث إلى أي نتيجة متفق عليها بل ينتهي دائما بالحيرة *aporia*. من الغريب أنه بينما يعلم كل الباحثين تماماً أن هذه المحاورات السقراطية *elenctic dialogues* تنتهي دائما إلى الحيرة، فإنهم مع ذلك يصرون على أن الغرض منها هو الوصول إلى تعريفات. إنني

(18) في الأصل الإنجليزي سجلت هنا رفضي للمصطلح المستحدث 'instantiation' بدلا عن 'instance'.

أعتقد أن ذلك البحث غير المجدى ظاهرياً والحيرة التى ينتهى إليها هو كل
القصود والغرض من الحوار السقراطى.

يقول هيو تريندينك Hugh Trdennick عند وصفه لمنهج سقراط فى
مقمة *The Last Days of Socrates* (Penguin Books 1954) "حالما يرد لفظ مثل 'الشجاعة' خلال حديث ما، كان يبدأ بالسؤال عن معناه؛
ثم، حين يثبت عدم كفاية الإجابات المقترحة، يمضى فيستشهد بأمثلة مختلفة
للشجاعة، ويظهر أنها، رغم اختلافها فى التفاصيل، إلا أن فيها صفة مشتركة،
بها يمكن التعرف على كنه تلك الأمثلة؛ وهذه الصفة، حين نعبّر عنها بالكلمات،
تكون هى التعريف" (صفحة 10). أعتقد أن هذا يعنى قراءة المحاورات بعين
أرسطية، ويناقض ما يرمى إليه منهج سقراط فى الحوار. حين يسأل سقراط
عما نعنى بـ 'الشجاعة'، فإنه يفعل ذلك على أساس أننا إذ نستعمل مثل هذه
المفردات العامة فإننا نستخدم مفهومًا عامًا، صورة، تنطبق على كل أمثلة
الشجاعة. لكن ذلك المفهوم هو دائماً مراوغ. كلما حاولنا أن نناله، أقلت منا.
الأمثلة التى 'يستشهد' بها سقراط (أو، على الأصح، يأتى بها محاوروه)
يفحصها لا بقصد الكشف عن الصفة المشتركة، بل ليظهر أن صياغاتها
اللفظية، مهما حاولنا تشذيبها، لا تصح فى كل حالة. الصياغات والأمثلة المقدمة
لا تنتهى بنا إلى تعريف مرض، بل إلى إدراك أننا لم نستطع (ولن نستطيع أبداً)
الوصول إلى تعريف: كل محاولتنا تنتهى إلى الحيرة *aporia*، إلى الاعتراف
بالجهل، وهذا هو غاية (بكل معانى كلمة 'غاية') الحوار السقراطى.

فى رأىى أن النظرية الشائعة، التى ترجع لأرسطو، والتى تنظر
للمحاورات السقراطية باعتبارها تسعى لتعريف المفردات، مضللة وفادحة
الضرر. قد يبدأ الحوار السقراطى بسؤال بصيغة "ما هو كذا أو كذا؟" (أمتنع
عامداً عن استخدام الرمز F بدلا من 'كذا أو كذا'، لأن هذا الرمز الذى شاع
استخدامه يجرّ فى أذياله حاشية متخمة بافتراضات وإيعازات أرفضها كلها.)
لكن الحوار لا يصل أبداً إلى تعريف. الـ 'فشل' فى الوصول إلى تعريف لا
يرجع لقصور يمكن علاجه. الفشل المزعوم هو هدف وغرض المسيرة بأكملها.
الحيرة هى التعبير الخارجى لمبدأ الجهل الفلسفى، إدراك أن لا شيء خارج
العقل يمكن أن ينيلنا إبصار ذلك الذى يشكل حقيقتنا وقيمتنا ككائنات إنسانية.

كى نحظى بتلك البصيرة علينا أن ننظر بداخلنا، لنرى تلك الحقائق فى ضوءها الذاتى، ولنذكر أن جماع الحكمة هو، كما يقول سقراط فى *الديالوجون*، أنه بالجمال يكون كل ما هو جميل جميلاً. ذلك هو الدرس الذى تشربَه أفلاطون فى عشر سنوات من صحبة سقراط الذى أراد أن ينقله إلينا. لم يكن ممكناً إيصال ذلك الدرس فى أى صياغة محدّدة أو أى تعليم محدّد. يقول لنا أفلاطون ذلك بوضوح المرّة بعد المرّة. وحتى بعد أن تطوّرت تلك البصيرة عند أفلاطون وأثمرت، فإن أفلاطون لم يسعَ لأكثر من أن يقود قراءه لأن يجدوا تلك البصيرة داخل عقولهم ذاتها. اعتقد أننا نستطيع أن نرى كل أعمال أفلاطون تعمل فى سبيل ذلك الهدف، وإذا ما نظرنا إليها بهذه النظرة، فإننا نجد مغزى عميقاً فى كل ما كتب أفلاطون.

كلّ حوارات سقراط يجربها أداءً لرسالته، ورسالته كانت هى تلك التى يعرضها فى وضوح أمام قضاياه أثناء محاكمته. أيما كان رأينا فى *النفاع كسجّل* صادق لما جرى فى المحاكمة، فمما لا شكّ فيه أن علينا أن نقبل صدق بيان سقراط هناك لما كان يعتبره رسالة حياته إن كان لنا أن نجد فى كل أعمال أفلاطون مغزى.

فى *النفاع* (23 أ - ب) يقول سقراط إن الإله حين أعلن أن ليس هناك من هو أحكم من سقراط فإنما كان يوحى بأن "حكمة الإنسان ضئيلة القيمة، أو بالأحرى، بلا قيمة. ... أكثركم حكمة، أيها الناس، من كان يعرف، كما يعرف سقراط أن ليس له حقاً من الحكمة نصيب." كلّ دارس للفلسفة قرأ هذا، وردّه، واقتبسه، مراراً وتكراراً. لكننا نخطئ خطأ جسيماً حين نمرّ بهذا القول ببساطة باعتباره تعبيراً عن التواضع. إنه أكثر من ذلك كثيراً. إنه يشير إلى مبدأ الجهل الفلسفى الذى هو الأساس لكلّ من نبذ سقراط للبحث عن الأسباب الفيزيقية، كما يخبرنا فى جزء "السيرة الذاتية" من *الديالوجون*، وإحالة أفلاطون لكلّ معرفة موضوعية إلى موضع أدنى فى "الخطّ المنقسم" فى *الجمهوريّة*. فهم الأفكار التى تشكّل العالم المعنوى الذى يكون للناس فيه كياناتهم الإنساني، ذلك وحده تختصّ به الكائنات الإنسانية ويعطيهم قيمتهم ككائنات إنسانية.

بعد الكلمات المقتبسة فى السطور السابقة مباشرة يعلن سقراط أن رسالته هى أن يمضى بين الناس، يحرّرهم من زيف وهم المعرفة (23 ب). حين ندرك

أن كل معرفتنا التي نتباهى بها هي محض زخرف زائل وننظر داخل أنفسنا، عندئذ فقط يمكن أن نبلغ الكمال الخاص بنا ككائنات إنسانية.

يؤكد سقراط بأقوى ما يكون التوكيد أن الشيء الوحيد الذي ينبغي لإنسان ذي قيمة، رجلا كان أو امرأة، أن يأخذه في الاعتبار إذ يفعل أى شيء، هو ما إذا كان يفعل صوابا أم خطأ (بالمعيار الأخلاقي)، *poteron dikaia ê adika prattei* (28 ب). إنه يعتبر رسالته أن يحيا فلسفياً، يمتحن ذاته ويمتحن الآخرين (28 هـ). فإن أقدح وأقذع الجهل أن يظن المرء أنه يعرف ما لا يعرف (29 ب).

يعلن سقراط لقضاته أنه إن عرضوا عليه أن يطلقوا سراحه بشرط أن يتوقف عن ممارسة الفلسفة، فيسكون جوابه:

أيها رجال أثينا، أحييكم وأدين لكم بالشكر، لكنني أقدم طاعة الإله على طاعتكم، وما دمت أنتفس وما دمت أقدر، فلن أكف عن الفلسفة، وعن أن ادعو وأحث كل من ألقاه منكم، قاتلا له كما اعتدت أن أقول، "أيها الرجل الفاضل، ... ألا تستحي من أن تجتهد في طلب المال، حتى تحصل على أكبر قدر منه، وطلب المجد والشهرة، ولا تهتم ولا تفكر في طلب الحكمة والحق وأن تكون روحك في أحسن حال؟" وإذا جادل أحكم وقال بل إنه يهتم، لا أتركه ولا ادعه يمضي من توه، بل أسأله وأمتحنه وأمحصه، فإذا بدا لي أنه لا يتمتع بالفضيلة، لكنه يدعى ذلك، أوبخه لأنه لا يهتم إلا قليلا بما له القيمة العليا، ويهتم كثيرا بما هو أحق. هكذا أفعل مع كل من ألقاه، شابا كان أم شيخا، مواطنا أم غريبا ... فلتعلموا أن هذا هو ما يلزمني به الإله، وإني أعتقد أن عملي هذا في خدمة الإله هو أعظم خير صادق مدينتكم. لا عمل لي غير أن أسير بينكم، أحتكم، شيايا وشيوخا، ألا تهتموا بأبدانكم ولا بالمال قبل اهتمامكم ولا قدر اهتمامكم بالروح فيكم، لتصبح في أحسن حال (29 د-30 أ).

مرّة أخرى نجدّه في 31 - ب يقول إنه في أدائه لرسالته أهمل شئونه الخاصّة، شاغلا نفسه بالسعى لكل واحد، بحثه، كآب له أو كآخ أكبر، على العناية بالفضيلة.

بعد أن صوتت القضاة بإدانة سقراط وكان عليهم النظر في العقوبة التي يفرضونها عليه، نجده من جديد يعيد تأكيد موقفه. إنه لم ينفق حياته ساعياً، كالأخرين، إلى الكسب الشخصي أو إلى الخدمة العامة، إنما كرس نفسه للسمي لأداء أعظم خدمة لكل فرد على جده بأن يقنعه ألا يشغل نفسه بأى من شئونه قبل انشغاله بأن يكون هو فى ذاته كأفضل وأحكم ما يمكن أن يكون، ولا أن يهتم بشئون المدينة قبل الاهتمام بصلاح المدينة (36 ج).

ثم نجد خلاصة عقيدة سقراط مضغوطة فى كلمات قليلة: أعظم خير للإنسان أن يتباحث كل يوم حول الفضيلة، فالحياة غير المصححة ليست حياة لإنسان (38 أ).

كذلك يقرّر سقراط مرارا فى المحاورات أنه حين يدخل فى حوار مع شخص ما، لا يكون غرضه فى المكان الأول بحث موضوع أو فكرة أو مقولة، بل أن يمتحن روحه وروح رفيق الحوار. غرض الحوار السقراطى ليس الوصول إلى أى نتيجة – وكل نتيجة، كما سيبين أفلاطون فى أعماله نضجه، لا يمكن أن تكون أبداً إلا مشروطة ولا يمكن أن تكون صحيحة إلا جزئياً فقط – بل غرض الحوار أن يدير عين العقل إلى الداخل، فهناك، وهناك فقط، كل الحقيقة.

إذا ما اعتبرنا رواية أفلاطون فى *النفاع* صادقة فى الأساس، وإذا ما قلنا بأن سقراط كان يعنى ما يقول، فإننا عندئذ نستطيع أن نرى أن الحوار السقراطى لم يكن عند سقراط إلا الممارسة العملية لرسالة حياته. فى محاورات الفترة الباكرة لم ينجح أفلاطون فحسب فى أن يعطينا صورة نابضة بالحياة لسقراط ممارساً رسالته، بل نجح أيضاً فى أن يكشف لنا الفلسفة التى كانت فى قلب تلك الرسالة. على هذا الفهم، سألقت فى الصفحات التالية على *اللاخيس*، *خارمديس*، *يوثيفرون*، *مينو* (جزء منها)، *يوثليموس*، *هيبياس الكبرى*، *هيبياس الصغرى*. الباب الأول من الجمهورية كان ليجد مكانه هنا، ولكن بما أنى أتناوله فى الفصل السابع، "حجة الجمهورية"، فبئس لم أجد ضرورة لأن أدخله فى هذا الفصل.

مجموعة المحاورات التى أناقشها فى هذا الفصل كلها أعمال أدبية ممتازة، كلٌ منها فى شكل نوقلا، ثرية فى الوصف، وفى رسم الشخصية، وفى حيوية

الحوار. ينبغي أن نتبين من هذا أن هدف أفلاطون من هذه المحاورات لم يكن أبداً إيصال نظرية محددة، بل أن يجعل القارئ يعيش تجربة أن يحضر حواراً سقراطياً، لم تكن الغاية منه أبداً شيئاً غير أن يثير، ويحير، ويدفع رفيق الحوار والمستمعين لأن يفحصوا عقولهم. لم تكن قناعات سقراط الثابتة ومبادئه الأساسية تُبثّ في مقولات أو نتائج محددة، بل كانت تتكشف، في أمثل سالات، كبصيرة، يقود الحوار إليها رفيق الحوار والمستمعين من خلال امتحانهم لذاتهم. فكما كان سقراط يؤكد: الحياة غير المحصنة ليست حياة لإنسان، *ho anexetastos bios ou biôtos anthrôpôi*، إذ إنه، بغير امتحان الذات، لا يمكن لأي شخص أن يحقق الكمال المميز للكائن الإنساني.

لاخيس

اللاخيس نموذج للمحاورة السقراطية. المحاجة، حين نصل إليها، نجدها مباشرة، غير مثقلة بالاستطرادات ولا بإحكام اعتبارات أكثر تعقيداً وأكثر حذاقة. الخلفية الدرامية مفصلة، وتصوير شخصيات المتحاورين مقنع. من بين المحاورين الرئيسيين، كان لاخيس قائداً حارب سقراط تحت قيادته في معركة ديليوم الباتمة؛ وكان الآخر، نيكياس، قائداً عسكرياً مشهوراً أيضاً، وكان معتاداً على حوارات سقراط الفلسفية. ومن بين الشيخين اللذين يبدآن المناقشة، كان ليسيماخوس صديق عمر لوالد سقراط. هكذا نجد جو النقاش ودياً، متّسماً بالاحترام، مما يبقى المحاجة مباشرة وموضوعية، ولو أن هذا لا يحول دون إفساح المجال لتهكم سقراط القاطع في نمائة ولبعض من بقار الرفقاء بين القاندين. (لكن المحاورة ككل، في رأيي، يظهر فيها ما يشير إلى أنها من أولى أعمال أفلاطون، قبل أن يمتلك أدواته تماماً، فحديث المتكلمين في الجزء الأول مسهب كثيراً، وهذا الجزء تنقصه 'الحركة' - قارن هذا بحويّة الدخارميس - وفي مواضع كثيرة يبدو حرص أفلاطون على 'توثيق' حياة سقراط وأساليبه مقحماً بافتعال).

لكل من ليسيماخوس وميلسياس ابن، ويبدو أن الصبيين أكملتا تعليمهما الأساسي، ويريد الوالدان لولديهما أن يحصلوا على أحسن ما يتاح من تعليم إضافي. كانا قد شاهدا لتوّهما عرضاً عملياً قدّمه ستيبيلاوس الذي يزعم القدرة

على تعليم أساليب القتال بالدروع. ودعا الوالدان القائدين لحضور العرض معها ليساعدهما في اتخاذ القرار: أحسن بهما أن يهديا بولديهما لذلك المعلم؟ ولكن نيكياس ولاخيس للأسف لا يتفقان في الرأي، فأحدهما يرى أن ذلك يكون حسنا، بينما يعارضه الآخر بشدة.

لذا يطلب ليسيماخوس من سقراط أن يدلي بالصوت المرجح. وهنا يتقدم سقراط بخجة معتادة عنده. رأى الخبير يرجح آراء العديد من غير الخبراء. ينبغي أن يؤسس القرار على المعرفة، لا على أغلبية الأصوات (184 د-185 أ). ولكن أي معرفة تعيننا هنا؟ يتجه سقراط بالمناقشة إلى مجال همة الدائم والغالب. الغاية النهائية لأي تعليم أو تدريب نطلبه لأبنائنا ينبغي أن يكون صلاح وروحهم (185 ب-هـ). إذا كنا نملك القدرة على أن نُضفي الفضيلة *areté* على الروح، فيُفترض أننا نعرف ما الفضيلة (190 ب). لا يتردد لاخيس في القول بأننا نعرف. يقول سقراط إننا إن أردنا أن نبحث في ماهية الفضيلة ككل فلن يكون ذلك سهلا. دعونا بدلا من ذلك نبحث في جزء من الفضيلة، فذلك سيكون أسهل. فأى جزء نختار؟ في سياق نقاشنا الحالي، يبدو أن الشجاعة *andreia* هي الأنسب. إذن، ما الشجاعة؟ (190 ج - هـ).

لاخيس، الذي لا دراية له بالفلسفة، على العكس من نيكياس، لا يرى صعوبة في الأمر: كل من يبقى ثابتا في موقعه في وجه العدو ولا يهرب هو شجاع (190 هـ). لا يلقي سقراط صعوبة في أن يبين للاخيس أن فكرته عن الشجاعة محدودة جدا، ويقدم للاخيس عينة من 'تعريف' مقبول: لو سُئلنا ما الصفة المشتركة في كل الأفعال والعمليات التي توصف بالسرعة، فقد نقول إنها صفة فعل الكثير في وقت قليل (191 أ-192 ب).

في المحاورات السقراطية، حين يسأل سقراط رفيق الحوار ماذا يعني بهذه الكلمة أو تلك، فإن هذا عادة ما يذكر مجموعة من الأمثلة أو يعطى وصفا محددا لمثال معين. فكرة المفهوم العام، التي ندين بها في المكان الأول لسقراط، كانت جديدة وكان مطلوبا توضيحها. ولهذا، فحين نجد أفلاطون يجعل سقراط يعطى مثالا لتعريف سليم، فإن الغرض، في رأبي، لا يكون وضع نموذج يُحتذى في البحث، وإنما ببساطة تحويل انتباه رفيق الحوار من الحالات المفردة المحددة والواحق العارضة إلى الصفة الجوهرية التي نسعى لفهمها.

هنا يقول لآخيس إننا إن أردنا وصفا ينطبق على كل حالات الشجاعة، فيمكننا وصفها بنوع من ثبات الروح *karteria tês psuchês* (192 ب-ج). لكن ليس كل ثبات هو شجاعة. إننا نعتبر الشجاعة شيئا حسنا. الثبات المقترن بالتعقل *meta phronêseôs* شيء حسن. لكن الثبات في غيبة التعقل ضار؛ إنه ليس شيئا حسنا. بما أن الشجاعة شيء حسن، فإن مثل ذلك الثبات لا يكون شجاعة. هكذا يمكنك القول بأن الثبات الحكيم *phronimos* شجاعة. لنز، حكيم على أي وجه؟ نجد أمثلة كثيرة من ثبات فيه تعقل ولا نعتبره شجاعة. وإن فشرط 'التعقل' أو 'الحكمة' لا ينطبق بدون استثناء؛ بل إننا نجد أمثلة من ثبات 'أحمق' هي أقرب لأن نعتبرها شجاعة (192 ج - 193 د).

يقول سقراط: دعونا، على الأكل فيما يخصنا نحن، نُظهر الثبات في بحثنا عن الشجاعة. لكن لآخيس يعترف بأن الأمر يتجاوز قدراته. يطلب سقراط من نيكياس أن يهّب لعونهما. هنا يلجأ أفلاطون لحيلة درامية: فبدلاً من أن يجعل سقراط يصل بالحجة إلى موقفه المألوف القائل بأن الخير لا ينفصل عن الحكمة، فإنه يجعل نيكياس يُذكر سقراط بمقولته هذه. يقول نيكياس: كثيراً ما سمعتك يا سقراط تقول إن كل واحد منا جيد حيث يتمتع بالحكمة وسيئ حيث يتصف بالجهل. وإن، فإن يكن الشخص الشجاع جيداً، فلا بد أن يكون حكيماً، وعلى هذا تكون الشجاعة نوعاً من المعرفة. لكن أي نوع من المعرفة؟ يطرح نيكياس الرأي - وعلينا أن نفترض أنه سمع سقراط يطرحه - القائل بأن المعرفة المطلوبة هي معرفة ما ينبغي أن يُبثّ فينا الخوف وما يجب أن نطمئن إليه (194 د-195 أ). هذا رأي يصل إليه سقراط في البروتاجوراس (وهي على الأرجح محاوره متأخرة كثيراً في تاريخها عن محاورتنا هذه) ويتركه قائماً، لأن الفرض هناك هو بيماطة الوصول إلى فكرة أن الفضيلة والعقل لا ينفصلان. أما هنا فالهدف هو بيان أن هذه الحكمة لا يمكن تحديدها أو إلحاقها بأى شيء من خارجها. (إنني أعالجها عامداً بين المصطلحات كما يفعل أفلاطون نفسه ولنفس السبب).

يجد لآخيس هذا الرأي غريباً، فهو (مثل 'بروتاجوراس' في المحاوره) يرى أن الحكمة شيء والشجاعة شيء مختلف تماماً. يحتاج لآخيس: في حالات المرض، الأطباء هم من يعرفون ما يبعث على الخوف، لا الشجعان،

ونحن لا نصف الأطباء بالشجاعة. وينطبق هذا على مختلف مجالات الخبرة (195 أـج). يوضح نيكياس أن معرفة الأطباء لا تمتد لأكثر من حالات الصحة والمرض في البدن؛ هم لا يعرفون ما إذا كان خيرا حقًا لمرضى ما أن يعيش أو أن يموت. أولئك الذين يعرفون ما يُخاف حقًا هم وحدهم الشجعان. يظنّ لاخيس أن نيكياس يقصد العرّافين، فيسأله مستهجنًا: أتعتر نفسك عرّافًا أم تقرّ بأنك غير شجاع؟ مرّة أخرى يشرح نيكياس: العرّافون يقرأون علامات الأحداث المقبلة، ولكن أن يكون ما ينبئون به من موت أو شفاء، أو نصر أو هزيمة، ناقصًا حقًا أم ضارًا، هذا ما لا يستطيع العرّافون معرفته (195 جـ - 196 د).

يعتقد لاخيس أن نيكياس يتكلم كلامًا فارغًا، فيعرض سقراط أن يتقصّى ما يعنيه نيكياس حقًا. ها نحن نقول إن الشجاعة هي معرفة ما يجب أن نخاف وما لا يجب أن نخاف، ونقول إن هذه معرفة لا يملكها لا الأطباء ولا العرّافون، وإن هؤلاء ليسوا من الشجعان، إلا إذا كانوا إلى جانب معرفتهم التخصصية يملكون هذه المعرفة الأخرى. ولا يمكن لأى وحش مفترس أن تعزى إليه الشجاعة. يعتقد لاخيس أن هذا شطط في مجافاة العقل، لكن نيكياس يميّز بين الجسارة المتهوّرة وانعدام الخوف مع انعدام التفكير من ناحية والشجاعة الواعية من ناحية أخرى. إلا أن لاخيس لا يستمع هذه التمييزات المتخلقة التي تهزأ بالاستخدام اللغوي الشائع (196 جـ - 197 جـ). — من المقاصد الرئيسية للحوار السقراطي إلقاء الضوء على الافتراضات والإيعازات المخبوءة في لغتنا العامة ومعتقداتنا العممة.

يقول سقراط إن نيكياس يستحقّ منا أن نعطي ما يعنيه الاعتبار اللائق. بدءًا من 'تذكير' نيكياس لسقراط برأيه القائل بأن الخير والحكمة لا ينفصلان، كان نيكياس يعرض مواقف سقراطية مألوفة. وعلى سقراط الآن أن يبين أن تلك الآراء، مهما كانت ثريّة بالمعنى، إلا أننا حين نفحصها بعناية، نجد أنها غير كافية وأنها تشير لشيء أبعد منها.

إننا بدأنا بأن أخذنا الشجاعة كجزء من الفضيلة. ونقول بأن هناك فضائل أخرى أو أجزاء أخرى من الفضيلة، مثل الأتمّان والعدل. ناتى الآن لما يبعث على الخوف وما يبعث على الرجاء: الخوف والرجاء لا يتعلّقان بالماضى ولا بالحاضر بل بالمستقبل؛ نفهم أن الخوف هو توقّع الشر وأن الرجاء هو توقّع

الخير. معرفة هذا هو ما نسميه الشجاعة. لكن المعرفة لا تحدّها تقسيمات الماضي والحاضر والمستقبل. حقل المعرفة الواحد يشمل حالات الماضي والحاضر والمستقبل. إلا أننا قلنا إن الشجاعة هي معرفة ما يبعث على الخوف وما يبعث على الرجاء، أي معرفة الشرّ المستقبل والخير المستقبل. لكنها من حيث هي معرفة لا بد أن تكون معرفة للماضي والحاضر والمستقبل، فلا يمكن إذن أن تكون معرفة ما يبعث على الخوف وما يبعث على الرجاء، بل معرفة كل الخير وكل الشرّ دون قيود. لكن ذلك يكون كل الفضيلة. وإذن فإننا لا نكون قد وجدنا ما انطلقنا نبحث عنه، أي ماهية الشجاعة (198 أ- 199 هـ).

أن نرى هذه النتيجة كنتيجة سلبية، تلك نظرة سطحية. البعد الإيجابي للنتيجة السلبية هو أننا لن نصل لأي شيء إذا ما بدأنا من الفضائل كأجزاء منفصلة أو إذا ما أخذنا الفضيلة أو آية فضيلة معينة في انفصال عن المعرفة. ليس هذا إلا جانباً واحداً من مبدأ الجهل السقراطي.

خارمديس

ملاحظة: يدور النقاش في الخارمديس حول كلمة *sôphrosunê* وهي كلمة تصعب ترجمتها في العربية كما تصعب في الإنجليزية، ولا يمكن الالتزام باستخدام نفس اللفظ في ترجمتها في كل سياق، إذ يدخل في معناها التعلّق، ضبط النفس، التؤدة؛ إلا أنني رأيت استخدام كلمة 'الاتزان' أساساً، مع اللجوء لغيرها عند الضرورة.⁽¹⁹⁾

لا تستبقينا افتتاحية الخارمديس الغزلة اللاهية طويلاً قبل أن تكشف عن الهدف الحقيقي لهذه المحاوراة وكل محاورات أفلاطون الأخرى. يسأل خايريفون: ألا ترى أن للصبى وجهاً جميلاً؟ ولكنك إن رأيت جسمه عارياً، لن تقف طويلاً عند جمال وجهه. فيقول سقراط: إنه ليبلغ منتهى الحسن لو أنه

⁽¹⁹⁾ حذف في الترجمة عبارة أوردها في الأصل تعبيراً على مخرج كلمة *temperance* في الإنجليزية الحديثة، متسلاً: ترى هل غابت الكلمة لغيب الصفة نفسها من المجتمع الحديث؟ لعل مغزى هذا التساؤل يتضح إذا ما نكرت أنى صاغت الكلمة مترجمة في العربية بـ 'العفة'، فهل عاد أحد يذكر العفة أو العفاف في علمنا الحديث؟

امتلك شيئا واحداً آخر — روحاً جميلة. لم لا نجعله يتعرّى فيُظهر لنا روحه؟ (154 هـ). ذلك هو الغرض، الهدف، الرسالة التي كرس لها سقراط حياته: أن ينزع عن الروح كل رداء خارجي ليدعها تقف عارية في نظر ذاتها. كل المحاجة، كل التمهيص والتفنيد، ليس له غير هذا الهدف الرئيسي، تنفيذ وصية 'اعرف ذاتك'.

يتأكد لنا هذا بصورة أجلى من حذوة أو على الأصح أمثلة العقار والتعويذة اللذين لا يفلحان في شفاء سقم الرأس قبل شفاء الروح بالكلمات الطيبة التي تثبت فضيلة الأتزان في الروح (155 هـ - 157 ج). يقول كريتياس إن ابن اخته خارمديس يتمتع بدرجة متميزة بهذه الفضيلة، فضيلة الأتزان، التي يراد من التعويذة أن تثبتها في الروح. وهكذا نصل إلى الموضوع الشكلي للمحاورة وتبدأ مسيرة التمهيص.

بعد المقدمات اللاهية يبدأ سقراط امتحان خارمديس بأن يقول: اعتقد أنه من الأفضل أن نفحص الموضوع على هذا النحو. من الواضح أنه إن كانت فضيلة الأتزان فيك، فلا بد أن تكون عندك فكرة عنها. فبالضرورة، بكونها فيك — إن تكن فيك — لا بد أن تعطيك انطباعاً ما، منه تكوّن رأياً عما عساها تكون (158 هـ - 159 أ). هكذا، من أول لحظة يبرز سقراط بوضوح الافتراض الذي يكمن في خلفية كل حوار سقراطي، والذي يحطمه الحوار في كل حالة. يُفترض أن الأتزان شيء يكون للشخص ويكون للشخص عنه فكرة. ويكشف الحوار، في كل الحوارات السقراطية، أن الفضيلة لا يمكن فصلها عن الشخص، ولا فكرة الفضيلة يمكن فصلها عن الفضيلة. الصورة حقيقتها في الروح والروح هي الحقيقة النهائية. كل فصل، كل تجزئة، كل اصطناع للموضوعية، كل استظهار، كل تعيين — وكل هذا هو من جوهر التفكير — يتكشف لنا أنه ينطوي على تناقض في بنيته الذاتية. هذا لبّ فكر سقراط وهو أساس الديالكتيك.

كل محاجات الحوار السقراطي لها نفس البنية الأساسية. كل تعريف يختزل المفهوم (الصورة) في خصائص أو شروط موضوعية محدّدة أو يحصره فيها، يتبين في يسر أنه غير واف. ليست محاورات أفلاطون الباكرا وحدها التي تزوّدنا بأمثلة وفيرة لهذا، إنما يمكن أن نرى نفس المبدأ ممثلاً في كل المجادلات الفلسفية المعاصرة. كلما كان التعريف أو الحجّة أو النظرية أكثر حذقاً وأكثر تدقيقاً كانت تناقضاته أكثر استفحالاً. أرنى نظرية أو حجّة أو

تعريفًا، مهما كان علو مرجعية واضعه، لم ينقضه من لا يقلّ عن ذلك في علو مرجعيته. حُجّة ديكلارت السامقة، "أنا أفكر، إذن أنا موجود"، ألم يمزّقوها إربًا؟

يقول سقراط لخارمديس: إذا كنت بالفعل تملك فضيلة الاتزان كما يؤكد كريتياس، فلن تكون بحاجة للتعويضه ويمكنك أن أعطيك العقار للتوّ: خبرني، أنت فعلا تشارك في الاتزان؟ (158 ب - ج). هنا يستخدم سقراط صيغة *sôphrosunês metechain* — وهنا من الواضح أنه لا يمكن أن يكون للعبارة المعنى الذي تتخذه في المحاورات الوسطى حين كان أفلاطون يبحث عن صياغة مُرضية للربط بين الصور وأمثلتها الواقعية. من الواضح أن العبارة هنا جزء من لغة الهيلينيين العادية.

يأبى خارمديس، وهو الصبي حمن التربية، أن يتفاخر بأنه يمتلك فضيلة الاتزان، وهو أيضا لا يريد القول بأنه لا يمتلكها لأن ذلك يكون فيه تكذيب لخاله بجانب أنه سيبدو قولا فيه وقاحة (158 ج - د). فيقترح سقراط أن يبحثنا معا ما إذا كان الصبي يمتلك تلك الفضيلة أم لا (158 د - هـ). هنا يستخدم سقراط *kektêsthai* وبعد بضعة أسطر نجد *parestin* ثم نجد *enestin* وكلها تأتي كمرادفات لـ *metechain* — مما يُظهر لنا أن هذه العبارات تُستخدم بتحرّر، دون تقييدها بمعنى اصطلاحى محدّد. (وفي الدقائيق يشير أفلاطون بوضوح إلى أن اختيار أى من هذه التعبيرات المجازية لا يترتب عليه أى فرق.)

حين سئل خارمديس ما الاتزان في رأيه قال أولا إنه يبدو أن الاتزان هو أن يفعل الشخص كل شئ بتأدب وهدوء، إذ يمشى في الطريق وإذ يتكلم، وفي أمثال هذه الأمور كلها؛ على العموم، يبدو أن الاتزان نوع من الهدوء (159 ب). هذا بالطبع نوع الجواب الذي قد نتوقّعه من صبي مثل خارمديس، إنه ما يمكن أن يستشفه من توجيهات والدته وأقربائه ممن يكبرونه سنا. ولكن في كل المحاورات الباكرة، حتى حين يكون رفيق الحوار رجلا ناضجا حمن التعليم، فإن الإجابة التي يعطيها عن السؤال عن ماهية هذه الصفة أو تلك، لا تكون أحسن كثيرا من إجابة خارمديس هذه: إنه يذكر مثلا أو عددا من الأمثلة. من المهم أن نلاحظ هذا، إذ أنى اعتقد أننا مدينون لسقراط بفكرة المفهوم *concept* وفكرة الماهية *essence*. (هذا هو ما دعا أرسطو للقول بأن سقراط كان أول من سعى لتعريف المسميات.) على أى حال، أنهى خارمديس إجابته المبدئية

بأن استقرّ على صفة عرضها باعتبار أنها ما يفهمه هو من لفظ الاتزان، فوفر على سقراط ضرورة أن يشرح، كما يفعل مع الآخرين، الفرق بين ذكر قائمة من الأمثلة وذكر المعنى، الصفة المميزة لمسمى من المسميات. الآن يمكن للتحصيل السقراطي أن يأخذ مجراه.

نقول إذن إن من يتصف بالهدوء يتصف بالاتزان. لنرّ، أليس الاتزان شيئاً حسناً؟ بالتأكيد. ولكننا نستطيع أن نجد أفعالاً وممارسات كثيرة حيث يكون النشاط والسرعة، وليس الهدوء والتؤدة، هما الأحسن. وإن لا يكون الاتزان هو الهدوء؛ إن يكن الاتزان حسناً (159 ب-160 ب). هنا علينا أن نلاحظ نقطتين. أولاً، يبادل سقراط بين الهدوء والتؤدة من ناحية، وبين السرعة والنشاط والحدة والقوة من ناحية أخرى، في لامبالاة هي عند فلاسفتنا الأكاديميين أحرم الحرام. ينبغي أن يبين لهم هذا أن سقراط ليس معنياً بالخبّة والبرهان حسبما يفهمون الخبّة والبرهان. يمضى سقراط متمهلاً، يقود الصبى للتمعّن في تركيبة فكرية بعد الأخرى، فذلك هو الهدف الرئيسي والغاية من الحوار السقراطي، أن يجعل رفيق الحوار ينظر بداخله النقطة الثانية: إن سقراط هنا لا يخرج بنتيجة إيجابية، إنما يلاحظ أننا لا نستطيع أن نقول ببساطة إن الاتزان هو الهدوء. يتواصل الحوار: إما أن الأفعال والممارسات الهادئة لا تكون أبداً، أو نادراً ما تكون، أفضل من تلك المتصفة بالسرعة والنشاط، أو أنها لا تقل عن تلك، أو ربما تفوقها، في اقترانها بالخير، ولكن حتى في تلك الحالة لا يكون الاتزان أكثر ارتباطاً بالهدوء منه بالسرعة والنشاط (160 ب - د). سقراط لا يفلق الباب في وجه أيّ من الاحتمالات، وهذه سمة من سمات الفكر السقراطي والأفلاطوني.

حتى هذه النقطة توصلنا فقط إلى أن الهدوء قد يكون أحياناً جزءاً من فضيلة الاتزان، لكن هذا لا يعطينا الفهم الذي نطلبه لمعنى الاتزان.

يواصل سقراط الحوار: مرّة أخرى يا خارمديس، أعيل عقلك بانتباه أكثر وانظر داخل نفسك، تفكّر ثم أخبرني ما فضيلة الاتزان فيما يبدو لك (160 د). يقول خارمديس بعد التفكير: يبدو أن فضيلة الاتزان تعطى الشخص الإحساس بالخبّل والحياء، وعلى هذا يبدو أن الاتزان هو نوع من الحياء (*aidôs* 160 هـ). لم يتأثر خارمديس بعرض سقراط لأمثلة من أفعال حسنة تتصف بالسرعة

والنشاط. إن الصبى يستمد إجاباته حقا من عقله وتجربته — يفكر بنفسه. حين نصل إلى الجمهورية نجد أفلاطون يجعل من ذلك كل غاية ومضمون التعليم: جعل الناس يفكرون بأنفسهم.

مرة أخرى يمضى سقراط ليبيّن أن هذه إجابة غير كافية، بنفس الطريقة التى اتبعها من قبل. لقد اتفقنا على أن الاتزان شىء حسن وأن المتزنين أشخاص طيبون. ذلك الذى يجعل الناس طيبين لا بد أن يكون طيبا. وحيث إن الاتزان يجعل الناس طيبين فإنه ليس حسنا فقط وإنما هو أيضا شىء طيب. لكننا نجد هوميروس يقول إن الحياء ليس شيئا طيبا للرجل المحتاج، وهوميروس على حق فى هذا. وإذا كان الأمر كذلك فإن الحياء يكون طيبا وغير طيب. لكننا نقول دون تحفظ إن الاتزان شىء طيب، إذ أنه يجعل الناس طيبين لا سيئين. وإن لا يكون الاتزان هو الحياء إذا كان الاتزان طيبا فى كل الأحوال بينما الحياء يكون طيبا أو سيئا حسب الظروف (160 هـ - 161 ب). هذه عينة من أحد جناخى استراتيجية الحوار السقراطى المعتادة: أى فكرة محدّدة، إذا أخذت منفصلة، يتبيّن أنها غير كافية؛ حين توضع فى ظروف مغايرة تتغير قيمتها. هذه البصيرة تزدهر فى فكرة أفلاطون الناضجة عن الديالكتيك، حيث لا يجوز لأى صياغة فكرية محدّدة أن تزعم الصدق المطلق أو النهائى. (لكن أفلاطون يستخدم كلمة 'ديالكتيك' بمدلولات أخرى مختلفة كما سنرى فيما بعد) للحفاظ على نزاهتنا العقلية علينا أن نترك أن كل تكويناتنا الفكرية هى أساطير، وكى لا نحيل أساطيرنا المشبعة بالبصيرة والموحية بالحق إلى عقائد وخرافات مينة وقاتلة، علينا أن نهدم على الدوام القواعد التى نقيم عليها أساطيرنا. فى هذا الاستطراد مضيت بعيدا فيما وراء حدود الفصل الحالى، لكننى لا أظن أن هذا غير ملائم إذ أنى أرى أن الحوار السقراطى هو البذرة الأصلية للديالكتيك الأفلاطونى الناضج، ولمفهومى الخاصّ عن طبيعة التفكير الفلسفى — وإن كنت أعرف أنى بقولى هذا أعرض نفسى للتهام بالغرور. ولكن قبل أن أنهى هذا الاستطراد، على أن أشير فى إيجاز للجناح الآخر لاستراتيجية الحوار السقراطى. ينتهى الحوار السقراطى دائما بالحيرة ولا يمكن إلا أن ينتهى بالحيرة. تلك الحيرة هى الجهل الفلسفى — أو، إن استعرنا عنوان عمل تصوفى من القرن الرابع عشر، هى غمام اللامعرفة *The Cloud of Unknowing* — الذى يمدّنا ببصيرتين حيويّتين: (1) لا يمكن تحديد أى فكرة بصفات من

خارجها. الفكرة تملك وضوحها في حقيقتها الذاتية. هذه هي البصيرة التي يعبر عنها سقراط في قوله إنه بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة. هذه هي البصيرة التي يعجز عن استيعابها المفكرون التحليليون والإمبريقيون وغيرهم من الاختزاليين.⁽²⁰⁾ (2) عملية الحوار السقراطي ذاتها، في سعيها إلى المعرفة التي هي شيء واحد مع الفضيلة، تقود إلى بصيرة أن تلك المعرفة ليست إلا ذلك السعي نفسه، ليست إلا إفعال العقل — العقل الفاعل الذي هو حقيقتنا وهو كل قيمتنا.

عند هذه النقطة من المحاورة يقرر أفلاطون أن ينقل الحوار إلى مستوى أكثر حدقا، فيجعل الصبي يتذكر قولاً كان قد سمعه — ويفترض أنه سمعه من خاله كريتياس — مؤداه أن فضيلة الاتزان هي أن يهتم المرء بما يخصه (161 ب). يقول سقراط إنه ليس سهلاً فهم هذا القول الحاذق إذ أنه لغز. الكلمات لا تنقل المعنى حقاً. ألا يهتم المعلم بما يخصه حين يكتب أو يقرأ؟ لكنه لا يكتب أو يقرأ اسمه هو فقط وإنما أسماء تلاميذه وأصدقائه وأعدائه كذلك. أهو عندئذ متطفل وليس متزناً؟ وكذلك الطبيب والمعماري والنساج، كلهم يهتمون بأشياء تخص الآخرين، ورغم ذلك فكلمهم متزنون إذ يفعلون ذلك. الاتزان إذن ليس هو أن يهتم المرء بما يخصه بهذا المعنى (161 ج - 162 ب). من الواضح أن حجة كهذه ليس القصد منها إثبات أو دحض أي شيء. الغرض الوحيد منها هو لفت الانتباه إلى غموض العبارة المعنية. ما أكثر ما نغفل دون تساؤل بياننا نشعر بصورة غامضة أننا نفهمه، ومع ذلك، إذا ما نظرنا إليه نظرة أكثر تدقيقاً، وجدناه مبهماً جداً. يحدث هذا في كل المجالات وعلى كل المستويات. قد تكون مشغولاً بترجمة نصٍّ مألوفٍ وإذا بك تصادف فقرة أو عبارة كنت دائماً تمرّ عليها سريعاً باعتبارها بسيطة وواضحة تماماً، لكنك الآن إذ ترغب في أن تكسو المعنى في كلمات جديدة، تكتشف أنها في الحقيقة ملغزة، تحتمل تأويلات عديدة قد تكون حتى متناقضة. أحد الأغراض الرئيسية للحوار السقراطي أن

⁽²⁰⁾ في يوميات سقراط في السجن (صدر عن المركز القومي للترجمة في 2010) استخدمت كلمة المنعاصرة لترجمة reductionism ولم أكن راضياً تماماً عن الكلمة، لكنني عدلت عنها الآن إلى الاختزالية، فلعلها تكون أوفى بالغرض.

يبث في رفيق الحوار (الآن، القارئ) هذا التحير. مقتضيات الحياة تضطرنا لأن نأخذ الكثير دون تمحيص. لو أن ديكارت Descartes، إذ يجلس إلى مائدة الطعام، أخضع الموقف لشكك المنهجي، لمات جوعاً. قال سانتايارنا Santayana إن الجنس البشري لا يمكنه البقاء بدون اليقين الحيواني animal faith. ومع ذلك علينا أن نبقي على الدوام متيقظين لحقيقة أن مساحة معتقداتنا غير المخصصة هي مساحة الموت فينا عقلياً وروحياً. كى نبقي أحياء نحتاج باستمرار ما يُلقى بنا في بحار الخبرة واللايقين والعجب.

هنا يأخذ كريتياس دور رفيق الحوار. ويستأنف سقراط التمهيص: المهنيون يؤثرون عملاً للأخرين وهم متزنون. ألا يتعارض ذلك مع القول بأن الاتزان هو أن يهتم الشخص بما يخصه؟ لكن كريتياس يتقدم بتميز للتفرقة بين أن يصنع المرء شيئاً وأن يفعل شيئاً. وحين يسأل سقراط: أليس هذان شيئاً واحداً؟ يستشهد كريتياس بالقتباس من هيزيود Hesiod حيث يقول إن العمل ليس عيباً: أكان ممكناً لهيزيود أن يقول هذا لو كان يعنى بالعمل أشياء وضيفة كصنع الأذية أو بيع الأسماك المملحة؟ (162 هـ - 163 ج). ها هنا درس لم يمل أفلاطون أبداً من التركيز عليه. إن كنت مستعداً لأن تجعل نصاً محدداً ينوب عنك في التفكير، فيمكنك أن تصنع المستحيل، إذ أن النص لن يمانع أبداً في أن تستخرج منه ما تريد من المعاني.

يحاول سقراط أن يلجم شطحات كريتياس. يقول له: كنت أعلم أنك ستسمى ما يخص المرء حسناً وتسمى الأفعال الحسنة أعمالاً، فلقد سمعت پروديكوس Prodicus يستخرج تمييزاته التي لا تنتهى. استعمل ما تشاء من الكلمات بشرط أن توضح ما تشير إليه بتلك الكلمات. والآن بين بوضوح أكثر، أنت تقول بأن صنع الأشياء الحسنة، أو عملها، أو أيها ما تشاء من الكلمات، هو الاتزان؟ (163 هـ). نلاحظ بالطبع أن هذه ليست هي المقولة التي بدأنا بها، لكن التغيير أحدثه كريتياس عند تأويله لكلمات هيزيود، وهو يوافق بلا تردد على أن هذا هو المعنى الذي يقصده.

يتقدم سقراط الآن بخجة بدعية، لكن الإبداع ليس في الحجة من حيث هي، فهي، مثل كل حجة، يمكن نقضها، إنما يكمن الإبداع في أن سقراط هنا يقودنا إلى بصيرة عميقة من بصائر: لا فضيلة ولا خير يمكن أن يكون كذلك حقاً إذا

لم يتحد بالعدل. إنه ليوضح منا المعنى الحقّ والقيمة الحقّة للحجّة إذا انصبّ اهتمامنا على كفاية أو لاكفاية الشكل المنطقي للحجّة.

إن من يعمل ما هو سيئ ليس متزنا بل المتزن من يعمل ما هو حسن. لكن تترتب على هذا نتيجة غريبة: قد يعمل شخص ما باتزان بينما هو جهل ذلك (163هـ - 164ج). الطبيب قد يؤدّي واجبه، وعلى هذا الأساس يعمل باتزان، إذ يعالج مريضه، لكنه لا يستطيع أن يعرف إن كان عمله سيكون حسنا من منظور أوسع. قد يصبح مريضه بعد شفائه سفاحا، أو قد يلقى في مستقبل حياته عذابا لا يطاق. كلما استخدمنا كلمة حسن أو كلمة سيئ، إذا لم نكن نتعامل مع المفهوم الخالص بل نشير إلى حالات واقعية، علينا أن نتذكر أن هذه التسميات نسبية ومشروطة. لقد قال كنت Kant إن الشيء الوحيد الذي هو خير مطلقا هو الإرادة الخيرة، وقد سبقه سقراط إلى هذا حين رأى أن الشيء الوحيد الذي هو خير مطلقا هو النزاهة العقلية والأخلاقية — فهذان شيء واحد.

يقول كريتياس إنه إذا كانت مقولاته السابقة تقود فعلا للنتيجة التي بينها سقراط، فإنه يفضل أن يتخلى عن تلك المقولات على أن يُقرّ بأن الشخص يمكن أن يكون متزنا ومع ذلك جهل أنه كذلك. الأخرى أنه شرط لكون الشخص متزنا أن يعرف ذاته؛ وعلى هذا فهو يعادل وصيّة معبد دلفي 'اعرف ذاتك' بالوصيّة 'كن متزنا' (164ج - 165ب).

يقول سقراط: إن كان الاتزان معرفة *gignôskein* فهو إذن يكون معرفة ما ومعرفة شيء ما *epistêmê tis an eiê kai tinos* (165ج). ها هنا نأتى إلى ما أشرت إليه فيما سبق بالجناح الثاني في استراتيجية الحوار السقراطي. يصل سقراط بالحوار إلى القول بأن الفضيلة أو أن فضيلة ما هي معرفة ثم يسأل: آية معرفة أو معرفة ماذا؟ ودائما نجد أنها لا يمكن أن تكون آية معرفة محدّدة. إنها لا شيء غير فعل المعرفة، ممارسة فعل العقل، الحياة العقلية، أن نحيا كعقل فاعل. هكذا هنا أيضا يمضى سقراط أولا على الدرب المعتاد: الطب يعطينا الصّحة، المعمار يعطينا المساكن، فماذا يعطينا الاتزان؟ يحتجّ كريتياس: ربّما كان الاتزان أشبه بالحساب والهندسة. لكن هذين أيضا لكل منهما موضوعه؛ فما موضوع المعرفة التي هي الاتزان؟ (165ج - 166ب).

بحتج كريتياس مرة أخرى: نحن نحاول أن نجد ما يتميز به الاتزان عن أنواع المعرفة الأخرى، لكنك يا سقراط تريده أن يكون مماثلاً للأنواع الأخرى. كل أنواع المعرفة الأخرى هي معرفة آخر؛ الاتزان وحده هو معرفة ذاته. هكذا ينتقل كريتياس من القول بأن الاتزان هو معرفة المرء لذاته إلى القول بأن الاتزان وحده بين كل أنواع المعرفة هو معرفة ذاته ومعرفة غيره من أنواع المعرفة (166 ج - هـ).

ربما يكون أفلاطون قد اختلق هذه النقطة لأنه لم يكن مهتماً هنا بدراسة مسألة معرفة الذات self-knowledge or self-reference كما طرحت في الفلسفة الحديثة. إنه بدلا من ذلك كان مهتماً بشيء أقرب لما نسميه الآن مسألة المحمول الذاتي the problem of self-predication.

حسنا، حسب تعريف كريتياس الجديد نقول إن الاتزان *sôphrosunê* هو معرفة المعارف *epistêmôn epistêmê* (166 هـ). يبين سقراط أن التعريف الذي يبدو حادقا فخيما هو في الحقيقة خاوي من المعنى. إنه ليس فقط غير كافٍ كما هو الحال مع التعريفات الأخرى المقترحة التي تُمحص في هذه المحاوراة والمحاوالات الأخرى، ولكنه أيضا لا يمكن أن يعطى أى معنى قابل للفهم. لماذا يا ترى؟ لأننا إذ نطلب معرفة للمعرفة نفسد طبيعة المعرفة، التي هي فعل (نشاط)، بأن نحولها إلى شيء موضوعي. المعرفة وموضوع المعرفة، جوهرياً، كل واحد، ومع أنه من الجائز ومن الضروري أن نميز بين المعرفة وموضوع المعرفة، إلا أن هذا التمييز في ذاته ينطوى على تزييف؛ أن نعامل فعل المعرفة على أنه موضوع هو، مثل أكل ثمرة تلك الشجرة المخزّمة إياها، خطيئة ضرورية ومجيدة، إلا أنها تبقى خطيئة؛ لنقل إنه تزييف من رتبة أعلى، يكون بالغ الضرر إن نحن اقترفناه دون وعي كامل بكونه خطيئة. ذلك خطأ، أو قل خطيئة، أكاديميينا وبلحثينا الذين يجهدون أنفسهم في ابتكار نظريات للمعرفة وللصدق لا يُقصد ببساطة أن تكون نافعة بل أن تكون مطلقة لا تقبل طعنا ولا نقضا ولا يأتيها الفساد أبداً.

وبالمثل، فإن المسألة المسمّاة بمسألة معرفة الذات هي مسألة كاذبة اختلقناها نحن المحدثون لأنفسنا باعتبارنا المتأصل فينا على تفكيك وتشطية كل شيء. اسمح لنفسى أن أعطى هنا في صورة هيكلية ما اعتبره محور مسألة

معرفة الذات. في معرفة العالم الخارجى نميز بين العارف والشئ الموضوعى object الذى يعرف، وهو تمييز مفهوى conceptual مفيد، لكنه ليس أكثر من ذلك. معرفة الذات - حيث يجب أن يكون استخدامنا لكلمة 'معرفة' محاطا بالتفظات - هو استشفاف حقيقة الذات (العقل) فى مباشرة immediacy الورى الذاتى، مباشرة الفهم. أن نمؤضع objectify الذات (العقل) يعنى أن نزيّف الذات. هذه هى الصخرة التى تتحطم عليها كل محاولات علماء النيورولوجيا neuroscientists و'فلاسفة العقل' philosophers of mind للإسالك بالعقل. فى مصطلحى الخاص، العقل (الذات، الروح) لا يوجد؛ ولكن أن نعالد 'لا يوجد' بـ 'بلا حقيقة'، هذا هو الخطأ الذى أفسد كل الاتجاهات الفلسفية ذات التوجّه الإمبريقي empirically oriented - العقل (الذات) لا يمكن أن يُمؤضع، لا يمكن أن يوجد، لكنه يسمو على الوجود فى حقيقة تتجاوز كل واقع موجود existent actuality - مثل صورة الخير الأفلاطونية التى هى فيما وراء كل وجود وكل معرفة محدّدة - ليس فيما وراء الفهم، لأنها فى ذاتها هى العقل الخالص، الفاعل، الخلاق.

نعود إلى الساخر مليس: لا يلقى سقراط صعوبة فى أن يُظهر عدم اتساق فكرة معرفة المعرفة، إذا ما فهمنا المعرفة على مثال أنواع المعرفة المعينة التى تستخدم الكلمة عادةً للدلالة عليها (167 ج - 168 أ). ولكن لنفرض أننا اتفقنا على أن نتجاوز عن كل الصعوبات التى كنا نستعرضها وقلنا إن معرفة المعرفة هذه ممكنة، فكيف تمكنا من أن نميز بين ما نعرف وما لا نعرف؟ إنها كمعرفة للمعرفة ببساطة، لن تعطينا معرفة بالصحة والمرض، فذلك مجال الطب، ولن تمكنا من أن نميز بين الطبيب الصادق والمدعى. ستكون معرفة بلا أى محتوى (169 د-171 ج).

أبعد من ذلك، إننا حتى إن امتلنا معرفة سامة تمنا بمعايير مؤكدة للتمييز بين العلم والإدعاء فى كل المهن وكل الحرف والفنون، وإن حظينا ببوله فيها خبراء لا يخطئون، يتولون المسئولية فى كل مجال - أكان ذلك يضمن لنا الفلاح والسعادة؟ (171 د - 173 د). لنترجم الحجة إلى معطيات عصرنا. أكثر من نصف البشر يعيشون فى بؤس ومرض. لننغص البصر عنهم: ما أظننا بحاجة لكثير من التحريض كى نفعل ذلك! لكن أولئك المحظوظين، الذين

يعيشون في مجتمعات تسود فيها الرفاهية، يستخدمون منجزات العلوم الحديثة والتكنولوجيا الرقمية — هل هم هانئون؟ ما الذى ينقصهم؟ سقراط عنده الجواب: معرفة الخير والشر. وإذا سألنا: ما تلك المعرفة؟ أين نجدها؟ أتينا الجواب من معبد لطفى: اعرف ذاتك *gnôthi sauton*. لكننا من الشطارة بحيث نجده صعبا أن نصتق أن هذا هو الجواب الحق، الجواب الأوحد.

ليزيس

ملاحظة: توضع الـليزيس عادة في مجموعة واحدة مع الـلاخيس والـخارمديس، ولكن بينما الـلاخيس والـخارمديس محاورتان نموذجيتان من نمط الحوار السقراطي فإن الـليزيس تطرح مسائل منطقية مهمة وفيها إحياءات قوية بأبعاد ميتافيزيقية. من الممكن أن أصفها بأنها مغامرة أفلاطونية استكشافية في مجالات المنطق والميتافيزيقا. في هذا الموضع سأتناول فقط جانب الحوار السقراطي في المحاوره وسأعلق على الجوانب الأخرى منها حين نجىء للـديپارمنيديس إذ أنى أجد الـليزيس أقرب للـديپارمنيديس منها للمحاورات السقراطية.

الليزيس محاوره قصيرة في نحو عشرين صفحة من طبعة ستيفانوس (203-223)، وتنقسم إلى جزئين يسهل الفصل بينهما. الجزء الأول دراما مليئة بالحيوية تتضمن حوارا تربوياً مع ليزيس (207-210)، وهذا الحوار - مثل نموذج الحوار الأول مع نيكياس في الـديوثيديموس - يقدّم بطريقة مباشرة الدرس الأخلاقي للحوار السقراطي: المعرفة أساس الفضيلة والسعادة والحرية. الجزء الثانى يناقش فكرة الصداقة وينتهى بالحيرة المعتادة. إنه يظهر ضرورة مواجهة ومحاربة الغموض الملازم بالضرورة لكل استخدام للغة. لكنه أيضا يدعونا للغوص في بحار أعمق.

يسأل هيبوثاليس سقراط أن يدلّه على نوع الكلمات أو الأفعال التى يستطيع بها أن يستميل محبوبه. يقول سقراط إنه ليس من السهل أن يخبره بذلك، ولكن لو أن هيبوثاليس أتى بالصعب ليدخل في حوار مع سقراط، فقد يستطيع أن يريه كيف ينبغي له أن يتحدّث مع الصبي.

يجىء ليزيس فينضمّ للرجال، وكان قد سبقه صديقه منيكمينوس، فيستدرج سقراط الصبيين للحوار. لكن منيكمينوس لا يلبث أن يُستدعى لأمر ما،

فيواصل سقراط الحديث مع ليزيس. والدا الصبي يحبانه كثيرا ويريدان له كل السعادة. أيمن لأى شخص أن يكون سعيدا إذا كان مقيدا فى تصرّفاتة، لا يستطيع أن يفعل ما يريد؟ كلا. لكن والذئ الصبى لا يسمحان له بأن يفعل كل ما يريد. لا يدعانه يستقلّ واحدة من مركبات أبية فى السباق، مع أنهما يسمحان بذلك لسائق أجير. وهما يضعانه تحت إمرة عبد رقيق يأخذه إلى المدرسة، وهناك يخضع لحكم مدرّسه. وفى البيت لا تسمح له أمّه بأن يعبت بغزلها ونسجها، بل هى تضربه إن فعل.

لماذا يقف والداه هكذا فى طريقه؟ يظن ليزيس أن السبب هو أنه لا يزال صغيرا. يقوده سقراط لأن يرى أن ذلك لا يمكن أن يكون هو التفسير الصحيح، إذ أن هناك مجالات أخرى حيث يسمحان له عن طيب خاطر أن يفعل ما يشاء؛ يمكنه أن يقرأ ويكتب ويعزف على قيثارته وقتما يشاء وكيفما يشاء. لماذا؟ لأن هذه أشياء يعرف كيف يفعلها! هذا هو بيت القصيد! حيث نملك المعرفة، حيث يرى الآخرون أننا نتمتع بالفهم، هناك يُسمح لنا بأن نفعل ما نريد — لا الوالد والوالدة فحسب، ولا جيراننا ومواطنونا فحسب، بل الناس فى كل الدنيا يعهدون إلينا بممتلكاتهم وشئونهم، لأننا سنصنع بهم خيرا. عندئذ تكون أحرارا؛ ولكن حيث لا نتمتع بالفهم، لا أحد يتركنا نفعل ما يحلو لنا. هكذا، كى نكون أحرارا وسعداء، يجب أن نتمتع بالفهم.

لا شك أنه كانت هناك مناسبات لم يكن سقراط يرى فيها مجالا لأكثر من مثل هذا الحديث الإرشادى، حيث لا يكون المستمع مهينا لاستيعاب ما هو أكثر، أو حيث لا تحتمل المناسبة ما هو أكثر. مثل هذا الحديث هو ما كان زينوفون Xenophon مثلا قمينا أن يتذكره ويدونه فى مذكراته. وبالطبع كان هذا الحديث متجانسا ومتوافقا تماما مع رسالة حياة سقراط. لكن سقراط كان أيضا يعرف أن الدرس لن يضرب بجذوره فى العمق إلا إذا قاد رقيق الحوار للفصوص فى أعماق عقله طلبا للمغزى. تلك كانت وظيفة الحوار السقراطى الحق.

قرب نهاية حديثه مع ليزيس كان سقراط قد استخدم عبارات 'يشعر بالودّ نحو'، 'يصادق'، 'يحب'. يعود منيكيستوس لينضمّ للجماعة، ويطلب ليزيس من سقراط أن يسائل منيكيستوس مثلما كان يسائله، فيختار سقراط أن يتخذ من الصداقة موضوعا للحوار، وهو موضوع كان حديث سقراط الأول مع الصبيين يتجه إليه، قبل أن يستدعى منيكيستوس فيتركهم.

الجزء الثاني من المحاور (212-223)، الذي يتضمّن عنصر الحوار السقراطي بالمفهوم المحدّد للعبارة، يدور حول الصداقة؛ لكنه لا يبدأ، كما تبدأ محاورات 'التعريف' المنطقيّة، بالسؤال: ما هي الصداقة؟ إنما يبدأ بمسألة مركب: حين يصادق أحدٌ أحداً، أيّ الاثنتين يكون صديق الآخر، أيكون الودود صديق المودود أم المودود صديق الودود؟⁽²¹⁾

عند هذه النقطة قد نميل للظن بأن المحاورّة تشرح بعيداً عن المجالات السقراطية المألوفة التي تعالج المسائل الأخلاقية وتغوص بدلا من ذلك في قضية منطقية دقيقة هي مسألة الحدود النسبية relative terms. لكن الأمر ليس بهذه البساطة: جوّ الحوار مشبع بالمسائل المنطقية، وإيحاءات الأبعاد الميتافيزيقية⁽²²⁾ التي ذكرتها في الملاحظة الافتتاحية حاضرة نستشفها في خلفية الحوار، إلا أن المحاورّة مع ذلك تمضي لمتخصّ مسألة طبيعة الصداقة.

هنا، كما في كل المحاورات، وعلى الأخصّ محاورات 'التعريف'، يستكشف سقراط ويُعرّي الغموض وعدم الكفاية في اللغة. إذ أن هذه السمات في أيّ لغة لا تتطابق تماما مع مثيلاتها في لغة أخرى، فإن هذا الجانب من الحوار السقراطي هو أكثر ما يُتعب المترجم. (هذا عذري عن الصياغة الركيكة التي أشرت إليها فيما سبق). حين نتحدّث عن الصداقة، ونحن نتحدّث عن علاقة مشاركة ومبادلة؟ أم نتحدّث عن شعور من جانب أحد طرفي العلاقة نحو الطرف الآخر؟ وفي هذه الحالة الثانية، هل نسمي بلفظ الصديق من يصدر عنه الشعور أم من يتجه إليه الشعور في هذه العلاقة الأحادية؟ لا يمكن لأيّ لغة تشكلت لتعامل مع مقتضيات الحياة العملية أن تأخذ في حساباتها هذه التنويعات الدقيقة والتي لا نهاية لها، وهذا هو السبب في أن الغموض والقصور في

⁽²¹⁾ حذفنا هنا عبارة وردت في الأصل الإنجليزي اعترضت فيها عن الصياغة الإنجليزية الركيكة التي اضطرت إليها للاقترب من الصياغة اليونانية، لكن لعلّ العبارة العربية أسّس في مجازة اليونانية في هذا الموضوع.

⁽²²⁾ رغم أن لفظ 'ميتافيزيقا' لم يُعرف في عهد أفلاطون، ولا حتى في عهد أرسطو، فهناك أبعاد وجوانب من فلسفة أفلاطون لا تسهل الإشارة إليها في إيجاز دون استخدام هذا اللفظ. فمعدّرة عن هذه المفارقة الزمنية في استخدام اللفظ.

التعبير يلزامان حتما كل لغة. ولهذا يلزمنا دوما أن نمحص باستمرار كل مفاهيمنا واقتراضاتنا، أن نخضع كل فكرنا لحوارٍ سقراطي.

يمضى سقراط كاشفاً التناقضات التي تنشأ حين نأخذ لفظاً يؤدي الغرض المقصود منه في سياق معين فننتقل به إلى سياق مختلف، متوقعين أن يؤدي نفس الوظيفة التي كان يؤديها في السياق الأول. لا يمكن لأيّ تعبير لغوي أن يكون صادقا ونهائيا بصورة مطلقة، لأن فكرنا، متى صيغ لغويا، يكون دائما بالضرورة مرتبط بالدلالة بمعطيات معينة، وعلى هذا لا يمكن أبدا أن يكون مطلقا ونهائيا.

لا يمكن أن نجد تعريفا مرضيا بصورة نهائية لأيّ مفهوم لأننا إذ نعرف نحدّ، وإذ نحدّ نحدّد بمفاهيم من خارج المفهوم ذاته. لهذا يبقى مدلول المفهوم (الصورة) المَعْرِفَ دائما بالضرورة منقوصا ومنطويا على تناقض.

الحُجّة في 215 القائلة بأن الخير، لأنه مكتف بذاته، لا يمكن أن يحبّ آخر، ليس القصد منها إثبات هذه النتيجة الظاهرية، وإنما الغرض منها إظهار التناقض الذي ينطوي عليه أخذنا للصياغات اللغوية دون تمحيص. ولكن إن جنحنا للقول بأن الحُجّة هزيلة أو غير قابلة للتصديق، فلنذكر أن مفكرا في مكانة سبينوزا قد قرّر هذه النتيجة بكلّ جدية.

في منتهى الأمر، كل ما يُحبّ يقودنا إلى ذلك الذي إليه ينتهي كل محبوب، *ekeino auto eis ho pasai hautai hai legomenai philia teleutōsin* (220 ب) — إلى ذلك الخير الأوحده، إلى تلك المعرفة، التي مهما حاولنا لا نستطيع تحديدها، والتي لا نستطيع أن نجدها في شيء غير ذات ذلك السعي المشتاق إليها.

يوثيفرون

يتوجّه سقراط إلى رواق 'الملك' لاستيفاء الإجراءات الأولية بصدد الدعوى التي أقامها ميليتوس ضده، وهناك يلقي يوثيفرون، اللاهوتي العراف، الذي جاء ليقدم دعوى ضدّ والده لأنه تسبب بطريقة غير مشروعة في موت عامل أجبر كان يخدم في مزرعة الأسرة. كان دافع يوثيفرون إلى ذلك الاعتبارات الدينية. لم يكن ابنا عاقا ولا كان معنيا بالصحية. لكن التسبب في

موت شخص ما خارج القنوات الشرعية ينجس بيت مقترف الفعل ويجب التطهر من النجاسة باخضاع من تسبب فيها للعدالة. هكذا ينظر يوثيرون لما هو مقم عليه باعتباره من أعمال التقوى، ويزودنا هذا بموضوع المحاورة.

يصوغ سقراط سؤاله المبدئي ليوثيرون بقدر من الدقة والاكتمال يتجاوز المعتاد في بقية المحاورات السقراطية: "أى شيء، فى قولك، هى التقوى *to eusebes* وما هى اللاتقوى *to asebes* فى شأن القتل وفى غيره؟ أليست التقوى *to hosion* فى ذاتها هى نفس الشيء فى كل الأفعال، واللاتقوى *to anosion* مضادة للتقوى ككل، وفى ذاتها هى نفس الشيء، لها صفة واحدة من حيث هى لاتقوى *tên anosiotêta* فى كل ما يتَّصف باللاتقوى؟" (5 ج - د). أترانا نجد أفلاطون هنا قد بدأ يُدخل بعض الدقة والمنهجية على أسلوب المحاورات السقراطية السابقة الذى كان أقرب للكلام المرسل وأقلّ عناية بالشكل؟ أكتفى بطرح السؤال، فكما قلت مرارا، لا أنا مؤهل ولا أنا راغب فى أن أقدم نفسى فى حومة النزال الأكاديمى؛ والإجابة على السؤال، أيا ما تكون، لا تأثير لها على الفلسفة التى أستمدها من المحاورات. ملاحظة أخرى أضيفها هنا: يستخدم سقراط على امتداد المحاورة *to eusebes* و *to hosion* دون تمييز بين اللفظين، ولا حرج إن أخذناهما دون تحفظ باعتبارهما مترادفين.

فى الـ *يوثيرون* يستخدم أفلاطون *idea* (5 د)، و *eidōs* (6 د)، و *ousia* (11 أ) للإشارة إلى الصفة أو المعنى الذى نبحث عنه. وتبعاً لما قد نراه فى مسألة الترتيب الزمنى للـ *يوثيرون* بين محاورات أفلاطون، فقد نرى فى هذا مؤشراً إلى أن سقراط اعتاد استخدام هذه المصطلحات، إن نحن وضعناها باكراً جداً، أو قد نرى فيه مؤشراً لكون أفلاطون المسئول عن إدخال هذه المصطلحات، إن أعطيناها ترتيباً متأخراً. ولكن فى كلتا الحالتين، أحب أن أركز على نقطتين: (1) القول بأن مثل هذه المفاهيم هى ما يشكل المجال الروحى الذى يحيا فيه الكائن الإنسانى حياته المميّزة كإنسان، كان هذا لبّ فلسفة سقراط، وكان تمحيص هذه المفاهيم هو شاغله وشغل حياته. (2) استمر أفلاطون حتى النهاية يستخدم هذه الكلمات دون تمييز بينها، باستخفافه المعهود بالتزام القيود الاصطلاحية، دون أن يهجر أبداً أو يغيّر على الإطلاق الموقف السقراطى الأساسى.

علَى أن أكرر مرّة أخرى ما أكتته كثيراً من قبل، لأنه حيوي لفهمنا لفكر سقراط ولفهمنا للطبيعية الحقّة للتفكير الفلسفي: لم يكن سقراط يطلب تعريفاً بل يطلب معنى *to eusebes* و *to hosion* - لم يكن يسعى لتعريف شكلي، مهما كانت صلاحيته لأغراض محدّدة (ولا يمكن لأى تعريف أن يصلح إلا في حدود غرض محدّد تماماً)، إنما كان يسعى للحقيقة التي نكتشفها داخل عقولنا حين نستدير بعقلنا إلى الداخل لنرى ما نعى. ليس من قبيل الصدفة أن سقراط يجد كل التعريفات المقترحة، دون استثناء، غير وافية؛ نحض كل تعريف بدوره هو جزء من عملية توجيه العقل لأن ينظر إلى الداخل: هذا هو مقصد الحوار السقراطي، تماماً كما أنه مقصد كل تعليم حقّ كما قرّر أفلاطون بوضوح في الجمهورية (518 ب - ج).

برغم اعتناء سقراط بصياغة سؤاله، فإن يوثيفرون يرتكب نفس الخطأ الذي يرتكبه رفاق الحوار الآخرون؛ فبدلاً من أن يقول ما التقوى، يذكر تصرفه هو في حالته الراهنة كمثال للتقوى. لكن سقراط يجد أن عليه، قبل أن يبيّن له خطأه، أن يهتم بقضية أخرى؛ إذ أن يوثيفرون كان قد استشهد في تبرير مسلكه بمثال كبير الآلهة زيوس الذي قيّد أباه حين التهم هذا الأخير أبناءه، وبمثال هذا الأب الذي كان بدوره قد جدد عضو أبيه (5 د - 6 أ). هكذا يبدأ سقراط بإعلان إنكاره لمثل هذه الحكايات اللاأخلاقية عن الآلهة، التي يشنّ أفلاطون بسببها حملة شعواء في الجمهورية على الشعراء والفنانين الذين كان لهم دور فعال في نشر هذه الحكايات.

بعد ذلك يمضى سقراط إلى ما نحن بصددده، فيوضّح: "تذكر أنني لم أطلب مثلاً أو مثالين من بين الأشياء الكثيرة التي نضيفها بالتقوى، بل طلبت تلك الفكرة في ذاتها التي بها تكون كل تقوى تقوى، *ekeino auto to eidos hoi*، في هذه الكلمات القلائل نجد الغاية من الحوار السقراطي مبيّنة بوضوح: إدراك أنه بالفكرة في العقل تكون لكل ما له صفة صفته، وكذلك إدراك أن في العقل كل ما نعرف من الحقيقة وكل ما لنا من حقيقة وكل ما لنا من قيمة خاصّة بنا. هذا بالضبط هو موقف سقراط في قسم 'السيرة الذاتية' من الدافيبون، حيث يؤكد أن غاية كل جهد عقلائي أن ينتهي به المطاف إلى ذلك الجمال الذي به يكون كل جميل جميلاً.

هنا يقمّ بوثيفرون تعريفا سليما شكليًا: ما يرضى عنه الآلهة هو تقوى وما لا يرضى عنه الآلهة هو لاتقوى (6 هـ - 7 أ). دعونا لا نتوقف كثيرا عند تنفيذ سقراط لهذا التعريف بـ 'حجة شخصية' *ad hominem* على أساس معتقدات بوثيفرون الذاتية - فمن الواضح أنه إذا كان الآلهة يتشاحنون ويتعاركون فيما بينهم، فلا بد عندئذ من أن ما يرضى عنه بعضهم لن يرضى عنه آخرون منهم، وهكذا يكون نفس الفعل تقوى ولاتقوى (7 أ-9 ب).

تحت دفع سقراط يتبنّى بوثيفرون تعديلا لتعريفه: ما يرضى عنه الآلهة بالإجماع تقوى وما يستكره الآلهة بالإجماع لاتقوى (9 د-ه). تمحيص سقراط لهذا الموقف له بعدان: أحدهما منطقي صريح وهو يتسق تماما مع مشروع الحوار السقراطي، والآخر مُضمر وذو مغزى أخلاقي وهو، في تقديري، ينضمّن مبدأ أساسيا في الفلسفة السقراطية - الأفلاطونية.

هل يرضى الآلهة عن التقوى لأنها تقوى أم أنها تقوى لأن الآلهة يرضون عنها؟ (10 أ). يعجز بوثيفرون عن فهم هذا التمييز ويضطرّ سقراط لأن يشرح له في استفاضة (10 أ-11 ب). نستطيع نحن أن نبلغ القصد بطريق أقصر. دعنا نقل إن التقوى هي المُستحسن من قِبَل الآلهة أي إنها ما يرضى عنه الآلهة؛ فإذا كان الأمر كذلك، يكون ما ذكرناه باعتباره صفة جوهرية للتقوى هو عرض يلحق بالتقوى. إن تعريفا من هذا النوع قد يصلح في سياق محدّد لغرض محدّد (ما يفرضه القانون في بلد معين، هو العدل بالنسبة للقاضي في ذلك البلد)، ولكن حين نسعى لاستيعاب معنى مفهوم ما، فإن مقارنة المعنى من الخارج لا تصل بنا إلى غايتنا. هذا درس يؤكد لنا الحوار السقراطي باستمرار.

لنتجه الآن إلى المبدأ عميق المغزى الذي لا تتناوله هذه الفقرة إلا مُماسّة. التقوى هي ما هو مُستحسن من قِبَل الآلهة، وهو مُستحسن لأن الآلهة يستحسنونه. فإن يكن استحسان الآلهة اعتباطيا، فإنه يكون مُستحسنا لأن الآلهة ترضى عنه وهذا كل ما هنالك. ولكن إن كان الآلهة يستحسنونه لأن فيه شيئا جديرا بالاستحسان، إن كان الآلهة يرضون عن التقوى لأنها تقوى، لا أنها تقوى لأنهم يرضون عنها، عندئذ يكون الحَسَن (الخير) ملزما للآلهة ويكون الخير المطلق هو مصدر كل خير. أماننا هنا مفهومان للأخلاق متعارضان

تماماً، الأخلاق السلطوية والأخلاق التلقائية. عند سقراط وعند أفلاطون كل الحقيقة توجد داخل العقل وكل قيمة تأتي من داخل العقل.

ذلك أيضاً ما سعى كُنت Kant لأن يؤكد في فلسفة الأمر المطلق Categorical Imperative — أولئك الذين يلومون كُنت لأنه جعل أخلاقية الفعل تعتمد على الأمر the Imperative يسيئون تأويل كُنت ويسبون إلى الرجل. الأمر عند كُنت يشير ببساطة إلى أن الصحة الأخلاقية للفعل ذاتية. الأمر المطلق الأخلاقي هو أمر تلقائي autonomous لأنه يؤكد للقيمة الذاتية intrinsic للإرادة الحرة.

يجد يوثيفرون نفسه في تيه ويمدّه سقراط باقتراح. لنقل إن كل ما هو تقوى صالح *dikaion* - ولكن، هل كل ما هو صالح تقوى أم أن بعضه تقوى وبعضه شيء غير التقوى؟ مرةً أخرى يعجز يوثيفرون عن فهم المقصود ويكون على سقراط أن يشرح له ويقوده للموافقة على كون التقوى جزءاً من الصلاح (11 هـ - 12 د). (هامشياً، نلاحظ كيف كان أفلاطون يضع الأسس لعلم المنطق الذي كان أرسطو سيُمنهجه.) ولكن، أي جزء من الصلاح هي التقوى؟ يجيب يوثيفرون بأن التقوى هي جزء الصلاح الذي يختصّ بخدمة الآلهة، وبقية الصلاح ما يختصّ بخدمة البشر (12 هـ). لا يلقى سقراط صعوبة في أن يبين أن فكرة يوثيفرون عن الخدمة غائمة وأن يوثيفرون لا يستطيع أن يزودها بمحتوى مُرضٍ (13 أ-14 أ).

لم تكن محاولة يوثيفرون الأخيرة أسعد حظاً من سابقتها. التقوى هي فنّ تقديم العطايا للآلهة وطلب الهبات منهم في الصلاة. هذا نوع من المتاجرة بين الآلهة والبشر. ما يمكن أن نتلقاه من الآلهة لا يحتاج لبيان، ولكن ما الذي يمكن أن نعطيه للآلهة؟ التكريم والإجلال والشكر. التقوى إذن هي أن نقدّم للآلهة ما هو مُستحبّ لهم. هكذا عدنا أدرجنا إلى الموقف الذي سبق أن وجدناه غير وافي (14 أ-15 ج).

يوثيفرون ليس مهياً للفهم، عقله تكبله بشدة المعتقدات التقليدية لدرجة لا تتيح له أن يمرّ بتجربة الحيرة المخزرة التي يقود إليها الحوار السقراطي عادةً.

بدلاً من ذلك يعزو عجزه عن تقديم الجواب عن سؤال سقراط لضيق الوقت، ويمضى في سبيله قائماً بما هو فيه.

يُجهد الباحثون أنفسهم ليُظهروا أن محادثة ما لأفلاطون يمكن أن تكون ذات قيمة "برغم نتائجها السلبية". هكذا يقلبون الأمور رأساً على عقب ويفوتهم لا الغرض من المحاورات السقراطية فحسب بل ويفوتهم مغزى كل عمل أفلاطون. إن غرض الحوار السقراطي أن يجعلنا ندرك أن معنى أى مفهوم لا يمكن أن نجده فى أى ظروف أو علاقات من خارجه وإنما نجده فقط فى الحقيقة ذاتية الوضوح للفكرة داخل العقل الفاعل الخلاق. غرض الديالكتيك الأفلاطونى أن يجعلنا ندرك أن أى صياغة فكرية محددة لا يمكن أبداً أن تكون نهائية أو أن تكون آمنة من التناقض.

مينون

ربما تنتمى المينون من حيث الترتيب الزمنى إلى بداية الفترة الوسطى، لكنها تحتوى فى داخلها على محادثة سقراطية مصغرة (70 أ-79 هـ). أعتقد أن هذا ينبغي أن يدلنا على أن أفلاطون لم يهجر أبداً القناعات والمبادئ التى نجدها فى المحاورات الباكرة، وليس هذا فقط بل وأنه كذلك لم ينبذ أبداً لا الشكل ولا الطريقة. حين كان يحسن أنه استثمر شكلاً ما أو طريقة ما بما يكفى، كان يتجه إلى شكل جديد وطريقة جديدة، لكن كان من الممكن فى كل وقت أن يعود للشكل القديم إن رأى فى ذلك نفعاً. ربّما نجد فى هذا حلاً للغز الباب الأول من الجمهورية، فمن حيث الشكل والمحتوى يماثل هذا الجزء الافتتاحى من الجمهورية المحاورات السقراطية الباكرة، مما دفع بكثير من الباحثين للاعتقاد بأن ذلك الجزء كان قد كُتب أصلاً فى الفترة الأولى كمحاضرة منفصلة ثم استخدمه أفلاطون فيما بعد كفاتحة لكتاب الجمهورية. أظن أن من الممكن أن أفلاطون حين اعتمز كتابة الجمهورية، خطط عن قصد أن يبدأ الكتاب بمحاضرة سقراطية، لأن ذلك يخدم الخطة الكلية للعمل. ولكن حتى على نظرية أن الباب الأول كان فى الأصل محاضرة باكرة منفصلة، فإن ذلك يعنى أن أفلاطون كان لا يزال قادراً على أن يستخدم الشكل القديم لذات الغرض العتيق.

تبدأ المحادثة بسؤال مباحث يوجهه مينون إلى سقراط: "هلا أخبرتنى يا سقراط ما إذا كانت الفضيلة قابلة لأن تُعلم؟ أم إنها لا تُعلم بل تُكتسب

بالممارسة؟ أم إنها لا تُكتسب لا بالمران ولا بالتعليم إنما توجد في الناس بالطبيعة أو بطريقة أخرى؟" (70 أ).

يردّ سقراط بأنه ليس فقط لا يملك جوابا حاضرا عن هذا السؤال، بل إنه لا يستطيع حتى أن يقول ما الفضيلة. يرى مينون أن هذا شيء لا يُصنّف. "أأحمل إلى قومي هذا القول عنك، أنك لا تعرف ما الفضيلة؟" – "ليس ذلك فقط، بل وأناى لم أصادف قط أحدا يعرف ذلك." – "لم تقابل جورجياس حين كان هنا؟ هل بدا لك أنه لا يعرف؟" (71 أ - ج).

يقترح سقراط أن نترك جورجياس خارج النقاش ما دام ليس حاضرا ليجاب عن نفسه، لكن من المفترض أن مينون يعرف ما قال جورجياس ويتفق معه، فهلا قال لنا مينون ما الفضيلة؟ يتطوّر مينون باستعراض ضاف لتشكيلة من الفضائل: فضيلة الرجل، والمرأة، والطفل ذكرا أو أنثى، وفضيلة الشيخ، ولكل الرتب والمراكز وفي ستمّى المواقف هناك فضائل نختار منها ما نشاء (71 د - 72 أ).

يضطرّ سقراط لأن يشرح: يا لى من محظوظ! طلبت منك فضيلة واحدة فقنّمت لى سزبا. ولكن، دعنى أكن أكثر جديّة، فلنأخذ هذا المجاز عن سرب النحل، لو أننى سألتك عن الطبيعة الخاصّة بالنحلة *melittês peri ousias* 'hoti pot' estin، فقلت لى إن هناك أنواعا عديدة من النحل، لسألتك عندئذ إن كانت تختلف عن بعضها البعض من حيث هى نحل. يقرّ مينون بأنها، من حيث هى نحل، لا تختلف فيما بينها (72 أ - ج). ينبغى أن نلاحظ هنا أن سقراط يسأل عن الطبيعة الخاصّة، الفكرة التى بها نميّز هذا أو ذاك الشيء المعين بوصفه كذا أو كذا؛ إنه لا يطلب تعريفا شكليّا، بل يطلب توضيحا لما تعنيه بالفكرة. إننى أعاود التوكيد على هذا على الرغم من أن سقراط (أو أفلاطون) يعتمد أحيانا لاستخدام تعريفات شكليّة، فى سبيل أن يفهم رفيق الحوار نوع الإجابة المطلوبة، كما فى هذه المحاورّة (74 ب-76 د). أو يمكن أن نقول إن سقراط قد يتخذ من تحميم تعريف شكلي منطقًا للحوار، لكن غاية الحوار لا تكون أبدا الوصول إلى تعريف أحسن أو أكثر بقاء، بل تحميم الفكرة التى تُقدّم ظاهريّا للتعريف.

نعود لمحاورتنا: هكذا الحال مع الفضائل، رغم كونها متعدّدة ومتباينة إلا أن لها كلها هيئة *eidôs* واحدة، بها تكون كل الفضائل فضائل. لكن مينون

ما زال لا يدرك بوضوح ما الذى يطلبه سقراط، وحتى بعد أن يعطيه سقراط مزيداً من الأمثلة – الصحة والحجم والقوة – وبعد أن يقرّ مينون بأن لكل من هذه هيئة واحدة سواء كانت فى رجل أو امرأة، فإنه يعتقد أن الحال مع الفضيلة غير ذلك (72 ج - 73 أ).

كان مينون فى ثانيا استعراضه للفضائل قد ذكر أن فضيلة الرجل أن يحسن إدارة شئون المدينة وفضيلة المرأة أن تحسن إدارة شئون بيتها. لا إدارة المدينة ولا إدارة البيت يمكن أن تحسُن بغير الاتزان والعدل. المرأة الخيرة والرجل الخير كلاهما يجب أن يتصفا بالعدل والاتزان. الصبي والشيخ يلزمهما العدل والاتزان بنفس القدر. كلهم يكونون اختياراً بنفس الطريقة، ولا يكونون اختياراً بنفس الطريقة إلا إذا كانت لهم جميعاً نفس الفضيلة (73 أ - ج). لم ندخل بعد دائرة الحوار السقراطي؛ كل هذا تمهيد الغرض منه أن يقود مينون إلى فكرة الصفة الواحدة التى يكون علينا أن نمحصها.

هنا يقول مينون إن الفضيلة هى القدرة على حكم الناس. ولكن إن تكن الفضيلة واحدة فى الجميع، هل نقول إن فضيلة الطفل أن يحكم، وإن فضيلة العبد أن يحكم سيده؟ وأيضاً، إذا كانت الفضيلة أن تحكم، ألا ينبغى أن نضيف لذلك شرط 'أن تحكم عدلاً'؟ يوافق مينون، فالعدل فضيلة. يسأله سقراط: أ هو فضيلة أم كل الفضيلة؟ مرّة أخرى يعجز مينون عن إدراك الفرق ويكون على سقراط أن يشرح له (73 ج - هـ). غرض سقراط من طرح السؤال هنا لا يقتصر على البعد المنطقي، ليس الغرض مجرد توضيح العلاقة بين ما سيطلق عليه أرسطو النوع species والجنس genus - غرض سقراط هنا ميثافيزيقي (إذا سُمح لى بهذه المفارقة التاريخية): أن يقدم فكرة المفهوم الواحد الذى به يكون كل ما هو كذا، كذا. ذلك غرض سقراط الأساسى، أن يلفت انتباهنا إلى مجال المفاهيم الذى يشكّل كينونتنا الخاصة ككائنات إنسانية.

يعترف مينون بأن هناك فضائل أخرى بجانب العدل، مثل الشجاعة، الاتزان، الحكمة، الرفعة، وفضائل أخرى كثيرة. هكذا عدنا إلى وضعنا السابق؛ عدنا فضائل كثيرة لكننا لم نخطُ بالصفة الواحدة التى تجعل منها كلها فضائل (74 أ). من جنيد يتأزم موقف مينون، وهنا يقدم له سقراط نماذج من التعريف لن أتوقّف عندها فى هذا المكان لأنها غير ذات دلالة بالنسبة لمسألة الحوار السقراطي.

يتقدّم مينون أخيراً بتعريف جديد. الفضيلة هي، كما يقول الشعراء، كوننا متى رغبنا في الأشياء الحسنة نقدر على الحصول عليها (77 ب). أن نرغب في الأشياء الحسنة يعني أن نرغب فيما هو خير. لكن هل هناك من يرغبون في الأشياء السيئة بجانب من يرغبون في الأشياء الحسنة؟ ألا يرغب كل الناس فيما هو حسن؟ يقول مينون: كلا؛ هناك من يرغبون فيما هو سيئ. – هل يرغبون فيما هو سيئ، إذ يظنون أنه حسن، أم أنهم يعرفون أنه سيئ، ورغم ذلك يرغبونه؟ – يقول مينون: هذا وذاك.

أن نرغب شيئاً يعني أن نريد أن يكون لنا ذلك الشيء. – نريد أن يكون لنا إذ نظنّ أنه يفيدنا أم ونحن نعرف أنه يضرنا؟ مرّة أخرى يرى مينون أننا نصادف الحالتين كليهما. – أولئك الذين يظنون السيئ مفيداً، هل يرونه شيئاً؟ – كلا. – هؤلاء إذن لا يرغبون فيما هو سيئ بل فيما يظنونه حسناً ولو أنه في الواقع سيئ؛ إنهم إذ يرغبون فيما يحسبون خطأ أنه حسن، فإن رغبتهم تتجه لما هو حسن (77 ب - هـ). – أولئك الذين يرغبون في السيئ، ويظنون أنه ضار، هل يعرفون أنه سيئ؟ – بالضرورة. – أولئك الذين يحيق بهم الضرر تعساء بقدر ما يقع عليهم من ضرر. هل هناك من يريد أن يكون تعسفاً؟ – لا أحد. – إذا لم يكن هناك من يريد أن يكون تعسفاً فلا أحد إذن يرغب في السيئ (77 هـ - 78 ب).

قال مينون إن الفضيلة أن نرغب فيما هو حسن ونقدر على الحصول عليه. لكننا اتفقنا على أن الرغبة فيما هو حسن شائعة بين الجميع، فلا أحد أفضل من سواه في هذا. فإن يكن أحد أفضل من آخر فلا بد أن يكون ذلك في القدرة على الحصول على الحسن. خلاصة تعريف مينون للفضيلة إذن هي: الفضيلة هي القدرة على الحصول على ما هو حسن (78 ب - ج). هل نعني بالأشياء الحسنة أشياء مثل الصحة والثراء؟ يضيف مينون لذلك امتلاك الذهب والفضة، والكرامة في المدينة، والسلطة. الأشياء الحسنة ليست إلا أمثال هذه الأشياء. الفضيلة هي امتلاك هذه الأشياء. هل نحدد الامتلاك باشتراط أن يكون الامتلاك بالعدل والصلاح، أم أنه يظل فضيلة حتى وإن جاء الامتلاك بغير عدل؟ – كلا. – إذن إلى جانب امتلاك هذه الأشياء يجب أن يكون عندنا العدل أو الأتزان أو الصلاح أو جزء آخر من أجزاء الفضيلة، وإلا فإبنا حتى إن امتلنا القدرة على الحصول على هذه الأشياء، لن يكون امتلاكها فضيلة. حيث لا يمكن امتلاك الذهب والفضة عدلاً، يكون الفشل في امتلاكهما فضيلة. إذن فالقدرة

على امتلاك هذه الأشياء ليست في ذاتها فضيلة بأكثر من عدم القدرة على امتلاكها. القدرة وعدم القدرة على حدّ سواء، حين يقترنان بالعدل، يكونان فضيلة، وحين يفترقان للعدل والفضائل الأخرى يكونان رذيلة (78 ج - 79 أ).

لكننا منذ قليل قلنا إن العدل والاتزان وما إلى ذلك هي أجزاء من الفضيلة. فيقول سقراط: هل تهزأ بي يا مينون؟ إننا كنا نبحث عن طبيعة الفضيلة ككل، والآن نقول إن ما نعله جزء من الفضيلة هو فضيلة، كأننا قد عرفنا بالفعل ما هي الفضيلة (79 أ-ج). وهكذا، كالمعتاد، لم نصل إلى شيء. لم نبرهن على شيء. لم نصل لتعريف شيء. أيمن لأحد أن يصتق أن سقراط وأفلاطون كانا بهذا القدر من الغفلة، يجتهدان كثيرا وطويلا ولا يقولان شيئا؟ لو أن أيّا من سقراط أو أفلاطون دخل في حوار يهدف الوصول إلى نتيجة ما، أكان يصعب كثيرا على أيّهما أن يحصل على نتيجة بادية للوجهة ولو من حين إلى حين؟ كانت لسقراط غاية وحيدة، رسالة وحيدة: أن يَرُجَ رفقاء الحوار حتى يحرّزهم من الرضا عن الذات ويقودهم لأن يفكروا وأن ينظروا داخل أنفسهم. أغراض أفلاطون الفنّان، مؤلف المحاورات، لم تكن بهذه البساطة. في كلّ من المحاورات كان له أكثر من مقصد: الدراما، الشعر، تصوير الشخصيات، المحاكاة الساخرة، النقد — أحيانا يكون هذا العنصر أو ذاك هو الأبرز، ولكن فيما وراء كل هذا وفوق كل هذا كان هدف مواصلة رسالة أستاذه: أن يثير، أن يصدّم، أن يفجّر المستلمات المستقرّة والمفاهيم المتحجرة، أن يوقظ عقول قرّانه ويحملهم على أن يكتشفوا الحقيقة داخل أنفسهم.

يوثيديموس

اليوثيديموس ليست محاوراة سقراطية في المكان الأول. يبدو أن هدفها الرئيسي كان إزالة الخلط الشائع بين الديالكتيك السقراطي وهزليات السفطة الجدالية. لهذا يضع أفلاطون تصويره الساخر لعبثيات يوثيديموس وشقيقه ديونيسيديروس في إطار واحد وجها لوجه أمام حوار سقراط التربوي مع كليتياس. في *الديوروتاجوراس* يضاهاى أفلاطون بين منهج سقراط ومنهج واحد من أفدر السوفسطيين وأكثرهم جدارة بالاحترام. في *الديورجياس* يصوّر سقراط محاوراة ثلاثة من السوفسطيين تتفاوت أقدارهم، بدءًا من جورجياس المنحل، مرورًا بـ بولوس، ونزولًا إلى كاليكليس، وتختلف طبيعة النقاش مع

اختلاف طبيعة رفيق الحوار. في المحاورتين اللتين تحملان اسم هيبياس المغرور الجعجاع ولكن في حُسن نية، هناك محاكاة ساخرة ولكن هناك أيضا محتوى جاذب. أما في الديموقراطيس فلا مزج ولا ربط بين الهزيمة الفارغة للأخوين المهزجين والحوار الجاذب، بل يمضى التياران المتناظران في مجريين متوازيين لا يلتقيان. وفي هذا السياق يكون مربكا للصبي كلينياس أن يخضع لصرامة الحوار السقراطي المعتاد. هكذا، في المحادثة الأولى مع كلينياس فإن الفكر والمبادئ التي يهدف الحوار السقراطي لأن يقود رفيق الحوار لاكتشافها بنفسه، نجدها هنا تقدّم بطريقة مباشرة.

المهمة التي يحددها سقراط لديوثيديموس وديونيسيديوروس كوسيلة لإثبات حكمتها هي أن يُقنعا الصبي كلينياس بالحاجة لممارسة الفلسفة ومراعاة الفضيلة. بعد أن يقدّم استعراضهما الأول لخفة يدهما اللسانية - أرجو المعذرة عن اختلاط الصورة المجازية، فالمقام مقام اختلاط - يوضح سقراط للصبي الجليل التي لجأ إليها الدعيان، باستغلال المعاني المزدوجة للكلمات الغامضة؛ ثم يعرض أن يقدّم لهما نموذجا لنوع المحادثة التي يطلبها منهما. هكذا يأتينا الجزء الأول من بيان سقراط في مواجهة ما قدّمه المهرجان.

هل يريد كل الناس أن يفلحوا؟ - هذا واضح. - كيف نفلح؟ هل نفلح حين نمتلك أشياء كثيرة حسنة؟ - هذا أيضا يبدو أنه واضح. - ما هي تلك الأشياء الحسنة؟ يتفق الناس على أن الثروة حسنة. وكذلك الصحة والجسد البديع وكل أنواع الكمال الجسدي. وأيضا النسب الطيب والسلطة والتكريم بين قوم المرء، كل هذا حسن. وماذا عن أن يكون المرء مثزنا وعادلا وشجاعا؟ هذه أيضا أشياء حسنة. وأين ندرج الحكمة؟ هل نضعها بين الأشياء الحسنة؟ (278 هـ - 279 ج).

ولكن ألم يُبب عنا أعظم الأشياء الحسنة جميعا؟ ألا يقول الناس إن الحظّ الحسن أعظم الأشياء الحسنة؟ ولكن، إذا راجعنا أنفسنا، فربما نجد أننا إن قلنا هذا نجعل من أنفسنا أضحوكة، لأننا أخذنا بالفعل الحظّ الحسن بين ما أخذنا. والأن نعود فنفعل ذلك من جديد. فالحكمة بالتأكيد هي ذات الحظّ الحسن. عازف الناي المحترف أكثر الناس توفيقا في عزف الناي. في الكتابة والقراءة، في

مجابهة أخطار البحر، في الحرب، في علاج المرض، في كلّ هذا يحالف التوفيق أولئك الذين درسوا فنهم. على هذا فمن الواضح أن الحكمة دائما يصحبها الحظّ الحسن (279 ج - 280 أ).

علينا أن نتوقّف هنا لحظة لنقول شيئا ما كانت بنا حاجة لأن نقوله لولا الهراء الكثير الذى يقال عن أفلاطون وسقراط. لم يكن سقراط هنا يقيم حُجّة ولا كان يُخضع كلينياس للامتحان المعتاد. هنا، في سبيل وضع هدف الديالكتيك الحقّ في تعارض واضح مع هدف جدال المجادلين الخاوى، فإن سقراط يقدّم للصبي أفكارا ومفاهيم يكون على رفيق الحوار أن يجدها بنفسه ولنفسه في الحوار السقراطى الصحيح.

بعد أن قاد الصبي لإدراك أن فكرة الحظّ الحسن فكرة جوفاء وأن ما نحتاجه للنجاح في أى نشاط ليس حسن الحظّ بل الحكمة، يمضى سقراط قائلا: اتفقنا على أننا إن امتلنا أشياء كثيرة حسنة نكون سعداء ونفعل. هل يجعلنا امتلاك الأشياء الحسنة سعداء إن لم تكن مفيدة لنا؟ وهل تكون مفيدة لنا إن لم نستخدمها؟ هل يكون الطعام أو الشراب نافعين لنا إن امتلناهما لكننا لم نأكل أو نشرب؟ هل يستفيد ممارس أى مهنة بامتلاك الأدوات والمواد اللازمة إذا لم يستخدمها؟ لو امتلك شخص ما الثروة وكل الأشياء الحسنة التى ذكرناها لكنه لم يستخدمها، فهل يصبح ذلك الشخص سعيدا بامتلاك تلك الأشياء الحسنة؟ من الضرورى ليس فقط أن نمتلك الأشياء الحسنة بل يلزم أيضا أن نستخدمها حتى يكون من الممكن أن تجعلنا سعداء. لكن هل يكفي ذلك لجعل المرء سعيدا، هل يكفي أن يمتلك الأشياء الحسنة وأن يستخدمها؟ علينا أن نقيّد عبارتنا بشرط: الأشياء الحسنة تجعل المرء سعيدا إن استخدمها استخداما صحيحا. أن نستخدم الشيء استخداما خاطئا أسوأ من ألا نستخدمه على الإطلاق، فالاستخدام الخاطى يضرّ أما عدم الاستخدام فلا ينفع ولا يضرّ. فى كل الحرف والمهن، الاستخدام الصحيح يأتى من المعرفة. ليست المعرفة مصدر حسن الحظّ فقط بل إنها مصدر النجاح فى كل امتلاك وكل نشاط. هل يكون امتلاك أى من الأشياء التى ذكرناها مفيدا بدون العقل والحكمة؟ هل ينتفع المرء أكثر بامتلاك أشياء كثيرة حسنة بدون العقل أم بامتلاك أشياء قليلة حسنة مع العقل؟ من يكتن أقلّ نشاطا يكتن أقلّ عرضة للخطأ، أقلّ عرضة لاقتراف الظلم، أقلّ عرضة لأن

يكون تعيناً. من المحتمل أن يكون الفقير أقل نشاطاً من الغنى، والضعيف من القوى، والجبان من الشجاع الذكي، والكسول من النشط، والبطيء من السريع، وضعيف السمع والبصر من حاذ السمع والبصر. هكذا فإن كل الأشياء التي حسبناها من قبل حسنة ليست حسنة في ذاتها، فحين يقودها الجهل تكون أسوأ من نقيضها، وحين يقودها العقل والحكمة تكون أحسن، ولكنها في ذاتها لا هي حسنة ولا سيئة. كل الأشياء الأخرى، ليس فيها ما هو خير أو شر؛ الخير والشر هما هذان فقط: الحكمة هي الخير الأوحد، والجهل هو الشر الأوحد (280 ب- 281 هـ).

ما معنا جميعاً نريد أن نكون سعداء، وقد رأينا أن السعادة تأتي من الاستخدام الصحيح للأشياء، والاستخدام الصحيح يأتي من المعرفة، فيجب على كل واحد منا أن يسعى بكل وسيلة لأن يكون حكيماً بقدر المستطاع (282 أ). بعد أن يقود كلينيلاس للموافقة على أن من الواجب على الإنسان أن يبذل كل جهد في السعي للحكمة، يضيف سقراط، كأنما خطر له خاطر تَوّاً: هذا إذا كان ممكناً أن نتعلم الحكمة ولم تكن الحكمة تأتي للناس تلقائياً، فهذه مسألة لم نمحصها ولم نتفق بشأنها فيما بيننا. يقول كلينيلاس إنه يعتقد أن الحكمة يمكن تعلمها، فيشكره سقراط إذ وفر عليه مشقةً تمحيص المسألة، ويحثه على ممارسة الفلسفة (282 ج - د). لماذا رأى أفلاطون ضرورة لأن يلحق هذا الشرط بمحادثة بدا أنها تسير سلسة وتنتهي إلى نتيجة مرضية؟ أعتقد أن السبب هو بالضبط كونها كانت تمضي بهذه السلسلة البادية وتنتهي لنتيجة مرضية. تلك كانت محادثة تربوية، كانت جيدة تماماً في حدود غرضها المحدود، لكنها كانت لتصبح ضارة لو سُمح لها بأن تعطى الانطباع بأن المسائل المخصصة كانت بتلك البساطة البادية وأن التوكيدات التي وردت في مجرى الحديث كانت وافية وأنها نستطيع أن نقف عندها دون مزيد من التمحيص. إذا كنا قد استوعبنا الدرس الأفلاطوني، فإننا بالطبع سنزود أطفالنا بنصائحنا الطيبة، لكننا يجب أيضاً أن نعلمهم أن يضعوا نصائحنا موضع المسائلة وأن يخضعوها لتدقيق لا يتساهل ولا يرحم.

بعد أن يقدم سقراط لديونيموسودوروس ويوثيديموس بيانه العملي للطريقة التي يريد منهما أن يتبعها في حديثهما مع كلينيلاس، حسبما وعدهما، يطلب منهما أن يحذوا حذره أو أن يستأنفا الحديث من حيث انتهى هو فيشرحاً للصبي

ما إذا كان عليه أن يسعى لكل المعرفة أم لنوع معين من المعرفة. لكنهما لا يفعلان لا هذا ولا ذلك بل يواصلان تهرجهما. لكن سقراط هذه المرة لا يكتفى بأن يُعرى حيلهما كما فعل من قبل، بل يواجههما بمزيد من الحزم ليبيّن كيف يمكن لمن يستطيع التفكير أن يلجمهما. حين ينذر الحديث مرة أخرى بأن يتحوّل إلى شجار، يعرض سقراط أن يستأنف حديثه مع كليتياس كنموذج لما 'يرجو' أن يقّمه الأخوان (282 د - 288 د).

يعود سقراط لمخاطبة كليتياس، وفيما يلى نقترّب من جوهر الحوار السقراطي الحقّ. لقد اتّفقتنا على أننا بحاجة لممارسة الفلسفة. الفلسفة امتلاك للمعرفة. أى معرفة بحسن بنا أن نمتلكها؟ ألا تكون هى المعرفة التى تفيدنا؟ هل يفيدنا أن نعرف فى أى بقعة من بقاع الأرض يمكننا أن نستخرج الذهب؟ ربّما. لكننا اتّفقتنا على أن امتلاك الذهب لن يفيدنا إذا لم نعرف كيف نستخدمه. ولن تفيدنا معرفة إدارة الأعمال ولا معرفة الطب ولا أى معرفة أخرى إذا لم نعرف كيف نستفيد منها. ولا حتى لو عرفنا كيف نجعل أنفسنا خالدين لا نموت، لن تفيدنا تلك المعرفة إذا لم نعرف كيف نستفيد من خلودنا. نحتاج معرفة تتقرن فيها معرفة طريقة عمل الأشياء بمعرفة كيفية الانتفاع بما نعمل. يمكننا أن نترك جانباً معرفة صنع القيثارة والنأى والأشياء الأخرى من هذا القبيل، ففي هذا المجال تتفصل معرفة صنع الشيء عن معرفة كيفية استخدامه (288 د- 289 ج).

ماذا عن معرفة تأليف الخطب؟ هل تجعلنا سعداء؟ كليتياس ينكر ذلك. لماذا؟ بعض الذين يدبجون الخطب لا يعرفون كيف يستخدمون خطبهم، بينما نجد بعض من لا يعرفون كيف يكتبونها يعرفون كيف يستخدمونها، فهنا أيضا عمل الشيء واستخدامه منفصلان (289 ج - د). قد نقول إن هذا تفسير أعرج. كان من الممكن لسقراط أن يوضح أن مؤلّفى الخطب لا يعرفون بالضرورة ما إذا كانت خطبهم فى حال نجاحها ستؤدى إلى خيرهم الحقّ، لكن ذلك كان ليخرج بالحوار من الإطار المحدّد له فى الطرف الراهن. ينبغي أن يبيّن لنا هذا كيف نخطئ حين نقرأ محتوى أعمال أفلاطون سطحيًا، دون أن نأخذ فى الاعتبار السياق الدرامى.

أين نجد المعرفة التي يمكن أن تجعلنا سعداء؟ أتكون هي المعرفة التي يختص بها القائد العسكري؟ كلا. القائد العسكري صياد من نوع ما. صيادو الحيوان والسماك وما إلى ذلك، حين يحصلون على صيدهم، يقيمونه للطاهي ليستخدمه. كذلك دارسو الهندسة والحساب يقدّمون ما يتوصلون إليه إلى الديالكتيكي، إن يكن بهم عقل. (ليس هنا مجال التعليق على هذه الملاحظة المتفجرة من جانب أفلاطون.) وبالمثل، فإن القائد العسكري حين يستولى على مدينة فإنه لا يعرف ما عساه يفعل بها، فيسلمها لرجل الدولة. فإن كنا نريد أن نعرث على المعرفة التي نعرف كيف تحصل على بغيتها وتعرف أيضا كيف نتفعل بها، وإذ تفعل هذا تجعلنا سعداء، فعلينا أن نبحث في مكان آخر (290ب - د).

يستخدم أفلاطون حيلة درامية فيجعل سقراط ينسب هذه التبريرات الحائقة لكلينياس، مما يدفع كريتون، الذي يروى له سقراط الحوار، لأن يقاطعه غير مصتق: هل قال الصبي كل هذا؟ ويميل سقراط للمراوغة: ربما كان الذي قاله هو كتيبيوس أو شخص أكثر حكمة. يعود كريتون فيسأل: هل واصلتما البحث وهل وجدتما المعرفة التي كنتما تطلبانها؟ (290 هـ - 291 أ).

إجابة سقراط على سؤال كريتون ذات مغزى بعيد: أتى لنا أن نجدها؟ كان حالنا باعثا على الضحك. مرارا كنا نحسبنا نوشك أن نمسك بالمعرفة التي نطلبها، وإذا بها تفلت منا. وصلنا أخيرا في بحثنا إلى الفن الملكي، وبحثنا ما إذا كنا نجد هناك المعرفة التي توفر لنا السعادة، فإذا بنا قد سقطنا في متاهة: كلما ظننا أننا قد وصلنا إلى غايتنا، ندخل في منعطف فنجد أنفسنا حيث كنا في البداية ويكون علينا أن نعاود البحث من جديد (291 ب - ج). هنا يعطينا أفلاطون صورة دقيقة لعملية الحوار السقراطي: إنه أبدا لا يصل، وأبدا لا يُصنّد له أن يصل، إلى نتيجة. هذا يتوافق تماما مع ما أكده أفلاطون فيما بعد من أنه لا يصح، ولا يمكن، حبس الفكر الفلسفي في صياغات لغوية محددة، ومع ما قاله في الجمهورية عن المعرفة في أسمى مراتبها وعن الديالكتيك.

يواصل سقراط حديثه: اعتبرنا الفن الملكي هو نفسه فن الحكم، إليه تُحمل كل الفنون الأخرى ثمارها ليستخدمها للخير العام. ها هو الفن الملكي وتحت سيطرته كل هذه الأشياء الحسنة، فماذا يفعل من أجلنا؟ إن تكن هذه هي المعرفة

التي نطلبها فيجب أن تكون بطريقة ما نافعة لنا. لكن في الحوار السابق مع كلينياس كنا قد وجدنا أن الخير الوحيد هو المعرفة. كل الأشياء الأخرى التي يُفترض أن يكتنبا بها فن الحكم – الثروة، الأمن، السلام، إلخ. – كنا قد وجدنا أنها لا هي حسنة ولا سيئة في ذاتها. على فن الحكم أن يجعلنا حكماء ويعطينا المعرفة إذا كان له أن ينفعا ويجعلنا سعداء. فهل يجعل الفن الملكى الناس حكماء وخيرين؟ أى معرفة يعطينا إيّاها؟ إنها لا يمكن أن تكون نوعا من أنواع المعرفة المتخصصة التي وجدناها تنتج أشياء لا هي حسنة ولا سيئة في ذاتها. أنقول إنها معرفة تمكّنا من أن نجعل الآخرين صالحين؟ صالحين لأى شيء؟ صالحين لجعل آخرين بدورهم صالحين وهكذا إلى ما لا نهاية؟ صالحين على أى نحو؟ يبدو أننا ما زلنا بعيدين كل البعد عن أن نجد نوع المعرفة التي يمكن أن تجعلنا سعداء (291 ج - 292 هـ). هكذا نصل إلى الحيرة المعتادة التي ينتهى إليها الحوار السقراطى. أعتقد أن أفلاطون اختار أن يعطينا هذا الجزء من النقاش 'خارج المسرح' لأنه ما كان ليلتحم جيّدا مع دراما العرض الذى كان سقراط يقّمه للأخوين الدعيّين. ما كان هذان ليفهما غايته الجادة وما كانا ليجدا فيه إلا مادة لتهرجهما.

بدءا من هذه النقطة، باستثناء المحادثة الختامية بين سقراط وكريتون، تتحوّل الديوثيديموس إلى برلييسك burlesque قحّ. إذ يصوّر أفلاطون الأخوين هازنين ساخرين من كل شيء وكل شخص، فهو يهزأ بهما ويسخر منهما ومن 'حكمتهما'.

هيبياس الكبرى

كثيرا ما يساء فهم المحاورتين اللتين تحملان اسم هيبياس حين لا ينال العنصر الدرامى فيهما الاعتبار الكافى. فى رأى أن الغرض الأساسى فى كل من الهيبياس الكبرى والهيبياس الصغرى هو السخرية من غرور وتفاهل هيبياس، بحيث يكون من الأجدى، خاصة بالنسبة لهيبياس الكبرى، أن تُدرس المحاورة كعمل درامى، بدلا من محاولة تتبّع خطوات الحوار السقراطى فى ثنايا ما يدور فيها من نقاش، إلا قرب نهاية المحاورة حيث يمكننا مرّة أخرى أن نلتقط المبدأ الأساسى الأوّل للحوار السقراطى: لا يمكن أن نفهم

معنى أى مفهوم بأى شيء من خارج المفهوم ذاته أو أن نجدهُ مُخْتَرًا لآ فى أى شيء أو أشياء خارجه. فى منتهى الأمر يجب أن نقتنع ببصيرة أنه بمفهوم الجمال - الذى يولد فى العقل ولا يمكن أن يوجد فى غير العقل - يصبح كل ما هو جميل جميلًا.

تعتبر *الدهيباس الكبرى* عادةً كمحاورة 'تعريف'. وبينما يلاحظ الباحثون عامّة أنها واحدة من أبسط المحاورات شكلاً فإنتى لم أزل أحدًا علق على المحادثة التمهيدية المسهبة بين سقراط ودهيباس، التى تبدو ظاهريًا بلا أى صلة بالموضوع المحورى للمحاورة. أعتقد أن هذه المحادثة التمهيدية ينبغي أن تدلنا على أن *الدهيباس الكبرى* أريد بها أساسًا نقد الحركة السقراطية عامة ودهيباس على الأخص. يقف دهيباس عاجزًا تمامًا إذ يجابهه سقراط بأنه كان أنجح ما يكون فى أقلّ المجتمعات الهيلينية حظًا من الحكم الصالح وأنه لم يكن يجد ترحيبًا كثيرًا فى المجتمعات الأصلح، حيث يهتم الناس بطلب الفضيلة؛ وكذلك نجدهُ بليد الحنّ فى وجه تهكم سقراط. حين يتجه سقراط إلى موضوع الجمال (286 ج - هـ)، ملتقطًا الكلمة من مدح دهيباس لتأليفه، فإن أفلاطون يصوّره جاهلاً بما يتكلم فيه، وليس هذا فحسب، بل إنه يعجز حتى عن فهم سؤال سقراط. للحوار حول الجمال غرض مزدوج: إظهار بلاهة دهيباس، وفى الجزء الأخير من المحاورة، الغرض المشترك لكلّ الحوارات السقراطية، بيان أننا لا نستطيع أن نحتوى الفكرة الخالصة فى أى صياغة محدّدة. فى الحوار السقراطى الحقّ، تنشأ عن هذا الحيرة الخلاقة التى تقود العقل لأن ينظر داخل ذاته، أما فى حالة دهيباس، فالحوار لا يقود لشيء، ويبقى الرجل ناعيًا بجهالته.

يصوّر أفلاطون دهيباس بليدًا تمامًا، فسقراط يصوغ سؤاله فى عبارة دقيقة: الجمال فى ذاته، ماذا يكون؟ *auto to kalon hoti esti*؛ إلا أن دهيباس يظنّه سؤالًا تافهًا، فيعطى إجابة من نوع ما قد تعطيه لطفل صغير يسمع كلمة 'الجمال' لأول مرة، فيسأل: ماذا يعنى الجمال؟ وعندئذ قد نشير لزهرة تكون أمامنا ونقول: هذه الزهرة جميلة.

فى (287 ج - د) نجد تعبيرًا شديد الوضوح عمّا هو لبّ ومضمون المسعى السقراطى. أليس بالعدل يكون العادل عادلاً؟ إذن العدل شيء ما (أ)، إذن هناك هذا الشيء الذى هو العدل). أيضًا، بالحكمة يكون الحكيم حكيماً،

وبالخير تكون كل الأشياء الخيرة خيرة. إذن هناك هذا الشيء الذي هو الحكمة وهذا الشيء الذي هو الخير. أيضا، ليس بالجمال تكون الأشياء الجميلة جميلة؟ إذن هناك هذا الشيء الذي هو الجمال. إذن، ما هذا الجمال؟ عند التعامل مع هذه العبارات وما يمثلها في المحاورات، تسبب المترجمون في ضرر بعيد المدى باستخدامهم لكلمتى 'يوجد' و'وجود'. ما يريد سقراط التوكيد عليه هو أننا فى حديثنا عن العدل والخير والجمال وما إلى ذلك، لا ننتق بكلمات خاوية — هناك فكرة، معنى، مفهوم، نستطيع أن نتحدث عنه حديثا ذا معنى فى انفصال عن الحالات المتعددة للعدل والخير والجمال فى مجال الواقع. وهذا المعنى الذى هو فى عقلنا هو ما يريد سقراط أن يستكشفه. (نقول: 'فى العقل'، وكلمة 'فى' هنا ليست أقلّ تضليلا من فعل الكينونة الذى يوحى بـ 'يوجد' و'وجود'. هذه مزلق كلّ كلام محدد الصياغة).

بعد كلّ هذا التوضيح من جانب سقراط، يظنّ هيببىاس غير قادر على أن يرى أى فرق بين السؤال: 'أى الأشياء جميل؟' والسؤال: 'ما الجمال؟' إنه يحتاج من المعاونة والمحايلة أكثر كثيرا مما يحتاجه الصبية الصغار فى المحاورات الأخرى، وفى النهاية يأتى بأيته: الفتاة الجميلة هى الجمال.

الإجابات التى يُسندها أفلاطون لهيببىاس فى *الدهيببىاس الكبرى* ليس من شأنها أن تساعد فى استكشاف معنى الجمال. يرى أ. إ. تيلر A. E. Taylor فى هذا مؤشرا إلى أن اهتمام أفلاطون هناك كان منطقيًا لا أخلاقيًا. إننى لا أجد هذا مقنعا. فى مواضع أخرى يقدّم أفلاطون تمييزات وأفكارا منطقيّة دقيقة دون أن يحتاج لأن يجعل رفيق الحوار من الغباء بحيث يقرّر أن ما يجعل الشيء جميلا بحضوره هو الذهب، بعد أن كان لتوّه قد ذكر الفتاة الجميلة كمثال للجمال ووافق على أن الجواد الممتاز جميل. حين يقول هيببىاس إن العيش فى رفاية وتكريم ونيل جائزة فخيمة يهينها للمرء أولاده جميل، يلمح سقراط تلميحا لا يستتر إلا قليلا إلى أن القائل يستحقّ علقه على قوله هذا، ومع ذلك يكون هيببىاس من غلاظة الحسّ بحيث تغيب عنه دلالة التلميح. (ما إذا كانت هذه الصورة منصفة لهيببىاس كما كان فى الواقع أم لا، هذا سؤال لا مجال له هنا؛ إننا معنيون هنا بالشخصيّة فى المحاوره). من الواضح فى نظرى أن المجاورتين اللتين تحملان اسم هيببىاس كان القصد منهما فى المكان الأوّل هو

السخرية من جهل وغرور هيبياس، الذى هو فى حال أسوأ من حال الأخوين المهرجين يوثيديموس وديونيسودوروس فى البيوثيديموس، فهذان يعلمان ما يكونان، أما هيبياس فلا يعلم. القول بهذا لا يعنى أن أفلاطون لم يكن ليستخدم المحاورتين لخدمة أغراض أخرى أكثر جدية.

أخيراً، بعد أن أظهر أفلاطون عجز هيبياس عن أن يعطى إجابة تَمْتَحَق التمهيص الجاد، يعمد فى 293 - د لأن يجعل سقراط (فى هيئة الفتى الفظ التخيلى) يقترح بعض إجابات مقبولة شكلاً لمجرد إعطاء المحادثة بعض المحتوى.

فى ملاحظة هامشية فى 294- ب يشير أفلاطون فى وضوح للغاية الحقّة للحوار السقراطى — كأنما كان يترك سرّاً لغز الحوار السقراطى يقلت منه سهواً. "نحن نبحث عن ذلك الذى به تكون كل الأشياء الجميلة جميلة، تماماً كذاك الذى به يكون كل ما هو كبير كبيراً، أى بالذى يزيد؛ بهذا كل الأشياء الكبيرة، وإن لم تُبَدِّ كذلك، تزيد، إنها بالضرورة بهذا تكون كبيرة..". لا أعتقد أن أفلاطون توهم أنه كان هنا يعطى شيئاً يشبه تعريفاً رياضياً للكبر. لا بدّ أنه كان يدرك تماماً أنه باستخدامه لعبارة 'بالذى يزيد' *tôi huperechonti*، لم يكن يفعل أكثر من استخدام تنويع لفظى. فى منتهى الأمر علينا أن نعتزف — وغرض الحوار السقراطى أن يجعلنا نعتزف — بأننا حين نسعى لأن نعطى صياغة محدّدة لطبيعة الجمال أو العدل أو ما إلى ذلك، فإننا نطلب المستحيل؛ إننا لن نجد سبيلنا إلى الفهم الصحيح إلا حين نفهم أنه بالجمال ولا شىء سواه تكون كل الأشياء الجميلة جميلة؛ إن الفهم الصحيح لا يوجد إلا فى الوضوح الذاتى للأفكار التى تولد فى العقل ولا توجد فى غير العقل — الفهم فى الواقع ليس إلا نورانية العقل الفاعل الخلاق.

فى 294 - ج يعذل هيبياس إجابة سابقة فيقول إن الملائم يجعل الأشياء جميلة وأيضاً يجعلها تبدو جميلة. عبارة 'تبدو' يمكن أن تُحمَل على أى من معنيين. إذا أخذناها بمعنى 'يراها المرء جميلة' فإن العبارة يمكن أن تغدّ مقبولة شكلاً. ولكن فى الإجابة البديلة التى كانت موضع النقاش، كان 'ما يبدو' قد اعتُبر نقيضاً للحقيقة، فإذا أخذت العبارة بهذا المعنى فإنها تتطوى على تناقض، فعلى هذا المعنى لا يمكن للشىء أن يكون كذا وأن يبدو كذا، أو بتعبير آخر، أن

يكون في نفس الوقت أصيلا وزائفا. لكن سقراط يقرّر أن يسمح لهيبياس بأفضل الخيارين ويأخذ عبارته بالمعنى المقبول، ثم يمضى فيبين أنها بذلك المعنى أيضا لا تصدق في كل الأحوال.

وجهة النظر البديلة القائلة بأن الملانم هو ما يجعل الأشياء الجميلة جميلة لا توضع موضع التمحيص، إذ أن هيبياس أبى أن يتبنّاها على الرغم من أن سقراط أتاح له مرارا أن يفعل ذلك. لو أنه فعل، لكان سقراط قد مضى ليبيّن غموض فكرة الملانم.

في 295 - جديترح سقراط مرة أخرى، نيابة عن هيبياس، إجابة أخرى تبدو مقبولة: ما هو نافع جميل. لا يفعل سقراط هنا غير أن يلتقط مفاهيم شائعة ليضعها للفحص، مفاهيم تسكن نسيج اللسان الهيليني، حتى إن أى رفيق حوار أكثر يقظة من هيبياس كان ليأتى بها دون أن يحتاج لمن يحفره لذلك. إننى لأجده أمرا لا يُصدّق أن يستتج أى باحث جاد من هذا أن سقراط كان له مفهوم نفعى للجمال أو لغير الجمال.

إن الباحثين الذين يجنون في 'حُجج' سقراط في الـ هيبياس الكبرى نديلا على انتمائه لمذهب النفعية أو مذهب اللذة يفضون أعينهم عن السياق الذى تُقدّم فيه هذه 'الحُجج'. سقراط لا يفعل غير أن يستعرض إجابات يمكن أن تُقدّم، ليكشف كونها غير مرضية. إن أيا منا سيقرّ بالتأكيد أن أداة ما تكون بديعة إن وقت الغرض منها، دون أن ننتمى للمذهب النفعى، وأى منا يقول إن الوجبة الشهية بديعة، دون أن ينتمى لمذهب اللذة أو حتى أن يكون بالضرورة ذواقا للطعام.

بعد أن هدم سقراط فرضيته 'النفعية'، يقدّم فكرة معادلة الجمال بالمتعة الجمالية⁽²³⁾ aesthetic pleasure — المتعة التى نلقاها فى المشاهد البديعة والأصوات البديعة (297 هـ - 298 أ). مرة أخرى نجد من يرون فى هذا دعما لا اعتبار سقراط داعية لمذهب اللذة، ولا يلتفتون إلى أن سقراط لا يقدّم هذه الفكرة إلا ليكشف أنها غير مرضية. وهذا لا يعنى أن ننكر أنه كان فى رؤية

(23) فى الأصل الإنجليزي أضفت هنا عبارة 'بالمعنى الحديث للمصطلح' حتى لا تؤخذ كلمة aesthetic بالمعنى الأسمى للكلمة أى 'الحسى'.

سقراط للحياة الطيبة مكان للذة، ولكن هناك بوناً شامعاً بين القول بأن اللذة شيء حسن والاعتقاد بأن اللذة هي ما هو حسن في ذاته.

في 298 ب - ج يُبرز لنا أفلاطون الغرض الدرامي للمحاورة، مصوراً هيبياس المغرور المتفاخر، الذي لا هم له غير الكسب المادى، والنصر اللفظي الأجوف على خصمه، حتى بالوسائل غير الشريفة، في مقابل سقراط الذى عليه أن يقدم حساباً عن نفسه لنفسه.

حيث يستطرد سقراط (300 ب-302 ب) إلى مناقشة الخاصية التى تصدق نسبتها لزوج من الأشياء ولا تصدق لكل من الاثنين على حدة، وعكس ذلك، أعتقد أن أفلاطون أراد أن يهزل المزيد من السخرية على جهل هيبياس وبلادته. فرغم أهمية الموضوع كمسألة منطقية، إلا أن أفلاطون كان ليشرح الأمر لمحاوّر آخر في جملتين بدلاً من صفتين كاملتين.

هيبياس الصغرى

كثير من الباحثين رأوا هيبياس الصغرى محيرة لأن سقراط هناك، على زعمهم، يحتاج لإثبات نتيجة تناقض موقفاً يؤكد في موضع آخر. نسوا تهكم سقراط الشهير. سقراط يُشكل حديثه وفق رفيق الحوار. إننى أشعر أن أفلاطون في تصويره للشخصية في هذه المحاورة كان أميناً للأصل. إن يكن أفلاطون فى الـ هيبياس الكبرى قد اختار أن يضحك من هيبياس علانية، فإنه فى الـ هيبياس الصغرى يكشف غروره المتفاخر بأن يجعله يقبل مفارقة مستحيلة. لا خطأ من الناحية الشكلية فى توكيد سقراط أن الكذاب أو المخادع الذى يعرف ما هو فاعل هو متفوق فى ذكائه على من يكذب أو يخدع عن جهل. لكن سقراط كان يمكنه فى بسر أن يبين أن من يكذب أو يخدع عن 'معرفة' (واعياً، قاصداً)، إنما يفعل ذلك انطلاقاً من دوافع (الخوف، الجشع، إلخ). تُظهر جهله بالخير الحقيقى. الـ هيبياس الصغرى هى من نوع قياس الخُلف (الدحض بإظهار اللامعقولية) *reductio ad absurdum* لادعاء هيبليس بأن أخيليس كان طيباً لكن أحقق بينما كان أوديسيوس حكيماً لكن شريراً. المفارقة متى أعدنا صياغتها وجدناها نقول: المخادع الحكيم شيء مستحيل.

النتيجة

يعلن سقراط ويؤكد أن رسالة حياته هي أن يحدث كل الناس على أن يعنوا بصحة أرواحهم فوق كل شيء. فأى دور يؤدّيه الحوار السقراطي في تلك الرسالة؟ حيث إن الروح *psuchê* كانت عند سقراط هي العقل *nous*، والكمال الخاصّ بالعقل هو فاعليّة العقل *phronêsis*، فإن إزالة كل ما يعوق العقل ويشوشه ويخدعه كانت خطوة ضروريّة نحو العناية بالروح. كى يعنى الناس بأرواحهم يجب أن يبين لهم أن خيرهم الحقّ هو صحة العقل الفاعل *phronêsis* ولا شيء غير ذلك. كانوا في حاجة لمن يقودهم لاكتشاف طبيعتهم الحقّة والكمال الخاصّ بهم. لم يكن ممكناً إعطاءهم ذلك في صياغة جاهزة؛ كان عليهم أن يجدوه داخل ذاتهم. تلك وظيفة الحوار السقراطي؛ ذلك هو السبب فى أن سقراط الذى كان لا همّ له غير الفضيلة، أمضى حياته مشغولاً بما يبدو وكأنه تنفيذات نظريّة لا ثمرة لها.

الفصل الرابع

الـبـرـوتـاجـوراس

نظرة شاملة

يُجمع دارسو أفلاطون على أن البروتاجوراس تحفة درامية. إننى أقول دون تردد إن البروتاجوراس تمثل قمة القدرة الدرامية لأفلاطون. وهى ليست دراما بصورة عارضة، بل إنها دراما فى المكان الأول، ولن نفهمها فهما صحيحا إلا إذا فهمناها بوصفها هذا. إنها أساسا، ولكن ليس كليا، تصوير حى لشخصية أبرز رجال الحركة السوفسطية ولاتنين آخرين من ممثلى الحركة. (لا محاوراة لأفلاطون تنحصر فى موضوع واحد أو يستنفدها غرض واحد).

المقدمات الدرامية المركبة فى البروتاجوراس تشير إلى أن هدف أفلاطون كان مضاهاة حكمة سقراط بما يقابلها عند من استحق عن جدارة أن يكون أشهر السوفسطيين المحترفين. وعلى هذا، ففى كل من المحادثة التمهيديّة مع الصديق الذى يروى له سقراط ما جرى فى اللقاء، وفى الرواية الافتتاحية، يعطينا أفلاطون تصويرا دراميا فعلا للتقدير والافتتان اللذين كان يحاط بهما بروتاجوراس.

ولكن بينما يعترف الجميع بالتميز الدرامى للبروتاجوراس، فإن أهميتها الفلسفية لا تلقى التقدير الواجب لها. يقول جثرى W. K. C. Guthrie فى مقّمة ترجمته للبروتاجوراس والـمـينون: "بقدر ما نثير البروتاجوراس

إعجابنا كعمل أدبي، فإنها تحيّر أولئك الذين يوتّون أن يستخلصوا درسها
الفلسفي" (Penguin) 1956، (p.8). تأتي الحيرة من توقّع لا مبرر له بوجود
"درس فلسفي" جاهز. في الإجابة عن السؤال المحوريّ في البروتاجوراس
عن إمكانية تعليم الفضيلة، تضع المحاورّة الامتحان السقراطيّ الذاتيّ للروح
في مواجهة التلقين السوفسطيّ الدوجماتيّ. إنها لا تمنحنا "درسًا فلسفيًا" إنما
تهيئ لنا مرآة في التفكير الفلسفيّ، وهذا هو الطريق الصحيح إلى الفضيلة
الحقّة بحسب سقراط وأفلاطون. حين قال سقراط عند محاكمته إنه أبدا لم يعلم
أحدا ولا قصد أن يعلم أحدا (النفاع 19 د) فإن ذلك لم يكن تظاهرا ولا ادعاء
كاذبا. لم تكن رسالته أن يلقّن بل أن يوقظ العقول النائمة لرفاق الحوار ويجعلهم
يفكرون لأنفسهم — رسالة كان أفلاطون مُكرّسا لها بنفس القدر.

البروتاجوراس ليست محاورّة سقراطية بالمعنى الدقيق. إنها لا تمخص
إجابة مقترحة لسؤال من نوع "ما هو الـ...؟" (أوضحت في موضع آخر لماذا
أرفض استخدام صيغة "What is F?" التي أصبحت "معمّدة" في الدوائر
الأكاديمية.) حجة محاورتنا هذه ليست في مثل بساطة المحاورّة السقراطية
المعتادة. مراعاة لمكانة بروتاجوراس ولشيوخته فإن أكثر الحوار النقديّ
يجرى مع شخصيّة ثالثة تخيليّة. وبينما تتجه الحجة المحوريّة لتبرير موقف
سقراط ذي البعدين — القول بوحدة الفضيلة ومعادلة الفضيلة بالمعرفة — فإنها لا
تمضي إلى حدّ طرح السؤال المكمل: "أى معرفة؟"، الذي ينتهي دائما إلى
الحيرة — تلك الحيرة المُخصّبة التي تلبّد الجهل الفلسفيّ وإدراك أننا إن أردنا
البصيرة الفلسفيّة فعلينا أن نطلبها داخل عقولنا.

البروتاجوراس لا تسعى لتفنيدي أيّ مقولة أساسيّة يتقدّم بها بروتاجوراس.
يؤكد بروتاجوراس أن الفضيلة قابلة للتعلّم، ويبيّن سقراط أن الفضيلة، حتى
تكون قابلة للتعلّم، يجب أن تكون من طبيعة الحكمة والمعرفة — وهذا يتفق مع
ما اعتقده سقراط طوال حياته، ويتفق أيضا مع موقف بروتاجوراس المعلن،
وإن يكن شكليًا وسطحياً فقط، إذ أن المعرفة التي يراها سقراط معادلة للفضيلة
ليست من نوع المعرفة التي كان يقدّمها بروتاجوراس والسوفسطيون.

المحادثة الأولى بين سقراط وهيوكراتيس (311 ب-312 هـ) مثال
للتحميص النقدي الذي يهدف لبثّ الموضوع في فكر رفيق الحوار وإزاحة
الأفكار المشوشة والافتراضات واهية الأساس.

يوقظ هيوكراتيس سقراط عند الفجر، يريد من سقراط أن يقدمه
لبروتاجوراس، فهو يتوق لأن يلتحق به تلميذًا. بما أن الوقت مبكر جدًا، يقترح
سقراط أن يتمشيا في فناء الدار ويتحدثا إلى أن يحين الوقت المناسب للذهاب.
يسأل سقراط هيوكراتيس ماذا يتوقع أن يحقق بتلقيه تعليمًا من سوفسطي؟ ليس
لدى هيوكراتيس فكرة واضحة. يمضي الحديث إلى حيث تقترح فكرة أن
السوفسطي قد يكون بانغا لسلع تتغذى عليها الروح. هنا لمحة للموضوع
الرئيسي للبروتاجوراس. أي سلع هذه؟ قد نجيب مبدئيًا بأنها الحكمة أو
المعرفة *episteme sophia* . (في هذا الموضوع يستخدم سقراط
mathēmata – ويقابلها في العربية بدقة كلمة المعارف بصيغة الجمع – وهي
تؤدّي نفس المعنى. كي نحصل على إجابة أرحب مجالًا علينا أن ننظر حتى
نصل إلى المأبذة والفايدروس والجمهورية). لكنها ليست المعرفة التي
يوفرها السوفسطيون بأكثر مما هي المعرفة التي يملكها أصحاب مختلف المهن
والحرف. إنها المعرفة لكنها ليست أي معرفة معينة: إنها فعل العقل، فاعليّة
العقل، حياة العقل. هذه هي البصيرة التي لم يملّ سقراط أبدًا من الإحياء بها
ومن محاولة الإعراب عنها، والتي عبّر أفلاطون عنها تعبيرًا تصوّفيًا في
أعمال الفترة الوسطى حين كانت قواه الإبداعية في أوجها.

يلي ذلك وصفٌ حيّ لوصول سقراط وهيوكراتيس إلى بيت كالياس حيث
كان برتاجوراس وآخرون من السوفسطيين ينزلون ضيوفًا. يقوم سقراط بتقديم
هيوكراتيس ويسأل برتاجوراس بالنياية عن الفتى عمّا عساه يكسب من تعليم
برتاجوراس. يزعم برتاجوراس أنه يعلم تلميذه كيف يُحسن إدارة شئونه
الخاصة وشئون البلد. يعتبر سقراط عن بعض الشكّ في كون ذلك قابلًا للتعلم
ويبين مبررات ريبته.

الموضوع المحوري للمحاورة، موضوع قابليّة الفضيلة للتعليم، والذي
أوماتّ إليه المحادثة التمهيدية مع هيوكراتيس، ندخل إليه في بداية الحديث مع
برتاجوراس (320 ب - ج). لكن علينا ألا ننسى أننا على امتداد الـ

بروتاجوراس نجد مفهومين مختلفين للفضيلة يتناوبان الحضور على مسرح الحوار دون تفرقة واضحة بينهما. يزعم بروتاجوراس أنه يعلم الفضيلة التي تكفل النجاح في مجال السياسة. يذكر سقراط أسبابا تحمل على الشك في أن تكون هذه الفضيلة قابلة للتعلّم. ردُّ بروتاجوراس على شكوك سقراط ردُّ معقول باعتبار أن بروتاجوراس يقرّر فقط أنه يعلم المهارات والقدرات التي يتطلّبها النجاح في إدارة شئون المواطن الخاصّة والشئون العامّة، ومع مراعاة أننا حتى هذه المرحلة من الحوار نتعامل مع الفضيلة على مستوى ما يصفه أفلاطون في مواضع أخرى بالفضيلة الشعبية *dēmōtikē*. هذا جانب من الدراما، يعطينا تصويرا واقعيًا لبروتاجوراس وأسلوبه وحياته. لكن سقراط ينتقل بالحوار للفضيلة بمعنى مختلف — الفضيلة التي هي كل همّ سقراط.

من الخطأ أن نظن أن التمحيص الذي يجريه سقراط غيب خطاب بروتاجوراس المسهب كان القصد منه رفض أو تفنيد الآراء التي احتواها الخطاب. إن سقراط ينتقل بالمناقشة إلى مستوى آخر. إنه لا يستهدف أيًا من الأفكار التي عرضها بروتاجوراس، وبالتأكيد لا يستهدف زعمه الرئيسي القائل بتبنيّة الفضيلة للتعلّم. بدلا من ذلك يلتقط سقراط ما ذكره بروتاجوراس بطريقة عبّارة عن فضائل متمايضة والافتراض المضمر في حديثه بأن تلك الفضائل انتمايضة تشكّل بطريقة ما وحدة واحدة، ومن هناك ينطلق سقراط تمحيص سقراط لا ينقض وجهة النظر التي قدّمها بروتاجوراس بل يكملها ويعمّقها.

من الخطأ أيضا أن نعتبر الشكّ الكشفي *heuristic doubt* الذي يتقدّم به سقراط حول قابلية الفضيلة للتعلّم معبرا عن موقفه من تلك المسألة. كان سقراط يطرح السؤال للبحث، وكان مغزى كلامه أن المرء ليظنّ، استنادا لملاحظة سلوك الأثينيين ولمجريات الأمور في المجتمع، أن قومنا لا يعتبرون الفضيلة قابلة للتعلّم. من السخف أن يستشهد شخص ما بكلمات سقراط في المحاورّة حيث يقول: "لم أكن أظنّ أن هذا قابل للتعلّم" كدليل على موقف سقراط. وأن يقول بعض الباحثين بكل جدية أن البروتاجوراس محبّرة لأن سقراط يحاجج هناك ضدّ موقف يتبنّاه في محاورات أخرى، هو شيء أعيا عن فهمه. على كل حال، إن الموقف الحقّ لسقراط من المسألة لم يكن ممكنا أن يأتي ببساطة في صورة نعم أو لا، فسقراط على امتداد حياته كان يحاول أن يبيّن أن 'المعرفة'

التي هي شيء واحد مع الفضيلة ليست معرفة يمكن تعلمها بنفس الطريقة التي نتعلم بها المعارف الأخرى. وكل ما في البروتاجوراس من البداية حتى النهاية متوافق مع هذا.

حيث يحاجج سقراط مباشرة ضدّ بروتاجوراس، فإن ذلك لا يتعلّق بالخطوط الرئيسية في خطاب بروتاجوراس، بل بإجابة بروتاجوراس على السؤال الذي يطرحه سقراط، إذ يقرّر بروتاجوراس أن الفضائل المتميّزة تختلف إحداهما عن الأخرى وكذلك - في مرحلة تالية من المناقشة - أن الشجاعة تختلف أعظم الاختلاف عن المعرفة. وحجج سقراط لا تبرهن على وحدة الفضيلة ولا على معادلة الفضيلة بالمعرفة - فهذه أمور، في رأيي، لا تثبت بالبرهان - إنما تبين لانتساق القول بانفصال الفضائل واختلافها. تنجح حجج سقراط في حمل بروتاجوراس على الإقرار بتقارب وتماتل أربع من الفضائل التي أخذت في الاعتبار. ولكن مسألة علاقة الشجاعة بالحكمة بقيت مستعصية، فهاتان تبدوان، على الأقل في أوقات معينة وتحت ظروف معينة، كأنهما نقيضان.

مثال ذلك، أن يعرف شخص ما، على ما يبدو، ما هو حسن لكنه يفعل ما ليس حسناً إذ تغلبه الرغبة أو الخوف أو ما إلى ذلك - هذه مسألة الغواية *akrasia* الشهيرة. يركّز سقراط على التجربة المفترضة لغلبة اللذة، لأن هذه الحالة على الأخصّ ينشأ عنها الكثير من الفهم الخاطي، فيمحصّ المسألة مطوّلاً ليبين أن ما يحدث في تلك الحالة هو أن الشخص يحكم حكماً خاطئاً أو يتصرّف دون الوصول للحكم الضروري. ثم ينتقل سقراط إلى الحالة الخاصّة بغلبة الخوف فيبين أنه في حالة الافتقار للشجاعة أيضاً، فإن ما يحدث هو خطأ في الحكم على النّيم. الشجاعة هي معرفة ما يصحّ أن نرغبه وما يصحّ أن نرهبه. خلاصة المناقشة كلها ليست إلا ما كان سقراط ينادى به طوال حياته، أن الكمال الذي ينبغي أن نطلبه هو أن نعرف فيمّ تكمن قيمتنا الحقّة ككائنات إنسانية.

إنكار الغواية *akrasia* يتبع بالضرورة من فلسفة سقراط الأخلاقية. حين يقول سقراط إن أحداً لا يفعل السوء إرادياً، فإنه لا يفعل غير أن يؤكد ما أكده سبينوزا *Spinoza* في تمييزه بين الفعل والانفعال: لا يمكن أن نقول بحقّ أننا نفعل إلا حين نتصرّف وفق العقل، أما حين نخالف العقل في تصرّفنا فإننا لا

نعمل بل تدفعنا في هذا الاتجاه أو في ذلك الاتجاه قوى غريبة عن طبيعتنا الحقّة (أو صورتنا الحقّة) ككائنات إنسانية.

I

أول سؤال طرحناه في بحثنا كان عن قابلية الفضيلة للتعلّم (320 ب - ج). إذ أجاب پروتاجوراس عن هذا السؤال بالإيجاب، ذكر في ثنايا إجابته العدل والأتزان والتقوى وما إليها، باعتبار كل هذا هو الفضيلة (320 ج - 328 د). هنا يثور سؤال: هل العدل والأتزان والتقوى وما إليها أجزاء من الفضيلة الواحدة أم أن هذه أسماء مختلفة لنفس الشيء الواحد؟ (329 ج - د).

ريبة أفلاطون في الكلمة المكتوبة، التي تكتسب أبعادا مهمة في أعماله المتأخرة، نلمحها بوضوح هنا في استهجان سقراط للسوفسطيين الذين لا يستطيعون مناقشة أفكارهم إذ يشبههم بالنصوص الثابتة، ويشبه هذه النصوص بالقرص الطنان الذي إن تفرعه يظلّ يرتدّ طنينه إلى أن تُسكته (329 أ). الفكر عند أفلاطون شيء حيّ لا يمكن أبداً صنّبه في قالب جامدة من مقولات ونظريات مصاغة بشكل نهائي. لكن هذه مسألة أتناولها تفصيلا في موضع آخر.

لماذا كان من الضروري أن يتحوّل السؤال عن إمكانية تعلم الفضيلة إلى سؤال عن وحدة الفضيلة؟ كان لا بدّ لسقراط من أن يحوّل السؤال على هذا النحو إذ أننا إذا حصرنا فكرنا في فضائل متعدّدة منفصلة عن بعضها البعض، فسنبقى على سطح الأمور حيث يصدق بيان پروتاجوراس عن إمكانية تعلم الفضيلة. أما حين نفوس عميقا لنرى ما الذي يعطى تلك الفضائل المتعدّدة طبيعتها الواحدة المميّزة - وكان هذا معنى العمر كله بالنسبة لسقراط - فإننا نجد أن إنماء الفضيلة في الروح يتطلب مفهوما مختلفا تماما للتعليم والتعلّم.

يقول پروتاجوراس إن العدل والأتزان والتقوى أجزاء منفصلة من الفضيلة وليست مجرد مترادفات. حين يسأله سقراط إن كانت أجزاء يمثل كون الفم والأنف والعينين والأننين أجزاء من الوجه أو يمثل كون الأجزاء من الذهب أجزاء من الذهب، فإن الغرض من السؤال هو استبعاد المعنى الكسّي لكلمة 'جزء'، فهذا لا مكان له في التعامل مع شيء غير مادّي. لنقل إننا أجزاء تمثل كون الفم والأنف إلخ. أجزاء من الوجه. في 329-هـ ينتقل سقراط للسؤال

المهم التالي. هل يشارك بعض الناس في فضائل معينة وغيرهم في غيرها من الفضائل أم إنه من الضروري أن من حاز أحد أجزاء الفضيلة لا بد أن تكون له كل الفضيلة؟ هذا بالطبع هو السؤال الذى يقود لواحدة من البصائر الرئيسية لفلسفة سقراط الأخلاقية: الفضيلة الحقة كل لا يتجزأ. حين نظن أن من الممكن أن تكون لنا بعض الفضائل دون غيرها، فما ذلك إلا لأن مفاهيمنا العامة عن الفضيلة مشوشة ولأننا لا ننتعمق فى التفكير. من الجائز ومن الصواب أن نتحدث عن فضائل متميزة لأن الكمال الخاص بالكائن الإنسانى حين يتبدى فى مواقف متباينة يتخذ أشكالاً مختلفة، لكننا إن اعتبرنا هذه الاختلافات نهائية على أى نحو، وجدنا ذلك يقودنا إلى تناقضات فى فكرنا. هذا بالضبط ما يظهره الحوار السقراطى. وهذا لا يتناقض مع التجربة العامة: كلنا نعرف أفراداً أمناة لكن بهم بعض النقصان، وأكثر من ذلك، كل منا يعرف عن نفسه أنه بعيد تماماً عن أن يكون خيراً من كل الوجوه. لا مشكلة فى هذا: كلنا نماذج منقوصة من الإنسانية. ربما كانت الفضيلة التى عناها سقراط شيئاً لا يزال على الإنسانية أن تجتهد عبر أحقاب طويلة لتقترب منه.

مرة أخرى يختار بروتاجوراس الإجابة المعهودة: بعض الناس قد يتصفون بفضيلة معينة بدرجة عالية بينما تنقصهم فضائل أخرى أو حتى تكون فيهم الرذائل التى تناقضها. إننا إن نظرنا إلى تمحيص سقراط لمثل هذا الموقف على أنه تنفيذ لمقولة فإننا نكون غافلين تماماً عن روح الحوار السقراطى. ما يحقّقه الحوار السقراطى هو أن يكشف لرفيق الحوار أن مثل هذه 'الحكمة الشائعة'، تقتصر للاتساق والوضوح، وأن أحكامنا العامة وتمييزاتنا مفعمة بالتناقضات، وأننا إذا ما فحصنا أفكارنا بعناية وعمق وجدنا أن ذلك يأخذنا دائماً فى اتجاه مصدر أصيل وحيد لكل قيمة وكل صدق.

فى 330 - ج. وفى ثمانى كلمات بسيطة نقف أمام سؤال أبقي أدمغة الفلاسفة فى حوار حتى يومنا هذا: *hê dikaiosunê pragma ti estin ê ouden pragma;* من الشيق أن نقارن عدّة ترجمات مختلفة لهذه العبارة التى تبدو بسيطة جداً فى تركيبها وفى معانى مفرداتها، فمثل هذه المقارنة تظهر لنا على الفور أن مفهوم 'العبارة البسيطة' مفهوم شديد الغموض. حالما نخرج من دائرة الحياة اليومية العملية، يمكننا أن نقرّر دون وجل أننا لن نلقى أبداً جملة مفيدة (بتعبير النحاة) لها معنى محدد ثابت. كل جملة ذات معنى تحتل

تأويلات لا نهاية لها. هنا يسأل سقراط (وفى العربية يمكن أن نحاكى الأصل اليوناني حرفياً): "العدل، شيء ما هو، أم لا شيء؟" يمكننا أن نقرّر بلا تردّد أن 'العدل' ليس مجرد صوت يصدر عنّا. فيما وراء ذلك، يمكن أن ننسج تاريخ الفلسفة بالكامل حول هذا السؤال. يمكننا أن ننظر لأعمال أفلاطون في الفترتين الوسطى والمتأخرة كمحاولة دأنية لاستكشاف بواطن هذا السؤال البسيط. إن قيمة سقراط التي لا مثيل لها في الفكر الإنساني تكمن في أنه، بينما يبدو ظاهرياً وكأنه لم يترك لنا غير أسئلة بلا إجابات، فإنه في معالجته لتلك الأسئلة يكشف لنا عن البصيرة التي ألهمت مسيرة حياته والتي هي ميراث ثمين لم ندرك بعد قيمته الحقّة.

بعد ذلك ببضعة أسطر تلقى مسألة أخرى، نراها في براءة مولدها الأول تمشى في غريها الطاهر بلا حرج، لكنها ما تكاد تذوق ثمرة شجرة المعرفة حتى تبصر عربيها وتجتهد دون جدوى لتستمر عورتها: "هذا الشيء ... العدل، هو ذاته عادل أم غير عادل؟" *hê dikaiosunē ... touto to pragma* ... *auto touto dikaiōn estin ê adikōn*; (330 ج). أي شيء يمكن أن يكون طبيعياً أكثر من أن يكون للعدل صفة العدل؟ اللغة في الأصل عقل يخرج ساعياً لأن يتصل بعقل آخر. إنها تنقل توجّها ما، عاطفة ما، من عقل إلى عقل آخر. لكن حين يُعترض طريق الدافع المنطلق خارجاً ويُستجوب، يتلجج، يتلعم، ويتلوّث بجراثيم الزيف والتناقض. وهكذا، هذا السؤال البسيط إذ يُطرح ببراءة وتأتي إجابته ببراءة، فلا زيف فيه، ولكن حين يخضعونه لحذقات أهل المنطق يلد 'الرجل الثالث' *Third Man* ومفارقة رسل *Russell's paradox* وأحاجي والغاز التحميل الذاتي *self-predication*. — لكن هذا موضوع أعالجه في موضع آخر.⁽²⁴⁾

الحجّة في 332 د - 336 ب لمعادلة الاتزان *sôphrosunê* بالحكمة *sophia* على أساس قاعدة 'ضدّ واحد' - سواء عزونا الحجّة لسقراط أم لأفلاطون - لا ينبغي أن نعيرها كثيراً من الاهتمام من الناحية الشكلية. إنها، مثل كل حجّة في رأسي، يمكن نقضها، لأنها تعتمد على غموض معنى 'الحماقة' - الحماقة التي هي ضدّ للحكمة ليست هي بالضبط الحماقة التي هي

(24) انظر 'نقد أفلاطون الذاتي' في الفصل الأول وأيضاً 'الرجل الثالث' في الفصل الثامن.

ضدّ الاتزان. لكنّ إن أخذنا الحُجّة بشيء من روح التسامح رأيناها حُجّة جيّدة بقدر ما يتاح للحُجّة الفلسفيّة أن تكون. إنني أقول بأنّه لا يمكن لأى حُجّة فلسفيّة أن تكون قاطعة بمثل ما يمكن أن يكون الاستدلال الشكليّ الخالص. الرموز الجافة الميتة وحدها يمكن أن تكون مائة لاستدلال صحيح. كلّ فكر حيّ فيه سيولة الحياة. القيمة الحقّة للحُجّة هنا أنّها تظهر أنّنا نجد في عقولنا وشائج قربي تربط بين فضائل معيّنة متميّزة، بحيث يستحيل أن نعتبر التمييزات التي نقيّمها فيما بينها نهائية أو جذريّة. هذا مؤشر للمفهوم الموقراطيّ لكل فضيلة وكل كمال كنوع من الفاعليّة العقلية a mode of intelligence.

في 333-أ يقول سقراط مختتماً حاجّة، هذان القولان ليس فيهما الكثير من الموسيقى، فهما لا يتناغمان ولا ينسجمان، *houtoi gar hoi logoi amphoteroi ou panu mousikôs legontai` ou gar sunaidousin oude sunarmottousin allêlois*. كثيراً ما يستخدم أفلاطون مجاز الموسيقى والنغم للفكر، وله في ذلك كل مبرر. فالفكر الفلسفيّ له، بادقّ معنى للتعبير، المعقوليّة الجماليّة التي نجدّها في السيمفونية أكثر مما له من التسلسل الاستدلاليّ الذي نجدّه في برهان رياضيّ. هذه مقولة صادقة صنّعت على الفلاسفة - حتى أحسنهم - أن يستوعبوها، وهم الخاسرون.

الغاية الحقّة لكل حاجّة فلسفيّة ليست أن نفحص مقولات أو نظريّات مجردة، بل أن نمثّن أنفسنا؛ يخصّ سقراط المقولة، وإذ يخصّها يمتحن ذاته ويمثّن رفيق الحوار *ton gar logon egôge malista xetazô kai ton sumbainei mentoi isôs kai eme ton erôtônta apokrinomenon xetazesthai* (333 جـ). هذه رسالة حياته، أن يعمل على أن تكون الأفكار التي نعتنقها جليّة ومتناغمة وتتخللها تماماً القيم والمثُل التي نعلن بأفواها احتراماً لها. فهذه أفة البشريّة كلّها، كوننا نبقى مثلنا وقيمتنا ومبادئنا ومعتقداتنا في غرف منفصلة محكمة الغلق، ونتيجة لهذا، لا يكون كل فرد منا شخصاً واحداً بل شخصاً متعدّداً فيكون سلوكنا في ظروف متباينة وتجاه أشخاص مختلفين على أساس مبادئ متغيرة تماماً.

عندما تستأنف مناقشة مسألة وحدة الفضيلة في 349-أ تكون نتيجة التمهيد في *البروتاجوراس* هي ذات النتيجة التي تنتهي إليها المحاورات الموقراطية عامّة، ألا وهي أن الفضائل المتميّزة لا يمكن أن نقيّمها منعزلة. حالما نحاول فهم معنى أيّ من هذه المفاهيم، نجدّه يندمج في المفاهيم الأخرى.

(أستبقى مسألة معادلة الفضيلة بالمعرفة بمعزل مؤقتًا). ربّما كان هذا حدّ ما ذهب إليه سقراط لكنى أعتقد أن أفلاطون تبيّن أن هذا يصدق على كل المفاهيم، لا مفاهيم الفضائل فقط. كى يمكننا أن نستخدم أى مفهوم يلزم أن يكون للمفهوم حدود *horos* — لا بمعنى الحدّ فى المصطلح المنطقى، أى 'تعريف'، بل بمعنى الحدّ إذ نتحدّث عن تخوم بلد أو إقليم. لكننا حين نختبره، حين نحاول أن نجعله مفهوما، لا نجد له معنى إلا فى ترابطه مع كل ما عداه؛ إنه لا يكون مفهوما إلا فى التحامه مع كل مجال المعقول. هذا أساس الديالكتيك الأفلاطونى،⁽²⁵⁾ وهذا، فى نظرى، هو الدرس الأساسى للـ *ليزيس* والـ *پارمنيديس*. إننا حين نفكر لا غنى لنا عن أن نفكر من خلال مفاهيم محدّدة؛ حين نتواصل لا بدّ لنا من أن نتواصل بلغة تستخدم كلمات محدّدة؛ لكننا حين نتعمّق فى فكرنا وفى لغتنا، نجد أن التحديد والتمييز خادعان، وأننا — فى غير الأغراض العمليّة للحياة اليوميّة — متى غفنا عن الزيف المتأصل فى كل فكر وفى كل لغة نقع فى الخطأ. لهذا فإن حلم لايبنتس Leibniz بلغة تبلغ الكمال هو سراب. وهذا هو السبب فى أن غرور المنطق الرمزى *symbolic logic* الذى أسسه فريجة *Gottlob Frege* والذى ذهب بعقول بعض دارسى الفلسفة الأكاديميين إلى حدّ أنهم حاولوا استخدامه، لا كاختزال مريح، ولكن كوسيلة للوصول إلى نتائج إيجابية وإقرار مقولات صادقة نهائية، قد أضرب بالفلسفة وما زال يلحق بها أبلغ الضرر.

2

فى 333 ب - ج يحاول سقراط أن ينتقل إلى عنصر مهم من عناصر فلسفته الأخلاقية، حيث يطرح السؤال: هل يبدو لك أن شخصا يقترف الظلم يكون متزنا وهو يقترف الظلم؟ *ara tis soi dokei adikôn anthrôpos*

(25) بلهى أفلاطون التقيد بمصطلح جامد، هكذا نجده يستخدم لفظ الديالكتيك ومشتقّه فى مواضع مختلفة بمعنى مختلفة. فأحيانا لا يعنى اللفظ أكثر من الحوار بالمعنى البسيط للكلمة، ثم نجده يطلق ذات اللفظ على طريقة البحث بواسطة الفرضيات، ثم يلحقه بطريقة التجميع والتقسيم، لكنه فى الجمهوريّة يجعله يشير لأعلى مراتب الفكر الضمى، حيث يتحرّر العقل من كل المسلمات وكل الفرضيات ويتجاوزها ويزيلها دوما، لتبقى الحقيقة الوحيدة، حقيقة فعل العقل أو العقل الفاعل. هذا هو المعنى الثرى الذى أفضل أن نخهته بلفظ الـ *ديالكتيك*.

نتصرف بحكمة. هل نقول إننا نتصرف بحكمة حين تكون النتيجة أن يصلح حالنا أم حين يسوء حالنا؟ — وكان من الممكن أن تَمْضى المحاجة كما تَمْضى فى المحاورات السقراطية. لكن پروتاجوراس لا يُبدى تعاونًا. حين يُسأل ما إذا كنا نعى بالأشياء الحسنة الأشياء التى تنفع الناس، إذا به ينفلت فى سرد طويل لأشياء يمكن أن تسمى حسنة حتى إن لم تكن نافعة للناس بشكل خاص.

يحتج سقراط، ولا يبدو پروتاجوراس راغبا فى مواصلة النقاش على طريقة سقراط المألوفة، ويكاد عقد الجمع أن يفرط. وأخيرا يتفق على أن يتولى پروتاجوراس دور المحاور. وينقل پروتاجوراس المناقشة إلى مجال الشعر، ويقترح قصيدة لسيمونيديس *Simonides* لنقدها.

بدا من هذه النقطة وحتى 348 - ج حيث يُستأنف التمهيص السقراطي، تصبح المحاورة تصويرًا، مع لمسة من المحاكاة الساخرة، لطبيعة وأساليب السوفسطيين فى القرن الخامس قبل الميلاد، ممثلين فى ثلاثة من رجال الحركة البارزين: پروتاجوراس وپروديكوس Prodicus وهيبياس Hippias. هكذا يقول تيلر A. E. Taylor: "ولهذا اعتقد أننا ينبغي أن نأخذ هذا الفاصل الطويل على أن القصد منه أن يكون 'استراحة' فكاهية، صورة مرحلة لسلوكيات المجتمع الأثينى الراقى فى السنوات الأخيرة من عصر پريكليس، ولا شيء أكثر من ذلك بكثير" (A.E. Taylor), *Plato: The Man and his Work* (1926), p.251.

لكن حذقة سقراط التفسيرية فى شرحه لقصيدة سيمونيديس لم تكن مجرد محاكاة ساخرة للطريقة السوفسطية، بل كانت أيضا كشفًا حيا للعيب الذى يجده أفلاطون فى كل تعلم من نص ميث. فهذه الفقرة تبين بطريقة وافية أن أى شخص يتمتع بدرجة كافية من البراعة يمكنه أن يستخرج أى معنى يريد من أى نص. ينبغى أن نلاحظ أن كل المستمعين - وهم يمثلون صفوف المتقنين فى العالم اليونانى - يتقبلون تلاعب سقراط بالنص دون اعتراض. مرة أخرى يعلق تيلر Taylor على شرح سقراط للقصيدة فيقول: "من الواضح أننا هنا بآزاء قطعة هزلية مسلية عن الأساليب المعاصرة فى استخراج أى نظرية يريدنا المرء من قصيدة ما بوسائل يمكن أن تجعل أى شيء يعنى أى شيء" (p.256). فى يومنا هذا يعمل دعاة 'الإعجاز العلمى للقرآن'، وفى جنبة تامة

على ما يبدو، على استخراج أحدث النظريات والاكتشافات في مجالات الطبيعة والفلك والكيمياء والجينات، إلخ، إلخ، من آيات من القرآن. يلخص سقراط الفرق بين طريقتيه والطريقة السوفسطية في جملة واحدة: اعتقد أن التبادل المخلص في الحوار شيء والخطابة الجماهيرية شيء آخر، *chôris gar egôg' ôimên einai to suneinai te allêlois dialogomenous kai to demêgorein* (336 ب).

في 336 ب - د يصور ألكيباديس Alcibiades المواجهة بين سقراط وپروتاجوراس كمباراة في سبيل النصر الشخصي، متسقا في ذلك مع شخصيته — وهذه لمحة أخرى في التميز الدرامي للپروتاجوراس.

3

أخيرا، في 349 - ب، يجد سقراط طريقه عائدا إلى موضوع الفضيلة. كنا قد تساءلنا ما إذا كانت الحكمة والاتزان والشجاعة والعدل والتقوى خمسة أسماء للشيء الواحد، الفضيلة، أم أجزاء متميزة من الفضيلة. وكانت إجابة پروتاجوراس أنها أجزاء، ليس على نحو ما تكون قطع من الذهب أجزاء من الذهب، تماثل الكلّ الذي هي أجزاء منه وتماثل بعضها البعض، وإنما على نحو كون أجزاء الوجه أجزاء منه، تختلف عن الكلّ وتختلف عن بعضها البعض. الآن يجيب پروتاجوراس بأن كل تلك الفضائل أجزاء من الفضيلة وأن أربعة منها متقاربة إلى حدّ ما من بعضها البعض، إلا أن الشجاعة تختلف تماما عن الفضائل الأخرى. إنه يؤكد أنك تجد كثيرين من الناس همّن يتصفون بالظلم واللاتقوى والرعونة والحمق، ويكونون مع ذلك غاية في الشجاعة. هذا الموقف ينطوي على تحدّ خطير لمبدأ سقراط في وحدة كل الفضيلة ومعادلة الفضيلة بالمعرفة.

يقدم پروتاجوراس برهانا منطقيًا سليما تماما لمقولة اختلاف الشجاعة عن الحكمة. البرهان، شكلاً، بلا عيب، وجدير بأن يكون غير قابل للنقض — لو أننا استطعنا أن نتفق على ما نعني بالشجاعة وما نعني بالحكمة. وأسفاه! إننا لن نجد أي كلمة في أي لغة تأتي حاملة معنى محدداً يلتصق بها على مدى الزمان. المصطلحات التي تحدّد بطريقة مصطنعة لأغراض خاصّة، هذه وحدها يمكن

أن يكون لمعناها شيء من الثبات، مقابل ثمن باهظ. حلم اللغة التي تبلغ الكمال هو أسوأ من أن يكون مجرد وهم؛ لو أنه تحقق أبدا لكان في ذلك نهاية كل فكر جي. لذا حين يتقدم سقراط ليناقد موقف پروتاجوراس فإنه لا يُفنده، وإنما هو بدلا من ذلك يعرض مفهوما مختلفا للشجاعة والحكمة، حيث لا انفصال بين الشجاعة والحكمة. ليست مهمة التفكير الفلسفي أن يتوصل إلى مقولات صادقة يمكن إثباتها بالبرهان، بل أن يقدم رؤية خلاقة تُضفي المعنى على معطيات التجربة.

دعونا نمحص ادعاء أن الشجاعة تختلف عن الحكمة. الشجعان مطمئنون ويمضون بلا تردد لملاقاة ما يخافه الآخرون. هناك أشخاص يغيصون في الأبار مطمئنين. الغواصون المحترفون يفعلون ذلك إذ أنهم يمتلكون المعرفة اللازمة. وفي مجالات أخرى كذلك، أولئك الذين يمتلكون المعرفة يتصرفون باطمئنان أكثر ممن لا يمتلكونها، وهم أنفسهم يكونون أكثر اطمئنانا بعد اكتساب المعرفة عما كانوا قبلها. لكن هناك آخرين، بغير معرفة، يخاطرون بولوج تلك المجالات مطمئنين. هل أولئك أيضا شجعان؟ تكون الشجاعة شيئا قبيحا إن قلنا بذلك، فأولئك الأشخاص مجانيين. المعرفة إذن هي مصدر الفرق بين الحالتين، ويبدو على هذا أن المعرفة هي الشجاعة (349 هـ - 350 ج).

لا يتوانى پروتاجوراس في نقد منطق حجة سقراط (350 ج - 351 ب). علينا أن نلاحظ هنا أن أفلاطون حين يقدم حجة معيبة المنطق، فإنه لا يفعل ذلك في غفلة عن العيب المنطقي، ولا هو يريدنا أن نأخذ الحجة على أنها برهان أو استدلال صحيح. وظيفة الحجة أن تُظهر العلاقات، تكشف بواطن المعاني، توضح الأفكار، وتشكل جزءا من الصورة الشاملة. إن فلاسفتنا المحترفين الذين يكتبون مؤلفاتهم الحاذقة لإظهار خطأ مثل هذه الحجج يهدرون ما هو أثنى من وقتهم الثمين؛ إنهم يهدرون المعنى الحق لكل عمل أفلاطون. ومع ذلك، أود أن أضيف أن اعتراض پروتاجوراس على حجة سقراط (استنادا للإقرار بأن الشجعان مطمئنون) ليس منصفًا، حتى من الناحية الشكلية. إن سقراط لا يحتاج مقولة إن مطمئنين شجعان (التي أظهر پروتاجوراس عيبها) لدعم حجته. لقد أقر پروتاجوراس بأن الشجعان مطمئنون. ويقول سقراط إن اطمئنانهم قد يصحبه إما المعرفة أو الجهل، وإنه لا يكون حسنا إلا حين يكون مصحوبا بالمعرفة. إذا كان علينا أن نرى الشجاعة دائما حسنة، فيجب أن تكون هي تلك

الشجاعة التي لا انفصال لها عن المعرفة. أعتقد أن هذا استقراء جيد، أيًا ما كان رأينا في أوجه النقص في صياغة أو في هيكله الحجّة.

يقول جثري W.K.C. Guthrie في الملخص المصاحب لترجمته للمحاورة: "لا بدّ من أن نُقرّ بأن سقراط يبنتلى عطف وصبر القارئ إذ يمضي في مناقشته، على ما يبدو، في إسهاب يتجاوز الحدّ، أحيانا يعيث فقط بالكلمات، وأحيانا يُسمح له بالإفلات بما هو بالنسبة لنا مغالطات أولية" (صفحة 33). إن القارئ الذي يُبنتلى عطفه وصبره، على هذا النحو يفضح الفساد الذي ابتلى به الفهم الحديث للفلسفة. الحجّة الفلسفية، في مفهومنا الحديث، تقدّم أطروحة محدّدة، تدافع عنها ببراهين صحيحة. لم يكن هذا أبدا غرض أفلاطون في كتاباته. المحاورّة الأفلاطونية لا تهدف لإثبات أطروحة، بل لاستنفاك الفكر، لكشف أوجه الغموض، لإزاحة الخلط والتشويش، لاستكشاف بواطن المعاني. حتّى المغالطات والتلاعب بالكلمات، سواء أسفرت عن وجهها أم تُركت تمرّ دون تعليق، هي جزء من الخطّة، تُوزّق، تحيّر، تسمع، تهمز. إن قرأت محاورّة لأفلاطون وأنت ساكن النفس تماما فقد فاتك فحواها.

4

يتخذ سقراط مدخلا جديدا (351 ب-هـ). لكن علينا أن نلاحظ أن سقراط حين يبدو، في المحاورات، كأنما ترك مسارا معينا من المحاجّة وشرع في آخر، فإنه لا يكون قد هجر الحجّة الأولى. إنه يكون فيفساء من زوايا النظر تُشكّل رؤية متكاملة. فهدف أفلاطون، كما أكنت مرارا، ليس أبدا أن يثبت أو يبرهن مقولة أو أطروحة، بل أن يعرض رؤية وأن يُلهم ببصيرة. هكذا حين يبيّن پروتاجوراس أن الحجّة السابقة معيبة منطقيا، فإن سقراط يقبل ذلك دون اعتراض، فهو لم يكن يريد لحجّته أن تبرهن بقوّة، بل، ببساطة، أن توحى.

بعض الناس يعيشون عيشا حسنا، وآخرون يعيشون عيشا سيّئا. هل نقول إن من يعيش حياة متمتعة يعيش عيشا حسنا؟ يُدخل پروتاجوراس شرطا: أن تكون

المُتَع⁽²⁶⁾ حسنة. ولكن هل هناك مُتَع تكون، من حيث هي مُتَع، سيئة، وآلم تكون، من حيث هي آلم، حسنة؟ لنتدبر.

مرة أخرى ينتقل سقراط إلى 'مزقّب' جديد (352 ب-ج)، ونستشعر أنه يجهّز أرض المعركة لهجمة فاصلة. في نظرنا إلى المعرفة، هل نتبنى الرأي الشائع فنقول إن المعرفة بلا حول كدافع للعمل، بجرّفا الانفعال واللذة والآلم والحب والخوف، أم نؤكد أن المعرفة شيء بديع وقادر على أن يحكم سلوك الإنسان، وأنه إذا عرف الشخص ما الحسن وما السيئ فلا شيء يمكن أن يقهر ذلك الشخص بحيث يفعل غير ما تشير به المعرفة، وأن العقل كافٍ لصلاح حال الإنسان؟ ما هنا قضية لا يآلو سقراط جهدا لتوضيحها وتبريرها، واللغة التي يستخدمها هنا تبيّن بوضوح بأى قدر من الثبات وبأى مستوى من الحماس هو مؤمن بها. فكيف يمضى في إثباتها؟

يقال عادة إن كثيرين ممن يعرفون ما الأحسن لا يعملون وفق ما يعرفون بل يعملون غير ذلك، إذ تغلبهم اللذة أو الآلم أو شيء آخر. لنفحص هذه التجربة المزعومة حيث ينهزم الإنسان أمام اللذة. يتساءل پروتاغوراس: لماذا نشغل أنفسنا بما نظنه الكثرة غير العاقلة؟ يجيب سقراط بأنه يتوقّع أن نجد لبحثنا صلة بمسألة الفضيلة التي كنا نناقشها. والواقع أنه بعد أن يُجرى تحليلا متأنيا ومطوّلا لتجربتنا حيث يُفترض أننا نعمل ضد معرفتنا بالأحسن، فإنه في ختام المناقشة يستخدم ذلك التحليل ليعزّز قوله بأن الشجاعة – التي رأى پروتاغوراس أنها وحدها بين الفضائل منفصلة تماما عن المعرفة – لا تنفصل عن المعرفة (352 د-353 ب).

ماذا نقول إذن عما يسميه الناس الغواية *akrasia*؟ كثيرا ما يقال أننا إذ تغوينا ملذّات الطعام والشراب والجنس نفعل أشياء ونحن نعرف أن الأشياء التي نفعلها ضارة. إنها ضارة ليس من حيث أنها تعطينا اللذة في وقتها ولكن من حيث أنها تقود إلى المرض أو الفقر أو ما إلى ذلك في وقت لاحق. لو لم تكن لتلك الملذّات مثل هذه العواقب السيئة لما قال أحد إنها سيئة. إنها إذ تأتي

(26) يستخدم أفلاطون في هذا السياق كلمة تُترجم عادة بـ 'اللذة'، لكن من الصعب تطويع كلمة اللذة لأداء المعنى في كل حالة.

بتلك النتائج السيئة تأتي بالألم. إنها سيئة لا لسبب آخر إلا أنها تأتي بالألم أو تحرمنا من اللذة. من الجانب الآخر، فإن الآلام التي يقال إنها حسنة ليست حسنة من حيث أنها مؤلمة بل بسبب أنها تقود للصحة أو النجاح أو ما إلى ذلك، أى لأشياء تجلب اللذة. إننا نسمى للذة كشيء حسن وننبذ الآلام كشيء سيئ (353 ج-354هـ).

يمضى سقراط ليبيّن في تطويل أننا إن أخذنا اللذة معادلا للخير والألم معادلا للشر، عندئذ نستطيع أن نرى بوضوح أننا في كل ما نفعل نستهدف اللذة ونحاول أن نتجنب الألم. لو استطعنا أن نملك علما وثيقا أو ميزانا نزن به الملذات والآلام، أخذين في الاعتبار القرب والبعد، والديمومة، والمقدار، والجدة، وكل العوامل المؤثرة الأخرى، لكننا دائما نفعل ما يضمن لنا النصيب الأوفر من اللذة (354 هـ - 357 ب).

بين مستمعي سقراط كان يشيع افتراض أن الهدف من كل عمل الإنسان هو اللذة. إذا أخذنا 'اللذة' بمعنى 'الرضا' بمدلول عريض، فقد لا نرى ما يدعونا للاعتراض على هذا الافتراض. فحتى على أعلى وأبقى مستوى أخلاقي، نحن نطلب الرضا. عند سقراط لم يكن ممكنا أن تكون الحياة المسارة غير الحياة الخيرة، حتى لو تطلب ذلك التضحية بكل الملذات بمفهومها العام. لم يكن الكليبيون Cynics والرواقيون Stoics مخطئين حين اعتبروا أنفسهم سائرين على درب سقراط. لكن الزهد لم يكن من صميم مبادئ سقراط: اللذة، حتى اللذة الحسية، إذا لم تمنع خيرا آخر، فهي خير. ولأغراض المناقشة المطروحة هنا، لم يكن من الضروري التعمق في مسألة ما نعني باللذة.

هذا ما يشير إليه عادة من ينسبون لسقراط تبني مذهب اللذة hedonism. هنا أكتفى بأن أقول إن سقراط في السياق الحالي يناقش ما يحدّد الاختيار، ويجد أن الاختيار ينطوي على حكم يتعلّق بما هو حسن. قد يأتي الحكم خطأ، وحين يأتي الحكم خطأ، يكون ذلك بسبب الجهل بكل ما ينطوي عليه الاختيار. هكذا فإننا حتى على مستوى العمل المتعلّق بالملذات والآلام الجسدية، فإننا نخطئ الاختيار لا لأن الرغبات وما إليها تسيّد بناء، بل لأننا نخطئ الحساب أو يفوتنا أن نحسب ونزن كل الملذات وكل الآلام التي ينطوي عليها العمل. قد يُعترض على هذا بأنه في حالة من يعمل تحت تأثير الانفعال فإن مسألة الحساب لا تكون واردة. لا يناقش سقراط هذه المسألة صراحة في أى موضع من المحاورات.

في رأيي أن سقراط لا يعنيه إلا سلوكنا باعتبارنا كائنات إنسانية عاقلة. حين نعمل على مستوى دون المستوى الإنساني *as subhumans* ، فإن تحليلات سقراط لا تنطبق علينا، لكن مثل هذا العمل لا يكون موضوعاً للفلسفة بل للطب النفسي *psychotherapy*.

معادلة الخير باللذة في *الديوتاجوراس* ليس إلا تبسيطاً لغرض بحث معادلة الفضيلة بالمعرفة. إنها عينة في أنبوب اختبار لتجربة معملية. لنقل إن الخير هو اللذة (لأن محاولة الاتفاق على حقيقة الخير في هذه المرحلة من المناقشة لم تكن لتجدي): يمكننا عندئذ أن نرى أن اللذة (بدلنا التجريبي للخير) لا انفصال لها عن المعرفة.

إن أولئك الذين يستنتجون من هذا الجزء من *الديوتاجوراس* أن سقراط كان يدعو لفلسفة اللذة *hedonistic philosophy* يرتكبون خطأ تحويل افتراض اتخذ لغرض محدد إلى عقيدة مطلقة. إنهم في الواقع نموذج صارخ للخطر الذي كان يراه أفلاطون في السعي لاستخراج المعرفة من نصّ محدد. (ربما كان أفلاطون يختلف مزاجياً عن سقراط في موقفه من اللذة، لكن موقفهما النظري كان في الأساس واحداً).

النظرة السوية للذة كهدف طبيعي للكائنات الإنسانية يجب أن نفهمها بوضعها على خلفية ذات شقين: هناك من ناحية، التنديد الشديد بحياة اللذة اللاعاقلة في *الديوتاجوراس*، ومن ناحية أخرى، التقدير المتوازن لمكان اللذة في حياة إنسانية طيبة في الجزء الثاني من *الفيثاغورس*. ليس هذان وجهتي نظر منفصلتين: إنهما متكاملتان. كل تفكير نظري يُشغلي، وأخذ الشظية باعتبارها الكل هو قمة الحماسة.

بعد أن بين سقراط أنه على أساس افتراض أننا نسمى للذة ونجتنب الألم يكون المسلك الصحيح في الحياة علماً ومعرفة، يقول: ماذا يكون ذلك العلم وتلك المعرفة، هذا أمر نبخته في وقت آخر (357 ب). لم يكن ممكناً مناقشة مسألة السلوك الصحيح في الحياة في حدود البحث الحالي، إذ أن ذلك يتطلب النظر فيما يجعل الحياة الإنسانية جديرة بأن نحياها. ينبغي أن يكفي هذا كي نرى أن الظن بأن اللذة كانت عند سقراط هي هدف الحياة ليس ظناً تبسيطياً فقط، بل هو خاطئ تماماً.

في دعابة يطلب سقراط من بروتيكوس أن يسمح له بالتجاوز مؤقتًا عن التزام الدقة الصارمة في التمييز بين المتعة والبهجة والسرور وما إلى ذلك (358 أ). هذا له دلالة: سقراط يفسح المجال لمفهوم للذة قد يجده عامة الناس مغايرًا لمفهومهم، وكثيرًا ما يكون حتى نقيضًا له.

يواصل سقراط الحديث: كل الأفعال التي تستهدف حياة خالية من الألم وسارة هي حسنة، وإذا هي حسنة فهي طيبة وجميلة (358 ب-360 هـ). هنا على أن أتوقف مرة أخرى. فلاسفتنا التحليليون *analytic philosophers* يجدون في مثل هذه العبارة وليمة لهم. إنها بالطبع مفككة وجامحة. إذا كانت غايتنا أن نصل لاستنتاجات صحيحة تمامًا فإن مثل هذه العبارة لا قيمة لها على الإطلاق: فلاسفتنا الأكاديميون أثبتوا ذلك مرارًا وتكرارًا، ووجدوا في ذلك مجالًا لكسب وفير. لكنني أكرّر: المجردات الخالية من الحياة وحدها يمكن صيغتها في قوالب منطقية صحيحة. التفكير الفلسفي بطور الأفكار، يستخرج المعاني، يخلق تناسقًا فكريًا. إنك لا تستطيع أن تختزل ⁽²⁷⁾ *reduce* مسارًا ترتيبيًا من الفكر الفلسفي - سَمَهُ 'حُجَّة' إذا شئت - إلى قياس صوري *sylogistic reasoning* بأكثر مما تستطيع أن تختزل سيمفونية لبيتهوفن في سلسلة من مقولات مستنتجة استنتاجًا منطقيًا صحيحًا. البرهان *demonstration* تحتكره الرياضيات، التحقق الموضوعي *verification* تختص به العلوم التجريبية، تناسق ووضوح المعنى هو بيمة التفكير الخلاق - الشعر والفن والفلسفة.

إذا عادلنا السارّ بالحسن، فلا أحد، عارفاً أو معتقداً أن فعلاً ما هو أحسن من فعل آخر، يمكن أن يفوته أن يفعل الفعل الأحسن إذا كان ذلك في مقدوره. أن ينهزم المرء أمام الرغبة أو الخوف أو ما إلى ذلك لن يكون إلا جهلاً، وأن يسيطر المرء على نفسه يكون حكمة. هذه خلاصة ما يشار إليه عادة باعتباره المفارقة الرئيسية عند سقراط - مبدأ أن أحداً لا يقترف الظلم عن معرفة أو عن إرادة. لكن المفارقة تغارقها مفارقتها إذا ما أخذناها في سياق كل فلسفة سقراط في الحياة: حين يتحقق فينا الإنسان في أصدق وأحسن معنى للكلمة،

(27) انظر هامش 20 في الفصل الثالث عن استخدامي لكلمة الاختزالية لترجمة *reductionism*، وهنا استخدم الفعل، فنحن نحتاج مصطلحاً نسمي به هذه الأداة الفكرية.

فلننا نجد قيمتنا الحقّة في توجّه تتحد فيه النزاهة الأخلاقية بالنزاهة الفكرية. ما دنا نحيا ونعمل على مستوى الإنسانية الحقّة ذلك، فلا يمكن أن نختر ارتكاب الخطأ. لكننا لا نحيا دائما على ذلك المستوى، ليس أيّ منا دائما إنسانا حقا، عندئذ لا يرقى سلوكنا إلى مستوى حقيقتنا؛ عندئذ نعمل غافلين عن خيرنا الحقّ. ذلك لا يكذب عقيدة سقراط فهو لم يقصد أن يعطينا بيانا أنثروبولوجيا أو سيكولوجيا للملوك الفعلي للبشر، بل أراد أن يصوّر مثلا — مثلا نستطيع أن نحاول الارتقاء إليه.

الخوف توقّع للشّر. إذن لا أحد يمضى بإرادته لما يخافه. كان پروتاجوراس قد أكد أن الشجاعة تختلف تماما عن الفضائل الأخرى، وتختلف على الأخصّ عن الحكمة. ماذا يطلب الشجعان؟ أهو نفس الشيء الذي يطلبه الجبناء؟ ينفي پروتاجوراس ذلك؛ ما يطلبونه شيء مختلف. هل يمضى الجبناء إلى ما هو أمن بينما يمضى الشجعان إلى ما هو مخيف؟ يقول الناس ذلك. يصرّ سقراط على أن يجب پروتاجوراس عن نفسه: هل يمضى الشجعان إلى ما يرونه مخيفا؟ لكننا اتفقنا لتونا على أن هذا مستحيل. إنهم جميعا يمضون إلى ما يوحى بالاطمئنان، الجبناء والشجعان على حدّ سواء — كلا الفريقين يطلب نفس الشيء. يحتجّ پروتاجوراس مؤكدا أن ما يمضى إليه الجبناء مضادّ تماما لما يمضى إليه الشجعان، فهؤلاء يمضون بإرادتهم إلى الحرب ويأبى الآخرون. — أهو جميل أن يمضوا أم قبيح؟ — جميل. — إذا كان جميلا فهو حسن — فقد اتفقنا على أن كل الأفعال البديعة حسنة. الجبناء يرفضون أن يمضوا إلى الحرب، يلبون أن يمضوا إلى ما هو بديع وحسن وبالتالي سارّ. هل عن معرفة يرفض الجبناء أن يختاروا ما هو حسن وسارّ؟ إذا قرّنا هذا ننقض ما سبق أن اتفقنا عليه. الشجعان يختارون ما هو أجمل وأحسن وأكثر مسرّة. الشجعان لا يقبلون لا الخوف المزرى ولا الاطمئنان المزرى. خوفهم واطمئنتانهم كلاهما جميل وحسن. لكن الجبناء والمتهورين والمجانين يعمل فيهم خوف مزر واطمئنان مزر بفعل الجهل والحماقة. الجبناء جبنا بفعل الجهل بما يدعو حقا للخوف. الشجاعة مضادة للجبين وتأتى من المعرفة بما يدعو حقا للخوف. إذن فمن المستحيل أن يكون الشخص جاهلا ومع ذلك شجاعا.

لنا أن نلاحظ أن وصف الشجاعة بمعرفة ما يدعو للخوف وما يدعو للاطمئنان: *hê tôn deinôn kai tharraleôn epistêmê*، وهو الوصف

الذى وجدناه غير مُرضٍ فى الـلاخيس (194 هـ)، يعاد تقديمه هنا دون اعتراض، حيث أن المطلوب هنا ليس أن نقف عند 'تعريف' مُرضٍ، بل أن نربط الشجاعة بالمعرفة وبكل الفضيلة.

فى الفايديون يقول سقراط إن ما يعرفه العامة باسم الشجاعة هو شيء غريب لأن أولئك الذين يرون الموت شرًا عظيمًا يستسلمون له لخوفهم من شرٍ أعظم. وكذلك ما يعرفه العامة باسم الاتزان هو شيء زائف لأن الحمقى يتحكمون فى شهواتهم ويتحملون الآلام إذ يأملون فى الحصول على ملذّات أعظم أو تجنب آلام أعظم. الفضيلة الحقّة ليست مثل هذه المقايضة السقيمة لملذّات مقابل ملذّات وآلام مقابل آلام ومخاوف مقابل مخاوف (68 د-69 هـ). وعلى هذا فحين نجد البروتاجوراس تحيل الشجاعة إلى تغلب على الخوف بخوف أعظم، ونجد الاختيار والتدبّر علمةً قد استحالوا إلى عملية حسابية للمفاضلة بين الملذّات والآلام، علينا أن نتذكر أن هذه المقولات لا تمثل عناصر عقائدية فى الفلسفة الأخلاقية لسقراط أو لأفلاطون، إنما هى فرضيات تقدّم فى إطار استراتيجية تهدف لأن تظهر أنه حتى على أساس المفاهيم الشائعة للفضائل، فإن هذه الفضائل لا انفصال لها عن التقييمات الفكرية conceptual evaluations، وإنها تقوم على المعرفة.

5

بدأت المناقشة بين سقراط وبروتاجوراس بسؤال عن قابلية الفضيلة للتعلم، لكنّ لم يكن هناك تعارض حقيقى بين توكيد بروتاجوراس الواثق والنفسى الافتراضى الذى يبنه سقراط، لأن المقصود فى كل من الحالتين كان شيئًا مختلفًا. عند سقراط كانت الفضيلة تعنى الكمال الخاص الذى يتميّز به الكائن الإنسانى؛ عند بروتاجوراس، وغيره من السوفسطيين، كانت الفضيلة تعنى المهارة التى تكفل النجاح السياسى. فى أثناء المناقشة أكد سقراط وطوّر مبادئه التوهم: وحدة الفضيلة ومعادلة الفضيلة بالعقل. الهدف الواحد لكل حوارات سقراط أن يقود رفيق الحوار لهذه البصيرة. ليست هذه نظرية أو قضية يطلب إثباتها، بل رؤية يريد إيصالها. التحليلات النقدية لفلاسفتنا الأكاديميين ضلّت السبيل: إنها إن أفادت قليلًا إذ تتيح لدارسى الفلسفة بعض المران فى النقد

المنطقي، فهي تضرّ كثيراً إذ تطمس الرسالة الحقّة، المعنى الحقّ، والقيمة الحقّة لمحاولات أفلاطون.

تطرح البروتاجوراس مسألة قابلية الفضيلة للتعلّم وتتركها بلا حلّ. هذا ما ينبغي أن يكون. يجب أن تبقى المسألة بلا حلّ، تبقى لغزاً لا يقبل الحلّ، إذا أردنا ألا تغيب عن بصرنا البصيرة الحيويّة: الفضيلة هي الحكمة *sophia* لكنها ليست أيّ معرفة محدّدة *epistêmê*. الفضيلة هي الحكمة التي تدرك جهلها وتعرف أن السبيل الأمن الوحيد لها أن تتشبّث بنزاهتها الذاتية. في الجمهورية نجد الحكمة الأسمى في الرؤية التصوّفية لصورة الخير. في الـ *بوليتيكوس* نجد أن الحاكم المثالي لا يتقيّد بأيّ قانون أو دستور بل يمضى على هدى نوره الداخلي. يسوع الناصري يجد المرشد للحياة الخيرة لا في الناموس بل في الحب. كنّت Kant يجد المبدأ الأخلاقي الأعلى في تلقائية الإرادة الخيرة. البصيرة⁽²⁸⁾ الواحدة خلف كل هذا كانت جليّة شفافة عند سقراط، ومع ذلك يصعب علينا أن نستوعبها لأنها صارت مغلفة بطبقات فوق طبقات من أخطاء الجهاذة.

(28) في الأصل الإنجليزي سجّلت هنا رفضي لاستخدام 'truth' (الصدق) أو 'intuition' (الحدس، البديهة) لاداء هذا المعنى.

الباب الثانى
الرؤية الأفلاطونية

الفصل الخامس

مغزى الدفايدون

تقديم

معظم الباحثين يرون أن الدفايدون تدور حول (1) خلود الروح، و (2) 'وجود' الصور، أو ما يُعرف بـ 'نظرية أفلاطون فى المثل (الصور)'. أنا أزعم أن موضوع الدفايدون شىء غير هذا تماما.

المحاورة الأفلاطونية ليست أطروحة نظرية؛ إنها لا تسعى لأن تثبت بالبرهان مقولة أو فرضية. المحاورة الأفلاطونية هى ما يعلنه مؤلفها عمليًا، إنها دراما: حتى الحُجج فى المحاورة – مهما بلغت من الدقة ومن العناية فى صياغتها – فهى شخوص مسرحية لها دورها المقرر فى الدراما. الغاية ليست نتيجة تثبت بالحجة بل انطباع كلى يُخلق فنيًا، الغاية تقديم رؤية.

هكذا، وفقًا لهذه النظرة، حين نأتى لدراسة الدفايدون، بدلا من أن نطرح على أنفسنا السؤال: ما الذى تثبته الدفايدون؟، ينبغى أن نسأل: أى رؤية تعطينا إياها الدفايدون؟ والإجابة، فى رأيى، هى أن الدفايدون تعطينا رؤية الحياة الفلسفية كتتحقيق لأزلية الروح.

من وجهة النظر هذه تكون جهود الباحثين لكشف وعرض الأخطاء والتناقضات فى حُجج أفلاطون فى غير محلها. لا يعنى هذا أننا لا ينبغى أن ندرس وننقد مثل هذه الحُجج، فإن أفلاطون كان بالتأكيد يريد من قرّانه أن

يفعلوا هذا. إننى أمضى حتى إلى حدّ القول بأن أفلاطون كان يزرع عن عمد الأخطاء والتناقضات ليتيح لقراءه أن يُعملوا عقولهم فيها. إلا أنه أيا كان ما نراه فى حجج الدقاييون أو فى قيمة النظريات التى تتضمنتها المحاوره، فإن مغزاها الباقى، أهم ما تسهم به فى الثقافة الإنسانيه، نجده فى مثال وروية الحياة التى يَتميّز بها الكائن الإنساني، الحياة الممحصه التى رآها سقراط وحدها حياة إنسانية حقّة.

يذكر تيلر (Plato) A.E. Taylor، 1926، p.177 أن أفلاطون نفسه يشير إلى الدقاييون فى الرسالة الثالثة عشرة 363 - أعبارة "حوار سقراط حول الروح *psuchē*". إلا أنها ليست بحثاً نظرياً فى طبيعة الروح وإنما هى تأكيد لقيمة الروح ومفهوم الحياة الطيبة كحياة مكرّسة لرعاية الروح، وهذا هو كل ما كان سقراط معنياً به.

لعل أفلاطون كان أميل للاعتقاد بخلود الروح، والأرجح أنه كان كذلك؛ لعل المعتقدات الأورفية-الفيثاغورية حول حياة ما بعد الموت استهوتته؛ لكن هذا، فى رأبى، لا يجعل من بحث مسألة خلود الروح قلب الدقاييون وأقيم ما فيها. إننى لا أرغب فى أن أنفى احتمال أن يكون تأييد فكرة البقاء الشخصى *personal survival* من المقاصد الرئيسية للدقاييون؛ (كان أفلاطون، كفنّان عظيم، يمزج أكثر من موضوع ويرمى لأكثر من هدف واحد فى كل محاوره)؛ إلا أنى أقول إن ما يعيننا هو أننا نجد القيمة الباقية فى مثال وروية حياة العقل، وهى الروية التى تلهمنا إياها الدقاييون حين نأخذها ككل.

لا يفوتنا أن نلاحظ النبيرة المتمهّلة على امتداد المحاوره، فى أجزاء السرد وفى أجزاء الحوار على حدّ سواء، بما فيها من استطراد، وتريث فى العناية بالتفاصيل الثنوية، وفكاهة. إن تكن المحاوره كلها وككلّ عملاً فلسفياً، إن تكن الدراما والشعر والفلسفة ليست عناصر منفصلة جمعت معاً بل كلاً متكاملًا لا يتجزأ، فلا ينبغى أن نبحت عن القيمة الباقية للدقاييون، أو لأى عمل من أعمال أفلاطون، فى أى عقيدة أو أى نظرية، مبرهنة أو غير مبرهنة، بل نبحت عن الرسالة الجامعة التى تنقلها، الروية التى توحى بها، الأفكار الخلاقة التى تعرضها. هكذا، إذ نقول وداعاً لعقيدة خلود الروح ولمختلف الحجج المقتمة دعماً لها، فإننى أجد هبات الدقاييون الباقية للفلسفة وللإنسانية فى: (1) المفهوم

السقراطى الأساسى فى التمييز بين المحسوس والمعقول. (2) مفهوم الروح (العقل) كموطن للعقل الفاعل. (3) مثال حياة العقل، الحياة الفلسفية. (4) التمييز السقراطى بين المباحث الطبيعية – التى تعطى معرفة واقعية نسبية – والبحث الفلسفى الذى يعطينا فهم الذات وفهم الأفكار التى تنشأ من العقل ذاته، وهذه لازمة منطقية corollary لمبدأ الجهل الفلسفى. وكمسحة إضافية، تقدم لنا المحاوراة صورة شخصية حية خالدة للإنسان الذى تجسد فيه مثال الحياة الفلسفية.

إن جمال وبلاغة ما تغنى به أفلاطون فى مدح الحياة الفلسفية قد أسر ولا شك ملايين القراء على امتداد القرون. يخيل لى أن السقراطيين – أكثر من أى شيء آخر وأكثر من أى عمل آخر لأفلاطون – كانت هى العامل المؤثر فى تحوّل أوغسطين⁽²⁹⁾ Augustine of Hippo. ولكن، رغم أن هذا الجمال وهذه البلاغة هما من عناصر الرسالة الفلسفية للمحاوراة، فإننى لن أعلق تحديداً على هذين الجانبين من العمل: الإبداع والجمال باقيا بغدّيان وبيهجان كل من ينهل من كلمات أفلاطون.

فلسفة سقراط

تروى السقراطيون أحداث اليوم الأخير فى حياة سقراط. ذلك هيكل العقدة الدرامية للمحاوراة. لكنها فى جوهرها تقدم لنا صورة الفيلسوف الحق: طبيعة ومعنى الحياة الفلسفية، حياة العقل الفاعل، التى نستطيع أن نستجمع سماتها الرئيسية من المحاورات السابقة. وعليه، فقبل أن نعلق على السقراطيين، دعونى ألخص موقف سقراط الفلسفى.

كل دارس للفلسفة يعرف أننا فى محاورات أفلاطون الباكراة نجد سقراط مشغولاً بتمحيص مفاهيم مثل الاتزان *sôphrosunê*، والشجاعة *andreia*، والتقوى *hosiotês*. لا نجده فى أى من هذه الحالات محاولاً أن يثبت أن هناك مثل هذه المفاهيم. إنه يبدأ منها، يتخذ منها نقطة البداية لبحثه. يسأل: ما الاتزان؟ وحين يعطيه رقيق الحوار مثلاً أو قائمة من الأمثلة يقول: ليس هذا ما اطلب.

(29) اعتد الآن أننى كنت مخطئاً فى تعديري لتأثر أوغسطين بأفلاطون.

يطلب من رفيق الحوار أن ينظر داخل عقله (أو روحه *psuché*). هو في الـ *يوثيفرون* لا يحاول أن يقنع يوثيفرون بأن هناك مفهوما للتقوى *to hosion* بل يطلب منه أن ينظر داخل عقله ويقول ما التقوى في نظره. وحين يذكر يوثيفرون حالات فعلية للتقوى يقول له سقراط: ليس ذلك ما أريد: أريدك أن تنظر داخل عقلك وتخبرني ما طبيعة الفكرة التي في عقلك. هذا مفهوم جديد على محاوريه (كل محاوريه) ويصعب عليهم استيعابه، لكنه ذاتي الوضوح عند سقراط. إنه مفهوم المعقول متميزا عن الواقع الفعلي، متميزا عن الحالات التي يمكن غداها وملاحظتها والتي لها وجود موضوعي. هذا المفهوم هو أعظم هبات سقراط للثقافة الإنسانية وأصبح ملتحما تماما بالعقل الحديث إلى حد أننا صرنا نعلم عن حقيقته. ليست هذه نظرية بل مفهوما خلاقا، وهو يلقي من سوء الفهم ما يجعل حتى من يُدعون بالأفلاطونيين *Platonists* يجهلون أنفسهم ليثبتوا 'موضوعية' المفاهيم، وهم بهذا يحسون التمييز السقراطي بين الموجودات الموضوعية والحقائق المعقولة *intelligible realities*.

كل مغزى حياة سقراط، مجمل رسالة حياته، يمكن تلخيصه في هذه الكلمات: لا يكون الإنسان إنسانا إلا بمقدار ما يحيا في مجال تشكله الأفكار والمثل التي تولد في العقل. وإذن فهذه الأفكار والمثل تشكل قيمتنا الحقة وكمالنا الذي نتميز به ككائنات إنسانية. حين نحاول أن نمسك بهذه الأفكار نجدها تمتزج بعضها في بعض، وفي منتهى الأمر نجد أن لا معنى لها في انفصال عن العقل الذي تتبع منه. قيمتنا وحقيقتنا لا انفصال لهما عن هذا الفعل ذاته، فعل تمحيص مفاهيمنا ومثلنا وعقلنا — بعبارة واحدة، ممارسة امتحاننا لذاتنا.

العقل والأفكار التي يُنشئها العقل، هذا، عند سقراط، هو كل ما نعرف من الحقيقة؛ هذا ما يعطينا قيمتنا ويشكل كياننا المتميز كجنس إنساني. هذا ما ينتهي إليه الحوار السقراطي كما نجده في محاورات أفلاطون الباكورة.

دعوني أنبج بقرة مقنسة أخرى. في تلك المحاورات الباكورة لا يطلب سقراط تعريفا ولا يسعى إليه. إنه لا يطلب من رفاق الحوار أن يُعرفوا بل أن ينظروا مباشرة إلى الفكرة، ليزيحوا كل ما يعترض الرؤية، ليبصروا الفكرة في نقائها العاري، حتى يكون في مقدورهم أن يؤكدوا أنه بالجمال يكون كل ما هو جميل جميلا. هذا كل غرض وكل غاية الحوار السقراطي: أن ندرك أننا لا نجد الحقيقة في غير العقل الفاعل وفي الأفكار التي يخلقها العقل الفاعل.

المشهد

فى المشهد الافتتاحى للدفايدون نجد سقراط وقد نُزعت لثوّ أغلاله، ويجد فى إحساس اللذة الذى أعقب ألم القيد فى ساقيه مناسبة للتفكر فى العلاقات المتشابكة بين أحاسيس اللذة والألم. إن عقله النشط لا يمكن أن ينفلق فى مشاغل الوقت الراهن؛ يقول إنه لو خطر الأمر ببال إيسوبوس (عيسوب) Aesop لاخترع حكاية عن الرابطة بين اللذة والألم، فيتذكر كيبيس أنه كان منذ حين يريد أن يسأله عن السرّ وراء نظمه لبعض حكايات إيسوبوس شعراً، وكذلك نظمه لقصيدة لأپولو، منذ أودع السجن. يقول سقراط إنه فعل هذا استجابة لما حثته عليه أحلام متكرّرة تدعوه لأن "يصنع موسيقى". حين تقدّم كيبيس بسؤاله قال إن يوينوس سأله عن ذلك وإنه يريد أن يعرف أىّ إجابة ينبغى أن يحملها إلى يوينوس. يقول سقراط مداعباً: "أخبره بذلك وأبلغه تحيىى وقل له، إن يكن حكيماً فليتبغنى سريماً" (61 ب). هذه المزحة الفكهة تفتح الباب للسؤال عن التوجّه المناسب تجاه الموت.

يتحدّى كلّ من سيمياس وكيبيس سقراط أن يدافع عن نغمه ضدّ تهمة أنه يجافى العدل والمنطق باستسلامه للموت راضياً، هاجراً أصدقائه وفاراً من حياة يقول هو نفسه إنها تحت رعاية آلهة حكماء وخيرين. حين واجهه كريتون بنفس التحدى فى المحاورّة المسماة بلسمه، أسس سقراط ردّه على ما هو صواب وما هو غير صواب، أما هنا فيأخذ سقراط منطلقه من صيغة 'الاتهام' ومن الموقف الراهن، فيقول إن حياة الفيلسوف الحقّ كلها ليست إلا ممارسة لعملية الموت ولحالة الموت *ouden allo autoi epitêdeuousin ē* (64 أ). فى تفصيله وتطويره لهذا الخط من الدفاع، نجد خطين من الفكر متشابهين — مفهوم الحياة الفلسفية كحياة موت عن الجسد وفكرة استمرار حياة الروح فى عالم آخر.

هذان الخيطان منفصلان من وجهة نظرى. مفهوم الحياة الفلسفية مفهوم سقراطى أصيل وهو ذو قيمة عظمى وباقية للإنسانية. ورغم أنه لا يُستعرض كثيراً على السطح فى الدفايدون فإنه يشكل التيار التحتى والقلب النابض

للمحاورة. من ناحية أخرى فإن فكرة الخلود الشخصي وحياة ما بعد الموت تبرز كثيرا وتفتش معظم مساحة المحادثة. السؤال عما إذا كان ذلك يمثل المعتقد الشخصي لسقراط أو لأفلاطون أو لكليهما أمر يمكن المجادلة فيه. أما السؤال عما إذا كانت الحجج المقامة تثبت هذا الرأي فهذا سؤال ينبغي أن نجيب عنه بالنفي. كل هذا في رأيي ليس بذى أهمية فلسفية كبيرة. ما أراه على أعلى درجة من الدلالة الفلسفية هو أننا نجد في ثنايا عرض هذه العقيدة تعبيراً شعرياً بديعاً عن أزليّة وأوهية الجانب الروحي من كينونتنا، ذلك الشيء فينا الذي يزدهر حين نأتى أفعالا خيرة ويذبل حين نأتى أفعالا شريرة، الذي يمكن أن نسميه روحنا. لا يلزمنا أن نأخذ أمثلة الكهف كتقرير واقعي كي نستوعب هذه الرسالة.

الفيلسوف، رجلا كان أو امرأة، لا يمضي حياته يتهيأ للحظة الموت أو لما يلي الموت كما يفعل بعض الزهاد، لكنه يحيا ذلك النأى عن الجسد والدينيوي، يمارس التسمامي والسيطرة على ما يعترى الجسد من احتياجات ونوازع ورغبات وأهواء. ليس هذا مرادفاً لأن يعيش المرء مشغولاً بالموت. القول بأن غاية الفلسفة، أو إحدى غايات الفلسفة، 'التهيؤ للموت' هو توجه سقيم. يقول سقراط في الديالوجون إن المسعى الفلسفي هو ممارسة الموت عن الجسد، هو الحياة في مجال المفاهيم الخالصة (مجال المعقول، المجال الروحي)، بحيث إذا ما أتى الموت أخيراً، وهو التخلّص النهائي للعقل من البدن، لا يجد الفيلسوف في ذلك شيئاً يرهبه. يختلف هذا تماماً عن أن يكون التحضير للموت هو غاية الفلسفة.

سأطوّر هذه الفكرة حين نأتى لمناقشة ما أطلقوا عليه 'حجة القريبى'.

التذكّر والتناسخ

من المتفق عليه الآن بصورة عامّة أن محاورات أفلاطون يمكن تبويبها من الناحية الزمنية في ثلاث مجموعات، الباكرة والوسطى والمتأخرة. وهناك اتفاق عريض حول إدراج مختلف المحاورات في هذه المجموعة أو تلك، لكن ترتيب المحاورات داخل كل مجموعة يبقى - مع استثناءات قليلة - خاضعاً لحسن كل باحث على حدة. في ظنّي أن الدمينون مكانها عند بداية المجموعة

الوسطى. يرى تيلر A. E. Taylor أن فجاءة الفاتحة في الديميون قد تشير إلى "أن تأليفها يرجع إلى السنوات الباكرة جداً من النشاط الأدبي لأفلاطون" (Plato) 1926، p.130. لكن الفجاءة قد تكون جزءاً من الدراما، تصوّر هُوج مينون الشاب. الجديد في كلِّ من الديميون والفايدون هو الانشغال بوضعية الصور، ومبدأ التذكر، والطريقة الفرضية.

أظنه من المعقول أن نفترض أن أفلاطون وقت أن كتب الديميون كان قد وجد مؤخرًا ما يغيره في عقيدة التناسخ الأورفية - الفيثاغورية، التي فتحت الباب لتفسير مفهوم سقراط عن الأفكار التي تأتي من داخل العقل باعتبار ذلك تذكرًا، وأوعزت بـ 'نظرية' الكيان المنفصل للصور (التي لم تكن أبداً نظرية محدّدة المعالم)، ومنهج البحث بواسطة الفرضيات، كمحاولة لتنظيم وتنظيم أسلوب الحوار السقراطي ومبادئه الأساسية. في البروتاجوراس (التي ربما تكون قد كتبت قبل الديميون بوقت غير طويل) نجد الصور ما زالت مفاهيم سقراطية هلامية، تنزلق في بعضها البعض وتمتزج ببعضها البعض. في الديميون والفايدون يبدو أن أفلاطون كان يجرب، محاولاً أن يُنظّر الصور ويعطيها ثباتاً. في الديميون وجد لها مصدرًا، وفي فقرة الفرضيات من الفايديون (101 ب- 102 أ) كان يعطيها منهجية methodology، وفي نظرية تعايش وتباعد cohabitation and separation الصور (102 د - 105 ب) كان يعطيها منطقاً logic.

في الديميون يقترح 'سقراط' مبدأ التناسخ لمواجهة الصعوبة التي أثارها مينون حول إمكانية التعلّم. هكذا يتقدّم 'سقراط' بشيء سمعه، منقولاً عن "كهنة وكاهنات" وأيضاً عن بندار Pindar وغيره من الشعراء (81 أ - ب). لكن من خلف الحكاية البديعة يمكننا أن نتبين في يسر المبدأ السقراطي الأساسي القائل بأن التعلّم هو عملية تتفحّ داخل العقل.

حين يصرّ مينون على العودة لمسألة قابلية الفضيلة للتعلّم، يقول سقراط إنه نظراً لجهلنا بما هيّة الفضيلة، فليس أمامنا غير أن نفحص المسألة بطريقة الافتراضات *ex hypothesēs*، ويقودنا هذا لشرح طريقة البحث عن طريق الافتراضات. مرّة أخرى يلجأ 'سقراط' للهندسة لتوضيح ما يعنيه بمثال. في رأيي أن أفلاطون، وقد استهوته الرياضيات، يحاول أن يفسح مكاناً للمعرفة

رغمًا عن مبدأ الجهل السقراطي، تلمأ كما أنه، في الفترة الأخيرة من عمله، لإحساسه بالحاجة للمعرفة الإمبريقية للأغراض العملية، يتقدم بطريقة التجميع والتقسيم.

العيدان والأحجار

كثير من الباحثين يرون في *الديالوجون* الشاهد المعتمد *locus classicus* لـ 'نظرية الصور' الأفلاطونية. فأى 'نظرية للصور' نجدها في *الديالوجون*؟ أنجدها في المقاربة اللامتزمة والصريحة في تجربيتها لمسألة المشاركة في الصور؟ أم في أسطورة التذکر؟ — اللب الخالص في كل هذا هو مفهوم المعقول السقراطي — *to noëton* — والعقل الفاعل الخلاق — *nous*، *phronêsis* — باعتباره المجال الذي نتصل فيه بالحقيقة والذي فيه يكون لنا ما لنا من نصيب في الحقيقة.

في حيز يقل عن صفحة كاملة من طبعة ستيفانوس Stephanus (65 ب- 66 أ) نجد خلاصة التمييز السقراطي بين المحسوس والمعقول — نجد مفهوم المعقول الذي اعتبره المبدأ الأساسي للفلسفة الحقّة والذي هو أساس الأفلاطونية. لن أعطى هنا غير تخطيط مجرد: البصر والسمع لا يعطيان الصدق للإنسان. معطيات البصر والسمع — وهذان أحسن حواسنا — نخذلنا من حيث الدقة ومن حيث الوضوح. أين إذن تتصل الروح (العقل) بالحقيقة *tês alêtheias haptetai*؟ إنها حين تحاول أن تفحص أي شيء عن طريق الجسد تنساق إلى الخطأ. هي إذن تقارب ما هو حقيقي *ti tôn ontôn* حين تعمل العقل. إنها تعمل العقل على أحسن نحو حين تتخلى عن الاعتماد على الجسد وتسعى للكثيرة الحقّة. لهذا فإن روح (عقل) الفيلسوف تنأى عن الجسد وتسعى لأن تكون في ذاتها. إننا نقول بأن هناك ما نسميه العدل والجمال والخير، لكننا أبداً لم ندرك شيئاً من هذا بحواسنا. وهذا يصدق بالنسبة لكل المفاهيم مثل الكم، الصحة، القوة — يصدق بالنسبة لحقيقة كل ما يكون. إننا لا نصل لحقيقة شيء من هذا عن طريق الجسد، إنما نقرب من معرفتها حين نفحصها في فكرنا.

حقيقة الصور ليست بحاجة لبرهان وليست قابلة لبرهان. إن محاكاة العيدان والأحجار الشهيرة (والتي أصبحت، بفضل فلاسفتنا المحترفين، سيئة

السمعة) ليس القصد منها أن تبرهن على حقيقة الصور، بل أن تؤكد وتوضح التمييز بين المحسوس والمعقول. المحسوس بالضرورة نسبي ومشروط: المفاهيم ليست كذلك: حتى مفهوم النسبي ليس نسبياً؛ حتى مفهوم المشروط ليس مشروطاً. والمفهوم لا ينتج عن الشيء. لا بد أن الناس رأوا وتعاملوا مع عيدان متساوية وأحجار متساوية على امتداد أحقاب مترامية من الزمان قيل أن يصيح عيقرى فى نشوة الخلق، يصرخ فى وجع المخاض: "أه! هذان الاثنان متساويان!" تماماً كما أن فكرة الاثنين ذاتها لا تأتي من أمثلة الاثنين التى فى الدنيا. كما يقول سقراط فى موضع لاحق من *الديالوجون*: "ستؤكد بأعلى صوت أنك لا تعرف وسيلة أخرى لصيرورة الشيء إلى ماهيته الكائنة غير المشاركة فى الحقيقة الخاصة لما هو مشارك فيه *metaschon tês idias ousias hekastou hou an metaschèi*، وأنك فى مثل هذه الحالات لا تعرف سببا لصيرورة 'الاثنين' غير المشاركة فى الاثنائية، وأنه لا بد لما سيصير اثنين أن يشارك فى هذا، ولا بد لما سيصير واحداً من المشاركة فى الواحدية" (101 ب - ج). لعل رياضيينا، إن لم يكن فلاسفتنا المحترفون، قد اقتنعوا بالفعل بوجهة النظر هذه. صورة الاثنين، صورة الثلاثة، صورة الأربعة ... هذه أنساقٌ خلافة، بفعلها تكتسب الأشياء فى العالم، بالنسبة لنا، خصائص جديدة ومنظومة كاملة جديدة من العلاقات. (فى شأن هذه النقطة الجوهرية، انظر أيضا القسم المعنون "المسيرة الذاتية" فيما يلى).

رغم أنه صحيح أن كل محتوى المعرفة يأتينا من خلال الجسد، إلا أن ذلك المحتوى لا يمكن أن يعطينا فهما حقا. كل فهم، حتى فهم الوقائع الإمبريقية والأحداث الظواهرية *phenomenal*، يأتى من أنساق (مفاهيم ونظريات) ينشأ العقل.

يتحدث أفلاطون عن "الماهية التى نعطي بيانا عن كينونتها فى حوارنا"، التى نتدبر حقيقتها، نمحصها، نباحثها، *autê hê ousia hês logon*، *didomen tou einai kai erôtôntes kai apokrinomenoi* (78 د). أعتقد أنه لا موضع للبرهان هنا، لأننا نبدأ من حقيقة الماهية *ousia*. نحن هنا بإزاء إعلان نبوءة، ترسم خريطة مجال المعقول الذى هو مجال الحقيقة. لا يقدم أفلاطون برهانا ولا حجة لدعم إعلان الإيمان هذا. إنه يعتبره، عن حق، ذاتي

الوضوح، كما أن كل المفاهيم، التي هي من خلق العقل، ذاتية الوضوح. يقول: *hês logon didomen*، التي نعطي عنها *logon*، قولا، بياناً، منطقاً: كيفما ترجمنا الكلمة فبها لا تشير إلى شيء من خارج الماهية *ousia*. في حوارنا الفلسفي، إذ نسأل ونجيب، *erôtôntes kai apokrinomenoi*، نعطي تطويراً خلاقاً للماهية، ذات المتساوي، ذات الجميل، كل ما هو هو، الكائن، *to on*، *auto hekaston ho estin*، *auto to kalon*، *auto to ison* المجردات التي لا حياة فيها وحدها تطلب البرهان وتقبل البرهان. الفلسفة الحقّة تُبدع أساطير تنفت الحياة في ظلال عالم الظواهر.⁽³⁰⁾

"تريد إذن أن نقيم نوعين من الكائنات، المنظورة من جهة، وغير المنظورة من جهة أخرى؟" *thômen oun boulei ... duo eidê tôn* " *to de aides*؛ *to men horaton ontôn* الكلمة المفتاح هنا هي *thômen*، نقيم (حرفياً نضع)، من الواضح أننا نخترع. المنظور نجده في كل مكان من حولنا في الدنيا؛ غير المنظور لا 'نجده' في أي مكان، إننا نأتى به مولوداً في العقل.

حين يقول سقراط إنه يتّضح أن معرفتنا ما هي إلا تذكر، *hoti hêmîn hê mathêsis ouk allo ti ê anamnêsis tunchanei ousa* (72 هـ)، فإني أرى هذا القول يعبر في جوهره عن البصيرة السقراطية الأمامية بأن كل فهم ينبع من داخلنا. وسواء كان قد ربط هذه البصيرة بعقيدة التنامخ أو لم يربطها بها، فهذا لا يضيف لمغزاها الفلسفي الجذري ولا ينتقص منه. إلا أنني أميل للاعتقاد بأن أفلاطون هو من أعطى مبدأ التذكر هذا التجسد الأورفي-الفيثاغوري، فالأفكار أيضاً يمكنها أن تسكن في أجساد مختلفة. وربما لا يكون سقراط مستولاً حتى عن مجاز التذكر – الذي نلقاه في الـ *مينون* – فلعله كان يقول ببساطة إن المعرفة (الفهم) تأتي من داخل العقل. لهذا فإني أرى أن مجاز التوليد *maieusis* أصدق تعبيراً عن الموقف السقراطي الأصلي.

⁽³⁰⁾ معذرة عن هذه العبارة التي تبدو هنا بالضرورة ملفزة، فهذا الكتاب كله، بل كتابتي كلها، محاولة لتوضيح هذا المعنى. ولعل يضع الصفحات التالية أيضاً لا يمكن فهمها إلا في إطار الكتاب ككل.

إن مبدأ التذکر لن یزودنا بإجابة واقعية لأی مسألة فی علم النفس أو فی فلسفة اللغة. أی محاولة لقسره علی أن یفعل ذلك یرکون جهداً یضیع هباء. أما فلسفياً، فإن أسطورة التذکر تضعنا وجها لوجه أمام حقيقة وسرّ العقل. إن الدراسات التخصصية فی فلسفة العقل وفلسفة اللغة متواصل انتاج نظريات جيدة، نظريات مفيدة، لكن أياً منها لن یحقّ له أن یذعی حلّ المشكلة بأكثر مما یحقّ ذلك لنظرية أفلاطون فی التناسخ. فی منتهی الأمر، علی الجمیع الاعتراف بأننا ببساطة نقف أمام حقيقة العقل وأن تلك هی الحقيقة الوحيدة التي نعرفها.

فكرة المعرفة الفطرية innate knowledge ستظل لغزاً محيراً حتی نقبل فكرة العقل الخلاق باعتباره الأساس لکینونتنا. إننا نستطيع أن نفهم وأن نعرف لأننا نصوصع إبداعياً الأفكار التي تضيف المعقولة علی الأشياء.

فی 73 - ج - 77 - أ یُبهم أفلاطون مسألة التذکر reminiscence بغير داع إذ یربطها بالاسترجاع عن طریق تداعي المعانی recollection by association. هو یفعل ذلك لأنه یرید أن یؤكد التمييز بین الأفكار التي تنتمأ فی العقل والأشياء التي تهیئ المناسبة لظهور تلك الأفكار. ولهذا السبب یرکز کل التركيز علی نسبة المحسوس وتحوله والعوار المتأصل فیہ. لم یکن سقراط محتاجاً لإثبات هذا التمييز. بالنسبة له، المعقول هو ما ینشئه العقل، حتی حين یكون ذا صلة بالأشياء المحسوسة: مفهوم الطول لیس مستمداً من أی طول معین: توجد فی الدنيا (بمعنی ما) أشياء طويلة وأشياء قصيرة ولكن لا یوجد فی الدنيا طول؛ الطول فی العقل فقط یخلقه العقل. هكذا یمکننا، علی نحو ما، أن نقول إن تجرید أرسطو Aristotle's abstraction كان عودة إلی المفهوم السقراطي الأصلي وكان تصحيحاً لأقمة hypostatizing أفلاطون للصور. لكن یمکننا أن نقول أیضاً إن تصحيح أرسطو كان اشتراطاً فی التصحيح حیث إنه أبهم المفهوم السقراطي الأساسی للمعقول باعتباره مجال الحقيقة. حفاظ أفلاطون علی هذا المفهوم وتوكيده له كان أعظم إسهام قومه للفلسفة ویجعله مستحقاً أن نغتر له كل مغالاة سمح لنفسه بها فی سبیل هذا.

حين نقول إن الجسد لا یعطينا معرفة یقينية وإن العقل وحده إذ یعمل بالمفاهيم الخالصة یمکنه أن یعطينا معرفة حقّة، ینبغی أن نحترس. بجانب

غموض كلمة المعرفة، فإن القول بأن العقل reason يعطينا اليقين قول مضلل، إذ أن كلمة 'اليقين' بدورها مفعمة بالغموض. إننى أفضّل أن نقول إن العقل يعطينا المعقولية intelligibility التى تنوق إليها، ولكنى أيضا أقرّر – وأعتقد أن هذا ما يقرّره أفلاطون – أن لا مجال لما هو نهائى فى الفكر الإنسانى.

الفقرة فى 100 - ب محورية ويتوقف الكثير على تفسيرنا لها، فدعونى أقتبسها كاملة (وسأبقى الترجمة لصيقة بالأصل بقدر الإمكان حتى إن أذى ذلك لركاكة التعبير). "ما أقوله هو هذا، وليس بالشىء الجديد، بل هو ما لم أكف عن قوله فيما مضى وفى حديثنا هذا الذى سبق. إذ سأبدأ بأن أحاول أن أبين لكم نوع السبب الذى اصطنعته، *tês aitias to eidos ho pepragmateumai*، وأعود من جديد لما كثيرا ما تكلمنا عنه وأبدأ منه، مقررًا أن هناك ما هو جميل بذاته وفى ذاته وما هو خير وما هو كبير وكل ما هو إلى ذلك، *hupothemenos einai ti kalon auto kath' hauto kai agathon* فإذا سلمتم لى بهذا ووافقتم على أن هناك كل هذا، *kai mega kai talla panta*، أرجو، مستندا لهذا، أن أبين لكم السبب، وأن أكشف أن الروح لا تموت، *hôs athanaton*، " *hê psuchê*". أن نستخدم لفظ 'الوجود' هنا يكون مدعاة للاضطراب ويثير من المشاكل ما لا نهاية له.

أعتقد أن مشكلة طبيعة العلاقة التى يشار إليها فى القاييدون بعبارات مختلفة مثل الحضور والمشاركة والاجتماع هى مشكلة واجهت أفلاطون إذ صارح توابع مبدأ التذكر والأحاجى المنطقية التى يُلدها غموض فعل الكينونة *einai*. كانت تلك مشكلة حاول أفلاطون أن يحلها لكنه أبدا لم يقدم حلا نهائيا لها، ولا هو زعم ذلك ولا تظاهر به.

حسنا، لنقل مع باحثينا المتبحرين فى العلم إن أفلاطون كان يعتقد أن الصور مستقلة عن العقل وإن الأشياء فى عالم الظواهر هى نسخ من الصور. أفلاطون بالتأكيد يستخدم لغة توحى بهذين الموقفين كليهما. لكن إن يكن كل هذا لا معنى له عندهنا – وما أظننا نجد بين فلاسفتنا المعاصرين واحدا يؤيد آيا من هاتين الموقولتين – فما الغاية من أن نكرّر ونجتزّ نظريات رديئة ومعتقدات لا يمكن الدفاع عنها، نطرحها مرارا وتكرارا فى مؤلفاتنا المهيبة ودورياتنا

الأكاديمية الرفيعة؟ حيث يكون اهتمامنا تاريخيًا خالصًا فقد يكون من المناسب أن نحاول أن نتصور بوضوح بقدر الإمكان ما عسى أن يكون قد دار بفكر أفلاطون، وإن يكن من الواجب أن نعترف بأننا لا يمكن أن نتأكد أبدًا من ذلك. لكنني كفيلسوف لا يهمنى إلا تأويل أو تطوير تلك الآراء تأويلًا أو تطويرًا يعطيني مدخلًا إلى الحقيقة، رؤية للحقيقة، ملامسة الحقيقة – اختر المجاز الذى يروق لك. إننى أعرض فى هذا الكتاب وجهات نظر أستمدّها من أفلاطون وأنا مستعدّ لتبنيها والدفاع عنها. أن نسميها آراء أفلاطون أو آراء خشبة لا يهمّ كثيرًا. إننى أعرضها لأننى أعتقد أنها قيّمة فى ذاتها، وليس لأنها تنسب لهذا الشخص أو ذلك.

لا أقول إن الصور (المفاهيم) حقائق نفكر 'فيها'، بل أقول إنها حقائق نفكرها، نقلها. إذا اعتبرنا الصور حقائق 'موضوعية' (هذه عبارة تصيبني بالدوار ولا أجدها مفهومة على الإطلاق) عندئذ يواجها السؤال: ماذا تكون؟ أين نجدها؟ — أسئلة ربما يكون أفلاطون قد انشغل بها حينًا. عندى أنا، المفاهيم تنوعات modifications من العقل (بمعنى المصطلح عند سبينوزا Spinoza).

أعرف أنى سأتهم بخلط فكري بفكر أفلاطون. هذه تهمة لا يعيننى أن أنفيها. فكما قلت مرارًا، إن غرضى، إذ أكتب عن أفلاطون أو غيره من الفلاسفة، ليس تفسيرياً exegetic، بل فلسفيًا. ليس هدفى أن أقرّر ما كان فكر أفلاطون (هذا شىء لا يمكن أن نكون على يقين منه أبدًا) بل أن أعلن أى فكر يوحي أفلاطون إلىّ به، أى فكر يؤدّه أفلاطون فىّ.

يأخذ نيكولاس پ. وايت Nicholas P. White 'محاجة العيدان والأحجار' على أنها محاولة للبرهنة على أن التساوى متميز عن أى من الأشياء المتساوية المحسوسة، على أساس مقمّتين، ويجد البرهان معيبًا. "Plato's metaphysical epistemology"، The Cambridge، CUP، Cambridge، ed. Richard Kraut، Companion to Plato، 1992، pp.280-285. إننى أمضى أبعد من وايت. ليست حجة أفلاطون هنا وحدها معيبة بل إن أى حجة كهذه يمكن أن نبين أنها معيبة. حين قرّر سقراط التمييز بين الأشياء فى العالم الفعلى والمفاهيم التى تنشأ فى العقل، فإنه لم يثبت أو يحاول أن يثبت أى شىء. إنه كان يخلق لنا مفهوم عالم المعقول. وفى محاجة

'العيان والأحجار' في الديالوجون لم يكن أفلاطون يبرهن بل كان يظهر التمييز. هذا بين ما أجد خطأ خطيرا في توجيهات الفلسفة الحديثة. فلاسفتنا المحترفون يعتبرونه أمرا مسلما به أن الفلسفة معنوية بالبرهان والإثبات بالْحُجَّة، بينما أرى أنا أن الفلسفة معنوية أولاً وقبل كل شيء بخلق الأفكار. إن أفلاطون، كما بين الباحثون بإفاضة، لم يفلح أبدا في البرهنة على أي شيء؛ لم يصمد موقف واحد له في وجه هجماتهم. لكن أفلاطون منحنا عالما كاملا من الفكر، بفضلنا يمكننا أن نحيا حياة ذات مغزى. منحنا أفلاطون ما تشتد حاجة الإنسانية إليه اليوم، أعطانا ديناً بلا معتقدات توجماتية، أعطانا روحانية لا تُكَبَّل العقل بالأغلال. استعارت المسيحية الكثير من أفلاطون؛ لو أنها استوعبت أهم درس علمنا إيَّاه واعترفت بأن أساطيرها الجميلة ليست إلا أساطير، لكانت الإنسانية اليوم في حل أحسن كثيرا مما هي عليه.

أزلية الروح

تتضمن الديالوجون أربع محاضرات عن خلود الروح. للأسباب التي أوضحناها من قبل، سأعبرُ الحجتين الأوليين - حجة الدورة وحجة التذكر - دون تعليق، وكذلك سأصرف النظر عن الحجة الرابعة التي تغد عاصمة الحجة الرئيسية. إلا أن المحاضرة الثالثة (78 ب-84 ب)، التي يشار إليها بـ 'حجة القربى'، لها وضعها الخاص. إنها أكثر بعدا عن شكل الحجة المنطقية حتى من حجة الدورة. إنها أكثر صراحة في شاعريتها وعاطفيتها. ورغم أنها ظاهريا توظف في خدمة فكرة الخلود الشخصي إلا أن ما نجد في القلب منها ليس فكرة الاستمرار الزمني بل فكرة الأزل الذي يسمو على الزمن. إننا لا نفوتنا فحسب الغاية مما سُمي بـ 'حجة القربى'، بل ونضيق كل قيمتها، إذا ما نظرنا إليها كمحاولة لإقامة البرهان على خلود الروح. فهذه الفقرة الفذة من الديالوجون تقدم لنا مثال الحياة الفلسفية، حياة العقل - إنها، بكل معنى الكلمة، نبوءة تعلن مجيء الإنسانية العقلانية.

بعد أن قدم سقراط الحجتين الأوليين وربط بينهما، جاعلا منهما عمليا حجة واحدة مركبة، يقول: إذا كان الجمال والخير وكل هذه الحقائق كائنة، وإذا اكتشفنا هذه الحقائق داخل أنفسنا، فلا بد أن روحنا كانت سابقة لمولدننا. رغم أن

أفلاطون هنا أحال الأسبقية المنطقية أو الجوهرية للروح إلى أسبقية زمنية، إلا أننا نجد الربط الجذري بين حقيقة المفاهيم وحقيقة الروح (العقل) كما أننا هنا، "فإن لم تكن تلك، لا تكون هذه"، *oude tade kai ei mē tauta* (76 هـ). يعادل سقراط بين الروح ومجال المعقول، أو على الأخص، موطن أو مبدأ العقل الفاعل. ربما يكون أفلاطون قد كما هذا المفهوم السقراطي الأساسي بأردية مستعارة من الأورفية والفيثاغورية لكن القلب يبقى بغير تغيير.

يجد سيمياس هذا مرضيا تماما، فلا شيء أوضح عنده من حقيقة الجمال والخير وكل هذه الحقائق (77 أ). إلا أنه هو وكيبسيس معا لا يزالان تزرقهما بعض الشكوك ويطلبان مزيدا من التوكيد للقول بأن روحنا لن تفنى عند الموت.

يقول سقراط: لتتدبر، أي الأشياء يكون عرضة للتفكك والتشتت وأيها لا يكون كذلك، ثم ننظر لأي النوعين تنتمي الروح (78 ب). ما هو مركب يمكن تفكيكه إلى عناصره، لكن ما هو غير مركب لا يُحتمل أن يتعرض لهذا المصير. من الناحية الأخرى، ما هو ثابت وغير متغير يُحتمل أن يكون بسيطا، بينما ما هو خاضع للتغير يُحتمل أن يكون مركبا (78 ج). فلنلاحظ أننا هنا نبني عالما من مفاهيم خالصة.

نمضي قداما: عالم المعقول بمفاهيمه الخالصة - الحقائق التي نتباحث كينونتها في مناقشاتنا، المتساوي والجميل وكل ما له كينونة حقة - عالم المعقول ذلك هو دائما ثابت ومتجانس (78 ج - د). لكن الحالات الخاصة المتعددة التي تتمثل فيها هذه المفاهيم، تخضع دائما للتغير والتحول. نقول إذن بنوعين من الكينونة: المرنى (= المحسوس) واللامرنى (= اللامحسوس)، *to de , to men horaton thōmen oun ... duo eidē tōn ontōn aides* (79 أ). من الواضح أن الجسد ينتمي لنوع المحسوس وتنتمي الروح للامحسوس.

حين يستخدم العقل *psuchē* الجسد في بحثه في أي شيء، فإن الجسد يجره إلى المتغير ويقوده ذلك إلى الخطأ فيضطرب ويصاب بالدوار كالمخمور (79 ج). هذا يؤكد من جديد الموقف السقراطي: الفهم الذي يطلبه الفيلسوف لا يوجد في أي بحث في عالم الظواهر، وهو موقف نجده مطروحا بصورة أوضح في فقرة 'المسيرة الذاتية' من *الفايدون* (انظر فيما يلي) ونجده متوجا في شكل 'الخط المنقسم' في *الجمهورية*.

في 79- د فقرة تحلق في سموات الفكر الخالص، أسمح لنفسى بأن أمسخها في هذه الترجمة الحرفية لأبقى لصيقا بقدر الإمكان بكلمات الأصل:

حين تتمعن الروح بذاتها في ذاتها، تمضى إلى هناك، إلى النقى، الكائن أبدا، الذى لا يموت، الباقي على حاله، وإذا هي مثيلة لذلك، تبقى معه دوما، كلما أمكن لها أن تبقى، وتحيا بذاتها مع ذاتها، وتكف عن تجوالها وتبقى على حالها، إذ لامست ما هو باق على حاله، وهذه الحال هي ما يسمى العقل الفاعل *phronêsis*.

من خلال اللغة التصوفية والتشبيهات التصوفية في هذه العبارات نستطيع أن نتبين بوضوح أن الصور (المفاهيم) والروح، عند أفلاطون كما عند سقراط، هي في المكان الأول مجال المعقول، أو بتعبير أدق، مستوى الكينونة العاقلة.

لا شيء في كل هذا يوجب أو يستتبع أو يوحي بانفصال الروح *psuchê* عن الجسد *sôma*. من وجهة نظري، فإن القول بأن العقل والجسد يوجدان منفصلين يجعل منهما عضوين متجانسين في مجال واحد وبهذا تنتفى الطبيعة المتميزة للمعقول. العقل هو موطن المعقول، النطاق الوحيد الذى تكون فيه على اتصال بالحقيقة والذى تكون فيه كينونتنا على مستوى الحقيقة. هذا هو جوهر الأفلاطونية. بغير مفهوم المعقول ومفهوم العقل الخلاق كمنبع وأساس المعقول، فإن الفلسفة (بجناحيها: الأونتولوجيا والأخلاق) تنحصر بين خيارين: من ناحية، الاعتقاد الدوجماتي في مصدر غيبي *supernatural* للاستنارة، ومن الناحية الأخرى، المادية البحتة (بأى مسمى تتسمى: الفيزيقالية *physicalism*، الطبيعية *naturalism*، الظواهرية *phenomenalism*، الرضعية *positivism*، تتخذ ألف اسم لكن مضمونها وفحواها يبقى هو المادة) لا يغيب عن أفلاطون أبدا الإيمان بهذه البصيرة السقراطية، لكنه يكسوها باردية مختلفة.

لم يكن سقراط بحاجة حقا لأن يسأل: بأى من هذين النوعين نرى الروح أشبه؟ *psuchê homoioteron einai; ... tôi eidei ... poterôi* (79 د- ه)، لأنه في الواقع كان قد أوجد كلا من مفهوم عالم المعقول ومفهوم الروح بذات الفعل الخلاق الواحد.

هذا ما أسميه بفكرة خلاقية. أسميه أيضا أسطورة؛ إنه ليس واقعا fact، ولا هو يتوافق مع واقع ولا هو تمثيل لواقع. إنه يخلق حقيقة معقولة intelligible reality تضيف معنى على معطيات التجربة. عند هذه النقطة على أن أشرح من جديد وجهة نظري في طبيعة التفكير الفلسفي، ولعل هذا سياق ملائم جدًا للتمثيل لوجهة النظر تلك. أقول بأن كل تفكير فلسفي هو أسطوري إذ أنه لا يتعلق بما هو واقعي factual وإنما بما هو حقيقي real، حيث الحقيقة تعادل المعنوية (= 'الامتلاء بالمعنى') meaningfulness. هكذا، فكل المحاجات في الفايديون لإثبات خلود الروح يمكن النظر إليها على مستويين: قشرة خارجية، مصوغة من لغة الواقع، ربّما كان المؤلف نفسه يراها صادقة بمدلولها الخرفي أو لا يراها كذلك، وبنية داخلية من مفاهيم يكون لها من الحقيقة بقدر ما لها من المعنى — تكون حقيقية بفضل أن لها معنى. إننا نجد استيعاب هذا أيسر في حالة الشعر. ما يجعل استيعابه أصعب في حالة الفلسفة هو أن فكرة تمكنت منا فحواها أن وظيفة الفلسفة هي نفس وظيفة العلم وأن عليها أن تعطينا نفس ما يعطينا إياه العلم، وأنا أعتبر هذه فكرة بالغة الضرر. وجهة النظر هذه في التفكير الفلسفي حاولت جاهدا أن أعرضها في *Let Us Philosophize* (1998)، وفي مقالات كثيرة، منها *Philosophy as Prophecy*، وعلى امتداد هذا الكتاب. أكتفى هنا بالقول بأنه، انسجاما مع هذه النظرة، فإنني لا أشغل نفسي كثيرا بسلامة أو خلل الحجج المقامة لإثبات خلود الروح، إنما تعينى المفاهيم التي تعطينا عالما مثاليًا، كونا معنويًا ⁽³¹⁾ universe of discourse يمكن لعقلنا أن يعمل فيه وأن يحيا.

غاية العقل الفلسفي "أن يجمع ويلتّم ذاته في ذاته، ولا يثق في شيء غير ذاته، حين يتمنّ هو ذاته، بذاته، ما هو حقيقي في ذاته"، *autên de eis hautên sullegesthai kai hathroizesthai parakeleuomenê hoti an noêsêi pisteuein de mêdeni allôi all' ê autên hautêi* هذه *autê kath' hautên auto kath' hauto tôn ontôn* (أ - ب). هذه

(31) هذا مفهوم أساسي في فلسفتي، وقد وجدت التعبير مستخدما في المنطق بمعنى محدود وبعد عما أريد، ووجنته مترجما في العربية بـ 'عالم عقل' (عبد الرحمن بنوى)، لكنني لم أسمع هذه الصيغة ولم أجدها تلي بغرضي.

خلاصة ما يشرحه سقراط في 'السيرة الذاتية'، وهذا يجعل من كل بحثيات speculations الفليون مجرد لهو. "حين يفحص غيره، في غيره، من خلال غيره، فإنه لا يعتبر ذلك شيئا حقيقيا" *hoti d' an di' allôn skopêi mēden hēgeisthai alēthes en allois on allo* (83 ب).

التناغم

عندما قدم سقراط حُجَّتَه على بقاء الروح استنادا لقربى الروح بالإلهي، اعترض سيمياس بأن المرء يستطيع، استنادا لنفس هذا الأساس، أن يقيم الحُجَّة على بقاء النغم بعد فناء القيثارة والأوتار التي كانت وسيلة التعبير عن النغم (85 هـ - 86 د). لكن سيمياس أفسد حُجَّةَ جَيِّدَةٍ بأن ضيقها دون داع. لو أنه أكد ببساطة بأن حُجَّةَ القربى غير حاسمة في حُجَّتِها عند تطبيقها على الروح بمثل ما تكون غير حاسمة إذا ما أردنا تطبيقها على النغم، لكان محققاً في ذلك. لكنّه بدلا من أن يؤسس اعتراضه على عدم كفاية الحُجَّة، اختار أن يؤسس اعتراضه على فرضية محدّدة تقول بأن الروح تناغم، مما جعل مهمة سقراط أسهل، فما كان عليه إلا أن يبين أن نظرية كون الروح تناغما لعناصر الجسد يمكن معارضتها، وأغفاه ذلك من المهمة الأساسية، التعامل مع عدم كفاية حُجَّة القربى.

نظرية الروح بوضعها تناغما أو نغما في الجسد يعترىها الضعف الذي يعترى كل نظرية وكل مجاز، فمن الممكن نقضها، لكنها فكرة جيّدة، ككل فكرة يراد بها خلق خَلِيَّةٍ معقوليّة. من الجائز أن أتحدّث عن الروح باعتبار أنها الشخص من حيث كونه كلاً. وقد كان أرسطو موافقا تماما في حديثه عن الروح باعتبارها هيئة الجسد *form of the body*.

ما فحوى حضض سقراط لنظرية الروح كتناغم كما قدمها سيمياس؟ - كون المجاز ليس مجازا جيّدا، كونه لا يصحّ في كل تفاصيله. لا حُجَّة على الإطلاق يمكن أن تنتقص من قيمة فكرة فلسفية تقمّ صراحة كاسطورة، كفكرة خلاقة معقولة تمنحنا رؤية، تمنحنا زاوية نظر للحقيقة. كل أفكار أفلاطون الخلاقة هي من هذا النوع، وستبقى حيّة فعالة برغم كل ما تتعرض له من

لحوض وتفنيده. والاعتراض بأن نظرية التناغم لا تتوافق مع مبدأ المعرفة كتذكّر يصبح بلا فاعلية متى أخذنا بجديّة نبذ سقراط لكل معرفة موضوعية (واقعية).

من بين الاعتراضين اللذين تقدّم بهما سيمياس وكيبيس على حُجج سقراط لاثبات خلود الروح، نجد حُجّة النغم التي قدّمها سيمياس وحدها لا تخلط التمييز الفكرى بين الروح والجسد بالفصل الفعلى للروح عن الجسد. أما القياس التمثيلى على التساج وأرديته، الذى يقترحه كيبيس، فيؤكد ازدواجية الروح والجسد.

السيرة الذاتية

'السيرة الذاتية' هي قلب الدفابيون، وموقعها من المحاوراة ينطوى على مغزى. يقول سقراط: "علينا أن نتعامل مع مسألة سبب الصيرورة والفناء بأكملها"، *holôs gar dei peri geneseôs kai phthoras tèn aitian*، ثم يضيف: "سأروى لكم تجربتى حول هذا"، *diapragmateusasthai*، *egô oun soi dieimi peri autôn ... ta ge ema pathê* (95 ج - 96 أ). ولكن حين يروى تجربته يتضح أن تلك التجربة قادته لأن يهجر كل بحث عن الأسباب فى الطبيعة، وأقنعه بأن كل ما يمكن أن نصل إليه من صدق - فيما يتعلق بمسائل الفلسفة - وكل ما نحتاجه من صدق، نجده داخل عقولنا، فى حقيقة المفاهيم التى نجدها (كيفما كان ذلك) فى عقولنا.

بحقّ زيوس، إنى من البعد عن معرفة سبب مثل هذه الأشياء، حتى أنى لا أقرّ حتى بأنه إذا ما وضع المرء واحدا بجوار واحد، تكون النتيجة أن الواحد الذى أضيف إليه الواحد أصبح اثنين، أو أن الواحد الذى أضيف وذلك الذى أضيف إليه، بفعل وضع الواحد بجوار الواحد أصبحا اثنين، إذ إننى أراه شيئا مستغربا أنه حين كان كلّ منهما منفصلا عن الآخر، كان كل منهما واحدا ولم يكونا اثنين، ولكن حين اقترب أحدهما من الآخر، كان هذا هو السبب فى أن يصبحا اثنين، اجتماعهما بوضعهما الواحد بجانب الآخر. وكذلك حين يقسم المرء الواحد، لا أستطيع أن أقتنع بأن هذا - فعل القسمة هذا - هو السبب فى صيرورة الاثنين، فمن قبل كان الجمع بينهما ووضعهما الواحد بجوار الآخر هو السبب، والآن هو إبعادهما وفصلهما

الواحد عن الآخر. ولا أنا أقرّ لنفسى بأنى أعرف السبب فى صيرورة الواحد، وباختصار، أنا لا أعرف عن أى شىء وسيلة صيرورته أو فئانه على هذا النهج من البحث، بل اصطنعت لنفسى نهجى الخاص، أما ذلك الآخر فابنى لا أقر به. (96 هـ - 97 ب).

إننى اقتبست هذه الفقرة المهمة كاملة لأنى أعتقد أن أهميتها لم تُستوعب بعد بدرجة كافية فى فكرنا الفلسفى. المفاهيم لا نجدتها فى الأشياء ولا وجود لها فى عالم الظواهر. عودان يرقدان جنباً إلى جنب هما مجرد عود وعود. حين يلد عقلاً خلاق مفهوم سلسلة الأعداد ومفاهيم أعضاء السلسلة، عندئذ فقط يصبح العود والعود عودين. لم يكن سقراط أحق ولم يكن لاهايا حين قال إنه بمفهوم الاثنى عشر يصير الاثنان اثنتين. هذا هو أساس تأكيد كُنت أن مقولة $12=7+5$ هى قضية تركيبية قَبْلِيَّة *synthetic a priori proposition*. إنها ليست تجريبية *empirical*: إن كنا قد استوعبنا درس هيوم Hume لكان ينبغى أن نعلم أن كل حالات الخمسة والسبعة التى نصادفها على امتداد تاريخ البشرية لا يمكن أن نطمئننا إلى أن الحالة التالية التى نصادفها الخمسة وسبعة ستعطينا اثنتى عشرة. القضية ليست تحليلية: لا شىء فى الخمسة ولا فى السبعة ولا فى الخمسة والسبعة معا يمكن أن نعتصر منه الاثنى عشرة. بالطبع يمكننا أن نفكك الاثنى عشرة إلى خمسة وسبعة، لكننا نستطيع هذا لا لسبب إلا أننا نعمل داخل سلسلة الأعداد التى سبق لنا تكوينها. إنها مفهوم تركيبى قَبْلِي، أو، كما أفضل أن أقول، إنها فكرة خلاقة، وأكرّر أنه بين الفلاسفة المحدثين فإن كُنت Kant هو من استوعب هذه البصيرة المقرطية بوضوح.

فى 97- ب يقول سقراط إنه لم يعد يستطيع القول بأنه يعرف سبب صيرورة أى شىء أو فئانه أو استمرار كينونته. أليس هذا نبذاً صريحاً لكلّ الحجج الظاهرية الواردة فى الفايديون؟ إذا ما أخذنا هذا القول على ظاهره - و'المسيرة الذاتية' بجانب المشاهد المرئية هى الأجزاء التى يجب أن نأخذها على ظاهرها فى الفايديون - فإنه ينبغى أن كل المباحث التى سبقت فى المحاوراة عن الطبيعة الدورية للصيرورة وعن التذكر وما إلى ذلك، كل ذلك لم يكن إلا لعباً. لبّ الحوار كله نجده فى فكرة الروح باعتبارها أسمى ما نعرف من درجات الحقيقة - أو إن كنت لا ترى فكرة التدرّج فى الحقيقة فكرة مقبولة،

فلنقل: الحقيقة الوحيدة التي نعرفها - وأكثر الأشياء قيمة - الروح باعتبارها مبدأ العقل الفاعل، منبع وقاعدة عالم المعقول. إننى أقترح فرضية - لكنى لن أقاتل دافعا عنها - مؤداها أن ذلك كان الموقف الفعلى لسقراط وأن أفلاطون ظل لأخر حياته يتنازع دافعا: إرادة تأكيد وتبرير البصيرة السقراطية، من ناحية، ومن الناحية الأخرى، الرغبة فى إفساح مجال للرياضيات والتفكير الاستنباطى والمعرفة العلمية (الموضوعية)، فهذه اهتمامات كانت أثيرة عند أفلاطون. أظن هذه الفرضية تفسر ما نجده فى موقف أفلاطون حول مسألة المعرفة من التارجح وعدم التناسق.

فى رأى أن البرنامج الذى يلخصه سقراط باعتبار أنه يبين ما كان يأمل أن يجده فى كتاب أناكسجوراس Anaxagoras (97 د-98 ب) لا يمثل ما كان سقراط يبحث عنه فعلا. لعل ذلك كان مخططا لما كان أفلاطون يحلم بأن يحققه فى وقت ما من المستقبل. يقول راو C. J. Rowe فى تعليقه على هذه الفقرة فى طبعته للدفايمون (1993): "ينجز أفلاطون نفسه فى الاديميوس شيئا قريبا من البرنامج المخطط هنا." إننى أعتقد أنه آيا ما كان أفلاطون قد فكر فيه أو حاول أن يفعل فى وقت لاحق من حياته، فإنه فى هذه الفقرة كان يصور التهكم السقراطى الأصيل، إذ يتحدى أى عقل بشرى أن يحاول إعطاء مثل هذا البيان، فذلك كان نوع الحكمة التى كان سقراط يراها خارج نطاق إمكانيات الإنسان. إن المنهج الذى تبناه سقراط لم يكن منهجا علميا يراد به أن يعطينا معرفة عن العالم، بل كان منهجا ملانما لإعطائنا الحكمة الوحيدة المتاحة للكائن الإنسانى: أن نفهم أنفسنا. إن المعادلة التامة للمعرفة بـ 'العلم' فى العقل الحديث تجعل من الصعب علينا أن نفهم موقف سقراط كما أراه. فنحن نظن أن الفلسفة، كى يكون لها أى قيمة، يجب أن تعطينا معرفة علمية؛ فإن لم تكن معرفة علمية من أعلى مرتبة، فنحن مستعدون لأن نقتنع بجودة أنسى، بشرط أن تكون من نوعية البضاعة الأصلية. لسنا على استعداد لأن ندرك أن الفلسفة تعطينا شيئا مختلفا تماما وأثمن كثيرا: لا هو المعرفة التجريبية النافعة التى يمدنا بها العلم، ولا هو الإيمان الأسمى المريح الذى يبيعنا إياه الدين، إنما هو فهم الأفكار التى نخلقها بأنفسنا، وإذ نخلقها نخلق العالم الوحيد الذى نحيا فيه حياتنا المتميزة ككائنات إنسانية.

إننى قَدِّمْتُ أكثر من مرّة من قبل قراءة لفقرة الخصبة فى 98- ج - 100- هـ حيث يعرض سقراط فكرة المفاهيم كأسباب *aitiai*، إلا أننى لا أعتد عن العودة لذلك هنا لأنى أعتبر ذلك حيويًا، لا لفهمنا لفكر سقراط وأفلاطون فحسب، بل لفهمنا لطبيعة التفكير الفلسفى أيضًا. باختصار، يؤكد سقراط بأنه لا يمكن لأى بحث فى الطبيعة، لا يمكن لأى واقع موضوعى، أن يعطينا فهمًا لجوهر أى شىء أو أن يمدّنا بإجابات عن أى أسئلة فلسفية. الأفكار التى تنشأ فى العقل لها معقوليتها الذاتية وهى التى تجعل الوقائع تعقل. ها هو سقراط جالس فى سجنه ينتظر تنفيذ حكم الإعدام فيه بينما كان بمقتوره أن يهرب بسهولة. لا يمكن لأى كمّ من المعلومات عن حالة جسده، حتى لو شملت صورة كاملة لكلّ تفاعلات النيورونات التى تجرى فى مخّه، أن يجعلنا نفهم سلوكه هذا. لا شىء غير مفاهيمه عن الشرف والعدل والخير يمكن أن يجعلنا نعقل سلوكه. وهذه المفاهيم نفسها لا يمكن تحليلها إلى عناصر أخرى، ولا حتى إلى مفاهيم أخرى. هذا هو معنى إصرار سقراط على مبدأ أنه بمفهوم الجمال يكون كل ما هو جميل جميلًا، وهذا هو السبب وراء أصراره على هذا المعنى.

أيًا كان ما يخبرنا به العلم عن اللون أو الصوت أو المذاق فإنه لا يمكنه لا أن يفسّر ولا أن يبنّد حقيقة التجربة الذاتية لأحاسيسى. مهما تكن الوسيلة التى ينتج بها الإحساس، فإن تجربة الرؤية البصرية حقيقة على مستوى الكينونة الذاتية، واللون فى ذاته سمة من الموقف الكلى للتجربة البصرية لا تتحصى. وهكذا أيضًا، أيًا كان ما نخبرنا به علوم الأحياء والأنثروپولوجيا وعلم النفس التجريبي عن مشاعر العطف والحبّ وما إليها، فإن مثل هذه العلوم الموضوعية لا يمكن أن تلامس ولا أن تفسّر الحقيقة الذاتية لعاطفنا ومشاعرنا وتوجّهاتنا ومثلنا. كل هذا لا يمكن تفسيره إلا بالأفكار التى تولد 'فى' العقل ويلدها العقل.

يقول إيان مولر Ian Mueller، "المشكلة التى يجابهها سقراط هى تدمير الأشياء فى عالمنا، لماذا تحث، ونفى، وتكون." ("Mathematical *The Cambridge 'method and philosophical truth'* ، CUP، Cambridge، ed. Richard Kraut، *Companion to Plato* 1992، p.182). لكن فى رأى أن هذا هو بالضبط نوع البحث الذى ينبذه سقراط. إنه ليس معنيًا بالأشياء فى عالمنا من حيث هى، بل بما تعنيه لنا.

علوم الطبيعة معنية بما هو موجود، ما هو بالخارج في عالم الطبيعة. الفلسفة ليست معنية بما هو موجود، بل بما هو حقيقي، معنية بالمعنى أو بما له معنى في العقل، بما لا كينونة له إلا في العقل وكل كينونته في العقل. قد يقول لنا العلماء إنهم لا ينكرون أن هناك أفكارا — ففيم كل هذه الجلبة؟ المشكلة أن العلماء، إذ يرون أن الأفكار ليس لها وجود موضوعي، ينحصر اهتمامهم بها في وظيفتها كأدوات عمل لهم ولا ينسبون لها كثيرا من الحقيقة. أما الأفلاطونيون فيقولون إن الأفكار، بالضبط لكونها بلا وجود موضوعي، هي حقيقية وعظيمة القيمة لنا؛ إنها تشكل المجال الذي يكون لنا فيه كياننا المتميز ككائنات إنسانية.

حين يطرح سقراط مسألة أسباب الصيرورة والقضاء (95 هـ) فإنه لا يسعى لإظهار 'عدم كفاية' التفسير الميكانيكي للعمليات الطبيعية، وكأنما يمكن إكمال النقص في ذلك التفسير وجعله واقيا بإضافة تفسير إتيولوجي (aetiological) إليه — وكان علل أرسطو الأربع إذا ما أخذت مجتمعة يمكن أن تعطينا التفسير الوافي الذي نطلبه. سقراط يريد أن يؤكد أن التفسير الطبيعي (physical) والتفسير الفلسفي ينتميان لعالمين لا صلة بينهما ويتجان نوعين متميزين من 'المعرفة' — وهذا موقف أعاد أفلاطون توكيده وأعطاه صبغته الكلاسيكية في رسم 'الخط المنقسم' في الجمهورية.

الفرضية

رغم أن لبّ 'السيرة الذاتية' سقراطي أصيل، إلا أن أفلاطون قد مزج بها، على ما اعتقد، بعضا من تجربته الخاصة مع إشارة لشيء من بواكير الفكر الفلسفي، ثم الحق بها طريقته الخاصة للبحث بواسطة الفرضيات. ما أنا معنى به في المكان الأول هو ما اعتبره اللبّ السقراطي الأصيل. حين يقول سقراط: "رايت أنه يحسن بي أن ألجا إلى الأفكار *logoi* وأبحث فيها عن حقيقة الأشياء"، *edoxe dê moi chrênai eis tous logous kataphugonta*، "أعتقد أننا بإزاء ما هو من صميم فكر سقراط، لكن حين نقرأ عقب ذلك: "أفترض في كل حالة مقولة *logon* أفتر أنها الأقوى، وما يبدو لي متوافقا مع تلك أعتبره

حقيقة"، *hupothemenos hekastote logon hon an krinô*،
ha men an moi dokêi toutôi errômenestaton einai
 إلى تطوير أفلاطوني للمقاربة السقراطية. ونمضى إلى مرحلة أبعد من التطوير
 فى الفقرة 101 - ب - 102- أ، وهى فقرة جوهرية لفهم أحد أشكال الديالكتيك
 عند أفلاطون (فقد استخدم أفلاطون لفظ الديالكتيك بدلالات مختلفة). إننى لا
 أرى هذا كوسيلة لإقامة البرهان ولا كمنهج كشفى *heuristic method*، بل
 كعملية للتوضيح، لبلوغ التناغم والتناسق فى الفكر.

يمزج أفلاطون الطريقة الافتراضية بمفهوم الصور كمبادئ للفهم وكان
 هذين يشكلان وحدة متكاملة. إنه ربما كان يشعر باتحادهما لأن طريقة البحث
 بواسطة الافتراضات نشأت عنده من الحوار السقراطى. ورغم شعورى بأن
 الصيغة الممنهجة للطريقة كانت تطويراً أفلاطونياً، إلا أنى أرى أن هذا الربط
 له ما يبرره من حيث إن الطريقة الأفلاطونية، مثلها مثل الحوار السقراطى
 الذى نشأت عنه، هى فى جوهرها استكشاف لأفكار خالصة وللتفاعل بين
 الأفكار الخالصة. وهذا هو أيضاً جوهر الديالكتيك فى الجمهورية.

قد نقول إن أفلاطون طوّر التمحيص السقراطى للمفاهيم إلى تمحيص
 للمقولات. الهدف فى كلتا الحالتين هو طلب الفهم فى الأفكار الخالصة ومن
 خلال الأفكار الخالصة، والتبرير للفهم الذى نطلبه على هذا النحو لا نجده فى
 التوافق مع موجودات موضوعية أو فى مماثلتها، بل نجده ببساطة فى
 المعقولة، فى أن يكون فهمنا مرضياً للعقل. لا مجال هنا إذن للصواب أو
 الخطأ، وإنما للتناسق والوضوح الذاتى أو العكس.

نقرأ بعد ذلك: "إذا ما عارض شخص ما الفرضية ذاتها ('مقولة' *logon*
 الفقرة السابقة) تتركه وشأنه ولا تجيب حتى تمتحن توابعها لترى إن كانت
 تتناغم مع بعضها البعض أم لا. وحين يلزمك أن تعطى بياناً عن الفرضية،
 تعطيه بنفس الطريقة، فتفترض فرضية أخرى، تراها الأفضل بين الفرضيات
 الأعلى، حتى تصل إلى شىء كافٍ *hikanon*"، *ei de tis autês tês*
chairein eôiês an kai ouk apokrinaio hupotheseôs echoito
heôs an ta ap' ekeinês hormêthenta skepsaio ei soi allêlois

sumphōnei ē diaphōnei. epeidē dē ekeinēs autēs deoi se allēn au hupothēsin + hōsautōs an didoiēs didonai logon heōs epi hupothēmenos hētis tōn anōthen beltistē phainoito (101 د-ه). هذا يتفق مع ما تخبرنا به الجمهورية حيث تقول: "البحث الديالكتيكي وحده يمضى بهذه الطريقة، يزيل الفرضيات، ليستقرّ على المبدأ *archē* ذاته"، *hē dialektikē methodos monē*، *ep' autēn tēn + tas hupotheseis anairousa tautēi poreuetai* لكن الجمهورية لا تخبرنا بشيء أكثر تحديدا عن الديالكتيك ولا عن المبدأ *archē* الذى يصل إليه، صورة الخير، ولا اعتقد أن أفلاطون كانت له نظرية 'سرية' عن صورة الخير كان يعلمها لفئة خاصة فى الأكاديمية. (أرسطو الذى أمضى عشرين سنة فى الأكاديمية ليس عنده شيء واضح يقوله عن 'النظرية' المزعومة، ولا أتصور أنه كان مقيدا بقسم يلزمه بالكتمان). الطريقة والمبدأ معا لم يكونا غير ما كاناه عند سقراط، السعى الذى لا ينقطع انطلاقا من مبدأ الجهل الفلسفى وانتهاء بيقين واحد: إن فاعلية العقل *phronēsis* هى خيرنا الذى نختص به ككائنات إنسانية.

الفرضية الكافية *hikanon* هى فرضية يتفق كل أطراف النقاش على قبولها. لا مجال لصدق مطلق أو لبرهان نهائى. أن يقبل أطراف البحث اعتبار موقف معين 'كافيا' *hikanon*، لا يجعل منه صدقا مؤكدا أو نهائيا؛ إنه يبقى فرضية 'معطاة'، يمكن دائما ويجب دائما إخضاعها للمساءلة.

المجادلة

قد يكون خلود الروح هو الموضوع الرئيسى فى الدافيون، لكن ذلك ليس هو ما يعطى المحاور، فى منتهى الأمر، قيمتها الدائمة كإسهام فى التراث الروحى للإنسانية. أن تقرأ المحاورات كأعمال من أدب الخيال الصرف أفضل كثيرا فى تقديرى من أن تخضع لتشريحات شطار الأكاديميين الخالية من الروح. صحيح أننا نفقد الكثير مما هو ثمين وعالى القيمة إذا رأينا أن نتجاهل 'مغامرات الفكر' (إذا جاز لى أن أستعير عبارة وايتهد *Whitehead*

المُجنحة) في أعمال أفلاطون. لكنى قد أقبل ذلك راضيا إذا ما كان البديل هو ضياع الأساطير الموحية وجفاف ينباع الإلهام الدافقة في أعمال أفلاطون.

تبدأ حُجة خلود الروح بتعريف الموت كاتصال وفكّ الجسد من الروح والروح من الجسد (64 ج). هذا التعريف يفترض مفهوماً للكائن الإنساني باعتباره يتكوّن من عنصرين قابلين للفصل عن بعضهما (لا متميزين فحسب): "هل نحن إلا جسد من ناحية وروح من ناحية أخرى؟"، *allo ti hêmôn to to de psuchê; men sôma esti* (79 ب). الحُجج الأربع للخلود في الـ *فايرون* كلها تستند لهذا الافتراض وتصبح غير مقبولة متى أخضعنا الافتراض للمساءلة. هكذا، حتى مع غضّ النظر عن أى نقص أو عيب في هيكل الحُجج المعينة، فإن تلك الحُجج لا يمكن أن تكون لها دلالة قاطعة متى أخضعنا ذلك الافتراض للمساءلة. لكنّ ليس في نيّتي هنا أن أفحص حُجج الخلود التي تتضمنها *الفايرون* ولا أن أكرّر الانتقادات الكثيرة التي وُجّهت لحُجج لم يزعم أفلاطون نفسه أبداً أنها قطعية. القول الفصل في نسج حُجج *الفايرون* بأكمله يدلى به سيمياس في 107-أب: "رغما عنى ما زلت أجد في نفسى شكاً في هذا الذي قيل"، *anagkazomai apistian eti echein par emautôi peri tôn eirêmenôn*، ويردّ سقراط مستحسناً هذا القول ويضيف: "أيضا افتراضاتنا الأولى، حتى إن كنتم تجدونها مقبولة، يلزم مع ذلك تمحيصها بمزيد من الدقّة"، *kai ei pistai kai tas ge hupotheseis tas prôtas homôs episkepteai saphesteron humin eisin* (107 ب).

في المحاورات الباكراة – التي أرى من الملائم جداً أن يُشار إليها بمحاورات الحوار السقراطي – يهدم سقراط كل المقولات. علينا أن نتذكّر أن تلك المحاورات كتبها أفلاطون – قل إنه سجّلها، دونها، اصطنعها، تخيلها، أيّا ما نقول، فهي من عمل أفلاطون. ليس من المعقول إذن أن نتوقّع أنه حينما يقدّم أفلاطون مقولة في محاورات الفترة الوسيطة والفترة المتأخّرة، حتّى حينما تترك الحُجة الداعمة لها قائمة ظاهرياً، فإن ما يبغيه أفلاطون هو أن يتولى قرّأوه إخضاع الحُجة للمساءلة والتمحيص النقدي؟ هذا في رأبي احتمال يستحقّ، في أقلّ القليل، أن نأخذّه في الحسبان.

إذا أقرنا بأن أفلاطون لا يدعى أبداً أن حُججه براهين لا مأخذ عليها، فإنه يكون من اللائق حين نتناول تلك الحُجج بالنقد ألا نتباهى بإظهار أخطاء ومغالطات أفلاطون، بل أن نقول ببساطة إننا نمارس نشاطاً فكرياً ممتعاً ومفيداً أراد أفلاطون، على الأرجح، أن يهيئته لنا.

لم يكن كيبيس وسيمياس يحتاجان إقناعاً بقيمة الحياة الفلسفية. كان ذلك إيماناً يتقاسمونه مع كل دائرة أصدقاء سقراط الحميمين. لكن سقراط في الـ *فايدون* اختار أن يؤسس 'دفاعه'، ظاهرياً على افتراض بقاء الروح. طلب كيبيس وسيمياس ما يطمئنهما إلى معقولية هذا. لم يطلب سيمياس غير الاطمئنان *pistis*، ويعرض سقراط أن ينظر فيما إذا كان خلود الروح محتملاً *eikos*، ومع ذلك يعزل باحثونا الحُجج في أنابيب اختبار يضعونها تحت مجاهرهم المنطقية وكان أفلاطون قد ادعى أن حُججه نظريات رياضية.

في 70 - ب - ج، في نطاق بضعة سطور، نجد عبارات *diaskopeisthai*، *hēntina doxan echeis*، *diamuthologōmen* (قد نترجمها: 'نحكي'، 'الرأى الذى تراه'، 'نمحص بدقة') تستخدم عملياً كبدائل. هذا في رأى ليس مثلاً آخر فحسب لما هو معروف من ميوعة المصطلح عند أفلاطون، بل هو ذو دلالة أعمق: فى الفكر الفلسفى هناك علاقة وثيقة بين الاستدلال العقلانى والحكى الأسطورى واتخاذ وجهة نظر.

إن دارسى أفلاطون، الذين لا بدليل لهم عن الاعتماد على نصوص أفلاطون المكتوبة، ينبغي لهم، أولاً وقبل كل شيء، أن يأخذوا فى الاعتبار تحذير أفلاطون لنا من الاعتماد على النصوص المكتوبة. (الـ *بيروتاجوراس*، 347ج - 348 أ، الـ *فايدروس*، 274 ب - 278 هـ، الرسالة السابعة، 341 ب - 345 أ). لا حيلة لنا فى الأمر، لكن علينا على الأقل أن نكون على وعى بالمخاطر. فى رأى أن الدرس الذى ينبغى ألا يغيب عنا أبداً هو هذا: لا أحد يحق له أن يقول أو يمكن أن يكون له مبرر فى أن يقول: "هذا كان فكر أفلاطون أو هذا ما كان أفلاطون يريد أن يقول". كل ما يمكن لأحدنا أن نقول هو: "هذا هو فهمى لأفلاطون أو هذه هى الفلسفة التى اصطنعتها لنفسى من خلال تفكرى فى أعمال أفلاطون". فى إطار هذا الفهم العام سنستمر بالطبع على عادتنا فى أن نتحدث عما كان أفلاطون يرى وما كان يعنى أن يقول: لا

يلزم أن نحكم على أحد بالإعدام جزاء ذلك، لكن حين يتناحر باحثونا في صراعهم حول فكر أفلاطون وما كان يعنى، ينبى أن نذكرهم بأنهم قد نسوا أول درس كان عليهم أن يتعلموه من أفلاطون.

يختار سيمياس أن يتنازل عن فكرة أن الروح تتأغم لئبقى على فكرة أن المعرفة تنكر. يقول إن الفكرة الأولى تلقيناها نون برهان، على أساس الاحتمال واللياقة. يرى أن مثل هذه الحجج زائفة، وإذا لم يحترس المرء في مواجهتها فإنها تخدع. (ألا ينطبق هذا على كل حجج الدفابيون؟) يقول إن فكرة المعرفة كنتذكر قد قدمت لنا عن طريق فرضية جديرة بالقبول (95 ج - د). أفلاطون لا يدعى لفكرة *logos* التذكر شيئا أكثر من ذلك. يعلق راو Rowe قائلا: "لماذا تكون الفرضية المعنية (وجود الصور، د8-9) 'جديرة بالقبول'، هذا ما لا يفصح عنه سيمياس." (Phaedo)، 1993، (p.219). السبب في كون الفرضية 'جديرة بالقبول'، في رأيي، بسيط: فأساسها - مفهوم سقراط للمعقول باعتبار أنه هو ما هو حقيقي، *hê ousia echousa tèn epônumian tèn tou ho estin* - هو عند أفلاطون، كما كان عند سقراط، الشرط الذى بدونه لا يكون التفكير الفلسفى.

العقلانية

في 81-ج حيث نقرأ أن الروح التى تعلقت كثيرا بالجسد، يتشبث بها *dieilêmenên* الجسد، إذ أن اجتماع الروح الدائب بالجسد جعل الجسد ينزرع داخل الروح *enepoiêse sumphuton* — ما أظن أن أفلاطون كان أبدا يقبل أن نأخذ *enepoiêse sumphuton* بالمعنى الحرفى، فذلك يتعارض تماما مع موقفه الميتافيزيقى. مرة أخرى يبين لنا هذا أن علينا دائما أن نأخذ لغة أفلاطون بقدر وفير من السماح الشعرى. إن الهوس الحديث بالتقيد بالصحيح *correctness* هو موت مؤكد للفلسفة تماما بمثل ما يكون موتا مؤكدا للشعر. لا شك أن مدرسى الفلسفة ستصعقهم كلماتى: ماذا لو أن تلاميذهم أخذوا يكتبون بتسيب باسم الحرية؟ يجب أن نفهمهم جيدا أنهم لن يكونوا مؤهلين للحرية فى استخدام اللغة إلا بعد أن يثبتوا تمتعهم بحساسية بالغة لأدق فروق التتويجات فى الفكر، تماما كما نجد فى مجال الأخلاق أن من يتصف بأعلى نزاهة خلقية هو

وحده من يستطيع تجاوز القواعد الموضوعية ويتبع الصوت الداخلي: وحده من هو في مكانة شكسبير يجوز له أن يخرج على قواعد النظم في ثلاثة أو أربعة أبيات متتالية.

لا يقتنع سيمياس وكيبيس بحجة سقراط لخلود الروح على أساس قربي الروح بالإلهي. يتقدم كل منهما باعتراضه الخاص على الحجة. يمهد سيمياس لطرح حجته فيعرب عن الرأي القائل بأن حصولنا على معرفة وافية عن هذا في حياتنا الراهنة شيء مستحيل أو هو على أي حال صعب جدًا، لكن أن نتفacs عن فحص هذه المسائل بقدر ما يتاح لنا من المثابرة يكون جنبًا. ينبغي أن نسعى إما لأن نتعلم ممن يملك أن يعلمنا أو أن نكتشف لأنفسنا حقيقة الأمر، أو، إذا استحال ذلك، أن نأخذ أحسن نظرية متاحة - نظرية يصعب تنفيذها - وإذا نتخذ من تلك النظرية ما يشبه الطوف، نتجاسر بالإبحار في تيارات الحياة، إلا إذا وجدنا مركبا أكثر أمانا في هيئة توجيه إلهي (85 ب - د). لقد لخصت حديث سيمياس في شيء من التطويل إذ يبدو لي أنه يعبر عن موقف يتعاطف معه أفلاطون. وفي رأبي أن هذا الموقف يتجاوز سكينه سقراط القانعة في النفاذ ويتعارض تعارضا صريحا مع التخلي الجذري عن المعرفة الموضوعية الذي تؤكد في وضوح فقرة 'السيرة الذاتية' في السفايدون ذاتها. إنني أمضى إلى حد القول بأن طريقة البحث بالفرضيات الملحقة بـ 'السيرة' هي إضافة أفلاطونية وليست تمثيلا صحيحا للديالكتيك السقراطي.

جو الإحباط والخذلان الذي تصوّره المحاوره ساندا في أعقاب اعتراضات سيمياس وكيبيس، وما تبع ذلك من تحذير سقراط لمستمعيه من كراهية العقلانية، هذا الجو وهذا التحذير معا جزء أصيل من الصورة الكلية. لو أن أفلاطون كان يرى مكانا لليقين في التفكير الفلسفي لكانت هذه الفقرة ضئيلة القيمة. على خلفية الاعتراف بعدم كفاية كل الحجج المقامة، يأتي التحذير من كراهية العقلانية فيبرز مسألة إمكانية وجدوى العقلانية. إذا ما اقتنعنا بأن العقل لا يستطيع أن يثمر صدقا لا جدال فيه، فمن الطبيعي أن نسال: ما فائدة أن نتبع العقل؟ إجابة سقراط وأفلاطون هي أن قيمتنا ككائنات إنسانية تكمن في نشاطنا العقلي، وإذا كان كل صدق يصل إليه الإنسان هو بالضرورة 'نصف صدق'، فإننا لسنا مجبرين على أن نستكين لنصف الصدق ذلك: نزاقتنا الفكرية

وكرامتنا الإنسانية يتطلبان منا أن نكون دائماً على وعى بأن نصف الصندق ليس شيئاً أكثر من ذلك. فى مواجهة عدم كفاية التفكير الاستطردى *discursive thinking* فإن أفلاطون لا يلجأ لا لبلاهة پاسكال Pascal ولا لفتوط قُتجنشتاين Wittgenstein فى الـ *Tractatus*. إن كنا لا نستطيع أن نمتلك صدقا نهائياً، فلنجعل بصائرنا تكتسى بأساطير، بشرط أن نكون على الدوام مهتئين لتحطيم أساطيرنا.

بعد تقديم سيمياس وكيبيس لاعتراضاتهما، يأتى أفلاطون فى المحاوره بفاصل آخر يصف فيه فايدون حالة الاكتئاب التى حلت بالجميع. "إذ كنا قد اقتنعنا تماماً بالحُجج السابقة ثم فجأة نرانا عدنا من جديد للحيرة وصرنا فريسة للشك، ليس فحسب فى شأن الحُجج التى قُدمت فيما سبق، ولكن أيضاً بالنسبة لكل تفكير فى المستقبل، خوفاً من الأنا نكون مهتئين لهذا التفكير أو أن يكون الأمر نفسه لا سبيل لليقين فيه" (88 ج). أعتقد أن كون الأمر نفسه لا سبيل لليقين فيه *ta pragmata auta apista*، هو بالضبط ما كان ليؤكدده سقراط فى الواقع. هل كان أفلاطون يلعب بنا، يختبر قدرتنا على اكتشاف هذا التناقض؟ هل كان يريدنا أن نفهم أن كل الحُجج التى سبقت والتى جاءت فيما بعد لم تكن غير نسج خيال؟ أم تراه كان يناطح المستحيل، غير قادر على أن يستكين لنبذ سقراط للمعرفة الموضوعية؟ أياً كانت الإجابة الواقعية عن هذه الأسئلة، فالدرس الذى ينبغى أن نستمدّه هو الدرس الذى أعاد اكتشافه كُنت Kant: إن العقل الخالص لن يعطينا أبداً إجابات عن تلك الأسئلة⁽³²⁾ فربما كان كُنت وحده بين الفلاسفة المحدثين من أدرك تماماً مبدأ الجهل الفلسفى السقراطى. الأساطير التى ننسجها من حول هذه الأسئلة لها قيمتها من حيث إنها تزيد من ثراء عالم مفاهيم العقل، مفاهيم نحيا من خلالها فى المجال الروحى، مفاهيم من خلالها ينال الإنسان حقيقته كعقل خلاق.

(32) ما لظن القرأى الفطن بحاجة للقول بأن هذا لا يعنى أننا قد نجد الإجابات المنشودة عند غير العقل الخالص.

يعلن إيخيكرا تيس (الذى يروى له فايدون الحوار) أنه بدوره انتابه الإحباط عند سماعه لتلك الاعتراضات. هو يسأل نفسه: أى تفكير يمكننا الوثوق به، إذا كانت الحجج التى قَدّمها سقراط، والتى بدت مُقنعة جدًا، قد أصبحت محلًا للشك؟ (88 ج - د). اعتقد أن هذا الحديث يدعم القول بأن أفلاطون كان يريد أن يقود قراءه للوعى بأن كل الحجج النظرية لا تصل ليقين مهما بدت قوِّية الإقناع *sphodra pithanos*. يأتى بعد ذلك تحذير سقراط لمسامعيه من كراهية العقلانية (89 ب - 90 هـ) لينبئنا إلى أن وعينا بحتمية عدم كفاية كل تفكير نظرى ينبغى ألا تقودنا إلى اليأس من العقلانية، "إذ أنه ليس من ضررٍ يحق بالمرء أفدح من هذا، أن يكره الفكر"، *hôs ouk estin ... hoti an tis*، أن نكون عقلانيين هو أن ندرك أن قيمتنا ككائنات إنسانية تعتمد على ممارستنا للعقل بينما نعتزف بأن كل ما يزودنا به العقل فى شكل محدّد دائما يعتبره النقص بالضرورة.

استوعب أفلاطون تماما مبدأ الجهل السقراطى وكان يعرف تماما أن ليس ثمة نهائية *finality* فى التفكير الفلسفى. وكان أيضا يعرف أنه ليس بوسعنا أن نكفّ عن تمحيص أفكارنا، وأن نُشيد منظومات فكرية، ثم نهدمها. ككائنات مفكرة لا مهرب لنا من ضرورة أن نحيا فى عوالم من صنعنا نحن، لكن كى نحافظ على نزاهتنا العقلية علينا على الدوام أن نكتشف وأن نُظهر وَهْن ما نخلق. الحوار السقراطى والأسطورة الأفلاطونية كلاهما تحقيق لنفس البصيرة.

حين أتحدّث عن أساطير أفلاطون فإننى لا أشير فقط، ولا حتى بصورة رئيسية، لأساطيره الشهيرة، كتلك التى يختّم بها المناقشة فى *الديالوجون*. كل المفاهيم والنظريات الفلسفية الأصيلة هى أساطير خالصة من خلق العقل، وهى (أ) لا تنتمى للواقع إنما حقيقتها فى معقوليتها، و (ب) لا تدعى أنها نهائية.

العقلانية، من الناحية الذاتية، هى الممارسة اللامحدودة للعقل المتسائل. من الناحية الموضوعية يمكننا معادلة العقلانية بمعقولة *intelligibility* وتناسق *consistence* مستتبعات *sumbainonta* - ما يترتب على - افتراضاتنا ومبادئنا الأساسية.

خاتمة

حين يقول سقراط في 107 - ج: "إذا كانت الروح لا تموت، فعلينا أن نعى بها، ليس فحسب من أجل هذه الفترة من الزمن التي نسميها الحياة، ولكن من أجل كل الزمن"، فإبني أعتقد أننا نخطئ كثيرا في تقديرنا لسقراط إذا ما أعطينا الصيغة الشرطية هنا من الأهمية أكثر مما يلزم. إنه يقول بعد ذلك في نفس السياق: "فإذا كان الموت خلاصا من كل شيء، يكون ذلك حظًا مواتيا للشربير". لا سقراط ولا أفلاطون كان ليقول إننا في تلك الحالة ينبغي أن نأكل ونشرب ونلهو. ظل سقراط طوال حياته يعلم أن رعاية الروح - حياة العقل - هي ما يشكل قيمتنا ككائنات إنسانية، دون النظر لأي ثواب أو عقاب أو أى اعتبار آخر. ولهذا تحديداً فإبنا في المنعطف الراهن من مسيرة الحضارة الإنسانية في أمن الحاجة لأفلاطون، لأن طرائق الفكر السائدة تظهرنا وكأننا محصورين بين خيارين اثنين، إما الدوجماتية أو إحدى صيغ المادية. نظن أن لا مكان للحياة الروحية فى ثقافة الفكر الحصر. أصبحت الروحانية spiritualism كلمة فذرة والحياة الروحية spirituality فى أحسن الأحوال مثار شك. حُصرت المثالية فى مواقف ميتافيزيقية وإستيمولوجية نظرية جدلية. المسيحية الرسمية احتكرت وخرّبت مآثورات خصبة مثل 'ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان' و 'ملكوت الله فى داخلكم' (33). نحتاج ديناً يُنهى كل الأديان، ولن يعطينا ذلك غير أفلاطون.

اختتم سقراط 'دفاعه': إنه عاش فلسفياً، يرعى روحه ويعتنى أقل العناية بالجسد. أشعر بأن سقراط كان ليقنع بأن يقول مع لاندور Walter Savage Landor:

أدفأت كلتا يدى على نار الحياة؟

ها هى تخيوى، وأنا جاهز للرحيل.

(33) هذه العبارة من إنجيل لوقا 17:21 فى صيغتها الشهيرة وبالمعنى الرفيع الذى ألق بها ترجع فى الأرجح لخطأ فى ترجمة النص اليونانى.

إذا سُمح لى بأن أكون من الحمافة بحيث أحاول تلخيص مغزى عمل فى فى كلمات قليلة، فلا يمكن أن نجد خيراً من تلك الكلمات التى ينهى بها سقراط حديثه الأخير.⁽³⁴⁾

جديرٌ بأن يطمئن فى شأن روحه من كان فى حياته قد تخلى عن ملذات الجسد وعن زينته، باعتبارها غريبة عنه وتحدث كثيراً من الضرر، وطلب ملذات المعرفة، وزين الروح لا بما هو غريب عنها بل بالزينة الخاصة بها، بالأتزان والعدل والشجاعة والكرامة والصدق، وهكذا بقى مهيناً للرحلة للعالم الآخر متى دعاه الداعى (114 د - 115 أ).

⁽³⁴⁾ فى الأصل الإنجليزى استخدمت ترجمة جويت Jowett الكلاسيكية.

الفصل السادس

المعرفة والحقيقة

عند سقراط كانت الأفكار هي كل ما يهم. الأفكار هي ما يجعل الإنسان إنسانا، وهي ما يجعل للحياة الإنسانية قيمة. لم يطرح سقراط مسألة الوضع الميتافيزيقي للأفكار. عند أفلاطون، كانت الأفكار هي كل ما هو حقيقي. هي كل ما يمكن أن نعرف: إذ أن أفلاطون، مقتفيا أثر پارمنيديس Parmenides الجليل، كان يرى أن المعقول والحقيقي شيء واحد، *to gar auto noein estin te kai einai* (شذرة 5).

لهذا كانت المعرفة والحقيقة عند أفلاطون وجهين لقطعة نقود واحدة، بُعدين لشيء واحد. إنه يستخدم كلمة *alêtheia* - التي تترجم عادة بـ 'الصدق' *truth* - أكثر ما يستخدمها بمعنى الحقيقة. وهو كثيرا ما يستخدم كلمة *phusis* لا بمعنى ظواهر الطبيعة، ما نراه ونلمسه، وإنما بمعنى الحقيقة التي تتجاوز ذلك. عنده *phusis, to on, ousia, alêtheia* ('الحقيقة'، 'الماهية'، 'الكينونة'، 'الطبيعة') كلها وثيقة الصلة ببعضها البعض، إن لم نقل مترادفة تماما. في هذا المقال أركز على تطوير هذه الفكرة في الجمهورية. المقال في الأساس تعليق جار على الجزء الأوسط، بدءا من الجزء الختامي للباب الخامس حتى آخر الباب السابع. إذا كنت كثيرا ما أمضى لأبعد من نص أفلاطون فعذري أن غرضي ليس تفسيريا؛ ليس قصدي أن أقدم عرضا لما كان

أفلاطون يراه، بل أن أدخل في حوار مع أفلاطون وأطوّر موقفي الخاص، الذي اعتبره أفلاطونياً في جوهره.

هذا الجزء من الجمهورية يبدأ بالسؤال: هل المجتمع الفاضل الذي كان سقراط يصفه فيما سبق يمكن أن يتحقق، وإن يكن الأمر كذلك، فكيف؟ (471 ج). يقول سقراط إن هناك تغييرا واحدا، إذا ما أمكن إحداثه في مجتمعاتنا الحالية البعيدة عن الكمال لقاها ذلك إلى طريق الكمال (473 ج). يؤكد أنه إذا لم يتولّ الفلاسفة الحكم أو يصبح الحكام فلاسفة، فلن تكون هناك نهاية للشور التي تبثلي المجتمعات الإنسانية كما نعرفها في يومنا هذا (473 ج - هـ؛ ويتكرّر هذا القول بنفس الألفاظ تقريبا في 499 أ - ج، 501 هـ، 540 د).

يشير المعلقون عادة لهذا المقترح باعتباره مفارقة paradox. صحيح أن أفلاطون يجعل سقراط يشير إليه بعبارة *paradoxon logon*، لكن هذا لا يبرّر أن تلتصق بالمقولة هذا الوصف في المناقشات الجادة. هل ترانا وجدنا بديلا آخر؟ إذا كنا نعتبر القول بأن الديمقراطية⁽³⁵⁾ أفضل أنواع الحكم أشبه بالقول البديهي فما ذلك إلا لأن البشر، كما هم الآن، لا يستحقّون شيئا أفضل من ذلك. إن حكم أفلاطون على الديمقراطية لا يزال صحيحا: إنها النظام الأقل قدرة على تحقيق الخير والأقل قدرة على إيقاع الشرّ.

إذا كان لنا أن نبيّن معقولة مقترحنا، فعلينا أن نوضّح ما المقصود بلفظ 'الفيلسوف' (474 ب - ج). هنا يستخدم أفلاطون كلمة *diorisasthai*، التي تترجم عادة 'يُعرّف'، *define*، لكن 'التعريف' يمتدّ من هذه النقطة في الباب الخامس حتى نهاية الباب السابع ويصعب أن نراه متوافقا مع أي نوع من التعريف الصوري.

(35) تكلمت في أكثر من موضع عن عيوب الديمقراطية ويلزمني أن أوضح أني حين كتبت بالإنجليزية كنت أخطب مجتمعات استوعبت إيجابيات الديمقراطية وأن لها أن تتجاوز سلبياتها، أما في عالمنا العربي فإنا ما زلنا بعينين تماما عن إدراك مبادئ وفهم النظام الديمقراطي. الديمقراطية بالنسبة لنا مطلب جبوي، الخطوة الأولى نحو الخروج من مستنقع التخلف الذي عرفنا فيه.

الفيلسوف يحب الحكمة *sophia* ويرغب في كل المعرفة *pantos mathēmatos* (475 ب - ج). لكننا ندخل تمييزا هاما: ليس كل فضول هو حب للحكمة (475 د). وهذا التمييز يستند إلى مبدأ أساسى وينفذ إلى صميم مسألة المعرفة والحقيقة. فالمعرفة الحقّة ليست معرفة حالات محدّدة بل معرفة جوهر الأشياء. إذ أن الأشياء الفعلية، الأشياء فى العالم الخارجى، العالم الموضوعى – كما نعرف من الفايديون – كلها بالضرورة يعترئها النقص وعدم الثبات ولا يمكن أن تزودنا بالمحتوى الحقّ للمعرفة. وكما عرفنا من الـ *فاييون* و *السينون*، فإن الأشياء يمكن أن تهينى المناسبة للمعرفة، لكنها لا تكون أبدا مصدر المعرفة.

هكذا يقول سقراط إن الفلاسفة الأصلاء هم من يحبون مشاهدة الحقيقة، *tous tēs alētheias philotheamonas* — ليس 'الحقيقة' بمعنى ما يصدق على الواقع – هذا يشير دائما لما هو خارجى – بل ما هو حقيقى فى ذاته، ما له كينونة حقّة. نرى على الفور أن مسألة المعرفة ومسألة الحقيقة لا يمكن فصلهما عند أفلاطون، فكما يمكننا أن نتعلّم من أوليات المحاورات، العقل الفاعل هو الحقيقة الوحيدة التى يمكننا أن نسكن إليها.

عند هذه النقطة يُقدّم سقراط فكرة الصور (المفاهيم). أعتقد أن طريقة عرض الفكرة هنا – الجميل ضدّ القبيح، إذن هذان اثنان، إذن كلّ منهما واحد – هى من نسج أفلاطون عاشق الرياضيات. ليست هذه حُجّة بمعنى البرهان على حقيقة أو وجود الصور، والأكاديميون الذين يجهدون أنفسهم لإظهار ضعف هذه 'الحُجّة' وأمثالها إنما يحرثون البحر. 'الحُجّة' تؤدّى الغرض منها تماما إذ تطرح الفكرة، تقدّمها لنا هبة تثرى بها عقولنا، تعطى عقولنا مجالا جديدا وبعدا جديدا.

أولئك الذين يشغلون أنفسهم بالظواهر لا ينعمون بالبصيرة فى حقائق الأشياء (476 ب). مرّة أخرى نجد هنا ما يذكّرنا بدرس الفايديون: بقدر ما ننسحب بعيدا عن التجربة الحسّية ونسكن إلى ما يولد فى العقل يكون اقترابنا من المستويات الأعلى للمعرفة (العقل الفاعل، الفهم، التفكير العقلانى) ومن التواصل مع الحقيقة. الحقيقة عند أفلاطون رؤية، تجربة روحية، حالة كمالٍ نبلغها؛ إنها ليست ناتج عملية استنتاج منطقى نقوم بها، ليست التجريد 'الأعلى'

(الأكثر هزلا والأكثر خواءً) في سلسلة التجريدات، كما هو الحال عند أرسطو Aristotle الذي يصل في النهاية إلى إله عاطل بجزرٍ إلى ما لانهاية وجوده الأجرد، وهو أكثر خمولا من أن يموت سائما. (في 476 - د يجعل أفلاطون معرفة *gnômē* الصور المعقولة، ضدًا لـ 'معرفة' *doxa* الأشياء المحسوسة، بمثل ما يجعل المعرفة *epistēmē* في المينون ضدًا للظن *doxa*؛ لكن أفلاطون لا يستقر أبدًا على استخدام اصطلاحى ثابت.)

في 476-هـ نلقى السؤال: من يعرف، هل يعرف شيئًا أم لا شيء؟ *ho gignōskōn gignōskei ti ē ouden;* — في ست كلمات صغيرة أطلق أفلاطون صاعقة أحدثت من نوى الرعد ولهيب النار أكثر مما أحتنته كل صواعق زيوس. كان أفلاطون يريد أن يقرّر وأن يؤكد حقيقة المعقول (وددت لو نقول 'حقيقتي' بمعنى 'كونه حقيقة'). مليلى في هذا الجزء الأوسط من الجمهورية - القلب الميتافيزيقي للجمهورية فحسب، بل لكل عمل أفلاطون - يبين أن المعقول عند أفلاطون هو كل الحقيقة، وأن تلك الحقيقة تتميز جزريًا عن المحسوس والمرنى والمعطى موضوعيًا. أن يسمّى أفلاطون الحقيقي شيئًا - كما يقرّر في المحاورات الباكورة أن العدل شيء كائن - هو ضرورة لغوية. لكن أولئك الذين لا كينونة عندهم لغير المرنى والملموس وما يمكن التعامل معه جسديًا، أخذوا كون المعقول 'شيئًا' بمعنى كونه 'موجودًا' في الامتداد (المكان) الكوني، وبهذا نقضوا جوهر الحقيقي وأنشأوا المجالات والأغلاط التي ظلت محتدمة من عهد أرسطو حتى يومنا هذا. بعد ذلك يسأل سقراط: كائن أم غير كائن؟ *poteron on ē ouk on;* — يسأل ببساطة ما إذا كان ثمة معقول أم ليس ثمة معقول، ونكتفي هنا بأن نقول إن للمعقول كينونة، ولكننا فيما بعد سنجد أن المعقول وحده له كينونة حقّة وأن المحسوس لا يمكن أن يقال إنه كائن حقًا.

يقول: هـ. د. ب. لى H. D. P. Lee في مقدّمته لهذا القسم: "في الجزء الأخير من هذا القسم تتركز الحجّة حول الكلمة اليونانية *einai* (فعل الكينونة)، التي يمكن استخدامها للإشارة للوجود، أو للحقيقة، أو للصدق، مع ما يستتبعه ذلك من ألوان الغموض التي انشغل بها كثيرًا معاصرو أفلاطون ومن سبقوه" Penguin ، 1955، translated by H. D. P. Lee، (The Republic Books، p.236). في سياق فلسفة أفلاطون ينبغي ألا تشكل هذه الكلمة أي

صعوبة. عند أفلاطون تشير *to on* (الكائن) دائما إلى ما هو حقيقى والذى هو واحد مع المعقول. باستثناء الاستخدامات العادية غير الاصطلاحية للفعل – وهذه لا محيص عنها – فإن أفلاطون أبدا لا ينسب كينونة غير مشروطة لأشياء العالم المتعددة، المتحوّلة، المحسوسة، التى ليست أكثر من انعكاسات وظلال للكينونة الحقّة. وكذلك، باستثناء الاستخدام اللغوى التقليدى للفعل *einai* بمعنى 'إنه لذلك'، 'هذا صحيح'، وهذا الاستخدام لا دلالة فلسفية له، فإن أفلاطون لا يستخدم الكلمة بمعنى الصدق باعتباره توافقا مع واقع الأحوال. عند أفلاطون، *alêtheia* لا تعنى 'الصدق' كما نفهمه عامة، بل الكينونة الأصلية، الحقيقة. يعضى لى فيترجم *poteron on ê ouk on*; هكذا: "شئ موجود أم غير موجود؟" ("Something existent or non-existent?") وهذا استباق للحكم فى قضية 'وجود' الصور.

وبالمثل يقول كورنפורد Cornford فى تعليقه على هذا القسم إن الصور هى "مثل أو أنساق لها وجود حقيقى مستقل عن عقولنا" (F. M. Cornford)، الكتاب قلت إنه على الرغم من أن لغة أفلاطون كثيرا ما توحى بقوة بمثل هذا الرأى، إلا أن الوجود المستقل للصور ليس سمة ضرورية لمفهوم للصور ذى مغزى ومتفق تماما مع المفاهيم الأساسية والتوجه الأساسى لكل من سقراط وأفلاطون. حين نقول إن الصور 'توجد فى انفصال عن' الأشياء المحسوسة، فذلك توكيد بسيط للتمييز بين المحسوس والمعقول. للتغلب على الاضطراب العالق بهذه المفاهيم، أكدت فى (1998) *Let Us Philosophize* (2008) تضاد الوجود والحقيقة، كتمييز جنرى وضرورى فى التفكير الفلسفى.

يردّ جلاوكون قائلا: "كيف يمكن لما ليس كائنا أن يُعرف؟"، *pôs gar an mê on ge ti gnôsthêie*; ويريدنا أفلاطون هنا أن نأخذ كلاً من (كائن) و *gnôsthêie* (يُعرف) بالمعنى الدقيق للفظ، كما يتّضح من العبارة التالية: "ما هو كائن تماما يُعرف تماما، وما هو غير كائن لا يُعرف مطلقاً"، *to mê on de mêdamêi men pantelôs on pantelôs gnôston pantêi agnôston*. حين نتعامل فى *الديالوجات* مع المعرفة بمعنى أضعف، معرفة المحسوس، تواجهنا نفس المسألة: ما نعرفه بمعنى ما لا بدّ أن يكون

بمضى ما. لكننا هناك نتعامل مع مستوى للكينونة مختلف تماماً؛ هناك نجد أنفسنا على مستوى الاعتقاد والظن ونتعامل مع أشياء هي في منتصف الطريق بين الكينونة واللاكينونة. 'الخط المنقسم' في الباب السادس يعبر عن المبدأ برسم بياني وأمثولة الكهف في الباب السابع تمثل للمبدأ برمزية نابضة بالحياة، لكن اللب كله ما هنا: ما هو كائن تماماً قابل للمعرفة تماماً، وما هو كائن تماماً وحده قابل للمعرفة بالمعنى الكامل لكلمة المعرفة.

إذا كان من طبيعة شيء ما أن يكون ولا يكون، فهو في وضع بين الكينونة واللاكينونة. الكينونة تقابلها المعرفة؛ اللاكينونة تقابلها اللامعرفة (الجهل)؛ في مقابل ما هو بين الكينونة واللاكينونة لا بد أن تكون هناك حالة بين المعرفة والجهل (477 أ - ب). كان أفلاطون قد عبّر عن هذا الموقف في المينورن حيث أسمى هذه الحالة الوسطى الظن *doxa*. كل ما يسمّى بمعرفة المحنّد والمحسوس ليس بمعرفة حقّة، ليس بالمعرفة التي تعطينا البصيرة، إنما هو اعتقاد وظن، ليس لأنها معرفة غير مؤكدة، وإن كانت كذلك فعلاً، بل لأنها 'معرفة' لعالم من الظلال. معرفة ما هو معطى خارجياً لا يمكن أبداً أن تشعّ بضوء داخلي، بالوضوح الذاتي للحقيقة.

عند أفلاطون، المعرفة لا تُعدّ معرفة إلا حين لا تكون قابلة للخطأ (477 هـ). لماذا؟ يقول أفلاطون إن السمة المميزة للمعرفة هي أننا نستطيع أن نعطي عنها بياناً. هنا من جديد أسمع صوت أفلاطون الرياضى محاولاً أن يُخضع بصيرة حقّة للشكليات العقلانية. حقيقة الأمر أبسط وأكثر عمقا، حقيقة الأمر ما كان سقراط يعرفه جيداً؛ أن المقولة الصادقة تشعّ في ضوئها الذاتي؛ أن ما يخلقه العقل هو في ذاته حقيقة؛ أنه بالجمال يكون كل ما هو جميل جميلاً؛ أنك لا تستطيع أن تبرهن على أن شيئاً ما جميل، بل تستطيع فقط أن تراه جميلاً. لم يكن من الممكن لسقراط أن يبرهن على أن معاناة الظلم أفضل من اقرار الظلم؛ إنه عاش تلك المقولة الصادقة، وإذ عاشها عاش في الحقيقة.

المعرفة غير قابلة للخطأ، لا لأن من الممكن إثباتها أو إقامة البرهان على صحتها بوسيلة أو بأخرى؛ لا لأنها حصيلة عملية استنتاج صحيحة؛ بل لأنها في ذاتها لها وضوحها الذاتي. لا أريد هنا أن أستخدم لفظ 'بدهي' *intuitive*

لأن الكلمة مثقلة بمعان وإِعازات بعيدة عما أقصد. إنما أفضل أن أقول إن الفهم خلاق وينشئ حقيقته الذاتية.

فكرة كون عالم الصيرورة هو مجال الاعتقاد والظن فكرة رآها أفلاطون من الأهمية والجدة بحيث نجده يعمل جاهدا لتثبيت الفكرة وتفصيلها وتحديدها في فقرة مطوّلة متأنيّة تشغل صفتين كاملتين في طبعة ستيفانوس Stephanus (477 أ- 478 هـ). القول بأن العالم الموجود، مجال الواقع الفعلي، يتأرجح بين الكون واللاكون، هذا القول نجد له دعماً عارضاً حين نأخذ في الاعتبار أننا لن نجد حالة محدّدة مما هو جميل إلا ويمكن أن نراه قبيحاً، ولن نجد حالة محدّدة من العدل إلا ويمكن أن نرى فيه ظلماً، ولن نجد تقوى إلا ويمكن أن يكون فيها نصيب من اللاتقوى (479 أ). ليس بين هذه الحالات المحدّدة ما يكون بأكثر من ألا يكون ما ننسبه إليه (479 ب). هذا بالطبع ما كان سقراط يبيّنه في كل تمحيصاته الحوارية. أقول إن هذا الموقف نجد له هنا دعماً عارضاً لأن الغاية الرئيسية لهذه الفقرة هي تأكيد التمييز بين المحسوس المحدّد والفكرة المعقولة. يمكننا القول بأن التمييز السقراطي بين المحسوس والمعقول يتطوّر بين يدَي أفلاطون إلى التمييز بين الظن *doxa* والمعرفة *epistêmê*.

إن نُزج المتعدّد، المتحوّل، المحسوس إلى موضع بين الكينونة واللاكينونة *metaxu ousias te kai tou mê einai* (479 ج)، وهناك يبقى، إلى أن يعود إليه أفلاطون في *الشيائياتيوس* حين يستشعر، في مرحلة متأخرة من حياته، اهتماماً نظرياً بأشياء العالم. حين يصل أفلاطون إلى القول بأن كل أولئك الذين يشغلون أنفسهم بالأشياء الفعلية المحدّدة (وقائع الإمبريقيين المقسّمة) "تقول إنهم يظنون، لكن لا علم لهم بما هو موضع ظنهم" *doxazein* ، *gignôskein de hōn doxazousin ouden phêsomen hapanta* فإنه يعيد تأكيد الموقف الذي تبناه سقراط في فقرة 'السيرة الذاتية' من *الفاييون* حيث يقول: "خطر لى أن ألوذ بالفكر، وهناك أبحث عن حقيقة الأشياء" *edoxe dê moi chrênai eis tous logous kataphugonta* ، *en ekeinois skopein tōn ontōn tēn alētheian* (99 هـ).

إننا بدأنا بمحاولة توضيح ما نعني بالفيلسوف، وما نحن ننتهي بالقول بأن الفيلسوف هو من يحبّ (يطلب) مضمون المعرفة الحقة، أي، الحقيقة (479هـ - 480أ).

في 486-أ، فيما يشبه أن يكون قولاً عارضاً، يلقي إلينا أفلاطون بقبس من نار: يصبو الفيلسوف دوماً للكَلِّ ولما هو كَلِّ، *tou holou kai pantos*، ويتبعها بـ: يشاهد الزمان كله، والكيونة كلها *theōria* مصدر إلهام لكل فيلسوف مثالي النزعة. فالمعنى الوحيد الصالح فلسفياً للحقيقة هو الكمال. إن المسألة التي تبدأ بها مسيرة التفكير الفلسفي الحق هي: كيف يمكن لما هو غير كامل، للمحدود، للمعيّن، للمحدّد، أن يكون؟ إذ أن ما هو تامّ الكيونة وحده يبدو ذاتي المعقولة. معادلة الحقيقة والكمال هو المبدأ الأساسي لميتافيزيقا أفلاطون.

ثم، كوميض برق خاطف، يبهرننا أفلاطون بفقرة لا تزيد عن 76 كلمة ملهّمة (490 أ - ب)، تحتوي، في رأيي، جوهر كل ميتافيزيقا حقة. إنني أشرت لهذه الفقرة وعلّقت عليها أكثر من مرّة في كتاباتي. هنا سأقتبس الفقرة كاملة لكنني لن أعلق عليها عند هذه النقطة، إذ أن هذا المقال بأكمله هو تعليق على هذه الفقرة:

ألا نكون قد قدّمنا دفاعاً معقولاً < ضدّ الافتراءات على الفلسفة > حين نقول إن عاشق المعرفة، إذ هو بطبيعته تواق للتواصل مع الحقيقة *to on*، لا يستكين إلى المتعدّد الذي يُظنّ أنه كانن *epi tois doxazomenois*، بل يمضي لا يتراخي ولا يفتر عشقه، حتى يمسك بجوهر كلّ ما هو كانن *auto ho estin hekastos tēs phuseōs* بذاك في روحه الذي هو كفاء لأن يمسك بهذا - والذي هو كفاء هو المثل -، يقارب ويمتزج *plēsias kai migeis* بما له كيونة حقة *tōi ontōi*، فيُنْجِب عقلاً وحقيقة *noun kai alētheian*، وينعم بالفهم والحياة الحقة والغذاء الحقّ *gnoiē te kai alēthōs zōiē kai trephoito*، فيخلص من أوجاع المخاض، ولكن ليس قبل ذلك؟

هذه الفقرة تصوّفية النبيرة بالضرورة، فالفهم الفلسفي في أعلى مراتبه هو في جوهره تجزئة تصوّفية، إذ هو وعى مباشر بكمال الكينونة في اكتمال العقل الفاعل الخلاق. من الضروري أن نؤكد هنا على نقطتين جوهريتين. الفيلسوف يتحقّق له الفهم (1) بأن يتحد مع الحقيقة، و (2) بأن يُنشئ عقلا وحقائق جوهرية. الفهم الفلسفي ليس في أى نقطة من مساره سلبيا؛ إنه بتمامه وكماله فعل خلاق، وذلك الفعل الخلاق هو نفسه الحقيقة التي يصل الفيلسوف إلى مشاهدتها وفهمها.

حين يقول أفلاطون في 498- أ إنه حين يشير إلى أصعب جزء من الدراسة فهو يعنى *to peri tous logous* (حرفيا: ما هو حول الكلام)، فغيمّ تراه يفكر؟ المعنى العام واضح بالطبع، ومع أن المترجمين يستخدمون في هذا الموضوع عددا من الصيغ المختلفة - 'الديالكتيك'، 'dialectic'، جويت ولندسيى Jowett and Lindsay، 'المناقشات المجردة' abstract discussions، كورنفورد Cornford، 'المحااجة المجردة' abstract argument، لي Lee - فإن هذه الصيغ المتنوعة تعكس فهم ثراء الكلمة اليونانية *logos*، لا أى عدم وضوح في النصّ. ومع ذلك، فإن لنا أن نسأل، ماذا نفهم من هذا؟ على مستوى ما، لا بد أن أفلاطون كان يفكر في ظاهرة الشباب الذي ينغمس في حماس في حومة المناقشات التي كان يثيرها بعض من كبار المفكرين ويروّجها المعلمون الجوالون (السوفسطيون). ولكن لماذا تكون تلك أخطر أجزاء الدراسة؟ لأن التفكير النظري، حين لا تسانده وتضبطه مرجعية المجال الإمبريقي (كما في العلوم الموضوعية والنشاطات العملية)، لا يتطلب نصجا عقليا فحسب، بل يتطلب أيضا قوة الشخصية ونزاهة خلقية عالية حتى لا توقعه إغراءات دعواى السفسة الكاذبة، التي ما أكثر ما نجد منها في الدوريات الأكاديمية، أو المغالطات التي تخدم مصالح ذاتية، التي ما أكثر ما نجد منها في محافظنا السياسية وسانطنا الإعلامية؛ فاكساب المهارات التقنية للجدل المنطقي لا يكسب المرء مناعة ضدّ هذه الأفات.

إن شخصا يتجه بفكره صادقاً نحو الكينونة الحقّة، يشهد عالما من الحقائق الثابتة، حيث لا ظلم يُفترق أو يعانى، حيث يسود النظام والعقل؛ هو يحيا في تناغم مع تلك الحقائق ويمثلها (500 ب - ج). مرّة أخرى نرى كيف أنه لا

انفصال بين الفهم الفلسفي والحقيقة والحياة الخيرة عند أفلاطون. ومن جديد، حين يقول: ما هو بالطبيعة عادل وجميل وعقل *to phusei dikaion kai kalon kai sôphron* (501 ب)، نرى كيف أن 'الطبيعة' *phusis* عند أفلاطون، في هذا الموضع وفي كثير غيره، لا تعنى عالم الظواهر، أى الطبيعة حسب المفهوم العام، بل عالم الحقيقة التى تسمو على الزمن، أو الحقيقة المثالية.

بعد ذلك حين يتناول أفلاطون مسألة إعداد الفيلسوف لأداء عمله المهم والدراسات والممارسات التى تهينه لذلك العمل، نجد أصرح معالجة لمسألة علاقة المعرفة بالحقيقة وبالخير. وعلى هذا فالصفحات العشر الأخيرة، أو نحو ذلك، من الباب السادس (502 ج - 511 هـ) تعطينا خلاصة موقف أفلاطون من هذه المسألة الفلسفية المحورية.

كيف نوفق بين تأكيد أفلاطون أن العناصر الضرورية لتكوين طبيعة فلسفية قل أن توجد مجتمعة معا فى شخص واحد بل توجد فى معظم الأحوال متفرقة (503 ب) وقناعة سقراط بأن الفضيلة كلٌ واحد؟ فى المكان الأول، أعتقد أن نظرة أفلاطون للطبيعة البشرية تختلف كثيرا عن نظرة سقراط، بمثل ما كان التكوين المزاجى للرجلين يختلف. وفى المكان الثانى، أعتقد أن التوفيق ممكن فى هذه النقطة تحديدا إذ أن العناصر التى يقصدها أفلاطون هنا ليست كلها خلقية، بل تشمل سمات بدنية ومواهب طبيعية. لكن ليس هذا مكان معالجة هذه المسألة تفصيلا.

يقول سقراط إن علينا أن نختبر قابلية طالب الفلسفة لأعظم الدراسات، فيطرح أديمانتوس السؤال الرهيب: ماذا تقصد بأعظم الدراسات؟ (503 هـ - 504 أ). عند هذه النقطة تحديدا نصل إلى قلب المسألة الميتافيزيقية، بحيث يمكننا القول بأن صفحات ستيفانوس الثماني التالية، 504-أ-511-هـ، تشكل خلاصة كل فلسفة ميتافيزيقية.)

عند هذه النقطة يرى أفلاطون أن يشير إلى نظريته الخاصة بالتقسيم الثلاثى للروح *psuchê*. لكن النظرية لا تلعب دورا حقيقيا فى معالجة علاقة المعرفة بالحقيقة، رغم ذكر أفلاطون لها ذكرا عابرا فى هذا الموضع؛ فليس هذا المكان إذن هو الموضع الملائم للنظر فى هذه النظرية.

يتساءل أديمانتوس: هل هناك دراسة أعظم من العدل وبقية الفضائل؟ (504 د). يؤكد سقراط ببساطة وفي عبارة قاطعة أن أعظم معرفة هي صورة الخير، *hê tou agathou idea megiston mathêma* (وقد تعمدت أن ألتزم بنص أفلاطون فلم أقل "أعظم معرفة هي 'معرفة' صورة الخير"، كما يفعل المترجمون عادة، 'مصححين' صياغة أفلاطون) وأنا لا نعرفها بدرجة كافية. ويقول أيضا إننا كنا نقول هذا على الدوام (504 هـ - 505 أ). هل هذه كلمات جوفاء؟ أليس هذا ما كان سقراط في كل حواراته يمهّد الطريق إليه؟ الفضيلة كلها واحد، وهي والمعرفة شيء واحد. وحين نسأل: أي معرفة؟، يكون الجواب دائما: معرفة الخير. وحين نسأل: ولكن ما الخير؟، يكون الجواب الوحيد الذي يأتينا هو: الخير هو المعرفة. الخير هو ما تصل إليه حين تتبع الفكر الخالص من العوائق إلى موطن العقل الفاعل الخلاق. كلمات أفلاطون هنا تكون واهنة وخاوية إذا أخذناها في انفصال، ولكنها مفعمة بالمعنى إذا ما أخذناها باعتبارها قمة المسمى الديالكتيكي لمعنى الكينونة الحقّة، والخير، والعقل كجوانب لا انفصال بينها لكل واحد، لحقيقة واحدة. إذا وجدنا في هذا صدى لثالوث اللاهوت المسيحي، فليس ذلك لأنى أضفى مسحة مسيحية على فكر أفلاطون بل لأن اللاهوتيين المسيحيين كانوا من الذكاء بحيث أدركوا ما في الرؤية الأفلاطونية من خصب وثراء.

هكذا يُقال لنا إن أولئك الذين يقولون إن الخير هو الفهم *phronêsis*، لا يستطيعون أن يقولوا أي فهم ذلك، إنما يضطرون في منتهى الأمر للقول بأنه فهم الخير (508 ب). إذ يقول أفلاطون هذا فإنه يشير بوضوح للمسمى السقراطي، وأفلاطون يتسق مع جماع فكره ومنظوره حين يقرّر أننا لا ننال بصيرة تنفذ إلى الحقيقة ونلمح صورة الخير إلا في فعل الديالكتيك الحيّ.

من جديد نحسّ بلمسة تصوّفية حين يشير أفلاطون للخير بوصفه ذلك الذي تطلبه كل روح ومن أجله تفعل كل روح كل ما تفعل، تستشّف حقيقته لكنها لا تستطيع أن تدرك تماما ما هو (505 د - هـ). ربما يلزمني عند هذه النقطة أن أعمل على تفادي سوء فهم محتمل. إننى أشير للشعور التصوّفي واللغة التصوّفية في حديثي عن توجّه أفلاطون للحقيقة التصوّف المعنى هنا يتوافق تماما مع العقلانية. إننى أعتقد أن كل كائن إنسانى جدير بهذه الصفة

يعتمل فيه شعور تصوّف في بعض أوقات حياته: هو وعيٌ بحقيقة مباشرة وتسم بالكمال على نحو ما. قد يكون موضوع ذلك الشعور أو ذلك الوعي بسيطاً جداً: زهرة يراها الإنسان وكلّما لأول مرة أو مفهومها يعيه جيداً بكمال دلالاته. إنني مررت ذات مرّة في سنوات صباى بواحدة من تلك التجارب التي تترك في الروح أثراً لا يمحي أبداً إذ كنت أقرأ رواية جين/اير لـ شارلوت برونتي Charlotte Bronte's *Jane Eyre*. إذ وصلت لنهاية الجزء الأول من الكتاب، تملكني شعور مباحة فياض الحيوية بأن كل ما كان قد مرّ من قبل في الحكاية يشكل كلّاً واحداً كاملاً متكاملًا. عندئذ، لأول مرة، استوعبت مفهوم الديمومة duration كحقيقة تتجاوز الزمن a supra-temporal reality. مثل هذه التجربة تتأبى على التعبير بمعنى واحد فقط، ذلك أن مباشرة⁽³⁶⁾ immediacy الشعور لا يمكن أن تُنقل للغير، لكنّ من الممكن وصفها ومن الممكن تأويلها. إن تجربة التصوّف الديني هي من نفس هذه الطبيعة. يكمن الخطأ في تعبير المتصوّفين المتديّنين عن تجاربهم في كونهم يقدّمون تأويلاتهم في كساء من المفاهيم التقليدية للأديان التي ينتمون إليها. وهذا في حدّ ذاته لا مفرّ منه ولا عيب فيه. كلّ الشعراء يفعلون هذا. ولكن حين تستخدم تلك التأويلات لتضفي مصداقية على معتقدات ينبغي أن تعتبر أساطير، فإن ما كان شعاعاً من بصيرة مضيئة يتحوّل إلى أغلال من الخرافة.

(حين يعمل أفلاطون على أن يجعل أديمانتوس يعود مرة أخرى إلى السؤال عما إذا كان الخير هو المعرفة أم اللذة أم شيء آخر (506 ب)، فلنا أن نحس أنه يحاول أن يزيح جانباً جدلاً كان يجري في بعض الدوائر الفلسفية في ذلك الحين. إن الطريقة التي طُرح بها السؤال من قبل في 505 - ب. د تبدو أشبه بتخطيط لمحاورة ظل أفلاطون يرجنها حتى كتب الفيليبوس بعد سنوات عديدة.)

حين يضغط كل من أديمانتوس وجلاوكون على سقراط كي يقول ما الخير في رأيه، نراه يتمنع، قائلاً إنه لا يقدر حالياً أن يقول ما الخير في رأيه، إلا أنه

⁽³⁶⁾ اعتقد أننا بحاجة لهذه الصيغة على نطقها، وربما لو استطعنا أن نضفي على كلمة 'حضرة' بعداً تصوّفياً لكنت أرفى بالمعنى.

سيحدثهما عن وليد للخير يماثله كثيرا، *ekgonos te tou agathou ... kai homoiotatos ekeinōi* (506 د-ه). لم يكن في وسعه أن يفعل غير ذلك. الفلسفة الحقّة ليست جمعا من المعرفة، إنما هي أسلوب حياة، وأسمى 'معرفة' ننالها عن طريق تلك الحياة هي استتارة تتولد في ذلك المسعى ذاته ولا شيء سواه. وسوف أعود مرة أخرى لمسألة عدم قابلية الخير للبوخ في موضع لاحق من هذا الفصل حين أعالج مسألة الديالكتيك.

إنه لشيء عظيم الدلالة أن أفلاطون عند هذه النقطة (507 ب - ج)، تمهيدا للقول بما يريد أن يقول عن أسمى حقيقة يتّاح لنا أن نبلغها، يجد أن عليه أن يسترجع المفهوم الأساسي للتمييز بين الحالات الفعلية المتعدّدة لصفة ما والصورة الواحدة المعقولة لتلك الصفة — الصورة التي هي كائنة، التي لها كينونة حقّة؛ المتعدّد يُحسّ لكنه لا يُعقل، بينما الصور تعقل لكنها لا تحسّ. هذا التذكير كان ضروريا ولا غنى عنه إذ أن أسمى حقيقة متاحة لنا، التي نرزم لها بالشمس كوليدهم للخير، ليست سوى موطن ونبع مجال المعقول: العقل الفاعل، فاعلية العقل الخلاق، التي تلد كل الصور، التي لا يكون لكل الأشياء في الدنيا معنى إلا فيها ومن خلالها.

هكذا يجد سقراط أنه من غير الممكن أن يعطى بيانا محدّدا عن ماهية الخير فيقتّم أمثولة الشمس هي وليد ومثيل الخير: موقعها، في عالم المرئي، من البصر والمبصر، يماثل موقع الخير، في عالم المعقول، من العقل والمعقول. كما أن العين ترى بوضوح في ضوء النهار فقط، أما في أضواء الليل فتري رؤية معتمّة، فكذلك الروح (العقل)، حيث تسطع الحقيقة والكينونة الحقّة *alêtheia te kai to on*، تفهم وتعرف وتتمتع بالعقل، أما حين تتجّه إلى مجال الصيرورة المعتم، حيث المتحوّل والباند، فإنها تظنّ وتتذبذب ولا تتيقّن (507 ج - 508 ج). ها هنا لبّ 'الخط المنقسم' الذي نجده بعد قليل في صيغة أكثر تفصيلا وإن تكن تخطيطية. صورة الخير هي ما يضيف الحقيقة⁽³⁷⁾ على الأشياء التي تعرف ويعطى قدرة المعرفة للعارف. وإذ أنها

(37) صححت هنا خطأ في الأصل الإنجليزي انزلت إليه انسياقا وراء الترجمات الإنجليزية المعادة، حيث يترجمون *alêtheia* بكلمة truth بينما هي دائما عند أفلاطون تعنى الحقيقة لا الصنق.

مصدر المعرفة والحقيقة *aitian d' epistêmês ousan kai alêtheias* ومع كون المعرفة والحقيقة كليهما جميلين، فإنها غير هذين وتفوقهما جمالا. تماما كما أن النور والبصر مثيلان للشمس لكنهما ليسا الشمس، كذلك فإن المعرفة والحقيقة *epistêmên de kai alêtheian* هما مثيلان للخير لكنهما ليسا هما الخير، إذ أن الخير يسمو على هذين (508 هـ - 509 أ).

مرة أخرى نتبين هنا بوضوح الخمية التصوفية واللغة التصوفية، وعن حق. فصورة الخير هي مفهوم الكمال، وهو المفهوم الميتافيزيقي الوحيد الذي يصلح لتمثيل الحقيقة. أن يكون لنا مفهوم للحقيقة على المستوى الميتافيزيقي على الإطلاق يعني أن يكون لنا مفهوم لماهية الكينونة الأكثر كمالا على الإطلاق. قبل أفلاطون وبعد أفلاطون قَدَم كثير من المفكرين مفاهيم للحقيقة النهائية، للكينونة الأكثر كمالا. لكن أفلاطون هو الذى أدرك أنه - رغم أننا لا نستطيع أن نعرف الحقيقة موضوعياً - إلا أن مفهومنا للحقيقة هو الحقيقة التى نحياها وهو الذى يضىء الحقيقة على كل محتوى تجربتنا. لهذا أعتقد أنه يحق لنا أن نعتبر أفلاطون أبا الميتافيزيقا، ولكن ليس ميتافيزيقا التلاعب بالكلمات والتلاعب بالرموز الذى اهتبل له بعض المحدثين ظلما اسم الميتافيزيقا.

(حين يعود جلاوكون عند هذه النقطة فيسأل مرة أخرى إذا ما كان ذلك هو اللذة (509 أ)، فأبني أعتقد أن أفلاطون إما أن يكون أراد بذلك شيئا من الترويح للقرائ كما يأتي مؤلف التراجميديا بفاصل هزلى لذلك الغرض أو يكون قصد به السخرية من اتجاه بعض مفكرى عصره).

كما أن الشمس لا تمنح فحسب الأشياء التى ترى قابلية أن ترى، إنما هي أيضا مصدر نشونها ونمانها وغذائها، فكذلك الخير، لا يعطى العارفين قوة المعرفة فحسب، بل يمنحهم كينونتهم ذاتها، بينما هو فى ذاته يسمو على الكينونة (509 ب). من الواضح أننا هنا بجزء أساس وأصل كل كينونة. لماذا يصر أفلاطون مرارا وتكرارا على أنه يتجاوز ويسمو على كل كينونة وكل حقيقة وكل معرفة؟ لأن الحقيقة النهائية، الكينونة الكاملة، لا يمكن حصرها فى أى واقع محدود محدّد أو معادلتها بواقع محدود محدّد. سوف نعود لهذا المبدأ

الأساسى حين نتعامل مع طبيعة الديالكتيك. (هذا درس تتضمنه أيضا الـ
 پارمنيديس، درس استوعبه أفلوطين Plotinus، لكن لم يُعبره كثيرون غيره
 انتباها.)

بعد كل ما قيل حتى الآن، فإننا سنرى أن 'الخط المنقسم' ليس أكثر من
 تمثيل برسم بياني لما كان يمكن أن نتعلم من الفايون والسينون. وحين يمهد
 سقراط الطريق لتقديم التمثيل بالخط المنقسم فيسأل: "عندك الآن إذن هذان
 المفهومان، المرنى والمعقول؟" *"all' oun echeis tauta ditte eidê"*
noêton; thoraton (509 د)، ينبغى أن يكون من الواضح أن الخط
 والكهف، وأمثولة الشمس، وكل ما يقوله أفلاطون في الجزء الأوسط من
 الجمهورية الذى تناقشه هنا، هو متضمن بالفعل في التمييز السقراطى بين
 المحسوس والمعقول.

مجل 'الخط المنقسم' أن عندنا درجات مختلفة من المعرفة على مستويين.
 ولعل لا أفارق وجهة النظر الأفلاطونية كثيرا إذا صوّرت الأمر على هذا
 النحو: على مستوى عالم الظواهر، يمكن أن تكون لنا تصورات أو أوام فى
 الدرجة الأدنى، أو يمكن أن تكون لنا مدركات حسية وظنون فى الدرجة
 الأعلى. على مستوى المعقول، باستخدام الصور (المفاهيم) يمكن أن تكون لنا
 معرفة علمية عن الأشياء المحسوسة فى الدرجة الأدنى، ويمكن أن تكون لنا،
 فى الدرجة الأعلى، معرفة أكثر نقاء تتعلق بالمبادئ الأولى. يستخدم أفلاطون
 لهذه الدرجات، صعودا من الأدنى للأعلى، الألفاظ التالية:

فى مجال التصورات الحسية *eikosis*

فى مجال الأشياء الفعلية، حية وغير

حية

فى مجال مفاهيم الأشياء *dianoia*

فى مجال المفاهيم الخالصة والمبادئ *noêsis nous*

لم يتفق المترجمون على أى الكلمات الإنجليزية تستخدم فى مقابل كل من
 هذه الألفاظ، وأفلاطون نفسه ليس دائما متسقا فى استخدامه لهذه الألفاظ أو

غيرها من التعبيرات المتصلة بها. ما هو جدير بأن نلاحظه هو أن الدرجات المختلفة من 'المعرفة' تقابل وتتعامل مع درجات مختلفة من الكينونة أو الحقيقة. وعلى هذا فإن العقل لا يتواصل مع الحقيقة بمعناها الأصيل إلا في المستويات الأعلى للعقل الفاعل حين يتعامل العقل مع المفاهيم الخالصة ولا شيء سواها.

بينما (1) العلوم الموضوعية يمكن أن تكون إما (أ) وصفية، تجريبية، استقرائية، تقوم أساسا على الملاحظة والتجربة والإحصاء وما شابه ذلك، أو (ب) استنباطية، نظرية، انطلاقا من افتراضات وتعريفات، (2) يمكن للفلسفة أن تستخدم القياس التمثيلي analogy والاستنباط هامشيا، أما في مراميها الأعلى، على مستوى الديالكتيك، فإنها لا تكون إلا خلافة، أو، إذا استخدمنا تعبيراً استخدمته في موقع آخر، نبوية. لم يكن أفلاطون معنياً بـ (1، أ) التي لا يمكن أن تنتج غير معتقدات ظنية *doxa*. كون هذه 'المعرفة' هي ما نعينه الآن عادة بالعلم، وكوننا ندين لها بما نملك من سيطرة على الطبيعة، وكونها تشكل مع (1، ب) الأساس لإنجاز اتنا التكنولوجية، يجعل من الصعب علينا أن نستوعب البصيرة السقراطية - الأفلاطونية الأساسية، بأن كل هذه 'المعرفة'، بكل ما لها من منافع عملية، وربما حيوية، لا تعطينا الفهم. هذه فكرة حاولت أن أقدمها في *Let Us Philosophize* وفي غيره من كتاباتي. لكنني لن أسمح لنفسى بأن أستطرد أبعد من هذا عند هذه النقطة، خاصة وأن هذا الفصل لا يعالج نظرية أفلاطون في المعرفة، بل العلاقة بين المعرفة والحقيقة في فكر أفلاطون، خاصة في الجمهورية.

أن يكون علينا أن نحيل العلوم الطبيعية إلى منطقة الاعتقاد (الظن) *doxa*، هذا أمر يتضمنه بوضوح نبيذ سقراط للبحث في الطبيعة كما شرحه في جزء 'السيرة الذاتية' من *الفايرون* (95-102). القول بأن أفلاطون لم يُدخل العلوم الطبيعية في هذا القسم الفرعي إلا في وقت متأخر، في *الديمابوس*، كما يزعم لي Lee في الملحوظة التمهدية للـ 'الخط المنقسم' في ترجمته للجمهورية (Penguin Books، 1955، p.274)، هذا القول يشي بالفشل في استشفاف روح المنظور السقراطي-الأفلاطوني.

لن أعلق على أمثولة الكهف لأنها تمثل فحسب لما سبق. لقد كان أفلاطون محققاً إذ أتى بالأمثولة بعد العرض النظرى لتعزيز وتثبيت النقط الرئيسية فى المناقشة السابقة.

لم يكن أفلاطون ملزماً بأن يضاهاى ويوفق بين تفاصيل تصورات وأقسام كل من تشبيه الشمس، والتمثيل بالخط المنقسم، وأمثولة الكهف. تلك ثلاثة أنواع من تمثيل رمزى صادق لمفهوم أساسى واحد. لا يدعى أى منها أنه نسخة نقيقة من شىء ما أو أنه يقدم نظرية مكتملة؛ وعلى حد قول سقراط: الله وحده يعلم ما إذا كان التفسير الذى يزمع أن يقنمه يتصادف أن يكون صحيحاً، *theos de pou oiden ei alêthês ousa tunchanei* (517 ب). كل محاولات الباحثين لتقصى ومناقشة نقاط التوافق والاختلاف بين تلك التصورات الثلاثة هى جهد ضائع يحاول أن يقم على أفلاطون مقاصد أبدا لم يقصدها. كأنما تتوقع من ثلاث لفطات فوتوغرافية لنفس الشخص، أخذت من زوايا مختلفة، أن تتفق كل منها مع الأخرى فى كل التفاصيل.

فى محيط المعرفة، فإن صورة الخير هى آخر ما نرى والأصعب منالاً، ولكن حين نراها فإن العقل يبين أنها مصدر *aitia* كل ما هو صواب وكل ما هو جميل، تُلد فى مجال المرئى التور ورب النور، وفى مجال المعقول هى الربة، تمنح الحقيقة والعقل، *alêtheian kai noun paraschomenê* (517 ب - ج). ها هنا يكتمل امتزاج الإيستيمولوجى والميتافيزيقى. صورة الخير هى مبدأ المعقولة الأول وهى كمال الكينونة ونرى أن لا كينونة يمكن أن تكون معقولة إلا باعتبارها منبعثة من ذلك المصدر.

كذلك فإن قوة التعلم والقدرة على فهم كل الأشياء هما متاصلتان فى العقل، وكما لو أن العين كانت لا ترى إلا إذا استدار الجسد بكامله نحو الشىء الذى نريد أن نراه، نجد أننا إذ نتجه بكامل الروح بعيداً عن مجال الصيرورة متجهين إلى الكينونة الحققة، عند ذلك فقط يمكن لنا أن نشهد الخير (518 ج - د). المعرفة الحققة هى ارتحال لكامل الروح من عالم الصيرورة إلى عالم الحقيقة والكينونة الكاملة، التى هى الخير. وعلينا أن نتذكر أننا إذ نفعل هذا فإننا لا نتجه بالروح إلى أى شىء خارجى بل إلى حقيقة ذاتها. إن الموطن السماوى للصور فى *الفابيروس* هو خيال شعرى ورمزية تصوفية. الشعر والرمزية

لازمان لتمثيل طبقة الكينونة الروحية التي فيها، وفيها وحدها، يبلغ الكائن الإنساني أسمى كمال يتاح له أن يبلغه.

التعليم إذن هو فن توجيه الروح؛ التعليم لا يزرع النور والبصر في الروح من الخارج، بل إذ يدرك أن النور أصله في الروح، يعلم أنه لا يلزمها إلا أن توجه في الاتجاه الصحيح (518 د). وكما أن المعرفة لا تقم من الخارج في داخل العقل وإنما توجد في العقل نفسه، فكذلك الحقيقة التي نطلبها ليست شيئا غريبا عابلا هي حقيقة أصل ومنبع عالم المعقول، مبدأ العقل الفاعل ذاته. والتعليم الحق هو أن ندير كل الروح (العقل) في اتجاه الكينونة الحقة. كان سقراط قد أكد دائما أن من يعرف الخير يصبح خيرا. بالنسبة لسقراط ظل ذلك دائما مبدأ أخلاقيا. والآن يقول أفلاطون: أن نعرف الخير يعني أن نتحد بالخير. إنه ترجم المبدأ الأخلاقي إلى مبدأ ميتافيزيقي.

فيما يلي ذلك يرسم أفلاطون الخطوط العريضة لبرنامج التربية الذي يسعى لأن يستدير بالروح في اتجاه الكينونة الحقة، صورة الخير. المبدأ القائد في كل برنامج أفلاطون في التربية هو أن التعلم يجب أن يُطلب في - ويوجه إلى - ذلك الذي هو دائما كائن، *aeiontos*، لا إلى ذلك الذي يصير ويفنى (527 ب). لسنا بحاجة لأن نتبع هنا بالتفصيل برنامج الدراسات الأفلاطوني، لكن من الضروري أن نقف عند الرأس المتوج - الديالكتيك.

يُنهى كورنغورد Cornford ملحوظته التمهيدية للقسم الذي يعالج برنامج التعليم بقوله: "حين نكون قد تعلمنا كيف نفكر عن الكبير والصغير في ذاتهما، وأن نسأل عن ماهيتهما، نتعامل مع موضوعات معقولة ونكون قد تركنا الأشياء المحسوسة خلفنا" (صفحة 236). صياغة العبارة هنا يمكن أن تكون مضللة ويمكن أن تقود لتفسير خاطئ شائع لفكر أفلاطون. لا أحد استطاع أبدا أن يفكر عن الكبير في ذاته، أو الصغير، أو العدل، أو أي شيء من هذا، وأفلاطون لم يقل في أي موضع أي شيء عن أي من الصور. إنه يقول في السفاينون والجمهورية وفي غيرهما إننا في أسمى مراقى الفكر نقبل بواسطة وعن طريق ومن خلال الصور، ولكن ليس عن الصور. حين نسأل مثلا: ما الجمال في ذاته؟، كما دأب سقراط أن يفعل طوال حياته، نجد أنفسنا مضطرين لأن نتعرف

بأننا لا نستطيع أن نقول أى شيء عن الصور، وأن كل ما نعرف هو أنه بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة.

بعد تقديم الخطوط العريضة لبرنامج الدراسات، مروراً بالحساب، والهندسة، المستوية والفرغية، والفلك، والهرمونيكا، يخبرنا أفلاطون بأن كل ذلك كان مجرد مقدمة للدراسة الرئيسية؛ فأولئك الذين تمكنوا من تلك الدراسات ليسوا بعد دياكتيكين، *ou gar pou dokousi ge soi hoi tauta deinoi dialektikoi einai* (531 د). يمكننا القول بأن أولئك هم المهنيون والعلماء المتخصصون عندنا، مع قادة الإعلام والسياسيين. ما أكثر ما يغرقتنا به من الهراء حين يظنون أنفسهم مؤهلين للحكم فى مسائل الغايات النهائية وفى المبادئ الأولية!

يلق كورنغورد Cornford على مقاربة الفيثاغوريين وأفلاطون للفلك فيقول: "لم يكن هناك اعتبار لقوى فيزيقية تسبب التحركات" (صفحة 246). هل نعرف أى قوى فيزيقية تسبب تحرك الأجسام 'السماوية'؟ هل نعرف أى قوى فيزيقية على الإطلاق؟ هذا مثال للاستخدام اللغوى غير المنضبط الذى يعمل على استمرار الوهم بأن العلم يعطينا معرفة بالأسباب، ويجعل من الممكن لعلماء بارزين أن يتعلقوا بأمل أن يمكننا البحث الفيزيقي يوماً ما من أن نفهم لماذا حدثت 'الفرقعة الكبرى' Big Bang - أو أيًا ما يكون ما جعل الكون ينتشأ - غير مدركين أن غاية ما يستطيعه البحث أو التنتظير العلمى هو أن ينتج وصفاً لوضع للأمور يسبق وضعاً آخر للأمور. كل ما يستطيعونه هو أن يتذكروا أى الظلال أتى أولاً، وأيها أتى لاحقاً، وأيها أتى متزامناً، حسب تعبير أمثولة الكهف (516 ج - د)، وكما رأى هيوم Hume فى وضوح.

إذا لم يكن بمقدورهم أن 'يقدموا وأن يستقبلوا المفاهيم'، *dounai te kai apodexasthai logon*، فلن يعرفوا شيئاً مما نقول إنهم ينبغي أن يعرفوه. أن 'يقدموا وأن يستقبلوا المفاهيم'، ذلك هو الديالكتيك، لكن هذه الكلمات التى تبدو بسيطة بطريقة خذاعة هى محيط لم تُمنبر أغواره وتتطلب منا أن نغيرها كل الاهتمام.

حين نطلب الحقيقة *ho estin* (ما هو كائن) بالديالكتيك، خالصا من كل ما هو محسوس، ونثار حتى ندرك الـ خير، عندئذ نبلغ غاية العقل الفاعل (532 عب). من خلال كل هذا الغمام التصوّفي، ألا نتبين ذات سمات الحيرة *aporia* السقراطية العتيبة وذات الجهل الفلسفي، حين كان البحث عن الخير يقودنا إلى المعرفة ويقودنا البحث عن المعرفة إلى الخير، ويتكشف أن الخير والمعرفة ليسا إلا ذلك المعنى الدائب عن ذلك الشيء الواحد الذي هو الخير والمعرفة في آن واحد والذي لا نجده إلا في ذلك العقل الفاعل الذي لا يني والذي يسعى دوما لتلك الحقيقة المراوغة؟

فكرة الـ خير فينا هي اسمى مفهوم للحقيقة عندنا، وإذا كانت الكينونة الكاملة وحدها تعقل – إذ كيف يمكن لما هو غير كامل أن يحفظ ذاته، أن يأتي بذاته أو يأتي بأى شيء للكينونة؟ – عندئذ نشعر بأنه لا يمكن أن يكون مفهومنا للحقيقة النهائية إلا على مثال مفهوم الـ خير عندنا. نشعر بأنه لا يمكن لكينونة العالم ولكينونتنا نحن أن تعقل إلا في ضوء مبدأ أن الـ حقيقة النهائية لا بد أن تكون عاقلة وخيرة.

من قبل حين طلب من سقراط أن يقول ما صورة الـ خير في رايه، لجأ إلى التشبيه، والآن إذ يسأله جلاوكون أن يعطى بيانا عن الديالكتيك ومختلف أنواعه ووسائله (532 د - هـ)، يقول سقراط لجلاوكون إنه لن يستطيع أن يفهمه لأن ما يكون على سقراط أن يقدمه ليس تصويرا *eikona*، وإنما الحقيقة ذاتها *auto to alêthes*، كما تبدو له *ho ge dê moi phainetai*، ومع ذلك لن يستطيع أن يؤكد إن تكن حقا كذلك أو ليست كذلك *axion touto diischurizesthai* (533 أ). أهذا تذبذب أم تهرب أم تناقض صارخ؟ قد يكون الأمر جزئيا هذا وجزئيا ذلك ولكنه أيضا شيء فيما وراء وفوق كل ذلك. إن سقراط لا يؤكد ما إذا كان الأمر كذلك أو ليس كذلك ولكنه يؤكد أن هناك شيئا ما نشهده *all' hoti men dê toiouton ti idein* *ischuristeon* (533 أ). في اسمى مراقى العقل الفاعل، لا يمكن تكبير الحقيقة في صياغة محددة، إنما يمكن أن تكتسى تعبيراً صادقا بالرمز والأسطورة. سوف نعود لهذا فيما بعد إذ أن له أهمية قصوى.

لدينا درجات متباينة من المعرفة. (لنسمح لأنفسنا بقدر من التحرر في استخدام المصطلحات هنا). عندنا معرفة إمبريقية، تتعلق بأكملها بالأشياء المحسوسة. وعندنا معرفة نظرية – الرياضيات والعلوم الموضوعية – التي تبقى مع ذلك أدنى من مستوى الديالكتيك لأنها لا تُخضع مفاهيمها وافتراضاتها الأساسية للتساؤل؛ إنها لا تتسامى على مبادئها الأولى: إنها تستطيع أن تخضع مبادئها الأساسية للنقد، ومن أن لأن فإنها بالفعل تُخضعها للنقد، ولكنها عند ذلك تبدل هذه بأخرى تكون بالضرورة – بمقتضى ذات طبيعة العلم الموضوعي – مفترضة بغير إخضاع للتساؤل *mê dunamenai logon didonai autôn* (533 ب - ج). وعندنا بعد ذلك الديالكتيك – منهج الفلسفة – الذي هو وحده يمتضى في طريقه باجتثاث مفترضاته *tas hypotheseis anairousa*، ليستند إلى مبدأ أول آمن *ep' autên tèn archên hina bebaiôsêtai* (533 ج - د). لكن هل يستطيع أبدا أن يدعى امتلاك مثل هذا المبدأ؟ هل يعطينا أفلاطون مثل هذا المبدأ في أى صياغة مفصلة محدّدة؟ هل استطاع أى فيلسوف أبدا أن ينتج أى صياغة كهذه إلا ومزّقا غيره من الفلاسفة إربا إربا؟

يقول كورنפורد Cornford في تذييل (صفحة 254): "يبدو أن الفقرة أعلاه تصف الاستخدام الخاص للديالكتيك لنقد مقدّمات العلوم *premises* الرياضية وتوكيدها نهائيا، وهكذا 'إزالة' طبيعتها الافتراضية." إننى لا أستطيع أن أقبل هذا التأويل الممتع. الديالكتيك يدمر الافتراضات تماما، ويظهر أنها – مهما تكن صالحة لأغراضها الخاصة – فإنها زائفة من حيث أنها لا يمكن إلا أن تنطوى على تناقضات. لا مقولة محدّدة يمكن أن تخلو من التناقض. هذا فحوى ومضمون الپارمنيديس.

أن يعطى المرء بيانا عقلانيا عن مقولاته لا يتحقّق تماما إلا حين تهدم أسس المقولات تماما. الفلسفة على هذا عملية إيقاعية، تبنى الأسطورة فتهدمها – هذه عملية انبساط وانقباض نبض القلب للعقل الحى؛ إذا توقفنا عند الانقباض تكون عندنا النظرية وقد تحجرت فى خرافة؛ وإذا توقفنا عند الانبساط نكون فى حالة وجود لا حياة فيه، خاو من كل معنى وكل قيمة. الحياة الفلسفية الحقّة تتطلب أن نتلفس، وأن نتلفس يعنى أن نبني دواما لأساطير وأن ندمر دواما أساطيرنا.

حين يبلغ الفيلسوف رؤية الحقيقة، وهذه تصفها الجمهورية تماما كما تصفها المانية، بأنها رؤية لا يمكن البوح بها، فإن الفيلسوف، رجلا كان أو امرأة، لا يستطيع التعبير عن الحقيقة التي يشهدها إلا من خلال المجاز والأسطورة. المجازات والأساطير ذات قيمة من حيث إنها تعبر عن كمال الحقيقة. ولكنها تبقى مجازات وأساطير. أين إذن يكمن تفوق الفلسفة على العلوم الموضوعية؟ يكمن تفوق الفلسفة في أن الفيلسوف، مثله مثل الشاعر، يدرك ويعترف بأن أساطيره ليست إلا أساطير. لا صياغة محدّدة يمكن أن تكون نهائية: لا 'صدق' محدّدا هو أقدم من أن يُحطم ويصبح أنقاضا. قيمة الفلسفة تكمن في أنها تفسح مجالاً لفاعلية العقل الفاعل الخلاق.

يقول أفلاطون إن من لا يستطيع أن يميّز صورة الخير من كل ما عداها، وأن يدعها بالعقل، لا يمكن أن يقال إنه يعرف الخير (534 ب - د). إنني أعترف بأنني لا أستطيع أن أكون فكرة واضحة عما يمكن أن يكون أفلاطون قد أراد بهذا القول. هل كان يشير إلى بعض التدريبات الشكلية التي كانت تمارس في الأكاديمية (على افتراض أنه كان قد أسس الأكاديمية قبل كتابة الجمهورية)؟ يقال لنا إن أفلاطون أعطى محاضرة نظرية رسمية عن الخير. لو أنه قال أي شيء إيجابي في تلك المحاضرة، فلنا أن نفترض أن أرسطو كان ليعرف ذلك. لكن أرسطو، بقدر ما أستطيع أن أتبين، لا يخبرنا بشيء في هذا المجال غير ما يمكننا أن نجده في المحاورات.

ماذا يعني أفلاطون بالديالكتيك؟ — كان هذا موضوعا آخر لجدل لا ينتهي بين الباحثين؟ السبب في ذلك أنه لم يكن في نيّة أفلاطون أن يقول شيئا محدّدا عن الديالكتيك، ولا كان في مقدوره أن يفعل لو أنه أراد. ذلك أن الديالكتيك، بالنسبة لأفلاطون، كان أسماى مراقى التفكير الفلسفي: أن يحدّد معنى الديالكتيك يعني أن يحدّد معنى الفلسفة، وذلك بالضبط ما كان أفلاطون يفعل أو يحاول أن يفعل في هذا الجزء المحورى من الجمهورية، بل في المحاورات ككل. إننا لا نتجاوز الحقيقة إذا ما قلنا إن الديالكتيك الأفلاطوني هو ما عناه سبينوزا Spinoza بالفهم تحت هيئة الأزل *sub specie aeternitatis*: فإذا ما طلبنا تحديد ذلك المعنى لم نكن لنجد ذلك التحديد إلا في كتاب الأخلاق لـ سبينوزا *Spinoza's Ethics* ككل.

الفصل السابع

الخُجَّة في الجمهورية

ملاحظة تمهيدية

هذا الفصل، الذي أردته أصلا كمحاولة لفحص خُجَّة الجمهورية كمثال للطبيعة الحقَّة للخُجَّة الفلسفية، تطوّر فأصبح شيئا أشبه بأن يكون تعليقا جاريا على الجمهورية ككل، يدعم، على ما أرجو، تأويلي لأفلاطون، أو ما أسمح لنفسى بأن أدعوه صيغة الأفلاطونية التي أحاول تقديمها.

إننى أزعم (1) أن الجمهورية ليست فى المكان الأول عن أحسن مؤسمة سياسية ممكنة، بل عن أحسن حياة ممكنة للكائن الإنسانى؛ (2) أن الجمهورية لا تحتاج لإثبات أطروحة أو منظومة من الأطروحات، بل تعلن نبوتيا عن رؤية، فهذه هى الوظيفة الحقَّة لكل فلسفة أصيلة.

فى هذا الفصل وفى مواقع أخرى – خاصة فى *Let Us Philosophize* – أستخدم كلمة 'الأسطورة' بمعنى خاصّ موسّع. انظر *Let Us Philosophize*، خاصة الباب الأول، الفصل الثامن، والقسم الخاصّ بالديالكتيك فيما يلى). للتفريق بين هذا الاستخدام الخاصّ والاستخدام العادى لهذه الكلمة، خاصة فى هذا الفصل حيث يعنينا كثيرا كلا المعنيين للكلمة، كنت فى الأصل الإنجليزى قد استخدمت الكلمة اليونانية وجمعها *muthos/muthoi* عند الإشارة للأساطير اليونانية المعروفة بمعناها العادى، وكنت أستخدم اللفظ

الإنجليزي myth ومشتقاته حين أريد المعنى الخاص المقصود هنا. أما في هذه الترجمة العربية فإبني قد أقرن اللفظ العربي بالكلمة اليونانية حين أقصد المعنى العادي، تاركا للسبأق أن يبين حالات الاستخدام الاصطلاحي الخاص.

مقدمة:

المحاكاة فى الفلسفة

إن طبيعة وحدود ووظيفة المحاكاة فى الفلسفة هو موضوع يكتنفه الكثير من التشوش والكثير من الافتراضات التى لم تخضع للمساءلة، وكل هذا يلجق بالتفكير الفلسفى أضرارا خطيرة. إبني أقدم منظورا للمحاكاة الفلسفية أجده ممثلا فى المحاورات الأفلاطونية، وبصفة رئيسية فيما يمكن أن يُعد أحسن أعمال أفلاطون حجة، أى الجمهورية.

فى وقت ما كنت من الحماسة بحيث قلت أن لا دور للمحاكاة تؤديه فى الفلسفة. (انظر "Philosophy as Prophecy" فى *The Sphinx and the Phoenix*، 2009). إبني لا أتراجع عما أردت أن أقرره بقولى ذلك، لكنى أعرف أننى أخطأت إذ استخدمت كلمة المحاكاة argument بمعنى ضيق جدا، قاصدا الإثبات بالبرهان المنطقى. نادرا ما تنحصر المحاكاة فى ذلك. نحن نحاجج لننقل وجهة نظر، لتوضيح فكرة، أو لإظهار ما هو متضمن فى وجهة نظر معينة. التفلسف ينطوى على أنواع مختلفة من المحاكاة بهذا المعنى الواسع للكلمة.

من الناحية الأخرى، فإن معظم الفلاسفة المحترفين يؤكدون أن المحاكاة هى القلب النابض للفلسفة. ما كنت لأنازع فى ذلك لو أن المحاكاة أجدت بمعنى فيه سماحة ورحابة، معنى يوازى مفهوم العقلانية rationalism؛ لكنى أعتقد أن معظم من يقولون هذا القول يقولونه وفى خلفية أذهانهم البرهنة والاستدلال المنطقى بقصد الوصول إلى صدق نهائى. المحاكاة بهذا المعنى الضيق هى ما أعنى حين أقرر أن ليس للمحاكاة فى الفلسفة إلا دور هامشى، دور مساعد فحسب، بل إبني أذهب إلى حد القول بأن الاستدلال المنطقى والبرهان غريبان عن التفكير الفلسفى الأصيل.

ثمة وجهة نظر ذات قرى بذلك الموقف، أو هي تعبير مختلف عن ذات الموقف، ترى أن وظيفة الفلسفة هي إيجاد الحلول للمشاكل. وإنى أحتج على هذا التوجه أيضا. فى رأى أن الجانب الخلاق من التفلسف هو صياغة المسألة. المسألة الفلسفية تخلق كونا معنويا *a universe of discourse*، يجول فيه العقل إلى ما لا نهاية، لكن لا يمكن أبدا تجميده فى هيئة حل نهائى. والأمر كذلك لأن المسألة الفلسفية لا علاقة لها بعالم الموجودات الموضوعية حيث يمكن لنا الحصول على إجابات صادقة عن أسئلة تتعلق بالواقع. المسألة الفلسفية تتعلق بعالم المعنى حيث تكون لنا 'أساطير' فحسب، 'أساطير' تجد ضمان حقيقتها فى معقوليتها. (هذا يصدق أيضا على كل علم نظرى، ولكن، اتساقا مع إصرارى على التفرقة الجذرية بين الفلسفة والعلم فإنى أفضل أن أبقي بمنأى عن كل مناقشة علمية).

فى هذا الفصل أعتزم أن أفحص حجة الجمهورية، أو بتعبير آخر، النسق الفكرى أو الهيكله الفكرية للجمهورية، لاكتشاف الطبيعة الحققة للمحاجة الفلسفية الأصلية (وعلى أمل أن أظهر أن لغة الفقرة السابقة التى تبدو ملغزة لا تنطوى فى واقع الأمر على أى إلغاز). وإنى أعتقد أننا لو أجرينا فحصا مماثلا لأكثر أعمال أرسطو تماسكا وأكثرها دقة فى المحاجة، أو لأعمال أى من الفلاسفة المحدثين، لوصلنا لنفس النتائج التى أصل إليها فى هذه الدراسة.

وربما يحسن أن أحدد صراحة منذ البداية ما أعتزم أن أصل إليه. إننى أقرر أن كل فلسفة (أجل، أقول كل فلسفة، فمن الممكن أن تكون هناك فلسفات عديدة صالحة، بمثل ما يمكن أن يكون هناك العديد من القصائد الجيدة أو الأعمال الفنية الأصلية) — أقرر أن كل فلسفة هي محاولة خلاقة توجد مفاهيم ومثلا وروى تضفى لونا ومعنى على معطيات التجربة. الفيلسوف لا يبحث عن المعقولة فى عالم خارجى، بل يخلق معقوليته ويخلق حقيقته. العمل الفلسفى على هذا يماثل تصويرا لمنظر طبيعى أو تشكيلا فسيفسانيا له مصداقيته الجمالية. إننى أعتزم أن أبين أن محاجة الجمهورية هي من نوع هذا الإبداع الفسيفسانى، وأننا — إذا استبعدنا الحوار السقراطى فى الباب الأول، الذى لا يبرهن شيئا — فسندج أن كل برهان أو استدلال منطقى فى هذا العمل الأفلاطونى الكبير يتعلق فقط بتفاصيل هامشية أو عارضة.

إن الفلاسفة المحترفين مولعون بكلمة 'الاستدلال' وكلمة 'التعريف' (أو 'التحديد') وقد اعتادوا استخدام هاتين الكلمتين ومشتقاتهما استخداما لا يلتزم النطق. وما كنا لنجد في ذلك ضررا لو أننا اعترفنا بأننا نستخدم هذه الكلمات استخداما متحررا. ولكن حين يقترن الأمر بالاقتراض الشائع بأن غاية الفلسفة هي أن تعطينا 'معرفة صادقة'، فإننا نميل لأن نُحمّل هذه المصطلحات أكثر مما تحتمل. لهذا فإبنتى أحرص على اجتناب استخدام هذه الكلمات وأحاول أن أبين أن الاستدلال والتعريف - إذا قصدنا المعنى الدقيق للكلمتين - ليس لهما في الفكر الفلسفي إلا دور هامشي وتثوى.

دعوني أكن واضحا بشأن ما أريد أن أنكر حين أقول إن الحجّة الاستنباطية والبرهان ليس لهما إلا دور معاون وهامشي في الفلسفة. حين أقول هذا فإننى أقصد بشكل رئيسي أن أعارض أولئك الفلاسفة التحليليين Analytical philosophers الذين يريدون أن يحيلوا الفلسفة إلى فرع من الرياضيات، بنز قيماتهم وتكيميئاتهم ومعادلاتهم and notations and quantifiers equations. لكنى أريد أيضا أن أصحح افتراضا وتوكيدا تبناه معظم الفلاسفة حتى الآن، إما صراحة أو ضمنيا، دون مساءلة - افتراض أن غاية الفلسفة الوصول إلى صدق يمكن التحقق منه.

إذا ما تابعنا أى مناقشة في حياتنا الفعلية، بين طرفين أو أكثر من الأطراف، في أى مجال وعلى أى مستوى من الذكاء أو الحنق، فإننا لن نجد إلا القليل جدًا من التفيد المباشر لموقف الطرف الآخر والقليل جدًا من الإثبات المنطقي للموقف الذاتي. ما نجده في كل خطوة من المناقشة هو محاولة لجعل الموقف الذاتي لهذا الطرف أو ذاك أكثر وضوحا، وأكثر تناسقا، وأكثر احتواء للمزيد والمزيد من العوامل ذات الصلة بموضوع المناقشة. وهذا ينطبق أيضا على المناقشة الفلسفية في أحسن أحوالها. الغرض هو إعطاء منظور أشمل وأعمق - لأى شيء؟ للا شيء! لأنه ليس منظورا لشيء موضوعي، بل هو رؤية ذاتية المحتوى. وهذا هو ما نجده في الجمهورية، أو في أى عمل فلسفي جيد أو أى عمل أدبي بصفة عامة.

يرفض أفلاطون الخضوع لاستبدال الكلمات. أولئك الفلاسفة التحليليون Analytical philosophers الذين يحاؤون ضد أفلاطون بتشريح كلماته بدلا من أن يتشربوا معناه بالانفتاح على جو ما يقول وعلى منحاه العام، أولئك

يخطنون في حق أفلاطون ويخطنون في حق أنفسهم إذ يحرمون أنفسهم من إمكانية أن يفهموه. إن أولئك الفلاسفة التحليليين إذ يركزون دون مبرر على كلمات يميّونها بأن ينتزعوها من السياق الذي يمدّها بنبض الحياة، وعلى مسائل لم يطرحها أفلاطون أصلاً أو لم يعطها الكثير من الاهتمام لأنها لم تكن جوهرية لمقصده، يحرمون على أفلاطون أفكاراً غير أفكاره ثم يتباهون بتفنيد تلك الأفكار التي هي من صنعهم. وبهذا يثبتون أن أفلاطون كان له كل الحق في الاسترابة بكلّ فكر مكتوب إذ أن الكتاب لا يملك أن يدافع عن نفسه. لكي نفهم كتاباً جيداً علينا أن نأتيه بقلب سليم ونية خالصة، بينما يأتي الفلاسفة التحليليون إلى العمل الفلسفي بروح المتقاضى المصمم على كسب قضيتّه.

إنني لا أطبق ذلك التشريح الحائق لتفاصيل الحجج كما لو كانت نظريات رياضية. الحجج في عمل فلسفي لا تشيّد صرحاً منطقيّاً. إنها تنير المفاهيم، تزيل طبقات من العتمة، تضيف لمسة لون، ترسم ملامح، وكلّ هذا يكون مشهداً فكريّاً ذا قيمة جماليّة. إن خطوات الحجّة الفلسفية قد تتسم بدرجات متفاوتة من الاتساق، والدلالة، وقوة الإقناع، لكنها لا تشكل أبداً منظومة استنتاجية منطقيّة سديدة، إلا حيث تكون تكويناً شكليّاً لا حياة فيه. هكذا فإن النقد الشكلي لتفاصيل حجّة فلسفية يمكن أن يكون تمريناً ذهنيّاً شيقاً ومفيداً. لكن قيمة العمل ككل ينبغي أن يُحتكم في شأنها لمعايير رحابة وعمق وجمال الرؤية التي يقدّمها العمل. وعلى هذا فإنني لا أفحص هنا الخطوات التفصيلية لأي حجة معيّنة إلا حيث يمكن أن يكون لتلك الخطوات أثر على الصورة الكلّيّة. كما إنني لا أرى فائدة في أن أعلق على نقد الباحثين لحجج معيّنة، إذ أني أرفض من حيث المبدأ فكرة أن تكون الحجج الفلسفية قابلة للإثبات بالبرهان.

لقد أفسد الفلاسفة التحليليون الفكر الفلسفي الحديث، ليس فقط من حيث إن إصرارهم على الإثبات الاستنتاجي يعارض الطبيعة الحقّة للفلسفة، بل وأيضاً لأن جرأتهم على تشريح أي جزء من حجّة فلسفية في عزلة عن الكلّ يُفرغ أكثر الأعمال الفلسفية عمقا من كل قيمة ومن كل مغزى. إن معنى كل مقولة، بل معنى كل كلمة مفردة، في عمل فلسفي، تتحدّد في الكلّ وتتحدّد بالكلّ، ولا يمكن إدراك معناها إلا حين ترى في الكلّ.

إننا إن أزلنا من اللغة كل غموض وكل التباس في المعنى نجعلها جسما لا حياة فيه. عندئذ تصبح منظومة من الرموز المجردة التي تنتج استنتاجات تحليلية سليمة شكليا، لكنها لا تستطيع أن تنتج أو تبلغ أو تلهم فكرا أصيلا. اللغة الحية تؤدى عملها بطريقة خلاقية؛ إنها تنمى فكرا جديدا إذ تستكشف مناطقها التي تكتنفها الظلال؛ إنها تلهم أفكارا جديدة إذ تستثير إلهامات وإيعازات. اللغة لا مناص من أن يعثرها النقص. هذه نعمة. أوجه النقص في اللغة تستثير على الدوام تطوير صياغات جديدة خلاقية تبقى يوما بدورها مليمة بالنقص. بهذا وحده تتواصل حياتنا ككائنات عاقلة. الفلاسفة التحليليون يريدون أن يجعلوا منا كمبيوترات بالغة الكمال، خالية من الحياة.

ما موضوع الجمهورية؟

كل عمل لأفلاطون له أكثر من بعد ويعالج العديد من الموضوعات. من الشائع أن تعتبر الجمهورية كعمل في الفلسفة السياسية، ومما لا شك فيه أن الكتاب يحتوي الكثير من الفكر السياسي، خاصة في التحليل النفاذ للمؤسسات السياسية الكائنة آنذاك ونقدها في البابين الثامن والتاسع. ولكن على ذلك الأساس وحده ربما كان الأجدر بنا أن نقول إن كتاب الجمهورية يُعنى في المكان الأول بفلسفة التربية. إننى أفصل القول بأن الموضوع المحورى والأكثر أهمية في الجمهورية هو طبيعة الحياة الحسنة، وما تلك إلا الحياة الفلسفية.

يمكننا أن نفهم الحوار السقراطى على أنه يُظهر أن لا شئ – لا كائن مفردا ولا مفهوم واحدا – يمكن أن يفهم منفردا. وعلى هذا لا ينبغي أن يدهشنا أن نجد البحث عن معنى مفهوم العدل في الجمهورية يقودنا إلى تمحيص كل الفلسفة والحياة الفلسفية ويصل بنا إلى رؤية للأساس النهائى لكل كينونة، وكل معرفة، وكل قيمة. فكما تبين سبينوزا Spinoza، لا يمكن لشيء على الإطلاق أن يفهم حقا إلا إذا رأيناه في هيئة الأزل *sub specie aeternitatis*.

حين يبدأ شاعر نظم قصيدة فإنه لا يحدد خاتمة معينة كهدف ينبغي أن يبلغه. إنه يبدأ بانطباع معين أو شعور أو فكرة كبادرة تتوق لأن تنبت وتنفث وتتطور. هكذا الحال في كل عمل خلاق. تبدأ الجمهورية بمثال للحياة الخيرة، يرمز لها الشيخ الوقور كيفالوس. تمضى الجمهورية بعد ذلك فترسم صورة الحياة الخيرة وتصف ما يتطلبه تحقيق تلك الحياة الخيرة في الكائنات الإنسانية.

حسب قراءتى، حيث لا يُعدّ وصف المدينة النموذجية إلا - كما يقول أفلاطون صراحة - تمثيلاً على مقياس رسم كبير لما نحاول أن نتبيّنه فى الكائن الإنسانيّ الفرد - حسب تلك القراءة، ماذا تكون الخطة العامة للجمهورية؟ الباب الأول الذى يجرى على نمط الحوار المسقراطى التقليدى ينتهى بالحيرة مثل كل حوار مسقراطى. قد يكون ذلك الباب الأوّل قد كتب أصلاً كواحد من تلك الحوارات الباكّرة وقد لا يكون الأمر كذلك. على كل حال فإبه عند هذه النقطة يحدّد أفلاطون لنفسه مهمة جديدة ينجزها. إننا لا نستطيع أن نحصل على تعريف شكلى (على النمط الرياضى) للعدل *dikaionē* (الصلاح)، لكننا نستطيع أن نحصل بوسائل أخرى على بصيرة فى معنى العدل (الصلاح) وسرى بالضرورة عندئذ أنه أسمى خير للكائن الإنسانى، كما كان مسقراط يؤكد دائماً.

يحدّد أفلاطون هذه المهمة الإضافية درامياً من خلال التحدى الذى يتقدّم به كل من جلاوكون وأديمانتوس لمسقراط فى الباب الثانى.

يقترح 'سقراط' عندئذ أنه قد يساعدنا فى العثور على ما نبحث عنه أن نقيم نموذجاً على مقياس كبير حتى نستطيع أن ننظر العدل فى مدينة بدلاً من أن ننظره فى فرد. يتم التخطيط الأولى للمدينة النموذج فى البابين الثالث والرابع. فى نهاية الباب الرابع يستخدم أفلاطون مثال المدينة النموذجية ليظهر العدل فى الفرد فى هيئة التكوين السوى للروح. ثم يمضى قدما فى تطوير النموذج ليبيّن أن المدينة المثالية، إن كان لها أبداً أن تكون، ستدين بامتيازها لحكمة حاكمها الفيلسوف. وريثما يبيّن ما يعنى بالفيلسوف (فى 472- أ - 541- ب، وهذا الجزء ليس أبداً استطراداً كما يقرّر الكثير من المعلقين، بل هو قلب المشروع كله) نكون قد تبيّنا أن أعظم خير للإنسان هو الحياة الفلسفية، والحياة الفلسفية هى التواصل التصوّفى مع الـ حقيقة (صورة الـ خير)، حيث العقل الفاعل والفضيلة والكينونة الحقّة شيء واحد.

فى البابين الثامن والتاسع يتابع أفلاطون تطوير المثال ليؤكد ما كان قد وضع تماماً من قبل، ألا وهو أن الحياة الفلسفية - الحياة فى نعيم دفء شمس الـ خير - هى الأسعد والأفضل. ويتبع من ذلك بالضرورة أننا كلما بعدنا عن ذلك كنا أكثر شقاء.

يتفق كل المعلقين على أن الباب العاشر هو مجرد ملحق، يعود جزؤه الأول، لسبب أو لآخر، لتجديد الهجوم على الشعر، ويُلخص جزؤه الثاني الدرس في أسطورة *muthos*، كما في الجورجياس والفاينون. ولكن، اجتباباً لأي سوء فهم، على أن أقرّر مرة أخرى أنني لا أنكر أن يكون أفلاطون قد قصد لتعليقاته السياسية أن تكون ذات دلالة للمشهد الهيليني المعاصر.

الخُجة في جمهورية أفلاطون مدخل: البحث عن الصلاح

ليمت فاتحة الجمهورية (327 أ-331 ب)، بتفصيلاتها البديعة، مجرد حلية خارجية. إنها جزء لا يتجزأ من البناء الجمالي. الجو الاحتفالي الوداع، واللهجة الودود المرححة للمناقشة المبدئية، تؤدي بنا إلى صورة كيفالوس، الشيخ الهرم القانع، وتمثله الحكيم، بالكلمة وبالفعل، لتفوق ملذات العقل على ملذات الجسد. يقف كيفالوس شاهداً على الحياة الخيرة، ولو أنها، في حالته، ينقصها العمق الذي لا يمكن أن يأتي إلا من الفلسفة، لا يتحقق إلا في الحياة الممحصّة.

حين يستشهد كيفالوس بالشاعر بندار Pindar قائلاً: ما أعجب روعة ما يقول، *eu oun legei thaumastôs hôs sphodra* (331 أ)، فإتينا لا نلحظ أي استهجان للشعر. وكما كان لنا أن نتوقع، فإن تفرّيع أفلاطون للشعر والشعراء هو موجّه في المكان الأوّل لمحتوى الشعر الملحمي الذي كان بمثابة 'الكتاب المقدس' لعامة الناس آنذاك.

في 331 - ج يقدم سقراط الموضوع الشكلي للجمهورية حين يسأل ما إذا كان من الجائز أن نعتبر أن العدل يعني ببساطة الأمانة وأن يؤدي المرء ما هو مدين به لآخر. ولنا أن نلاحظ هامشياً، أن كيفالوس لم يفرز ذلك في الواقع كتعريف للعدل، إنما كان ذلك هو المفهوم الشائع عامّة، ويفترض سقراط أن كيفالوس يأخذه في حديثه كأمر مسلم به. ما هو أكثر أهمية نجده فيما يلحقه سقراط بسؤاله إذ يقول: أم أن التصرف بهذه الطريقة يكون أحياناً صواباً وأحياناً خطأ؟ *eniote ê kai auta tauta estin eniote men dikaiôs de adikôs poiein*; — ففي هذا السؤال نجد لبّ الحوار السقراطي بأكمله. لا شيء في محيط الفكر الإنساني يمكن أن يقال ببساطة، *haplôs*، بدون تحفظ. يمكننا دائماً أن نجد أو نخترع أو نتصوّر حالة مضادة، فالفكر المصاغ في قالب

محدّد هو دائماً – من حيث إنه محدّد – محفوف بالحوار. أن ندرك هذا يعنى أن ندرك سخف الادّعاء (المدعوم بقوة مرجعية أرسطو Aristotle) بأن سقراط كان يسعى لتعريف (تحديد) المفاهيم، أو أن استقصاءاته كانت تنتهى بتعريفات للمفاهيم. إن كل غاية ومقصد الحوار السقراطي هو أن يجعلنا نعرّف بجهلنا بأى صدق موضوعى وأن ندرك أن الشيء الوحيد المؤكّد والثابت الذى نعرفه هو فاعلية العقل الفاعل *phronêsis* وأن الحقيقة الوحيدة هى حقيقة المفاهيم التى تنشأ فى تلك الفاعلية وبفعل تلك الفاعلية. العدل هو وليد العقل؛ فى عالمنا الفعلى الواقعى هو لاجئ شريد، يُطرد من كل ملجأ يحاول أن يلوذ به. لكن وليد العقل ذاك الذى لا مكان له فى دنيا الواقع هو ما يجعل كل عدل فى الدنيا عدلاً. هذا هو تاويل مبدأ الجهل السقراطي الذى ظلت أحاول تقديمه فى كل كتاباتى والذى أمل أن أبرزه فى تعليقى المطوّل هذا على الجمهورية.

هكذا حين يقول سقراط إن الأفعال ذاتها التى نعدّها عادة صواباً قد تكون فى أوقات أخرى خطأ، فإنى أقول إن هذا يشير إلى مبدأ أساسى فى فلسفة أفلاطون، مبدأ يقوم على عنصر جوهرى فى فلسفة الحوار السقراطي. كل ما هو واقع، كل الحالات الفعلية للمثال، يشوبها العوار، وتتحوّل، تحت ظروف معيّنة، إلى ما لم تكنه. إننى أقرّر أن أفلاطون لم يكن معنياً بشكل كامل أو حتى بشكل رئيسى بنسبية وجهة نظر الشخص المعنى. إن الأمثلة التى يأتى بها سقراط هنا تعنى بوضوح أن الفعل العادل تحت ظروف معيّنة يمكن أن يصبح، إذا ما تغيّرت الظروف، غير عادل.

عدم مراعاة هذا الاعتبار بشكل نقطة ضعف فى نظرية الواجب الأخلاقى لـ Kant. إنها لا تأخذ فى حسابها أن لا حكم أخلاقياً محدّداً يمكن أن يكون ملزماً تحت كل الظروف. علينا أن نترك مجالاً للضمير الحى، فكما يؤكد كُنت نفسه، لا شيء خيّر على الإطلاق غير الإرادة الخيرة. أو كما قد يقول سقراط: العقل الفاعل *phronêsis* هو كل قيمتنا.

بعض الباحثين يبدى اهتماماً كبيراً بواقعة تاريخية معيّنة، إذ حدثت تحت الحكم الاستبدادى لزمرة الثلاثين – بعد وقت طويل من التاريخ المفترَض للمحاورة وقبل وقت طويل من تأليف الجمهورية – أن جرى إعدام بوليمارخوس وتبددت ثروة عائلة كيفالوس. يعتقد أولئك الباحثون أن أفلاطون

أراد لقراءته أن يروا ملاحظات كيفالوس في ضوء ذلك الحدث. إننى أرى هذا إغراقا من الباحثين في اعتصار كل قطرة من تبخرهم المتحلق أكثر مما أرى فيه كشفا عن نوايا أفلاطون. لنا أن نمستنج لأنفسنا ما نراه من دروس من الوقائع التاريخية، لكننى لا أعتقد أن أفلاطون أراد بالضرورة استخدام تلك الملابس التاريخية ليؤكد الحكمة الأخلاقية القائلة بأن الثراء المادى لا أمان له. فليست هذه الحكمة بعضا من التراث المبثقل لثقافات كل الشعوب فحسب، وإنما نجد أن الشعر اليونانى الملحمى والتراجيدى قد أكدها وأشبعها توكيدا. وملاحظات كيفالوس تتسق مع شخصيته، وهى فى السياق الذى تلتى فيه، معقولة ومقبولة تماما. إلا أن هذا نموذج من التبخر المتحلق الذى لا يضر وإن لم يكن كثير النفع: فلنغفروه لهم!

عندما يقول سقراط: ليس هذا إذن تعريف العدل، يعارضه پوليمارخوس قائلا: بل هو كذلك، إن كان لنا، على أى حال، أن نصتق سيمونيديس (331 د). هكذا يستطيع أفلاطون، حتى من خلال ملاحظة عارضة، أن يوحى بقضية مهمة جديرة بالنظر. فى توكيد پوليمارخوس نرى الإيمان غير الخاضع لمساءلة بالتراث المتوارث، وهذا هو الهلاك للفكر الحر. وعلى نحو أكثر تحديدا فإن السؤال فى السياق الحالى هو هذا: هل يجب أن نخضع لمرجعية ما فى مسائل الصواب والخطأ الأخلاقى؟ ربما يمثل هذا السؤال الهوة السحيقة التى تفصل بين الدين والفلسفة. فبالنسبة لمن هو مثل سقراط فإن الحكم الوحيد فى مسائل الصواب والخطأ الأخلاقى هو ذلك الرقيب الداخلى - العقل الفاعل، الفكر، *phronêsis nous* - الذى يفضله يكون الإنسان إنسانا.

فى 331-هـ يلمح سقراط لأحد عناصر الموقف الذى يتلخص فى مبدأ الجهل الفلسفى، ألا وهو عدم الكفاية المتأصلة فى كل تعبير لغوى، وبالتالي فى كل صياغة فكرية محددة. عندما يستشهد پوليمارخوس بسيمونيديس يعلق سقراط بدمائته المعهودة قائلا: "إننا لا نستطيع فى يمر أن نكذب سيمونيديس، ذلك الرجل الحكيم القدسى، أما ما يعنيه بقوله هذا، فقد تعرفه أنت يا پوليمارخوس، أما أنا فلا أعرفه." إذ يقول سقراط هذا يضع إصبعه على مشكلة كل مرجعية نصية، وهى مشكلة وجد أفلاطون من الضرورى أن يعبر عنها صراحة وتحديدا أكثر من مرة، أشهرها فى *الفايروس*، 274-ب - 278-هـ، وفى الرسالة السابعة، 341-ج - 344-أ. أى نص محدد يقبل تأويلات متباينة

ومتعارضة. هذا مصدر كل الهرطقات التي يمتلئ بها تاريخ كل دين مؤسسي، بكل ما ينطوى عليه ذلك من المآسي. الكلمات والرموز (باستثناء الرموز في النظم المخلقة بطريقة مصطنعة) لا يمكن أن تكون لها معاني محدّدة. الكلمة يكون لها معنى لكل عقل على جده، ولا يكون لها ذلك المعنى لذلك العقل إلا في كون معنى معين *a particular universe of discourse*، هو حياة ذلك العقل. واجب المناقشة الفلسفية أن تجعل كلا منا على انفراد يصل إلى اتّساق ذاتي في كون معنى خاصّ به.

المناقشة المبدئية مع پوليمارخوس (331 هـ - 336 أ) لها هدف ثلاثي. فهي، في توافق مع كل الحوارات السقراطية، (1) تكشف عن الخلط والارتباك في مفاهيمنا العامة، (2) توحى بأن الفضيلة لا يمكن أن تتفصل عن المعرفة. وبالإضافة لذلك (3) يؤكد سقراط واحدا من المبادئ الأساسية في فلسفته الأخلاقية: أنه لا يصحّ أبدا أن نوذى أحدا. في حيز صفحة واحدة (من طبعة ستيفانوس) يؤكّد سقراط هذا المبدأ صراحة المرة ثلث المرة كما يفعل في الـ *كريتون*.

المناقشة في 331 - ج - 334 - ب يقصد بها أن تتبّنها إلى عبثية أن نحاول فهم العدل - أو أي فضيلة أخرى - في حدود عناصر فعل أو شيء من خارج الفضيلة ذاتها. العدل، وكل فضيلة، لا يمكن أن يفهم إلا داخليًا ك لحظة في فاعلية العقل الفاعل *phronêsis*. يضطرّ پوليمارخوس للاعتراف: "لم أعد أعرف ما كنت أعني" *ouketi oida egôge hoti elegon* (334 ب). ثم يعود ليقرّر من جديد بأن العدل أن نصنع خيرا بالأصدقاء وأن نلحق الضرر بالأعداء، مما يتيح لسقراط أن يتناول السؤال عميق الدلالة: هل يمكن للخير، من حيث هو خير، أن يفعل الشرّ؟ وهو سؤال تراوغ فيه وتتهرب منه الديانات والفلسفات الأخلاقية العامة عندنا.

"هل يصحّ أبدا لشخص عادل أن يلحق الضرر بأى أحد؟" (335 ب)، هكذا يسأل سقراط، مُضمّرًا بالطبع القول باستحالة ذلك، فذلك مبدأ أساسي في الفلسفة الأخلاقية لسقراط. لا يتردّد پوليمارخوس في تأكيد أنه يصحّ إيذاء الأشرار والأعداء. حيث إنني في هذا الفصل معنى أساسا بنور 'البرهان' في الفلسفة، دعونا ننظر كيف 'يبرهن' سقراط خطأ زعم پوليمارخوس.

يحتاج سقراط بأن إيداء حصان أو كلب يجعله أسوأ من حيث هو حصان أو كلب — وهذا في حد ذاته افتراض فضفاض بأكثر مما ينبغي. بعد ذلك يفترض أن إيداء الكائن الإنساني يجعله أسوأ فيما يميزه ككائن إنساني. حيث إن العدل ميزة إنسانية، فإن من يتعرضون للإيداء، إذ يجعلهم ذلك أسوأ فيما يميزهم ككائنات إنسانية، فإنه يجعلهم أقل عدلا. كل أنواع التمييز الأخرى إذ تعمل على آخر تتقل لذلك الأخر ما تمتاز به، لا ما هو عكسه. لكن إن يكن من الصواب للرجل العادل أن يؤدي عدوه فيتبع من ذلك أن الرجل العادل، في ممارسته لميزته الخاصة، يجعل الأخر أسوأ في تلك الميزة ذاتها. ويستنتج سقراط من ذلك أنه ليس من عمل الرجل العادل أبدا أن يؤدي لا صديقا ولا عدوا، فذلك عمل غير العادل (335 ب - د). تلك مشاعر جميلة، جميلة وموحية بالرفعة والنبيل؛ تلك هي المبادئ التي تجعل الحياة جديرة بأن نحياها — ولكن أي نوع من 'البرهان' ذلك؟ إن شخصا يراه من الصواب أن يؤدي عدوه لن تعنيه روح عدوه على الإطلاق. وحتى لو سلمنا بفرضية أن إيداء العدو يجعله أسوأ من حيث هو كائن إنساني (وهي فرضية يمكن تحديها في يسر تام) فإن شخصا مثل ثراسيماخوس كان قمينا بأن يرد قائلا: وماذا يعينني من ذلك؟ في مواجهة ثراسيماخوس لا يستطيع سقراط إلا أن يحاجج - وهذا ما يفعله بالفعل فيما يلي - بأنه ليس من النافع للناس (بالمعايير المادية) أن يجعلوا من يحيطون بهم غير عادلين؛ وفي مواجهة هذا الاعتبار يجيء دور سقراط ليَهَيِّزَ كنفه قائلا: وماذا يعينني من ذلك؟ ليس من الممكن أبدا إقامة البرهان على أنه ليس صوابا أبدا أن نؤدي أي أحد من الممكن فقط أن نعلن هذا كمثل، مثال يتبناه فقط من يعادل امتيازَه الخاصَّ وكمالَه الخاصَّ وصحته الروحية بالخير الأخلاقي.

المحاجة في 335- ب - هـ. إذن لا تبرهن شيئا، ولم يتأخر فلاسفتنا المحترفون في إظهار ذلك. بدلا من إقامة البرهان فإن تلك المحاجة تقدم مثال الشخص الخير الذي يصنع الخير دائما ولا يؤدي أحدا أبدا. إن ثراسيماخوس، الذي كان ذلك المثال غريبا عنه، كان محقا إذ اعترض بأن كل المحاجة مع بوليمارخوس لم تكن إلا تبادلا للمجاملات المهذبة بين الشخصين المتحاورين. (في الجورجياس يتقدم كالكليس بنفس هذا الاعتراض على مناقشة سقراط مع كل من جورجياس وبولوس). لا يمكن إجراء محاجة أخلاقية ذات مغزى إلا في إطار قيم مشتركة. المحاجة عندئذ تبين أي أحكامنا تتسق أو تتنافر مع تلك القيم.

لكن لا يمكن أن يكون هناك برهان على تلك القيم في ذاتها. تلك القيم هي مثل خلافة نبتانها باعتبارها محققة لنوع الكمال الذي نختاره لأنفسنا. هذا هو السبب في أنه بينما كان من الممكن للمحاجة مع پوليمارخوس أن تنتهي بالتوافق – رغم أنها لم تنته إلى نتيجة مثبتة منطقيًا – إلا أنه لم يكن من الممكن للمحاجة مع ثراسيماخوس، مهما كانت صرامتها المنطقية، إلا أن تنتهي، على المستوى العملي، برفض متبادل. فكما يقول سقراط في الكريتون، "أولئك الذين يتفقون وأولئك الذين لا يتفقون على هذا ليس بينهم فهم مشترك، ولا يمكن إلا أن يحتقر بعضهم البعض إذ يرون اليون الشاسع الذي يفصل بينهم". *hois oun houtō alla , toutois ouk esti koinē boulē dedoktai kai hois mē horōntas ta allēlōn anagkē toutous allēlōn kataphronein bouleumata* (د 49).

تنتهي المناقشة مع پوليمارخوس بالاعتراف بأننا ما زلنا نواجه نفس سؤالنا العتيق: "ما دام أن هذا بدوره لم يظهر أنه هو العدل أو العادل، فأى شيء آخر يمكن أن نقول إنه العدل؟" *epeidē de oude touto ephanē hē ti an allo tis auto phaiē dikaiosunē on oude to dikaion einai*; (أ 336).

يتقدم ثراسيماخوس بكل ثقة برأيه القائل بأن العدل ليس إلا مصلحة الأقوى: *phēmi gar egō einai to dikaion ouk allo ti ē to tou kreittonos sumpheron* (ج 338) — وهو رأى كل 'حكماء' الدنيا منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا. إلا أنه رأى لا يحتمل التمحيص، من زاويتين. فلسفيًا، نجد فيه العيب المشترك في كل المحاولات التي ترمى لتعريف مفهوم ما بمفردات من خارج المفهوم ذاته، ولنا أن نقول هامشيًا إن هذا هو جوهر الاختزالية *reductionism* وخطؤها القاتل. كان من الممكن لسقراط أن يبين في يسر الخلل النظري في هذا التعريف، إذ أن كلا من مفهوم القوة (أو القدرة) ومفهوم المصلحة مفهوم مانع يفتح المجال لتأويلات متباينة غير متمسكة. لو أن سقراط كان يتناقش مع محاور متعاطف لكان قد اتخذ هذا الاتجاه كما فعل من قبل في نقاشه مع پوليمارخوس. وفي جوابه المباشر يتحرك سقراط بالفعل في هذا الاتجاه، وإن يكن بطريقة ساخرة، يعترض عليها ثراسيماخوس والحق معه (د 338). وعلى كل حال فإن هذا اللون من المحاجة، حتى إن اتبع بجديّة، ما كان ليجد صدى عند ثراسيماخوس. ولهذا فإن سقراط في المناقشة التالية

يتحرّك على صعيد آخر، فذلك الرأى الشاطر يمكن أن نبين أنه - حتى موضوعيًا وعلى المستوى العملي - مشحون بالتناقضات، وهذه مقولة صادقة، بسيطة، واقعية، وديوبية، يلبي أنكباء سياسيينا واقتصاديينا حتى في أيامنا هذه أن يدركوها. إلا أننا يجب ألا نرتكب خطأ اللظن بأن ذلك هو الرّد الأخلاقي على موقف ثراسيماخوس. ليس الرّد الأخلاقي أن ذلك الرأى لا يفلح، إنما الرّد الأخلاقي هو أنه حتى لو أن ذلك الرأى أفلح عمليًا لوجب مع ذلك أن نرفضه لأنه ضار أخلاقيًا. ذلك هو الرّد الذي تقّمه الجمهورية ككلّ.

في 340 - أ - ج. يحاول كليتوفون إنقاذ تعريف ثراسيماخوس بإدخال شرط أن يكون العدل هو ما يقرّره الأقوياء، ظنّين أنه لمصلحتهم، سواء كان كذلك بالفعل أم لم يكن. لو أننا قبلنا تعديل كليتوفون لكان عندنا تعريف قانوني صالح لما هو صواب. ما يقرّره القاتون هو الصواب: هذا ما تلزم أي محكمة في العادة بتطبيقه. لكن هذا لا يقترب من المسألة الأكثر حيوية، مسألة ما هو صواب وما هو غير صواب بمعنى أكثر عمقا. ربّما كان ذلك هو ما دعى أفلاطون لأن يجعل التعديل المقترح يأتي على لسان أحد الحضور الهامشيين ثم يتركه جانبًا. لكن رغم أن خطوة كليتوفون التكتيكية القانونية كان من الممكن أن تنقذ التعريف شكليًا، إلا أنها ما كان يمكن أن تعالج لا عيبه المنطقي (حيث إن كل شرط يلحق بمقولة يأتي معه بدانه في جوفه، وهو ما يلبي الفلاسفة التحليليون Analytical philosophers أن يتبينوه)، ولا مساوئه العملية. ولهذا لم يكن ثراسيماخوس مدينا بأي فضل لكليتوفون.

بدلا من أن يتبنى ثراسيماخوس الحيلة القانونية التي اقترحها كليتوفون فإنه ينتقل بالمعركة إلى مستوى أعلى. إن الرجل الأعلى وحده، الذي يعرف مصلحته، ولا يخطئ أبدا بشأن مصلحته، يستحق أن يقرّر ما هو عدل، وعلى العالم كله أن يطيعه (340 ج - 341 أ). ليس هذا مثال يهوه Jehovah الغاضب الذي يُغرق المصريين في بحر من الدم⁽³⁸⁾ أو جورج دبليو بوش⁽³⁹⁾ George W. Bush الغاضب الذي يريد أن يمحو الهوام الأفغانية والعراقية؟

⁽³⁸⁾ انظر سفر الخروج، الإصحاح السابع حتى العاشر عشر.

⁽³⁹⁾ رئيس الولايات المتحدة من 2001 حتى 2009، وقد نُشر الأصل الإنجليزي لهذا الكتاب أولا في

2005. هل بجيء وقت يحتاج فيه القارئ أن ننكره بمن كان جورج بوش؟

لا يستطيع أحد أن ينكر على ثراسيماخوس، ولا على كلبتوفون، أن يُعرّف (يحدّد) مصطلحاته كيفما شاء. يمكن للتعريف، كتعريف شكلي، أن يكون صالحاً لأغراض معيَّنة، ولكن سيُتوره ما يعتبر كل تعريف من جلة جوهرية: إذ أن التعريف سيكون بالضرورة اعتباطياً، فستثبت عدم كفايته حالما يغامر بالخروج من المساحة المحددة لصلاحيته. أما كمثال فإنه لا يمكن لا إثباته ولا نفضه بالبرهان. لا يمكن إلا أن يظهر توافقه أو عدم توافقه مع نوع الكمال الذي نختاره لأنفسنا. هذا هو بالضبط ما تحاول الجمهورية ككل أن تفعل.

المثال الأخلاقي هو تصوير للون من الكمال. إنه لا يقبل البرهان ولا يحتاج لبرهان. إنه ليس واقعا يمكن التحقق منه إمبريقياً، وليس مقولة صدق يمكن إثباتها استنتاجياً. إنه من خلق العقل الفاعل الحىّ ويأتى ساطعا فى وضوحه الذاتى. هذا هو درس البصيرة المخرافية التى نُصبر، لفرط شطارتنا، على تجاهلها: بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة.

لا يحتاج سقراط ضدّ ثراسيماخوس، ولا هو يحض مقولة ثراسيماخوس، إنما هو يقمّ مثاله الخاص فى مقابل مثال الآخر. هو يقمّ، عن طريق أمثلة من القياس التمثيلى analogy، فكرة أن التميّز، *areté*، يتحقق فى الخدمة، فى صنع الخير للآخر. فى مواجهة مثال ثراسيماخوس للقوة المنحصرة فى ذاتها، المراعية لذاتها، يقمّ سقراط مثال القوة النافعة، الفيّاضة بالجوّد. "لا معرفة تراعى مصلحة الأقوى أو تسعى إليها، بل مصلحة الأضعف الذى يخضع لحكمها" (342 ج - د). المعرفة كلها والمهارة كلها لا ترعى نفسها، بل إنها، على منوال الأم الرؤوم، ترعى ولبيها ورببيها. كل تميّز، فى نطاق هذا المثال، يؤكد، يصون، يدعّم ما هو موضوع رعايته: الكمال خلاق كله. هذه فكرة تطوّرها الجمهورية باستمرار، وتبلغ ذروتها فى صورة الخير، التى هى نبع كل كينونة، وكل حياة، وكل قيمة، وكل عقل فاعل. فى الديمقراطية، نقرأ (29 د-هـ) أن صانع الكون صنعه إذ أنه، لكونه خيراً، أراد لكل شىء أن يشارك فى خيره. كسى أفلوطين Plotinus فكر أفلاطون لغة تصوّفية وصوراً تصوّفية، لكنه لم يكن غير أمين لجوهر ذلك الفكر.

منذ بداية الحوار لم يكن ثراسيماخوس مثالا للتمائة، لكنه عند هذه النقطة يلجأ للإساءة المقدّعة (343 أ). لم يكن ثراسيماخوس ضعيف العقل ولا كان

ينقصه التعليم. لو أن سقراط كان يقدّم له البرهان على نظرية هندسية، حتى لو كانت نظرية لم يكن من قبل مقتنعا بها، لما لجأ أبداً إلى الإساءة. لماذا يفعل ذلك الآن إذن؟ في الخطاب الفلسفي – ولتسمّه تفكيراً عقلانياً reasoning إن شئت، على أن لا تجعل معنى الكلمة ضيقاً جداً – فإبنا لا نكون معنيين بإقامة البرهان بل بخلق رؤية.

إن خطاب ثراسيماخوس البليغ العاصف في 343- ب - 344- جـ يلخص افتراضات أخلاقيات العاشة في أقوى وأوضح صيغة. يعتقد ثراسيماخوس بالطبع أن سقراط يمثل التعبير المتخاذل السطحي لنفس تلك الأخلاقيات، التي يهزأ بها ثراسيماخوس وعن حق. كان من الضروري إخراج تلك الافتراضات المضمرّة إلى النور ونسفها ليحلّ محلها فهم جديد للخير، حيث القيمة والحقيقة والعقل كلّ واحد. فهدف الجمهوريّة، كما يعتبر عنه سقراط، هو تصوير كلّ مسار الحياة التي يمكن لكلّ منا أن يحيها فتكون له أصلح حياة: *hêi an diagomenos «diorizesthai holou biou diagôgên hekastos hêmôn lusitelestatên zôên zôiê»* (344 هـ).

يعلن سقراط عدم اقتناعه بخطاب ثراسيماخوس ويقول له: أقنعني. فيردّ ثراسيماخوس: إذا لم تكن قد اقتنعت بكل ما قلت، فماذا يمكنني أن أفعل بك؟ (345 ب). لا يمكن لأي حجة أن تجعلنا نبتني قيمة ما. يلزمنا أن نختير الخير، وعندئذ لا نحتاج لأي برهان لإثبات قيمته. هذا لا يناقض اقتناع سقراط على امتداد حياته بوحدة الفضيلة والعقل. ذلك أن 'المعرفة' التي هي والفضيلة شيء واحد ليست مقولة صادقة يمكن إثباتها بالحجة (كما تبين لنا الحوارات الديمقراطية بجلاء) بل هي ذلك الفهم الذي نناله حين نرى أن كينونتنا الحقّة وقيمتنا الحقّة ككائنات إنسانية لا توجد إلا في العقل الفاعل الخلاق، وإنسي إذ أضيف صفة 'الخلاق' فإني لا أعتقد أنني أتجاوز أفلاطون (ولو أنني في مواضع أخرى لا أتردّد في أن أفعل ذلك)، إذ أن صورة الخير، كما سنرى، هي في منتهى الأمر ماثلة القيمة والحياة والكيونة والعقل.

في 345- ب - 347- د يشذب أفلاطون فحسب أطراف الجوانب الشكلية من حجة ثراسيماخوس، فهذا الجزء من المناقشة لا يذهب بنا لأبعد من الموقف الذي كنا عنده قبل الخطاب العاصف لثراسيماخوس.

في 347-هـ. إذ يركز سقراط على ادعاء ثراسيماخوس بأن حياة الشخص غير العادل أفضل من حياة الشخص العادل فإنه ينتقل بالمنقشة إلى مستوى أعلى، مستوى المبادئ الأولى، إلى مثال الحياة الخيرة. نؤكد من جديد ما أكدته الجورجياس: معاناة الظلم أفضل من اقرار الظلم. هذا القول لا يمكن إقامة البرهان عليه بالحجة ولا هو بحاجة لبرهان. حالما نرى هذا المبدأ كتعبير عن قيمة شيء ما فينا يزدهر بصنع الخير وينوى بإتيان الأذى، فإنه يسطع في وضوحه الذاتي.

بعد أن يفرغ ثراسيماخوس من الإدلاء بدفاعه عن تميّز الحياة غير العادلة يقول سقراط لجلاوكون: هل ترغب في أن نقتعه، إن استطعنا، بأنه مخطئ فيما يقول؟ ولكن إن نحن بادلناه خطاباً بخطاب، فسنحتاج بعد ذلك لأن نعدّ ونزن النقاط ونحتاج حكماً يفصلون بيننا، ولكن إذا واصلنا ما كنا فيه من محاولة كلّ منّا كسب موافقة الآخر، نكون نحن المتبارين ونحن الحكّام (348 أ - ب). الهدف الحقّ للفلسفة هو منح الفهم بتقديم منظور متمق. ليس ثمة برهان نهائي. وظيفة البرهان والإثبات هي بيان صلة الجزئيات في إطار منظومة شكلية تُسَلَّم بأسسها دون مساءلة.

تعمل المناقشة في 348- أ - هـ على استبعاد الأخلاقيات التقليدية لتركز على القضية الأكثر جنرية التي يثيرها الموقف المتطرف لثراسيماخوس.⁽⁴⁰⁾

المحاجة في 349- ب- 350- جـ هي من نوع الخطاب العاطفي الذي يستخدم الحكمة التقليدية المنبئة في اللغة العامة لأي شعب من الشعوب. إنه يكون عملاً تربوياً جيداً حين تكون الافتراضات الأساسية للحكمة التقليدية محل احترام، لكن ثراسيماخوس كان قد رفض صراحة تلك الافتراضات. كان سقراط يجهد نفسه بلا طائل، إلا إذا كان لا يمتهدف ثراسيماخوس بل بقية المستمعين. لعل أفلاطون شعر بأن عليه أن يأتي هنا بهذه الفقرة، من ناحية لا اعتبارات درامية، ومن ناحية أخرى لاستكمال الهيئة الشكلية للمحاجة.

⁽⁴⁰⁾ أخشى أن هذه التلخيصات الهيكلية التي أوردتها لسير الحوار قد تنقل على القارئ ولن يجد لها معنى إلا إذا كان يقرأ الكتاب بمساعدة جمهورية أفلاطون، فله أن يتجاوزها ولا يشغل نفسه بها كثيراً.

المحااجة فى 351 - أ - 352 د تحاول أن تبين أن الظلم لا يفلح حتى بمعايير الخاصة.

فى ختام حديثه فى 352- ب - د يقول سقراط إن غرضنا هو أن نجد نوع الحياة التى ينبغى أن نحياها، *hontina tropon chrê zên*. كان ذلك هو كل رسالة حياة سقراط، وذلك هو جوهر كل جهد فلسفى.

فى 352- د - 353- جـ يريد أفلاطون أن يقدم بكل وضوح مفهوم فضيلة الشيء بمعنى التميز الخاص بذلك الشيء، وهو مفهوم أساسى فى المنظور الشامل *Weltanschauung* الذى يريد أفلاطون أن يقدمه فى كل محاورات أفلاطون، حين يقول محاور فى رده على سؤال ما، "لا أفهم ذلك"، ينبغى أن ينبهنا ذلك إلى أن أفلاطون يزعم أن يقدم فكرة جديدة أو ذات أهمية خاصة. إن فكرة فضيلة الشيء بمعنى التميز الخاص بذلك الشيء المعين كانت بالطبع فكرة راسخة فى اللغة اليونانية والفكر اليونانى، لكن استخدام سقراط الخاص للفكرة - كون العقل *phronêsis mous* هو التميز الخاص بالكائن الإنسانى - تلك كانت فكرة أصيلة وذات أهمية قصوى، وهى محورية بالنسبة للمنظور الذى يراد تقديمه، للرؤية التى يراد عرضها، فى الجمهورية. ومرة أخرى، حتى مع المخاطرة بأن يكون هذا مدعاة للملل، على أن أكرّر بأن هذه لم تكن مقولة تثبت بالحجة، بل مثالا يعلن كنبوءة.

تعتمد المحااجة فى 353 - د - 354- جـ (كما فى 608 د-612 أ) على غموض كلمة *psuchê* التى قد تؤخذ إما بمعنى المبدأ العاقل (العقل) أو بمعنى مبدأ الحياة. فالمحااجة إذن، إن أردنا الدقة، محااجة رديئة، لأنها تستغل غموض مفهوم الحياة، لكن نيتها - القول بأن الروح العادلة والإنسان العادل يحييان حياة طيبة وغير العادل يحيا حياة رديئة - هذه النتيجة ولو أنها لا تتأتى منطقياً، إلا أنها تشكل عنصراً حيوياً فى الصورة المتكاملة للحياة الخيرة التى تدعو إليها الجمهورية. لكن على أن أضيف هنا أنه ليس من الإنصاف اتهام أفلاطون بالسفسطة حين يترك محااجة غير سليمة تمر دون اعتراض. إن أفلاطون لا يقدم نتيجة ضعيفة التأسيس إلا حين يكون عنده سند جيد لتلك النتيجة، غير أن اعتبارات عملية تحول دون تقديم تلك السند بطريقة واقعية فى السياق المعنى.

وينبغي أن نَميِّز بين مثل هذه الحالة والحالات التي يعرض فيها أفلاطون حُجَّة رديئة لتحدى القدرات النقدية عند القارئ.

على امتداد نقاشه مع ثراسيماخوس، لا يفتح سقراط إلا في إظهار أن حُجَّة ثراسيماخوس لا تخلو من خلل منطقي؛ ولكن هل هناك أبدا مقولة تخلو من خلل منطقي؟ (انظر القسم الخاص بالديالكتيك فيما يلي). لا يستطيع سقراط أن يغيّر من اقتناع ثراسيماخوس، لأن ذلك الاقتناع ينبع من افتراض أن 'الخيرات' المادية هي 'الخير' الوحيد. ذلك الموقف، مثله مثل موقف سقراط، لا يمكن لا إثباته ولا نفضه بالبرهان. إنه اختيار لنوع الشخص الذي نريد أن نكونه. حين يعلن الشيطان في ملحمة ملتون⁽⁴¹⁾ Milton قائلا: "خير أن تمسود في الجحيم من أن تخدم في السماء"، فقد يكون ذلك اختيارا رديئا أو لا يكون كذلك، ولكن من حيث كونه معيارا للقيّم اختاره لنفسه، فإنه لا يتعارض والمنطق.

إن مبدأ ثراسيماخوس يحكم السياسة في عالمنا اليوم. هل هناك أمل في أن تترك البشرية يوما ما أن ما يضمن لها السلام والمعادة ليس هذا المبدأ 'الحكيم' بل مبادئ سقراط ويسوع الناصري 'الحمقاء'؟ ظل أفلاطون يخامر الأمل حتى آخر أيام حياته. أولئك منا الذين يتمسكون بالإيمان بأنه "ليس بالخيز وحده يحيا الإنسان" لا بديل أمامهم غير أن يحيوا على ذلك الأمل. إن جمهورية أفلاطون تحاول أن تبين أن ذلك الأمل، وإن لم يكن إلا حلما، فإنه أعقل الأحلام الممكنة.

على كل حال، ما كان ليليق لا بسقراط ولا بأفلاطون أن يجعلنا نعتقد أننا قد توصلنا إلى نتيجة مؤكدة. فكما يعترف سقراط في آخر فقرة من الباب الأول (354 أ - ج)، فإن المناقشة مع ثراسيماخوس كانت تسير سيرا مضطربا وكانت في الواقع سعيا بلا طائل. إذا كنا لا نعرف ما العدل (الصلاح)،⁽⁴²⁾ فكيف نعرف إن كان فضيلة أو لم يكن كذلك، أو إذا ما كان الشخص العادل

(41) 1.263. Paradise Lost-John Milton

(42) كلمة *dikaionē* التي نترجمها عادة بكلمة العدل لها في اليونانية معنى أوسع وأشمل، ولذا استخدمنا كلمة الصلاح مقابلا لها.

سعيدا أو لم يكن كذلك؟ وكما مستبين لنا/الجمهورية، فإننا لا نستطيع أن نفهم العدل إلا إذا وضعناه في منظور شامل يتسع لكل الحقيقة.

إذا كنا لا نستطيع الحصول على تعريف للعدل، فكيف لكتاب يبدأ صراحة كبحث عن معنى العدل أن يمضى قدما؟ عند ختام المناقشة في الباب الأول نجد حتى جلاوكون وأديمانتوس، مع كل ما يتصفان به من أنب وكرم، غير مقتنعين بأن سقراط قد استطاع أن يثبت صحة موقفه بالحجة المنطقية. إنهما يطلبان الاقتناع. كيف تحالول الجمهورية أن تحقّق ذلك فيما يلي؟ إنها تحاول ذلك بأن تتسج نسيجا مزدانا بأفكار جميلة ومثّل تخلق مشهدا مرضيا بالمعايير الجمالية، لا دور فيه للحجة والبرهان بالمعنى الدقيق إلا إزاحة الغموض عند نقطة ما أو ربط بعض المفاهيم في نسق معقول عند نقطة أخرى. لهذا أصير على القول بأن الفلسفة هي في منتهى الأمر وفي جوهرها نبوية. إنها لا تعطينا معرفة بشيء من خارجنا، إنما تخلق لنا كمالا نستطيع أن نجده متحققا في ذاتنا. وإني أقرّر أني إذ أقول هذا فإني متوافق مع فكرة أفلاطون عن المعرفة الأسمى المتمثلة في رسم الخط المنقسم بالقسم الأعلى من الجزء الأعلى.

النموذج

التحدّي الذي يطرحه جلاوكون في مطلع الباب الثاني يحدّد النبذة التي تسود في بقية الجمهورية. "هل تريدنا يا سقراط أن نبدو كأنما اقتنعنا أم أن نقنع حقا بأن كون المرء عادلا هو أفضل، من كل الوجوه، من كونه غير عادل؟" (357 أ). كان سقراط فيما سبق قد أوجد في مستمعيه، عن طريق الحوض والبرهان، مظهر الاقتناع، أما لكي يجعلهم يقنعون اقتناعا صادقا فقد كان عليه أن يلجأ لوسائل أخرى. فيما يلي من الجمهورية لا يوجد حوض ولا برهان. وليس هناك أيضا حوار حقيقي. كثيرا ما كان هذا موضع ملاحظة، لكن مغزاه الحقيقي لم يستوعب على ما اعتقد. حين يذكر المعلقون هذا فإنه عادة ما يُعرض على أنه عيب، أما أنا فأقرّر أنه يُظهر الطبيعة الحقة للتفكير الفلسفي. لو أراد أفلاطون ذلك لكان في مقدوره أن يحشو المحادثة بالمزيد من الأخذ والرد، والاعتراضات والدفع، ليخرج بعمل في أضعاف طول الجمهورية كما هي بين أيدينا. ولو فعل لكان ذلك قد كسى الطبيعة الحقة للعمل إبهاما ولكنه ما كان ليغيرها، ما كان ليغير حقيقة أن العمل لا يقم برهانا على مقولة أو منظومة من

المقولات، بل يعرض رؤية. دعونى أؤكد أيضا أن الرؤية هي رؤية عقلانية من حيث أن المفاهيم، التى يتكوّن منها الكلّ، متناسقة، وتكوّن كلاً معقولا. بهذا المعنى يكون العمل الفلسفى عملا عقلانيا، لا بمعنى أن نتاجه تقبل الإثبات المنطقى.

فى 357- ب - د يعمل أفلاطون بحيلة درامية على أن يجعل جلاوكون يقدم أولى المفاهيم التى يستخدمها أفلاطون فى بناء المنظور الشامل *Weltanschauung* الذى يعتزم تقديمه — ذلك هو مفهوم التمييز بين (أ) الخير كهدف فى ذاته وليس كوسيلة لشيء آخر، ومثال ذلك الفرحة الخالصة أو اللذة الخالية من الضرر، و (ب) الخير كهدف ووسيلة معا، ومثال ذلك الفكر والبصر والصحة، و (ج) الخير التام الذى لا نعدّه خيرا إلا من حيث هو وسيلة لخير آخر، ومثال ذلك المران البدنى (من المستغرب أن يونانيا يضع المران البدنى فى هذه الفئة) والتداوى والمتاجرة. يقبل سقراط هذا التمييز بدون محاجة ولا برهان. (فى 357- ج تُستخدم كلمة *eidos* ببساطة بمعنى 'نوع' أو 'فئة' لا بالمعنى الخاص لكلمة 'صورة' عند أفلاطون.)

ثم يأتى السؤال الجوهري: فى أى هذه الفئات ينبغى أن ندرج العدل، وتأتى إجابة سقراط بلا تردد: فى أحسن هذه الفئات، فئة ما هو خير فى ذاته ووسيلة لخيرات أخرى (357 د - 358 أ). هذا يحند الأذعاء الذى تسعى الجمهورية لتبريره، لا بالبرهان الهندسى على طريقة سبينوزا *Spinoza*، بل بإسكانه فى مشهد ذى معقولية ذاتية.

يوصل جلاوكون رسم المخطط العام للمشروع. يعتقد عامة الناس أن من يلتزمون العدل يلتزمونه مضطرين، إذ يرون أن مجافاة العدل أكثر فائدة للشخص غير العادل، بشرط أن يكون قادرا على الإفلات من العقاب. ويريد جلاوكون أن يتبين له أن العدل يكون الخيار الأفضل حتى لو لم تصحب العدل أى منفعة واقترنت مجافاة العدل بكل ما يعتبره الناس عامة مرغوبا فيه. حين يقول جلاوكون إنه يريد أن يتبين ما العدل فى ذاته وما الظلم فى ذاته وما فعل هذا وذاك فى الروح، *kai tina echei dunamin auto kath' hautou*، فإنه فى قوله هذا يأتى بالمبدأ الأساسى فى الموقف

الأخلاقي لسقراط الفائل بأن كل قيمة الكائن الإنساني تكمن في صحّة عقله
. *psuchê*

في 395- ج -360- ب نرى كيف أن أفلاطون لم يطوِّعه قلبه على أن يفوّت فرصة أن يحكى حكاية شيّقة، فحكاها مسهباً في مانتى كلمة في حين كان من الممكن أن يختصرها في عشر كلمات. ينبغي أن يكون هذا في ذهننا حين ننظر في معالجة أفلاطون لموضوع الشعر.

وبالفعل فلن أفلاطون لا يدعنا ننتظر طويلاً قبل أن يعلمنا بخصوصته للشعراء، وليس للشعر. إن خطاب أديماتوس الناري الذي يمتدّ على اتساع أكثر من خمس صفحات مكتظة (362 د-367 هـ) يخدم غرضاً مزدوجاً. إنه إدانة قوية واستنكار شديد 'للحكمة' العامّة (لا أجد لفظاً ملائماً يعطى كلاً من الأخلاق واللاهوت) التي كانت تتشرها بين اليونانيين 'كتبهم المقدّسة'، تماماً كما تتشر مثلها بيننا اليوم كتبنا المقدّسة على اختلافها. كما يخدم خطاب أديماتوس أيضاً غرض 'عزل' المسألة التي ستعالجها الجمهورية - مسألة: ما الحياة الخيرة؟ - بمثل ما يُعزل الفيروس من عينة معملية.

في 368- ج - 369- أ يقترح سقراط خطة للبحث. علينا أن نقدم نموذجاً على مقياس كبير قد يساعدنا على أن نتبيّن في يسر تفاصيل نوع الحياة التي نبحث عنها. بدلاً من أن نحاول أن نرى العدل (الصلاح) في شخص خيّر، فلنحاول أن نفحص العدل في مدينة خيرة. وبالطبع كان عليه أن يُلقى بالا للظروف السياسية المطلوبة لتهيئة بيئة ملائمة للحياة الخيرة، وهو يفعل ذلك على نطاق رحب، لكن هذا لا يعنى أن نعطي الترتيبات الخاصّة بالنموذج وزناً أكبر مما يطلبه أفلاطون صراحة. لعل أفلاطون أن يكون قد حلم بأنه وهو يرسم مدينته النموذج ربما يُسهم غرضاً في الفكر السياسي العملي، وهذه غلبة كانت دوماً قريبة من عقله وقلبه، لكن في إطار الجمهورية كانت المدينة العادلة في المكان الأول نموذجاً دراسياً للمساعدة على فهم الحياة الخيرة.

المدينة (أو أي مجتمع إنساني) تأتي إلى الوجود حين يجد الأفراد أنهم لا يستطيعون الوفاء بحاجاتهم بأنفسهم (369 ب). (أليست نقطة البدء التي يتخذها أفلاطون هي نفس نقطة البدء التي اتخذها هوبز *Hobbes* أيضاً؟) (قلنا 'الأفراد' - فهلنا أضفنا: أو الجماعات الصغيرة؟ كالأمر مثلاً؟ فرّما كانت

الأسرة تظهر أن الدافع للعمول المتبادل، بل ولبذل المساعدة دون طلب ودون مقابل، دافع أصيل في الكائن الحي .

هكذا أوجدنا مدينة قامت على الاحتياجات والمنافع الأولية (369 أ- 371 هـ). لم نأخذ في الاعتبار المعاملات أو العلاقات بين المواطنين. ثم نسال: أين نجد في مدينتنا العدل أو الظلم؟ مع أي من مكونات المدينة وجد العدل طريقه إليها؟ (371 هـ). لعلنا نجد هنا البذرة الأولى لمبدأ ذي أهمية قصوى: حقيقة العدل لا توجد إلا في الكل الذي فيه كينونتها. حقيقة أي فكرة خالصة لا توجد إلا في كل: الفكرة هي تعبير خلاق عن الكل. وعلى هذا فحين نمضى ببحثنا إلى مستوى أعلى ونسعى لحقيقة مفهوم للعدل أكثر ثراء وأكثر عمقا، نجد سعينا يقودنا إلى صورة الخير التي فيها تكون كل كينونة وكل حياة وكل عقل وكل قيمة كلاً واحداً.

في 371- ب - ج نسمع صوت أفلاطون الزاهد، فالفن والشعر هنا هما بعض من الترف والرفاهية. إذا كان الاعتراض الرئيسي لأفلاطون، كما سنرى، على الشعراء - وليس على الشعر - أنهم ينشرون لاهوتاً زانفاً وأخلاقياً زانفاً، إلا أنه هنا يقرب اعتراضه على الفن والشعر باعتراضه على كل بهرج غير ضروري على أساس أن ذلك يجعل شخصية المرء ليئة خرعة. إنني أشعر بأن هذا لم يكن موقف سقراط. سقراط في شخصه لم يكن يهتم كثيراً لا بالطعام ولا بالشراب ولا بالراحة البدنية، لكنه لم يكن يجد عيباً في هذه الملذات في ذاتها ولم يكن يُدين أولئك الذين كانوا يستطيعون الاستمتاع بها. (دعونا نلاحظ هنا هامشياً أن كل هذا لا علاقة له بأى حاجة أو أى إثبات لأي مقولة نظرية).

إذا كانت الحرب والحاجة للجيش تنشأ من الحياة غير السوية ولا يكون لها وجود لو أن الإنسانية كلها عاشت في جماعات سوية، كما نقرأ في 373- ب- هـ فإن 'خراس' مدينة أفلاطون لا يمكن أن يمثلوا ضرورة 'أزلية'. في مجتمع إنساني مثالي حقاً لن يكون لهم مكان. إنهم يوجدون لا لشيء إلا لأن المجتمع الإنساني فاسد في الواقع. فهيكلاً مدينة أفلاطون إن لا يمكن أن يكون تمثيلاً ملائماً للخير. لا يمكن أن ننظر فيها مفهوم العدل الخالص لأن عدلها عدل من الدرجة الثانية، تشوبه ضرورات عالم بعيد كل البعد عن الحكمة.

بالطبع لم يكن من الممكن لأفلاطون أن ينسى مشاكل ومشاكل عالمه الواقعي. لا عجب إذن في أن يتجاوز ما هو لازم لإنشاء المدينة النموذج في حدود الغرض الذي أريدت له. وهكذا فإننا إذ نجد في 374أ-هـ يدافع بجديّة عن فكرة جيش نظامي محترف لن نخطئ إن نحن حسبناه يضع نصب عينيه موقف العالم الهيليني في يومه.

التعليم في المرحلة الأولى

في 375أ - 376- د يشير أفلاطون بهوء إلى مسألة التربية، ثم، وكأنما بطريقة عارضة، يذكر ما سيصبح الموضوع الرئيسي في الجمهورية — طبيعة وتربية الشخصية الفلسفية.

يقرّر أفلاطون أن 'الحارس' ينبغي أن يكون فيلسوفاً. على أيّ أساس؟ أيّ حُجج يستخدمها دعماً لهذا الرأي؟ كفاً، في عبارة مازحة، قد مثبّتها الحارس بالكلب، والكلب لطيف نحو أولئك الذين يعرفهم وشرس نحو أولئك الذين لا يعرفهم، وإنّ فالكلب فيلسوف. أيمكن لأيّ أحد (إذا استبعدنا فلاسفتنا الأكاديميين في أيامنا هذه) أن يتصوّر أن يكون أفلاطون جاداً في تقديم حُجّته هذه؟ بالطبع لا. إنها حيلة أدبية لتقديم موضوع له مكانه في الرؤية الكلية ذاتية الموضوع. لا الموضوع المفرد ولا الرؤية الكلية في حاجة لبرهان خارجي ولا هما قابلان لبرهان خارجي.

نبدأ إذن تعليم حرّاسنا، متبعين النظام التقليديّ بفرعيه: الرياضة البدنية لصحة البدن، والموسيقى *mousikē*، إلا أن معنى الكلمة عند اليونانيين كان أوسع كثيراً مما تعنيه الكلمة عندنا، وربما كان من الممكن أن نستخدم هنا كلمة 'الثقافة' (43) (376 هـ). سيحدث أفلاطون في موضع آخر عن الموسيقى بالمعنى الأضيق وسيظهر في وظيفة الميلودي والهارموني (44) في تشكيل

(43) وهذه الكلمة العربية أيضاً لم تكن تعني عند العرب ما تعنيه عندنا. هكذا نرى أن للكلمة سيرة حياة قد تلقى فيها ما تلقى الإنسان من يمن ومن بؤس.

(44) كان لهاتين الكلمتين عند اليونانيين القمءاء معنى يختلف عما يعنيه في المصطلح الموسيقى الحديث، وفضلت استبقاء القطلين بصورتها هذه.

الروح، أما هنا فهو يتناول المضمون اللفظي المصاحب للموسيقى، وعلى الفور يقسم المحتوى إلى قسمين، الصحيح والزائف، ويكشف لنا هذا تَوْأَ عما يُقَلَقُ أفلاطون حين يقترب من موضوع الشعر. لا اعتراض لأفلاطون على حكاية الأساطير واختراع الحوادث، فنحن نجد عنده الكثير من ذلك. لكن الأسطورة حين تغذى بها الروح باعتبارها صدقاً تكون سُمًا، وحين يكون مغزى الأسطورة لا أخلاقياً، تكون فاتكة. وكان في الملاحم اليونانية كلا العيبين: كانت تؤخذ على أنها روايات صحيحة عن الآلهة والأبطال (أنصاف الآلهة) وعن أفعالهم، وكثيراً ما كانت شخصيات وأفعال أولئك الآلهة والأبطال بعيدة تماماً عن الفضيلة. وينبغي أن يقترب بنا هذا كثيراً من فهم محاربة أفلاطون لفن كان من ناحية أخرى قريباً إلى قلبه.

ستبقى حكاية الأساطير وأداء الأغاني دائماً جزءاً من منهجنا التعليمي، إلا أن هذين يجب أن يكونا من النوع الصحيح (377 ب - ج). لا يجد أفلاطون بين الأعمال الأدبية إلا أقل القليل مما لا ينبغي استيعاده. إننا قد اكتسبنا كرها شديداً لفكرة الرقابة، ومعنا كل الحق في ذلك، ولكن هل يمكننا حقاً الاستغناء تماماً عن الرقابة؟ هل يمكن أن نترك شبابتنا وأطفالنا للأثر الضارة من هذا المصدر أو ذاك؟ لم يكن خطأ أفلاطون في تأكيده للحاجة إلى الرقابة ولكن كان خطؤه في أنه عهد بتلك القوة لسلطات الدولة. لكن أفلاطون كان يتحدث عن دولة مثالية. كيف يمكن أن ننظم ممارسة الرقابة الضرورية بحيث نتجنب أو نقلل من مساوئها؟ هذه مشكلة عملية لا فلسفية ولا يمكننا أن نسعى لحلها إلا بوسائل التجربة والخطأ. ما يعنينا هنا هو أن ندرك أنه ليس من الإنصاف، ولا هو مما يتوافق مع المنظور التاريخي، أن نحتمل أفلاطون جريرة الشرور التي علمتنا تجارب أربعة وعشرين قرناً أن نتبينها في رقابة تمارسها سلطة لا تخضع للمساءلة، حتى لو كانت سلطة يقال إنها روحية أو أخلاقية. ما هو أكثر ارتباطاً بواقعنا الحالي - الحديث في وظيفة الشعر في التربية - هو أن نلاحظ أن أفلاطون لا يستبعد كل الشعر، فبعض الأساطير والحكايات لازمة لتشكيل أرواح الصغار. في هذه المرحلة لا نعطيهم أى معرفة، ولا نلقنهم أى معتقدات، بل نعطيهم نماذج وصور جميلة تغذى عقولهم. ولكن علينا أن نطرح بعيداً معظم ما لدينا الآن من الأعمال، ويعود بنا هذا لاعتراض أفلاطون على محتوى ملاحم ودراما عصره.

إن اللمحة المنفصلة الحادة التي يستخدمها 'سقراط' في إدانته للملاحم الرئيسية (377 هـ - 378) ينبغي أن تكشف لنا في وضوح عما يجعل أفلاطون يرى أن من الضروري إقصاء الشعراء وأعمالهم خارج مدينته المثالية. لكنى أعتقد أن نقد أفلاطون لكل فنون المحاكاة أمر آخر والمكان الملائم للنظر في ذلك هو حين نأتى للباب العاشر من الجمهورية.

في 378- ب نجد أفلاطون يشير للمدينة النموذج بعبارة 'مدينتنا'، ولعل هذا يشير إلى أنه بجانب دور المدينة النموذج في بناء حُجّة الجمهورية، فإن أفلاطون لم يكن في وسعه إلا أن يحلم بجعل عالمه، عالمنا هذا، عالماً أفضل، فلنا أن نعتقد عن حق أن أفلاطون لم يمتد أبداً تطلعاته السياسية. إنه نأى عن السياسة الأثينية لا باختياره بل بسطوة الظروف. لم تكن الأكاديمية تتوانى عن المساعدة كلما طلبت المدن الهيلينية ذلك. ومغامرة أفلاطون في سيراكوسة Syracuse شهيرة. وقد أمضى أفلاطون السنوات الأخيرة من حياته يرسم نموذجاً لمدينة أكثر واقعية في كتابه الأخير، *القوانين*. في هذا كان أفلاطون مختلفاً عن سقراط الذي كان معنياً باستنارة الفرد. وإني لأرجو أن يكون في كلماتي هنا ما يضع في منظور صحيح اعتراضى على اعتبار الجمهورية في المكان الأول كتاباً في السياسة. عند النظر في البعد السياسى في الجمهورية أوكد على نقطتين: (1) علينا أن نفصل بين مطلب أن يحكم الفلاسفة أو أن يتفلسف الحكام - وهو مطلب كان أفلاطون يأخذه بكل الجد - وبين الترتيبات التفصيلية لتأسيس المدينة النموذج، فبعض هذه الترتيبات ربما كان أفلاطون يؤد أن يطرحه ليؤخذ في الاعتبار بجدية، وبعضها ربما جاء لمجرد الحاجة لإعطاء شكل محدد للنموذج، بينما البعض الآخر ربما كان القصد منه إحداث صدمة واستنارة النقاش. (2) النقطة الثانية، وهي الأهم فيما أودّ تأكيد، هي ما يلي: أيّاً كان ما نرى في العنصر السياسى في الجمهورية، وأيّاً كان ما يمكن أن يكون أفلاطون قد رأى فيه، فإن ذلك لا يشكل إلا موضوعاً ثانوياً في الجمهورية. أما الموضوع الرئيسى، وهو ذو أهمية قصوى بالنسبة لنا، وبالنسبة لأفلاطون أيضاً في يقينى، فهو سمّ الحياة الفلسفية.

يجب على الشعراء أن يصوروا الله كما هو في حقيقته (379 أ). هكذا يقودنا البحث في التعليم إلى اللاهوت. ولكن من ذا يخبرنا ما هو الله حقاً؟ ليس النبى الموحى إليه ولا الشاعر وإنما الفيلسوف. وأين يجد الفيلسوف بيتنا عن

طبيعة الإله الحقّة؟ ليس فى أى مكان غير عقله ذاته. وإذن فالفيلسوف فى الواقع يصنع الله على صورته هو ذاته. ولقد كان ذلك هو الحال دائما: الشعوب خلقت آلهتها دائما، ومن آلهتهم يمكنك أن تحكم عليهم.

فى 379- ب يعطينا أفلاطون لمحة أولى من صورة الخير، وهى قلب الرؤية التى تمنحنا إياها/الجمهورية. ولنا أن نلاحظ أن ما يقال عن الله هنا – أنه خير، لا يوقع أذى، ولا يحدث ضررا – هو مواز بالضبط لما يتوقّعه سقراط فى الكريتون من الشخص الخير أو العادل (49 أ-هـ). هكذا مرّة أخرى نرى الفيلسوف يصنع الله على صورته ومثاله.

يقرّر أفلاطون أن الخير ليس سببا لكل شيء، إنما لما هو حسن فقط، وليس لما هو سيئ (379 ب-380 ج). هذا مبدأ أساسى وعنصر جوهرى فى الرؤية الكلية التى يقدّمها. ولكننا لا نصادف نظرا جادا فى مسألة مصدر الشر على المستوى الميتافيزيقى فى أعمال أفلاطون حتى نأتى إلى التيمايوس حيث نجد مبدأ الضرورة فى مواجهة مبدأ العقل. ومبدأ الضرورة ليس شرا بالضبط، لكن هذه مسألة لا يمكننا معالجتها فى السياق الحالى. فى مواضع أخرى من محاورات الفترة الوسطى تتردّد عند أفلاطون أصداء من العقيدة الأورفيّة-الفيثاغورية بأن الجسد شرّ، ولكن اهتمامه الأول فى تلك الحالات يكون تقرير رفعة وسمو حياة العقل. وعلى كل حال فإن موضوع مشكلة الشر فى فلسفة أفلاطون يستحقّ دراسة منفصلة تأخذ فى الاعتبار محاورات الفترة الثالثة وعلى الأخص الديليبيوس والتيمايوس والقوانين. ليس من الممكن أن أوفى هذا الموضوع حقّه فى السياق الحالى. أما فى نطاق المعاملات الإنسانية فإن مصدر كل خطأ أخلاقى هو، عند كل من سقراط وأفلاطون، غيبة فاعلية العقل *phronēsis*. فى الموضوع الحالى فإن غرض أفلاطون هو ببساطة أن يُظهر خطأ الشعراء حين ينسبون للآلهة الأفعال والأعمال الشريرة. لسا بحاجة لأن نقف طويلا عند الفضائع والشرور التى يقدّمها آلهة هيزيود Hesiod وهوميروس Homer، فقد يكون هذا مما يهّم الأنثروبولوجى لا الفيلسوف، إلا من حيث نتذكرنا هذه الفضائع والشرور بما يمثّلها مما لا نزال نجدّه فى كل الديانات المؤسسية – الهندوكية واليهودية والمسيحية والإسلامية على السواء.

في 380- د- 381- جـ نجد حُجّة متماسكة لمقولة إن الله (أو أي إله) يجب أن يكون بسيطاً وغير متغيّر؛ حُجّة كأحسن ما يمكن أن تكون أي حُجّة، ولكن أهي تثبت أي شيء؟ الحُجّة تقدّم ببساطة فكرة كائن كامل غير متغيّر، وكل خطوات المحااجة لا تفعل أكثر من عرض الفكرة. ثم إننا إن أخذنا مقولة إن الله بسيط وغير متغيّر على الإطلاق بجديّة وبصرامة فإننا ننتهى إما إلى واحد پارمنيديس Parmenides أو إلى مُحرّك أرسطو Aristotle العقيم غير المتحرّك، وأى هذين لا يمكن أن يفسر العالم الذي يعجّ بالحركة كما نعرفه. (انظر *Let Us Philosophize*، الباب الثاني). إننى لا أزعم أن أفلاطون كان ليقبل هذه النتيجة. ما أرمى إليه هو أن وظيفة الحُجّة في الفلسفة أن توضح وتطوّر أفكاراً خلاقة، مبرّرها الوحيد يكمن في القوّة التي تمنطينا إليها لأن نرى معطيات التجربة في كلّ ذي معقوليّة ذاتيّة. في الفصل الحالي أحاول أن أبين أن هذا يصدق على حُجّة الجمهوريّة ككلّ.

في كل المناقشة فيما هو صواب وما هو خطأ في عمل الشعراء ليست هناك أي محاولة لإثبات أي شيء بالحُجّة، إنما تؤخذ القيم والمثُل الأخلاقية كأمر مسلمّ به. في 392- أ- جـ يعترف أديمانتوس دون تردّد بأننا متفقون بالفعل على أن الحياة العادلة أفضل من الحياة غير العادلة. في الواقع أنه منذ انسحاب ثراسيماخوس من المناقشة فإن سقراط لم يعد يحتاج بل يدعو بإيجابية لطريقة حياة. لأننى أعلم أن موقفي معرّض لسوء فهم فادح، أجدنى مضطراً هنا لأن أقول إننى حين أقرّر أن الفلسفة لا تثبت نتائج بالحُجّة بل تعرض بطريقة خلاقة آراء ورؤى ومثلاً، حين أقرّر هذا فإننى لا أنكر دور النقد العقلانى. التفكير الفلسفى بعيد كل البعد عن الدوجماتيّة. أما كيف أوفق بين هذين الزعمين اللذين يبدوان متناقضين، فهذا ما لا يمكن أن نراه إلا حين نأتى لمناقشة التفكير الديالكتيكي فيما يلى. (انظر أيضاً⁽⁴⁵⁾ "Philosophy as Prophecy").

في 392- د يفتح أفلاطون موضوع المحاكاة *mimēsis*. يبدو أن أفلاطون كان – لسبب شخصى لا أستطيع أن أتبيّنه – يستشعر نفورا عميقاً من كل ألوان

(45) يجد القارئ هذا المقال فى (2009) *The Sphinx and the Phoenix* الذى أرجو أن تصدر ترجمته العربية عن المركز القومى للترجمة فى وقت غير بعيد.

المحاكاة. وهو يحمل عداه هذا للمحاكاة إلى المستوى الميتافيزيقي ويسمح له بأن يقوده إلى إدانة الفنون كلها. أعتقد أن هذا يمكن أن يكون موضوع بحث جيد لباحثي الكلاسيكيات.

في 394- د نجد المقولة التي كثيرا ما يُستشهد بها، وخرى حقا أن يُستشهد بها: حينما يقولنا الفكر *logos* وكأنه الريح، علينا أن نتبعه، *hopêi an ho tautêi iteon logos hôsper pneuma pherêi*. هذه المقولة على ما فيها من عمق ومن جمال، علينا أن نأخذها بقدر من الحيطة. إن الـ *logos* الذي يحملنا إلى حيث ما أفضى والذي علينا أن نتبعه ليس هو *logos* الحُجَّة الشكلية. إن الخطوات الشكلية لأي حاجة هي دائما خاوية ولا تحمل ثمرا. إنما هو المنطق الذاتي للمفاهيم والمبادئ التي منها ننطلق، تلك المفاهيم والمبادئ التي دائما تأتي كنبوءة نعلنها — منطقها الذاتي هو ما يقودنا إلى الثمرة التي تكمن بالفعل في البذرة. هكذا فإن الجمهورية بأكملها هي الزهرة والثمرة للفكرة السقراطية، والتي هي البذرة، فكرة أن العقل *nous* والفكر *phronêsis* هما كل قيمتنا وكل حقيقتنا وكل ما نعرف من الحقيقة.

أيًا كان رأينا في قسوة طرد أفلاطون لكل فنون المحاكاة من المدينة (395 ب-هـ)، إلا أننا لا يسعنا إلا أن نتفهم ونتعاطف مع رعبه من الأثار الضارة التي تلحق بالصغار من تمثيل الشخصيات الشريرة والأفعال الشريرة. هذه مسألة لا تحتاج لكثير من القول، فهذه مشكلة تورق كل مجتمع متحضر في عصرنا.

لنا أن نلاحظ هنا أنه في يونان العصر الكلاسيكي لم تكن هناك كلمة بذاتها لما نسميه نحن بالفن (كما تلاحظ بينلوبي مري Penelope Murray في مقممة *Plato on Poetry*, 1996). كان بناء سفينة أو بيت، أو صنع حدائين أو لجام حصان، أو تأليف قصيدة أو تراجيديا، كل ذلك كان يُدعى صنعا *poiêsis* أو صنعة أو حرفة *technê*. وكما في كل الحضارات قبل عصرنا هذا المنحل، كانت كل صنعة أو حرفة في خدمة الحياة. تماما كما أن بناء سفينة أو صنع حدائين لم يكن من الممكن تبريره إلا على أساس أنه يخدم غرضا ما، كذلك لم يكن من الممكن تبرير تأليف قصيدة إلا على أساس أن ذلك يخدم غرضا ما. هذا معقول تماما، وليست هذه نغية ولا أتباعا لمذهب المنفعة *Utilitarianism*، فأغنية فرحة خالصة هي توكيد للحياة وتخدم الحياة. ولكن ماذا تخدم الأفلام المملوءة بالعنف والمتاجرة بالجنس؟ إنها لا تخدم بل تهدم وتدمر الحياة.

كان من الواضح أن استياء أفلاطون الشديد من الديمقراطية الأثينية حيث كان كل أحد يتخَلَّ في كل أمر (379 د-هـ) قاده لأن يختار النقيض الآخر حيث لم يكن لأحد أن يتجاوز حدود دائرة اختصاصه الضيقة. إنه لم يأخذ في الاعتبار أن الشخصية الثرية المتوازنة لا بد أن تكون متعدّدة الأبعاد وأن تكون لها اهتمامات متعدّدة.

فكرة أن الشخص الخَيْر مُكْتَفٍ بذاته ولا يتأثر كثيرا بفقد صديق أو قريب فكرة نجدها بصراحة أكبر (كدت أن أقول بقسوة قلب أكبر) عند سبينوزا Spinoza، ولكن ألا يتركنا هذا بإنسانية جرداء؟ إن مبدأ الاكتفاء الذاتي *autarkeia* الرواقى Stoic لا بأس به في مكانه الصحيح، لكن الحياة الثرية هي حياة مفعمة بالاهتمام بالآخرين والاعتناء بالآخرين. إن إلها مكتفيا بذاته ومحتويا لذاته لهُو شيء تعيس.

قد يكون لنا مبرر إذا ما قلنا إن أفلاطون كان أهوج إذ ظن أننا ينبغي أن نجعل مواطننا الصالح يطابق نموذجا معيناً. ولو استطعنا أن نمحو كل رِقّة وكل ضعف من مواطنينا، أيكون ذلك بالضرورة شيئا حسنا؟ نحن وقد امتلنا الخبرة والتجارب الإنسانية لأربعة وعشرين قرناً إضافية قد نشعر بالثقة ونحن نقول إن أفلاطون كان مخطئاً، ولكن هل ترانا نجحنا بعد في أن نجد المعادلة الصحيحة؟ إن مجتمعنا الإنساني لا يزال تَوَزَّقه وتثقله في داخل كل أمة على حدة مشاكل العنف والجريمة ومشاكل المتاجرة بالجنس وإدمان المخدرات، وفيما بين الأمم الظلم والجشع والكرهية. حين نقول إن حلول أفلاطون لشورر المجتمع الإنساني لم تكن جيّدة، علينا إن أردنا الإنصاف أن نعترف بأنه كان يصارع مشكلة لا تزال تتحدّانا.

في 401-أ-402- ج نجد أماننا بالفعل بخلصة الجمهورية، رؤية الحياة الخيرة التي تبشّر بها، إذ أن الموضوع الرئيسي في الجمهورية – كما في السيمفونية الجيدة – يظهر ويترنّد مراوفاً قبل أن نلقاه أخيراً وقد اكتمل. أساس الحياة الخيرة هو التعليم الجيد. والتعليم الجيد يبدأ بامتصاص الخير مما يحيط بالروح وهي تتفتح. الجمال والخير والعقل شيء واحد، أو هي أبعاد لكمال واحد يوجد في كل ما هو كلٌّ وسوى. اللحن البديع والجسم الجميل والحكاية اللطيفة كلها تغذي الروح. وإذ تصحو الروح وتتغذى بالجمال والأفعال الحسنة، بالحب تعطيه وتعطاء، تجد داخل ذاتها صور الخير والجمال والعدل التي تضيء على

عالمها المعقولة⁽⁴⁶⁾ والتناغم والحُسن. عندئذ يصبح كل تنافر وكل أذى وكل تحمير كريها عندها. إنها نفس الرؤية ونفس المسار اللذان نجدهما في المأدبة. إن استطعنا أن نعطي مثل هذه التربية لكل البشر، ألا نكون قد أزلنا كل شرور العالم؟ أليست هذه نبوءة بأحسن معاني الكلمة؟ إنها نبوءة تسعى للجمهوريّة - لا لإثباتها بالبرهان - بل لإعلانها وتطويرها وتوضيحها وعرضها. أيًا كان ما نرى في تفاصيل تربيّات أفلاطون التعليميّة والاجتماعيّة والسياسيّة، فإن المبادئ التي تقوم عليها والرؤية التي تلهمها هي ما تشدّد حاجة إنسانيتنا العليّة إليه.

في أمثولة الكهف (وفي المأدبة وفي السفايرون) يقال لنا إننا نتعلم التعرف على الصور أولاً بأن نلقى ما يشبهها في الأشياء المحدّدة. في 402ج-ب يقال لنا إننا ما كنا لتتعرف على ظلال الحروف المنعكسة على سطح الماء أو على مرآة لو لم نكن نعرف الحروف ذاتها. هذا التناقض ظاهري فحسب؛ إنه التناقض الذي يلزم بالضرورة كل صياغة محدّدة للفكر. الصور تأتي من العقل، تنشأ في العقل، لكنها لا تنشأ إلا عندما تكون هناك مناسبة لنشوتها، عندما يكون هناك وضع معيّن يمكن لها أن تنطبق عليه. بتعبير آخر، المفهوم الكلي يأتي دائماً بمناسبة وضع معيّن، لكنه لا يوجد في الشيء المعيّن؛ لا يأتي من الشيء المعيّن.

الفقرة الجميلة في 402- أ - 403- ج نجدها من ناحية تستدعي لذاكرتنا حديث ديوتيميا في المأدبة ومن ناحية أخرى تستيق أمثولة الكهف في بداية الباب السابع. — لا عجب، ففكر أفلاطون هو سيمفونية حقّة.

قد يكون في النظام المعيشي الذي يضعه أفلاطون لحراسه (403 هـ - 404 هـ) لمسة من الزهد الفيثاغوري، لكنه في عمومه يوافق العقل ويتواءم مع الحكمة التقليديّة. ولكنّ، ألا يكون اختياراً يوافق العقل أيضاً لو أن شخصاً ما اختار متديراً أن يسمح لنفسه من حين لحين بأن ينعم ببعض الترف ليضيف للحياة شيئاً من اللون حتى لو كان ذلك بالضرورة يعني إنقاص أيامه على

(46) المعقول والمعقولة من الكلمات التي افترها ابتداءً الاستخدام الشائع، حتى أني كثيراً ما اضطرر للتلفظ في التعبير لأستعيد للمفهوم بعض قوّته. المعقول في استخدامي هو الكائن على مستوى فاعلية العقل والمعقولة هي كبنونة العقل الفاعل.

الأرض؟ على مدى حياتنا علينا أن نمارس اختيارات تتمدعي تضحيات. الشخص الحكيم هو من يكون واعيا بكل طرفي المعادلة. يكون 'الاختيار' أحمق حين يعسى عن التضحية المطلوبة، ويكون لاعقلانياً ولاأخلاقياً حين تكون التضحية المطلوبة تضحية بشيء مما يجعل الحياة جديرة بأن نحياها. لكن تضحية الشخص بحياته هو أو ببعض حياته ليست في ذاتها لاعقلانية، لأننا كائنات محدودة لا نحيا أبداً إلا بأن نموت يوماً.

الأخلاقيات الطبية لأفلاطون تقدم حلاً ناجزاً لمشاكل لا تزال تثير جدلاً لا ينتهى بين مفكرى عصرنا. يرى أفلاطون أنه إذا ما أعاق اعتلال الصحة الشخص عن أداء عمله، عندئذ لا تستحق حياة ذلك الشخص أن تحيا، ولا يكون ثمة مبرر لإطالة الحياة بالتطبيب. لست أرى عيباً فى هذا الموقف إذا ما صيغ بهذه الطريقة. إننى أعد كل حياة ذات قيمة. ولكن ما الحياة؟ الحياة فاعلية خلقة على مستوى معين من الكيونة. عندما تنتفى تلك الفاعلية الخلاقة لا يعود الفرد الإنسانى شخصاً⁽⁴⁷⁾ حقاً، وينبغى عندئذ أن يُسمح للجسد أن يمضى إلى نهايته المحتومة. إننى استخدمت كلمات 'العمل' و 'الفاعلية الخلاقة'؛ إننى استخدم هذه الكلمات بمدلول واسع. إن رجلاً هرباً طريح الفراش يستطيع أن يتبسم ويقول كلمة طيبة لمرضىته أو يحكى حنونة لحفيده يؤدى عملاً جيداً. ولكن إذا كان المريض، كبيراً كان أم صغيراً، يعاني ألماً مبرحاً، عندئذ يكون من حقه هو أن يقرر ما إذا كان لاستمرار حياته قيمة. ربّما كانت معايير الحياة ذات القيمة عند أفلاطون ضيقة، صارمة، خاضعة لقيم تقليدية لم نعد نقبلها، لكنه من حيث المبدأ كان على صواب.

إننى ينبغى أن نسمح للمواطنين الذين يعانون علة فى البدن لا شفاء لها، أن يموتوا فى سلام، أما المواطنون الذين فسدت أرواحهم فساداً لا شفاء له فينبغى أن ننهى نحن حياتهم (410 أ). هذا يثير بشكل حاسم مسألة قيمة الحياة. هل من الواجب أن نحفظ الحياة دائماً وتحت كل الظروف؟ فلاسفتنا المعاصرون

(47) 'الشخص'، هذه كلمة أخرى أقرها الاستخدام الجارى، أو ربما كتبت من الأصل قُبْرَة للمحتوى، لكننا نحتاج أن نعلمها مضموناً آخرى لتدل على البعد الذاتى للإنسان الذى فيه كل كيونته الإنسانية، فتصبح موازاة تعلماً لكلمة 'الروح'، ويكون الشخص هو الروح فى كيونة معينة.

يعتقدون أن هذا السؤال والأسئلة التي من نوعه قابلة للحل عن طريق المحاكمة المنطقية. إنهم لا يدركون أن حدود المحاكمة المنطقية لا تمتد فيما وراء المجردات المفرغة من الحياة. أما الكلمات التي لها محتوى – وإذا كان للفلمفة أن تكون ذات دلالة للحياة فيجب أن تكون كلماتها حية – فلها جنور تضرب عميقا وتمتد وتتشابك مع كل ما هو كائن.

إلى جانب المفارقات المنطقية هناك طائفة أخرى من المسائل التي لا حلول لها، وهي طائفة المسائل التي اهتبلت لنفسها – عن غير حق في اعتقادي – اسم الميتافيزيقيا. المفارقات المنطقية مسائل زائفة، مسائل خداعية، لا تبدو بحل إلا لأنها تقحم في المسألة عنصرا خديلا على المنظومة الأصلية للمفاهيم المعنية. المسائل الأخرى التي لا حلول لها، والتي ينعتها الفلاسفة التحليليون Analytical بالميتافيزيقية، هي حقا لا تقبل الحل ولسبب مختلف تماما. إنها ليست مسائل منطقية أو رياضية تعمل داخل منظومات مصطنعة مغلقة؛ في مثل هذه المنظومات المصطنعة المغلقة وحدها تصلح الرموز والمعادلات والاستدلالات البرهانية؛ إنما المسائل التي نتحدث عنها مسائل ذات مضمون تعالج كيانات تسكن عالما ذا معنى. هنا لا يمكن أن يكون هناك أي ثبات في المفاهيم وهنا لا مفر من أن تكون اللغة اعتباطية ولا تصلح إلا لغرض محدد. هنا لا يمكن لأي عبارة تحمل معنى أن تتعت بالصواب أو الخطأ، كما في حالة المنظومات الشكلية المغلقة، إنما تتعت فقط بأنها معقولة أو غير معقولة، ذات دلالة أو غير ذات دلالة. هنا المقولات المتصادمة ظاهريا لا يستبعد بعضها بعضا، بحيث إذا صحت إحداهما وجب أن تكون الأخرى خطأ، إنما هي تعبير عن وجهات نظر مختلفة. من الحماسة أن يحاجج أصحاب وجهات النظر هذه ضد بعضهم البعض. مع توفر حسن النية والعقل المنفتح يمكن لصاحب كل وجهة نظر أن يتفهم وجهة النظر الأخرى، أن يرى الأمور من موقف الآخر دون أن يتخلى عن وجهة نظره الخاصة. يصدق هذا على كل من المجالات في المسائل النظرية مثل طبيعة الصدق، والصفات *qualia*، وما إليها، وعلى المناظرات حول القضايا العملية في مجالات الأخلاقيات الحيوية *bioethics*، والتشريع والتعليم، وما إليها.

على امتداد مناقشة التعليم في البابين الثاني والثالث، تشير كلمة *psuchê* (الروح) لشخصية الشخص ككل، وربما كان الأحسن أن نستخدم لهذا كلمة

'العقل'. ومن الواضح من المناقشة كلها أن اهتمام أفلاطون ينصب على الحصول على شخصية متوازنة سوية، تحقق حياة تليق بكانن عاقل. المدينة التي يعتزم تكوينها هي أمثلة تمثل الكائن الإنساني المتوازن. عند وضع النظام الأساسي لمدينته، فات أفلاطون أن يلحظ، أو هو لم يهتم بأن يلحظ أن الغالبية العظمى من مواطني مدينته النموذج ينقصهم ما هو معنى تمامًا بأن يحققه. فياستثناء من هم في أعلى شريحة، كل الآخرين شخصيات مشرذمة. لهذا فإنني أميل للاعتقاد بأن المدينة التي يقمها أفلاطون في الجمهورية لم تكن أكثر من 'ماكيت' للدراسة.

لكن من الممكن أن يتساءل البعض: إذا كانت المدينة المثالية ليست أكثر من 'ماكيت' للعدل على مقياس كبير، فلماذا يمضي أفلاطون لهذا الحد البعيد في التفصيل وفي التحقيق في صياغة القواعد والمعايير لاختيار الحراس والحكام وغير ذلك؟ الإجابة ذات شقين. في المكان الأول فإن أفلاطون الشاعر لا يطاوعه قلبه في أن يهمل في وضع اللمسات الأخيرة في هيكله قصة جيدة. وفي المكان الثاني، فإن أفلاطون، الذي لم يفقد أبدا اهتمامه بالسياسة، لم يكن ليضيع فرصة أن يزرع في الحكاية التخيلية آراء وانتقادات واقتراحات يمكن أن تكون ذات قيمة عملية. مثلا، من الواضح أن أفلاطون في الفقرة 424 - هـ - 427-أ كلها قد نسي المدينة النموذج وكان يفكر في العلل الفعلية التي كانت تعترى المدن اليونانية في عصره، ولنا أن نفترض أن أثينا كانت تحتل المكان الأول في كل ذلك. لكن هذا لا يبرر أن نعتبر النظام التأسيسي لمدينة الجمهورية تخطيطا لمدينة فعلية. ثم إنه، حتى لو سلمنا بأن أفلاطون كان جادا كل الجد بشأن المدينة المثالية، فإنني كنت لأقرر أن القيمة الباقية للإنسانية في الجمهورية هي في بيان أفلاطون عن الفيلسوف والد حقيقة التي هي هوى الفيلسوف (حتى لو كان هذا البيان الجوهرى قد جاء عرضا بمقتضى هذه الفرضية).

هل يمكن لأي أحد أن يعتقد أن أفلاطون كان جادا بشأن الأكووبة التي يراد دسها في نفوس مواطني مدينته، حاكمين ومحكومين؟ (414 ب- 415 د). إنني لن أحاول حتى أن أبين مدى سخف هذا الرأي. ألا يوعز لنا هذا بأن الجمهورية برمتها أسطورة *muthos* مثلها مثل الأسطورة التي تتضمنها الفايديروس أو غيرها من المحاورات؟ — أسطورة *muthos* تحمل في أحشائها من المعاني ومن الحكمة ما يسخر بكل صدق حرفي؟

حيث إن الموضوع الرئيسي لهذا الفصل هو حُجّة الجمهورية أو دور المحاجة في الجمهورية، وحيث إنني اعتبر النظام التأسيسي للمدينة المثالية كامتولة في المكان الأول، رغم أن أفلاطون لم يضيّع فرصة إعطاء لمحة عملية هنا أو بعضا من الحكمة السياسية هناك، فإني أمرّ بمعظم تفاصيل الترتيبات لتأسيس وإدارة المدينة بدون تعليق.

هذا السيناريو الهزلي لملاكم كفاء يقاتل اثنين أو أكثر من الخصوم الأثرياء (422 ب - ج)، ألا ينبغي أن أفلاطون أحيانا لم يكن يعنيه أن يُثبت شيئا بقدر ما كان يعنيه أن يخلق انطباعا؟ هذا بالضبط نوع 'الحُجّة' التي نجدها في كوميديا عادات comedy of manners جيّدة .

ربما كان لرعب أفلاطون من التجديد (424 ب - ج) أساس تاريخي وثقافي. الأمر من الناحية النظرية البحتة قد يبدو مقنعا ظاهريا: إن نحن ذات مرّة أقمنا نظاما كاملا، فكل تغيير عندئذ يُفترض أن يكون تغييرا للأسوأ. لكن هل يمكن أبدا أن نحقق الكمال في عالم الوجود فيه مرادف للمحدودية والنقصان؟ يمكن فقط مثاليًا، أن نحظى بتطوّر خلاق مستدام يعيد تأكيد قيم متضمنة في توجهاتنا الأصلية. التلاشي لا ينفصل عن الوجود. لا مناص لنا من التغير. وحتى مع أنه لا ضمان عندنا لأن يكون كلّ تغيير للأحسن، فإن قانون الحياة يقول: أن نحيا يعني أن نقبل المخاطرة.

بعد أن نأخذ هذا في الاعتبار، هل يمكن أن نقول إن أفلاطون بالغ في تقدير الآثار الضارة للتغييرات الهوائية في الغناء وفي اللعب وفي الفن؟ ألا يجب أن نعترف أن ها هنا مجالا آخر نجد أنفسنا فيه عاجزين عن أن نحقق التوازن الصحيح بين السماح بالتجديد والتجريب الضروريين، من جهة، ومن جهة أخرى، استبعاد الأهواء الضارة؟ وهذا مرّة أخرى مجال حيث لا يمكن أن تكون هناك قواعد صارمة ثابتة. ومرّة أخرى نجد أن حلّ أفلاطون كان، من حيث المبدأ، على الطريق الصحيح: إن الضمان الوحيد للحضارة يكمن في تعليم يغذى أرواح الصغار بالجمال وبالتفكير الناقد.

اكتشاف الصلاح

بعد أن ينهي أفلاطون مخططه الأول لمدينته النموذج يأخذنا في جولة طويلة متعرّجة المسالك بحثا عن صيدنا، العدل. إنني ببساطة أرفض أن أصدّق

427 - ج - 434 د. أفلاطون الذي أعطانا النقد ثاقب البصر في *الديوتيفرون* والتحليلات الفعالة في *الديوتاجوراس* (سواء كانت *الديوتاجوراس* قد كتبت قبل *الجمهورية* أم بعدها لا يهم هنا) لا يمكن أن يكون قد توهم أو تظاهر بأن مثل ألعاب الحواة العبثية هذه يمكن أن تعتبر محاكاة معقولة أو بحثاً عقلانياً. الغرض من كل هذا إعطاء انطباع، مثل التيمة *theme* الثانوية في مسرحية درامية. وإلى أين يأخذنا هذا البحث؟ إلى اكتشاف أو بالأحرى إلى إفشاء كوننا منذ البداية كنا نقبض بصيننا بين أيدينا وأنا بأنفسنا تركناه غفلت منا (432 د- 433 ب): ليس العدل شيئاً غير المبدأ الذي اخترنا أن نبني على أساسه مدينتنا، ألا وهو أن يهتم كل شخص بما يعنيه، *ta hautou prattein*، وهكذا فإننا كنا طوال الوقت لا نبرهن ولا نبحث بل كنا نظهر بواطن فكرة كنا قد بدأنا بها.

إن أولئك الفلاسفة التحليليين *Analytical* الذين يجدون متعة في تمزيق حُجج أفلاطون شنرا يحسن بهم أن يأخذوا في الاعتبار أن أفلاطون كان أول من يعرف أن لا جزئية من 'الحجة' كان يمكن أن تصمد لتمحيص سقراطي حق. إن أفلاطون، بوصفه أفلاطون، كان ليعرف تماماً أن أحداً من قرأه - على الأقل من أولئك القراء الذين يهّمه أن يخاطبهم - كان ليأخذ تلك الحجة كبرهان قاطع. هل كان أفلاطون يعيث إذن؟ كلا؛ إنه كان طوال الوقت يرسم صورة، مستخدماً عناصر تحمل مبررها في قيمتها الذاتية وفيما تسهم به في جمال الكل. إنني أعاد مرارا وتكرارا الضرب على هذا الوتر لأنني مقتنع بأن الفلسفة، التي هي ذات أهمية قصوى لخير الإنسانية، تعاني معاناة جسيمة الخطر من فشلنا في أن نفهم الطبيعة الحقّة للتفكير الفلسفي، وأن هذا الفشل هو الذي يعوق الفلسفة عن تحقيق كل الخير الذي تستطيع بالفعل أن تحققه.

يقول 'سقراط': "أظن مدينتنا، إن تكن قد أمست بطريقة صحيحة، ستكون خيرة تماماً" (427 هـ). بأي منطق؟ كان من الممكن أن نختار أن نجعل مدينتنا جبارة أو مرفهة، أو جنة 'إبيقورية' "epicurean"؛ لكننا اخترنا بدلا من ذلك أن نجعلها خيرة أخلاقياً. لم يكن هذا شيئاً قلنا إليه تفكير ولا حجة، إنما كان شيئاً طلبناه لأننا رأيناه يتوافق مع ما وجدناه أئمن ما فينا. وفي نهاية بحثنا (444 ج - 445 ب) نجد أننا قد عدنا إلى ما كان سقراط دائما قد قرره ببساطة، أن الخير الذي يخص الكائن الإنساني هو أرح تكون له روح تتمتع بالصحة. وهكذا سنجد في مدينتنا الفضائل اليونانية التقليدية: الحكمة والشجاعة والاعتزان (في الأصل اليوناني كلمة يصعب أن نجد لها مقابلاً دقيقاً سواء في العربية أو في الإنجليزية)، والعدل (427 هـ).

النتيجة القائلة بأن الفضيلة هي صحة وجمال ورفاهة للروح وأن الرذيلة هي سقم وتشوه وضعف للروح (444 د-هـ)، هذه النتيجة ليست بالشيء الجديد. إنها منبئة على امتداد المحاورات الباكرة. إننا لم نكن بحاجة لأي برهان لذلك بكثير مما نحتاج برهانا لقول يسوع الناصري: طوبى لأنقياء القلوب. إنها نبوءة تعلن وليست قضية مطلوب إثباتها.

إن أفلاطون وقد أسكن الحكمة في الفئة الحاكمة، والشجاعة في الفئة المحاربة، يكره أن يسكن الاتزان في الفئة العاملة (430 د-432 أ)، ربما جزئياً بسبب احتقاره الأرستقراطي للعمل. إذ ما الذي يمنع أن يشكل الرضا والتعقل والطاعة – وكلها يمكن اعتبارها أوجها من الاتزان – الفضيلة الخاصة بقطاع المتواضع من المواطنين؟ ونفس المنطق الذي استخدم لإظهار الاتزان منتشراً في كل المدينة كان من الممكن استخدامه لإظهار كل من الحكمة والشجاعة كصفة تخص المدينة ككل. لكن أفلاطون، بجانب عزوفه المزاجي عن إسناد الاتزان لمواطنيه من الطبقة الثالثة، كان عنده دافع أعمق وأكثر مباشرة. كان يستخدم فحصه لفضيلة الاتزان كمنصة لعرض نظريته النفسية الجديدة، نظرية الروح ثلاثية الأجزاء. ربما كان من المعقول أن نتساءل ما إذا كانت المدينة بطبقاتها الثلاث قد كوّنت على مثال الروح ثلاثية الأقسام، أم أن نموذج المدينة هو الذي أوعز بالتقسيم الثلاثي للروح. فيما يلي سأعالج نظرية الروح ثلاثية الأجزاء بإيجاز. ربما تتاح الفرصة للعودة لهذا الموضوع في مكان آخر.

في المحاورات الباكرة، كما في الجمهورية حتى هذه النقطة، كانت الروح ببساطة هي العقل أو هي كل شخصية أو شخص الإنسان. عند سقراط كانت الروح ذلك فينا الذي يزدهر بفعل الخير ويصيبه الأذى بفعل ما هو رديء. في الفايديون يجعل أفلاطون الروح ضدًا للجسد ولا يكتفى بتأكيد التمييز بين الاثنين كوجهين لكل واحد – كما كان التمييز السقراطي بين المعقول والمحسوس حسب فهمي له – إنما يركز على الانفصال بين الاثنين. هكذا نجد أن الروح في الفايديون هي مقر العقل الفاعل *phronêsis* ونجد الشر مستقرًا في الجسد لا في جزء من الروح. في الفايديوس نجد تصوير الروح كمرحلة يمسك بقيادها العقل، ونجد الجواد الأصليل والحصان العاصي يمثلان عنصر الحمية وعنصر الشهوة في الروح. ما إذا كان تصوير الفايديوس استباقاً مبكراً للعقيدة التي طوّرت فيما بعد في الجمهورية أم كان تمثيلاً تصويرياً لاحقاً، هذا سؤال في رأيي لا يمكن القطع فيه بيقين على أي الوجهين. على كل حال، إنني أعتقد أن كلا من الفايديوس والجمهورية ينتميان لفترة لاحقة للفترة التي كتبت فيها الفايديون وأن عقيدة الروح ثلاثية الأجزاء كانت تجديدًا

أفلاطونيًا حديثًا، وفي رأبي أنه كان تجديدًا يؤسف له، أعتقد أنه قد أوقع وما زال يوقع الكثير من الضرر الجسمي. لكنني أحتفظ بتفصيل موقفي من هذه المسألة لدراسة خاصة.

عند هذه النقطة عليّ أن أكرّر أن غرضي في هذا الكتاب ليس تفسيريًا. إنني لا أزمع أنني أقدم هنا ما قاله أفلاطون ولا ما ارتأه أفلاطون. ما قاله أفلاطون متاح لكل من يريد أن يقرأه. وما كان فكر أفلاطون لكل واحد أن يخمنه، ومن حيث المبدأ فتخمين الواحد منا ليس أفضل من تخمين الآخر. إن غرضي هو، كما عبّرت عنه في موضع آخر، أن أدخل في حوار مع أفلاطون، وأن أعرض الفلسفة التي أخرج بها من هذا الحوار.

إن ظاهرة التحكم في النفس أو الرضوخ لرغبات المرء التي تُفتمّر في 430 هـ - 431 هـ. ب على أساس غلبة أحد أجزاء الروح على غيرها كانت قد عولجت في الـ *بيروتاجوراس* باعتبارها عملية تجري بأكملها في العقل حيث أظهرت تجربة الرضوخ للرغبة الأسوأ كحالة من الجهل أو افتقار الفهم (الـ *بيروتاجوراس* 352 أ- 360 هـ). أعتقد أن ذلك كان هو الموقف السقراطي الأصلي وقد كان ذلك في رأبي هو التفسير الأحكم والأعقل. هكذا، بدلا من اعتبار الصراع النفسي نزاعا بين أجزاء مختلفة أو ملكات مختلفة من الروح (الشخص)، فإنه يكون من الأفضل اعتبار ذلك تنافسا على الأولوية بين قيم مختلفة.

حين نجد في الشخص العادل نفس العناصر التي وجدناها - أو على الأصح، التي وضعناها - في المدينة العادلة (435 ب - ج)، أو حين نجد في المدينة ما افترضناه في الشخص، فإننا لا نكتشف - في أيّ الحالتين - أيّ واقع فعلي، لا نسجّل أيّ حال موضوعية للأمور، بل نخلق أسطورة معقولة تعطينا رؤية معينة. يلزمنا أن نصرّ على هذا، حتى مع المخاطرة بأن أدفع القارئ للضجر، لأن هذه هي النظرة لطبيعة التفكير الفلسفي التي نحتاجها إذا كان للفلسفة أن تبقى حيّة وأن تبقى لها قيمة رئيسية في الحياة الإنسانية. الفلسفة لا تعطينا صدقا، لا صدقا قابلا للإثبات ولا غير ذلك، بل تعطينا رؤية من خلال أسطورة تخلقه تعترف بكونها أسطورة.

يقول لنا أفلاطون إننا لا نستطيع أن ننهي مسألة كهذه - مسألة بنّية الروح - بالوسائل التي اتبعناها حتى الآن، وأن الطريق لذلك الهدف طريق أطول (435 ج - د). أيّا ما كان ما قصده أفلاطون بذلك، فتمّة شيء واحد واضح

تماما، ذلك أنه لم يكن يعتبر الحجّة السابقة كافية أو قاطعة؛ بعبارة أخرى، أنه لم يقصد بها أن تكون من طبيعة البرهان الرياضى. أشعر بأنى سخيّف إذ أقرر هذا، لكن حين يتباهى الفلاسفة التحليليون بكشف عيوب مثل هذه المحالّجات، فإنهم يفترضون أنهم يتعاملون مع براهين من هذا النوع. الطريقة الصحيحة لنقد موقف فلسفى هى أن نعرض منظورا ذا وضوح ذاتى أعظم، يتوافق مع قيم ومبادئ نتبناها.

هكذا حين يقول 'سقراط' لجلالكون: فى رأى أننا لن نعرف أبدا بالضبط عن هذا بالوسائل التى كنا نتبعها، فإن أفلاطون هنا يلمّح بوضوح إلى أننا فيما كنا نقول لم نصل إلى أى معرفة مضبوطة. فيما يلى، حين نأتى لنتباحث الديالكتيك، سنرى أننا لا نستطيع أبدا أن نحصل على معرفة مضبوطة عن أى شىء. كل ما نملكه هو الفهم الذى نكسبه فى ذات السعى، فى ممارسة العقل الفاعل. لكن الناتج المحدّد للسعى، إذا ما اعتُبر صدقا نهائيا، إذا ما اعتُبر معرفة مضبوطة، يتضح أنه مخادع.

إذا ما انطلقنا من فكرة ملكات منفصلة فى الروح، فعندئذ يكون من المسخف أن نقول إننا نرغب بالفكر أو إننا نفكر بعنصر الحمية (436 أ- 441 ج): فذلك يكون مناقضا لقواعد الكون المعنوى، universe of discourse الذى اتخذناه. لكن إذا ما نظرنا للشخص ككل، كعقل، إذ يعمل يستخدم أو يُفعل هذه الفكرة أو تلك، يزن تقريبا فى مقابل آخر، عندئذ فإن محاربا، يخاف الموت ويحب الحياة، إلا أنه يختار مواجهة موت مؤكد للحفاظ على شىء أعظم قيمة من حياته الفردية، لا يمثل تناقضا.

فى 437- د - هـ يعزل أفلاطون فكرة العطش الذى هو عطش فحسب، ليس مكيفا qualified على أى نحو، ليس عطشا لشراب ساخن أو لشراب بارد، ولا عطشا لشراب كثير أو لشراب قليل. ماذا كان باركلى Berkeley ليقول عن هذا؟ كان ليقول إنه لا يمكن أبدا أن يكون هناك عطش فعلى لا يتكيف بطريقة من هذه الطرق أو بغيرها. فكرة العطش الذى هو ببساطة عطش فحسب هى تجريد خالص. إن أفلاطون كان قميّنا بأن يكون أول من يعترف بأنه رغم أن من الممكن أن تكون عندنا فكرة مثلث لا هو متمسوى الأضلاع ولا متمسوى الضلعين ولا مختلف الأضلاع، إلا أن مثلثا فعليا لا بد أن يكون إما هذا أو ذلك. وهكذا هنا، بينما فكرة العطش البسيط يمكن أن يكون لها مكانها فى ذخيرتنا

المفاهيمية، فإننا حين نتحدث عن النوازع والدوافع التي تملئها حالاتنا البدنية، فهذا العطش المجرد لا مكان له.

يطور أفلاطون فكرة التكيف المتوازي في النسبي والمتضاد relatives and correlatives ويعارض تحليل سقراط للصراع النفسي (العقلي) - كما نجده في الديورتيكوس - بأن يحصر العطش مثلاً في رغبة للشراب بسيطة خالصة. لكن الرغبة المجردة، منعمة الصلة بأي فكرة، تصبح لا شيء غير حالة بدنية، يلحظها العقل ثم يقرر (إذا ما دخل العقل في الحساب على الإطلاق) ما إذا كان سيعطى وزناً أكبر لإشباعها أم للخير الذي قد ينتج من رفضه إشباعها.

لنا أن نلاحظ هنا أن أفلاطون، ربّما لتعلقه بنظريته النفسية الجديدة، فإنه في هذا القسم يميز بين المفاهيم بعناية أكبر ويربط بين خطوات المحاكمة بوضوح أكبر مما كان يفعل في بحثه لتسكين الفضائل المختلفة في الفئات المختلفة للمدينة.

الصلاح في الفرد

تماماً كما أننا وجدنا مسيرة البحث تعود بنا إلى الموقف السقراطي العتيد بأن كل الفضيلة في أعمال العقل *phronêsis* ولا شيء غير ذلك، فكذلك عند رسم معالم الشخص العادل في 442- هـ -443- ب لا نجد أي تظاهر بخجة بل نجد توكيداً بسيطاً مباشراً للخصائص التقليدية للشخص الصالح.

هكذا في 444- أ نعرب عن رضانا إذ وجدنا الشخص العادل والمدينة العادلة والعدالة ذاتها. ولكن كيف؟ لقد قلنا وداعاً للبحث النظري في الباب الأول وببساطة أقمنا المثال الذي نجد صورته في روحنا ذاتها، إذا كانت روحاً سوية؛ أو ربما كان من الأصح أن نقول، إننا أقمنا صورة للحقيقة التي نجدها في ذات أرواحنا. هذه في رأبي حقيقة كل فلسفة أصيلة: تمثيل خلاق لكلية العقل الفاعل الذي هو حقيقتنا وهو كل ما نعرف من الحقيقة ولا نعرف حقيقة سواها.

وهكذا، لكي نتوجّ بحثنا (444 جـ -445 ب) نعود إلى ما كان سقراط قد عبّر عنه ببساطة وبطريقة مؤثرة في محادثته الحميمة مع الشيخ الطيب كريتون

(الذكريتون، خاصة 47 د-49 هـ)، وهي محادثة لا نجد في الفقرة الحالية إلا مجرد ظل لها، فلا شيء في الواقع يمكن أن يفوق تلك الكلمات الجميلة العميقة.

المرأة والأسرة

جزء الجمهورية الذي يبدأ بالصفحة الأخيرة من الباب الرابع ويمتد عبر النصف الأوّل من الباب الخامس، وهو الجزء الذي يتناول الترتيبات الخاصة بالنساء والأسرة والقواعد الخاصة بالحرب (445 ج- 471 ج)، قد نال نصيبا من الاهتمام والتعليقات يفوق كثيرا ما ناله غيره من الأجزاء. وإذ أن هذا الجزء لا يتصل مباشرة بموضوع الفصل الحالي، وإذ أنى أعتقد أنى لا أملك شيئا ذا قيمة أقوله فى هذا الصدد، فلن أعلق على هذا الجزء إلا بكلمة هنا أو كلمة هناك حيثما أجد نقطة ذات صلة بموضوعى.

فى 453-ب. ج. يحاجج أفلاطون نيابة عن المعترضين على اقتراح أن تتال المرأة نفس التربية كالرجل وأن يُعهد إليها بما يُعهد به للرجل من مهام. إنه يقدم حجة كاحسن ما تكون الحجّة اللفظية، وإن يكن فى شكل هيكلى. ثم يحذّرنا فى 454-أ من مخاطر الخلط بين التنازع والنقاش المخلص. يسقط الكثيرون فى شرك هذا الخلط إذ لا يتنبهون للتمييزات الضرورية، ويأخذون الكلمات على عواهنها. هذا فى الواقع تحذير نحتاج أن نعيّره اهتماما جادا. المشكلة أنه رغم كل جهود الفلاسفة وأهل المنطق، فإننا لا نملك، ولا يمكن أبدا أن نملك، قواعد صالحة لتحديد التمييزات التى ينبغى تطبيقها فى كل حالة معيّنة. الكلمات - الكلمات الحيّة تميّزها لها عن الرموز الميتة - لا يمكن أن تكون لها معاني ثابتة. إنها تعنى ما يقصد المستخدم أن يعنى بها. ولكى تفهم كما ينبغى، يجب أن يتلقاها من توجهه إليه بحسن نية. من يأتى للنقاش بروح الخصام يمكنه أن يستخرج تناقضا من أى مقولة. هكذا نجد دورياتنا الأكاديمية ممتلئة بأشياء من هذا القبيل: يقرّر الأستاذ س أن $a = m$. يعترض الأستاذ ص أن a يجب أن تؤخذ بمعنى a و m ليست m . ولكن لو أن a أخذت بمعنى a (هكذا يقول أى من س أو ص) فإنها بالفعل ستعنى m . كلا، فإن a هى فى الحقيقة a وبهذه ليست m . — ليست هذه محاكاة هزلية، بل هذا بالفعل ما تمتلك به دورياتنا الأكاديمية. المؤسف أن أساتذتنا المتبحرين عاجزون عن أن يتوصلوا للاستنتاج الواضح: إنهم فى الحقيقة يحرثون فى البحر. أى مقولة ذات معنى هى تعبير خلاق فيه

من الزيف بقدر ما فيه من الصدق. يستطيع الناقد أن يُظهر المقولة في منظور أفضل وأكثر ثراء، ولكن المقولة لا يمكن إثباتها بالبرهان ولا حوضها بشكل نهائي، إلا في سياق ضيق محدد.

كثيرا ما لوحظ أن ترتيبات أفلاطون للزواج والتناسل (457 ب-466 د) مليئة بالمشاكل وبالتفردات. يلحق كورنפורد Cornford الفقرة 459-ج - 461-د بكم من التنزيلات يفوق كثيرا ما يلحقه باي فقرة مماثلة لها في الطول، ليتعامل مع هذه المشكلات وأوجه الغموض. إن أفلاطون بعقليته الرياضية لا يمكن أن يكون غافلا عن هذه المشاكل وأوجه النقص. وأعتقد أن هذا يشير بوضوح إلى أن أفلاطون لم يكن جادا بشأن هذه الترتيبات؛ لم يكن محتاجا لأن يدقق في التفاصيل لأنه ببساطة كان يخترع حدوتة. إن تبجيلنا لأفلاطون، حتى بين أولئك الذين يعارضونه من كل الوجوه، يجعلنا نأخذ بجدية أكثر مما ينبغي حتى حين يكون هو عابثا كل العيب.

كيف لنا أن نفهم أفلاطون حين يقول إنه سيكون على الحكام أن يمارسوا كثيرا من الكذب والخداع لمصلحة المحكومين؟ (459 ج - د). هل يمكن أن يكون قد قصد أن يصتق قرآؤه ذلك؟ ألم يكن يعلم أن الأكذوبة لا ينتفي ضررها إلا حين تقم صراحة على أنها أكذوبة كما في حكاية خيالية؟ وأن الأكذوبة حين تؤخذ على أنها صدق فإنها بالضرورة تلوث الروح؟ من الصعب أن نرى كيف كان يمكن له أن يعتبر مقترحاته متوافقة مع آرائه الخاصة حول ما هو حسن وما هو رديء إلا إذا كان الحكام وحدهم في مدينته هم الكائنات العاقلة وكان كل الآخرين آلات بلا عقل، مجرد حيوانات ديكارتية Cartesian animals. أم ترى أنه، بمثل ما نجد بيننا أشخاصا أذكيا جدا إلا أنهم مع ذلك، تحت سطوة المعتقدات الدينية، يؤكدون أسخف الأمور وأكثرها بشاعة بنفس راضية تماما، فكذا كان من الممكن لأفلاطون، تحت تأثير تحيزات المسيسة والطبقية، أن يصاب بمثل هذا العمى؟ أم أنه، باعتبار أن النظام التأسيسي للمدينة النموذج لم يكن كله إلا حدوتة مخترعة، فقد كان يسمح لنفسه بمثل هذا الزيف، تماما كما يمارس الكاتب الروائي الذبح والتقتيل في شخصيات روايته دون أن تعتربه وخزة ضمير؟ تنطبق ملاحظاتي حول هذه النقطة بالطبع على كل ترتيبات الزواج وكل ترتيبات وقواعد رعاية الأطفال.

ممارسات الحرب

عند إرساء قواعد ممارسات الحرب (466 د-471 ج) يبسط أفلاطون مفهوم الجنس الإنساني الواحد ليُشمل كل اليونانيين، ويقف عند هذا الحد. قبل أن نتباهى بتفوقنا على أفلاطون، علينا أن نتذكر أنه رغم أننا من الناحية النظرية قد نتقننا إلى حيث نركى بأفواها فكرة الإنسانية المشتركة، إلا أنه في مجال الواقع فإن حكوماتنا والغالبية الكاسحة من شعوبنا تتخلف عن ذلك كثيرا. هذا مجال آخر للأفكار فيه دور كبير، ومن المؤكد أن من واجب المستنيرين منا (والأسفاه، كم هم قلة!) أن يفعلوا كل ما باستطاعتهم، كل واحد منا رجلا كان أو امرأة، كل في ميدانه، لأن يُشعرونا بأن الملايين الذين يموتون بفعل أمراض قابلة للعلاج، وبفعل الجوع ونقص الماء، وفي صراعات يؤجج نيرانها الجهل والخرافة، كل أولئك هم من لحمنا ومن دمنا.

كل ما يمكن أن يقال عن موقف أفلاطون من الرقّ ومن التمييز بين الهيلينيين والبرابرة (469 ب-471 ب) قد قيل وأحسن القائلون القول. وحيث إن هذا أيضا يخرج عن نطاق هذا الفصل، فإنني أكتفي بالقول بأن لنا هنا درسا نموذجيا يبيّن كيف أن مفاهيمنا - الأفكار التي نرثها أو نتلقاها من أي مصدر - تتحكّم في فهمنا وتوجهاتنا وسلوكنا. هذا ما أعنيه حين أكرّر المرّة تلو المرّة (*Let Us Philosophize*)، على امتداده) أننا ككائنات إنسانية نعيش في عوالم هي من صنعنا، وعلينا دوما، بلا كلل، أن نفحص هذه العوالم الفكرية، لننلا نصبح، بفعل النسيان، عبيدا لها رغم أننا خالقوها.

خلاصة

عند هذه النقطة يقودنا أفلاطون إلى أفاق مبهرة. لكن قبل أن نمضى قدما، دعونا نلق نظرة على ما قطعناه من أرض حتى هنا. تبدأ الجمهورية كبحث عن طبيعة العدل. نسلك في البداية الطريق المألوف في الحوارات الديمقراطية البكرة لنجد عددا من التعريفات المختلفة المقترحة غير وافية. ثم ينقلب ثراسيماخوس على القيم التقليدية، مؤكدا أن العدل خدعة يمارسها الأقوياء على الضعفاء ليجعلوا الآخرين يخدمون مصالح الأولين. هكذا يغيّر جذريا غرض البحث الأولى. لم يُعد السؤال: ما هو العدل؟، وإنما: هل العدل يفيد الشخص العادل؟ بعد بضع خطوات نظرية لإظهار أن موقف ثراسيماخوس لا يمكن الدفاع عنه، وهي خطوات لا تغلق في إقناع ثراسيماخوس، يقترح 'سقراط' أنه لكي نبلغ

غاية بحثنا المزدوج، ربما يحسن أن ننظر إلى العدل ممثلاً في شيء أكبر من الكائن الإنساني. لا أحد من مستمعيه يتماءل كيف يمكن لنا أن نصنع نموذجاً لشيء لا نعرفه بالفعل. هكذا نمضي في بناء مدينتنا التخيلية، فنؤسسها على مبدأ أن كل عضو - فرداً كان أم طائفة - ينبغي أن يعنى فقط وقصراً بالعمل الموكول لذلك العضو. ثم يجابهنا السؤال: مع التسليم بأن مدينتنا هذه هي الأحسن وبأنها تجسد مفهومنا المختار للعدل، فهل هي قابلة للتطبيق؟ بأي الوسائل يمكن تحقيقها في المجتمع الإنساني؟ إن معالجة أفلاطون لهذا السؤال، فيما أرى، لا تقتصر في دلالتها على إمكانية تحقيق المدينة التخيلية الموصوفة في الجمهورية، بل تعالج بشكل أساسي مسألة الشروط الضرورية للصالح في الحياة الإنسانية - وتتلخّص تلك الشروط في شيء واحد: العقل الفاعل، *phronēsis*، الذي هو خيرنا الوحيد، وهو كل الخير، وهو كل ما يمكن أن نعثر عليه أو نفكر فيه من خير.

الفيلسوف

نأتى الآن إلى القسم الذي يبدأ بـ 472أ في الباب الخامس ويمتد حتى نهاية الباب السابع، وهو القسم الذي أعده قلب الجمهورية، وقلب الأفلاطونية، ولا أتردد في أن أقول بل قلب كل الفلسفة. لقد علّقت على هذا القسم في الفصل السادس، "المعرفة والحقيقة"، وأرجو أن يُنظر إلى ما يلي لا على أنه مراجعة للفصل السابق ولا على أنه ملحق له، بل على أنه دراسة موازية لنفس المادة. ينبغي أن يكون كلٌّ من الفصلين مكملًا للآخر، ومن الطبيعي أن يكون هناك أحياناً بعض التكرار، وقد يكون هناك أحياناً بعض التناقض الظاهري. هذا لا يؤزّقني، فإبنتي أفضل أن أتناقض نفسي على أن أكون سجيناً لوجهة نظر متحجرة. المفكر الذي لا يناقض نفسه بين الحين والحين يحسن به أن يمضي فيحفر لنفسه قبره.

(من المعتاد أن يشار للجزء الأوسط من الجمهورية باعتباره يشمل الأبواب من الخامس حتى السابع، لكن هذا مضلل. فمن المعروف أن تقسيم الجمهورية إلى عشرة أبواب محض ضرورة "تحريرية" عملية، والجزء الأول من الباب الخامس يرتبط هيكلتياً بما سبقه، بينما بدءاً من 472أ عبر الباب السادس وحتى نهاية الباب السابع نجد كلا متماسكا.)

يتساءل أفلاطون عن إمكانية أن تتحقق الدولة المثلى في عالمنا الفعلى (471 ج - 474 ب) ويقدم إجابته الشهيرة، التي يكررها عدة مرّات في الجمهورية (في 473 د، 487 هـ، 499 ب، 501 هـ) ويعيد تأكيدها بنفس الألفظ تقريبا في الرسالة السابعة، 326-أ. ب، معلّنا أن الجنس البشرى لن يعرف راحة من شروره حتى يتولى السلطة السياسية من يمارسون الفلسفة الحقّة الأصيلة أو تقضى العناية الإلهية بأن يتّجه من يقبضون بزمام السلطة في الدول إلى ممارسة الفلسفة الحقّة. لا مجال للشك في أن هذا كان اقتناعا راسخا عند أفلاطون. لكننا لا يجب أن نربط بين هذا وفكرة الدولة النموذج التي نجد وصفها في الجمهورية. لا بدّ أن نفضل بين هذين. القول بأن المجتمع الإنساني لن يتمتع بالعافية والسعادة إلا إذا حكمته الحكمة - البصيرة في القيم الحقّة - كان هذا أمرا بدهيّا عند كل من سقراط وأفلاطون. وإذا كان أفلاطون قد وجد أن عليه أن يُجهد نفسه كثيرا ليوصل الفكرة فما ذلك إلا لغناء عامة البشر، غباء ما زال العقلاء من الناس يشنون ضده حربا يائسة. لقد نطق شيلر Schiller عن بصيرة حقّة حين قال: حتى الآلهة يناضلون عبثا ضدّ الغباء. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الدولة النموذج في الجمهورية قصد بها أن تكون تمثيلا تصوريّا للعقل لا أكثر. وربما يُفتقر لى أن أكرّر مرّة أخرى أنّي حين أقرّر أن الجمهورية ليست في المكان الأول كتابا سياسيا وأن أهمية الكتاب بالنسبة لنا لا تكمن بشكل رئيسي في ذلك المجال، فإنني بذلك لا أنكر أن السياسة كانت من شواغل أفلاطون طوال حياته.

يطلب جلاوكون من سقراط أن يبين لهم أن تحقيق المثال ممكن، فيذكره سقراط أولا بأنهم طلبوا المثال كنموذج حتى إذا ما رأينا ما العدل وما الظلم في ذاتهما، وما نوع الحياة التي ترتبط بكل منهما، أمكننا عندئذ أن نقول: هكذا تكون حياة الشخص العادل وغير العادل. لم تكن غايتنا أن نُظهر أن مثل هذا المثال يمكن تحقيقه بتمامه وكمالهِ (472 أ-هـ). لماذا يؤكد أفلاطون كل التوكيد على هذه النقطة؟ ألا يوحى هذا بأنه، مهما كان يقيننا في مثال ما مطلقا، إلا أننا متى توجّهنا إلى وسائل تحقيق المثال فلا يمكن أن يكون لنا مثل هذا اليقين؟ ليس هذا حالنا اليوم؟ قد نعرف على نحو جيّد ما نريد لأطفالنا أن يكونوا، وقد نعرف على نحو جيّد ما نريد لمجتمعنا أن يكون، ولكن أي نوع من التربية يمكن أن يعطى أطفالنا الشخصية التي نريدها لهم؟ — أي قوانين وأي مؤسسات يمكن أن تعطى مجتمعنا الخصائص التي نرغبها؟ — هنا بالضرورة نتعثر ونخطئ، وكثيرا ما يكون الخطأ كارثيا. ولهذا السبب يلزمنا دائما أن نبقى مثّلنا نصب أعيننا في متابرة وإصرار حتى لا تتوه منا وسط انشغالنا بالوسائل والأساليب.

وقبل أن يعرض أفلاطون لشرح كيف يمكن لنا أن نأمل في تحقيق مدينتنا المثالية، يتقدم بتحفظ آخر. العمل لا يرقى أبدا لمستوى النظرية؛ تبقى بالضرورة دائما فجوة بينهما (473 أ). هذا يتوافق مع الميتافيزيقا الأفلاطونية. الواقع لا يتماهى أبدا مع المثال. كل واقع ينطوي دائما على نقص مزوج، أولا، من حيث كون الواقع متحوّلا وزائلا، وثانيا، من حيث كونه شذرة مستقطعة - وبالتالي زائفة - من عالم الواقع ككل. إذ أقول هذا ربّما أكون قد تجاوزت أفلاطون نوعا ما في النقطة الثانية، إلا أنني ما زلت أعتقد أن ما أقول يتفق مع مبادئ أفلاطون وأنه مضمّن في الحوار السقراطي.

ثم تأتي مقولة أفلاطون الأشهر، التي تردّ أولا في 473 ج - هـ ثم تتكرّر عدّة مرّات فيما يلي بتعبيرات طفيفة في الصياغة: إذا لم يحكم الفلاسفة أو يصبح الحكام فلاسفة، فلن يكون للمجتمع الإنساني خلاص من شروره الزاهنة. هل كان أفلاطون حقا يعتقد أن هذا الشرط كافٍ لتحقيق الدولة الصالحة؟ يبدو أن الأمر كذلك، أو على الأقل يبدو أنه لم يكن يرى وسيلة أخرى لبلوغ ذلك الهدف. بينما يبدو من ناحية أخرى أن سقراط لم يكن يشغل نفسه بالمسألة في هذه الصورة. كانت كل جهوده موجّهة لتتوير الشخص الفرد. المدينة الفاضلة تتكوّن من مواطنين فضلاء، والمواطن الفاضل هو من يحظى بفهم راسخ للقيم الحقّة، والطريق إلى ذلك أن يعرف كيف يفحص روحه، يمحص معتقداته وتقييماته ليطرده الزائف منها ويؤكد الصالح. في المحاورات الباكرا يُتّرض أكثر من مرّة أو يقرّر صراحة أن الحاكم الصالح هو الذي يجعل المواطنين صالحين. ("عليه أن يجعلهم حكما ويعطيهم المعرفة"، *edei de sophous poiein kai epistêmês metadidonai*، البيوثيديموس، 292-ب؛ وهذا أيضا فحوى الجورجياس، 515-أ-د). في منتهى الأمر، هذا هو الحلّ الجذري الوحيد، ليس فحسب لأننا لن يكون لنا مجتمع صالح إلا من خلال مواطنين صالحين، وإنما، وهذا هو الأهم، لأن الغاية النهائية للمجتمع الصالح هي الصلاح الأخلاقي لمواطنيه. لكن هذا طريق طويل طويل: فماذا ينبغي أن نفعل ونحن على الطريق لتلك الغاية أو لكي نساعد على الإسراع في الوصول لتلك الغاية؟ قال أفلاطون كلمته، فهل أتى أحد أبدا بما هو أفضل؟ إن 'مفارقة' الجمهورية المزعومة هي لازمة صحيحة للمقولة السقراطية بوحدة الفضيلة والحكمة - و 'الحكمة' هي بالضبط الكلمة المطلوبة هنا، لا 'المعرفة' لأن سقراط يميّز بين الفهم الذي هو واحد مع الفضيلة وكل معرفة تخصّصية.

في 474 ب - ج يبدأ جدّيا الجوهر الحيوي لما أسميته قلب الجمهورية والأفلاطونية وكل الفلسفة. يقول 'سقراط': كي ندافع عن مقترحنا ضدّ أولئك الذين يرونه مدعاة للضحك، علينا أن 'نحدّد' *diorisasthai* (نوضّح، وليس

'نعملى تعريفًا شكليًا' ما نعنى بالفيلسوف. هكذا فإن المناقشة التالية، التى تمتد حتى نهاية الباب السابع، تطلقها محاولة الإجابة على هذا السؤال. لكن ما أعجب القوة الخلاقة فى كل حقيقة! المحارة تضابقها حبة رمل، فتحاول عزل الدخيل المتطفل، فإذا بين أيدينا - يا للعجب! - لؤلؤة! وهكذا فإننا نجد هنا ما يسمو كثيرًا وما يختلف تمامًا عن الغرض الذى قصد إليه أولاً. نجد بين أيدينا أعمق معالجة لطبيعة وقيمة التفكير الفلسفى. هذا ما يجعل الجمهورية أهم كتاب فى كل تاريخ الفلسفة. فى الجمهورية نتوحد الأبعاد الإستمولوجية والميتافيزيقية والأخلاقية للتفكير الفلسفى فى كل عضو.

خطوتنا الأولى فى توصيف الفيلسوف أن نقول إن الفيلسوف هو من يحب كل المعرفة. لكننا سرعان ما نجد أن علينا أن نكيف قولنا ذلك، فليس كل ما يسمى معرفة هو مما يُعنى به الفيلسوف. يقال لنا إن الفيلسوف ليس معنيًا بالموجودات المحددة المتعددة فى العالم، وإنما بما هو حقيقى (475 هـ). (هنا يستخدم أفلاطون كلمة *alêtheia* التى عادة ما تترجم بكلمة 'الصدق' "truth"، ولقد ذكرت من قبل الأسباب التى تجعلنى أرى هذه الترجمة مضللة، وفيما يلى سأترجم *alêtheia* أفلاطون بكلمة 'الحقيقة' "reality" (48) ما هذه الحقائق؟ إنها المفاهيم التى تضفى على تلك الموجودات المتعددة صفتها، فتجعلها معقولة، والتى لا يمكن أن ترى إلا فى العقل وبالعقل. بتعبير آخر، الفيلسوف معنى بعالم المعقول الذى كان سقراط يميزه عن عالم المحسوس وكان يرى من الضرورى للكائن الإنسانى أن يمتصه وأن يسمى لأن يفهمه.

فى 476- ج نجد خلاصة أمثلة الكهف التى يبدأ بها الباب السابع؛ فى الواقع نستطيع أن نقول إننا نملك هنا نظرية أفلاطون فى المعرفة مضغوطة فى اثنتين وخمسين كلمة: أولئك الذين يعرفون أشياء عديدة جميلة لكنهم لا يستطيعون إدراك مفهوم الجمال فى ذاته يمضون عبر الحياة لا مستيقظين بل حالمين. هنا على أن أؤكد أن هذا لا يعنى أن من الممكن معرفة الأشياء المتعددة فى غيبة المفهوم، إذا كنا نعنى بالمعرفة الوعى المتفكر *reflective*

(48) كذلك أتجنب دائما ترجمة كلمة *truth* بكلمة الحقيقة، إذ يهمنى إبراز التمييز بين الحقيقة *reality* والصدق *truth*، فهذا تمييز جوهري فى فلسفى وفى توليى لأفلاطون: الحقيقة مجالها الذاتى وعالم المعقول والصدق مجاله الموضوعى وعالم المحسوس.

awareness. يمكن أن نتعرف على الأشياء المحددة على المستوى الحيواني، لكن مجرد أن نسمي الشيء يعنى أن نطبق مفهومًا عامًا. بهذا المعنى، كل من يستخدمون لغة يفكرون بمفاهيم. ولكن للتفكير على مستوى أعلى نحتاج أن نتبين استقلال الصورة المعقولة عن تمثيلها المحسوس. الصورة المعقولة هي الحقيقة التي يتأملها العقل. ولكن دعونا لا نقطع سيل شرح أفلاطون بمحاولة تطوير كل هذا عند هذه النقطة.

في 477-أ يعلن لنا أفلاطون واحدة أخرى من نبوءاته، تصوغ في اثنتي عشرة كلمة مبدأ وحدة المعرفة والحقيقة، مستبقًا تطويرها الأكمل في الباب السادس، وصولًا إلى فكرة صورة الخير: ما هو كائن تمامًا يُعرف تمامًا، ما هو غير كائن لا يُعرف إطلاقًا، *to men pantelôs on pantelôs*، هذا بالطبع ما كان پارمنيديس قد قرره من قبل، لكن تطوير أفلاطون للمبدأ أصيل ويقود لنتائج أخصب كثيرًا مما كان يمكن أن ينتج عن واحد پارمنيديس دائم المسكون.

لكن ما هو بين الكائن والماكان، ما هو غير كامل، لا تقابله لا المعرفة الحقّة ولا انتفاء المعرفة تمامًا، إنما يقابله نوع أدنى من المعرفة، يمكن أن نسميه الظن. هكذا نرى أن أفلاطون يعطينا في 476- ج- 477- ب ملخصًا للنظرية التي سيطورها في نحو السبعين صفحة التالية.

هنا على أن أذكر أنه، تمامًا كما أنني عادة لا أترجم *alêtheia* بكلمة 'الصدق'، بل بكلمة 'الحقيقة'، فإنني كذلك لا أترجم كلمة *to on* ومشتقاتها بكلمة 'الوجود' ومشتقاتها. كلمات *ousia*، *to on*، *alêtheia*، كلها عند أفلاطون تتعلق بالحقيقة المعقولة، وليس بالموجودات الفعلية في عالم التعدّد والتحوّل. إنني إخصّص كلمة 'الوجود' لعالم التعدّد والتحوّل هذا، وأعتبرها ضدًا لكلمة 'الحقيقة'. لقد ووجه استخدامي الاصطلاحي هذا بالنقد من البعض. إن اختياري للمفردات قد يكون موافقًا وقد لا يكون كذلك، لكن التمييز الجذري بين العالمين ضروري لأي فلسفة أفلاطونية، ولست أرى ما يمنع من أن أستخدم أي مصطلحات اختارها، بشرط أن أوضح ما أعني بكل مصطلح وأن أتزم بقدر معقول من الاتساق في استخدامي لمثل هذه المصطلحات. (انظر "On What Is, Let Us Philosophize، خاصةً الباب الثاني؛ وكذلك "On What Is" (Real: An Answer to Quine's 'On What There Is') (إن

استخدامي لمصطلح 'الوجود'، قد يتصادم مع استخدام المذهب الوجودي Existentialism للمصطلح. هذا أمر يؤسف له، لكن لا حيلة لي الآن إزاءه).

في 477- ج يقم أفلاطون مفهوم الملكة ثم يمضي ليقم في إسهاب شديد التمييز بين المعرفة والظن، لأنه يرى هذا التمييز ضروريًا لتطوير مفهومه للدنيا - التي لا نستطيع أن ننكر وجودها - ك مجال للكينونة المنقوصة. هذا مبدأ أساسي في الأفلاطونية. لكن بحق لنا أن نسجل على أفلاطون احتجاجا فحواه أن عالم الحقيقة المعقولة - الحقيقة الروحية، إن شئت - هو بالنسبة لنا - نحن الكائنات الإنسانية - لا يفصل عن عالم الصيرورة becoming الذي نحن متجذرون فيه. الحقيقة ليست شيئا نثر عليه سواء في العالم أو خارج العالم، إنما هي شيء نضيفه نحن على العالم، وإذ نضيف الحقيقة على العالم نجد حقيقتنا الذاتية. هذه وظيفة الفلسفة والشعر والفن.

الفقرة في 479-أ حيث يقرّر أفلاطون أننا لن نجد بين الحالات المتمددة للجميل واحدة إلا وقد تبدو قبيحة، ولا بين حالات ما هو عادل واحدة إلا وقد تبدو غير عادلة، ولا بين ما هو تقي إلا ما قد يبدو غير تقي، *toutôn gar dê ... tôn pollôn kalôn môn ti estin ho ouk aischron phanêsetai; ho ouk ، ho ouk adikon; kai tôn hosiôn kai tôn dikaiôn anosion*; — هذه الفقرة كثيرا ما نوقشت باعتبارها حاجة عن الوجود المنفصل للصور المعقولة. في رأيي أن القصد من هذه الفقرة ليس تقرير انفصال الصور، وإنما هو إظهار نقص عالم التعدد والتحول. لا يجب أن نعطي عبارات 'يبدو قبيحا'، 'يبدو غير عادل'، 'يبدو غير تقي' محمولا إبيستيمولوجيًا ضيقًا. الجميل سيبدو قبيحا لأنه، في ملابس مختلفة ومن منظور مختلف، ستكون له أوجه من القبح. لا شيء في العالم ممتنع على الفساد. لهذا نحكم عليه بأنه نسبيًا غير حقيقي، بسبب النسبية الجوهرية لطبيعته، كما قرّر برادلي Bradley، وليس بسبب نسبية وجهة نظر الناظر. صاحبنا المحترم الذي لا يعترف بحقيقة الصورة المعقولة إنما هو ملتصق بالموجودات المحددة المتمددة، لسنا نقم له هنا برهانًا على انفصال الصورة المعقولة، بل نبين له سموّ عالم المعقول.

ما الذي يمكن أن نعنيه بموضوعية القيم، بقولنا أن هناك قيمًا مطلقة؟ ليست هناك حالة واحدة لمقولة صدق في صيغة محددة إلا ويمكن إظهار زيفها (سأقمت

تبريري لهذه المقولة العريضة حين نأتى للنظر في طبيعة الديالكتيك؛ ليست هناك حالة واحدة من خير متحقق في الواقع لا يعثورها نقص؛ ليست هناك حالة واحدة من جمال فعلي لا يمكن أن تتشوه. ماذا نعني إذن حين نؤكد أن الصدق والخير والجمال قيم مطلقة؟ في رأيي أن هذا ينبغي أن يعنى أن مفاهيم هذه القيم في عالم المعقول حقائق، بمعنى أنها تنويجات محددة من الكمال، تعبر عن تكامل العقل الفاعل الخلاق، الحقيقة الواحدة والقيمة الواحدة التي نعرفها في أنفسنا. إنني لست سعيدا بهذه الصياغة، ولا أظن أن أي صياغة لهذه الفكرة يمكن أن تكون مرضية تماما، لكنني مقتنع بالصدق الذي يكمن وراءها. (أطور هذه الفكرة في⁽⁴⁹⁾ "Must Values Be Objective?")

نهى إذن أول توصيف للفيلسوف بأن نقرّر أن الفيلسوف، محبّ المعقول، هو محبّ لما هو حقيقي (480 أ).

لقد قلنا إن الفيلسوف يتأمل ما هو حقيقي وثابت بينما غير الفيلسوف، عندما يتعلّق الأمر بمشاهدة الحقيقة، نجده أعمى. نحتاج لحكم مدينتنا فيلسوفا يملك نماذج كاملة من هذه القيم لينقل منها وهو ينظّم شئون المدينة فيما يتعلّق بالجميل والعدل والخير (484 أ-د). كل هذا بالطبع خطابة. هل هي خطابة جوفاء؟ لن نعدّها كذلك إلا إذا كنا نتوقع من أفلاطون أن يعطينا برهانا يقينياً، ولكن ليس إذا ما أدركنا أنه يقدم لنا رؤية نبوية.

سنختار إذن حكامنا من الفلاسفة، بشرط ألا تنقصهم الخبرة بعالم الواقع ومعرفة نقائص الكائنات الإنسانية وأدوانهم الأخلاقية. كيف لنا أن نزودهم بهذه المعرفة؟ (484 د-485 أ). لكن أفلاطون لا يمضى مباشرة لإعطاء إجابته عن هذا السؤال.

من خصائص الطبيعة المهيأة لأن تصبح فلسفية أن تكون صادقة (أمينة)، لا ترضى أبداً بقبول ما هو زائف، بل تكرهه، وتحبّ 'الصدق'، (485 ج). من الواضح أن 'الصدق' هنا يعنى الحقيقة، و'الزائف' يعنى ما هو ناقص في

⁽⁴⁹⁾ هذا المقال، وغيره من مقالاتي المشار إليها في ثنايا هذا الكتاب، بجدهما القارئ في *The Sphinx and the Phoenix* (2009) والذي أرجو أن تصدر ترجمته العربية عن المركز القومي للترجمة في وقت غير بعيد.

حقيقته. علينا أن نتذكر ذلك إذا كان لنا أن نوفق بين ما يقوله أفلاطون هنا وقوله إن على الحكام أن يخترعوا أكاذيب وأساطير لمصلحة المواطنين. أما كان أفلاطون يعنى بذلك القول وأيا ما كان رأينا فيه فإنه لا يتناقض مباشرة مع مطلب الأمانة بمعنى حب ما هو حقيقى كضد لما هو زائف.

كلما ازداد ميل رغبات المرء إلى التعلّم والحكمة، وكلما كان أكثر تعلقاً بملذّات العقل، قلّ اعتناؤه بملذّات الجسد (485 د-هـ). تؤكد أفلاطون لهذه الفكرة وإيرازه لها يدلّان على ميوله الفيثاغورية ويظهران مزاجه الشخصى. لم يكن سقراط يرى عيباً فى اللذة الجسدية من حيث هى. ولكننا نسلم بأنه بقدر ما ينشغل الشخص بملاحقة الملائد الجسدية (ونلاحظ هامشياً أن 'الروح' هى التى تستشعر المتعة) يصبح أقلّ قدرة على السعى لملذّات العقل الخالصة التى هى، على ما يبدو، ميزة يختص بها الكائن الإنسانى.

الطبيعة الفلسفية تخلو من الوضاعة، فالوضاعة لا تتوافق مع عقل يطمح لأن يستوعب الأشياء الإلهية والإنسانية، فى تمامها واكتمالها (486 أ). هنا هنا تلقى واحدة أخرى من عبارات أفلاطون الملهمة التى تحدّد المسعى الفلسفى، على الأقلّ بالنسبة لكثيرين من عشاق الفلسفة. ولكن ماذا ينبغى أن نفهم بالرغبة فى التطلع لبلوغ الكلّ والكامل من الأشياء الإلهية والإنسانية؟ (*tou holou kai pantos aei eporexesthai theiou te kai anthrôpinou*). إنه ليكون من الجنون أن يحلم أى أحد بأن يعرف كلّ الأشياء فى العالم بكلّ تفاصيلها؛ وأن نسعى لمعادلة formula عامة أو نظرية تشمل الكلّ، كما نفعل فى الكوزمولوجيا العلمية وعلم الطبيعة physics، تنتج عنه درجة عالية من التجريد abstraction، قد يجد فيها العقل متعة، وقد تكون مفيدة جداً من حيث إنها تعطينا القدرة على التحكم فى الطبيعة، إلا أنها تجعل من العالم ظلاً لا أكثر. لا نيوتن Newton ولا أينشتاين Einstein كان بمقدوره أن يعطينا إدراكاً مباشراً لما يحرك أضال جزئية من المادّة. (كلا ذلك الرجلين العظيمين كان يعى ذلك تماماً). يجد الفيلسوف نَسَق ومفهوم الكلّ والتامّ والكامل فى تكامل العقل، فى حقيقة العقل الفاعل الخلاق.

من المؤكد أن أفلاطون يجعل الأمر يبدو وكأن أقلّ القلّة من الناس فقط هم من يستطيعون تذوّق الفلسفة (486 ج - هـ). وفى ظاهر الأمور يبدو أنه على حقّ. فهل نتخلى عن حلم سقراط فى أن يجعل كلّ الناس يرون النور؟ هل نتفق

بأن يتمتع بالفهم، على مدى الزمن، مجرد أقلية ضئيلة من الناس، تاركين غالبية البشر يتعفنون في جهلهم؟ لا أعتقد أن سقراط كان يمكن أن ترضى نفسه عن وجهة نظر كهذه؛ ولا أنا أستطيع أن أقتع بذلك. من المؤكد أن التفكير النظرى المجرّد واستيعاب المحاجّات الفلسفية العقلانية الحاذقة ليس مما يلائم كل الناس، بأكثر مما يكون الإبداع الموسيقى أو الفنّ بمقدور كلّ أحد. لكن هذا لا ينبغى أن يحملنا على اليأس. ففى قدرة الشعر والدراما والرواية والفيلم السينمائي والموسيقى وكل أشكال الإبداع الفنّي أن تجعل أسمى المثلّ والقيم فى متناول كل الناس ممن يتمتّعون بذكاء عادى. هذه وظيفة الفن والأدب. فيما مضى كانت الأديان، فى جوانبها الإيجابية، تؤدّى هذه المهمة، وإن يكن مع الكثير من مزيج الشرّ. لهذا سنكون دائما بحاجة للفلسفة بفعلها المزوج: إعلان حقيقة المثلّ والقيم وكشف الطبيعة الوهمية للأساطير التى تكسو بالضرورة كلّ إظهار محدّد للحقيقة. حين نرى معتقدات كل الأديان فى وضوح باعتبارها أساطير، عندئذ ربما نجد أن القليل منها فقط هو من البشاعة بحيث لا يستحق أن نستقيه كجزء من التراث الثقافى للإنسانية.

هكذا يعطينا أفلاطون، تحت رداء فيلسوفه، تصويرا لشخصية مثالية، تتمتع بكلّ الفضائل التى كرّمها المجتمع الإنسانى عبر الزمان. يقول لنا: هكذا يكون الفيلسوف، هكذا يكون الشخص السعيد وتكون الحياة السعيدة، هكذا تكون الطبيعة التى ينبغى علينا جميعا أن نقصدى بها. ألا نعهد بمدينةنا لأمثال هؤلاء الأشخاص إذا ما اکتلموا بالتعليم والسّن الناضجة؟ (487 أ).

هنا يعترض أديماتوس، وله العذر، قائلا إن 'سقراط' لم يقدم حجة تقنع خصما يتمتّع بقدر كافٍ من المهارة فى المحاجّة المنطقية. ويشير أديماتوس كذلك إلى أن الصورة التى رسمها 'سقراط' للفيلسوف قد نراها مغايرة لنماذج 'الفلاسفة' كما نلقاهم فى العالم الفعلى. فهؤلاء ينقسمون إلى فئتين: الغالبية منهم محتالون شطّار والقليلون المخلصون منهم مُدّج لا يفيدون لا أنفسهم ولا مجتمعهم.

يسارع 'سقراط' فيوافق على أن ما يقال عن هؤلاء الفلاسفة لا ظلم فيه. كيف إذن يمكنه القول بأن المجتمع لن يبرأ من علله إلا إذا حكمه الفلاسفة؟ يقول 'سقراط' إن عليه أن يجيب عن ذلك السؤال باستخدام أمثلة، ويقول أديماتوس مازحا: كأنك لم تعد أن تفعل هذا! هل أنا بحاجة للقول بأن ملاحظة أديماتوس كانت فى محلها؟ لسنا بحاجة لأن نقف طويلا عند الأمثلة (487 - ؛ 479 ج)،

ورغم أنها تصدق على مجتمعاتنا اليوم بمثل صدقها على مجتمعات عصر أفلاطون. خلاصتها أنه في المجتمعات التي يكون فيها الحكام قصر النظر والمحكومون جهلة ويصعب مراسهم، لا عجب في ألا يلتفت الناس إلى الفيلسوف الحق.

هذا يفتر لماذا يبقى الفيلسوف الحق بلا فائدة في عالمنا، فماذا عن الكثيرين الذين يسمون ظلما بالفلاسفة؟ يذكرنا أفلاطون أولا بما قلناه من قبل عن الفيلسوف الحق، الذي هو بطبيعته محب للحقيقة *alêtheia* ويتبعها دائما ويكفل الطرق. ثم، بدلا من أن يحدثنا عن الفيلسوف الدعوى، إذا بأفلاطون يفاجئنا بغيض من النور التصوفى، رؤية تستوعب، جنبا إلى جنب مع رؤية صورة الـ خير، مضمون وجوه كل فلسفة حقة. إنني علفت على هذه الفقرة (490 أ- ب) في *Let Us Philosophize* وفي ⁽⁵⁰⁾ "Knowledge and Reality"، ولن أعتمد لمحاولتي الآن أن أترجم مرة أخرى هذه الفقرة التي تستعصى على الترجمة مع إضافة بضعة أسطر من التعليق.

ألا نقتم دفاعا معقولا حين نقول إن الطبيعة الفلسفية الحقة تتوق لما هو حقا كائن، ولا تتمهل عند الأشياء الكثيرة المحددة التي يُظن أنها كائنة، بل تمضى قدما، لا تتلم رغبتهى ولا تسترخى، حتى تمسك بجوهر كل حقيقة، تمسكه بذاك في روحها الذي يليق به ذلك - ويليق ذلك بما هو نو قربي - تقرب مما له كينونة حقة وتقرن به، وتنجب عقلا وحقيقة، وتنعم بالمعرفة والحياة الحقة، وتتعدى، وعندها تستريح من آلام مخاضها، وليس قبل ذلك؟ (490 أ- ب).

في هذه الفقرة المبهرة حيث يقم لنا أفلاطون ما يمكن أن نصفه عن حق بتجربة نشوة الجماع للروح الفلسفية إذ تطلق نحو الـ حقيقة وتلتحم بها، وتبلغ الزروة في الكلمات *alêthôs zôiê*، تحيا حقا - الحياة الحقة، الحياة فى أكمل وأصدق معنى، هى الحياة الفلسفية، وهى حياة خلاقة، تلد العقل والحقيقة، هذا لبّ الجمهورية. *gennêsas noun kai alêtheian*

(50) الفصل السادس من هذا الكتاب، والذي كن فى الأصل مقالا منفصلا.

ليست الفلسفة هي معرفة الظواهر العابرة لعالم الطبيعة؛ ولا هي منظومة من المفاهيم المجردة، ولو أنها لا تستغنى عن تلك الأدوات. الفلسفة هي استكشاف العقل بالعقل، اكتشاف الحقائق التي يخلقها العقل والحقيقة الواحدة التي هي العقل الفاعل الخلاق الذي ينشئ تلك الحقائق. وعلى مثال تلك الحقيقة الواحدة تشكل فكرة الحقيقة النهائية، التي، كى تتمتع بالمعقولية، لا بد لها أن تكون عاقلة وخيرة — صورة الخير الأفلاطونية.

دعونا نلاحظ هامشياً أن أفلاطون عند تقديم هذه الصورة يقول إننا نقدم عن مفهومنا للفيلسوف دفاعاً لانقأ، *metriôs apologêsometha*، ولا يقول نقدم برهاناً له، وهو في الواقع لا يعطينا هذا البرهان في أى مكان، وما كان، في طبيعة الأمور، ممكناً لأحد أن يعطى مثل هذا البرهان.

الآن يعود أفلاطون ليلتفت إلى الأسباب المفسدة للفلسفة. يردّد أولاً ما كان قد قاله عن ندرة المواهب المطلوبة في من يرجى له أن يكون فيلسوفاً مكتملاً. والقلائل الذين تتوفر فيهم تلك المواهب يتعرّضون لمؤثرات مفسدة كثيرة وقوية. حتى الصفات البدنية والذهنية ذاتها التي امتدحناها في طالب الفلسفة يمكن أن تكون مفسدة للطالب وتنتزعه بعيداً عن دراسة الفلسفة. كلنا نعرف أن أى شئ مما ينمو، نباتاً كان أو حيواناً، إذا لم يجد البيئة والتغذية اللائقين لنموه، فإنه يتخلف، وكلما كانت خصائصه الأصلية أرقى، ساءت حاله أكثر. وبالمثل فإن الطبيعة التي تتمتع بأحسن المواهب، تصبح أكثرها شراً تحت تأثير التربية الرديئة (490 هـ - 491 هـ).

من هم من يفسدون شبابنا الواعدين؟ ليسوا أساساً السوفسطائيين، لا القدامى ولا المحدثين، الذين يعلو صياح الجماهير ضدّهم، بل هم من يشكلون تلك الجماهير أنفسهم (492 أ- 493 د). إنها القيم والمبادئ والممارسات الزائفة التي تنتشر في المجتمع وتتغلغل في أرواح شبابنا وتفسدهم. إن السوفسطائيين — في مجتمعاتنا الحديثة تقوم أجهزة الإعلام مقامهم — لا يفعلون إلا أن يخدموا أهواء ورغبات تلك الوحش، الجمهور. إدانة أفلاطون للثقافة العامة في عصره مريرة وقاسية، ولكن لو أنه جاء بيننا اليوم، في مجتمع يدفع شبابه للعنف وإدمان المخدرات والجنس المرضى يفعل قِيَمه الخاوية المنحرفة، وأراد أن يراجع ما كتبه آنذاك ليتطابق مع أحوالنا اليوم، ففي ظنّي أنه كان ليجد صيغته الأصلية أرقّ مما يجب.

الآن يطرح أفلاطون سؤالاً (493 هـ - 494 أ) قد نميل لأن نعبر به دون أن نعيره انتباهاً كثيراً، إلا أنه سؤال ذو أهمية حيوية، كما كان أفلاطون يراه على ما هو واضح. هل الناس عامة يعون حقيقة الجمال - مثلاً - متميزاً عن الحالات المحسوسة المتعددة للجمال؟ هل يعترف أكاديميونا، فلاسفتنا المحترفون، معلومنا (بأوسع معاني الكلمة)، بحقيقة شيء كهذا؟ علينا أن نكون واضحين تماماً بشأن ما نعنيه بهذا السؤال؟ إن مجرد الاعتراف بأن عندنا بالطبع أفكاراً عن مثل هذه المفاهيم الكلية *concepts of universals*، أو حتى الاعتقاد بسماء 'أفلاطونية' حيث لهذه المفاهيم وجود مستقل، كل هذا لا قيمة له. ما نحتاجه هو أن ندرك أن ما نراه ونلمسه ونقيسه بأجهزتنا ليس هو ما هو حقيقي، بل الحقيقي هو المفاهيم المعقولة التي تضيء المعنى على ما نراه ونلمسه ونقيسه. هذه المفاهيم هي الحقيقة، وعالم المفاهيم هو عالم الحقيقة. المفاهيم هي الوسيط الذي فيه وحده يكون للموجودات الفعلية معنى وقيمة - هذا ما يشكل طبيعتنا الإنسانية الحقة. وهذه المفاهيم هي هبة العقل الفاعل. وذلك العقل الفاعل - تكامل وعافية ذلك العقل الفاعل - هي جماع كرامة وقيمة الكائن الإنساني. ذلك ما أنفق سقراط عمره كله يدعو إليه. أمضى حياته كلها يحاول أن يزيل كل ما يعم ويظلم ويزيف ذلك العقل الفاعل *phronêsis* الذي هو كل ما لنا وكل ما نكون. دعوني أضع هذا في صيغة مختلفة، حتى وإن بعد بنا هذا كثيراً عن لغة أفلاطون، ولكن ليس عن جوهر فكره على ما أعتقد: الحقيقة المعقولة هي بُعد متمسك *transcendent dimension* لكل كينونة. حين نعرى الواقع الفعلي من البعد المتسامى للحقيقة، نُفكر العالم، نجعل الحياة سطحية، عندئذ يصدق حقاً قول القائل: باطل الأباطيل، الكل باطل.⁽⁵¹⁾

الفقرة الطويلة في 495-أ-497-ج عن اغتراب الفلسفة لا تتطلب الكثير من التعليق. حيث يتحدث أفلاطون عن الإغراءات والعوائق التي يتعرض لها راغب الفلسفة، لنا أن نتصور أنه كان يسجل تجربته الشخصية. السخرية المريرة التي يوجهها للأدعياء ومغتصبى دور الفلسفة الحقة تنطبق على موقفنا المعاصر تماماً كما كانت تنطبق على عصره. من الناحية الإيجابية، أعتقد أن طول ونبرة هذه الفقرة يدعمان وجهة نظري القائلة بأن الموضوع الرئيسي للجمهورية هو طبيعة وقيمة الحياة الفلسفية، التي هي نفسها الحياة الفاضلة، والتي هي نفسها الحياة السعيدة على ما يُرجى. (أن نمارس الفلسفة وأن نلتزم

⁽⁵¹⁾ سفر الجامعة 1 : 2.

الفضيلة، ذلك أمر في مقدورنا، ولكن كل ما في مقدورنا فيما يتعلّق بالسعادة أن تكون لنا إمكانية أن نعلم بالسعادة، أما أن نحظى في الواقع بالسعادة فذلك يتوقّف على أشياء خارجة عن ذاتنا. هذا ما أدركه الرواقيون (Stoics جيداً).

تعليم الفيلسوف

نمضي الآن إلى السؤال: أي مدينة تكون جديرة بالفيلسوف؟ هل هي المدينة التي كنا مشغولين بتأسيسها؟ يجيب 'سقراط' بأنها تلك المدينة بصفة عامة، غير أننا نحتاج أن يكون لنا في المدينة عقل أو عقول، إذ تتولّى الحفاظ على النظام الأساسي وعلى القوانين، تكون لها الحكمة التي مارسناها في صياغة ذلك النظام وتلك القوانين (497 ج - د). وهكذا نجد أنفسنا بإزاء السؤال عن تعليم الحاكم الفيلسوف أو الحكام الفلاسفة. أيّ ما كانت المدينة المثالية المقترحة تعني بالنسبة لأفلاطون، وأيّ ما كان رأينا، وأيّ ما كان من الممكن أن يكون رأى سقراط في احتكار الحكمة والفهم من جانب القلة، فعندى أن مغزى وقيمة ما يلي يكمنان في بيان طبيعة التفكير الفلسفي والحياة الفلسفية.

ينبغي أن يأخذ تعليم الفلسفة مساراً هو على العكس مما يتبع حالياً (497 هـ). الآن يشرع باحثو الفلسفة في دراستها وهم محض صبية، وعلى الفور يفرسون بهم في أصعب أجزاءها، أي التفكير العقلاني (498 أ). (يستخدم أفلاطون هنا عبارة⁽⁵²⁾ *to peri tous logous* التي يترجمها البعض بـ 'الديالكتيك'. بالنظر لعدم التزام أفلاطون لمصطلح مستقرّ، فإن هذا ليس بالأمر الخطير، ولكن حيث إن أفلاطون فيما بعد يعالج الديالكتيك تحديداً، فمن المستحسن أن نتجنب استخدام هذه الكلمة هنا). وبعد قليل يرونهم كفلاسفة مكتملين لا يحتاجون أن يشغلوا أنفسهم بالدراسة بعد ذلك.

في الفقرة التي يقول فيها أفلاطون إن الفيلسوف الحقّ، إذ يتجه بعقله إلى الأشياء التي لها كينونته، *tois ousi*، ليس عنده متسع من الوقت لأشياء العالم التافهة، بل يشهد النظام الأزلي (500 ب - ج) — فإن نبرة وإيقاع العبارة هنا في ذاتهما ينبغي أن يقتعانا بأن الفلسفة الحقّة عند أفلاطون كانت تجربة تصورية. إننا لا نستطيع أن نعرف الحقيقة إلا إذا شهدنا الحقيقة في ذاتنا، ولن نستطيع أن نشهد الحقيقة في ذاتنا إلا إذا اقتنعنا، مثل سقراط، بأن اكتمالنا العقلي

(52) نرى هل كان هذا التعبير هو ما أوحى بمصطلح 'علم للكلام' عند فلاسفة المسلمين؟

والأخلاقى هو قيمتنا الحقّة وهو كل حقيقتنا. هذه هي الحقيقة التى منها نعتبر أشياء العالم حقيقتها. فى مطلع هذه الفقرة يتحدّث أفلاطون عن توجّه الفيلسوف الحقّ بعقله إلى الأشياء التى لها كينونة *tois ousi*، ذلك أن الحقائق المعقولة وحدها يمكن أن يقال عنها بحقّ أنها كأننة، كل الموجودات الفعلية فى العالم لها كيان ودوام فقط للعقل وفى العقل. كان أ. ن. وايتهد *A. N. Whitehead* على حقّ حين قال إن أفلاطون بتركيزه المبالغ فيه على دوام وثبات الحقائق لم يترك مجالاً للصيرورة إلا حين كان - ككلّ مفكر ذى عمق - يخترق حدود منظومته الفكرية. (*Modes of Thought*، Lecture Five، 1938، "Forms of Process") كان وايتهد على حقّ، إلا أن أفلاطون أيضاً كان على حقّ فى تركيزه على أزلية الحقيقى، ولكن علينا أن نرى تلك الأزلية متعلقة ليس بالمفاهيم (الصور)، بل بعالم المعقول، أو بتعبير أصحّ، بالعقل الفاعل الخلاق، وهى ليست أزلية مستقرّة أو أزلية بمعنى امتداد لانتهائى للزمن، بل هى تسام على المتحوّل والمحدود فى حقيقة المعقول.

إذا وجد الفيلسوف، وهو على ما وصفناه، نفسه ملزماً بأن يشكل الأفراد الآخرين والمجتمع عامّة فى توافق مع رؤيته للحقيقة، أن يكون صانعاً جيّداً للآذان والعدل وبقية الفضائل العامة؟ (500 د). ها هنا على ما اعتقد يمكننا أن نضبط أفلاطون واقفاً فى واحدة من تلك التناقضات التى يوقعه فيها التناظر بين فكره ومزاجه الشخصى. فى المحاورات الباكورة نجد مراراً، إما صراحة أو فى تضمين واضح، أن كل ما يستطيعه الحاكم الصالح هو أن يجعل مواطنيه حكماء (مثلاً فى *الديوتيموس* 292- ب وفى *الجورجياس* 515- أ د). هذا فى اعتقادهى موقف سقراطى أصيل. فى مدينة الجمهورية يجعل الحكّام مواطنيهم شخوصاً آليّة *robots* متخصّصة، يؤدّون واجبات معينة، وحتى فى الفقرة الحالية حيث يتحدّث عن جعل الفيلسوف مواطنيه فضلاء، فإن أفلاطون يابى إلا أن يكيّف الفضيلة بصفة الشعبية *démotikē*.

ماذا يمكن للفيلسوف، رجلاً كان أم امرأة، أن يصنع بالفعل لمجتمعه؟ لا يمكنه أن يصنع خيراً إلا كعلّم، يعمل على التنوير وعلى تقدير القيم الحقّة. المجتمع الذى يتبنى القيم الحقّة باقتناع ودفء، لا يمتدحها من طرف اللسان فحسب، ذلك المجتمع وحده يمكن أن يكون مجتمعاً خيراً. إن مجلساً رئاسياً يتكوّن من الفلاسفة على رأس مثل هذا المجتمع لن تكون له ميزة على مجلس رئاسى يتكوّن من خبراء فى الزراعة والصناعة والصحة وما إلى ذلك.

متى تولى الفيلسوف شئون المدينة ليشكلها على مثال النموذج الإلهى يبدأ بأن يجلو صفحتها ببيضاء (501 أ). نوافق بلا تردّد على أن هذا جزء، أو جزء

رئيسي، من عمل الفيلسوف: أن يزيل المعتقدات الخاطئة والمفاهيم المغلوطة والقيم الزائفة، وهذا بالضبط ما كان سقراط يفعله في حواراته على امتداد حياته. الإنسنان، إذا لم ينحدر لمستوى الحياة البهيمية الخالصة، لا محيص له عن أن يحيا بموجب فلسفة ما للحياة، واعية أو مُضْمرة، وفي صحبة فلسفة حياة خاطئة لا يمكن لأي تنظيم ولا لأي منظومة قوانين، أن تحقق مجتمعا خيرا.

دعونا نلاحظ هامشيا أن أفلاطون حين يتحدّث في 501- ب عما هو عادل بالطبيعة، *to phusei dikaion*، إلخ، فمن الواضح أن كلمة *phusei* تعني في الحقيقة، في عالم المعقول، لا في الطبيعة بالمفهوم المعتاد.

بعد أن نستريح لكوننا أقمنا الناس بأفضلية حكم الفلاسفة، نتجه للنظر في إمكانية تحقيق هذا. ويبدو أن أفلاطون يقنع بالقول بأنه، رغم أن هذا صعب جدا، إلا أنه ليس من المستحيل أن يحدث في مكان ما من الدنيا، في وقت ما على امتداد الزمن اللانهائي، أن يولد لحاكم ما طفل يتمتع بموهبة الطبيعة الفلسفية، وبطريقة ما ينجو من عوامل الفساد، ويحين حين يمسك فيه بزمام الحكم في الدولة فيحكمها بالحكمة (502 أ. ب). هكذا يبدو أن أفلاطون معنى أساسا باستنقاذ المثال. أما أن يتحقق المثال أبدا في العالم الواقعي فذلك شيء نتركه للعناية الإلهية. من ذا يستطيع أن يلومه؟ نحن في نفس موقفه. كل منا، رجلا كان أم امرأة، بمقدوره، ويجب عليه، أن يفعل أقصى ما بوسعه ليمهد الأرض، ولكن إذ ننظر لعالمنا اليوم، من ذا غير شخص أحمق أو جورج دبليو بوش⁽⁵³⁾ George W. Bush يستطيع أن يتطلع للمستقبل وهو موفور الأمل؟

المعرفة والحقيقة

أخيرا نعود في 502- ج - د لنلتقط الخيط الذي كنا قد تركناه معلقا بعد أن بدأ أننا تهيأنا لمعالجة مسألة تدريب وتعليم الحاكم الفيلسوف في 497- ج - د. هذا السؤال يأخذنا إلى قلب النظرية الأفلاطونية في وحدة المعرفة والحقيقة. تماما كما كان سقراط يرى العقل الفاعل *phronêsis* والفضيلة *aretê* وجهان أو بُعدان لشيء واحد، كذلك كان أفلاطون يرى العقل *phronêsis* أو *nous*، والكائن *to on*، والكينونة *ousia*، أوجها أو أبعادا لنفس الشيء، وحين نأخذ في الاعتبار أن الحقيقى في منتهى الأمر هو الخير، يمكننا أن نرى أن وجهتى النظر هاتين ليستا منفصلتين بل هما متحدتان تماما. لم يكن أفلاطون

(53) انظر الهامش 39.

هنا يراجع الموقف السقراطي بل كان يطوره. هذا قلب الأفلاطونية وهو مبدئ فيما بقي من الباب السادس وفي الباب السابع. هذا هو المنظور الذي خصّصت له الفصل السابق، "المعرفة والحقيقة"، وأمل أن يكون ما يلي تكملة ذات مغزى لما قلته هناك.

هكذا بعد انتقاء الحكام واختبار ثباتهم تحت غواية اللذة ومعاناة الألم، علينا أن نبدّم للحكم بأن نجعل المميّزين من بينهم فلاسفة مكتملين. ولكننا بطبيعة الأمور لن نجد إلا قليلاً ممن هم لائقون لهذا. فالخصائص العديدة التي طلبنا اجتماعها في الفيلسوف نادراً ما توجد مجتمعة في فرد واحد؛ إنها عادة ما توجد منفصلة (502 هـ - 503 ب). أشعر بأن سقراط ما كان ليسعه أن يسمع هذا. أوجب أن تكون الحكمة دائماً امتيازاً قاصراً على القلة؟ كان سقراط يتوقّع أن يكون كل شخص عادى قابلاً لأن يرى النور. من الواضح أن موهبة التفكير النظرى لا توجد عند كل أحد، وأكثر مما توجد موهبة الرسم أو موهبة أداء العمليات اليدوية الحاذقة. لكن ما يصدق من قول عن الحياة الأخلاقية، أو على الأصح، لكن حقائق الحياة الأخلاقية، توجد في داخلنا، ويمكن بعثها بالقوة الحسنة، وبالفنّ الجيّد، وبالآدب الجيّد، كما يمكن بعثها بالفلسفة الجيّد. هذه حكمة الـ 'اعرف ذاتك' *gnôthi sauton*. لا ضمان لأن يكون المتخرّج من أكاديمية أفلاطون شخصاً طيباً، إلا إذا كان قد تأثر بشخصية الأستاذ. ومع هذا فإني ما زلت أصرّ على أننا، في بيان أفلاطون عن إعداد الفيلسوف، نملك ميّافيزيقا الحياة الأخلاقية، والمبادئ الأولى للفلسفة التي نحتاج أن نستوعبها وأن ننشرها في كل المجتمع الإنساني إذا أردنا - في عبارة أفلاطون - انتهاء شرور الإنسانية. عندنا اليوم عدد عديد من الأديان، وكلها، كل واحد منها وكلها مجتمعة، قد صنعت من الشرّ أكثر كثيراً مما صنعت من خير. لكننا لا نستطيع ببساطة أن نلقى بها بعيداً. فرغم أن ذلك قد يخلصنا من الصراعات التي تنشأ مباشرة من التعصّب الديني، إلا أنه لن يزيل الصراعات الأخرى والمشاكل الأخرى، إلى جانب أنه سيفقر ثقافة المجتمع الإنساني بدرجة كبيرة. نحتاج فلسفة تعبّر عن المبادئ النهائية والقيم النهائية دون أن تكون دوجماتية لأنها تعرّف بأن صياغتها هي بالضرورة قاصرة وأن جوهرها لا يمكن الإدلاء به إلا في تعبيرات أسطورية مختلفة. هذا في اعتقادي تهيّئه لنا الأفلاطونية. وإن

بدا ما أقوله هنا ملغزاً، فبني أمل أن يبدو أقل إلغزاً حين يؤخذ بصحبة ما يلي وما ظلت أردده في مواضع أخرى، خاصة في *Let Us Philosophize* وفي *"Philosophy as Prophecy"* و *"On What Is Real"* وفي هذا الكتاب.

حين يقول 'سقراط' إن علينا أن نختبر من اخترناهم للحكم، فممتحن خصانصهم الأخلاقية وقوتهم على تحمّل الدراسة الشاقة، وندربهم في أعظم الدراسات كلها، يتساءل أديماتوس: ما هذه الدراسة التي هي أعظم الدراسات كلها (503 هـ - 504 أ). في الإجابة على هذا السؤال يعود أفلاطون لطرح فكرة التقسيم الثلاثي للروح. يبدأ 'سقراط' قائلاً: "هل تذكر كيف...؟"، فيجيبه أديماتوس مؤكداً: "إن كنت لا أتذكر ذلك، لن أكون جديراً بأن أستمع لما يلي". هل يشير ذلك إلى أن أفلاطون كان يعتبر نظرية التقسيم الثلاثي للروح أساسية في بيانه لطبيعة الفلسفة والحقيقة؟ من المؤكد أن فكرة العقل *nous phronêsis* باعتباره ذاك الذي يميّز به الإنسان ويمتاز به - وهي فكرة سقراطية أصيلة - هي حجر الزاوية للأفلاطونية. لكنني لا أستطيع أن أتبيّن ارتباطاً بالضرورة بين فلسفة المعرفة والحقيقة (أتجنب عمداً تعبير 'نظرية المعرفة' هنا) ونظرية الروح ثلاثية الأجزاء. يستخدم أفلاطون التوازي بين الروح ثلاثية الأقسام والدولة ثلاثية الطبقات ليعطي بيانا عن العدل كتناغم ينتشر في الكل. هذا كل ما هنالك. لكنني أحتفظ بأى تعليق آخر على الروح ثلاثية الأجزاء لدراسة منفصلة.

إن لنا في تقسيم أفلاطون الثلاثي للروح (العقل) مثالا كاشفاً للتشظية النظرية لما هو كلٌّ في مفاهيم متميزة، تشظية قد تكون مفيدة جداً لغرض محدّد بدقّة، إلا أنها مع ذلك يمكن أن تكون ضارّة جداً إذا أُخذت باعتبارها تمثّل واقعا موضوعياً نتوهمه نهائياً. كل التمييزات النظرية تتطوى على هذا الخطر. علينا أن ندرك أن كلّ التمييزات النظرية، كل المفاهيم، تأتي معها بالزيف مخبئاً خلف ظهورها. كي لا نكون ضحايا لهذا الزيف علينا، كلما استقبلنا مفهوماً، أن نطلب منه في أدب - بعد أن نبدي امتناننا للخدمة الطيبة التي يؤدّيها لنا - أن يستدير ويرينا الزيف الذي يلتصق بظهوره دون انفصال. ذلك واجب الفلسفة: أن تجعلنا نعي صدق القول بأن لا مفهوم محدّد ولا أى صياغة للفكر محدّدة يمكن أن تكون مطلقة. لعلّ هذا هو الدرس الرئيسي للدهرمنيديس.

يعلن 'سقراط' الآن أنه غير سعيد ببيانه السابق عن العدل والفضائل الأخرى (في 455 والصفحات التالية حيث استخدم فكرة الأجزاء المنفصلة

للروح)، برغم أن محاوريه كانوا راضين عن ذلك البيان. يقول إنه في مثل هذه الأمور فإن الصدق التقريبي ليس حسنا بما فيه الكفاية؛ نحتاج تفسيراً أكثر دقة (504 ب - ج). فيما سبق اخترنا المسار المختصر، لكن حرّاسنا ينبغي أن يسلكوا المسار الأطول وإلا فإنهم لن يبلغوا أبداً تلك الدراسة التي هي الأعظم والأفضل التي ألمحنا إليها (504 ج - د). يتساءل أديمانتوس متعجباً: اليس البحث الذي كنا مشغولين به، البحث عن العدل والفضائل الأخرى، هو أعظم الدراسات؟ أهناك دراسة أعظم من هذه؟

صورة الخير

يوصل أديمانتوس إلحاحه: ما هذه الدراسة العظمى؟ فيجيبه 'سقراط' مداعباً: إنك سمعت ذلك كثيراً، لكنك تريد مضايقتي فحسب، فإنك كثيراً ما سمعت أن صورة الخير هي أعظم دراسة (504 هـ - 505 أ). أجل، كلنا كنا نقول طوال الوقت إن كل ما يُعمل يُعمل للخير وإنه بغير الخير لا نفع في شيء أبداً؛ لكن هذه أقوال مبتذلة، أما الآن فإن الخير يأخذ معنى جديداً وعمقاً جديداً، ولا عجب في أن سقراط يعضى فيقول إننا لا نعرف الخير معرفة كافية (505 أ). وفي الواقع، كما سنرى فيما يلي، فإننا بعد كل ما قلنا عن أعظم الدراسات وعن دراسة الخير، سنجد أنه ليس هناك علم للخير ولا دراسة مباشرة للخير. هناك فقط اقتراب مثابر، تطّلع مثابر، للخير. دراساتنا، حين نمضى فيها بطريقة سليمة، ستفقدنا إلى حيث نحظى بروية للخير. وأين نشهد تلك الروية؟ داخل أنفسنا. إنها نفس الروية التي ظلّ سقراط يهودنا لاكتشافها إذ يهودنا لاكتشاف حقيقتنا الداخلية وقيمتنا الحقّة في عقلنا الفاعل. وهي نفس الروية التي نتخذ تعبيراً تصوّفياً في الصعود التصوّفي الذي تصفه ديوتيمات في المأساة. إنها حقيقتنا الداخلية، إلا أنها، في عقل أفلاطون الخلاق، قد ولدت فكرة الحقيقة المطلقة. كان سقراط يؤمن بالله باعتباره مبدأ الكمال الأخلاقي؛ أما أفلاطون فقد خلق الله الذي هو الكمال الميتافيزيقي.

يقول الكثيرون إن الخير هو اللذة؛ هؤلاء يمكننا ببساطة أن نزيحهم جانباً، ولو أن 'سقراط' هنا يقبل لنفسه أن يغلبهم بالحجة؛ أما من هم أفضل من هؤلاء فيقولون إن الخير هو العقل (*phronēsis*)، ولكن علينا أن نتذكّر أن أفلاطون لا

يلتزم أبداً بمصطلح ثابت)؛ ولكن متى سألتهم: عقلٌ لماذا؟⁽⁵⁴⁾ فلا يستطيعون أن يقولوا غير أنه عقلٌ للخير (505 ب). هنا علينا أن نتذكر المسار المعتاد للحوار السقراطي: الفضيلة هي المعرفة؛ معرفة ماذا؟ معرفة الخير؛ أي خير؟ — ونجد أن لا خير بغير المعرفة، ومع أن الحوار السقراطي ينتهي شكلاً بالحيرة، إلا أنه يُعَدُّ العقل لأن يدرك أن خيرنا الحق هو في ذلك العقل الذي ظل يلف بنا ويدور.

هكذا حين يقول أفلاطون إن أولئك الذين يعادلون الخير بالعقل لا يستطيعون أن يقولوا أي عقل، وإنما هم مجبرون على أن يقولوا إنه عقلٌ للخير، "وهذا مضحك" (505 ب - ج)، لنا أن نتساءل: هل قصد أفلاطون بذلك نقد الحوار السقراطي؟ أم كان ذلك مجرد حيلة أدبية ليقودنا لفهم صحيح لنتيجة الحوار السقراطي؟ إنني أقول إن الحوار السقراطي يقودنا لبصيرة أن الخير الذي يسمو على كل خير محدد وكل معرفة محددة هو ذلك العقل الفاعل ذاته، الذي يكون فيه العقل الفاعل الخلاق والحقيقة شيئاً واحداً. تخبرنا الجمهورية بأن الخير الذي يسمو على كل كينونة محددة وكل خير محدد وكل معرفة محددة هو صورة الخير، ممثلة في أمثلة بالشمس.

كان سقراط يسعى لفهم الفضيلة - الفضائل المفردة والفضيلة في مجملها - لكنه أبداً لم يزعم أنه قدم أو أنه كان في مقدوره أن يقدم بياناً مرضياً عن ذلك. كان منهجه وكان غرضه أن يقود محاوره لأن يدرك أن عليه أن يجد كل ذلك داخل عقله ذاته، في ذلك العقل الفاعل الذي لا يستقر أبداً والذي به يكون الكائن الإنساني كائناً إنسانياً. الآن يسعى أفلاطون لأن يؤسس لتلك البصيرة في رؤية ميتافيزيقية. (معذرة عن المفارقة الزمنية في استخدام لفظ 'ميتافيزيقي' هنا). إنه في الواقع يخلق مفهوم الحقيقة بمعنى الكمال المطلق؛ لا كمال الضرورة المنطقية كما في واحد پارمنيديس Parmenides؛ ولا كمال اللامحدود عند أناكسيماندر Anaximander؛ ولا كمال نار هيراكليتوس Heraclitus التي تلتهم كل شيء؛ إنما الحقيقة التي كان مقترراً لها فيما بعد أن تجد تعبيراً، بدرجات متفاوتة من التوفيق، في السبب الأول عند أرسطو Aristotle، وفي تخطيطات البرهان الأونطولوجي Ontological Proof من أنسيلم Anselm

⁽⁵⁴⁾ 'عقل' هنا مصدر بعقل، أي فعل العقل.

حتى ديكارت Descartes، وفي مبدأ السبب الكافي principle of sufficient reason عند لايبنتس Leibniz، وفي جوهر سبينوزا Spinoza، وفي مطلق المثاليين الألمان، وليعتقد لي غروري حين أضيف: وفي الأزل الخلاق عندي (Let Us Philosophize)، الباب الثاني، الفصل الأول). لا يمكن للفلسفة أن تدعى الاتساق نون أن تتخذ مفهوم الـ حقيقة بمعنى الكمال أساسا لها. استبعاد ذلك المفهوم يعنى الركون لمعطيات العالم الموضوعي المتعددة باعتبارها نهائية. وأولئك الذين يركنون لهذا يتحدثون عن تلك المعطيات باعتبار أن لا شيء كانن سواها. إذا لم يقبل القارئ اعتبار ما أقدمه تأويلا لأفلاطون، فليسمح لي بأن أقول إن ما أقدمه هو تطوير خلاق لفلسفة أفلاطون بمثل ما كانت فلسفة أفلوطين Plotinus تطويرا خلاقا لتلك الفلسفة.

بعد ما قاله سقراط لتوه يأتي سؤال أديمانتوس في 506 - ب، "ولكن أنت يا سقراط، ماذا تقول عن الخير، أهو المعرفة أم اللذة أم شيء آخر؟"، يأتي هذا السؤال فيبدو سخيفا، ولو أنه جائز من الناحية الشكلية، إذ أن سقراط لم يقل غير إن البعض يقول هذا والبعض الآخر يقول ذلك. لكن في الهيكل المعماري للـ جمهورية فإن هذا السؤال يأتي كمقدمة لواحدة من تلك الفواصل التي اعتاد أفلاطون استخدامها في أعماله ليمهد لمرحلة من المحاجة ذات أهمية خاصة وليضعها تحت ضوء أسطع. هكذا نجد هنا أن التوقف المؤقت في مسيرة المحاجة الرئيسية، وكذلك عودة جلاوكون للمشاركة في الحوار، لا يسهم فقط في تركيز الضوء على ما يلي، وإنما يراد به أيضا أن يحدثنا من أن نتوقع بيانا نظريا وافيا عن الخير.

حين يتمنع 'سقراط' ويبدو مترددا في أن يعالج الموضوع، يقول جلاوكون إنهم سيفتقون ببيان عن الخير مماثل لذلك الذي أعطى عن العدل والفضائل الأخرى (506 د). يقول 'سقراط': لنذع جانبا السؤال عن ماهية الخير في ذاته، لكني سأحدثكم عن وليد للخير، يماثله كثيرا. لماذا يتمنع أفلاطون عن أن يعطى بيانا عن الخير؟ ليس لأن ذلك صعب، بل لأن ذلك مستحيل. إن معرفتنا بالـ حقيقة النهائية لا يمكن صحتها في صيغة من الكلمات، ولا في صياغة فكرية محددة. هذه المعرفة الأعلى، معرفة الخير، لا يمكن نقلها من خلال أي بيان نظري مكتمل. إنها تجربة نالها في مسار بحثنا عنها بالعقل. البيان النظري الجيد قد يكون مناسبة تتيح للدارس المخلص أن يبلغ رؤية الـ حقيقة؛ لو لم يكن

الأمر كذلك لما كان لكل المؤلفات الفلسفية أى مبرر. لكن ليس من المستحيل فحسب أن تستفد الحقيقة فى أى بيان مصاغ، بل إن أى بيان مصاغ لا بد بالضرورة أن يزيّف الحقيقة. لهذا يجب دواما إخضاعه للنقد. وهذا ما أعنيه حين أقول إن كلّ تعبير فلسفى هو بالضرورة أسطورى. (انظر *Let Us Philosophize* خاصة الباب الأول، الفصل الثامن، و *Philosophy as "Prophecy"*.)

قبل أن يقم 'سقراط' بيانه الموعود عن وليد الخير يذكر مستمعيه "بما كنا نقوله دواما": عندنا من ناحية الأشياء الجميلة المتعددة والأشياء الحمسة المتعددة التى نجدها فى العالم؛ وهناك من ناحية أخرى، فى مواجهة كل فئة من المتعدّد، الصورة الواحدة؛ وبينما المتعدّد محسوس فإن المفهوم (الصورة) الواحد معقول خالص (507 ب). هذا ما كان ينبغى أن نتوقّع؛ كل ما سيقال لنا عن المعرفة والحقيقة والخير أساسه تمييز سقراط العتيد بين عالم المحسوس وعالم المعقول، وهذا ليس نظرية ولا هو اكتشاف، وإنما هو خلق لفكرة، فكرة ذلك الشيء فىنا الذى هو منببت عالم المعقول الذى فيه يكون للكانن الإنسانى كينونته الحقبة. يقول تيلر A. E. Taylor بحق: "حين تذكر الصور فى محاوراة أفلاطونية، فإنه لا يقم شرحا لحقيقتها ولا برهانها عليها" (*Plato*، صفحة 285). لكن هذا ليس لأن أعضاء دائرة سقراط "يعرفون تماما ما تعنيه النظرية ولن يجادلوا فى صدقها"، كما يعتقد تيلر، (كان أفلاطون يكتب لجمهور يمتدّ فيما وراء تلك الدائرة)، إنما لأن الصور لا يمكن لا شرحها ولا برهناتها، ولا هى تحتاج شرحا ولا برهانها. الصورة هى المعقول؛ معقوليتها هى الوضوح الذاتى لحقيقتها.

بعد أن قررنا أن هناك، من ناحية، أشياء جميلة متعددة وأشياء حسنة متعددة، وهناك من ناحية أخرى الواحد الجميل فى ذاته والواحد الحسن فى ذاته، وأن إحدى الفئتين مرنية والأخرى معقولة، يسأل 'سقراط': بماذا نرى المرنى؟ ويجيب جلاوكون: بالبصر. ويوحى هذا فى وضوح بأننا نرى 'المعقول بالعقل. ولكن بدلا من أن نمضى مباشرة لهذا القياس التمثيلى analogy، فإن أفلاطون يبنى أمثلة مركبة حيث النور ومصدر النور، أى الشمس، يعطيان العين والبصر القدرة على الرؤية ويعطيان الأشياء المرنية قابلية أن ترى، فى مقابل الخير ومصدر الخير، أى صورة الخير، اللذين

يعطيان العقل والفكر القدرة على الفهم ويعطيان الأشياء المفهومة معقوليتها (507 ج - 508 ج). الآن يعطى 'سقراط' الأمثلة مزيداً من التطوير: العين حين لا تستقرّ على ذلك الذى يكتسب اللون من نور النهار بل على ذلك الذى يغلغله الظلام فإبها تمشى وتبدو كأنما فقدت البصر، بينما إذا توجّهت إلى ذلك الذى يسطع عليه نور الشمس فإبها ترى فى وضوح وتنعم بالبصر. وكذلك الروح، حين تستقرّ على ذلك الذى يسطع عليه نور الحقيقة فإبها تفهم وتنعم بالعقل، بينما إذا توجّهت إلى ذلك الذى تختلط به الظلال، ذلك الذى هو عرضة للصيرورة والفساد، فإبها تتذبذب فى ظنها وتظلم وتبدو كأنما فقدت العقل. ذلك الذى يزود العارف بالمعرفة والأشياء التى تُعرف بالحقيقة هو صورة الخير. صورة الخير هي مصدر الفهم والحقيقة، إلا أنها غير هذين وتفوقهما حسناً. وكما أن النور والبصر لهما بالشمس انتساب إلا أنهما ليسا الشمس، فكذلك الفهم والحقيقة لهما بالخير انتساب إلا أنهما ليسا الخير؛ الخير أكثر حسناً وأعظم قيمة (508 ج - 509 ج). هل نقول إنه كما جسّد المسيحيون الأب فى الابن، سبقهم أفلاطون فجسّد الخير فى الشمس؟ ليت المسيحيين اعترفوا بأن جسّدتهم لم يكن أكثر من تصوير جميل!

هكذا نجد هنا جوهر نظرية وحدة الحقيقة والخير والعقل، التى منها تتبع نظرية درجات الحقيقة والمعرفة، التى يقدمها لنا أفلاطون رسماً فى الخط المنقسم، ويقدمها رمزاً فى حكاية الكهف. وتعبير آخر، إن أمثلة الشمس ونظرية الخط المنقسم وحكاية الكهف ثلاثتها ببساطة تعبيرات مختلفة عن نفس البصيرة، وفى اعتقادى أنها نفس البصيرة التى أهدانا إياها سقراط حين أعلن أن عالم المعقول، الذى يولد فى العقل ويلده العقل، هو كل حقيقتنا وكل قيمتنا.

ها هنا نجد الأفلاطونية كلها فى أمثلة. لا حجة، لا برهان، لا تظاهر حتى بتقديم حجة أو إقامة برهان، بأكثر مما فى أمثولات يموسع الناصرى. الأمثلة تعرض رؤية، تعرض نسفاً من المفاهيم يضيف المعقولة على التجربة الإنسانية كلها وعلى كل معطيات العالم. هذه وظيفة الفلسفة وهذه قوة الفلسفة، أن تعطينا الفهم من خلال رؤى نبوية.

قد تسأل: هل نرضى بوهم؟ إنه وهم يخلق الحقيقة. إنه ليس زيفاً لأنه لا يزعم أنه يسجل أو يمثل أى شيء موضوعى. إنه يعطينا القدرة على أن نكون فى أنفسنا حقيقة. حقيقته هي حقيقة عقلنا الفاعل الخلاق. ولسنا مخدوعين حين

نقول: هذه هي الحقيقة، ولا بد للحقيقة أن تكون هكذا، وإلا فإنها لا تعنى شيئا لنا. أولئك الذين يظنون أننا نحن الأفلاطونيين حاملون، يظنون هذا لأنهم واقعون في برائن دوجماتية تصرّ على أن أشياء العالم المتغيّر المحسوسة هي كل ما هنالك من حقيقة.

في 379-أ. ب قيل لنا إن الشعراء يجب أن يتحدّثوا عن الله كما هو في حقيقته، وإن الله خيرَ حقًا. لنا أن نقول إن هذه هي الأسطورة الأساسية في كل الفلسفة. يعادل الفيلسوف الحقيقة النهائية بالكمال، وفي المكان الأول الكمال الأخلاقي، لا لأن هذا واقع يمكنه أن يجد دليلًا عليه ولا لأنه صدق يمكنه أن يستنتج من أي مقدمات، ولكن لأن هذه هي فكرة الـ حقيقة التي تضيف على الحياة معنى وقيمة. هل نحن إذن نخدع أنفسنا؟ كلا. إنني، مثل كنت في لحظات جرأته، أقول إن التفكير العقلاني ليس بمقدوره أن يكتشف معنى أو قيمة في العالم الفعلي. حين يتعامل العقل مع العالم 'الخارجي' فكل ما يستطيع أن يعطينا إياه هو ظواهر وتغيّرات ومعادلات، كلّها معتمّة تمامًا على الحقيقة التي تقدّمها لنا الفلسفة هي حقيقتنا نحن، لكنها أيضًا حقيقة نستطيع أن نقول عنها: إذا كان لنبي وأصل وأساس كل الأشياء أن يكون معقولًا فلا بد أن يكون هكذا. لهذا أقرّر أن كل ما نعرف من الحقيقة هو العقل الفاعل الخلاق في أنفسنا، ومع ذلك أعتقد أنه يجوز لنا أن نقول: إن كان للـ حقيقة النهائية أن تكون معقولة فيجب أن تكون في منتهى الأمر خيرة وعاقلة. وأجدني مع كيتس Keats أكرّر: هذا كل ما تعرفون على الأرض وما تحتاجون أن تعرفوا.

الخط المنقسم

الخط المنقسم (509 د- 511 هـ) ليس سوى تمثيل تخطيطي لفلسفة المعرفة والحقيقة التي تحتويها أمثلة الشمس كتصوير للـ خير. لكننا هنا نجتمع مع الأمثلة وما تمثله الأمثلة، وهكذا نحصل على مسار متصل، في أحد طرفيه الحقيقة التامة والعقل التام والمعقولة التامة، مع التدرج إلى ما هو أقل حقيقة وعقلًا ومعقولة. لهذا نجد الخط المنقسم خطأ مستقيمًا، ولكنه منقسم بحيث يقابل جزأه الرئيسيّان الوالد والوليد في الأمثلة.

هكذا نحصل على تمثيل لعالمين: العالم الحقيقي المعقول، وقمته ومنبعه الـ خير، وعالم الحقيقة الأقل والمعرفة الأقل الذي نعرفه بجواسنا والذي هو

تصوير وانعكاس للعالم الحقيقي. التقسيم الثانوى لكل من القسمين المعقول والمحسوس هو تقسيم اعتباطى، لأن الخط كله فى الواقع خط متصل. ساحاول إلا أعلق تفصيلا على ما بقى من الباب السادس، أولا لأنى تناولته فى الفصل السادس، "المعرفة والحقيقة"، وثانيا لأن "الخط المنقسم" قد نال بالفعل حظا وفيرا من اهتمام الباحثين.

هكذا نجد عندنا الخير، على رأس عالم المعقول، والشمس، على رأس عالم المحسوس. فلنمثل الكل المكوّن من هذين العالمين بخط منقسم إلى قسمين غير متساويين (509 د). دعونا نلاحظ أن الاختلاف فى طول الأقسام فى كل من التقسيم الرئيسى والتقسيم الثانوى لا يمثل أى بعد كتى فى الحقيقة إنما يرمز للقيمة الذاتية النسبية لمختلف الأقسام. إنه رمز لمراتب الأشياء بمعيار الحقيقة وبمعيار الشرف.

لنقسم أيضا كلا من القسمين الرئيسيين، المعقول والمحسوس، إلى قسمين بنفس الطريقة وببنفس النسبة. تمثل الأقسام بالنسبة لنا الموضوع النسبى والغموض النسبى فى الأجزاء. هكذا نحصل على تدرّج، يبدأ، عند نهايته السفلى، بالظلال والانعكاسات، يلي ذلك، فى الجزء الأعلى من القسم الأسفل، أشياء العالم الفعلى التى كانت ظلال وانعكاسات الجزء الأدنى انعكاسات لها. لقد رتبنا تدرّج هذه التقسيمات بمعيار نصيب كل منها من الحقيقة النسبية، ولكن بما أننا نقول إن الحقيقة والمعرفة متحدان، فإننا نجد أن أول هذه الأقسام يمثل أدنى درجات الإدراك الحسى المباشر، بينما يمثل القسم الآخر درجة أعلى نسبيا من معرفة الأشياء المحسوسة، يمكن أن نسميه الاعتقاد أو الظن⁽⁵⁵⁾. ثم ننقل إلى قسم المعقول. هنا أيضا عندنا جزء أدنى حيث يدرس العقل الأشياء التى تشكل الجزء الأعلى من القسم الأسفل. يستخدم أ فلاطون هنا لغة منهج الافتراضات الذى كان قد قدّمه فى *الفايرون*. (انظر الفصل الخامس، "مغزى *الفايرون*"، قسم "الافتراضات"). فى هذا الجزء الأدنى يتعامل العقل مع صور الأشياء المحسوسة ويعمل بواسطة الافتراضات. فى الجزء الأعلى

(55) فى هذه العبارة صححت الأصل الإنجليزى حيث كنت قد أخطأت التعبير، وقد رتب لتصبح الطبعة الإنجليزىة.

يتعامل العقل مع المفاهيم الخالصة وينتهي حيث تنبذ الافتراضات مثل سلم
فنجشتاين⁽⁵⁶⁾ (Wittgenstein). مرّة أخرى، في موازاة مستويات المعرفة نجد
عدداً مستويات الحقيقة (509-د-510 ب).

عند هذه النقطة يقول جلاوكون إنه لم يستطع أن يفهم بدرجة كافية ما قاله
'سقراط' توّاً (510 ب)، وهذه طريقة أفلاطون حين يريد أن يبيننا بأننا مقبلون
على نقطة هامة وأصيلة يريد أن يطوّر ها، وفي الواقع فإن أفلاطون يعطينا في
510-ج-511-هـ ملخصاً لفلسفته في المعرفة.

دارسو الهندسة والحساب يأخذون الأعداد والأشكال الهندسية والزوايا
باعتبارها معطاة افتراضياً، ويفترضون أنهم يفهمون كل هذا، دون تبريرها
عقلانياً في الواقع، ثم يعضون فيستمدّون منها نتائج معيّنة. وحين يُخضعون
مبادئهم للمساءلة فإنما يفعلون ذلك - كما يقول أفلاطون في *الفايدون* -
ليؤسسوها على مبادئ أعمّ لكنها بدورها لم تخضع لمساءلة (510 ج-د). حين
يستخدم دارسو الهندسة أشكالاً مرسومة، فهم في الواقع لا يتعاملون بعقولهم مع
الأشكال الماثلة أمامهم، بل مع الصور (المفاهيم) التي تمثلها هذه الأشكال،
وهذه صور لا يراها إلا العقل (510 د-511 أ). في كل العلوم، بينما يكون
موضوع الدراسة المباشر شيئاً فعلياً، فإن التنظير والمعرفة المكتسبة هي دائماً
مفاهيم معقولة، فكما قال 'پارمنيديس' في *الديارمنيديس*، بغير الصور لا يكون
التفكير العقلاني. ومن ثمّ، فقد وضعنا هذا الجزء في قسم المعقول، لكن العقل
في هذا المجال يعمل بواسطة الافتراضات، التي قد يُخضعها لافتراضات أعلى،
لكنه أبداً لا يتجاوزها تماماً (511 أ). في العلوم لا نستطيع أن نجتث المعطى
نهائياً.

لو أن أفلاطون عرف علومنا 'الدقيقة' الحديثة، لوضعها أيضاً في الجزء
الأدنى من القسم الأعلى من الخط المنقسم؛ 'القوانين الطبيعية' ونظريات
الطبيعة تتعلق بطواهر وتتابعات الأشياء المتغيرة، ولا شأن لها بالمعاني والقيم،
فهذا مجال الفلسفة بمعناها الصحيح، التي تحتل وحدها المكان الأعلى في الخط

⁽⁵⁶⁾ الإشارة هنا إلى عبارة فنجشتاين في الفضية 6.54 من كتابه الأشهر *Tractatus Logico-Philosophicus* حيث يقول إن من يفهمه، مستخدماً فصياله كترجفت سلم، عليه أن يلقى السلم بعيداً بعدد أن يكون قد تسلقه صاعداً.

المنقسم. لقد عالجت هذه النقطة أكثر من مرّة في تأويلي لـ 'سيرة سقراط الذاتية' في *الدايمون* (في هذا الكتاب وفي مواضع أخرى).

في الجزء الأعلى من القسم الأعلى يقترّب العقل من المبادئ بواسطة التفكير العقلاني الخالص، مستخدماً الافتراضات لا كمبادئ أولى بل كمواطنٍ قديم، ليصل إلى الأصل غير المفترض للكل، ومن هناك يعود نازلاً لما يعتمد على ذلك، دون أن يستخدم المحسوس، بل المفاهيم الخالصة، سالكا عبر المفاهيم الخالصة، ومنتهاها إلى المفاهيم الخالصة (511 ب - ج).

بينما يعنى التفكير النظرى *dianoia* استطرادياً، منتقلاً من افتراض أو مقنّمة أو فرضية معيّنة، إلى نتيجة ما - أو من دلّائل معيّنة إلى فرضية أو نظرية - فإن خاصية التفكير العقلاني *noësis* هي الوضوح الذاتى؛ المعقول يضمن حقيقته الذاتية. هذه هي البصيرة التي يعبر عنها مبدأ سقراط 'المساج'، القائل بأن التفسير النهائي للجمال هو أنه بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة. المفهوم الخلاق للجمال هو برهان ذاته وهو ما هو حقيقى وفيه تكتسب كل الأشياء الجميلة المحددة حقيقتها.

في الجزء الأعلى من القسم الأعلى يعمل العقل من خلال المفاهيم الخالصة وينتهى إلى مبادئ ليست افتراضية. هذا مجال الفلسفة الحقّة والديالكتيك. بأى معنى يمكننا أن نتحدّث عن مبادئ الفلسفة باعتبارها ليست افتراضية؟ أقول إن مبادئ الفلسفة لها وضوح الحقيقة الذاتى. إنها تعكس وتعبّر عن حقيقة العقل الفاعل الخلاق ذاته. لكن أىّ تعبير محدّد عن تلك الحقيقة هو بالضرورة ناقص، يشوبه الزيف، لأنه يستخدم مفاهيم عامّة هي، لكونها محدّدة، تقصر عن الحقيقة الكاملة. التفكير المحدّد لا يمكن أبداً أن يستفد حقيقة العقل الفاعل الخلاق. ولهذا فإن عملية الديالكتيك لا تنتهى، وعقلانية الفلسفة تكمن بالضبط في نقدها الذى لا يتوقّف لذات صياغاتها المحدّدة. لهذا فإنه، بينما كل الفلسفة نبوءة، وكل التفكير الفلسفى خلاق، إبداعى، أسطورى، إلا أن أىّ فلسفة دوجماتية، أى فلسفة تز هو بأنها نهائية، هي تناقض ذاتى، وهي دجل وخداع. إنها تتحوّل إلى خرافة.

هذه فلسفة أفلاطون في المعرفة وفلسفته في الحقيقة في كل واحد. هناك تدرّج في الحقيقة من معطيات التجربة الزائلة إلى حقيقة العقل الفاعل الخلاق الأزلية، ويقابلها تدرّج في المعرفة. يمكن أن يكون هناك أى عدد من الدرجات في التدرّج، إذ أن الحقيقة كل متواصل. إذ يلتزم أفلاطون بالتقسيمات الأربعة

لأمثلة الخط المنقسم، يميّز بين أربعة مستويات من الكينونة وأربعة مستويات من المعرفة، لكنه لا يلتزم بمصطلحات صارمة ثابتة، ولا اتفاق بين مترجمي أفلاطون على الألفاظ التي تستخدم (فى الإنجليزية) مقابل المفردات الأفلاطونية. على أى حال، لا أهمية لأى الكلمات نختار، لكن المهم أن نكون واضحين تماما فى شأن التمييزات المعنية.

لنا أن نقول إنه، فى بُعد الحقيقة، نجد الحقيقة العليا والصور، وهذا يشكل عالم المعقول، ثم الأشياء فى العالم وانعكاسات تلك الأشياء، وهذا يشكل عالم المحسوس. وفى بُعد المعرفة، نجد الفهم والتفكير العقلانى، وهذا يشكل مجال العقل الفاعل، ثم التفكير النظرى والاعتقاد، وهذا يشكل مجال الظن.

أمثلة الكهف

ثم أعلق فى الفصل السادس، "المعرفة والحقيقة"، على أمثلة الكهف التى يبدأ بها الباب السابع على أساس أنها تكرر فحسب رمزا ما سبق أن قيل صراحة فى الباب السادس. أمثلة الكهف قد استحكمت عن جدارة أن تُعرف على نطاق واسع فلا حاجة بسى لأن أعيد حكايتها هنا. ساكتفى بأن أقدم مغزاها باختصار، دون إيراد التفاصيل التصويرية الدقيقة.

ما نمنا نعيش فى العالم الطبيعى ونترك الأشياء من خلال الحواس، فنحن نعيش فى عالم من الظلال. هذا القول يفترض أن العالم الطبيعى ليس كامل الحقيقة. فلا ثبات ولا وضوح فى أشياء العالم، ونحن لا نجد فيها سبب كينونتها ذاتها. إنها تتطلب شيئا يتجاوزها لتفسير كينونتها. هكذا، كل صيرورة، كل ما هو نسبى ومحدود، يحتاج كيانا ثابتا يمنحه معنى. هذه هى الحاجة التى سعى كل الفلاسفة من ثاليس (Thales) حتى پارمنيدس لإشباعها. هكذا هى الدنيا، وحواسنا لا تعطينا حتى بيانا صادقا عن الحقيقة المنقوصة للعالم بل تزيدنا عماء بنقصها الذاتى. هكذا فابتنا إذا ما اكتفينا بالحواس، بقينا فى عالم ظلال الظلال داخل الكهف (514 أ-515 ج).

حين نجتهد للهروب من الكهف، نبدا فى أن نرى، لا ظلال الأشياء الطبيعية تعكس بفعل نار مصطنعة - أى الحواس - بل نرى الأشياء ذاتها فى نور الشمس. هذا مستوى المعرفة بالمفاهيم العامة، الذى يتمثل فى الأمثلة بالانعكاسات على الماء وعلى الأسطح الناعمة. يمكننا أن نفكر حول الأشياء ونصل لنتائج عقلانية عنها، لكننا نظل نعيش ونتحرك فى عالم الأشياء التى

تستمد حقيقتها من غير ذاتها. علينا أن نمضى لأبعد، مبتعدين أكثر عن عالم الحقيقة المنقوصة والكينونة المستعارة إلى عالم المفاهيم الخالصة لتتصل بحقيقة لها وضوح الكينونة الحقة الذاتي وكفايتها (515 ج - 517 أ).

يحرص 'سقراط' على ألا يفوت مغزى الأمثلة على مستمعيه. العالم الذي ندرکه بحواسنا هو مقابل الكهف المظلم، والرحلة صعودا من الكهف إلى حيث تنير الشمس المكان يرمز للدخول في المجال المعقول للعقل. مشاهدة صورة الـ خير لا تتأتى إلا عند اكتمال الرحلة. حين ننال الرؤية يتبين عقلا أن الخير هو أصل كل ما هو صواب وجميل، "ينشئ في العالم المرئي النور ورب النور، وفي عالم المعقول هو نفسه الرب، منبع الحقيقة والعقل" (517 أ - ج). هنا يستخدم أفلاطون كلمة *sullogistea*. أن نفهم الكلمة هنا بمعنى الاستنتاج القياسي *syillogistic reasoning* حسب مصطلح أرسطو لن يكون مفارقة زمنية فحسب، إنما سيكون منافيا تماما لطبيعة فكر أفلاطون. ليس هناك استنتاج منطقي لا وصولا لصورة الخير ولا استنادا إليها. مفهوم الخير، الذي يأتي تتويجا ومكافأة لتأمل العقل لحقيقته الذاتية، يضاف على ظواهر العالم معقولة تحت صور الجمال والعدل وما إليها. إنه ليس بمستغرب إذن أن من رأوا النور يكرهون أن يعودوا لظلام الكهف أو أنهم، إذا اضطروا لذلك، يكونون أعجز من أن يتبرأوا مع من اعتادوا حياة الظلال (517 ج - هـ).

إذا صح ما قلناه، فلا يمكن أن يكون التعليم - كما يظن البعض - هو أن ندخل في العقل معرفة لم تكن هناك أولا، كأننا نضع الإبصار في عين لم تكن لها قوة الإبصار من قبل (518 ب - ج). التعليم الحق يعمل على أن يوفر للعقل فرصة أن يمارس قدرته الذاتية ويكتشف كنوزه الخاصة. إننا في نظريتنا التعليمية قد اقتربنا كثيرا من استيعاب هذه البصيرة السقراطية-الأفلاطونية العظيمة. لكن مغزى هذه البصيرة لنظرية المعرفة لم يستوعب تماما بعد. إن المعطيات الإمبريقية - 'الواقع الموضوعي' الذي يجعل منه كثيرون من أكاديمينا صنما معبودا - لا تأتي معها بمعرفة تهديها للعقل. قوة العقل الخلاقة هي التي تمنح الواقع وتمنح المعطيات معناها وقيمتها وتعطيها المعقولة بالصور والأنماق، بالمفاهيم والنظريات، بالمعادلات ومختلفات الفكر، التي تكسو بها الواقع والمعطيات الإمبريقية.

ثم يعطى 'سقراط' حكاية العين والبصر تطورا عظيم المغزى. فكما لو أن العين ما كانت لترى إلا إذا استدار الجسد كله مبتعدا عن مجال الظلال ومتجها إلى ذاك الذي يسطع عليه النور، فإن الروح ككل عليها أن تستدير بعيدا عن مجال الصيرورة كي تشهد الحقيقة وأكثر صور الحقيقة بهاء، الخير (518 ج -

(د). هنا نجد الميتافيزيقا وفلسفة المعرفة وفلسفة الأخلاق في كل واحد، كما ينبى في كل فلسفة أصيلة. حين نستلهم فكرة الحقيقة الكاملة، التي هي العقل والخير في كل واحد، ننال الحقيقة لأنفسنا، وننعم بالفهم، ونكون خيرين أخلاقياً.

التعليم الذي نحتاجه إذن تعليم يقود الروح لأن تبصر حقيقتها الداخلية بأن تمتد بعيدا عن الأشياء التي تشتتها وتعم رؤيتها (518 د).

الفضيلة الحقّة تأتي من العقل الفاعل الأصيل فينا حين يتجه الاتجاه الصحيح. الأشخاص الذين تجتمع فيهم الشطارة والخبت هم نتاج عقل ساء توجهه الفضائل العامة المزعومة هي اعتياد ومراس؛ إنها تفيد في الحفاظ على تماسك المجتمع، لكنها ليست بذات قيمة داخلية كبيرة (518 د - 519 أ).

لا نستطيع أن نعلم في حكم مدينتنا لا على حكم مجهولون الحقيقة والقيم الحقّة ولا على فلاسفة يابون أن يفارقوا رحابهم السماوية ليشاركوا في الشؤون السوقية للمجتمع (519 ب - ج). علينا أن نعمل على أن يحظى شبابنا الذين يتمتعون بأفضل المواهب بتعليم يفودهم إلى معرفة الخير، على ألا نتركهم يهجعون هناك بل نقنعهم بأن ينزلوا إلى أولئك المحتجزين داخل الكهف ليتمتعوا بنصيبهم في حياة عامة الناس (519 ج - د).

يردّ جلاوكون: هل نعلمهم فنفرض عليهم حياة أدنى وفي مقدورهم أن يحيوا حياة أفضل؟ (159 د). هنا تتور قضية أخلاقية أساسية، أعتقد أن سقراط قدم عنها في النفاذ إجابة أفضل من تلك التي يقدّمها أفلاطون في الجمهورية. هل على الشخص الخير واجب نحو نفسه فقط (أو في المكان الأول)، أم عليه واجب نحو كل الناس (أو على الأصح، نحو كل الكائنات الحيّة)؟ هل غاية الكائن العاقل أن يجعل نفسه سعيدا أم أن يجعل كل الكائنات المهية للمعادة سعيدة؟ يعلن سقراط في النفاذ أن رسالته أن بحث كل الناس - مواطنين وأجانب - على طلب الفضيلة، التي بغيرها لا تكون سعادة حقّة. يعلن أن تلك رسالته - رسالة لم تفرض عليه من الخارج، بل فرضها عليه مفهومه الخاص عن كماله الذاتي ككائن إنساني. إذا ظنّ أحد أن القول بأن الرسالة أعطاه إياها الله يتناقض مع هذا، علينا أن نتذكر درس الديوثيرون: ما هو حسن ليس حسنا لأن الله يأمر به، إنما الله يأمر به لأنه حسن. الرقيب الداخلي في كل منا هو الذي يخبرنا أين يكمن الكمال الخاص بنا. الشخص الخير لا يحتاج إرغاماً يجعله يفعل ما يستطيع فعله ليجعل الآخرين سعداء، حتى لو كان ذلك على حساب سعادته هو. المبدأ السقراطي القائل بأن معاناة الظلم أفضل من اقتراط الظلم يتوافق تماما مع هذا الموقف.

لكن نعود الآن للإجابة التي يعطيها 'سقراط' في الجمهورية. يذكر 'سقراط' جلاوكون بما قلناه سابقا في الإجابة على سؤال مماثل. ليس همتنا، كمشرعين لمدينتنا، أن نكفل السعادة لفرد ما أو لمجموعة ما، بل أن نوجد تجانسا في كلِّ يقم فيه الأفراد من الإسهامات ما هم مهيبأون له لمصلحة الكلِّ (519 هـ - 520 أ). ثم إننا في الواقع لن نظلم فلاسفتنا إذ نفرض عليهم واجب خدمة المدينة. فبينما الفلاسفة في المدن الأخرى مسئولون عن تعليم أنفسهم، فنحن في مدينتنا نربيهم ونعلمهم ونذريهم ليحسنوا الحكم على ما هو حسن وعادل وخير. وإذن فمن الإنصاف أن يخدموا مواطنيهم (520 أ-د).

التعليم الأعلى

أخيرا نصل إلى السؤال الذي ظللنا طويلا نومي إليه ثم نخيه جانبا: كيف يتأتى لنا أن نأتى بهذه الطبايع المكتملة إلى ضوء النهار؟ ما هو البرنامج الدراسي الذي سيقرود الروح من عمّة الصدق المنقوص والكينونة الزائفة اللذين يحفان بنا في المعتاد إلى نور الفلسفة الساطع؟ (521 ج).

ربما كانت تفاصيل منهج الدراسات المقترح تهمة المؤرخ أكثر مما تهمة الفيلسوف. لذا لن أركز على نقطة ما إلا حين أرى لها مغزى فلسفيا.

لنسال أنفسنا إذن: ما هي الدراسة التي لها القدرة على أن تقود الباحث إلى نور الخير؟ أي دراسة يمكن لها أن تقود الروح من عالم الصيرورة إلى الكينونة الحقّة؟ (521 ج-د).

لقد ربينا من قبل لتعليم صغارنا الأولى عن طريق الرياضة و 'الموسيقى'. لكن الرياضة للبدن، و 'الموسيقى' كما تناولناها حتى الآن تبث التناغم والإيقاع في الروح، وهذان ضروريان إن كان للروح أن تنال الاستتارة يوما ما، إلا أنهما، بذاتهما، لا يمنحان الاستتارة التي نطلبها (521 د-522 ب).

نحتاج شيئا يبتعد بنا عن المحدّد والمعطى المباشر إلى العمومية والشمول، وهذا ما نجده في الحساب والعدد (522 ج). هنا نبدأ التعامل مع المفاهيم التي لها كينونتها في العقل، ورغم انطباقها على الأشياء كلها، فإنها ليست مقيدة إلى حالات محدّدة.

عند تقديم المنهج الدراسي للحراس، يلتزم أفلاطون بالمبدأ الذي كان قد أكده إذ قال إن التعليم ليس ضحّا للمعرفة في العقل من خارجه، بل هو توجيه عين العقل إلى حقيقته الذاتية، فيقرر أن الدراسات التي نحتاجها هي تلك التي تستحث الفكر، ويميز بين الأشياء التي تستحث الفكر والتي لا تفعل ذلك (523

أ- 524 د) يقول أفلاطون إن الأشياء التي تتطوى على تناقض تستحث الفكر بينما الأشياء التي لا تتطوى على تناقض لا تستحث الفكر. لماذا؟ الإصبع شيء نستطيع أن نراه، نلمسه، نتعامل معه بشتى الطرق. وجوده تقدّمه الحواس للعقل (أو قل تبيّنه، تشهد به، تلمّنه، كيفما شئت). إصبع كبير أو إصبع صغير، إصبع أبيض أو إصبع أسود، هو هنالك ببساطة ولا شيء غير ذلك. لكن العدد - فكرة أن أمامنا واحداً أو اثنين أو ثلاثة من الأصابع - وصفة الإصبع أو الأصابع، كونه كبيراً أو صغيراً، أو أبيض أو أسود، العدد والصفة ليسا 'هنالك'، لا يقمّان للعقل من خارجه بنفس طريقة تقديم وجود الإصبع. العدد والصفة شيان ينتميان للعقل. ثلاث قطيطات تتبع معا متلاصقة هنالك أمامي، هي في الحسن المباشر مجرد ذلك التكوين البصرى المحدّد. لكن العقل يستطيع أن يفكر فيها كـ 'بطن' واحد أو كشكيل بصرى واحد أو كتلات قطيطات مفردة. في مجال المفاهيم نتحرّر من الارتباط بمعطيات الظواهر ونمضى إلى حيث يأوى العقل إلى نفسه. حين يتجه العقل بانتباهه إليها فإنه ينظر في داخل ذاته، يدرس حقيقة ذاته. يختار أفلاطون أن يقول إنها تستحث التفكير لأنها تتطوى على تناقض. وهي تتطوى على تناقض لأن كل المفاهيم المحدّدة هي في جوهرها نسبية؛ كل المفاهيم المحدّدة تكون ما تكون بفضل أنها ليست ما ليست تكون. فلعلّ فكرة الـ پارمينيديس كانت تختمر في عقل أفلاطون بينما كان يكتب هذه الفقرة.

الحساب إذن هو إحدى الدراسات التي نحتاجها. من إلحاح أفلاطون على هذه النقطة (523 أ-526 ج) ومن مناقشته للعدد هنا وفي الديالوجون نستطيع أن نرى أن الحساب، كدراسة جادة، كان بالنسبة لمعاصري أفلاطون هو أساساً نظرية العدد، وأن أفلاطون كان شديد الانشغال بهذه الدراسة.

استقر اختيارنا إذن على الحساب كأولى الدراسات في منهجنا المتقدّم. ماذا يلي ذلك؟ نأخذ الهندسة المستوية، ويحرص 'سقراط' على أن يوضّح أنه رغم أن الدراسات التي نختارها قد تكون لها فائدة عملية كبيرة، إلا أننا لا ندرجها في برنامجنا الدراسي لذلك السبب أساساً، بل لأنها تساعدنا على الطريق إلى مشاهدة صورة الخير. الدراسة التي تجعلنا ننظر إلى الكينونة الحقّة تساعدنا في هذا الاتجاه، أما الدراسة التي تبقى انتباهنا مشدوداً إلى الصيرورة فلا تساعدنا. الدراسة المطلوبة تعطينا معرفة بما هو كائن دوماً، لا بما يصير ويتلاشى (526 ج- 527 ج). ماذا معنى بقولنا إن المعرفة النظرية هي معرفة بما هو دائم، وليس بما هو خاضع للصيرورة والفساد؟ المفاهيم الخالصة، بوصفها هذا، تسمو على الزمنى ولها كينونتها في مجال المعقول ولها كينونة حقّة في حقيقة العقل الفاعل الخلاق.

ينكر 'سقراط' جلاوكون مرّة أخرى بأننا لا نمضى فى دراساتنا طلبا لأى نفع عملى قد يأتينا منها، وإنما لأن فى هذه الدراسات شيئا له فعل فى الروح، ينظف ويُشعل فيها من جديد ما تكون هموم وضغوط حياتنا الأرضية قد لوثته أو قد أخمده، فإننا لا نستطيع أن نشهد الحقيقة إلا بروح نقية لم تخدم نارها الداخلية المقتسة (527 د-ه).

لسنا بحاجة لأن نتوقّف طويلا عند تفاصيل بقية البرنامج الدراسى - وهى ذات أهمية تاريخية فحسب - حتى نصل إلى الديالكتيك، فهذا له أهمية فلسفية قصوى.

بعد الهندسة المستوية عندنا الهندسة الفراغية ثم الفلك. ولا يفوت أفلاطون فرصة ليؤكد لنا أهمية التمييز بين المحسوس والمعقول. عندما يقول جلاوكون إنه سيأخذ الآن فى الاعتبار تأنيب سقراط إياه لتركيزه على المنافع الدنيوية، وإنه الآن سيمتدح الفلك لأنه يجعلنا ننظر لأعلى إلى السماء وبعيدا عن الأرض (528 هـ - 529 أ)، يسخر 'سقراط' من فهمه الصيبانى لما هو أعلى وما هو أدنى. لا شيء يجعل الروح تنظر لأعلى إلا ما يتصل بالكونونة الحقّة واللامرنى. لا يمكننا أن نحصل على معرفة حقّة عن طريق الحواسّ البدنية. عن طريق العقل وحده يمكننا الاقتراب من الحقيقة (529 أ-530 أ).

بعد الفلك عندنا دراسة الهرمونيكا، ومرّة أخرى فإن ما يعيننا هو الدراسة العقلانية للموضوع. نلاحظ أن كل الدراسات المقترحة حتى الآن ذات طبيعة رياضية. لكننا الآن نسمع أن كل هذه الدراسات ليست إلا تمهيدا لذلك الذى بدونه لا تبلغ الدراسة الفلسفية غايتها، ألا وهو الديالكتيك (530 ج-531 د).

الديالكتيك

ما هو بالضبط الديالكتيك عند أفلاطون؟ لا يخبرنا أفلاطون أبدا بصراحة ووضوح بما يعنيه بالديالكتيك فى الجمهورية، ولو أنه لا يترك عندنا أدنى شكّ فى أنه ذو أهمية قصوى. (فى مواضع أخرى يستخدم أفلاطون الكلمة بمعان مختلفة؛ ويجب أن نتجنب الخلط بين هذه الاستخدامات المختلفة للكلمة عند أفلاطون). يسأل 'سقراط': هل يستطيع أولئك الذين لا يقدرون على أن يسألوا

ويقبلوا المسألة أن يعرفوا شيئا مما نقول أن من الضروري أن نعرفه؟ عبارة *didonai logon* التي تشير هنا بوضوح للدialektik، عبارة تتكرر كثيرا في كتابات أفلاطون، ومرة تلو المرة تأتي العبارة دون أن يقول لنا أفلاطون صراحة وببساطة ماذا يعني بها. لهذا يبقى السؤال "ما هو بالضبط الدialektik عند أفلاطون؟" سؤالا يجيب عنه كل أحد بما يترأى له، وأنا بدوري أنلى بما يترأى لي، أقدم تأويلي، دون اعتذار.

أبسط إجابة نجدها بكلمات أفلاطون نفسه هي أن الدialektik هو استخدام العقل الخالص للوصول لرؤية الحقيقة. كما أن الشخص الصاعد من الكهف في أمثلة الكهف كان عليه أن يدرّب بصره أولا بالنظر إلى الحيوانات الفعلية (لا مجرد ظلالها)، ثم بالنظر إلى النجوم، وأخيرا إلى الشمس، كذلك حين يحاول الشخص، بالدialektik الخالص، دون أي اعتماد على الحواس، إنما بالعقل الخالص، أن يتقدّم نحو الحقائق، ولا يكفّ حتى يبلغ الخير، بالعقل وحده، حينئذ يصل إلى كمال عالم المعقول. تلك الرحلة هي ما نسميه الدialektik (532 أ.ب). إنها رحلة تقود ذلك الذي هو الأفضل في الروح إلى رؤية ذلك الذي هو أفضل الحقائق (532 ج).

هذا الذي قلناه توا صغناه في عبارة أمثلة الكهف. عند هذه النقطة نجد أفلاطون يجعل جلاوكون يقول إنه من الصعب أن نقبل هذا ومن الصعب ألا نقبله (532 د). كأنما يريد أفلاطون أن يقول لنا إننا كي نخوض في معنى ما أومأنا إليه رمزا، علينا أن نفكر وأن نتأمل. الأمثلة لا يمكن أن تقدّم لنا الحقيقة على طبق من فضة؛ لا يمكن لأي صياغة فكرية محدّدة أن تفعل ذلك؛ لكي نختبر الحقيقة علينا أن نقوم بالرحلة بأنفسنا. ثم يطلب جلاوكون من 'سقراط' أن يمضى قدما إلى موضوع الدialektik فيشرح طبيعته وقوته وأقسامه ومنهجه بنفس الطريقة التي اتبعها في معالجته للموضوعات التي وصفناها بأنها تمهيد للدialektik (532 د-ه).

لكن 'سقراط' في ردّه على هذا الطلب المحدّد يراوغ ويلغز. لن نستطيع جلاوكون أن يتابعه لأننا سننظر لا إلى رسم بل إلى الحقيقة، و 'سقراط' لا يريد أن يؤكد صدق ما عنده من قول، إنما هو يؤكد بقوة أن هناك مثل هذه الحقيقة، وأننا لا نستطيع أن نشهدا إلا بقوة الدialektik وحده (533 أ). هنا علينا

أن نتذكر ما يخبرنا به أفلاطون بوضوح في الفيليدروس (247 ب- 278 هـ) وكذلك في الرسالة السابعة (341 ج - 344 أ): لا يمكن لأى صياغة لفظية محدّدة أن تفي بالتعبير عن أعق المعاني.

إلا أن الديالكتيك يبقى وسيلتنا الوحيدة لبلوغ حقيقة الأشياء. الفنون العملية للبشر تعمل في محيط الظنون والرغبات والأشياء التي تخضع للضرورة والفناء. وحتى العلوم التي اعتبرناها تمهيدا للديالكتيك، والتي اعترفنا بأنها بطريقة ما تتصل بالحقيقة، هي في الواقع تحلم وحسب عن الحقيقة، ولا يمكنها مشاهدة الحقيقة بعين يقضى ما دامت تنطلق من مبادئ لا تخضع للمساءلة، ولا تستطيع أن تعطى بيانا *logon didonai* عنها. (533 ب - ج). أن نعطي بيانا عن مبدأ، إذن، يعنى أن نخضع أسسه للمساءلة. ولكن إذا كانت كل الصياغات اللغوية، وبالتالي كل الصياغات الفكرية المحدّدة، يعترها النقص بالضرورة، فأين نجد المبدأ الأول الذي يعلو على المساءلة؟ هكذا نعود إلى بصيرة الحوار السقراطي العظيمة: الحقيقة الوحيدة الثابتة التي يمكن لنا أبدا أن نلقاها هي فعل التساؤل اللانتهى هذا الذي يمارسه عقلنا؛ الحقيقة الوحيدة التي نعرفها هي حقيقة عقلنا الفاعل. يحدّثنا أفلاطون عن الحقيقة بالأمثولات والتشبيهات والأساطير، لا لأن هناك سرا مستورا لا يريد البوح به، إنما لأننا لسنا بآزاء مقولة صدق محدّدة نهائية يمكن التعبير عنها، بل نحن بآزاء حقيقة عميقة علينا أن نحياها ذاتيا. ونهاية مطاف القول في الديالكتيك أن كل صدق، كل صياغة فكرية محدّدة، يجب أن نخضعها للمساءلة ونظهر نقصها، إذا كان لنا أن نتواصل مع الحقيقة. ولأننا لا نستطيع أن نعيّر عن البصيرة الفلسفية إلا في صياغات ناقصة، فمثل هذه الصياغات كلها ما هي إلا أساطير.

الديالكتيك وحده يزيل كل الافتراضات المسبقة لينتهي إلى المبدأ الأول. فإذا ما سألنا: "ما هو ذلك المبدأ؟"، فالجواب الوحيد هو ذلك الذي جاءنا من قبل في المادية: إنه رؤية تتوج مسيرة الاستنارة. كل العلوم التي تباحثناها من قبل مكانها الجزء الأدنى من القسم الأعلى من الخط المنقسم (533 ج - د). الفلسفة وحدها، ممارسة العقل الفاعل الخالص وحدها، لها المكان الأعلى، لكن الفلسفة لا تعطينا أى مقولة صدق إنما تعطينا فحسب أساطير تتيح لنا إطلالة على مجال الحقيقة — الفاعلية الخلاقة الحيّة لذات عقولنا.

كما تعلمنا من رمزية الخط المنقسم، فإن وضوح وقيمة الأنواع أو الدرجات المختلفة للمعرفة، يتوافقان مع مستويات الحقيقة التي تعنى بها تلك الأنواع أو الدرجات من المعرفة، صعوداً من الاعتقاد والظن فيما يتعلق بالأشياء التي هي مجرد ظلال للحقيقة، إلى أعلى إدراك للخير. هذا الإدراك الأعلى هو نطاق الديالكتيك. ولكن بينما يقال لنا إن الديالكتيك هو إعطاء بيان *logon didonai* عن الحقيقة، وأن من لا يستطيع أن يعطى بيانا عن الخير (يستخدم أفلاطون هنا كلمة *diorisasthai* التي تترجم عادة بـ 'يُعرف'، إلا أنني أخذها كمجرد مرادف لـ *didonai logon*)، لا يستطيع أن يعرف الخير ولا أي شيء خير، وبينما يقال لنا إننا بهذا قد وضعنا الديالكتيك على قمة العلوم كلها (533 هـ - 535 أ)، فإننا نحاول بلا طائل أن نجد في أعمال أفلاطون أي شيء عن الديالكتيك أكثر من أنه هدم كل الافتراضات المسبقة. إنني - مع الاعتذار لـ شليزك⁽⁵⁷⁾ Szlezak - لا أستطيع أن أقبل الرأي القائل بأن الديالكتيك كان في حقيقته علماً باطنياً قاصراً على دائرة محدودة من تلاميذ أفلاطون. بموجب تأويلي، فإن امتناع أفلاطون عن أن يعطينا بياناً واضحاً عن الديالكتيك ينبثق من أن واجب العقل هو أن يدمر أساطيره، لأن ممارسة ذلك النقد هي وحدها وسيلتنا للاتصال بالحقيقة إذ نحيا حقيقة العقل الفاعل الخلاق فينا.

برنامج الدراسة

ما بقي من الباب السابع يستغرقه توزيع الدراسات، وانتقاء الأشخاص الذين سيتلقونها، وتحديد السن التي يبدأون فيها دراسة كل منها.

نلاحظ مرة أخرى مدى ضيق دائرة الأشخاص المؤهلين لأعلى الدراسات (535 أ-536 ب). من بعض الوجوه، ليس هذا بمستغرب. إننا نعرف أن من هم مهياون للدراسة النظرية المجردة قليلون جداً. لكن هل يعني هذا بالضرورة أن فهم الحقائق والقيم - هذا الفهم الذي هو هبة الفلسفة الأصلية - يجب أن يبقى

⁽⁵⁷⁾ انظر Thomas A. Szlezak، *Reading Plato*، 1993، Graham، English translation by

Zanker، 1999.

امتيازًا خاصًا لفئة قليلة؟ هل يجب أن ينحصر الخيار لجمهرة البشر بين أمرين أرذلين: إما أن يتمرّغوا في مستنقع المعتقدات الدوجماتيّة والخرافة أو أن يقتعوا بحياة لا يخرقها شعاع من نور؟ أنا لا أظنّ هذا. إذا أتيت للفلسفة المكان الذي هي جديرة به في المجتمع، فإنّ الفهم الذي تولده يمكن أن يصل إلى آخرين يمكنهم بدورهم، عن طريق الشعر والقصة والدراما والفيلم والموسيقى أن يهَيّتوا تلك الحقائق والقيم أن تصل لكل إنسان في كل مكان.

يعطينا أفلاطون في عبارة موجزة مبدأ فلسفيًا هاما — عبارة ترجمتها في مواضع مختلفة بصيغ مختلفة؛ دعوني أحوّل هنا مرة أخرى: كلّي النظرة دياكتيكي، أما من ليس كذلك فلا *ho men gar sunoptikos dialektikos*، *ho de mē ou* (537 ج). الفيلسوف هو من يرى الأشياء كلاً. الفيلسوف لا يقتنع بنظرة جزئية، بل يسعى لأن يرى الشيء في كل علاقته. ولكي يرى الشيء في كل علاقته، على الفيلسوف أن يحطّم كل شروط وجود الشيء، التي تشكّل نوعية وخصوصية ومحدودية الشيء. هذا موضوع أرجو أن أعرضه بشيء من التفصيل عند مناقشة البارمنيديس.

من عند هذه النقطة في 537 - ج وعلى امتداد الصفحات القليلة الباقية من الباب السابع نجد أفلاطون عدّة مرات يستخدم الاسم *dialektikē* والفعل *dialegesthai* في سياق لا يُحتمل أن يكون للكلمة فيه معنى غير الفلسفة والنقاش الفلسفي عامّة. عينا نحاول أن نخرج من هذه الصفحات بشيء أكثر تحديدا عن طبيعة الديالكتيك. ما قلته من قبل وما قد أقوله فيما بعد عن الديالكتيك ليس مستمداً من هذه الصفحات الختامية من الباب السابع وإنما مما قيل قبلا عن المنهج الفلسفي كتدمير لكل الفرضيات.

ثم يتحدث أفلاطون عن المحنة التي تجد الفلسفة نفسها واقعة فيها، عن الممارسات التي تتفاخر بأداء الفلسفة وعن العدا الذي يبته هؤلاء للفلسفة بين الناس الطيبين. تشعر بأن أفلاطون لا يقصد فقط صغار السوفسطائيين الذين كانوا يزعمون القدرة على تعليم أجزاء من الحكمة، إنما كان في ذهنه أيضا المهرجون من أمثال بوثيديموس وشقيقه نيونيسودوروس اللذين رسم لهما صورة هازنة في الديريديموس. لكن حين يمضي أفلاطون فيشرح الأسباب التي أتت لذلك الوضع (537 هـ)، فإنه يدين بشدّة النهج السقراطي بأكمله. فالشباب الذين نشأوا على إجلال القيم التقليديّة، حين يجدون أسس تلك القيم قد اهتزت بفعل المناقشات الفلسفية، لا يجدون ما يستمسكون به فينغمسون في العريضة والعيث (538 د-هـ). ولكن في حديث الكيبيديس في المائبة - وأعتقد أننا يمكن أن نعتبره واقعيًا جدًّا - فإن الكيبيديس لا يُرجع مثالبه إلى تقويض

سقراط لا اعتناقه للقيم التقليدية؛ بل على العكس، فسقراط يجعله يشعر بالخلج من سقطاته، لكن قيما أخرى يفرسها فيه المجتمع لها اليد العليا وتقوده لأن يتماهى فى سلوكه الخاطى. ماذا نعل إن؟ كيف يمكننا أن نتفادى الأخطار التى ينطوى عليها النقد الفلسفى؟ هل نحظر الاقتراب من الفلسفة على أولئك الذين هم دون الثلاثين أو دون الخمسين وحتى بعد ذلك لا نسمح به إلا لقلّة منقاة؟ إن ذلك - بجانب أنه يترك غالبية الكائنات الإنسانية تحت عبودية المعتقدات اللاعقلانية والخرافة - فإنه لا يضمن لنا أن قلة القليلين أولئك الذين نسمح لهم بالفلسفة سيأخذونها على الوجه الصحيح. ليس هناك من مهرب. الضمان الوحيد ضد أخطار القليل من التفكير الفلسفى لن نجده إلا فى المزيد والمزيد من الفلسفة. علينا أن نجعل أطفالنا وشبابنا يعتادون مساملة كل شىء وأن نشجعهم على ذلك. إذا تعلموا أن عقلهم هو الميزة التى يميزون بها، وإذا تعلموا - بالقدوة وبالفنّ الجيد - أن يحبوا وأن يتعاطفوا مع كل شىء حى، عندئذ سيمتلكون كل ما يحتاجون من الأخلاق.

عند الثلاثين، بعد أن يكمل التلاميذ الدراسات التى اعتبرناها تمهيدا، نختار من بينهم أولئك الذين يتمتعون بالخصائص المطلوبة فنعطيمهم خمس سنوات من الدراسة المكثفة للديالكتيك. هل كان عند أفلاطون بالفعل برنامج دراسى مقرر لذلك الغرض؟ أى معرفة يمكن لمثل هذه الدراسة أن تقدمها للتلميذ؟ هل كان على تلاميذ الأكاديميا أن ينتظروا حتى يتمكنوا من الدراسات التمهيدية، أم كانوا يمارسون الفاسفة طوال الوقت؟ التحق أرسطو Aristotle بالأكاديميا حين كان فى الثامنة عشرة واستمر بها حتى وفاة أفلاطون، إذ كان أرسطو فى الثامنة والثلاثين. فى أى مرحلة سُمح له بدراسة الديالكتيك، إن كان قد سُمح له بها؟ لا نستطيع أن نستشف من أعمال أرسطو ما فحوى تلك الدراسة العليا. فى ظنى أنه لم يكن هناك أبدا ولن يكون هناك أبدا مثل هذه المعرفة المتخصصة، وأننا نملك كل ما نحتاجه من قول حق فى حديث ديوتيمات فى المأبذة وفى مثال الشمس والخير فى الجمهورية: إننا إذ نسمى للحقيقة مخلصين جاذين عقلانيين، ندرك أن الحقيقة الوحيدة التى نعرفها هى ذات عقلنا الفاعل الخلاق، وأننا لا نستطيع أن نعقل الحقيقة النهائية إلا كعقل فاعل، خلاق وخير، وأننا لا نستطيع أن نتواصل مع الحقيقة إلا بأن نكون نحن أنفسنا عاقلين وخيرين، فنسمو على خداع وزوال كل وجود موضوعى معطى.

ثم يقول لنا أفلاطون إن أولئك الذين اجتازوا كل مراحل تدريبهم بنجاح، وبعد أن يكونوا قد أكملوا خمسة عشر عاما من الخدمة العامة، ويكونون عندها قد بلغوا الخمسين، يؤخذون أخيرا إلى حيث نجعلهم ينظرون بعين الروح إلى

ذاك الذى هو مصدر كل نور، حتى إذا ما شاهدوا الخير، قد يصوغون حياتهم الخاصة وحياة المجتمع ككلّ على مثال الخير. بعدها ينفقون ما بقى من حياتهم يبادلون بين فترات يكرسونها لتأمل الخير وفترات يخصصونها لإدارة شؤون المجتمع (540 أ- ب). ولكن ألم نسمع من قبل أن رؤية الخير هي هبة خمس سنوات من دراسة الديالكتيك بين الثلاثين والخمسة والثلاثين؟ بائى الوسائل يُمكن ذوو الخمسين من مشاهدة الخير؟ لا يُلَمَح أفلاطون إلى ذلك أبدا. تماما كما لم نجد من قبل أى تفاصيل عن الخمس سنوات من دراسة الديالكتيك، فهكذا لا نجد هنا غير مجاز النظر بعين الروح إلى ذلك الذى يمنح النور، ومشاهدة الخير. ألا ينبئنا ذلك بأن أفلاطون لم يكن جادا بشأن أى من تلك التفاصيل وأن الأمر كله من البداية حتى النهاية لم يكن إلا أمثلة خالصة؟ هل ينتقص ذلك على أى نحو من البصيرة الحيوية التى نكتسبها، بصيرة تصوغ كينونتنا وتجعلنا كائنات أكثر قيمة؟

ينتهي الباب السابع باتفاق كل من سقراط وجلاوكون على أنهما قد أكملتا مناقشة الموضوع الذى التزما بمناقشته - دراسة طبيعة الشخص العادل والمدنية العادلة - وأن لا حاجة بهما لقول المزيد (541 ب). إننى أوافق على ذلك تماما. الأبواب الثلاثة الباقية من الجمهورية هي أقرب لأن تكون ملاحق للكتاب من أن تكون أجزاء من أصل الخطة الأصلية. إننى أعتبر أن تعليقى الأساسى على الجمهورية قد اكتمل. لا أتوقع أن يكون عندى الكثير أقوله عن الباب الثامن والتاسع، لكن الباب العاشر يثير قضايا هامة لا يمكن تجاوزها فى صمت.

أى حجة قَدِّمتها/الجمهورية حتى هذه النقطة؟ الجمهورية تبشّر ببساطة بأن الحياة الخيرة، وهي نفسها الحياة السعيدة، هي الحياة الفلسفية؛ وأن الحياة الفلسفية هي حياة العقل الذى، إذ لا يتقع بما هو متحوّل وغير كامل، يمضى باحثا عن الحقيقة، ويجد تلك الحقيقة فى مفهوم الخير. إننى أقول إن الخير هو كمال الكينونة الذى نعرفه مباشرة فى اكتمال الفعل الأخلاقى، أو، وهذا نفس الشيء، فى اكتمال العقل الفاعل الخلاق. إن قلت لى إن أفلاطون لم يقل هذا وإننى أقدم شيئا على فكر أفلاطون، أردّ بأننى أجد هذه البصيرة بالفعل فى ثانيا الحوار السقراطى.

فلسفة الجمهورية هي تطوير لمبادئ الفلسفة السقراطية. إنها تطوير لتلك المبادئ، لا رفضاً لها. حين نغوص في قلب فلسفة أفلاطون نجد البصائر التي ألهمت كل حياة وفكر سقراط، نجدها خالصة بلا شائبة.

الحياة العادلة وغير العادلة

في البابين الثامن والتاسع، اللذين يناقشان أنماطاً مختلفة من الأنظمة السياسية، نجد أوجه وأبعاد الحياة الأخلاقية والسيكولوجية والسياسية متمزجة معاً. كل واحدة من أنظمة الحكم إذ توصف، تصور نمطاً شخصياً ومستوى من الحياة الأخلاقية. بينما نجد أن من غير الممكن أن نفصل بين الاهتمامات الأخلاقية والسياسية في الجمهورية – تماماً كما أنه غير ممكن أن نفصلهما في حياتنا – فإن الهمم الأخلاقية تبقى دائماً هو الأساسى فى المكان الأول. كما يقول تيلر A. E. Taylor: "ينبغي أن يكون واضحاً أن الاهتمام الرئيسى فى هذه الصور التخطيطية هو دائماً أخلاقى، لا سياسى" (Plato، 1926، صفحة 295).

يشير المعلقون المحدثون عادة إلى أن نقد أفلاطون للديمقراطية لا ينطبق على الديمقراطية التمثيلية representative، التى لم تكن معروفة فى زمن أفلاطون. لكن هل الفرق بين الديمقراطية الإثنية والصيغة الحديثة هو فرق جذرى كما نحب أن نتصور؟ لو كان الممثلون (النواب) يستطيعون دائماً أن يتصرفوا وفق ضمائرهم وفى ضوء قناعاتهم الشخصية، لكان من الممكن أن نتصور كون الديمقراطية التمثيلية أفضل كثيراً من الديمقراطية المباشرة (الشعبية). ولكن حين تكون عيون الممثلين المنتخبين معلقة دائماً بالانتخابات التالية، فإن الفرق بين النوعين يتضاءل كثيراً. وإلى أن نجد الوسائل والأساليب الكفيلة بالإقلال من عيوب النظام الانتخابى، فإن حكم أفلاطون على الديمقراطية يظل صحيحاً: إنها النظام الذى يحقق أقل الخير ويحدث أقل الضرر (الدوليتيكوس، 303-أ.ب).⁽⁵⁸⁾

لقد وصف 'سقراط' أفضل نظام للحكم والسمات الشخصية الأفضل المقابلة له. والآن يعضى ليصف الأنواع الأدنى من أنظمة الحكم والشخصيات

(58) لا مجال هنا بالطبع للحديث عن مسخ الديمقراطية الذى نعرفه فى عالمنا العربى. راجع أيضاً الهامش 35 فى الفصل السادس.

الأدنى المقابلة لها. إذ يفعل أفلاطون هذا يمزج السياسة بالسيكولوجيا، وهذان يمتزجان بطبيعة الأمور لأن النظم السياسية، كما يقول أفلاطون، لا تنبت من الأشجار أو الأحجار، بل من شخصيات الناس (544 د).

في سلسلة من السيناريوهات التخيلية يصف أفلاطون أنماطا مختلفة من أنظمة الحكم والشخصيات الفردية المرادفة لها. هذه السيناريوهات ثرية في لمحاتها السياسية والسيكولوجية، لكنها لا تسهم مباشرة في معالجة السؤال الذي انطلق منه مسعى الجمهورية. نرى أن الطبيعة الاستبدادية والشخصية الاستبدادية يلازمهما في الحقيقة الشقاء والتعاسة، وأن الحياة العادلة هي الخيار الوحيد المتاح لشخص كريم يتمتع بقدر من الاحترام الذاتي. الموضوعات المطروحة والتحليلات المقدمة لها بالتأكيد دلالاتها بالنسبة للموقف الإنساني الراهن. إن كنت أمتنع عن تقديم أى تعليق هنا، فما ذاك إلا لأنى لا أعتقد أن عندي إضافة ذات قيمة أقيمها في هذا الموضوع.

في فقرة طويلة في 546 أ-547 أ تتنبأ ربّات الإلهام، في خطاب بليغ فخيم، بالتدهور المحتوم للمجتمع المثالي حين يسهو الحكام عن الأعداد والأزمة التي تحكم التوالد، وهي أعداد وأزمة جامحة الخيال يُنسب لها كمال تام. وينذرنا أفلاطون في وضوح بأن ربّات الإلهام إذ يعطوننا هذا البيان سيعبثون بنا ويعاملوننا كأطفال. ويتأكد جموح الخيال في هذا البيان حين نلاحظ أن التيماركية (حكم الطبقة المتميزة) يأتي من فساد المجتمع المثالي — مجتمع مثالي لم يكن موجودا! هل استعار أفلاطون هذا البيان جامع الخيال من بعض العبادات السرية؟ أترك السؤال لدارسي الكلاسيكيات. لكنى الآن أخذ هذه الفقرة باعتبارها واحدة من تلك الفواصل الاسترخائية التي يقدمها أفلاطون ليهينى القارئ لفقرة تتطلّب تركيزا في التفكير أو ليعطى القارئ فترة راحة بعد فقرة كهذه.

(ترى هل كانت الفقرة التي تصوّر شكايّة زوجة الرجل الخير هي مصدر كل الأفاويل التي تجمعت فيما بعد حول زانتيني، سواء كان أفلاطون قد قصدها أم لم يقصدها؟)

حتى يوربيديس Euripides لم يسلم من غضب أفلاطون، ففي 568 أ- ب يستيق أفلاطون هجومه الشامل على الشعر في بداية الباب العاشر، فينسب إلى يوربيديس القول بأن الحكام المستبدّين حكماء بمعاشرتهم للحكماء. حين يستخدم أفلاطون نصّا لشاعر خارج سياق النصّ، فإنه لا يمكن أن يكون غافلا عن الزيف الذي يلصقه بالفرض الأصلي للشاعر. لكنّ بما أن مثل هذا الاستشهاد كان عادة شائعة في أيامه، فلا بدّ أن أفلاطون كان يشعر بأن الشاعر يجوز أن

يُعدّ مسنولا عن احتمال إساءة فهم أقواله وإساءة استخدامها تبعاً لذلك. هكذا مرة أخرى نجد بيوريتانية puritanism أفلاطون المتطرفة تحمل الثمر المر لكل تطرف. إن التمسك المتصلب بأية قواعد أو مبادئ لا تؤمن عواقبه في أي مسلك من مسالك الحياة. كتبت Kant أيضاً خطأ حين ظن أن الأمر المطلق categorical imperative يمكن ترجمته إلى قواعد محدّدة يصحّ تطبيقها بلا استثناء على المواقف الفعلية. في العمل، في التربية، في كل نطاق من النشاط الإنساني، يجب أن نكون مستعدين لتقبّل المخاطر إن أردنا النجاة من خطر التحجّر. لا اعتقد أن سقراط بطبيعته المسمحة كان من الممكن أن يقسو هكذا على الشعراء الجيدين.

في 578-هـ ينكرنا أفلاطون بأننا نبحت في أعظم الأشياء جميعاً، الحياة الحسنة والحياة الرديئة. هذا هو بالفعل الموضوع الحقّ للجمهورية.

نرى ماذا يمكن أن يفعل الكمبيوتر بحجة أفلاطون في 583-ب-597-ب التي تزعم إثبات امتياز الملذات الفلسفية؟ إذا لم يُبحث بالبيانات المُخلطة إلى الكمبيوتر، فإنه سيقتل في أن يجد أي رابطة منطقية في القضايا المتعاقبة، ولو أنه قد يجد فيها اتساقاً مماثلاً لاتساق سيمفونية لموتسارت Mozart. لا يعطينا أفلاطون برهانا يقينياً، بل يبيّن فينا قدرة أن نتذوّق - بلهنا أن نعشق - ملذّات العقل.

مرّة أخرى في 585-ب-ج نجد التوكيد على وحدة الحقيقة والمعرفة والحقّ - مبدأ أن الحقيقة والمعرفة والحقّ أوجه لنفس الشيء. ومرّة أخرى، لا مكان هنا لأي برهان - ها هنا ببساطة توكيد خلاق، إعلان نبوءة.

وفق حسابات أفلاطون، حياة الشخص العادل أكثر لذة بسبعمئة وتسع وعشرين مرّة، وحياة غير العادل أكثر شقاءً بسبعمئة وتسع وعشرين مرّة (587 ج). من الواضح أن هذا لهو، وينبغي أن يحذرنا من أن نأخذ أي شيء عند أفلاطون - غير القيم الأخلاقية - بجدية تامة. ثم يهيل أفلاطون تصويراً فوق تصوير ليمثل هناك العادل وشقاء غير العادل. عند ختام الباب التاسع يقول جلاوكون إن المدينة المثالية التي أسسناها بالكلمات لا توجد في أي مكان على الأرض، ويردّ 'سقراط' بأنها ربما توجد في السماء كنموذج لمن عساه يرى. وإذا يرى يصوغ نفسه على مثالها (592 أ-ب). تلك رسالة الجمهورية بكاملها. إنها من البداية للنهاية ليست إلا أمثلة للحياة الخيرة.

شجار الفلسفة والشعر

موقف أفلاطون تجاه الشعر والفن عامة لغز. بالفصوص في الملابس التاريخية قد تشكل حلولا عديدة، شيقة ومقبولة، ولو أننا قد لا نكون على يقين أبدا من أننا قد حللنا اللغز أخيرا. على أي حال، هذه مهمة لدارسي الكلاسيكيات، وأنا لست مؤهلا للقيام بها. لا أعتقد أن عندي شيئا ذا قيمة أضيفه في هذه المسألة بجانب ملاحظاتي السابقة عن شعور أفلاطون بالأخطار الجسمية للثيولوجيا الفاسدة التي ينشرها الشعراء في ملاحمهم وتراجيدياتهم. (انظر مثلا ملاحظاتي حول 362-د-367-هـ و 371-ب - ج و 379-أ). ولذا فإبنتي سأقصر ملاحظاتي فيما يلي على ما قد تكون له دلالة فلسفية.

في 595- أ يعرض أفلاطون أن يبرّر حظر الشعر والشعراء بالرجوع إلى نظرية الروح ثلاثية الأجزاء، لكنه لا يمضى إلى هذا مباشرة.

أين يكمن شرّ فنون المحاكاة؟ إنها تميل لأن تلوّث فهم جمهورها، إلا من كان منهم يعرف الحقيقة (595 ب). هكذا يكمن شر فنون المحاكاة في أنها تحيد بانتباهنا بعيدا عن الحقيقة وتوجهه إلى غير الحقيقي. هنا، فيما أرى، نكتشف أن الخطأ في نظرية أفلاطون عن الفن يرتبط بالعيب الأساسي في نظريته الميتافيزيقية. (في السوفست والفيليبوس والستيميبوس حاول أن يعالج هذا الخطأ. انظر الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب.) إن أعظم إسهام لأفلاطون في التفكير الفلسفي كان إعلانه لفكرة الحقيقة ككمال (صورة الـ خير). لكن أين نجد تلك الحقيقة؟ ظلت الحقيقة عند أفلاطون فكرة، لا يمكن التعبير عنها إلا من خلال الأسطورة والتشبيه والأمثلة. حاول أفلاطون طوال حياته أن يجد تعبيرا للصلة بين الحقيقة و'حقيقة' العالم الفعلي الزائفة، لكنه لم يجد أبدا صيغة ترضيه. لو أنه أعطى المزيد من الانتباه لاعتبار أن الحقيقة المطلقة تتطلب وجود العالم الناقص الزائل، الذي فيه وحده يمكن أن يكون للحقيقة الأولية وجود فعلي، لرأى أيضا أن الفن، إذ يضيف على المحذد الناقص كمالا محدودا واكتمالا، يمكن أن يقودنا عاندين من الماكامل إلى كمال الحقيقة. هكذا فإن نظرية أفلاطون في المحاكاة تخطئ من حيث تتوقّف عن إكمال الدورة من الفكرة، التي هي وليد العقل، إلى الحلال، 'معيّنة' التي لا يكون لها معنى إلا في الفكرة، عوّدا إلى كليّة الفكرة وتكامل العقل الفاعل الخلاق الذي ولد الفكرة.

كانت خطيئة أفلاطون الكبرى هي خطيئة الفصل. ميز سقراط المعقول والمحسوس. بغير هذا التمييز لا يكون هناك فكر ولا تفكير عقلاني ولا فلسفة. أما أفلاطون ففصل الفكرة عن الشيء الذي تتمثل فيه الفكرة. (ليس هذا هو الفصل *chôrismos* الذي يستكره أرسطو Aristotle). إنه فصل الروح عن الجسد، فصل العقل عن الشعور والعاطفة والرغبة والشهوة. فصل الحقيقة عن العالم الفعلي، وهكذا ترك الحقيقة بلا وجود واقعي وترك العالم بلا حقيقة. (على هنا أن أحيل القارئ إلى *Let Us Philosophize*، الباب الثاني، خاصة الفصل الثاني، "Dimensions of Reality").

يسأل 'سقراط': ما طبيعة المحاكاة عامة؟ (595 ج). نبدأ بطريقتنا المعتادة إذ نقول بصورة واحدة حيثما نطلق اسما واحدا على أشياء متعدّدة (596 أ). كثيرا ما يُستند لهذه العبارة تعزيزا للرأي القائل بأن أفلاطون كانت له نظرية تقول بوجود الصور منفصلة عن الأشياء التي نرى فيها تلك الصور. إنني قد عارضت هذا الرأي من قبل، مقررا أن أفلاطون لم تكن له أبدا نظرية مكتملة عن علاقة الصور بالموجودات. إلا أنني قد تكلمت هنا عن فصل أفلاطون للمفاهيم عن الأشياء. إنني بهذا لا أناقض موقفي السابق. الفصل الذي أتحدث عنه سلبى تماما، يتمثل في فشل أفلاطون في أن يجد الصلة بين الحقائق التي هي المفاهيم والأشياء الموجودة في الواقع. كل محاولاته لإيجاد مثل هذه الصلة لم يرض عنها هو نفسه. كان يعرف أن الفصل لا يمكن أن يكون نهائيا ومطلقا. لم يكن من الممكن إيجاد الصلة إلا في عالم موحد، حيث الواقع الزائل هو بُعد ضروري من الحقيقة الأزلية. هذا هو المنظور الذي أقدمه في نظرية الأزل الخلاق. (انظر *Let Us Philosophize*، الباب الثاني: Reality).

يستمّر 'سقراط' قائلا: لنقل إن هناك أسرة عديدة ومواند عديدة؛ عندنا إذن صورتان، صورة واحدة للسريير وصورة واحدة للمائدة. صانع الأسرة، ناظرا لصورة السريير، يصنع أسرة؛ إنه لا يصنع صورة السريير (596 أ-ب). لا بد للصورة أن تكون هناك من قبل كي يعطيها الصانع واقعية في سريير معين أو أي عدد من الأسرة. وما يمكن أن يُصنع لا يكون أبدا حقيقة بل يكون واقعا معينا.

ثم يسأل 'سقراط': ماذا لو أن أحدا كان يستطيع أن يصنع ليس فقط كل الأشياء التي يصنعها الصناع المتخصصون، بل كل ما في الطبيعة، الحي منها وما هو بغير حياة؟ الرسّام مثلا يستطيع ذلك. لكن يُقال لنا إن الرسّام يصنع ظواهر ولا يصنع أشياء فعلية (595 ب-ج). ولكن يحقّ لنا أن نسأل: ما الذي يمنع أن ينظر الرسّام إلى الصورة وهو يُنتج رسوماته الفعلية المعينة، بمثل ما

يقول الصانع، وحتى بمثل ما ينظر رجل الدولة والمربى إلى الصورة إذ يصوغان ما ينتجان؟ حتى ذلك الذى يحمل مرآة - أو لنقل، كى ننقل التعبير إلى عصرنا، يحمل كاميرا - ويدور بها فى كل اتجاه، قد يعكس فى واقع معين صورة جمالية يشهده فى عقله. لم تكن فلسفة أفلاطون تلزمه بأن يدين الفن كله باعتباره يقدنا بعيدا عن الحقيقة. كان هناك شيء آخر جعل أفلاطون يتحمل على كل ما هو جسدى وجسدى - ربما نجد ذلك الشيء فى تأثره بالأورفية- الفيثاغورية التى قادته لأن يعتبر كل ما هو جسدى ملوثا فى جوهره.

قلنا إن صانع الأسرة لا يصنع مفهوم السرير؛ وقلنا أيضا إن مفهوم السرير هو الحقيقة؛ من هنا نقول إن صانع الأسرة لا يصنع ما هو حقيقى بل يصنع ما هو شبيه بالحقيقى؛ لا شيء فعليا ومحددا يمكن أن يكون حقيقيا تماما (597 أ). ها هنا صدق ميتافيزيقى عميق يمكن مع ذلك أن يقود لكثير من الخطأ. كل المثاليين Idealists وكل الأفلاطونيين Platonists متفقون على أننا لا نستطيع أن نجد الحقيقة إلا فى مجال المعقول. كل الأشياء الفعلية المحددة لا يكون لها من الحقيقة إلا بقدر ما تستمد من معقولية من خلال المفاهيم التى ينشئها العقل. لكن حقائق مجال المعقول تلك وتلك الحقيقة المطلقة ليس لها وجود فعلى إلا فى المحدد، المحدود، الزائل، الذى يتجسد فيه الحقيقى وقتيا. هذا ما اعتبره، فى موقفى، تطورا أصيلا للأفلاطونية.

فى 597- ب يقال لنا إن مفهوم السرير، الذى له كينونة فى أصل الأشياء، *hê en têi phusei ousa*، هو من صنع الله. كان قد قيل لنا دائما إن الصور أزلية، وصانع الكون، الـ *dêmiourgos*، فى الـ *تيميائوس*، يصنع أشياء الطبيعة على مثال الصور الأزلية. المفهوم هو معقولية الشيء ولا يمكن أن يصنع لأنه ليس أبدا شيئا فعليا محددًا؛ طبيعته أن يسمو على كل واقعية. هذا، فى رأى، ينبغى أن ينبئنا بأمرين. أولا، إن أفلاطون يستخدم دائما أى لغة وأى تصوير يخدم غرضه فى لحظة ما. ثانيا - وهذا يقدم التفسير والعذر معا للامبالاة أفلاطون -- إن اللغة لا يمكن أبدا أن تكون واقعية للبصيرة الفلسفية. كى نلمح الحقيقة علينا أن نطوف بعين العقل فوق موج الكلمات المتلاطم. إن أردنا التوفيق بين موقفى أفلاطون، قد نقول إن الله الذى يعزى إليه صنع الصور هو العقل، وإن أزلية الصور هى تسامى المعقولية على الزمن *the supra-temporality of intelligibility*.

تم يقول أفلاطون إن الله كان عليه بالضرورة ألا يصنع أكثر من مفهوم واحد للسرير. لأنه لو صنع 'مفهومين' للسرير، لكننا عندئذ فى حاجة لمفهوم ثالث يتمثل فى المفهومين (597 ج). هذه هى الحجة التى تعاد الظهور فى الـ

بارمنيديس وتتخذ فيما بعد صياغات مختلفة، أشهرها ما عُرف باسم 'الرجل الثالث'.

المفهوم وحيد بالضرورة. كون المفهوم حقيقة مرادف لكون معقوليته مباشرة. هذه هي الإجابة النهائية على حُجّة 'الرجل الثالث' وعلى مفارقة رسل Russel's Paradox. حلّ رسل المفارقة (أو التفتّ حولها) بافتراض الأنماط Types التي يجب، عند مستوى معين من التفكير، أن تؤخذ باعتبارها ذاتية الموضوع. لكن سقراط كان قد أعطانا من قبل مفتاح اللغز حين أصرّ على أن 'السبب' الكافي الوحيد الذي يمكن أن يقع به الفيلسوف يُظهره لنا المبدأ البسيط القائل إنه بالجمال تكون كل الأشياء الجميلة جميلة. إنني عالجت هذه الحُجّة في موضع آخر، أما هنا فأريد فقط أن أقول إن الله لم يكن ليستطيع أن يصنع حتى مفهوما واحدا للسرير، لأن مفهوما يُصنع يكون واقعا an actuality وليس حقيقة a reality. حقيقة المفهوم هي الوضوح الذاتي لما يخلقه العقل؛ لهذا فهو لا يحتاج مفهوما آخر يعطيه معقوليته.

من الواضح من نبرة أفلاطون عند الحديث عن فيثاغورس Pythagoras في 600- ب أن أفلاطون لم يكن فحسب قد أعجب كثيرا، إذا لم نقل تأثر كثيرا، بالحركة الفيثاغورية، بل أنه كان يرى في فيثاغورس نموذجا يودّ في وِزَع أن يفتدى به. لم تكن الأكاديمية محض مؤسسة تعليمية، بل كانت نهج حياة، وأبني أكرّر أن غاية الجمهورية، في زعمي، كانت تصوير نهج حياة، إعلان رؤية الحياة الخيرة.

يقال لنا إن الشعراء⁽⁵⁹⁾ يحاكون أشباه القدرات التي يصوّرونها، *pantas tous poiêtikous mimêtas eidôlôn aretês einai*. الرسام يمثل صانع الأحدثية الذي لا يعرف الرسام شيئا عن عمله، يمثله لمشاهدين هم بدورهم لا يعرفون شيئا عن عمل صانع الأحدثية، بل تخدعهم الأشكال والألوان (600 هـ -601 أ). من المؤسف أن ازدرأ أفلاطون التام بكل ما هو مرئي ومحسوس جعله عاجزا عن إدراك أن المثالي لا يمكن أن يكون فعليا إلا في المحسوس. عجزه هذا ترك عالمه المثالي بلا لبّ. كان أفلاطون حقًا قادرا على أن يرى "عالما في حبة رمل والأزل في ساعة"⁽⁶⁰⁾، لكنه سلك فحسب الطريق الصاعد من حبة الرمل إلى العالم ومن اللحظة إلى الأزل، ولكنه لم يكمل الدورة نزولا

(59) الكلمة اليونانية التي نترجمها بالشاعر تشمل، إلى جانب الشاعر، كل من ينتج شيئا، الفنان والمهني والحرفي.

(60) هذه استعارة من قصيدة لـ وليم بليك William Blake.

يرى العالم موجودا فعليًا في حبة الرمل والأزل في اللحظة العابرة. إذا لم تكمل الحركة النازلة فإتنا، ككائنات حية فعلية، تنقطع صلتنا بالعالم المثالي؛ تبقى مُثُلنا في السماء ولا تعشى بيننا على الأرض. المسيحية اكتسبت ثراء عظيمًا من أفلاطونيتها، لكنها إذ غالت في الأفلاطونية، أصبحت لانيوية؛ كان بمقدورها أن تغيّر حال الأفراد، لكن لم يكن بمقدورها أن تغيّر أحوال العالم. لهذا فإتنا في أشد الحاجة لروحانية إنسانية، لا تنحصر داخل الأرضي – مثل معظم ألوان الإنسانية العلمانية secular humanism – ولا تطفو، بغير جذور، في عزلة محيط سماوي.

لا حاجة بنا لأن نناقش تفصيلاً تصوير أفلاطون للفن كخداع. كلنا نعلم أن الرسام قد يجعلنا نرى الشيء أعظم جلاءً مما نراه في الملاحظة المباشرة. الرسام، أبعد ما يكون عن أن يعطينا وهماً، فهو يجدد فينا مباشرة وعفوية التجربة البصرية الفعلية. السرير الذي يرسمه الفنان هو أصدق تمثيلاً للسرير كما أراه من وصف واقعي في كتالوج لنفس السرير. ومرة أخرى، حين يؤاخذ أفلاطون الشعراء لأنهم يمثلون أشياء هم لا يفهمونها، فنحن نعلم أن شاعراً يصف سباق مركبات، يصوّر الانطباع، والمشاعر، والنضال، لا تقنيات السباق، وأن الشاعر يعطينا فهماً أفضل للموقف مما يستطيع أن يعطيه حتى الشخص نفسه الذي يمرّ بالتجربة. هذه أصبحت أمورا شائعة، وهناك من يستطيعون شرحها أحسن كثيراً مما أستطيع أنا. لكنّ إنصافاً لأفلاطون علينا أن نتذكر أنه كان على الأرجح يهاجم أفكاراً خاطئة كانت سائدة في مجتمعه؛ يبدو أن عامة اليونانيين كانوا يعتبرون أعمال مشاهير الشعراء أتية من وحى إلهي ويعتقدون أنها تحوي صدقاً لا مجال للشك فيه عن كلّ شيء. هذا الفهم الخاطئ كان بالطبع يتطلب التصحيح.

قد يبدو هذا مستغرباً، ولكن إذا راعينا أن الأفكار هي في الحقيقة من خلق العقل، لا نستخرجها كالمعادن من باطن الأرض ولا نصطادها كالسمك من جوف البحر، فينبغي ألا نقسو كثيراً على أفلاطون حين نجدّه يفتقر لمفهوم الخيال imagination. هذه الفكرة المعجزة لعلها تبلورت في عصر الرومانتيكية Romanticism. ليس من اليسير، في غيبة فكرة الخيال، أن نردّ بطريقة مرضية على مؤاخذات أفلاطون على الشعراء والفنانين باعتبارهم محاكين يبعدون بعداً وراء بعد واقع ويسمو على كل واقع في 'العالم الخارجي'. مُثُل للحقيقة مستقلاً عن كل واقع ويسمو على كل واقع في 'العالم الخارجي'. مُثُل (صور) أفلاطون هي مجال للحقيقة من هذا القبيل، ويحقّ لنا أن نعتبرها المصدر الأول لفكرة الخيال. لكنّ، كما يحدث كثيراً مع المبدعين، فإن أفلاطون لم يستوعب تماماً أبعاد ما خلق. احتجز مثله (صوره) داخل منظور للحقيقة

والصدق صارم القيود. لعل فكرة العالم المثالي، التي ندين بها لأفلاطون، لم تحطم القوقعة، التي أبقاها أفلاطون حبيسة بها، لتتطلق محقة، إلا في الحركة الرومانتيكية. لو أن أفلاطون سمح لفكرته عن عالم المفاهيم أن تتطور لرأى أن العالم الذي خلقه هوميروس Homer كان فيه من الحقيقة ومن الديمومة أكثر مما في العوالم التي أوجدها ليكورجوس Lycurgus وصولون Solon ومن على شاكرتهما.

هكذا نجد الشاعر يلتقط الظواهر ويستخدم مصطلحات مختلف الجرف فيصّب هذه الكلمات والعبارات في أوزان وإيقاعات وأداء ليعطيها سحرا خاصا بها، فإذا جردناها من تلوينها الموسيقي، وجدنا المحتوى بلا قيمة (601 أ- ب). أعتقد أن عندنا هنا مسألة حقيقية، تحذّر لا بد من مواجهته. هناك بالطبع من ردّ عليه من قبل وردّ جيدا. لكن المسألة الحقيقية تكون قيمة من حيث تكون قابلة لأن تنشأ عنها تنوعات لانهائية من الحلول الخلاقة. كلنا نعرف أن القصيدة إذا حوّلت نثرا تفقد من القيمة بقدر ما كان لها من قيمة ذاتية كشعر. هذا يقوّض أي ادعاء مزعوم للشعر كوسيلة لنقل الصدق الواقعي. هذا كل ما يراه أفلاطون من الأمر، وفي هذه الحدود فإن اعتراضه لا مجال للجدال فيه. ولكن ماذا عن تلك الجاذبية المسرحية التي تكمن في موسيقى وشكل القصيدة؟ هذا الذي يتغاضى عنه أفلاطون هو كل قيمة وكل حقيقة القصيدة. الشاعر يأخذ سفاسف بلا قيمة فيصوغها بطريقة خلاقة في كلّ شيء جميل في ذاته، هو تحقيق للكمال في شيء محدّد. حين ندرك أن الكمال، الخبير، لا يمكن أن يجد تعبيراً، لا يمكن أن يكون واقعا، إلا فيما هو خير محدّد، عندئذ فقط يمكننا أن نوقف بين الحقيقة المطلقة والكمال الموجود فعلا. هذه هي الخطوة التي قصر أفلاطون عن أن يخطوها.

بعد ذلك يطبق أفلاطون نظريته في مستويات المعرفة – المعرفة، الاعتقاد، الوهم – على المستخدم والصانع والمحاكي ليقرّر مرّة أخرى أن المحاكى يتعامل مع الوهم (601 ب- 602 ب). أكتفى هنا بملاحظة عابرة، فها هنا مثال يبيّن كيف أن أي نظرية، قد تكون صالحة ومفيدة لغرض خاص معين، ولذلك الغرض فقط، إلا أنه يمكن دائما استخدامها لاصطناع مظهر صدق زائف.

أعتقد أن مبالغة أفلاطون في عدم الوثوق بالحواس (602 ج- د) ترجع أيضا للتحقير الأورفي Orphic لكل ما هو حسي، مما يمسح التمييز الديمقراطي بين المعقول والمحسوس. فعند أفلاطون الفترة الوسطى – قبل أن يكيّف موقفه في الديالكتيوس – لا صدق في الحواس. وجاء لوك Locke ليخبرنا بأن

الحواسن هي المصدر الوحيد الموثوق به للمعلومات. كلا الموقفين أحادي الجانب ومعيب. الحسن بغير التأويل المفهومي أعمى؛ المفاهيم في انفصال عن المحتوى الحمسى خاوية. حين يرينا البصر نفس الشيء أكبر أو أصغر تبعاً لنظري إليه من قريب أو عن بعد، فإن البصر لا يكون خذاعاً بل هو بضمّ الحس بالمسافة مع الحس بالحجم؛ يأتي الوهم فقط حين أحكم بأن حجم الشيء كذا؛ ليس هذا خذاع بصر بل خطأ حكم. أنزل باركلي Berkeley التجربة الحسنية منزلها الصحيح وأعاد كُنْتُ Kant تثبيت العلاقة التبادلية reciprocity بين العقلي والحسنى في التجربة الإمبريقية.

بعد ذلك يستخدم أفلاطون التناقضات في حواسنا وفي مواقفنا العاطفية لدعم نظريته في التقسيم الثلاثي للروح. حين تتعارض أحكامنا وحين نمرّ بتجربة الصراع داخل أنفسنا، يعتقد أفلاطون أن الأحكام المختلفة والنوازع المتعارضة تصدر عن أجزاء مختلفة من أنفسنا (602 هـ - 603 د). ومن جديد أرى أن موقف سقراط الأصلي أقرب للعقل. في *الديوتاجوراس* نجد الصراع لمغالبة غواية اللذة أو الألم المباشرين لا يتوقف على أي أجزاء الروح يعمل بل على الأفكار التي تأتي بها للتأثير على الموقف (*الديوتاجوراس*، 352 أ-360 هـ). حين تدفعني رغبة فجأة فإنني لا أعمل بجزء منفصل من روحي بل أتحرّك على مستوى معين من كينونتي. حين أسقط من مكان مرتفع فأكسر ساقى فإنني لا أعمل بجزء من روحي بل أخضع لحدث على المستوى الفيزيقي لكينونتي؛ حين أقطب وحين أنلّو بتأثير الألم فإنني 'أتصرف' على المستوى الفيزيولوجي لكينونتي؛ حين أفكر في أن على أن أكون ممتناً لأن ما كبير كانت ساقى ولم يكن عنقى فإنني أعمل على المستوى الفكري من كينونتي. حين أعمل عملاً فاضلاً أو أعمل عملاً خبيثاً أفعل أفكاراً وقيماً مختلفة، وحيث يمكن أن أتأرجح بين الفضيلة والرذيلة فذلك لأنني لم أنجح تماماً في التوفيق والتنسيق بين الأحكام والقيم التي تلقيتها من مصادر ومؤثرات مختلفة، لأنني لم أنجح بعد في أن أجعل عقلي متسقاً بدرجة كافية. (انظر "The Mystery and the Riddle: Reflections on the Problem of Evil")⁽⁶¹⁾.

يعيب أفلاطون التعاطف الذي يبنيه فينا الشاعر الملحمي أو التراچيدي نحو معاناة أو فرح أشخاص الملحمة أو التراچيديا؛ إنه يرى أن استحساننا لهذا التعاطف يتناقض مع رغبتنا في اتخاذ موقف أكثر تجلداً حين نمرّ بمثل هذه التجارب في حياتنا نحن (605 ج - هـ). لكن يجدر بنا أن نأخذ في اعتبارنا

(61) في *The Sphinx and the Phoenix*.

أمريين: أولاً، إن إكساب تعاطفنا رحابة وعمقا هو بالتأكيد جزء من وظيفة الفن؛ ثانياً، إن هذا لا يناقض رغبتنا في أن نكون أكثر تحكماً في أنفسنا، فكلما ازداد فهمنا للعواطف التي قد نعرض لها، ازدادت قدرتنا على التحكم فيها.

مع ذلك فلا سبيل لإنكار أن الكثير مما يسمّى فناً في زماننا ضاراً. كما يمكننا أن نتفهم تحفظات أفلاطون على هوميروس، فبالى جانب الثيولوجيا الزائفة التي أشرنا إليها من قبل (في التعليق على 362 د-367 هـ، 371 ب - ج، 379 أ)، فإن ما كان متبعاً على نطاق واسع من اعتبار أفعال وتوجهات الأبطال والآلهة جديرة بأن يُقنّدى بها، كان بلا شك أمراً ضاراً في غيبة فلسفة أخلاقية مستنيرة تحظى بنفس الانتشار والاستحسان والاحترام. لا أظن أن أى مجتمع إنسانى فى عصرنا يستطيع أن يستغنى عن بعض الرقابة على الفن أو يكون قد نجح فى أن يضع قواعد عقلانية واضحة لمثل هذه الرقابة. علينا أن نتلمس طريقنا لمثل هذه القواعد بالتجربة والخطأ، ولكى نفعل هذا بطريقة آمنة وفعالة، علينا أن نداوم التفكير وإعادة التفكير فيما تستند إليه مواقفنا من مبادئ فلسفة الأخلاق وفلسفة الفن لا يمكن صياغتهما وتقريرهما بشكل دائم: لا بد أن ينشغل بهما فكرنا بلا انقطاع إن كان لنا أن نحافظ على إنسانيتنا. التفلسف مهمة دائمة للإنسانية.

كلمات أفلاطون عن شجار الفلسفة والشعر نلمس فيها جيشان عاطفة العاشق الحقّ. دعونا نغطه بعض الطمانينة: سينتهى الشجار بين الفلسفة والشعر حين يعترف الفيلسوف بأنه يتعامل مع الأساطير وحين يُقرّ الشاعر بأنّ لا شيء فى الدنيا، ولا حتى الجمال، يمكن أن يبرّر أىّ تجاهل للفضيلة، كما يقول لنا أفلاطون نفسه فى 608-ب.

خلود الروح

فى المشاهد الافتتاحية للجمهورية سمعنا كيفالس الشيخ يقول: "حين يعتقد أحدنا أنه قارب النهاية، عندئذ يداخله خوف وتوجس لم يكونا عنده من قبل. فالحكايات التي تحكى عما يجرى فى عالم الأموات، من أن أولئك الذين اقتروا الظلم يخضعون للعقاب، والتي كانت حتى ذلك تبدو لنا مدعاة للضحك، تأخذ توزق روحنا، خوفاً من أن تكون صادقة" (330 د-هـ). على هذا يبدو أن تلك الحكايات كانت فى القرن الخامس قبل الميلاد تتردد كثيراً فى العالم الهيلينى. فى حدسى - ولا يمكن أن يكون أكثر من حدس - أن سقراط لم تكن تقلقه تلك الاعتبارات، أما أفلاطون فيبدو أنه شغل بها فكره كثيراً.

يقودنا أفلاطون إلى موضوع خلود الروح إذ يقرّر أن الكثير يتوقّف على كون المرء خيراً أو شريراً وأن للفضيلة مكافآت تربو على ما ذكرناه من قبل (608 ب-ج). يبدو من أعمال أفلاطون أنه كان يعتقد فعلا في الحياة بعد الموت. يختلف هذا عن الموقف اللاأدرى المنسوب إلى سقراط في *النفّاع* (40 ج-د)، والذي أرحح أنه كان موقف سقراط بالفعل. في *الفايدون* يقدم لنا أفلاطون أربع 'خجج' مخلّعة (أو ثلاثا، حسب الطريقة التي تتبعها في تجميعها)، ولا يزعم لأي منها بأنها يقينية. والخجج التي يقدّمها في الجزء التالي من *الجمهورية* (608 د-612 أ) من نفس النوعية ونفس الطبيعة. في *الفايدروس* (245 ج- 246 أ) وفي *القوانين* (893 ب-896 د) يقدّم أفلاطون دليلا رشيقا، له من هيئة البرهان المنطقي أكثر مما للخجج الأخرى، إلا أنه، في رأبي، ليس إلا تعبيراً عن مفهوم أزلية الروح (بمعنى التسامي على الزمن)، ولا يمكن أن تثبت استمراريتها في الزمن، فذلك غير ممكن بأي وسيلة. أما 'الدليل' الذي نجده في *الجمهورية* فيعتمد على ازدواجية معنى كلمة 'الروح'. فمن المؤكد أننا نستطيع القول بأن الشرّ يدمر الروح كمبدأ أخلاقي ولو أنه لا يدمرها كمبدأ حياة. أوّد فقط أن أضيف ملاحظة عابرة، فافلاطون حين يجتهد ليعطينا برهانا لقضية ما، يكون أقلّ قدرة على أن يعطينا بصيرة في الحقيقة وفي القيم. حين يخلق مع الخيال، حين يلهو، حين يتبدع الأساطير ويصرّح بأنها أساطير، حينئذ يأخذنا إلى قلب الحقيقة. هكذا، في هذا الجزء من *الجمهورية* حيث نجد محاكاة بالمعنى الدقيق، فالخجة لا تصل بنا إلى شيء ولا هي تسهم إيجابياً في 'الخجة' الشاملة للجمهورية، ولعلنا نراها أضعف ما تكون لو اعتبرنا *الجمهورية* مبحثاً سياسياً. هل أنا بهذا أنكر دور العقل والعقلانية في التفلسف؟ لا يكون الأمر كذلك إلا إذا قصرنا معنى العقل والعقلانية على التفكير الاستنتاجي والبرهان المنطقي. الفلمسة أعلى وأنقى ممارسة للعقل، بمعنى السعي للمعقولة. المعقولة هي اتساق المنظور المتحقّق في تناغم مبادئ خلاقة أساسية.

يتحدّث 'سقراط' عن مكافآت أعظم مخصّصة للفضيلة (608 ج). في رأبي أن سقراط كان قانعا بالمكافأة الأعظم، التي تعنى عن كل ما عداها، التي يشير إليها في *الكرييون*: إذا كنا، حين يكون جسدنا عليلاً، نجد أن الحياة لا تستحقّ أن نحياها، فهل تكون أكثر استحقاقاً حين يفسد ذلك فينا الذي يضربه اقتراف الظلم وينفعه اتباع العدل؟ (*الكرييون*، 47 د-ه). الفضيلة هي صحّة وكمال ذلك فينا الذي به نكون كائنات إنسانية. اعتقد أن ذلك كان الموقف النهائي لسقراط، ولمست أرى ما حاجتنا لأي شيء فيما وراء ذلك.

"ما الذى يمكن أن يعظم فى وقت قليل؟" — هكذا يقول 'سقراط' فى تساؤل بلاغى (608 ج). يا لها من مفارقة أن أفلاطون، الذى ندين له بالفكرة الخصبة للأزل كحقيقة مثالية تسمو على الزمن، يمكن أن يختلط عليه الأزل بالاستمرارية الزمنية نحن مخلوقات زمنية، محدودة، متغيرة، زائلة. لو أننا كنا لا شئ غير ذلك، لكننا — إذا جاز فى تلك الحالة أن نهتبل لأنفسنا ضمير المتكلم — لا شئ غير تتابع حالات من الوجود متفانية، ولما كانت لنا لا ذاتية ولا وحدة ولا حقيقة. بقوة العقل، بقوة الأفكار، صنعنا وحدتنا وذاتيتنا وحقيقتنا. خلقنا فكرة الحقيقة، الكمال، الأزل. إذ خلقنا تلك الفكرة، حولنا تجربة حالات الوجود المتفانية فينا إلى تجربة للأزل. حين نحيا اللحظة العابرة فى هيئة الأزل، نسمو على الزمن وعلى الوجود ونحظى بالحقيقة. هذا ما يحققه لنا الشعر والفن والفلسفة. هذا ما عناه سبينوزا Spinoza بالفهم تحت هيئة الأزل *sub specie aeternitatis*. لكننا لا نستطيع أن نبلغ الأزل أو الحقيقة المطلقة بأى وسيلة أخرى. لا نستطيع أن نفلت من قيود الزمن والوجود المحدود إلا بالتسامى على الزمن وعلى الوجود فى الأزلية اللحظية للفعل الخلاق — فى خلق كمال لاكامل فى أفعال جميلة وأعمال جميلة. لو أننا أفلتنا من تلك القيود إفلتانا مطلقاً لما عادت لنا كينونة. أعترف بأن كل هذا تطوير لأفلاطون، نبت البذرة التى غرسها أفلاطون فى تربة الروح الإنسانية.

هل كان أفلاطون فى 611-أ-612- أيتجه نحو إرساء مبدأ خلود (بقاء) الجزء العاقل فقط من الروح، متحرراً من كل قربى أو صلة بالجسدى والأرضى؟ لكن ذلك يصعب اعتباره بقاءً شخصياً، إنما يكون أشبه بامتزاج العنصر الإلهى فى الإلهى فى الفكر الأفلوطينى Neoplatonist أو الغنوسطى Gnostic. إننى ما كنت لأعارض هذا الموقف، وإن اختلفت معه فى التعبير، فى صياغة العبارة.

فى 611- ب يخبرنا أفلاطون بأننا لا ينبغي أن نعتقد أن الروح فى طبيعتها الحقة، *têi alêthestatêi phusei*، تمتلى بالتنوع والتمايز والاختلاف، لأننا لا يمكن أن نعقل اللامرئى *aidon* مكوناً من أجزاء. هل نقول إذن إن تقسيم الروح إلى أجزاء لا يتعلق بالروح فى طبيعتها الحقة؟ هل الأجزاء إذن ليست أجزاء منفصلة حقاً؟ أم أن الروح فى معناها الدقيق ليست إلا 'الجزء' العاقل فقط؟ أعتقد أن هذا مثال آخر يبين لنا أننا نحظى حين نحاول أن نحبس فكر أفلاطون فى قوالب جامدة. كان أفلاطون أعظم كثيراً وأكثر أصالة كثيراً من أن يمتنع عن التعبير عن لحظة بصيرة عابرة لينفذ نظريةً مهما كانت تلك النظرية عزيزة على قلبه.

هكذا أخيرا نصل إلى الغاية التي ظللنا نستهدفها ونعمل في سبيلها طوال الوقت؛ رأينا أن العدل (الصلاح) في ذاته هو الأحسن للروح في ذاتها (612 ب). إن تأسيس المدينة المثالية – سواء في هيكل الجمهورية أو في العالم الفعلى – ليس في ذاته هو الهدف؛ الهدف هو الحياة الخيرة للشخص الفرد.

بعد ذلك، كمنحة إضافية، نبين (612 جـ - 613 أ) أنه حتى بمعيار الخيرات الدنيوية، فليس أفضل من الاستقامة، ولا نبخل على حدوتنا بالنهاية السعيدة لكل الحواديت.

في 611- أ مرت بنا لمحة من حجة الدورة التي لقيناها في *الفاينون* (70 جـ - 72 هـ)، وعقيدة تناسخ الأرواح. والآن في 612 هـ - 613- أ نجد إشارة صريحة إلى العقاب في الحياة الراهنة عن خطأيا اقترفت في حياة سابقة. هذا تأكيد آخر للتأثير الفيثاغوري-الأورفي Pythagorean-Orphic. إلى أي حد كان أفلاطون ملتزما جديا بهذه العقيدة؟ هل كان يتلهم بالفكرة فحسب؟ إذا أخذنا في الاعتبار ما يبدو من أنه كان يعتقد مبدأ البقاء الشخصي، فمن المعقول أن نفترض أنه كان يرى أن من المرجح أن يكون في تلك العقيدة شيء من الصديق. لماذا لم تأخذ المسيحية هذا العنصر فيما أخذت من أفلاطون؟ كان هذا خليقا بأن يقرب المسيحية من البوذية Buddhism ولكانت المسيحية بهذا قد أضحت أبداع من أي من العقيدتين منفصلة.

الأخرة

أعطانا أفلاطون أربعة تصورات للأخرة؛ في *الجورجياس*، و*الفاينون*، و*الجمهورية*. ثم هنا في أسطورة *Myth of Er* في الجزء الأخير من أسطورة *muthos* ويحدثنا من أن نأخذ التفاصيل بحرفية زائدة أو بجذية زائدة. بالنظر لهذا فإن اختلاف الحكايات الأربع في مادتها ليس بمستغرب كما أنه ليس بذى دلالة فلسفية. إلا أن المعزى الأخلاقي البسيط للحكاية هو نفسه في كل حالة: الفضيلة تكافأ والرذيلة تعاقب في الأخرة. والعقوبة، مهما كانت شديتها، ليست انتقاما غاضبا من إله مُخَنَق بل هي التاديب الضروري لإصلاح الروح الخاطئة. الغاية دائما هي تطهير الروح والعودة بها إلى النقاء الأصلي لمنيعها الإلهي — هذا شيء أكثر عقلا وأكثر صحة من العذاب الأبدي في جهنم المسيحية أو جحيم الإسلام. إننى أشعر بأنه حتى حين يشير أفلاطون إلى إمكان أن تكون هناك بعض أرواح غير قابلة للإصلاح ولا يمكن خلاصها، فإنه ببساطة كان يلتزم بمصادره وما كان ليريدنا أن نأخذ ذلك على أنه تعبير عن

رأيه النهائي. على أى حال، فإن الاعتقاد بإدانة أبدية يصعب تبريره ميتافيزيقياً إذا كان المصدر النهائي لكل ما هو كائن خيراً. قبولنا بأن تبقى بعض الأرواح مدانة للأبد ينطوي على معنى أن الشرّ عنصر أصيل في المصدر النهائي للأشياء، وهذه نظرة ربما كانت مقبولة عند بعض مصادر أفلاطون، لكنى لا أجدها متوافقة مع منظور أفلاطون نفسه. (ومع ذلك فإن مسألة المكثاة الميتافيزيقية للشرّ في فلسفة أفلاطون تستدعى مزيداً من الدراسة). ثم إنى أراه لا يزال من الممكن أن نعجب ما إذا كان أفلاطون يعتقد إيجابياً بالبقاء للشخصى بعد الموت أم أن دافعه الحقّ إلى تقديم هذه الحكايات كان الرغبة فى أن يضفى لونا وحرارة عاطفية على الدعوة لحياة خيرة، هى فى ذاتها قيمة ببساطة لأنها - كما كان سقراط يقول- هى صحة الروح وهى الكمال الخاص بالروح.

النبرة التى يبثها أفلاطون فى حديث أديمانتوس فى 362- هـ -365 - أ عن تعاليم الأورفية Orphism وعن طقوس الانضمام للمذهب، لعلها تجعلنا نميل للاعتقاد بأن أفلاطون لم يكن يُضمر كثيراً من الاحترام لمثل هذه التعاليم أو للأسرار mysteries المرتبطة بها. ألا يوعز لنا هذا بأن أساطير الجورجياس والفايدون والجمهورية، التى يستمدّ أفلاطون مادتها من هذه المصادر، لم تكن عند أفلاطون إلا وسائل أدبية يُراد بها أساساً إحداث أثر ما؟ أما أسطورة الـ فايروس فلا تنتمى لهذه النوعية وهى فى اعتقادى من إبداع أفلاطون نفسه.

حتى إن اعتبرنا اعتقاد أفلاطون ببقاء الروح أمراً لا شكّ فيه، فإن مسألة reincarnation الثواب والعقاب فيما بعد الموت وكذلك فكرة تناسخ الأرواح ربما لم تكونا عنده أكثر من موضوعى بحث شيقين. أما سقراط، فى اعتقادى، فكان يرى كل المسائل التى من هذا النوع خارج نطاق التفكير الفلسفى.

ملحق

ملاحظات على بعض نقاط فى ترجمتى كورنفورد CORNFORD ولى LEE

أولاً: فرانسيس مكدونالد كورنفورد Francis Macdonald
The Republic of Plato translated with Cornford
Introduction and Notes (London 1941، (أرقام) 1945.)
الصفحات تشير إلى طبعة 1973.)

لا مجال للشك في أن الاهتمامات السياسية كانت قريبة إلى قلب أفلاطون طوال حياته. لكن الاهتمام السياسي لم يكن هو الأعلى في الجمهورية. لهذا، حين يكتب ف. م. كورنفورد F. M. Cornford في مقمّمة ترجمته للسؤال عن كيفة إعادة تشكيل المجتمع حتى يمكن للإنسان أن يحقق أفضل ما فيه — حين يقول هذا فإنني قد لا يعينني أن أجادل في هذا القول حول موقف أفلاطون، ولو أنني قد أسائل شدة التوكيد فيه؛ لكن حين يمضي فيقول: "هذا، فوق كل شيء هو موضوع كتابه المحوري، الجمهورية" (صفحة xv)، فإنني أرى ذلك مسخاً للمنظور الصحيح. يبدأ الحوار كبحث عن الطبيعة الحقّة للـ *dikaiousunē*، وهو لفظ كان يعني عند اليونانيين أكثر كثيراً من مجرد 'العدل'. من حيث هو موضوع للجمهورية، قد نترجم اللفظ بـ 'الصلاح' أو ببساطة، 'الحياة الأخلاقية'. وفي الواقع يتضح أن الجمهورية كلها بحث عن الحياة الطيبة. الهدف النهائي للجمهورية أن تعرض رؤية للحياة الطيبة، وهذه كانت عند أفلاطون، كما كانت عند سقراط، لا شيء غير حياة العقل، الحياة الفلسفية. ورغم أن المجتمع الخير ضرورة إذا كان للأفراد أن يحيوا الحياة الخيرة دون عائق، إلا أن الخير هو مباشرة وأساساً في الكائنات الإنسانية كأفراد، وبشكل ثانوي فقط في المجتمع. النظام التأسيسي المتخيل للمدينة النموذج لم يقم كدستور قابل للتطبيق لا لأثينا ولا لغيرها من المدن اليونانية. كانت تلك المدينة هي ما نقوله بالجمهورية عنها صراحة، كانت 'ماكيت' صنع لغرض وحيد هو أن نرى الفضيلة الإنسانية والرذيلة الإنسانية وقد ضحمتا لتصبح ملاحظتهما أكثر بسراً.

في هامش على 438- أ حيث يدعونا أفلاطون ألا نطلق إذا ما قال أحدهم إن الرغبة هي دائما رغبة في الخير، وعليه فالعطش، لكونه رغبة، لا بد أن يكون رغبة في الشراب بوصفه خيراً، يقول كورنفورد، مؤيداً موقف أفلاطون، "من الضروري أن نؤكد أننا بالفعل نمرّ بتجربة نزعات عمية يمكن عزلها عن أي حكم بشأن الخير في موضوعها" (صفحة 134، هامش 2). لكن نزعة عمية معزولة (لا نظرياً وإنما فعلياً) عن أي حكم تكون حالة جسدية أو حركة جسدية، هي ما أخلاقية *amoral* إن أردنا الدقة. لا يمكن أن يكون لها دلالة أخلاقية إلا حين تنطوي على قرار متعمد: هل أشرب أم لا أشرب؟ ولا ينطوي القرار على تعارض العقل والرغبة، بل على موازنة العقل بين خيرين حسبما يراهما مثل

هذا العقل. ومن جديد أجد التحليل المبراطي للصراع العقلي أو الأخلاقي في الـ
 بروتاجوراس ذا مغزى أعظم. أفلاطون هنا لا يرفض أو يعارض ذلك التحليل
 بالضرورة. إنه يستخدم تمييزاً نظرياً مجرداً ليقرّر نظرية سيكولوجية تعطيه
 لغة – كونا معنوياً – للتعبير عن بعض الأحكام الأخلاقية.

يكتب كورنفورد في هامش على 352- د: "الكلمة المترجمة هنا بـ
 "function" ("وظيفة") هي الكلمة المعتادة لمعنى "work" ("عمل"). من
 هنا جاءت الحاجة لإيراد أمثلة لحصرها في المعنى الأضيق لـ "وظيفة"، الذي
 يُعرّف هنا لأول مرة. ومرة أخرى عند 477 - ب - ج يقول كورنفورد في
 هامش: "يستخدم النصّ اليوناني هنا الكلمة المعتادة لـ "power" (*dynamis*)
 ("قوة")، لكن أفلاطون هنا يُعرّف المعنى الخاص الذي نعبّر عنه بـ "faculty"
 ("ملكة") (صفحة 185، هامش 1). هل تبقى كلمة 'يعرف' بحق ما نحن بصدد
 هنا؟ كانت كلمة *ergon*، 'عمل'، شائعة، والكلمة-الفكرة 'عمل' بذلك المعنى
 المعتاد هي بالفعل مفهوم مجرد ندين به ولا شكّ لعبرى من عصور ما قبل
 التاريخ. وأفلاطون هنا، إذ يعطينا معنى جديداً متخصصاً، لا يُعرّف شيئاً كان
 موجوداً من قبل – ماذا يمكن أن يكون ذلك وأين كان كائناً؟ – بل يخلق
 مفهوماً، بفعله نجد أن الظواهر التي كان لها معنى في منظور معين قد أصبح
 لها معنى جديد في منظور مختلف. ذلك مثال لما أعنيه حين أقول إن الأفكار
 يخلقها العقل فتُضفي معنى على معطيات التجربة.

يترجم كورنفورد *gennaion pseudo* (= 'كذبة نبيلة') في 414- ب-
 ج بعبارة "a single bold flight of invention"، "تحليقة جريئة واحدة
 من الابتكار"، ثم يُجهد نفسه ليبيّن أننا هنا لسنا بإزاء ما هو أكثر من "أمثلة لا
 ضرر فيها" يمكن مقارنتها بـ "أمثلة من العهد الجديد أو مسيرة الحاج" (62)
 (صفحة 106، هامش 1). إلا أن السياق يشير بوضوح إلى أنها خرافة يُراد
 تمويهها كصدق ورفضها على الحراس ومن بينهم، إن أمكن، الحكام. فإذا

(62) 'العهد الجديد' هو الجزء الثاني، الأحداث، من 'الكتائب المقدس' المعتمد عند الكنائس المسيحية، و 'مسيرة
 الحاج'، *The Pilgrim's Progress*، هو الكتاب الأشهر لجون بيبان، John Bunyan، نشر أولاً في 1678
 وهو يُعدّ من ندر الأدب الإنجليزي.

اعتبرنا أن مدينة الجمهورية النموذج بأكملها ليست إلا 'كذبة نبيلة' فسنجد الكذبة في باطن الكذبة - 'مسيرة الحاج' الأفلاطونية - أقل إزعاجا لنا. كنت أن أضيف أن الحكاية نفسها في الواقع، كما يقّمها أفلاطون (414 د-415 د)، هي حكاية لا يمكن لعامل أن يصدّق أن عاقلا يمكن أن يصنّفها، لولا أنى تذكرت الهراء الذى لا يُصدّق الذى تصنّفه قطعان المصدّقين بكل الأديان المؤسسة.

فى ملاحظته التمهيدية على 528- هـ -530- ج حيث يقّم أفلاطون دراسة الفلك، يكتب كورنفورد: "بعض الفيثاغوريين كانوا يستمون الفلك بعلم 'الكرويات' Sphaerics، حيث إنه كان يعالج حركة الأجسام السماوية باعتبارها كريات تامّة تتحرّك فى دوائر تامّة: لم يكن واردا أن هناك قوى فيزيقية تسبّب التحركات" (صفحة 246). ساخالف، استثناء، تصميمى على ألا أتعرّض لأى مسائل علمية، لأقول ببساطة أن هذا مثال على مدى استعداد أحسن العقول الحديثة إعدادا وتدريباً لأن تخضع لخرافات العلوم (حتى ما باد منها). هل يعرف أى أحد أى شىء عن تلك "القوى الفيزيقيه التى تسبّب التحركات"؟ الا يمكن أن نقول إن الموقف الفيثاغورى - رغم تعلّقه التصوّفى بالكريات التامة والدوائر التامة، وهو ما يشاركهم فيه أفلاطون - كان أقرب لنظره أينشتاين Einstein منه لنظره نيوتن Newton؟

ثانيا: هـ. د. ب. لى H. D. P. Lee (1955، *The Republic* ،

Penguin)

يشير لى Lee إلى الديالكتيك باعتباره "يشمل ما نسميه اليوم المنطق والميتافيزيقا" (مقدمة المترجم، صفحة 16). إننى أنظر للديالكتيك باعتباره توجّها أكثر منه دراسة نظامية لها موضوعها الذى تختصّ به. صحيح أن أفلاطون يضعه على قمة منهج دراساته المدرّج؛ لكنه لا يقول لنا شيئا عن محتوى تلك الدراسة. إننى أشعر بأن مسار التفكير فى حد ذاته هو الشىء: نمهم، تماما كما هو الحال مع الحوار السقراطى. (بالطبع، لا 'المنطق' ولا 'الميتافيزيقا' كان أيهما قد أقيم كدراسة منفصلة، لكن ليس هذا ما أرمى إليه فى ملاحظتى هذه). بعد ذلك يقول لى (صفحة 33) "إن 'الديالكتيك' ببساطة يعنى الفلسفة". والواقع أن أفلاطون يستخدم المصطلح أحيانا بذلك المعنى الواسع، والحقّ معه، إذ أن الفلسفة ليست إلا ذلك السعى الذى لا ينتهى أبدا.

يجد لى أن معالجة الفلسفة فى الجمهورية "هى دائما أقرب لأن تكون تلميحا allusive". إنه يرى أن "الجمهورية لا تحاول أن تعرض الفلسفة الأفلاطونية تفصيلا" (صفحة 33). أفلاطون لم يكن له أبدا "فلسفة أفلاطونية" لتعرض "تفصيلا". الفلسفة عنده لم تكن أبدا مجموعة عقائد أو منظومة نظرية تُشرح أو تُقتنى. كانت الفلسفة عند أفلاطون كما كانت عند سقراط ببساطة هى التفلسف، الانشغال بالممارسة النشطة لإعمال العقل، ولا شىء غير ذلك. ومع ذلك فإن أفلاطون لم يكن أبدا بمستطيع أن يكتب أى شىء عن الفلسفة "تلميحا" لسبب بسيط هو أن الفيلسوف إذا قرّر ما الفلسفة فى ظنه، أو ما موضوعها، أو ما غايتها، فإنه بذلك يكشف عن المبادئ الأساسية لفلسفته. إننى أرى أننا نملك فى الجمهورية أكمل وأعمق بيان للأفلاطونية.

فى تعليقه على محاجة أن الحكام، بوصفهم حكاما، لا يسعون لمصلحتهم الخاصة (341 ج - 347 أ)، يقول لى: "المحاجة الأخيرة نظرية جدا وصحتها مشكوك فيها، إلا أن ثراسيماخوس بحديثه عن الحكام الذين لا يمكن أن يخطئوا قد هجر واقعيته المزعومة، وجعل نفسه عرضة لحدحض نظرى صرف" (صفحة 63). إننى أفضل أن أرى هذه المحاجة لا على أنها حدحض شكلى لموقف ثراسيماخوس، بل كتقديم لمفهوم فى مواجهة مفهوم ثراسيماخوس — المفهوم المثالى للقوة كقوة للخير. كلما ازداد ما تتمتع به القوة من فهم، كانت أكثر كراما وسخاء وأكثر عوننا للغير. قوة الحماقة الزائفة تتسم بالأثرة؛ قوة الفهم الحقة تتسم بالإيثار.

فى 391-هـ ترد عبارة *epedeixamen gar pou hoti ek theôn* "for we have proved *kaka gignesthai adunaton* : "that no evil can originate with the gods" "فقد برهنا أن لا شر ينشأ من عند الآلهة." هذا يبين لنا كم يعيل الفلاسفة - وبينهم أفلاطون الذى لم يكن أبدا يحرص كثيرا على دقة المصطلحات - إلى استخدام لغة البرهان. ولكن ما الذى برهنه أفلاطون؟ إنه أعلن نبوءة أن لا شر يمكن أن يأتى من الله إذ أن الله خير. أى برهان عدنا على أن الله خير؟ إننا نجعل الله خيرا لأننا بهذا وحده نجد الحياة جديرة بأن نحياها.

فى هامش على 379- أ يقول لى: "يستخدم أفلاطون 'الآلهة' (بصيغة الجمع) أو 'الله' (بصيغة المفرد) كيفما اتفق؛ حين يستخدم 'الله' يجب ألا نزوله

بمفاهيم التوحيد *monotheism* (صفحة 116، هامش 2). عند أفلاطون، وربما عند سقراط، كانت الآلهة، إن وجدت، مخلوقات (كائنات مخلوقة) متميزة. ولكن عند أفلاطون، وكذلك عند سقراط، كان هناك فوق كل الآلهة كيان أو مبدأ أزلي، خير، عاقل. يعبر أفلاطون عن هذه الفكرة تعبيراً واضحاً في مفهوم صورة الخير. صورة الخير هي ما يمكن أن نراه عند أفلاطون مقابلاً لمفهوم الله التوحيدي (إن استطعنا أن نتفق على فهم لذلك)، وعلى هذا فمن الجائز أن نتحدث عن أفلاطون بوصفه توحيدياً⁽⁶³⁾ وعندما يتحدث أفلاطون عن *theos* بصيغة المفرد، فإنه في الأغلب يقصد الله هذا المتميز، مبدأ وأصل كل خير. فهنا، خلال بضعة أسطر، نراه ينتقل من فكرة الآلهة إلى فكرة الخير الأسمى: "إن خير هو الله في الحقيقة ويجب أن يقال هذا؟" *oukoun agathos ho ge theos toi onti te kai lektoon houto;* (379 ب). فالشمس في 508-ب، وقد وُصفت بوضوح كإله، نجدها وليداً للخير، إذ أن الخير هو نبع كل ما هو كائن. (ما إذا كان نشوء الكينونة المحتدة من الحقيقة هو عند أفلاطون خلق أو انبعاث، وما إذا كانت الموجودات 'الطبيعية' تأتي من الخير، هذه مسائل ليس هذا هو المكان المناسب لمناقشتها. ربما لم يستقر فكر أفلاطون أبداً في شأن هذه المسائل. على أي حال، إن كان لها أن تعالج بالنسبة لفكر أفلاطون، فقد يكون المكان المناسب لذلك هو في دراسة لـ *تيميائوس*.)

يحاول لى - متوافقاً مع كورنفورد - أن يدافع عن أسطورة التأسيس (414 ب-415 ج) على أساس أنها ليست كذبة بل أسطورة "تقبلها الفئات الثلاث، وبينهم الحراس" (صفحة 156). إننى لا أجد هذا مقبولاً. ليس المفروض أن يُعترف بكون هذه الأسطورة أسطورة بل أن تُقبل بكل تفصيلاتها كواقع. وماذا يكون هذا إلا 'الكذبة في الروح' التي حذرنا منها أفلاطون تحذيراً صارماً؟ حتى إذا افترضنا أن الحكام يعرفون أنها كذبة لكنهم يفرضون تصديقها على بقية المجتمع فلن يجعلها ذلك أقل خبثاً. فإما أن نقول إن أفلاطون هنا يعنى

(63) أشعر بأننى لم أبين هنا بالوضوح اللازم الفارق الجوهرى بين المفهوم التوحيدي والمفهوم الفلسفى، ذلك أن الأديان التوحيدية ترى الله منفصلاً عن الكون بينما لا يمكن للفكر الفلسفى أن يقبل انفصال المبدأ الأول عن كل ما هو كائن. بعبارة أخرى، إننى أرى أن الفكر الفلسفى التناضح لا بد أن يكون أميل إلى موقف أفلاطونين Plotinus أو موقف سبينوزا Spinoza.

عن مبادئه أو أن نقول، كما أقول أنا، إن الأمر كله لهو، وإن تأسيس المدينة المثلى يراد له أن يؤخذ باعتباره محض تهوية خيال، وأن أسطورة التأسيس، كأسطورة داخل أسطورة، بهذا تفقد سمها.

في ملاحظته التمهيدية للقسم الذي يتناول 'تعريف الفيلسوف' يورد لي اقتباساً مطوّلاً من مسائل الفلسفة لبرتراند رسل Bertrand Russell's *Problems of Philosophy*، وهذا كتاب له في قلبي مكان خاص إذ أنه كان من أوائل الكتب التي قرأتها في الفلسفة كصبي. هناك يقول رسل: "لننظر مثلاً في فكرة كفكرة العدل. إذا سألنا أنفسنا عن ماهية العدل، فمن الطبيعي أن نمضي بالنظر في هذا المثال من فعل عادل وذاك المثال ومثالي آخر، بغرض أن نكتشف ما هو مشترك بينهما. لا بدّ أنها كلها، بمعنى ما، تشترك في طبيعة عامة، نجدها في كل ما هو عادل ولا نجدها في شيء آخر. هذه الطبيعة العامة، التي بفضلها تكون كلها عادلة، هي العدل في ذاته، الجوهر الخالص الذي يمتزج بوقائع الحياة العادية فينتج تعدد الأفعال العادلة." (أنقل هنا من هامش لي، صفحة 235). هذه النظرة لمنشأ المفاهيم أو الصور، وهي نظرة أرسطية Aristotelian أساساً، قد أصبحت الآن شائعة، ربما بفضل رسل إلى حدّ كبير، وفي رأبي أنها يجب أن تخضع للمساءلة. أقول إننا قبل أن نسعى لأن نكتشف ما المشترك بين الأفعال العادلة المحددة - لمجرد أن نسأل أنفسنا ما العدل - لا بدّ أن يكون عندنا مفهوم للعدل. فهذا البحث عما هو مشترك بين الحالات المحددة التي تشترك في اسم واحد ليس هو طريقة وصولنا إلى الفكرة، ولو أنه قد يكون طريقة لتوضيح الفكرة حين تصبح غائمة مختلطة المفاهيم - كما رأى سقراط فيما اعتقد - تنشأ في العقل، تولد أولاً في العقل؛ إنها تُخلق وتضفي على الموجودات (حالات الواقع المحددة) صفات لم تكن أصلاً في تلك الموجودات. ليس هناك عدل ولا ظلم بين الوحوش، ولكن هناك عدل وهناك كثير جداً من الظلم بين الكائنات الإنسانية لأننا نحن خلقنا مفهوم العدل. النجوم عديدة لكنها غير معدودة إلا عند علماء الفلك، وذلك بفضل واحد من أسلافنا خلق فكرة العدد.

في 531 هـ يترجم لي *dounai te kai apodexasthai logon* بعبارة "argue logically"، "بحاج منطقياً". يستخدم أفلاطون تعبير *didonai logon* بدون أن يعطيه أبداً تعريفاً دقيقاً. أحياناً لا يعنى التعبير أكثر من 'يوضح'، 'يشرح'، وأحياناً 'يبرّر'. أحياناً قد تكون صيغة "give a rational

"account" يعطى بيانا عقلانياً، التي يستخدمها كورنفورد، هي الأحسن. لكن ربما تكون ترجمة لندسى Lindsay الحرفية: "يعطى ويتلقى أسباباً"، "give and receive reasons" هي أفضل ما يعطى معنى "يمارس حواراً عاقلاً"، وهو المعنى الذي نحتاجه هنا في رأيي، بشرط ألا يغيب عنا أن 'الحوار العاقل' عند أفلاطون لا يكون إلا تمحيصاً للمبادئ الأولى والمثل الأخلاقية. على أى حال، حيث إن أفلاطون لا يُعرّف العبارة، فليس لنا أن نقرأ فيها أكثر مما نجده في ممارسته الفعلية. الجمهورية هي أتم وأكمل مثال نجده عنده من 'إعطاء الأسباب'، ولكن أين نجده في الجمهورية 'يحاج منطقياً' إلا إن يكن هامشياً؟

في 611- ب يترجم لي *kai 'hoti men toimun athanaton psuchê* "Our recent *ho arti logos kai hoi alloi anagkaseian an prove conclusively that the soul is ' and the others'* argument "immortal"، حُجَّتنا مؤخراً، وحُججتنا الأخرى، تبرهن برهاناً قاطعاً على أن الروح خالدة". إن أفلاطون في الفايديون لا هو ادعى ولا تظاهر بأن الحُجج المقدمة هناك قاطعة أو يقينية. إنني أقرّ بأن أفلاطون آنذاك، وفي هذه المرحلة على ما يُفترض، كان يرى الحُجج مُفجّمة، ولكن أليست هناك مسافة ما بين 'يُفحم' و 'يبرهن برهاناً قاطعاً'؟ على هنا أن أوضح أنني لا أناقش ترجمة الأستاذ لي كترجمة - أرجو ألا أكون بهذا القدر من الحماسة - وإنما كتأويل. ما أريد أن أبرزه هو أن الفلاسفة المحدثين يميلون لاستخدام لغة البرهان أكثر مما ينبغي ثم بعد ذلك يأخذونها بجذية أكثر مما ينبغي. في رأيي أن هذا يحول بيننا وبين إدراك الطبيعة الحقّة للتفكير الفلسفي.

الباب الثالث
مغامرات الفكر

الفصل الثامن

الليزييس والپارمنيديس

كل محاوره من محاورات أفلاطون هي عمل أدبي إبداعي متكامل في ذاته. لكن الفلسفة التي نجدها في المحاورات هي نسيج واحد متصاف. مع أنه من الطبيعي عند الإشارة لعمل أفلاطون، الذي امتد عبر أكثر من نصف قرن، أن نتحدث عن أعمال باكرة ووسيطه ومتأخرة، فإنني أعتقد أنه لم يكن هناك انفصام ولا حدث تغير جذري عند أي نقطة. آخر الأعمال لها جذور تستمد الغذاء من أولها، وأولها تحمل براعم ونباتات تزهر وتينع في آخرها. هكذا مثلا أجد في كل من الليزييس والڤارمنيس ما يتصل اتصالا وثيقا بالڤارمنيديس؛ في الليزييس بالنسبة للهدف الأساسي وفي الڤارمنيس فيما يتعلق بحجة الجزء الأول من الڤارمنيديس.

1

الليزييس

ليست هذه دراسة كاملة لليزييس. لقد عقلت من قبل بإيجاز على الـ ليزييس في الفصل الثالث، "الحوار الديمقراطي". ليس لهذا صلة بمسألة الترتيب الزمني للمحاورات. من المرجح أن الليزييس محاوره مبكرة جدا بينما الـ پارمنيديس محاوره متأخرة كثيرا. كوني أجد في ثنايا سطور الليزييس مسائل لم تدخل بؤرة الضوء إلا في الڤارمنيديس والسوفيست والتيماتوس لا يعني إلا أن تلك المسائل والأفكار كانت جنينا ينمو في عقل أفلاطون من وقت مبكر جدا، ولا عجب في هذا.

موضوع الليزييس هو الصداقة، ليس كمبدأ أخلاقي وإنما كعلاقة. ليس للحوار التربوي النموذجي في الجزء الأول ارتباط مباشر بالبحث المنطقي

والميتافيزيقي لمفهوم العلاقة في الجزء الثاني. هكذا يبدأ الحوار كواحد آخر من الحوارات السقراطية، لكن أفلاطون يهيم بعد ذلك في عوالم خاصة به.

إننى حتى فى صباى وجدت فى الديليزيس أفضل تمثيل لمبدأ زوال كل واقع محدّد. ننتقل من تمحيص مفهوم العلاقة إلى منظور نسبية كل محدودية. من هنا أعتقد أننا نجد فى الديليزيس المفتاح لفهم الديارمنيسيس.

بعد الحديث التربوى الأول مع ليزيس، يستكشف البحث الأول فى معنى الصداقة غوامض كلمة *philos*. لكن هذا ليس مجرد حديث تحذيرى عن العتمة اللغوية — لا شىء فى أفلاطون أو فى الفلسفة هو 'مجرد' كذا أو كذا. اكتشاف السيولة الحتمية للغة يأتى معه بإيعاز مؤداه بأنه تماما كما أن الكلمات لا ثابت فيها، فكذلك الأشياء التى تسميها الكلمات لا تكون أبداً 'هذا' أو 'ذاك'، إنما تكون دائماً رابطة من علاقات تنتشر متصلة بكل ما هو كائن. لعلنا نجد التعبير الصريح عن هذه البصيرة ينمو ويتفتح فى بطء خلال الحوارات، لكنى أراه تياراً تحثياً يجرى فى انتظام بدءاً من الحوارات السقراطية، عبر الديارمنيسيس و *المأدبة والجمهورية*، حتى يخرج إلى رحاب *السوفيسست والديميوس* — وفيما وراء ذلك عند أفلوطين *Plotinus*.

عندما أقول إن ما من كلمة لها معنى محدّد نهائياً، قد يعترض أحد قائلًا إن أسماء المعادن مثلاً، كالذهب أو الحديد، تخلو من الغموض. وجوابى على ذلك أن مثل هذه الكلمات ليست معانى بل إشارات. إنها تكتسب معنى مستعاراً فحسب حين تتعلق بنموذج معين (عينته) أو بسياق فعلى — والنموذج والسياق كلاهما فيهما ما فى كل واقع موجود من سيولة ولادوام. أما حين يكون لمقولة عادة عن الذهب أو الحديد صلاحية شاملة فالثمن الذى يتبايع به تلك الصلاحية هو التجريد المصطنع.

يبدأ الجزء الديالكىكى — بالمعنى الأدق للكلمة — من *الديليزيس* عند 211-2. د. يفتح سقراط الطريق إلى موضوع المناقشة التالية إذ يقول إن ما تمناه دائماً فوق كل شىء آخر هو أن يكون له صديق. ثم يمضى قائلًا: ما أبعنى عن هذا، فإننا لا أعرف حتى — ولكن بدلاً من أن يقول، كما عودنا فى الحوارات السقراطية الحقّة: لا أعرف حتى ما الصداقة أو ما هو الصديق، نراه يقول: لا أعرف حتى كيف يصيح الصديق صديقاً لآخر (211 د-212 أ). واضح أن أفلاطون يريد أن يثير مسألة تختلف جذرياً عن المسائل المثارة فى *الديريثيرون* و *اللاخيس* و *الخارمنيس* و *الباب الأول من الجمهورية*. توحى المناقشة التالية — وأعتقد أن ذلك هو القصد منها — بالمبدأ الذى يجد تعبيراً صريحاً فى الـ

سوفيست والديمابوس والفيبيوس: لا شيء أبدا هو في ذاته ما هو في ذاته فحسب: كل شيء يجد كينونته الحقّة ومعناه الحقّ في علاقته المتشابهة مع كل شيء آخر، مع كل ما هو كان. هذا هو المبدأ الذي تتطوى عليه مقولة: من يرى الأشياء كلا هو ديالكتيكي، ومن لا يراها كذلك فليس كذلك، *ho men ho de mê ou gar sunoptikos dialektikos* (الجمهورية، 537 ج). وهذا هو أيضا الدرس الذي تتطوى عليه البارمنيديس، هذا هو البعد الميتافيزيقي للبارمنيديس.

الأرجح أن أفلاطون كان أيضا في ذات الوقت يفكر في المسألة المنطقية للعلاقات والمفاهيم النسبية *relations and relative terms*. لكنني أعتقد أن البعد الميتافيزيقي والبصيرة الميتافيزيقية هما الأبعد غورا في كل من *الليزيس* و *البارمنيديس*.

هنا أيضا نجد، كما نجد دائما، القضايا الديالكتيكية (منطقية وميتافيزيقية) تمزج بمشكلات الغوامض اللغوية. يهتم سقراط في كل محادثاته بتعريف الالتباسات اللغوية لمساعد على تفكير أوضح. فهكذا نجد هنا أيضا الكثير مما اعتدناه من سقراط من فكّ الاشتباكات وإنارة العتات. أحيانا، كما في *الليزيس*، نجد الغوامض اللغوية تتفاهم بخصائص في المصطلح اليوناني. في كل اللغات هناك مثل هذه الغرائب اللغوية، وفيها كلها يكمن خطر أن يقود الاستخدام اللامبالي إلى التباسات وإلى أحكام خاطئة. لكن إزالة مثل هذه التعقيدات الخاصة لا يزيل المشكلة. هناك في كل لغة بالضرورة غموض لا يمكن اجتثاثه، لأن كل كلمة تأتي حاملة معها ادعاء زائفا بالثبات والكمال. فكما أننا نستطيع أن نكتشف تحت الجلد من كل مسألة منطقية قلبا ميتافيزيقيا نابضا، فكذلك نستطيع أن نبيّن من خلال نقاب الغموض اللغوي ملامح تعقيدات منطقية ومن وراء ذلك قسامات حقائق ميتافيزيقية.

هكذا نجد كل *الليزيس* بعد المحادثة التربوية تظهر أن كل مقولة، وإن كانت في الأصل تعتبر عن منظور صحيح، إلا أنها متى سرحت فيما وراء سياقها الخاص أو أقيمت خارج ذلك السياق أمكن نقضها.

بعد أن قدّم أفلاطون فكرة أن ما ليس حسنا ولا ردينا هو وحده الذي يمكن أن يسعى لما هو حسن – وهذه صياغة أثرية عند أفلاطون – وبعد أن قدّم بعناية، وأوضح، التمييز بين ما أطلق عليه أرسطو *Aristotle* فيما بعد الخاصية *property* والغموض *accident*، وبعد أن قرّر النتيجة وأعلنها في نبرة عارمة الفرح، إذا به يجعل سقراط يجفل فجأة، متوجّسا أنهم ما كانوا إلا

يحملون. أعتقد أن أفلاطون قصد من الفقرة 219- ب -220- ب أن تنقل إلينا
الدرس الأساسي في كل الفلسفة: إياك أن تترك أبدأ إلى وهم أنك قد أمسكت
بصدقٍ نهائي!

هكذا ينقض سقراط فيما يلي كل النتائج السابقة. في حين صفة واحدة
(219- ب -220- ب) يقم أفلاطون معضلة الارتداد اللانهائي *infinite*
regress (التي ترد كلمة عابرة في الجمهورية وتحتل مكانا بارزا في الـ
پارمنيديس)، وفكرة الخير النهائي الخسبة، ممتزجتين معا. فكرة الخير النهائي
تحمّل في ثناياها فكرة نسبية كل خير محدّد، وهذه بدورها تتصل بفكرة لاكمال
ولاكفاية كل ما هو محدّد ومحدود. كل خير محدّد هو خير كوسيلة لشيء آخر.
في النهاية، ليس خيرا في ذاته غير الفعل ذاته، فعل الخلق، توكيد وتحقيق
الخير. بين سطور الـپارمنيديس نستطيع أن نقرأ كل ما رمى إليه برانلي
Bradley في الظواهر والحقيقة *Appearance and Reality*، مصداقا
لقول وايتهد *Whitehead* إن أحسن ما توصف به الفلسفة الغربية كلها أنها
سلسلة من هوامش على أفلاطون.⁽⁶⁴⁾

في 222- أ- ب يتلاعب سقراط بالخجة ليلاطف الغلامين مينيكسينوس
وليزيس والفتى هيوثاليس فيستخرج نتيجة ليست بالسيتة وليست بأحسن من أي
من سابقاتها، وسقراط نفسه يمضي من فوره ليبين هذا (222 ب - د). وكما في
كل الحوارات السقراطية، تنتهي المحاورّة ظاهريًا بالحبيرة (222 هـ).

2

الپارمنيديس

أكثر المعلقين اعتبروا الپارمنيديس ملغزة — ربما لا لسبب إلا أن
رسالتها شفافة الواضح. فهذا تيلر A. E. Taylor بكل مكانته في الدراسات
الأفلاطونية يراها 'مزحة ميتافيزيقية' (*Plato*، صفحة 361). فلا بد إذن أن
لفزا ما يحيط بها بالفعل. ربما يكمن التفسير في براعة أفلاطون في إبقاء البعد

⁽⁶⁴⁾ وردت مقولة وايتهد الشهيرة في أول صفحة من الفصل الأول من كتابه العمدة *Process and Reality* (1929).

المتمايز يبقى أو منطوياتها المتمايزية مغمورة تماما تحت سطح الأبعاد المنطقية والمنطويات المنطقية.

لا انفصال بين الجوانب والأبعاد المنطقية والمتمايزية في الـ *ديارمنيديس*. لم تكن تلك الجوانب والأبعاد منفصلة أو قابلة للانفصال عند أفلاطون. عند أفلاطون، كما كان الأمر عند *ديارمنيديس*، أن يُعقل الشيء وأن يكون هما نفس الشيء. أيا ما كان هم أفلاطون الأول عند كتابة الـ *ديارمنيديس* – ويبدو أن المسائل المنطقية كانت تشغل فكر أفلاطون كثيرا في سنواته المتأخرة حين كتب الـ *ديارمنيديس* على الأرجح – فلا يمكن أن تكون الأصداء الأونطولوجية قد غابت عنده في أي وقت أو عند أي نقطة. الدلالات المتمايزية التي أمكن لأفلوطين Plotinus أن يقرأها في الجزء الثاني كانت من صميم منظور أفلاطون الفلسفي. حيث أتى، كما قلت مرارا، لا أرمى لأن اكتشف ما كان في فكر أفلاطون أو ما كان يعنى، بل أن أطور فلسفة أستوحبها من قراءتى لأفلاطون، فإننى لن أحاول هنا، بأكثر مما حاولت في أي موضع آخر، أن أبرر تأويلي بتمحيص مفصل لهيكله أو حجج المحاوره. إننى لا أسعى لأن أقدم تفسيراً لنص أفلاطون، بل أن أكون – مثلما كان أفلوطين – صوتاً للنسوة التي كانت تدعمه في أعماق روح أفلاطون الخلاقه. إننى لا أزعم أن ما أقدمه هنا يمثل فكر أفلاطون: يكفي أن أقول إنها فلسفة من وحى أعمال أفلاطون.

نظرة شاملة

كان لكل من *هيراكليتوس* Heraclitus و *ديارمنيديس* بصيرة عميقة في طبيعة الأشياء، لكن البصيرتين كانتا متعارضتين. رأى *هيراكليتوس* أن كل شيء في الدنيا من حولنا يتلاشى، يتحول دون توقف. كما قال أفلاطون في الـ *تيميوس*، لا يمكنك حتى أن تقول عن أي شيء معين 'هذا' أو 'ذاك'؛ كل ما يمكنك أن تقول هو 'ها هنا كذا'، وقبل أن تنطقها يكون الـ 'كذا' قد أصبح 'كذا' مختلفاً.

أما *ديارمنيديس* فرأى أنه بالنسبة لعقل يطلب المعقولة والفهم فإن كينونة اللاكامل، المحدد المحفوف بالمحدودية والنفى من كل جانب، هي بالضرورة كينونة مريبة. كيف يمكن لما هو لاكامل أن يكون؟ فيما أرى فإن كل كينونة سرّاً، أما كينونة اللاكامل فهي إهانة للعقل تتركه مؤزقاً على الدوام. عند *ديارمنيديس*، المعقولة (أن يُعقل) والكينونة (أن يكون) هما شيء واحد، *to gar auto noein estin te kai einai* (شذرة 3). وعلى هذا، فما هو كلٌّ وكامل

هو وحده ما يمكن أن يكون. كل ما يقوله پارمنيديس بعبارات معينة عن الواحد الذى هو كلفن هو محض مجاز وأسطورة، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك، إذ كيف يمكن أن تعين أو تصف ما يتجاوز كل أوصاف محدّدة؟ لب القول هو هذا فصب: لا شيء غير ما هو كلّ وكامل يمكن أن يُعقل كحقيقة.

استوعب أفلاطون بصيرة كلّ من هيراكليتوس و پارمنيديس ولم يتخلّ أبدا ولا أغمض عينيه أبدا عن أى منهما. ولكن لم يكن لهما أن يقرّما جنباً إلى جنب فى عقل واحد دون المواءمة بينهما. وجد أفلاطون المواءمة المطلوبة فى منظور سقراط للعالم حيث يقع عالم المعقول فى جانب وعالم المحسوس فى جانب — عالم للمعقول يضى على المحسوس حقيقته وعالم للمحسوس يهين للمعقول واقعه. وكما وجد أن الذفق flux الهيراكليتى كان عليه أن يختبل فى أشعة المعقول ليصبح قابلاً لأن يعقله الفكر، وجد أيضاً أن الواحد البارمنيدى كان عليه أن يقبل مهانة المرور من خلال تلاشى وتناقضات الوجود الفعلى حتى تدركه عقولنا المحدودة المحدّدة.

لغة الإنجاب والميلاد مؤصلة فى فكر أفلاطون. مفهوم الإنجاب فى الجمال (أو فى الجميل)، *tokos en kalôi*، مفهوم أساسى فى فهمه للحقيقة وللعقل. إلا أننا نجد على القطب المقابل مفهومه لأزلية الصور — صور لامتحولة، لامتغيرة. كانت نار هيراكليتوس التى تلتهم كل شيء والتى تقضى بالسيولة والزوال على كل الموجودات تصارع دوام واحد پارمنيديس الشامل، وانبثق عن صدام المبدأين ديكالكتيك البارمنيديس النافى لكل مقولة.

حُجج پارمنيديس الناقدة فى مناقشته لسقراط فى الجزء الأول هى من نفس طبيعة حُجج سقراط فى المحاورات السقراطية. إنها تُظهر أن أى صياغة محدّدة لفرضية العلاقة بين الصور وحالاتها الفعلية المحدّدة تنطوى على تناقضات. هذا بالضرورة: فالصورة ككيان والحالة الفعلية ككيان كلاهما اختلاق fiction ينتج عن تشظية كلية الفهم. من الضرورى أن نعيّر المعقول والمحسوس نظرياً لنتلفت الانتباه لحقيقة وإبداعية العقل. لكن أى حالة معقولية هى فعل كلّى للعقل الخلاق.

المعقول فى طبيعته الذاتية يسمو على الزمن supra-temporal، وبهذا المعنى هو أزلى. لكنه بصير إلى الكينونة وتزول عنه الكينونة. الفكرة الأصلية، القصيدة، الأغنية، كلها أزلية، إلا أنها تولد وتزول. لا شيء محدّداً دائم البقاء، فكل ما هو موجود هو زائل.

الوضوح الذاتي لمفهوم ما أو مبدأ ما لا يمنح المفهوم أو المبدأ النهائية (أن يكون نهائياً). الوضوح الذاتي لمفهوم أو مبدأ يعنى أنه لا يحتاج تبريراً ويمكن أن تصدر عنه نتائج متناغمة ومتسقة. كل منظومة فلسفية جيدة هي تفتح لمفاهيم ومبادئ ذاتية الوضوح. لكن المفهوم أو المبدأ ذاتي الوضوح يمكن أن يوضع في سياق أوسع أو سياق مختلف، وعندئذ نرى أنه لا كامل مفهوم الجمال لا يحتاج أن 'يُستمد' من مبدأ أعلى، والصعود إلى مفهوم الجمال في المانبة هو صعود للحقيقة النهائية، وبوسعنا أن نقول صادقين مع كيتس Keats إن "الجمال هو الصدق والصدق الجمال"، وتوًا نستطيع أن نمضى فئسأل: هل الجمال والصدق نفس الشيء؟ ثم نجيب، صادقين أيضاً: كلا، الجمال غير الصدق.

في رأسي أن السديالكنتيك، بحسب الجمهورية، حين ينقض كل الافتراضات، *tas hupotheseis anairousa*، فليس القصد من ذلك أن يقود إلى أو ينتهي إلى مبادئ أولى، إنما يقود إلى بعد جديد من مبدأ الجهل السقراطي. الديالكنتيك من حيث هو الممارسة الأكل لإعمال العقل ينتهي بنا إلى اكتشاف أن أي صياغة فكرية محددة لا يمكن أن تكون نهائية الصدق: الـ حقيقة *alêthe ia*⁽⁶⁵⁾ الوحيدة هي ذات فاعلية العقل الفاعل. على هذا الفهم، يكون جانباً الديارمنديس المنطقي والميتافيزيقي غير قابلين للفصل. حتى لو افترضنا أن الجانب المنطقي كان الأعلى، أو حتى كان الأوحده، في فكر أفلاطون وهو يكتب الديارمنديس، فإننا لا يمكن أن نؤاخذ أفلوطين Plotinus على أنه وجد فيها الدلالات الميتافيزيقيّة التي أعطاهها تعبيراً أصيلاً في فلسفته.

الجزء الأول

يقرّر بيرنيت Burnet نون أي تحفظ أن "الديارمنديس نقد لعقيدة الصور كما هي مبيّنة في الدايون والجمهورية" (Greek, John Burnet) *Philosophy: Thales to Plato*, 1914، (صفحة 253). هذا هو الرأي السائد، بالنسبة للجزء الأول من الديارمنديس على أي حال. إنني أعلنت رفضي لهذا الرأي في الفصل الأول، "الصور المعقولة"، وفي مواضع أخرى. هنا أكتفي بأن ألخص موقفى كما يلي: من الخطأ أن نتحدث عن 'عقيدة' للصور أو 'نظرية' للصور. عندنا أولاً المفهوم السقراطي الخلاق للصور المعقولة. عندنا بعد ذلك محاولات مختلفة من جانب أفلاطون للتعبير عن ارتباط الصور بالحالات المحددة المتعددة التي تتمثل فيها الصور. هذه الصياغات التجريبية

(65) كلمة تترجم عادة 'الصدق' لكنها عند أفلاطون تعنى دائما 'الحقيقة'.

لعلاقة المعقول بالحالات المعيّنة المحسوسة – صياغات لم يعطها أفلاطون أبدا شكلا ثابتا ولا هو أبدا رضى عنها – هي التي تخضع للتحخيص النقدي في الجزء الأول من الديارمنيديس كجزء – فيما أرى – من التصميم الكلى للديارمنيديس لإظهار أن أى صياغة لغوية أو فكرية محدّدة (هذان ليسا إلا وجهين لنفس الشيء) لا يمكن أن تخلو من التناقض. كان ينبغي أن نكون قد تعلمنا هذا بدرجة كافية من الحوار السقراطي ومما تقوله/الجمهورية عن الديالكتيك. وهذا هو ما يفسّر الصلة بين جزئي الديارمنيديس ويبيّن أن فى المحاوراة وحدة غابت عن كثيرين من الباحثين والمعلقين.

تحخيص الصور فى الجزء الأول من الديارمنيديس إذن ليس نقدا لمفهوم الصور السقراطي، الذى كان الأساس لكل المنظور الفلسفى لكل من سقراط وأفلاطون، بل كان تحميصا نقديا لبعض تطورات وإحاقات تجريبية لها. إننى أرى فى تقديم حجة زينو Zeno فى القسم الافتتاحى مؤشرا على القصد والغرض من المحاوراة ككل. كانت واحدة monism پارمنيديس العقلانية قد هوجمت من جانب معارضية باعتبارها تنطوى على تناقضات. كان زينو يردّ على المعارضين – كما يجعله أفلاطون يقول صراحة – لا بالمحاجة دفاعا عن موقف پارمنيديس، بل بإظهار أن موقف المعارضين ينطوى على تناقضات هدامة بنفس الدرجة. لماذا يجب أن نستنتج من هذا؟ إن واحد پارمنيديس لكونه – مثل الخير فى الجمهورية – يتجاوز الكينونة ويتجاوز المعرفة، ما كان يمكن، إن أردنا الدقة، أن يوصف بأى أوصاف معيّنة. فحتى مقولات "طريق الصدق"⁽⁶⁶⁾ الإيجابية، لا يمكن القبول بها إلا بقدر من التسامح. جوهر الحقيقة غير قابل للبوح به: لا يمكنك أن تحتوى ما هو كامل فى قالب الفكر واللغة، التى يجب، بحكم طبيعتها، أن تكون محدودة، محدّدة، لا كاملة. يجد أفلاطون فى مشروع زينو Zeno تعزيزا لمفهومه الخاص عن الديالكتيك كتخطيط لكل الافتراضات (المسلّمات): لا تمتنع أى صياغة فكرية محدّدة على التنفيذ. فيما يلى من المحاوراة سنرى تطبيق هذا المبدأ، أولا على صياغات مختلفة تستخدم مفهوم الصور المعقولة، ثم على صياغات مختلفة تستخدم مفهوم الواحد (1)؛ hen أو مفهوم الكائن to on. إذا كان الأمر كذلك، فكيف مع ذلك نستطيع القول بأن من الممكن أن نتبين فى محاجات الديارمنيديس بصائر ميتافيزيقية؟ الجواب بسيط: إذا كنا نمحص مفهومنا للكينونة (الحقيقة) فكيف لا يكون ذلك

(66) عنوان الجزء الأول من قصيدة پارمنيديس الطليعية.

نظرا فيما تعنيه الـ كينونة (الـ حقيقة) لنا؟ فما أصدقها من مقولة: نفس الشيء هو أن يُعقل وأن يكون، *to gar auto noein estin te kai einai* (پارمنيديس، سُنة 3).

بيّن معارضو پارمنيديس أن مفهوم الـ واحد يؤدّي إلى تناقضات، وبيّن زينو أن افتراض التعدّد في الأشياء يؤدّي إلى تناقضات، لكن ذلك لا ينبغي أن يعني نهاية الحوار العقلاني. إن المبدأ القائل بأن كل الصياغات الفكرية المحدّدة تنطوي على تناقض يمكن أن يُساء استخدامه في اتجاهين: فمن ناحية، يمكن أن يؤدّي إلى ماعقلانية *arationality* أنتستينيس Antisthenes الانتحارية، ومن ناحية أخرى، يمكن أن يؤدّي إلى جداليات أمثال يوثيديموس Euthydemus السفسطية العبثية المخزبة. إن تدمير كل الافتراضات (المستلمات) الذي يطلبه الديالكتيك ضرورة لتحرير العقل الإنساني من أغلال المفاهيم المسبقة والأهواء والخرافات في كل المجالات — العلم والدين وحتى في تعاملاتنا اليومية العملية. ولكن كي نعيش علينا أن نشغل، أن نفكر، أن نكوّن نظريات، أن نضع قواعد وتوجيهات، والأساس لكل هذا لا مفرّ من أن يكون بعض الأفكار التي نسلم بها — نسلم بها لكن لا نجعلها محصنة ضد المساءلة والتدمير عند الحاجة.

يلخص 'سقراط' حجة زينو: إذا كانت الأشياء متعدّدة فستكون بالضرورة متماثلة ولامتماثلة. (لا يعني هنا كيف أظهر ذلك.) لكن الأشياء المتماثلة لا يمكن أن تكون لامتماثلة والأشياء اللامتماثلة لا يمكن أن تكون متماثلة. إذن، لا يمكن أن تكون الأشياء متعدّدة. يقول 'سقراط' عن حقّ إن زينو لم يفعل غير أن يكرّر أطروحة پارمنيديس في صياغة مختلفة. قال پارمنيديس إن الكائن، *to on*، واحد، وإن الـ واحد هو كل ما هو كائن، وعلى هذا فلا يمكن أن يكون للمتعدّد كينونة، وزينو يقدم الحجة على أن كينونة المتعدّد تنطوي على تناقض: إن يكن المتعدّد، يخضع لما لا يمكن أن يكون، *paschoi 'ei gar polla eiè an ta adunata* (127 د-ه). كان أفلاطون يعرف أن أي مقولة يمكن تخطّتها. ذلك مضمون ما نقوله/الجمهورية عن الديالكتيك. أن نحض هذا الموقف وذاك لا يصل بنا إلى شيء. المتعدّد، كل الموجودات، مشبعة تماما بالتناقض، لكنها تُحدّق بنا، تُحدّق في وجودها، نحن أنفسنا جزء من ذلك الكيان الذي ليس بكائن. ليست مهمة الفلسفة أن تبين، أو أن تكتمل بأن تبين، أن الموجودات المحدودة المحددة ليست كائنة، إنما أن تبين كيف ولماذا هو كذلك. هذا هو ما تفعله كل فلسفة أفلاطون — التي تبلغ نضجها وكمالها في الجمهورية — حين تكشف لنا أن عالم الموجودات الفعلية المعطاة بأكملها هو محض ظلال خاوية وصيرورة زائلة لا تنال الحقيقة إلا في أزلية فاعلية العقل الخلاق. (هذه

صياغتي أنا لكني أعتقد أنها لا تزيّف البصيرة الأفلاطونية). لا تضيف الـ
پارمنيديس شيئا لجوهر فلسفة أفلاطون. إنها تبين فحسب أننا إذا بدأنا بكانن
پارمنيديس، *to on* و *to hen* بواحد پارمنيديس، نجد، كما وجدنا في
الجمهورية، أن الكينونة اللامكاملة للموجودات تصدر عن الواحد. الواحد يلد،
يوجد، المتعدّد. المتعدّد بغير الواحد استحالة، الواحد بغير المتعدّد لا يدرك.
هذا فكر أفلوطين Plotinus وهذا فكري في *Let Us Philosophize*، لكنه
يأتي من أفلاطون بالضرورة بمثل ما يأتي المتعدّد من الواحد بالضرورة في
الپارمنيديس.

يمضي 'سقراط' إلى مواجهة المعضلة. الموجودات، سواء كانت واحدا أم
كانت متعدّدة، تكتنفها التناقضات. (فيما يلي، يتصدّع الواحد حالما نقرّر أنه
كانن أو أنه واحد). لكنّ عندنا المفاهيم، الصور المعقولة — المماثلة
واللامماثلة، الوحدة والتعدّد. هذه الأفكار (أعرف أني بهذا التسبّب في استخدام
المصطلحات أستفزّ فلاسفتنا الأكاديميين، لكني في هذا لست إلا محاكيا لسيد
الفلسفة جميعا)، من حيث هي، هي مستقرّة، غير متغيّرة. لكنّ لا شيء يمنع أن
نجدها مجتمعة جنباً إلى جنب في الأشياء. المماثلة ليست هي اللامماثلة؛ الوحدة
ليست هي التعدّد. لكن المماثل يمكن أن يكون لامماثلاً، وكما سيبيّن لنا
'پارمنيديس' بعد قليل، إذا قلنا إن الواحد متعدّد، أو إن الواحد غير متعدّد، وإذا
قلنا إن المتعدّد واحد، أو إن المتعدّد غير واحد، فكل هذه المواقف
(الافتراضات) يمكن أن نبين أنها صادقة، ويمكن أيضا أن نبين أنها غير
صادقة. هذا مجمل الجزء الثاني من الپارمنيديس.

يقول 'سقراط': إذا أخذنا الصور المعقولة في ذاتها، عندئذ يكون أمرا
مربعا بالفعل إن ظهر أن المماثل يمكن أن يكون في ذات الوقت لامماثلاً.
الصور المعقولة من حيث هي لها وضوح ذاتي وليست قابلة للتناقض. لكنّ لا
غربة في أن تظهر الصفات المعقولة المتضادة في نفس الشيء. أعتقد أن
أفلاطون كان هنا يفكر في المسألة المنطقية للجمع بين الصور، وهي مسألة
انشغل بها في فترته المتأخّرة. وبينما نرى فيما يلي مباشرة أن 'پارمنيديس'
يتناول صياغات تجريبية مختلفة لفكرة حضور الصور المعقولة في الأشياء
المحدّدة فيبين عدم كفاية (عدم اتساق) تلك الصيغ، يبقى أمران لا ينتقص ذلك
منهما: (1) لا غنى عن صور عالم المعقول لكل حوار عقلائي، كما يؤكّد
'پارمنيديس' عند نهاية هذه المناقشة (135 ب - ج). (2) فكرة أن اجتماع
الصور في الأشياء يفسّر تجاور الصفات المتضادة في نفس الشيء، هذه الفكرة

لا هي أخضعت للتمحيص النقدي ولا طوّرت هنا بل تظل قائمة في خلفية المناقشة.

يقول 'سقراط' إن حضور الصور المعقولة أو اجتماعها مع الأشياء يزيح اعتراض زينو على التعدّد في الأشياء، ودون إخضاع حقيقة أو معقولة الصور للمساءلة، يعنى 'پارمنيديس' إلى نقد فكرة حضور الصور أو اجتماعها مع الأشياء. يتوافق هذا تماما مع ما كنت أقول، بل هو مثال آخر لما كنت أقول. أنّ نرى هذا كنقد لموقف أفلاطون أو لعقيدته أو لنظريته لا يتأتى إلا إذا افترضنا أن أفلاطون كان له موقف ثابت أو عقيدة أو نظرية بشأن علاقة الصور المعقولة بالأشياء. إننى أنكر ذلك. إننى فى الواقع أقول إن مجرد الحديث عن 'علاقة' هنا يوقنا فى المتاعب. الفهم - فعل العقل - هو كلّ. أن نتحدث عن علاقة يعنى تنشيطية الكل بخلق مجردات. إن لنا الحقّ فى خلق مجردات تشظى الكلّ لنخدم أغراضنا النظرية؛ لكن أن نقع بالتنشيطية، أن نقبل المجردات على أنها على نحو ما نهائية، هذا يعنى الوقوع فى الخطأ. هذا موضوع عالجه كثيرا حتى أنى لا أجدنى بحاجة لأن أتوسّع فيه هنا.

كان 'سقراط' قد بدأ بذكر التماثل والاختلاف والوحدة والتعدّد كاملة للصور، فيتساءل 'پارمنيديس' ما إذا كان سقراط يقول أيضا بصور للعقل والجمال والصلاح. - نعم. - وللبنسان والنار والماء؟ - يقول 'سقراط' إنه كثيرا ما تردّد فى القول بهذا. - وماذا عن الشعر والطين والقدارة؟ - يستنكر 'سقراط' مجرد السؤال عن هذا، فيؤبّخه 'پارمنيديس': إن رفضه الإقرار بهذه الصور يرجع لصغر سنّه، فالفلسفة لم تتمكّن منه بعد بدرجة كافية (130 ب - هـ). - لعل أفلاطون كان، فى الجزء الأوّل من الديالكتيك يستهدف بعض مجادلات ومناقشات تدور فى الأكاديمية. إذا كان الأمر كذلك، فقله فى هذه الفقرة أراد أن يوعز بأن سقراط لم يشغل نفسه بمثل هذه المسألة لأن اهتمامه كان منحصرا فى المسائل الأخلاقية، إلا أننا إن أمعنا النظر (وهنا أعترف مرّة أخرى بالذنب لاستخدامى لغة مغايرة للغة أفلاطون) فسندج أننا كلما التقطنا شيئا من سديم معطيات التجربة المختلط فأعطيناه اسما نكون قد أوجدنا صورة معقولة.

لا يلقى 'پارمنيديس' عناية فى تخطئة مختلف المجازات المستخدمة لتمثيل العلاقة بين الصور والأشياء (وما كان يمكن لهذا التمثيل أن يتأتى إلا فى لغة المجاز). هذا جزء من درس الديالكتيك الذى قصد إليه أفلاطون فى هذه المحاوره. إننى لن أدخل فى تفاصيل الحجج هنا بأكثر مما سأدخل فى تفاصيل

حُجج الجزء الثاني. لقد أعطانا الفلاسفة الأكاديميون أكثر مما يكفينا في هذا المجال.

ولن أورد المزيد من التعليق على مناقشة الصور في هذا الجزء من الـ پارمنيديس (باستثناء ما يسمّى بمسألة 'الرجل الثالث') إذ أنى قد أوضحت موقفي بما فيه الكفاية في الفصل الأول، "الصور المعقولة". أكتفى بأن أتقدّم بملاحظتين موجزتين. أولاً، لعلّ المسائل والأسئلة المطروحة هنا كانت مسائل وأسئلة أثّرت في الأكاديميا وأوردها أفلاطون لمران عقول تلاميذه وقارنيه. ثانياً، كل المشكلات المحيطة بفكرة مشاركة الأشياء في الصور تتبلور فيما يلي: كل اللغة مجاز (ومن هنا أقول إن كل الفكر أسطوري) فإذا ما ضغطنا على المجاز انعكس. هذا مبدأ يستغلّه المتجادلون بلا وعى كصلاح ضدّ خصومهم دون أن يدركوا أن السلاح نفسه يمكن أن يُستخدم بنفس الفاعلية ضدّ مواقفهم الخاصة.

إننا في الواقع نجد حل اللغز فيما يردّ به سقراط على الفور: "الكنّ، أيا پارمنيديس، ألا يمكن أن تكون كلّ من هذه الصور فكرة لا مكان لها غير العقل؟" (132 ب). لكن الكلمات التي يكتسيها هذا الرد الصحيح هي بالطبع، مثل كل الكلمات، مليئة بالمزلق، ويسمى أفلاطون لـ 'پارمنيديس' باستغلال هذه المزلق.

حُجج زينو لم تُظهر فحسب عوار كل صياغة لغوية بل أظهرت كذلك عوار وتناقض كل واقع محدد. الجزء الأول من الظواهر والحقيّة *Appearance and Reality* كان يسكن في كلمات زينو قبل أن يولد ف. هـ. براندلي F. H. Bradley بنحو أربعة وعشرين قرناً.

لقد قيل إن الديالكتيك السقراطي مستمدّ من ديالكتيك زينو. إننى لا أعتقد فحسب أن سقراط لم يكن بحاجة لسابقة زينو كي يطوّر أسلوبه الحوارى، ولكن حتى إن سلمنا بأن سقراط استعار منهج زينو، فعلينا أن ندرك أنه استخدمه لغرض يختلف جذرياً عن غرض زينو، إلى حدّ يجعل منه شيئاً مختلفاً تماماً. كانت غاية زينو منطقية - ميتافيزيقية، بينما كانت غاية سقراط أخلاقية خالصة. لم يكن غرض سقراط أن يُظهر - إلا عَرَضاً - تناقض المقولات أو عوار الموجودات، بل أن يزيل من عقولنا اضطراب القيم الأخلاقية والمبادئ التي تحكم الحياة الإنسانية. كان أفلاطون هو من عاد، في الـ 'پارمنيديس'، إلى وضع الديالكتيك في خدمة الأنطولوجيا.

المفارقة paradox هي الصدمة التي تعلن أن مفهومها ما قد استباح أن يضمّ إليه أرضاً ليست له شرعاً. أو، إذا لجأنا لمجاز آخر قد نقول: كل مفهوم أسطورة؛ حين ينسى الأتضاع الملائم لخوانه، يكشف له العقل أنه ليس إلا ففاعة تنفجر بصوت عالٍ. من الغاز زينو إلى 'الرجل الثالث' إلى مفارقة Russell's paradox وما وراء ذلك، لن نجد شيئاً غير أساطير فكرية تعذت الحدود التي تخصها.

الرجل الثالث

في فقرة قصيرة في 132 - أ. ب يصوغ 'پارمنيديس' لفزاً عُرف فيما بعد، بفضل أرسطو، باسم معضلة 'الرجل الثالث'، معضلة استنفدت من وقت وجهد الباحثين أكثر كثيراً مما نالته منهم مسائل أكثر أهمية. ها هي الفقرة (في الأصل الإنجليزي أوردتها في ترجمة كورنفرود Cornford):

ما قولك في هذا؟ إنني أتصوّر أن الأساس لقولك بصورة مفردة في كل حالة هو هذا: حين يبدو لك العديد من أشياء كلّ منها كبير، أحسب أنه يبدو لك أن هناك صفة واحدة هي هي نفسها في جميعها؛ وعليه فإنك تعتقد أن الكبير هو شيء واحد.

أجاب: هذا صحيح.

ماذا عن الكبير ذاته والأشياء الأخرى الكبيرة، لو أنك نظرت إليها كلها هكذا بعين عقلك؟ ألا تظهر لنا عندئذ وحدة أخرى — كبير بفضلها تبدو كلها كبيرة؟

يبدو أن الأمر كذلك.

إن ستظهر لنا صورة كبير أخرى بجانب الكبير ذاته والأشياء التي تشترك في الكبير؛ ومن جديد، تنتشر فوق كل هذا صورة كبير أخرى تجعل الكل كبيراً. وهكذا فإن كلا من صورتك لن تبقى واحدة بل تتعدّد إلى ما لا نهاية.

يكن السرّ في الكلمات: ماذا عن الكبير ذاته والأشياء الأخرى الكبيرة، لو أنك نظرت إليها كلها هكذا بعين عقلك؟ *ti d' auto to mega kai talla ta* — أو على *ean hōsautōs tēi psuchēi epi panta idēis megala ean* هذه العبارة الأخيرة لو أنك نظرت إليها كلها هكذا بعين عقلك؟

hôsautôs têi psuchêi epi panta idêis: يكمن الخطأ في موضوعة objectifying الصورة المعقولة (إعطاء الصورة المعقولة موضوعية) وجعلها تصلّط مع الظواهر المحددة كشيء يخضع لملاحظة العقل. الصورة المعقولة هي العقل ذاته فاعلا في فعل ملاحظة الأشياء؛ هي نفسها فاعلية العقل إذ يضمنى المعنى على الأشياء بأن يلحقها بذاته تحت صورة من خلق ذاته. الصورة ليست موضوعا object أو شيئا يمكن أبدا أن يُموضع be objectified. إنها المعنى، معنى كل كينونته وكل حقيقته ومُضنة في فاعلية العقل المبدعة.

مرّ اللغز الذى حوته هذه الأسطر القليلة بتحوّلات عديدة، من معضلة الارتداد اللانهائى infinite regress، إلى 'الرجل الثالث'، إلى معضلة الإحالة الذاتية self-predication الحديثة. لكن عُقدتها ظلت دائما هي نفس العقدة. إذا لم نقف عند الوضوح الذاتى للفكرة، عند مقولة سقراط 'الساذجة': "كل ما هو جميل هو جميل بالجمال"، فإننا ننزلق إلى متاهة من الزيف. حين حلّ برتراند رسل Bertrand Russell 'المفارقة' التى اكتشفها هو نفسه فى نظرية جوتلوب فريجة Gottlob Frege، لم يكن حله إلا صيغة مقيدة من المبدأ السقراطى، فاقترح سلسلة مرّتبّية من العبارات a hierarchy of sentences يعنى فى جوهره أننا عند كل مرحلة أو مستوى محدّد من التنظير، علينا أن نقف عند أنماط Types تؤخذ باعتبارها نهائية فى ذلك المستوى أو بالنسبة لذلك المستوى.

كان أفلاطون يدرك تماما الخطأ فى حجة 'پارمنيديس'. فى الجمهورية 597 - ج حيث يشرح لماذا لم يكن ممكنا أن يصنع الله صورتين من السرير، يقول: لو أن الله خلق صورتين من السرير لظهرت أيضا صورة أخرى تتبذى صفتها فى تلكا صورتين، ولكانت تلك الصفة هي 'السرير' الذى هو كائن حقا، 'السرير' الحقيقى، لا صورتان الأوليان، *kai eiê an ho estin klinê* المحدّدة التى توجد فى العالم، بل الصفة المعقولة التى فى العقل، سواء كان عقل الله أم عقل كائن إنسانى، فالمعقول هو الحقيقى، الحقيقة الوحيدة.

الجزء الثانى

الجزء الثانى من الديارمنيديس هو بأكمله كما يصفه أفلاطون فى صراحة ووضوح، مران فى الديالكتيك (بالمعنى الوارد فى الجمهورية) — مران يراد

به إبراز درس الديالكتيك الجوهري المزوج: (1) على البعد المنطقي، لا مقولة محدّدة هي صادقة ببساطة؛ لا مقولة محدّدة يجوز أن يباح لها أن تزهو بادعاء أنها نهائية، ذلك زهو قاتل؛ إن فعلتْ فيمكن دائما إظهار زيفها؛ كى نفهم أى مقولة علينا أن ننسبته ليس فقط إلى ما نقول بل أيضا إلى ما لا نقول. (2) على البعد الميتافيزيقي، لا شيء معينا، محدودا، محدّدا، يجوز له أن يدعى ببساطة أنه كائن؛ فى ذاته وبذاته لا يمكن أن تكون له معقولية الحقيقة؛ يمكن دائما أن نساله: "من أين أنت ولأى غاية أنت؟"؛ كى يتبرّر⁽⁶⁷⁾ لا بد لواقعته المعينة، المحدودة، المحدّدة أن تتمحى فى ما ليس هو. كل هذا ليس إلا نبأ لبذرة الحوار السقراطى. كل ما يتحفنا به الباحثون من مناقشات وتحليلات وانتقادات لفرضيات ومحاجات الجزء الثانى من الپارمنيديس هو لعبة ذهنية جيّدة، ولكن حين يُظنّ أن كل ذلك يكشف (أو، فى أكثر الحالات، يبيد) معنى أو جوهر الپارمنيديس (أو أى من محاورات أفلاطون) فإنها تكون أسوأ من مجرد كونها بلا فائدة: إنها تكون قاتلة. إنهم يشقون القشرة، ثم يعيدون فيشقون ما شقوا من القشور، فإذا بلبّ الحبة قد تبدّد الوسيلة الوحيدة لاكتساب الحبة كاملة أن نزرعها فى عقل فاعل حى لتزهر وتحمل ثمرا لا يستطيع المتبحرون فى العلم أن يتبينوه مهما تبادوا فى تشرحها ومهما تحت مجهر منطقى بالغ القوة فحصوها.

أستطيع أن أفهم كيف وجد أفلوطين Plotinus فلسفته كاملة بين سطور الپارمنيديس. أنا أيضا شاطرت أفلوطين تجربته. لكن لا رغبة لى فى أن أقدم هنا صياغى الخاصة للپارمنيديس. الباب الثانى من *Let Us Philosophize* بأكمله هو ذلك ولا شيء غير ذلك.

كان خطأ الأفلاطونيين الجدد Neoplatonists، وربما خطأ أفلوطين نفسه، أنهم حاولوا أن يعطوا ثباتا لصفات لم يكن من الممكن أن تجد تعبيراً إلا فى مجاز شارد أو محاجة تدمر ذاتها بذاتها. كان ينبغى لهم أن يتعلموا من أفلاطون، خاصة من الجمهورية ومن الپارمنيديس ذاتها، أنه لا يمكن لأى

(67) استعير هذا التعبير من مصطلح المسيحية. ولم لا؟ فى المسيحية كما فى الإسلام والبوذية والهندوكية مفاهيم ومصطلحات ثرية، تكسب اللغة كثيرا باستخدامها محرّرة من ارتباطاتها العقائدية، والتخرج من استيعاب هذه المفاهيم والمصطلحات فى لغة الأدب هو رضح لاغفلاني لاغفلاني. إذا كنّ لنا أن نوسّع أفقنا الفكرية باستخدام مفاهيم جديدة، فعلينا أن نكسب لهذه المفاهيم بكسبها اللغضى من أى مصدر متاح بلا وجل ولا حساسية.

صياغة فكرية محدّدة أن تزعم لنفسها صحّة نهائية. يشير ف. م. كورنفورد F. M. Cornford إلى "سرّاب تصوّف الأفلاطونية الجديدة" (المقّمة، صفحة vi). لا يكون التصوّف سرّابا إلا حين يسمّى لأن يكون نهائيا، عندئذ يكون مجاز السرّاب ملائما تماما؛ لكنه لا يكون كذلك حين يكون سعيّا لبصيرة، فهو أنذاك يرتوى من ينبوع الحقيقة.

على امتداد محاجّات الجزء الثاني من الديارمنيديس تلقى عبارات مثل 'بمعنى ما'، 'لكنّ ليس بكل معنى'، 'من حيث هو'، 'في حدود كذا'، ويستخدم أريستوتيليس الصغير في ردوده عبارات مثل 'يبدو أن الحجّة تفقد لتلك النتيجة'، 'يبدو أن من الممكن المحاجّة على ذلك النحو'. هذا جزء أصيل من درس المحاورّة. المحاورّة كلها يمكن أن تعبّر تحذيرا مما أسميته في موضع آخر بقدر الكلمات. ليست هناك أي مقولة، مهما بذلنا من عناية في صياغتها، مهما حرصنا على إحاطتها بالاشتراطات والتكيفات، يمكن أن نقبلها دون تحفّظ.

هكذا، إذا أسلمنا عقلانا الحي دون تحفظ للكلمات أو لمنطق يغفل عن حدوده التي لا مهرب منها، فسنجد عندئذ، كما تقول الديارمنيديس في الختام (166 ج)، أنه أيّا ما افترضنا أنه كائن أو غير كائن، فسيبدو أن كلا من الواحد والمتعدّد سيكون بالنسبة لذاته، وأن كلا منهما سيكون بالنسبة للآخر، كلّ شيء ولا شيء.

الفصل التاسع

نظرية المعرفة

1

في المحاورات الباكورة نجد سقراط يبحث في طبيعة هذه الفضيلة أو تلك. ورغم أن البحث لا ينتهي أبدا إلى نتيجة محدّدة، فإن التمهيد يشير المرّة تلو المرّة إلى وحدة كل الفضائل وإلى معادلة الفضيلة بالمعرفة. عندئذ يثار السؤال: أي معرفة — معرفة ماذا؟ لكننا لا نجد في أيّ موضع في المحاورات الباكورة يبحث بشكل مباشر في طبيعة المعرفة. في المينون نجد أفلاطون يعرض عناصر من نظريته الخاصّة في المعرفة، لكنّ حتّى في المينون يأتي البحث في المعرفة غير مباشر، فموضوع البحث هناك هو قابلية الفضيلة للتعلّم وكيفية الوصول إلى المعرفة التي نسمي إليها. والسؤال المطروح للبحث في الجمهورية (حيث نجد أكمل عرض لإپيستيمولوجيا أفلاطون الأونطولوجية الناضجة) ليس هو 'ما المعرفة؟' بل 'أيّ معرفة يسمي إليها الفيلسوف؟' وحين يثار السؤال أخيرا في الثيياتيتوس فالبحث لا يمتد بالطريقة السقراطية المعهودة. وعلى هذا، فرغم أننا لا نكاد نمرّ بصفتين من المحاورات الباكورة دون أن نصادف كلمة المعرفة *epistêmê* أو بعض مرادفاتها أو مشتقاتها، فإننا لا نلقى السؤال المباشر 'ما المعرفة؟' حتّى نصل إلى الثيياتيتوس. المعرفة التي نجدنا معنيين بها هنا لا هي المعرفة التي هي واحدة مع الفضيلة التي تشغل المحاورات الباكورة ولا هي معرفة الجمهورية المقترنة بلا انقسام بالحقيقة،

إنما هي النوع الأكثر تواضعا الذي لا يستغنى عنه آينا، من أكثرنا جهلا إلى أرفعنا علما، في حياتنا النبوية.

2

ربما كانت الدمينون هي أول معالجة مباشرة من جانب أفلاطون لمسألة المعرفة. في *الديوراجوراس* طرحت مسألة قابلية الفضيلة للتعلم وولجت من عدة جوانب، بدون التساؤل عن طبيعة المعرفة من حيث هي. إنني أغامر بالقول بأن أفلاطون عند هذه النقطة أثار السؤال وبدأ بكون إجابته الخاصة له. هكذا نجده في *الدمينون* يقدم، أولا، نظرية التذكر، جاعلا من "حكاية حكاها كهنة وكاهنات" رداء يكسو بصيرة سقراط المنبئة بأن كل معرفة حقة تنبع من داخل العقل؛ ثم يقدم فكرة البحث بوسيلة الافتراضات، تنظيرا لطريقة الحوار السقراطي (ويطوّر نظرية المنهج هذه إضافيا في *الفايدون*)؛ ثم يميز بين المعرفة الحقة *epistêmê* والظن الصحيح *orthê doxa*، وهو التمييز الذي يصوغه في *الجمهورية* في شكل الخط المنقسم.

السؤال الذي يطرحه مينون - ما إذا كانت الفضيلة تكتسب بالتلقين أم بالمران أم بالطبيعة أم بوسيلة أخرى - هو في الواقع سؤال محوري يظل يعاود الإطلال على امتداد المحاورات، والإجابة، وهي ليست إجابة بسيطة بل إجابة مركبة، علينا أن نجمعها من أعمال أفلاطون ككل. لكن في *الدمينون* ذاتها يزاح السؤال جانبا على الفور ويُستبدل بالسؤال: ما الفضيلة؟ الذي يُنتج محاوراة 'تعريف' مصغرة، فيها كل السمات المميزة التي نجدها في محاورات 'التعريف' الباكرا، مضغوطة في بضع صفحات، قبل أن يزاح هذا السؤال بدوره جانبا ليفسح المكان للسؤال عن كيفية وصولنا لأي معرفة على الإطلاق.

في *الدمينون* تأتي أسطورة التناسخ، حاوية مبدأ التذكر، كحل لأحجية التعلم. الأسطورة "حكاية حكاها كهنة وكاهنات"، والمبدأ أمثلة لا تقول أكثر من أن 'المعرفة' نستخرجها من أعماق أعماق عقولنا - لك أن تقول إنها أودعت هناك في حياة سابقة، ولك أن تقول إنها هناك لأن عقلك يضرب بجذوره في الحقيقة النهائية: كلا الصيغتين أسطورة، وكلاهما تعبير عن بصيرة - هي كل ما يهم سقراط - فحواها أن نوع 'المعرفة' التي تعيننا تحديدا بوصفنا كائنات إنسانية لا يأتي من أي مكان 'هناك بالخارج' بل يأتي من 'هنا بالداخل'.

في الفايديون نجد مزجا تاما بين عناصر سقراطية وأخرى أفلاطونية. سأتناول هنا ما يتعلق بمسألة المعرفة دون التعرّض للسؤال الحرج عما يخص كلاً منهما.

إننا، كما يمكننا أن نتعلم بسهولة من المحاورات الباكورة، لا ندرك الحقيقة، *ousia*، بحواسنا البدنية بل بالعقل الخالص: المعرفة هي معرفة الصورة، المفهوم، *idea eidos*: العدل، الخير، الكبر (الحجم)، الصحة، القوة، هذه كلها تعقل لكنها لا تحس، ولو أن الحالات التي تتمثل فيها هي طبعا محسوسة: الجسد يعوقنا عن إدراك الحقيقة، *to alêthes*، فحين يعتلّ الجسد يعطل سعينا لما هو حقيقي، *to on*؛ لبلوغ المعرفة يلزم للروح (العقل) أن تنصرف إلى ذاتها، وتعمل على أن تنعزل عن الجسد إلى أبعد حد ممكن؛ فالحقيقة خالصة لا ينالها إلا العقل الخالص.

إن مرأى أعواد أو أحجار متساوية بالكاد أو حتى غير متساوية يطلق في عقولنا مفهوم المتساوي، لكن المفهوم مختلف في طبيعته عن الأعواد أو الأحجار. حتى إن افترضنا أننا قد نصادف أشياء متساوية تماما في العالم المحسوس – غاضبين النظر عن مبدأ تطابق اللامتمايز *identity of indiscernibles* والمبدأ الأفلاطوني القائل بالعوار الحتمي لكل ظواهر الواقع – فحتى في تلك الحالة الافتراضية لن نلقى أبدا المتساوي في ذاته *auto to ison* (التساوي خالصا بسيطاً) في أي مكان غير العقل. 'التجريد' الأرسطي *Aristotelian abstraction* لا يفعل غير أن يستر المر بحجاب إذ يعطيه اسما: تحت صدفة 'التجريد' الميتة تقبع الحقيقة الحية لتكوّن المفاهيم، خلق الصورة التي تعطى محتوى التجربة المعطى معنى.

الصور المعقولة متأصلة في العقل بمعنى أن العقل هو منبعها وموطنها. لا شيء ينشئها غير العقل. إنها ليست 'الأفكار الفطرية' الديكارتية *Cartesian 'innate ideas'*. معرفة الأشياء المحسوسة ليست مستقلة عن التجربة. إنها دائما تبدأ من التجربة. "إننا متفقون أيضا على هذا، إننا لم نحصل على هذه الفكرة، وما كان يمكن أن نحصل عليها، إلا بالبصر أو اللمس أو أي حاسة أخرى من الحواس" (فايدون، 75 أ). هكذا يؤكد أفلاطون في وضوح أن التجربة الحسية هي 'مصدر' كل أفكارنا الأولية. كان لوك *Locke* على

صواب في معارضته لديكارت *Descartes* في هذا. ولكن رغم أن الحوامن تمّتنا بكل محتوى التجربة المعطى، فإن ذلك المحتوى يظل أخرس ويظل غارقاً في ظلام إذا لم يصعد به العقل إلى رحابه المضئ حيث الأنساق المعقولة. إننى لا أقول مع مور Moore إننا ندرك معطيات الحمن، بل أقول إن عندنا معطيات حمنية ونحن ندرك موضوع الحمن بفعل عقلى ينحت الموضوع من الكل التجريبي⁽⁶⁸⁾ المتصل اللامتمايز *the continuum of experience*. نحن هنا نتحدث عن المعرفة الإمبريقية *empirical*، التي تشكّل الأرضية لكل معرفة؛ لكن العقل بعد ذلك ينشئ مفاهيم من المرتبة الثانية ومن المرتبة الثالثة، هي مفاهيم العقل الخالص. في أعلى مراقي الفكر حيث نعنى بأعظم ما يهمننا ككائنات إنسانية، لا نتعامل مع غير المفاهيم الخالصة التي ينشئها العقل وحده.

ما هو جوهرى هنا هو تأسيس التمييز بين عالم الأشياء المقتمّة لنا في تجربتنا وعالم المعقول، عالم العقل الذى ينشئ الصور التى تعطى معنى للأشياء. هذا التمييز أضحي مستقراً بترائنا العقلى إلى حدّ أننا نقف أمام هذا الجزء من *الفايبرون* ونسائل في حيرة: ما الذى يحاول أفلاطون أن يقدم دليلاً عليه هنا؟ أفلاطون لا يقدم دليلاً على شيء هنا، إنه يقدم لنا مفهوم عالم المعقول، هذا المفهوم الذى ندين به في المكان الأول لسقراط والذى أصبحنا نأخذة كشيء مسلم به حتى إننا نظنّ أن بمقدورنا أن ننساه ونقول إن ما هو معطى موضوعياً هو كل ما هنالك. المعطى موضوعياً لن يعطينا أبداً القيم، وإن يقول لنا أبداً ما هو صواب وما هو خطأ أخلاقياً. حين اختزل *Locke* كل ما هو كائن في المعطى موضوعياً، لم يلبث هيوم *Hume* أن استخرج، وعن حق، النتيجة: الوقائع لن تنتج أبداً المعايير، فعل الكينونة "is" لا يترتب عليه أبداً فعل الوجوب "ought". أين إذن نجد المعايير؟ لن نجدها إلا في العقل، من خلق العقل. من أين تستمدّ صلاحيتها؟ من حقيقة العقل الفاعل الخلاق بوصفه قاعدة ونبع قيمتنا الحقّة وتميزنا الحقّ.

في *الفايبرون* نجد بادرة المبدأ الذى يزدهر في الجمهورية: إن مسيرة الفيلسوف نحو إدراك الحقيقة هي في جوهرها تقدّم متواصل نحو أن يماثل الفيلسوف تلك الحقيقة؛ حين يتعرّع فينا نحن أنفمننا الحقيقى والإلهى ندرك

(68) أرى أننا بحاجة لاستحداث هذا اللفظ منسوباً إلى التجربة *experience*، تمييزاً لهذا المعنى عن التجريبي، منسوباً إلى التجريب *experimentation*.

الحقيقي والإلهي؛ بعبارة أخرى، إذ ينتعش وعينا⁽⁶⁹⁾ بالحقيقي فينا، بحقيقتنا الذاتية، نعرف الحقيقة. هذه هي نفس البصيرة التي نجد تعبيراً عنها في الصعود التصوفي الذي تحدثنا عنه *المأبىة*: إنه صعود يبدأ ويكتمل كاملاً خالصاً في العقل، وتتوجه رؤية جمال مطلق، كما تتوج الصعود في *الجمهورية* رؤية خير مطلق — إذ أن الجمال والخير والحق أسماء (وجوه) للحقيقة الواحدة التي تسمو على كل الصور المحددة.

هذه هي الرسالة الأساسية للـ *فايدون*، التي بقيت لبّ وقلب كل فكر أفلاطون حتى النهاية. في المحاورات المتأخرة يفحص أفلاطون مسائل معينة لا تؤثر على النظرة العامة على أي نحو.

4

الإضافة الخاصة التي تقدمها *الجمهورية* لنظرية المعرفة نجدها ملخصة مركزة في شكل الخط المنقسم، ومضمون الخط المنقسم نجده مجسماً في أمثلة الكهف الشهيرة. المبدأ الأساسي الذي تستند إليه كل فلسفة *الجمهورية* هو أن المعرفة والحقيقة جانبان لشيء واحد، بحيث إن ما هو حقيقي تماماً — وما هو حقيقي تماماً وحده — قابل لأن يُعرف تماماً، وما له نصيب منقوص من الحقيقة يمكن فقط أن يُعرف معرفة منقوصة.

وبناء على هذا فهناك نوعان أو مستويان رئيسيان من المعرفة. (1) المعرفة عن طريق الحواس البدنية هي معرفة عن *السيرورة* *peri genesin*، تُنتج الظن *doxa* (أو الاعتقاد *pistis*) ولا يمكن أبداً أن تتجاوز الظن. (2) المعرفة عن طريق العقل الخالص هي معرفة عن الكينونة *peri ousian* (*الجمهورية*، 534 أ). كل من هذين القسمين ينقسم إلى جزئين، فنجد عندنا أربعة مستويات من المعرفة تمثلها الأقسام الأربعة للخط المنقسم. "في مقابلة هذه الأقسام، قل إن هناك أربع حالات تحدث في العقل *psuchē*: العقل الفاعل *noēsis* عند أعلى مستوى؛ الفكر *dianoia* في المستوى الثاني؛ وفي

(69) وعى بالمعنى كعنى، وليس وعياً بتمطى، فالقهم ذاتي تماماً وليس موضوعياً.

المستوى الثالث الاعتقاد *pistis*؛ وعند أدنى مستوى الوهم *eikasia* (الجمهورية، 511 د-ه).

دعوني أضيف (متجاوزا في ذلك أفلاطون في التعبير ولكن ليس، على ما أعتقد، في الجوهر) أن المعرفة عن الكينونة *peri ousian* لا تنتج أي مقولات صدق موضوعية محددة. إنها ليست معرفة واقعية. ممارستها هي فاعلية عقلية *noësis phronêsis*، وتلك الممارسة هي حياة العقل *nous*، هي فاعلية العقل الخلاق، وتلك أعلى مراتب الفهم التي يمكن لنا أن نحظى بها، ولأنها لا يمكن أبدا أن تعطينا معرفة واقعية، فإن تلك الحكمة الأعلى، التي تجد كمالها في الحفاظ على سلامة ونزاهة العقل، تعادل الاعتراف بالجهل. (انظر الفصل السادس، "المعرفة والحقيقة").

5

حين نشرت ترجمة ف. م. كورنفورد F. M. Cornford المصحوبة بتعليق جار على الديالكتيوس والسوفيست تحت عنوان نظرية أفلاطون في المعرفة (1935) *Plato's Theory of Knowledge*، تتصل كورنفورد ضمناً في التصدير Preface من المسنولية عن العنوان. وكان محققاً في ذلك. إذا كان لنا أن نبحث عن نظرية لأفلاطون في المعرفة، فعلينا أن ننقب عنها في كل أعماله، ومع ما للديالكتيوس والسوفيست من أهمية لا شك فيها، فلن نجد هناك أساسيات أو أهم عناصر - دع عنك من أن نقول كل - 'نظرية المعرفة' عند أفلاطون.

كما يقول كورنفورد في المقدمة، "تصوغ الديالكتيوس وتمحص ادعاء الحواس أنها تنتج معرفة. تحرك المناقشة في عالم التجربة وتثبت أننا لو أخرجنا من حسابنا عالم الكينونة الحق، فلا يمكننا أن نستمد المعرفة من التجربة الحسية" (صفحة 7). في الديالكتيوس نجد پارمنيديس يؤكد هذا في أوضح عبارة عند ختام الجزء الأول من المحاور. وهذا ما نستطيع أن نتعلمه أيضا من الدايون والجمهورية. 'المعرفة' التي تعطينا إياها التجربة الحسية تتأرجح في الخط المنقسم بين القسم الأعلى من المستوى الأدنى والقسم الأدنى من المستوى الأعلى، لكن لا يمكنها أن تعلو فوق ذلك.

في الصفحات الافتتاحية من الديالكتيوس يزعم سقراط زعمه الشهير بأنه يمارس فنّ القابلة (التوليد). يلتفت كورنفورد انتباهنا (صفحة 27) إلى التشابه

بين الجزء التمهيدى فى السينيون حيث ترد 'نظرية' التذكر والجزء التمهيدى من الـ *ثيياتيتوس* حيث يرد تشبيه فن القابلة. الا يوحى لنا ذلك بأن 'نظرية' التذكر، مثلها مثل تشبيه التوليد، ليست إلا تعبيراً رمزياً عن الحقيقة الواحدة التى كان سقراط يوقن بها، حقيقة أن كل المعرفة تنبع من العقل؟ من الجائز أن يكون أفلاطون قد استهوته عقيدة تنسخ الأرواح الأورفية-الفيثاغورية ووجد فيها تفسيراً مقبولاً أو على أى حال تمثيلاً ملائماً للبصيرة السقراطية، لكنه فى تشبيه التوليد كان قد وقع على صورة مجازية أصنق تعبيراً عن الفكرة الفلسفية.

يرى ريتشارد كراوت Richard Kraut فى دور القابلة الفكرية الذى يتخذه سقراط فى الـ *ثيياتيتوس* اتجاهاً جديداً "فى الهيكله الدراميه فى محاورات الفترة الوسيطة" (*The Cambridge Companion to Plato*)، 1992، ed. Richard Kraut، p.17. أعتقد أن فى القول باتجاه جديد مغالاة. على امتداد المحاورات الباكرة يؤذى سقراط دور القابلة، يساعد محاوريه على ولادة أفكارهم. وفى المحاورات التى تعتبر سابقة على الـ *ثيياتيتوس* يتكرر استخدام سقراط للغة وتشبيهات الجنس والإنجاب. الأمثلة أكثر من أن أحصيهها. فى مسرحية أريستوفانيس Aristophanes يشكو طالب من أن شخصاً ما يندق الباب قد أجهض فكرته، مما يوحى بأن استخدام تشبيه القابلة كان مالوفاً عند سقراط (السحب، 137). فإذا خطر لأفلاطون فى الـ *ثيياتيتوس* أن يلهو بأن يربط بين هذا وما ورثه سقراط عن أمه، فلمست أرى كيف يشكّل ذلك اتجاهاً جديداً.

بعد الحديث التمهيدى، يجد سقراط طريقه لطرح السؤال: ما المعرفة؟ وكما فى المحاورات الباكرة نجد أمامنا مفهوماً عريضاً جداً للمعرفة. الهندسة والفلك، مهنة الطبيب وحرفة الصانع، كل هذا حكمة *sophia*، والحكمة هى أيضاً المعرفة *epistēmē*. فما هى هذه المعرفة؟

فى [151 - د - هـ] يتقدّم الصبى ثيياتيتوس بأول إجابة جادة عن السؤال: "يببولى أن من يعرف يحسن (يدرك) *aisthanesthai*) ذلك الذى يعرفه، وفيما ييببولى الآن، ليست المعرفة شيئاً غير الحسن (الإدراك) *aisthēsis*). يمارع سقراط بأن يعادل هذا الموقف بمبدأ بروتاجوراس القائل بأن الإنسان هو المعيار لكل شيء، لما يكون هو معيار أنه كائن، ولما لا يكون هو معيار أنه غير كائن (152 أ). وبعد قليل يربط هذا الموقف أيضاً بمبدأ هيراكليتوس Heraclitus القائل بأن كل شيء فى صيرورة دائمة. (يببولى أن أفلاطون يفعل هذا لأنه يحتاج أن يستخدم مبدأ الصيرورة فى نظرية الإدراك الحسى التى يزعم أن يقّمها).

الإدراك الحمسى - كتجربة ومحتوى للتجربة - هو نتاج. ليس في عالم الظواهر أى حدث بسيط. كل إحساس هو نتاج اقتران عدّة عوامل: قد ترجع هذه العوامل جزئياً للشخص المدرك وجزئياً للعالم المحيط به، أو قد يكون مقرّها في جسد المدرك. نستطيع أن نميّز في الناتج - الإدراك، الذى هو كلُّ واحد - بعداً ذاتياً وبعداً موضوعياً. يمكننا أن نراقب البعد الذاتى بطرق مختلفة، فنحدّد الظروف (الاشتراطات) التى ينتج عنها إحساس معين، لكن الجانب الذاتى لا يمكن معادلته بتلك الظروف (الاشتراطات) ولا يمكن على الإطلاق جعله موضوعياً.

"هذا الذى تسمّيه باللون الأبيض ليس فى ذاته شيئاً خارج عينيك ولا هو فى عينيك، ولا يجب أن تخصّه بـمكان خاصّ به" (153 د - هـ). الكل المتكامل وحده حقيقى. اللون ليس فى الزهرة ولا هو فى عينك ولا هو فى مخّك، اللون أحد أوجه الكل، والشمى الوحيد الذى يحتضن ذلك الكل هو عقلك. فلسفة باركلى Berkeley تعبّر عن نفس هذه البصيرة.⁽⁷⁰⁾

فى 154 - ب - 15 - د يثير سقراط بعض الإشكالات التى نناقها حين ننظر - على أساس فرضية پروتاجوراس - فى الأحجام والأعداد منسوبة الواحد منها للآخر. يقول كورنفورد عن هذه 'الألغاز' "إن ارتباطها بمساقها لا يبدو واضحاً. وليس من السهل أن نفهم لماذا يجد فيها أى أحد ما يحير" (صفحة 41). إننى، على العكس من ذلك، أجد فى هذه الفقرة دعماً ذا مغزى لمبدأ أن لا شىء محدّداً أو فعلياً هو كائن فى ذاته وبذاته. كل شىء تتحقّق كينونته فى سياق، فى موقف تأخذه لفرضنا الراهن باعتباره كلا؛ وحيث أن الموقف - ككل شىء فعلى - فى تغيّر دائم، فالشمى المحدّد الذى يتضمّنه ذلك السياق هو دائماً فى حال صيرورة إلى غير ما هو. حين يقول سقراط: "هل نفهم الآن لماذا يكون الأمر هكذا، وفقاً لما نزع أنه ما كان پروتاجوراس يعنى؟" فهو يقصد أن الأمور لا بدّ أن تكون هكذا ما دمنا نتخذ من الظواهر موضوعاً للمعرفة.

على مستوى أبسط يمكننا النظر إلى هذه الفقرة على أنها واحدة من تلك المعضلات التحاليلية التى يبيّنها أفلاطون فى ثنايا أعماله تاركاً لقرّائه أن يحلّوها بأنفسهم - فى هذه الحالة بإرساء التمييز بين الصفة (الكيف) والإضافة quality and relation.

(70) اعتقد أن هذا المعنى نفسه هو ما قصد إليه وأتهيد Whitehead بمفهوم الحدث event فى فلسفته.

هذا لا يتناقض مع الفايثون (مع الاعتذار لكورنפורد، صفحة 44)، ولا يستدعي أن نعتبر موقف الفايثون خاطئاً. الحدود النسبية relative terms باعتبارها مفاهيم متمثلة في طرفي العلاقة النسبية the relata – أو بتعبير أدق، الحدود النسبية باعتبارها تبطن زوجاً من مفهومين ضدين كل منهما يتمثل في أحد طرفي العلاقة النسبية – هذه نظرية – أو قل هذا منطوق – ليس بأسوأ، كما أنه ليس بأحسن، من نظرية 'القوى' 'forces' التي يستخدمها علماءنا وهم راضون كل الرضا. كوننا قد أصبحنا نملك مفهوم الإضافة relation بين طرفي العلاقة النسبية relata لا يبرر أن نخطئ النظرية السابقة للإضافات relations كصفات، تماماً كما أن نظرية كوبرنيكوس Copernicus لا تخطئ وعينا الحسي الساذج بمسيرة الشمس اليومية حول الأرض.

ينبغي، فيما أعتقد، أن نميز بين عنصرين في نظرية الإدراك الحسي المطروحة في 155-د -157-ج: (1) العنصر الفلسفي الذي يقرّر سيولة (صيرورة) كل الأشياء في عالم الواقع وتشابكها بلا انفصال. (2) عنصر فيزيقي-فيزيولوجي، هو فرضية علمية (لا بالمعنى الأفلاطوني للكلمة بل بالمعنى الحديث). العنصر الأول يمنحنا بصيرة فلسفية أصيلة وقيمة. أما العنصر الثاني فأمر تقديره متروك لمؤرخي العلوم.

في 157-د يسأل سقراط ثيابتيتوس ما إذا كان راضياً عن القول بأن ليس من كائن حسن أو جميل أو ما شئت من الصفات، إنما هناك دائماً فقط ما هو صائر لأن يكون حسناً أو جميلاً أو ما شئت. يشير هذا بوضوح إلى أن المناقشة السابقة كانت تنحصر في نطاق الإدراك الحسي للأشياء المحددة داخل مجال الصيرورة. في هذه الحدود، قد يُعَدّ البيان المطروح مُرضياً؛ ولكن، كما يتضح مما يلي، فإن مثل هذا الإدراك الحسي لا يُنتج معرفة بالمعنى الصحيح. إن المسار process الذي يؤدي لأن يصير الشيء كذاً أو كذاً يصف، لكنه لا يفسر، كيف يكون الشيء بهذه الصفة أو تلك. الوصف الاختزالي reductionist لا يضيف على الشيء معقولة. وعلى هذا فبيان صيرورة الشيء إلى كذاً أو كذاً لا يحل محل قول سقراط 'الساذج': بالجمال يكون كل ما هو جميل جميلاً. ولا هو يحل محل تعليل الفايثون للصيرورة والتغيير من منظور تقدّم وانسحاب أو فناء الصور، فبيان الفايثون كان خاصاً بمجال الفهم. التعرّض للنار يجعل الحديد ساخناً؛ هذه جزئية من معرفة إمبريقية ذات أهمية عملية كبرى، لكنها في مثل ظلام تعويذة سحرية. بدون مفاهيم 'النار'، 'التعرّض'، 'الحرارة'، وهذه كلها من مواليد العقل، فإن مجرد النطق بتلك العبارة لا يكون ممكناً، أو إذا نطق بها كائن سماوي فإنها تكون بالنسبة لنا

مجرد تتابع أصوات بلا معنى. وحتى يعون مفاهيم 'النار' و 'التعرّض' و 'الحرارة'، تصبح العبارة 'معرفة'، ولكن هل تعطينا فهما؟ كلا. لأنها تتعلق بعالم الظلال التي ليس لها معقولة ذاتية.

6

في فقرة بالغة الأهمية، 184- ب- 1850 هـ يحاجج أفلاطون لتقرير المصدر العقلي لمفاهيم الوجود existence، السواسية sameness، الوحدة unity، وما إليها. هذه المفاهيم لا توجد في المحيط الموضوعي. أولاً، حتى في حالة الإدراك الحسي البسيط مثل رؤية لون أو سماع صوت، ليست العين هي التي ترى وليست الأذن هي التي تسمع، إنما العقل أو الروح *eite psuchên* التي ترى من خلال العين وتسمع من خلال الأذن (184- د). أكثر من ذلك، في حالة الأفكار التي تنطبق على موضوعات حواس مختلفة، فليس هناك عضو معين من أعضاء البدن تدرك من خلاله، إنما العقل ذاته بذاته يتمنّها، *autê di' hautês hê psuchê ta koina moi phainetai peri pantôn episkopein* (185 د-هـ). الحجّة سليمة وذات أهمية حيوية. صحيح أنها لا تبرهن على شيء، كما نستطيع أن نتبين من كثرة الباحثين الأذكياء المتبحرين الذين لم يقنعوا بها. الحجّة، مثل كل حجج أفلاطون عن الصور في مواضع أخرى من المحاورات، توضح ببساطة مفهوم المعقول متميزاً عن محتوى التجربة المعطى.

في الفقرة التالية (168 أ-هـ) يمضي تفتح الفكرة قدماً. العقل يعي المحسوس من خلال أعضاء البدن. حتى الإدراك الحسي البسيط ينطوي على عنصر مفهومي conceptual. الإحساس الأجرد bare sensation ممكن لكل الحيوانات، لكنه لا يصبح إدراكاً حسياً perception إلا حين تكسوه مقولة judgement⁽⁷¹⁾: ها هنا شيء أخضر؛ هذا حارّ. ليس للعنصر المعطى في المقولة كينونة في ذاته ولا حقيقة في ذاته؛ الكينونة والحقيقة يضيفهما العقل؛ فكما عرفنا من الجمهوريّة، الكينونة *ousia* والحقيقة *alêtheia* لا ينفصلان، ويتميان للمعقول فحسب.

(71) يفتلها في العربية في مصطلح دارسي المنطق 'الفضية' أو 'الحكم'، لكن هذا المصطلح يأتي معه بإبعاد أرسطية Aristotelian لم يقصدها أفلاطون، لذا أرى 'المقولة' أوفى بالفرض في سياق الفكر الأفلاطوني الذي لقمه في هذا الكتاب.

لا ينبغي أن نطلب المعرفة فيما تمدنا به الحواس بل فيما يأتي به العقل من خزائنه الذاتية؛ لن نجد المعرفة في محتوى التجربة المعطى، بل في الأنساق التي يصوغ العقل فيها محتويات التجربة. يصنق هذا على كل مستويات 'المعرفة'، بدءاً من الإدراك الحسى perception (حين يتجاوز التلقى السلبي للانطباعات)، عبر الاعتقاد والمعرفة العقلانية، حتى فهم المثل.

'المعرفة' التي على أساسها يصف الطبيب لمرضه الدواء أبعد مدى وأوسع نطاقاً من مجرد إدراك المحتوى الواقعي. المريض قد تكون له - وبمعنى ما، لا بد بالضرورة أن تكون له - 'معرفة' بأعراض مرضه أفضل مما للطبيب. لكن الطبيب يكون كلاً مفهوماً يرتبط فيه إدراك الأعراض بالأسباب المحتملة للمرض وبالأثار المحتملة لأنواع من العلاج.

الإدراك الحسى يعطينا وعياً بالتجربة المباشرة، يعطينا حضوراً مباشراً، يعطينا معطى. كى يتم معرفة لا بد له من أن يترايط في سياق ما، وكى يرتبط في سياق لا بد أولاً أن يُفَرَز، يُشَخَّص، يُخْتَصَّ بمفهوم. الفكر يعطينا معرفة، لكنها معرفة بمنهج ينتجه الفكر نفسه. فى أعلى مستويات الفكر، فى الفهم، نعود إلى الوعى، لكنه وعى بالمعنى كمعنى، وليس وعياً بمعطى. أعترف بأننى هنا أبعد عن طرح أفلاطون (أكرّر: ليس غرضى أن أعرض فلسفة أفلاطون بل أن أتفلسف؛ ليس غرضى أن أحدد ما كان فكر أفلاطون، بل أن أفكر بمعاونة أفلاطون)، فبينما يقول أفلاطون إن الإدراك الحسى لا يمكن أن يمدنا بمعرفة إذ أن لا مقولة يمكن أن تصدق عن شيء يتغير دواماً، فإنى أركز على أن المعطى لا يُعقل حتى تكسوه فكرة ينشئها العقل. إننى لا أتقدم بنظرية عن الإدراك الحسى إذ أنى أعتبر مسألة كيفية حدوث الإدراك الحسى مسألة للبحث الإمبريقي، وعلى هذا فإنها تقع خارج نطاق الفلسفة. نظرية الإدراك الحسى المعروضة فى السُيَاقِيبِيَتوس (التي يرى كورنفورد Cornford أنها لأفلاطون)، كانت فرضية علمية، يلجأ إليها أفلاطون أساساً ليبين أن الإدراك الحسى، من حيث هو، لا يمكن أن يعطينا معرفة. المفاهيم التى تنشأ فى العقل وحدها يمكن أن تعطينا معرفة حقّة.

7

بعد الانتهاء إلى نتيجة أن الإدراك الحسى لا يعادل المعرفة (186 هـ)، تتجه السُيَاقِيبِيَتوس إلى تدبير المقولة، والقول بأن المقولة معرفة. لكن ليس كل مقولة، فمن المقولات ما هو زائف (187 أ-ب)؛ أم أن الأمر ليس كذلك؟ من

قبل، في 167- أ. ب، قال سقراط وهو يتحدث باسم پروتاجوراس إنه لا يمكن لأحد أن يدلي بمقولة كاذبة، "إذ أنه ليس من الممكن أن يحتوى الفكر ما ليس بكانن أو أن يتناول فكر المرء شيئا ليس في حيز تجربته، وما هو في حيز التجربة صادق دائما". هذا الذى يقوله پروتاجوراس صحيح بمعنى ذى دلالة حقة. المقولة تربط بين المفاهيم فى علاقة ما. إذ تفعل هذا فإنها تحدد معانى مفردات المقولة داخليًا، فى علاقتها ببعضها البعض. هى بهذا تخلق كلاً فكريًا *an ideal whole*. الكل حقيقى فى ذاته وهو بهذا المعنى صادق. نحن نقصد أو نفند المقولة بأن نبين أنها تستبعد علانق مفهومية ذات دلالة — 'ذات دلالة' بمعنى أن لها مغزى يتصل بما نحن بصدده، بما يهمننا. هذه عملية تقييم⁽⁷²⁾. لكن عبارتى الأولى فى حاجة لتعديل لتحديد أى المقولات نعتبرها 'حقيقية'. إن مجرد مجموعة كلمات تتراكم عشوائيا لا تشكل مقولة؛ تراكمها حذت وليس فعلا من أفعال العقل. ثغاء طفل وليد أو صوت يصدر عن وحش قد يكون معبرا، وهو على هذا الاعتبار يكون ذا معنى، لكن لا هذا ولا ذاك هو فعل على المستوى الفكرى. لا هذا ولا ذاك يشكل مقولة، ولو أنهما قد يكونان أكثر صدقا بكثير من كثير مما تفيض به دورياتنا الأكاديمية ومجلداتنا المتبخرة فى العلم! أما أكاذيب وأحابل السياسة فيمكن إما أن نعتبرها مقولات بادية الفساد أو نعتبرها لامقولات لأنها، باعتبارها ليست خالصة القصد، فإنها لا تتطوى على علانق فكرية؛ أو يمكننا أن نقول إنها، فى عقل الكاذب، تشكل علانق معقدة التركيب، يكتب قسم مهم منها فلا تظهره العبارة الصريحة.

الإدراك الحسى لا يخطئ. ما يظهر هو كائن على نحو ما. الظن يخطئ، لأن ما يبدو صادقا ينطوى على ادعاء يمتد إلى الواقع المستقل عن مركز الإدراك. الإدراك الحسى والظن كلاهما يتعلقان بمجال الظواهر. فى مجال المفاهيم الخالصة، ما يبدو صادقا هو منظور ذو معنى، يملك درجة من الحقيقة. تماما كما أن الذوق لا يمكن وصفه بالصحيح أو الخطأ، إنما يمكن أن يصنف باعتباره سويا أو غير سوئ، فكذلك المنظور الفلسفى لا يمكن الحكم عليه بالصحة أو الخطأ، إنما يمكن أن نراه يعطى تعبيراً عن حقيقة أكثر اكتمالا أو أقل اكتمالا.

(72) يخطئ اللغويون هذه الكلمة، يقولون إن العربية لا تعرف غير التقييم. وأنا أقول: ما الذى يمنع أن نكسب للمعنى لفظا حديدا فيكون لكل من التقييم والتعريف معنى متميز لا يختلط بالآخر؟

كيف يمكن أن نعيّر بين مقولة خاطنة وأخرى صادقة، بين اعتقاد خاطئ وآخر صادق؟ ذاتياً، ليست هناك علامة تميّز الصدق أو الخطأ. ذاتياً، يمكننا فقط أن نتحدّث عن منظور أكثر اتساقاً أو أكثر شمولاً وآخر أقل اتساقاً أو أقل شمولاً. هكذا، في مجال الفكر الخالص، يمكننا فقط أن نحظى بمنظور أحسن وأدعى للرضا أو بأخر أدنى وأقل إرضاء. ولكن حين نتجه باهتمامنا إلى العالم الموضوعي يمكن، عملياً، أن تكون عندنا معايير وأساليب للتحقق. لكن هذه المعايير والأساليب ليست مطلقة. إنها اعتباطية، تقليدية، إرغامية. فإذا كنا بالفعل ضحايا خداع شيطان فرضية ديكارت *Descartes* فلن يمكننا أن نقول له: لقد كشفنا خداعك — إلا إذا قرّر هو، كي يحظى بالضحكة الأخيرة، أن يدعنا نعرف أيّ حمقى قد كنّا! ولكن حتى حينذاك نستطيع أن نكون نحن من يضحك أخيراً فنقول له: إننا عشنا حقاً كل لحظة من لحظات ذلك الوهم.

ما يطلق عليه أفلاطون اسم 'ظن الغير' أو 'الظن المخالف' *allogodoxia* — حين يحظى أحد الناس فكرة شيء ما له كيان فعلي ظاناً إياه شيئاً ما آخر ذا كيان فعلي (189 ب- ج) — هو ظاهرة سيكولوجية. لكن حين يتحدث ثيائيتوس عن ظنّ (الشيء) قبيحاً بدلاً من جميل، فهو يشير لشيء على مستوى مختلف. نحن هنا بآراء منظومة معتقدات لا يمكن أن نصفها بالخطأ إلا من منظور أخلاقي. عبارة ثيائيتوس، كما يلاحظ كورنغورد عن حق (صفحة 117)، تشير إلى الصور (المثّل) وهي بهذا تقع خارج نطاق الثيائيتوس.

على مستوى التفكير كحوار يجريه العقل داخل ذاته، حيث يستخدم العقل رصيده من المفاهيم ليخلق تكوينات جديدة (189 هـ - 190 أ)، يمكننا أن نتحدّث عن الخطأ حين لا يتوافق التكوين الناتج مع تكوين آخر نفضله. التكوين الواحد بذاته لا يمكن أن يكون خطأ. فكرة القنطور *centaur* ليست خطأ؛ إن لها معنى ولها صلاحيتها في عالم الأساطير، ولكن حين يخرج صبي ليجد قنطوراً في الغابة، نقول له: ذلك عالم آخر.

حين أرى شخصاً ما يقترب وأخطئ فأظنه سقراط (191 ب)، هل ينطوي ذلك على مقولة خاطنة؟ يمكن أن نعتبر هذه التجربة توقعاً لم يتحقق. حتى لو أننى، عند رؤيتي للشكل المقرب، قلت لنفسي: "عما قليل سأرى سقراط"، فعندئذ (1) إذا أخذنا ذلك بمعنى: "أعتقد أننى عما قريب سأرى سقراط"، فالعبارة صادقة؛ يمكن أن يخيب الظن، لكن لا يمكن أن نخطئه. ولكن (2) إذا أخذناه باعتباره تنبؤاً، فهو عندئذ، كاحتمال تخيلى، لا هو صادق ولا مخطئ في ذاته، لكن يمكن أن يتضح صدقه أو خطؤه عندما يتشكل الواقع الفعلي. (قارن أرسطو *De Interpretatione*, Aristotle، ch.9، 18a-b، وانظر *Let*

Us Philosophize، الباب الثاني، الفصل 3، الفقرة 14 في طبعة 2008،
الفقرة 13 في طبعة 1998).

فيما أرى، إننا لا نخطئ أبداً فيما بين أفكارنا ذاتها. كان ديكارت
Descartes على صواب؛ حين نتعامل مع مفاهيم واضحة ومحددة فإننا لا
نخطئ. كل خطأ في مجال الأفكار يمكن معالجته بأن نجعل أفكارنا أكثر
وضوحاً وأكثر تحديداً.

لا أحد يمكن أن يظن أن 11 هي 12، لكن يمكن أن يكون أمامنا 11 شيئا
فنظنها 12، أو يمكن أن نظن أن 5 أشياء و 7 أشياء تكون 11 شيئا، وهذه هي
الحالات التي ينطبق عليها إجراء التحقق وحيث يمكننا بالتالي أن نتحدث عن
الصواب والخطأ.

8

حين نتاولنا بالبحث المقولة كمعرفة توجهنا بانتباهنا أولا إلى المقولة
الخطأ. لكن المناشئة تظهر لنا أننا كنا مخطئين إذ سعينا لفهم المقولة الخطأ أولا،
فذلك مستحيل قبل أن نعرف ما المعرفة (200 ج.د).

يطرح ثيايتيتوس القول بأن المعرفة هي اعتقاد (صديق) يدعمه 'لوجوس'
logos (206 ج.). هذا ما ظل أفلاطون يقول به في *المينون* و*الفايدون* و
الجمهورية. لكن ما ذلك الـ 'لوجوس'؟ ما هو الـ 'لوجوس' الذي يمنح الفهم؟
في *الخارميدس* يقول كريتياس في ختام حديثه: "أود الآن أن أعطيك عن هذا
'لوجون' " *nun d' ethelô toutou soi didonai logon*. قد يكون هذا
أول استخدام لعبارة *didonai logon* في المحاورات، ومن الواضح أنها لا
تحمل أي معنى اصطلاحي هنا. إنها جزء من الكلام العادي للهيلينيين وأعتقد
أنها ربما تحتفظ بهذا المعنى العام، غير الاصطلاحي، على امتداد المحاورات،
حتى في *الجمهورية* وفي المحاورات النقدية المتأخرة. إنها تعني ببساطة أن
يبرز المتكلم وجهة نظره ويدعمها بفكر عقلاني. لا أعتقد أن هناك أي شيء في
المحاورات يشير إلى أن عبارة *didonai logon* كانت تعني عند أفلاطون أي
منهج أو إجراء معين.

في *الجمهورية* يجوز أن نعتبر الـ 'لوجوس' اللازم للمعرفة الحقة معادلا
لمسيرة الديالكتيك بأكملها. إلا أننا لا نجد قولا صريحا يبين لنا ما ينفي أن نفهم
من ذلك الـ 'لوجوس'. ربما كان أفلاطون في *ثيايتيتوس* 201- ج وما بعدها

يحاول فحص ذلك المبدأ بتدقيق أكبر. هل يعطينا أفلاطون هنا أو في أي موضع آخر إجابة محدّدة عن السؤال؟ لا أظن ذلك: أعتقد أن الجمهورية تبقى أكمل طرح للأفلاطونية، والديالكتيك في الجمهورية هو ببساطة إعمال العقل، *phronêsis*، الممارسة الحرّة للعقل *nous*.

هكذا تنتهي إلى أن المقولة الصادقة المصحوبة بـ 'لوجوس' لا تنتج برهانا ولا إثباتا، إنما تثمر فكرا متوانما ومتسقًا. الصنق الفلسفي هو أقرب لأن يكون قيمة جمالية: وجهة النظر الفلسفية تكون جيّدة لا حين يمكن إثبات صدقها نهائيا، ولا حين تستعصى على التنفيذ، ولكن حين تكون مُرضية جماليًا.

في قسم يمتدّ بطول خمس من صفحات ستيفانوس (Stephanus 201) ج - 206 ب) تخضع للتمحيص نظرية لعلها كانت رائجة في ذلك الوقت. حيث إن تمحيص النظرية في المحاوره ينتهي برفضها، وحيث إننا لا نعرف النظرية كما طرحها واضعها، فإن أهمية هذا القسم بأكمله تنحصر في دلالاته التاريخية فحسب ولا حاجة بنا لأن نشغل أنفسنا به هنا.

فما محصلة الثيبايتيتوس؟ قد نقول إن أفلاطون حين طرح أخيرا - في مرحلة متأخرة من حياته - السؤال المباشر: ما المعرفة؟ فإنه ينتهي إلى حيث انتهت محاورات 'التعريف'، اليباكرة: أي محاولة لفهم المعرفة بإرجاعها إلى شيء غير المعرفة لا توصلنا لأي نتيجة: الجواب الوحيد الممكن على السؤال هو: المعرفة هي المعرفة: المعرفة هي أن يشهد العقل الوضوح الذاتي للصورة أو لتشكيل من الصور يكون كلاً متسقًا، وليس هذا إلا تنويها لحقيقة ذلك العقل ذاته. المعرفة هي إشعاع ذلك العقل الفاعل الخلاق: المعرفة هي العقل مُشعًا في وضوحه الذاتي. مثل كل ما هو حقيقي، المعرفة في منتهى الأمر سرّ لا يمكن اختزاله في ما هو من خارجه، ولا يقبل التفسير بما هو من خارج الوضوح الذاتي لحقيقة ذاته.

9

يتلاقى موقفي في بعض النقاط مع موقف پروتاجوراس (حسب تاويل أفلاطون له) لكنه يختلف عنه في جوانب رئيسية، كما يختلف عنه موقف أفلاطون. كان پروتاجوراس يرى أن الأحاسيس والمقولات كليهما لا مجال فيهما لجدال. في شأن الأحاسيس، يتفق موقفي أساسًا مع موقف كل من پروتاجوراس وأفلاطون. في شأن المقولات، أتفق مع پروتاجوراس في حدود

حتمية كون المقولة بطريقة ما ذات معنى عند من يقول بتلك المقولة أو يقبل بها. يرى أفلاطون في هذا نسبية relativism خبيثة. يبين أفلاطون أن أى مقولة تشير للمستقبل (كالاتقاد مثلا بأن تصرفا ما سيكون مفيدا)، بما أنها تتعلق بشيء يتجاوز المحتوى الفكرى المباشر للمقولة، يمكن تكذيبها. هذا ينقض رأى پروتاجوراس حيث تتعلق المقولة بالواقع، وفيما يبدو فإن أفلاطون يرى هذا كافيا لتخليصنا من نسبية پروتاجوراس فى محيط المقولات ككل. ولكن ماذا عن مقولات القيم؟ إن شخصا مثل كاليكليس (فى السجورجياس) أو مثل ثراسيماخوس (فى الجمهورية) يجد أن إيقاع الظلم بالآخرين يؤدي للنتائج التى يريها تماما؛ بهذا المعيار تكون مقولاته صحيحة دائما. (إن أيهما قد يخطئ: التقدير، لكن ثراسيماخوس يقبل بأن من يخطئ يستحق أن يحيق به الخراب؛ السوبرمان الحق لا يرتكب أخطاء). هذا النوع من النسبية لا سبيل لدحضه منطقيًا. فى مواجهة ثراسيماخوس لا يمكنك غير أن تعرض مثال سقراط؛ فى مواجهة أخلاقيات النفعية الدنيوية لا يمكنك إلا أن تعرض مثال الروح السوية المكتملة. هذه المثال ليست واقعا يمكن اكتشافه، وليست مقولات صادقة يمكن إثباتها بالبرهان: إنها رؤى تعلن إعلان نبوءة.

مسألة الصدق والخطأ، التى خصها الفلاسفة المحدثون بملاء مكاتب بأكملها من الأبحاث، ليست من مسائل الفلسفة الحقّة. وهى ليست مسألة واحدة بل حزمة من المسائل تتطلب مقاربات مختلفة: تدقيق وتهذيب اللغة، التحليل السيكولوجى، تطوير منهجيات كشفية، إقرار معايير للتحقق. مناقشات المحدثين يعيها فشلهم فى عزل هذه الجوانب المختلفة عن بعضها؛ ويعيها افتراضهم أنه فى أى من هذه المقاربات أو فيها كلها فإن ما يصحّ فى مجال من المعرفة أو الممارسة يصحّ فى كلّ المجالات؛ وفوق كل شيء يعيها الخلط بين مسألة الصدق والخطأ الإمبريقية ومسائل الحقيقة والقيمة الميتافيزيقية.

فى أول تعريف للمعرفة اقترحه ثيايتيتوس، المعرفة *epistêmê* ليست غير الحسن *aisthêsis* (وهذا يعادل مقولة پروتاجوراس 'الإنسان هو المعيار')، والحسن هو معطى مباشر فى الوعي. هذا يدعم وفى نفس الوقت يستند كل ما فى مقولة پروتاجوراس من صدق. المعطى المباشر فى الوعي يتعلق بما هو كائن *tau ontos* بمعنى صادق إلا أنه محدود، تظهر المناقشة عدم كفايته.

الدثيائيتيوس توضيح وتبرير للتمييز الأفلاطوني بين المعرفة *epistêmê* والظن *doxa*. كل مجال التجربة الإمبريقية خاضع لمبدأ التحول الهيراكلتيي Heraclitian ولنسبية بروتاجوراس. لو أن ذلك كان كل ما هنالك لما كانت هناك معرفة. أن نرى في الدثيائيتيوس مراجعة لموقف أفلاطون في الجمهورية يعني فشلا تاما في فهم أفلاطون. في مجموع أعمال أفلاطون، الدثيائيتيوس بمثابة ملحق للجمهورية.

عند سقراط كانت هناك المعرفة في جانب والجهل في الجانب الآخر. كان هذا كل ما يحتاجه في أداء رسالته: أن يجعل الناس يعترفون بجهلهم ويسعون للفهم. وجد أفلاطون أن منطق الظلال بين المعرفة والجهل ليست فقط مهمة لأغراض العيش العملية، إنما هي في الواقع تستحق الكثير من اهتمام الساعين للمعرفة، المعرضين لأن يتوقفوا عند الظلال متوهمين أنهم قد بلغوا الغاية. هذا هو إلى حد كبير حالنا اليوم، بإمپيريقيتنا وعلميتنا⁽⁷³⁾ scientism وحصر الفلسفة في نطاق عدد من التخصصات 'العلمية' في الدثيائيتيوس كما في الخط المنقسم وفي أمثولة الكهف، أراد أفلاطون أن يبين خطأ هذه النظرة.

من السخف أن يقال أن لا ذكر في الدثيائيتيوس "النظرية الصور المعقولة غير المتجسدة" (Burnet) *Greek Philosophy: Thales to Plato*، (p.247)، لمجرد أن المفردات المعينة المستخدمة في الدثيائيتيوس لا تستخدم هنا، بينما نجد هنا تأكيد حقيقة عالم المعقول وتأكيد أهميته الحيوية في أوضح عبارة. حين يعود كاتب مبدع، لم يكف أبدا عن تحذيرنا من خداع الصياغات الثابتة، فيعتبر من جديد عن موقفه ومنظوره للمسائل الجوهرية، فإنه يكون مما يتعارض وطبيعة الأشياء أن نتوقع منه أن يستخدم بالضبط الصياغات اللفظية

(73) أجدني مضطرا لأن أعود لتوضيح موقفى من العلم والعلوم، فهو معرض لأن يساء فهمه إساءة بالغة الخطر. حين كتبت في المكان الأول باللغة الإنجليزية كنت أخطب حضرة وثقافة تشرتبت تماما بالتفكير العلمى ولا يخشى أبدا أن تنكر الأهمية الحيوية للعلم أو تغفل عنها. وكان همى أن أبين أن أساليب العلوم الموضوعية لا تخدم سوى الإنسان لفهم داخل ذاته وترتيب قيمه وغياقه النهائية. في هذا لا يخدعنا لا العلم بمنهجه المتوجّه للعالم الخارجى ولا الدين بما يفرضه على الإنسان من خارج الإنسان، بل نحتاج النظر فى داخلنا وإخضاع كل ما تلقيناه من مصدر خارجى للمسائلة العقلانية. هذا عمل الفلسفة. فهل لنا بحاجة لأن أصبح بلاء صوتى: نحن فى مجتمعتنا التى تعانى الفقر والمرض والجهل لا خلاص لنا بل لا بقاء لنا إلا بالعلم؟ — العلم كما تبلور فى المجتمعات التى تقدمت، لا 'العلم' الذى يجتزونه من كتب السلف.

التي كان قد استخدمها من قبل. إن بقاء المفاهيم التي تسكن تحت الكلمات على ما كانت عليه، لا يغيب إلا عن عقل شوشته مفاهيم مسبقة خاطئة.

10

دعوني أحاول تلخيص الموضوع. لَنَاخذ كلمة 'المعرفة' بأوسع مدلول ممكن (بكلمات أخرى، لنستخدم الكلمة استخداما متساهلا، غير مقيد). في أدنى مستوى عندنا ظهور إحساس ما sensation في مجال الوعي. هذا مجرد حدث، انفعال سلبي passive affection. لا يصبح الإحساس إدراكا حسيًا perception إلا حين يميز (يُعزل) ويخصّ بصفة، أي حين يُدرج تحت مفهوم. الإدراك الحسي، مثل قاعدته الحسية، لا مجال فيه للخطأ. حين تعطي المفاهيم تعبيرًا صريحًا عن طريق اللغة (ولكن هل يمكن أن تكون هناك أبدا مفاهيم في انفصال عن لغة ما، عن تمثيل رمزي ما؟) فقد يُنسب إلى المدرك الحسي اسم غير اسمه، اسم خطأ. طفل بدأ حديثًا يتعلم الكلام قد يصف شيئًا أخضر بأنه أحمر، لأن ماما حين قالت لأول مرة "هذا أحمر" تصانف أن الطفل لم يكن ينظر إلى الشيء الذي قصدت ماما أن تشير إليه، بل إلى شيء أخضر. ليس لهذا دلالة إبستمولوجية أبعد مما لكون الشيء الواحد يسمى أحمر أو red أو rouge أو rot. حين توصل المفاهيم الأولية في عبارة ("تلك الشجرة بلا ورق") يمكن أن نجد عندنا ظواهر سيكولوجية مختلفة: الخطأ، الوهم، الخداع. هذه الظواهر، أيًا كانت أهميتها العملية أو أهميتها كمادة للبحث العلمي الموضوعي، ليست بذات دلالة إبستمولوجية (إلا إذا أردنا الحديث عن إبستمولوجية إمبريقية كفرع من السيكلوجيا). لكن من الممكن أن تكون عندنا مفاهيم من المرتبة الثانية أو المرتبة الثالثة. حين توصل هذه بمفاهيم أولية (من المرتبة الأولى) في عبارة ("توجد تسعة كواكب في المجموعة الشمسية") تكون عندنا مقولة إمبريقية يمكن التحقق من صحتها أو خطئها. هذا مجال العلم الموضوعي. حين توصل مفاهيم من المرتبة الثانية أو المرتبة الثالثة فقط ("الكرامة الإنسانية واجبة الاحترام"، "المقولة إما أن تكون صوابًا أو خطأ") تكون عندنا معان لها كينونتها وحققتها في كون معنى universe of discourse. هذه المعاني لا يمكن التحقق من صحتها أو تخطئتها بالاختبارات الإمبريقية ولا بأساليب الإثبات المنطقية. يمكن فقط تقييمها بمعايير قيم ومثل نتبناها (بالنسبة للمقولات الأخلاقية) أو بمعايير مفاهيم نختر أن نتخذها (بالنسبة للمقولات النظرية). قد ينكر شخص ما أن تكون الكرامة الإنسانية قيمة مطلقة، ولا يمكنك أن تبرهن على خطأ هذا الشخص؛ يمكنك فقط أن تقول له:

"أنت وحش بانس". أن تكون المقولة إما صوابا أو خطأ، هذا يصدق في منطق أرسطو Aristotle ولكن ليس في كل منطق. نحن هنا في مجال الفلسفة والشعر.

حين نقرأ في السوفيست أن الحوار هو نسج الصور معًا، *tên allêlôn tôn eidôn sumplokên ho logos gegonen hêmin* (259 هـ)، فإن أفلاطون لا يعطينا في هذا مجازا أو تشبيها موقفا فحسب، إنما يعطينا صورة صادقة لطبيعة التفكير الفلسفي. التفلسف هو تكوين مشهد landscape متكامل بوصل المفاهيم معا.

يقول فيلد G. C. Field: "كان الهدف النهائي لكل أنشطة الأكاديميا، على الأقل بالنسبة لأفلاطون، هو الوصول إلى صدق فلسفي نهائي" (*Plato and his Contemporaries*, 1930، 1948، صفحة 27). أشعر بأن أفلاطون كان ليعترض بشدة على هذه الصياغة، إذ أن 'الصدق الفلسفي النهائي' لا يتجاوز طاقة الكائنات الإنسانية فحسب، بل يتجاوز طاقة كل عقل محدود. أعتقد أن أفلاطون كان ليفضل القول بأن الغاية من أنشطة الأكاديميا كان تحقيق مزاج فلسفي وتوجه عقلي فلسفي، فالرؤية التي نحظى بها عند قمة مسيرة الصعود الفلسفي (كما توصف في الجمهورية والمادية والرسالة السابعة) ليست أن يمسك الذهن بمقولة صادقة بل هي تجربة كمال — كمال يصبح مقياسا ومعيارا لفكرنا من بعد ذلك، وليست صدقا يمكن صياغته أو نقله في شكل نهائي. ذلك الفهم الذي يأتي من داخلنا، ولا يأتي إلا من داخلنا، لا يمكن احتواؤه في أي صياغة ثابتة، ولأنه لا يمكن أسره في صياغة محددة، فإن أي صياغة كهذه تكون بالضرورة أسطورية ويمكن هدمها وينبغي هدمها لكي لا تتحول إلى خرافة تستعبد العقل بدلا من أن تتيح له سبيلا للتواصل مع الحقيقة. هذه في نظري هي خلاصة إستمولوجيا أفلاطون الميتافيزيقية وذلك درس ما زلنا في أمس الحاجة لاستيعابه. عظماء الفلاسفة جميعهم يعطوننا مشاهد من الحقيقة، رؤى أحلام، كلها قيمة، لكن لا يمكن لأيةها أن ينطق صدقا. وفي رأبي أن هذا لا يقود إلى نسبية عدمية لأن الأرضية الأمانة التي نحتاجها توفرها لنا نزاهة العقل الفاعل التي تعطينا مفاهيم ذات مغزى للعقلانية والقيم المطلقة.

كل فلسفة تزعم الوصول إلى مقولات صدق نهائية تنتج توهمًا بالحكمة خادعا، *amathia*، تجب إزالتها بالفلسفة الديالكتيكية الحقّة. أهم وأقيم واجب دائم للفلسفة هو في المكان الأول ليس هدم الخطأ، بل هدم الصدق الذي يتباهى بزعم أنه صدق مطلق. المهمة الأخرى للفلسفة أن تخلق ما يجب أن يخضع بدوره للهدم. الشيء الوحيد الذي يبقى هو الفعالية الخلاقة للعقل الفاعل.

هل يصنق أحد - رغم ما يبدو من أن سبينوزا Spinoza كان يصنق - أن كتابا في الفلسفة يمكن أن يكتب بطرح عدد من المسلمات postulates واستخراج نتائج محدّدة منها بالاستدلال المنطقي؟ أنا أعتقد أن هذه أصغاث أحلام. حتى لو كتب الكتاب بأكمله (افتراضاته وكل ما فيه) بلغة المنطق الرمزي symbolic logic، سننتهي إلى شيء من اثنين: (1) إما أن تكون الرموز قيما جبرية خالصة، وعندئذ يمكن معالجتها وفق قواعد محدّدة وتنتج نتائج سليمة شكليًا لكنها خاوية من المعنى تماما؛ (2) أو، إذا كان للرموز أيّ محتوى، فإننا سنجدّها تتحدّى أيّ محاولة لتعريفها، إذ تظل معانيها، في عداد وإصرار دائم، تسيل خارج حدود أي تعريف، تاركة نفسها منفتحة على مختلف التاويلات الخلاقة.

لعل أفلاطون كان يراوده أحيانا حلم امتلاك علم للفلسفة، ويكون القانون المنظم لذلك العلم هو الديالكتيك الأفلاطوني المتميّز عن منهج الحوار السقراطي. أخذ أرسطو ذلك الحلم مأخذ الجدّ، وطوّر له قانونا دقيق التفصيل استخدمه في 'فلسفته الأولى' (74). واستهوى ذلك الحلم فلاسفة آخرين على مدى العصور - ديكارت Descartes، لايبنتس Leibniz، كُنت Kant، مدرسة الفلسفة التحليلية Analytic Philosophy. لم ينجح أحد في تأسيس فلسفة علمية يقبلها بهذا الوصف كل المختصين المؤهلين للحكم، وكان هذا حريّا أن يقنعهم بأن الحلم حلم كاذب. إنني أرى أنه لا يمكن أن يكون هناك علم للفلسفة لأن الفلسفة لا تستهدف المعرفة حسب فهم العلماء للمعرفة. الفلسفة نشاط مبدع ينتج أكوانا معقولة من خلق الفلسفة ذاتها - معقولة لأنها ببساطة نتاج فاعلية العقل. الفلسفة لا تكتشف أي مقولات صدق عن العالم، إنما تضيء المعقولة على العالم. أليس للفلسفة إذن دلالة في السعي للحقيقة النهائية؟ إننا نجد في ذات عقولنا الفاعل الخلاق أكمل حقيقة يمكن لنا أبدا أن نلقاها، ونفترض أن الحقيقة النهائية لا يدّ أن تكون هكذا وإلا فإنها لا يمكن أن تكون معقولة على أي نحو. لك أن تسمي هذا إيمانا. إنه بالتأكيد لا هو قابل للتحقق منه إمبيريقيا ولا هو قابل للإثبات النظري. أهنالك بديل آخر متاح لنا؟ أي بديل؟ أن نقبل صدقاً موحى به؟ لن أسهب القول هنا عن سخف فكرة الوحي؛ أكتفي بالقول بأن الوثوق في

(74) 'الفلسفة الأولى'، هكذا كان أرسطو يشير في الأصل لما عُرف فيما بعد باسم الميتافيزيقا. لكن لملي نسبت لأرسطو ما لم يزع الرجل لنفسه، فكتب الميتافيزيقا ليس مبنيا على استدلال قياسي صرف على طريقة سبينوزا. كما أراي ظلمت كُنت بنكره في هذا السياق.

الوحي يعنى التنازل عن حقنا الأصيل فى العقلانية. لكن أن نقبل القول بأن ما هو معطى إمبيريقيا هو كل ما هنالك يعنى التنازل عن حقنا الأصيل فى الإنسانية.

الفصل العاشر

السوفيست

1

السوفيست صدفة تحوى لؤلؤة بالغة الندرة. فى كسانها الخارجى هى مران فى منهج التجميع والتقسيم Collection and Division الذى وصفه أفلاطون أولا فى الديالكتيكس. فى خلال المران تثار مسألة المقولات السلبية ونرى أن لها بُعدين، بعدا منطقيا وبعدا أونطولوجيا. المسألة المنطقية تجد لها لا وافيلا يزال الفلاسفة المحدثون يتجاهلونه ولا يدركون كم يخسرون بتجاهلهم هذا. معالجة البعد الأونطولوجى تهدينا الجوهرة الثمينة التى أشرت إليها.

تقودنا الديالكتيكس إلى نتيجة مؤداها أنه حتى مع إضافة الـ 'لوجوس' فإن فكرة الشئ الموضوعى المحدد لا تعطينا معرفة. توزع السوفيست بأن إضافة الـ 'لوجوس' للفكرة العامة general notion تُنتج معرفة. ولكن أى معرفة؟ إنها المعرفة التى يضعها الخط المنقسم فى القسم الأدنى من المستوى الأعلى؛ هذه هى المعرفة العلمية. إلا أن هذه (مع كل الاحترام لكورنفورد Cornford) ليست هى المعرفة التى تنتج عن الديالكتيك.

فى الديالكتيكس نلتقى بتيارين من الفكر، كلاهما يتعلقان بالمعرفة لكنهما فيما عدا ذلك ينتميان لعالمين مختلفين لم يجمعهما أفلاطون فى منظومة موحدة أبدا إلا فى النظرية المتمثلة فى رسم الخط المنقسم. فعلى ناحية، نجد رؤية الصور والفهم الذى يولد داخل الروح بفعل الديالكتيك، ذلك الفهم الذى لا يمكن أسره فى صياغات لغوية محددة. بعبارة الرسالة السابعة (وهذه الرسالة سواء كان أفلاطون قد كتبها فعلا أو كانت قد نسبت إليه خطأ، فإن مضمونها الفلسفى أفلاطونى أصيل): "إذ أن هذه المعرفة ليست شيئا يمكن وضعه فى كلمات مثل العلوم الأخرى، إنما بعد مداومة الحوار طويلا بين المعلم والتلميذ، والسعى

المشترك، فجأة، كمثل ما ينبثق الضوء ساطعا حين توقد نار، تولد المعرفة في الروح وعلى الفور تغدئ نفسها بنفسها" (الرسالة السابعة، 341 ج - د. في الأصل الإنجليزي استخدمت ترجمة جلين ر. مورو Glenn R. Morrow، وترجمت هنا عن ترجمته.) وعلى الناحية الأخرى نجد منهج التجميع والتقسيم الذي جاء ذكره لأول مرة في تلك المحاور (الهامبروس، 264-266)، وهو تكتيك للتصنيف والتعريف الشكلى يجد تطبيقه الأساسى فى عالم الظواهر، ولا يمكن تطبيقه على المفاهيم إلا حين تقحم عليها الموضوعية والثبات. النوع الأول من المعرفة هو ما تعنى به الجمهورية أساسا، ويوضع فى أعلى مرتبة فى الخط المنقسم. النوع الثانى مكانه الصحيح فى المستوى الأدنى من القسم الأعلى.

تعمل طريقة التجميع والتقسيم، فى التطبيق، بوسائل اعتباطية *ad hoc* تماما، ولا يكون الحكم على صلاحية النتائج التى تصل إليها إلا بمعايير پراجماتية. وهى لا صلة لها بالتفكير الفلسفى أو بالفهم الفلسفى. وهذه الطريقة لا علاقة لها بطريقة الحوار السقراطى أو بما يطلقون عليه الاستقراء السقراطى 'epagôgê:induction'. هل يمكن لأحد أن يعتبر التقسيم المستخدم للوصول إلى تعريف السقراطى عملية عقلانية (احترت فى أن أجد كلمة بديلة عن هذه)؟ أليست العملية كلها تكتيكا تخيليا يعطينا وصفا تخيليا؟

يقول أرسطو فى ميثافيزيقا، 1078b، XIII.4 : "شيان يمكن أن يُنسبنا عن حق إلى سقراط — الحجج الاستقرائية والتعريفات الكلية". إننا مستكينون لسطوة مرجعية أرسطو إلى حد أن هذا الزعم قد أصبح عقيدة لا تخضع لمساءلة. يقول فيلد G. C. Field مثلا: "نعرف أن أفلاطون، بلا شك بوحى من سقراط، كان يعزو أهمية كبرى للبحث فى، والتوصل إلى، تعريفات صحيحة (Plato and his Contemporaries)، 1930، 1948، (p.41). ت ظهر المحاورات بلا شك أن أفلاطون كانت تستهويه مسألة التعريف. لكنى أعتقد أن القول بأن سقراط كان يبحث عن تعريفات هو سوء فهم. فيما أرى، لم يكن سقراط يطلب تعريفات بل كان يطلب جلاء الأفكار وإزالة ما يعترىها من غموض وتشويش وخلط. إن أمثلة الحوار السقراطى التى ترد فى المحاورات لا تنتهى إلى تعريفات، وليس ذلك لأنه لم يكن من الممكن إيجاد تعريفات تصلح عمليا، وإنما لأن مثل هذه التعريفات ما كانت لتخدم غرض سقراط. إنها لا تمنح الفهم، والفهم كان غاية سقراط. التعريفات التى توردها المحاورات أحيانا باعتبارها عينة أو نموذجا للتعريف، لا صلة لأى منها بالأفكار التى كانت هم سقراط الأعظم. تلك النماذج كلها تتناول إما مفاهيم رياضية أو مفاهيم فيزيقية،

وهذه ربما كانت تشغل أفلاطون، لكنها لم تكن الشغل الشاغل لسقراط كما يصوره أفلاطون نفسه في محاورات الفترتين الباكرة والوسطى. وأيضاً، لا اعتقد أن أمثلة القياس التمثيلي analogical reasoning التي يعتمد عليها سقراط في حواراته ينبغي أن ينظر إليها كخُجج استقرائية inductive؛ قد يصح أن توصف كنوع من 'تجميع' أفلاطون، بدون 'التقسيم' الذي يليه والذي يعطى التعريف الشكلي.

صحيح أننا كثيراً ما نلقى في المحاورات الباكرة كلمات يمكن أن نستخدم في ترجمتها كلمة 'يُعرف' أو 'تعريف'، لكنه لا يكون أبداً تعريفاً وفق المفهوم الاصطلاحي. (هاك بعض الأمثلة الواردة في محاوراة واحدة: الخارمديس، في 163-د horisai، في 167-هـ diorizomai، في 171-أ hōristai، في 171-أ أيضاً hōrithē، إلخ.)

في مقاله التمهيدى لـ *The Cambridge Companion to Plato* يقول ريتشارد كراوت Richard Kraut إن الجمهورية تعطى "تعريفات للعدل، الشجاعة، الاتزان، الحكمة" (*The Cambridge Companion to Plato*)، ed. Richard Kraut، 1992، (p.3)، وأجده لزاماً على أن أخالفه الرأى. الباب الأول من الجمهورية حيث يُطلب تعريف للعدل ينتهى بالحيرة كما في محاورات 'التعريف' الباكرة. فيما يلي من الجمهورية يشكل أفلاطون نموذج دولة عادلة ليعطينا رسماً تصويرياً للعدل. الشجاعة والاتزان والحكمة كلها تناقش بالطبع، لكنى لا أستطيع أن أرى، لا فى الجمهورية ولا فى غيرها من أعمال أفلاطون، أين نجد تعريفاً لآى من هذه الفضائل أو لغيرها من الفضائل الأخلاقية (باستثناء مقترحات شركاء الحوار فى محاورات 'التعريف'، والتي يتضح فى كل حالة أنها غير مرضية).

فى صدد مقارنة طريقة أفلاطون فى التجميع والتقسيم بطريقة سقراط يقول كورنفورد Cornford إن طريقة سقراط تتكوّن من مرحلتين. فى المرحلة الأولى تنقد الاقتراحات التي يقدمها المجاب فى التفتيد. تنتهى هذه المرحلة بالحيرة، *aporia*. يكون المجاب "الآن جاهزاً للبحث التعاونى". ويقول كورنفورد: "يمضى البحث اللاحق عادة بنفس الطريقة: سلسلة من الاقتراحات تنقد وتعدل بإدخال اعتبارات جديدة". علينا أن نلاحظ أن هذا هو نفس ما لقيناه فى 'المرحلة الأولى'. يمضى كورنفورد بعد ذلك فيقول: "ينبغي أن تكون النهاية هى التعريف الصحيح للمعنى أو 'الصورة' التي كانت طوال الوقت تتزايد وضوحاً" (صفحة 184). خلافاً لكورنفورد ومعظم المعلقين فإننى أقرّر أن الطريقة السقراطية ليس لها مرحلة ثانية. فأين نجد مثلاً لمثل هذا

التعريف الصحيح في أى موضع من أعمال أفلاطون كلها؟ في الجمهورية، بعد الباب الأول الذى ينتهى بالحيرة المعهودة، لا يمضى البحث بالطريقة السقراطية. فى الأبواب التسعة التالية لا يمخص 'سقراط' آراء رفاق الحوار بل يقم آراءه هو، وللوصول إلى فكرة العدل لا يلجا أفلاطون للتمحيص النقدى بل يشيد نمونجا ويعرض نظرية تخيلية. كل هذا سليم وملامم بطريقته الخاصة. هذا ما أسميه بالجانب الإبداعي للفلسفة. لكنه ليس جزءا من الحوار السقراطي، فالحوار السقراطي هدفه الوحيد أن يقود إلى الحيرة التى تدفعنا لأن نقرّ بجهلنا وأن نعترف بأن كل ما يمكننا أن نعرف عن العدل هو أنه بالعدل يكون كل فعل عادل عادلا. هذا الاعتراف بالجهل هو الذى يبقينا فى تواصل حتى مع نبع المفاهيم بداخلنا، الذى هو ذلك الشيء فىنا الذى يزدهر حين نلتزم العدل وينوى حين نجافى العدل.

حين نطلب المعنى الحقّ للعدل بالطريقة السقراطية فإننا لا نصل إلى صيغة محدّدة، بل نكتسب بصيرة. إذا حاولنا أن نحدد اللفظ بطريقة أفلاطون الجديدة، نصل إلى تعريف يصلح لعدّة أغراض عملية. يمكن للناس عندئذ أن يستخدموا التعريف ببراعة، لكن ذلك لا يؤمن بصيرة فى طبيعة العدل. يمكن أن يكون عندنا مشرّعون يصوغون قوانين نافعة وقضاة يصدون أحكاما لا اعتراض عليها، ومع ذلك يقترفون الظلم فى حياتهم الخاصة دون وخزة ضمير. لا شيء غير البصيرة فى ذلك الذى نجد فيه قيمتنا الحقّة، مدعومة بتمحيص لأفكارنا دائم لا ينسى، وهو تمحيص لا يعطينا أبدا معرفة محدّدة — تلك البصيرة ولا شيء سواها هى ما يعطينا ذلك الحسّ بالعدل الذى يؤرّقنا متى أخطأنا.

أعتقد أنه لا جدوى من محاولة إيجاد نقاط التقاء بين الطريقة السقراطية وطريقة التجميع والتقسيم. هذه طريقة لتنظيم معرفتنا بالموجودات الموضوعية. هذا مجال العلم ممّيزا عن الفلسفة. حقّا تعطينا هذه الطريقة التعريف الشكلى بالجنس والفصل (= الصفة المميزة) *genus and differentia*، وهو ما يعده البعض 'التعريف' بمعناه الصحيح. كل ما تستطيعه الطريقة هو أن تعيننا على ترتيب معرفة نملكها بالفعل، أو متاح لنا امتلاكها، بطريقة منظمة بسيرة الاستخدام. هذا تكتيك ميثودولوجى لا انعكاس له على أساسيات نظرية المعرفة، أيّا ما كانت قيمته فى مختلف حقول العلم.

إن نعلنى تعريفا لأى شيء يعادل أن نجعله شيئا مجففا استنزف منه ماء الحياة. فى تلك الحالة فقط يكون تعريفا صالحا للاستخدام. لكنه عندئذ لا يظهر جوهر الشيء المعرف. يحاول سقراط أن يشرح لمينون ما يطلب حين يسأل عن الطبيعة العامة لشيء ما فيعطيه كنموذج تعريفا للشكل. وفى مواضع أخرى

في المحاورات نجد تعريفات أخرى نموذجية. لماذا إذن لا يمكننا الحصول على تعريف للفضيلة؟ السبب هو أن الفضيلة حقيقة، شيء حتى نابض لا يمكن احتواؤه في صيغة ثابتة.

2

يبدو أن أفلاطون كان قد خطط للسوفيست والبروليتيكيوس والـ فيلسوفس كنماذج للمران في طريقة التجميع والتقسيم التي كان قد ابتكرها والتي بنى عليها أمالا عراضا. لكنه حين كتب البروليتيكيوس رأى أن الطريقة ليس بها قصور فحسب، وليست فحسب أقل قيمة مما بدا له في وهج حماسه الأول، وإنما كانت في الواقع معيبة في صميمها. أدرك أن تعريف الفيلسوف بتلك الطريقة سيكون أسوأ من أن يوسم بمجرد انعدام الفائدة. ربما كان هذا هو السبب، أو سبب بين أسباب، وراء تخليه عن كتابة الفيلسوفس.

إن يكن الأمر كذلك، فلعل أفلاطون أراد من البروليتيكيوس أن يظهر عيوب وحدود طريقة التجميع والتقسيم. من الجائز أنه حدث، عندما قدم أفلاطون الطريقة لدارسي الأكاديمية، أنها استحوذت على ألبابهم وأنهم انتظروا منها الكثير. ففي البروليتيكيوس يصنع أفلاطون ما كان سقراط يصنع في حوارهِ. قد يكون تعريف ما صالحا لفرض معين، في سياق معين، لكن لا تعريف يكون واقيا تماما أبدا. الفرق بين محاورات الحوار السقراطي والمحاورات النقدية الأفلاطونية فرق سطحي. في تلك يُظهر سقراط عدم كفاية التعريفات التي يقترحها رفيق الحوار؛ وفي هذه الأخيرة، يكبح 'الساثل' جماح فكره، يعاود النظر فيما قال، يتراجع ويرجع فيما قال. أعتقد أن أفلاطون أراد أيضا لقرّائه أن يروا أننا، حتى حين نصل إلى تعريف مقبول، تعريف صالح عمليا، للسوفسطي مثلا أو لرجل الدولة، فإن كل ما نكون قد توصلنا إليه، لن يكون إلا تحديدا خارجيا، تصنيفا شكليا، لا ينبئنا بشيء عن الحقيقة الداخلية للشيء المعرف. لذلك فإن تعريف الفيلسوف بنفس تلك الطريقة ما كان ليفيدنا كثيرا.

إجراء التجميع والتقسيم يتحرك من البداية للنهاية في محيط الأشباح والظلال *eidōla*. ما كان من الممكن أن يخطر ببال أفلاطون أبدا أن تقود هذه الطريقة إلى الفهم الفلسفي. إن تعريفا نصل إليه بطريقة التجميع والتقسيم – مهما بلغ اتساع وشمول التجميع، ومهما بلغنا من العناية والدقة في التقسيم –

يعطينا ظنا *doxa* وليس معرفة *epistêmê*. كما بيّنت لنا الـ *دِيالِيبَاتِيْتِيُوس*، 'المعرفة' الإمبريقية، حتى حين تكون مصحوبة بتعليل *logos*، تظل منقوصة.

كان أفلاطون يمارس التجريب في فكرة التجميع والتقسيم. من الواضح أنه ظلّ يغير مفهومه للطريقة التي رسم خطوطها العربية أولاً في الـ *دِيالِيبَاتِيُوس*. في الـ *سوفيست* والـ *دِيالِيبَاتِيُوس* والـ *دِيالِيبَاتِيُوس* لا يلتزم تطبيقه للطريقة بنسق منتظم، ويبدو لي أنه أدرك أن الآمال التي عُقدت عليها كان مبالغاً فيها. في نزوة حماسه للطريقة أطلق أفلاطون عليها اسم الـ *دِيالِيبَاتِيُوس*. أن نرى في ذلك أكثر من كونه مثالا آخر على ما نعرفه عن أفلاطون من لامبالاة بأمر المصطلحات لن يُكسبنا غير التخبُّط والخلط.

3

وقت أن أخذ أفلاطون يكتب المجموعة الأخيرة من محاوراته، كان قد أدرك أن الصور، التي يسكن فيها كل معنى وكل قيمة، تفقد صلتها بالحياة الإنسانية إذا لم نجد لها في واقعنا المعاش في المكان والزمان. كان قد أدرك كم هو مهم للحياة الإنسانية أن يلتحم مجال المعقول ومجال المحسوس في عالم موحد في النظرية كما هو موحد في الواقع.

في 241- ديبير أفلاطون ممالة الـ *ماكينونة*، ثم يقول: كي ندافع عن موقفنا، سيكون لزاماً علينا أن نضع تحت مِخْلَ الاختبار مبدأ والدنا *پارمنيديس* *Parmenides*، وأن نبين أن الـ *ماكانن* على نحو ما هو *كانن*، وأيضاً أن الـ *كانن* هو على نحو ما غير *كانن*، *ton tou patros Parmenidou logon kai anagkaion hêmin amunomenois estai basanizein biazesthai to te mê on hôs esti kata ti kai to on au palin hôs ouk esti pêi*. هذا هو كل موضوع الـ *پارمنيديس* والموضوع الرئيسي للـ *سوفيست*. علينا أن نكون واضحين الفكر بشأن معنى الـ *كانن*، حين نقصد بذلك ما هو حقيقي. المفهوم الوحيد المتسق لما هو *كانن* هو المفهوم الذي نستمدّه من الحقيقة التي نجدها أحياناً في ذاته كشخص حيّ عاقل. ذلك هو المضمون النهائي لاعتبار القوّة *dunamis* علامة مميزة للحقيقة. كان *ايتيهد* *Whitehead* على حقّ إذ وجد هذه الفكرة ضرورية لفلسفة أفلاطونية رشيدة.

ما كانت تتطوى عليه الـ *پارمنيديس* أصبح عنه صراحة في الـ *سوفيست*. لكن هذا لم يكن توجهها جديدا لأفلاطون. ظلل الكهف، المعرفة المنفوعة والكينونة المنفوعة في الجزء الأدنى من الخط المنقسم (الجمهورية)، زيف وخداع كل ما ندرکه عن طريق الجسد (الساميون)، الطبيعة المتحوّلة الزلقة لكل ما نحاول الإمساك به في ممارسة الحوار السقراطي — كل هذا يقع في نطاق الـ *to mē on*. لم يكن أفلاطون يفعل غير أن يعطينا تعبيراً جديداً خلافاً عن البصيرة الأسامية والمنظور الأساسي لسقراط.

إذ شرع أفلاطون يحدّد معنى الـ *to on* وجد أن إسهامات الفلاسفة الأوائل (كوزمولوجيين وفيزيقيين) لم تكن أفضل من حواديت العجائز؛ ليس لأنها كانت أساطير، فأسمى المبادئ وأعمق البصائر الفلسفية لا بد بالضرورة أن تأتي في كساء أسطورة؛ ولكن لأن تلك المحاولات، إذ سعت لأن تجد الحقيقة النهائية في العالم 'الخارجي'، كان حتماً أن تضلّ السبيل، ويزيح أفلاطون جهودهم جانباً ببساطة. لبيان معنى الحقيقة يرجع أفلاطون إلى تمييز سقراط بين المعقول، وهو مجال الحقيقة، والمحسوس، الذي يستعير ما له من شبه - الحقيقة من مجال المعقول. بين قدامي الفلاسفة، لا يستحقّ التمهيص غير *پارمنيديس*، الذي عدل الحقيقة بالمعقولة، والرسالة المللية لـ *هيراكليطوس* *Heraclitus*، الذي رأى أن العالم المتحوّل غير حقيقي ولا يعطينا أى معرفة. كل هذا كان أفلاطون قد بيّنه تماماً وبوضوح في الجمهورية.

أن يقول أحد إن أفلاطون في تمحيصه لمبدأ *پارمنيديس* في الـ *سوفيست* بحاجة في الأسماء (كما يقول *كورنفورد* *Cornford*) يعني أن القائل قد فاته القصد. في الفلسفة الحقّة لا نكون معنيين بالأشياء بل بالمعاني. أن نسأل ما إذا كنا نستطيع أن نسمّي الحقيقي باسم 'الواحد' أو أن نسمّي الواحد باسم 'الحقيقي' يعني أننا نسأل ما إذا كان مفهوم 'الواحد' هو نفسه مفهوم 'الحقيقي'. خلاصة الـ *پارمنيديس* التي تتكرّر (أو تستبق) في الـ *سوفيست* هي أننا كي نفكر نحتاج تعدّد المفاهيم؛ لكنّ بمفاهيم متعدّدة منفصلة تماماً عن بعضها البعض لا يمكن أن يكون هناك فهم؛ كي نفهم نحتاج أن نوحّد المتعدّد في كلّ. هذا أساس الديالكتيك. قد لا يكون 'الغريب' في الـ *سوفيست* قد استخدم ما يحسبه الباحثون 'مصطلحات لنظرية الصور'. هذا لا يقدّم ولا يؤخّر: إنه كان طوال الوقت يستخدم مفاهيم ومبادئ أفلاطونية تماماً.

في معارضة المنظور المادّي، يؤكد أفلاطون حقيقة (وددت لو أقول 'حقيقتية') المعقول — المعقول خالصاً نقيّاً، مستقلاً تماماً عن كل واقع. يؤكد أولاً حقيقة الروح، لا كشيء فعلى (واقعي) له نفس نوع الوجود الذي للجسد

(الذي وُصف بأنه مرئي ومحسوس) بل كقوة معقولة ومجال للمعقول (246 هـ). كان هناك من ظنوا أن للروح جسما من نوع ما (247 ب - ج)، لكن ما نقصد إليه الآن لا يستدعي أن نطيل في تحصيل هذه النقطة؛ إن نجحنا في جعل الماثنيين يعترفون بحقيقة المفاهيم فهذا يكفينا (247 ج - د). بعد ذلك يؤكد حقيقة مفاهيم العدل، الحكمة، الحماسة، وما إليها، التي قد تُسم الروح بحضورها فيها (247 أ). (ومع ذلك ها هم باحثونا المفرقون في التبخر يؤكدون في ثقة أن الصور مستبعدة من السوفيست). لا ينبغي أن نقرأ الكثير في التعبيرات المجازية المكانية كتعبير الحضور وما إلى ذلك، التي لا سبيل لتجنبها، فكل لغة المفاهيم تستعير من لغة تجاربنا الحسية الأولية. من المؤسف أننا في يومنا هذا نجد الإمبريقيين المتشددين يجروون على أن يؤكدوا أن العدل والحكمة لا مكان لهما بين 'الأشياء الحقيقية'.

يحرص 'الغريب' على أن يؤكد أن العدل والحكمة والروح، وهي حقيقية، ليست مرئية أو محسوسة (247 ب). الروح والمعقول شيء واحد. هذا هو الأساس الأول، نقطة البدء لفلسفة سقراط وللأفلاطونية.

في 247- ب يكتب أفلاطون: "حيث إن العدل والعقل والفضائل الأخرى وأضدادها كانتة" *ousês oun dikaiosunês kai phronêsôs kai tês allês aretês kai tôn enantiôn*. هناك أمثلة أخرى موازية في المحاورات. هل يمكن أن نتصور أن أفلاطون حين يتحدث عن صور الظلم والحماسة وما إليها كان من الممكن أن يعني أن هذه كانت أكثر من مفاهيم تعقل؟ في سماء الصور الشعرية التخيلية المرسومة في الفايروس، لا مكان لمثل هذه المفاهيم السلبية. لكن أفلاطون كان يعرف بالتأكيد أن مثل هذه المفاهيم السلبية هي صور معقولة خالصة مثلها مثل المفاهيم الإيجابية. إنها لا ترى ولا تحس ولا توجد بأي مكان في عالم الظواهر. إنها تنشأ في العقل، من العقل، وليس لها أي كيان إلا كأدوات للفهم.

إنني لا أرى في الجزء الأول من الـ پارمنيديس أو معالجة 'أصدقاء الصور' *Friends of the Forms* في السوفيست نكوصا عن أي موقف لأفلاطون أو مراجعة لأي موقف له، إنما أعتبر كل هذا توجيها لك 'تابعين' (والناقدين)، سواء كانوا من أعضاء الأكاديمية أو من الخارج، الذين أرادوا أن يحولوا مغامرات أفلاطون الفكرية لنظريات جامدة، كما فعل الكثيرون منذ ذلك ولا يزالون يفعلون. لست أقول إن أفلاطون لم يكن يراجع تفكيره. إنه كان يفعل ذلك على الدوام. لكن هذا هو بالضبط بيت القصيد. إنه كان يغير ويراجع آراءه

بغير توقف، عن قصد، انطلاقاً من مبدأ، لا يسمح لها أبداً أن تتجبر في عقائد ونظريات مقيدة. هذا شيء أخفق أرسطو Aristotle في أن يتعلمه منه.

4

إذا كانت الأشياء غير المتجسدة التي تحدثنا عنها والأشياء المتجسدة كلاهما 'حقيقي' على السواء، فما الذي يراه الماديون مشتركا فيهما؟ (247 د). يقترح 'الغريب' أن الأشياء التي لها كينونة ليست سوى فعالية، *ta onta hōs estin ouk allo ti plēn dunamis* (247 هـ). ينبغي أن نلاحظ هنا أن 'الغريب' يتحدث عما هو مشترك بين الأشياء اللامرئية والمرئية. إنه يعادل كون الشيء 'حقيقيا' بالفعالية. أن يتأثر الشيء بعامل خارجي ليس حالة من التلقّي السلبي، إنما هو مواءمة داخلية. أعتقد أن أفلاطون هنا لا يهجر ولا يغير موقفاً كان يتخذه من قبل، إنما يعبر تعبيراً صريحا عن جانب من فلسفته كانت لغته المعقدة تتحوّل لأن تخفيه. في مواضع أخرى، كثيرا ما يعادل أفلاطون فضيلة *aretē* محددة بقوة *dunamis* معينة.

أعتقد أن هذا التأويل يدعمه تماما ما يلي من المحاورّة، ففي المناقشة التي تأتي بعد هذا مع 'أصدقاء الصور' Friends of the Forms يمكننا أن نتصوّر أن أفلاطون إنما كان يصحّح فهما متصلبا لما كان يقوله أو يكتبه عن الحقائق المعقولة. لا يجب فحسب أن نتجنب حصر فكرة مجال المعقول داخل نظرية ثابتة، بل يجب أيضا أن نجد فيها متسعا، من ناحية، للواقع الذي لا ريب فيه، واقع الصيرورة وواقع الظواهر بحقيقتها المنقوصة، ومن ناحية أخرى، لفيض الحقيقة في فعل خلاق أزلي، كما أدرك أفلوطين Plotinus.

هكذا يبدأ أفلاطون بتقرير ما يقول به المثاليون من فصل الصيرورة عن الكينونة، *tēn de ousian chōris pou dielomenoi lgete; genesin* (248 أ). ثم في 248-ج يبتدئ الفهم الضيق المتصلب للحقيقة باعتبار أنها تستبعد كل صيرورة. فالروح، مبدأ الحقيقة فينا، لا يمكن أن تكون كينونة بلقعا خاملة: الروح تعرف، تفهم، تحبّ، تلد أفكارا وأشياء جميلة، والروح هي نموذجنا للحقيقة. حين يرفض 'أصدقاء الصور' الاعتراف بأن المعرفة فاعلية (248 د)، يُظهر لهم خطاهم في عبارة نيونية: "خيروني بحق السماء، هل حقّا نقتنع بهذه السهولة بأن التغيير، الحياة، الروح، لا مكان لها في ذلك الذي هو حقيقي تماما — أن ليس في الحقيقة حياة ولا فكر، بل تبقى لامتحولة في ترفع

مهيّب، خالية من العقل؟" (248 هـ - 249 أ. استخدمت في الأصل الإنجليزي ترجمة كورنفورد، وأترجم هنا عن ترجمته).

أن يكون كورنفورد Cornford قد نقل فكر أفلاطون بهذه النقة وهذا الوضوح ثم يمضى بعد ذلك ليُفرغ *dunamis* أفلاطون من كل مغزى، فهذا، فيما أرى، لا يرجع إلا لتسليمه المطلق بمفهوم القوة العلمي، الذى هو رمز مجرد بلا حياة.

يقول أ. ن. وايتهيد A. N. Whitehead في *Adventures of Ideas* (1933): "كان أفلاطون فى توجّهه المتأخّر هو من تقدّم باقتراح 'أنا أرى أن تعريف الكينونة هو ببساطة القوة'". — يستشهد ف. م. كورنفورد F. M. Cornford فى مقمّته لـ *Plato's Theory of Knowledge* (1935) بهذه العبارة كمثال يوضّح كيف يمكن "لمفكر عميق الفكر أن تضلّه ترجمة". الترجمة 'المضلّلة' التى عاها كورنفورد كانت ترجمة جويت Jowett، التى اقتبس منها وايتهيد.

إن مجرد قراءة خاطفة للفصل الثامن، "كوزمولوجيات"، من كتاب وايتهيد *Adventures of Ideas*، كفيّلة بأن تبين أن وايتهيد كان أبعد ما يمكن عن أن تكون قد ضلّته ترجمة جويت، بل إن تأويله لنصّ السوفيست كان جزءاً أصيلاً من نظرية القانون المتأصل *Immanent Law* التى طوّرها هناك فى حرص شديد.

إنه لما يكشف لنا الكثير أن نرى كيف يتعامل كورنفورد فى ترجمته وتعليقه مع النص الذى تردّ فيه هذه العبارة. كان 'الغريب الإيلى' قد صنّف كل الفلاسفة إلى مثاليين وماديين فى فقرة 'الآلهة والمزّدة' الشهيرة فى السوفيست (245 هـ - 246 هـ). ويمضى فيبين أن مفهوم الماديين للحقيقة غير مقبول، وأن ما هو حقيقى (بأوسع معنى للكلمة) أبعد ما يكون عن أن يكون معادلاً للمرئى والمحسوس، بل الأخرى معادلته بالفاعلية *dunamis*.

وبالمخالفة لغرام الفلاسفة الراسخ باستخدام مصطلح 'التعريف'، بجهد كورنفورد نعمه ليتجنب استخدام المصطلح فى تعامله مع هذه المقولة فى السوفيست. يختار عنواناً للقسم 246 هـ - 248 أ.: "علامة للحقيقة تعرض ليقبلها الماديون"، ويكتب فى ملاحظته التمهيدية: "تقود المحاجة إلى تعريف - أو بالأحرى علامة - لك 'حقيقى'، تعرض لقبولهم." لكن جوهر محاجة 'الغريب' مع الماديين أن يريهم أن كل ما يعتبره الماديون حقيقياً هو فى الأساس لا شيء غير *dunamis*، وهذا ما عناه وايتهيد وما أراد كورنفورد أن

يروغ منه. لئنا هنا معنيين بمسألة تقنية أو مصطلحية حول ما إذا كانت تلك المعقولة ترقى شكلياً لأن تكون 'تعريفاً'. المسألة هي ما إذا كانت المعقولة تؤكد أن جوهر كل الأشياء، بما فيها الأشياء 'المادية'، هو قوة (فاعلية).

يكتب أفلاطون: *ta onta tithemai gar horon horizein (dein)* (247 هـ). ترجمة جويت، التي اقتبسها وايتهد، تقول: "of being .. and I hold that the definition is simply power". وأنا أرى أن تعريف الكينونة هو ببساطة القوة". يحاول كورنفورد أن يبتعد جهد المستطاع عن عبارة جويت البسيطة الواضحة "تعريف الكينونة هو ببساطة القوة"، فيلجأ للالتفاف حول المعنى: "I am proposing as a mark to distinguish real things" "إنني أقترح كعلامة لتمييز الأشياء الحقيقية"، لكنه لا يجد مفرّاً من أن يواصل قائلاً: "that they are nothing but power" "أنها لا شيء غير القوة". 'الغريب' في الواقع يعادل كون الشيء حقيقياً بالفاعلية؛ أيضاً "أن يقع على الشيء تأثير" ليس قابلة سلبية بل هو مواعمة داخلية أو رد فعل.

إذا قيل إن هذا لا ينسجم مع إصرار أفلاطون على لاثحول الحقيقي، فإنني أزعم أن تأكيد أفلاطون على أزليّة ولا تغير الحقيقة إنما قصد به إبراز حقيقة المعقول المتسامية على الزمن *supra-temporal*، مما لا يتعارض مع، ولا يستبعد، الإبداعية والفاعلية. هذا ما كان وايتهد يحاول إظهاره.

5

يقول كورنفورد بحق، "لب نقد الغريب أن أصدقاء الصور قد عبّروا عن آرائهم في الحقيقة بعبارات إيائية Eleatic بأكثر مما ينبغي. لقد أخذوا اللاتغير كعلامة للحقيقة، وأحالوا كل تغير إلى عالم الصيرورة" (صفحة 243). إنني أتفق معه في هذا تماماً. لكن حين يمضى فيقول: "نظرية أصدقاء الصور هي النظرية التي قررت في الديفيدون والتي انتقدت في الديارمنيديس"، فلا بد لي من أن أختلف معه. في رأيي، أن نظرية كهذه لم 'تقرّر' في الديفيدون. جوهر الديفيدون هو تأكيد قدسية الروح كموطن لعالم المعقول. في الجزء الأول من الديارمنيديس يمحّص أفلاطون بعض تشعبات مفهوم المشاركة التي كان قد استخدمها على نحو تجريبي. المبدأ الذي أخذه أفلاطون عن سقراط والذي شكّل الأساس لكل فكره كان التمييز بين المعقول والمحسوس. حين نظر للتمييز على

أنه انفصال، نشأت مشاكل. تلك المشاكل الطارئة كانت هي موضوع الجزء الأول من الديپارمنيديس.

في الديفيدون كان التوكيد على اللاتحول وعلى الانفصال عن عالم الصيرورة لازما لجلاء مفهوم الأزل. أراد وابتهد تصحيح هذا بتوكيد مفاهيم الكيان العضوى organism والمسار process. فى صيغتي من الأفلاطونية أبرز مبدا الفاعلية الخلاقة creativity: الحقيقة النهائية عندى هي الأزل الـ خلق Creative Eternity.

فى 248-أ-هـ يصور 'الغريب الإيلى' موقف المثاليين اللقائين بالثبات فى أمر معرفة الحقيقة. بينما هم يُقرّون بأننا نتواصل *koinōnein* مع الحقيقى بالروح عن طريق إعمال العقل *dia logismou de psuchēi pros tēn ontōs ousian pathēma ē poiēma ek dunameōs tinos*، فإنهم لا يقبلون القول بأن مثل هذا التواصل ينطوى على فعل التائر أو التأثير المتبادل، *apo tōn pros allēla suniontōn gignomenon*، هم لا يقبلون اقتراح 'الغريب' بمعادلة الحقيقة بالفاعلية *dunamis* خشية القول بأن الحقيقة إذ تعرف قد تتغير بفعل المعرفة (248 د - هـ). يحتج 'الغريب' بأن رفض السماح بأن يكون للتغير مكان فى الحقيقة يعادل القول بأن "لا مكان للحياة، للروح، للفهم فى ذلك الذى هو حقيقى تماما" وأن الحقيقة "ليس فيها حياة ولا فكر، بل تبقى لامتحولة فى ترفع مهيب، خالية من العقل". (فى الأصل الإنجليزى اقتبست هنا ترجمة كورنفورد). أعتقد أن هذه الفقرة تبرر زعم وابتهد أن فلسفة أفلاطون تتوافق تماما مع فلسفة مسارية *a philosophy of process*، مع فلسفة الكيان العضوى *a philosophy of organism*. ويلقى هذا القول دعما إضافيا فى *الديليبيوس* و*الديمابوس*. وأود أن أضيف أننا قد نبيّن للقائين بثبات الحقيقة (أرسطو Aristotle أو سبينوزا Spinoza جنبا إلى جنب مع المتشددىين من 'أصدقاء الصور') أن الحياة والعقل الفاعل، أو ما له حياة وفاعلية عاقلة، لا يمكن أن يُعرف كموضوع. ما له حياة وفاعلية عاقلة لا يمكن أن يُعرف إلا فى تواصل العارف والمعروف فى فاعلية خلاقة.

6

فى رأى أن مفهوم الطفرة emergence مفهوم كسيج. إنه لا يمتاز على الفيزيقالية الاختزالية reductionist physicalism إلا باعترافه بحقيقة الصفات (الكيفيات) qualities الجديدة. لكن الحقائق الجديدة تصرخ طالبة

الانتساب لسلف أكثر جدارة. كل حقيقة سرّ ومستظل دانما سرّاً. لكن مفهوم الفاعلية الخلاقة يعطينا أفقا فكرياً يضيف وضوحاً واتساقاً على الممارس بأكمله. إذا كان الأساس النهائي والمنبع النهائي لكل هذا عقلاً وخيراً، إذن يكون مجيء الحياة والعقل والقيم الروحية إلى الكينونة في وقت ما ومكان ما أمراً مفهوماً، في رأيي. أعتقد أن هذا كل ما يمكننا أن نقرّر وفاقاً للعقل. فإنا أقول بأننا قد نصل إمبريقياً إلى أيّ كمّ من معرفة الواقع، إلا أننا لن نستطيع أن نجد الفهم، المعقولة، إلا في الصور (المفاهيم) التي هي من خلق عقلاً ذاته — والحقّ الوحيد لهذه المفاهيم في ادعاء الصحة يستند إلى الجلاء الذي تضيفه على معطيات تجربتنا.

إذا استعرنا مصطلحات سبينوزا يمكن أن نقول إنه بينما يرى الإمبريقيون empiricists والاختزاليون reductionists والعلميون scientists أن الطبيعة المفعولة *natura naturata* هي كل ما هناك، فالمثاليون idealists يؤكدون حقيقة الطبيعة الفاعلة *natura naturans*، التي منها تستعير الطبيعة المفعولة كل ما يمكنها أن تدعيه من نصيب في الحقيقة.

يعلن أفلاطون الموقف الشكلي لـ 'أصدقاء الصور' (248 ب)، وهو، مثل كل صياغة فكرية محدّدة، بغير استثناء، يقود للخطأ إذا لم نخضعه للتحميص والتصحيح دون توقّف. ثم يمضي فيبين على أيّ نحو يتطلّب ذلك الموقف التصحيح في السياق الحالي — وذلك التصحيح بدوره لا يمكن أن نسمح له بادعاء أنه نهائي.

7

في 249- د -251- أ يمهد أفلاطون الأرض لمعالجة الأحجية المنطقية للماحققي أو غير الموجود، التي لا اعتزم أن أعلق عليها هنا. بفضل أفلاطون وأرسطو فإن أيّ تلميذ صغير في يومنا هذا يستطيع أن يكشف النقاب عن الأحجية المنطقية، مع الاعتذار لأكاديميينا المتبحّرين من أصحاب 'الميتافيزيقا الجديدة' الذين ملأوا مجلدات ضخاما عن وجود البيجاسوسات والدوائر المربّعة وملك فرنسا الحالي الأصلع. (انظر "On What Is Real: An Answer to Quine's 'On What There Is'"⁽⁷⁵⁾). معالجة أفلاطون للمسألة الميتافيزيقية للماحققي نجدّها في الديالوجون، في الجمهورية، في جزء

(75) في *The Sphinx and the Phoenix* الذي أمل أن تصدر ترجمته العربية في وقت غير بعيد.

السوفيست الذى استعرضناه لتونا. ولعل أفلاطون كان قد اعتزم أن يستكمل معالجة الحقيقى فى محاوره الفيلسوف التى فكر فى أن يكتبها ولم يفعل. أيا ما كانت الأسباب التى دعت له للتخلى عن ذلك العمل، فإننى أعتقد أنه ما كان ليغير جوهريا ما نستطيع أن نتبينه من الأعمال التى بين أيدينا. فى وقت ما اقترحت أن أفلاطون قد يكون تخلى عن الفيلسوف حين أدرك أنه سيكرّر ببساطة ما كان قد قاله فى الجمهورية.

بغير اللاشئ (العدم) لا يمكن للوجود المحدود المعين أن يكون. كينونة پارمنيدس الإيجابية المطلقة لا يمكن إلا أن تكون عقيمة عفا مطلقا. كل كينونة معينة تتطوى على محدودية؛ كل محدودية تتطوى على لاشئية. المعين المحدود لا يفترض اللاشئية فحسب، بل هو يشارك فى اللاشئية. ليس هذا درس البارمنيدس والسوفيست فحسب، بل هو أيضا أساس الديالكتيك الأفلاطونى — ليس ديالكتيك السوفيست الممتانس، بل ديالكتيك الجمهورية الوحشى الذى يدرك أنه لا يمكن لأى صياغة فكرية محدّدة أن تطمح لأن تكون نهائية، فهذا اكتمال إثمار مبدأ الجهل السقراطى، الذى نجده جليا فى الحوار السقراطى.

الفصل الحادى عشر

الدقيلبيوس

1

تبدأ الدقيلبيوس بتحديد موضوعها الشكلى فى عبارة واضحة تماما. توازن المحاوره بين رأيين متعارضين فى الحياه الطبيه للكائنات الإنسانيه: هناك من ناحيه الرأى القائل بأن اللذّه، بأوسع معنى تحتمله الكلمه، هى الخير لكل الكائنات الحيه، ومن ناحيه أخرى هناك الرأى القائل بأن المعرفه، أيضا بأوسع معنى ممكن للكلمه، هى الخير لكل الكائنات التى يمكن أن يكون لها نصيب فى المعرفه (11 ب). تحديد الموضوع المطروح للمناظره يبلغ من الوضوح والدقه ما يصبح معه محض سخف أن تصوّر أحد أن تكون للسؤال صله بطبيعه الخير الذى تتحدّث عنه الجمهوريه. ولا غرابه فى أن يكون بمقدور أفلاطون أن ينتقل من مناقشه الحياه الطبيه للكائن الإنساني إلى مناقشه المبادئ الأولى والحقائق النهائيه: وإلا فكيف تكون المناقشه فلسفيه؟ فى الجمهوريه وجدنا البحث عن معنى العدل يقودنا إلى الخير الذى يتجاوز الكينونه ويتجاوز المعرفه.

إننى فى الواقع أميل للظن بأن حافظ أفلاطون الرئيسى لتخصيص محاوره لمناقشه المفاضله بين اللذّه والمعرفه (حتى لو كانت الممسأله موضع جدل ساخن بين أعضاء الأكاديميا أو فى دائره أوسع من المحيط الثقافى الأثينى أو الهيلينى) كان يكمن فى إمكانية أن يستخدم اللذّه والمعرفه للتمثيل لفكره المعيار والمزج بحسب المعيار *measure and mixture according to measure* باعتباره المبدأ الذى يقوم عليه كل تحقيق فعلى لكينونه إيجابيه، كل تجسيد للقيمه. فى هذا الفصل أعترز التركيز على الأبعاد الميتافيزيقية للمحاوره، معلقا بشكل عابر فحسب - إن علقته - على مناقشه اللذّه.

بعد أن أبان 'سقراط' موضوع المجادلة بوضوح تام، يمضى فيثير مسألة الواحد في المتعدد ومن ثم يتشعب إلى التصنيف الأونطولوجي لكل أنواع الكينونة قيل أن يجد طريقه عائداً إلى تمحيص دعاوى اللذة والمعرفة.

يمكننا أن نرى من 12- جـ -13- د أن فكر أفلاطون كان مشغولاً بمسألة التصنيف والعلاقة بين ما أصبحنا نسميه - اتباعاً لأرسطو Aristotle - بالجنس genus والنوع species. ولكن هذا، على مستوى أعمق، يثير مسألة الواحد والمتعدد (14 ج)، وهي مسألة اتخذت عند أفلاطون معاني مختلفة في مراحل مختلفة من حياته. في *الفيثاغورس* تصطبغ المسألة بما طرأ على أفلاطون من اهتمام بالمسائل المنطقية والمنهجية methodological (14 ج-15 ج). إنني أعتقد أن المفهوم الميتافيزيقي للـ 'واحد في المتعدد' الذي نجده في *الجمهورية* ظل أساسياً في فكر أفلاطون. إنه يعبر عن بصيرة أن المتعدد لا يكون معقولاً إلا في كل. هذا أيضاً أساسى في *الديارمونيوس*.

الصعوبات التي يسردها 'سقراط' في 15- ب هي عنها التي أثارها 'پارمنديس' في الجزء الأول من المحاوراة المسماة باسمه. هناك تركت تلك الصعوبات بغير حل باعتبارها متأصلة في طبيعة الفكر واللغة. لكن أفلاطون شعر بأننا لا نستطيع أن نترك الأمر على هذا. الفكر متى سبرنا عمقه وجدناه مفعماً بالتناقضات غير القابلة للإزالة. لكننا في جوهرنا كائنات مفكرة. كى نعيش لا بد لنا من أن نفكر، وأن نفكر تفكيراً نظامياً ومتساقطاً *consequently*. حيث إننا ناس ولنا آلهة، وعلينا أن نعيش ككائنات منقوصة في عالم منقوص، فإن أفلاطون اقترح وطور وأخضع للتجريب طريقة الفرضيات، وطريقة التجميع والتقسيم، وجرب إصلاح حال الظن *doxa* بإضافة الـ *logos*، وكل من هذه الطرائق على التوالي كرمها أفلاطون في مرحلة ما بأن أسماها 'ديالكتيك'.

مشكلة الواحد والمتعدد تجابهنا مع كل جملة ننطق بها (15 د). في الفكر وفي الكلام (هما وجهان لعملة واحدة) نصنع بالضرورة من الواحد عديداً. لكن هذا ليس ضرورة للفكر ولغة فحسب. إن المتعدد المضطرب الذي هو خامة تجربتنا هو عالمنا الفعلى. إنه ليس من صنعنا. التعددية هناك، معطاة؛ نحن نجعلها واحداً في الفهم، ثم، كى نعبر عن ذلك الفهم، فنفكك الواحد إلى عديد، وهذا العديد يجب أن نراه بدوره كواحد، محطمين أسس فهمنا السابق في فعل أعلى للفهم. هذا هو *ديالكتيك الجمهورية*، الذى يقصر عنه *ديالكتيك الفيثاغورس*، لا فشلاً، وإنما لأنه، لخدمة أغراض معينة، لا بد للتدمير الدائم بلا نهاية للأسس

الفكرية الذي تتطلبه الفلسفة الحقّة من أن ينتهى عند نقطة معيّنة لخدمة غرض معين.

بمضى أفلاطون من توه للحديث عن إساءة استخدام الديالكتيك (15 د-16- أ)، كما فعل من قبل في الجمهورية (538 - 539). لمعالجة المشكلة لا يجد 'سقراط' خيرا من الطريقة التي "كان دائما مخلصا لها" (16 ب)، "الأداة التي عن طريقها خرج إلى النور كلّ كشف تحقّق أبدا في محيط الفنون والعلوم" (16- ج. الترجمة الإنجليزية لـ ر. هاكفورث، Plato's R. Hackforth Examination of Pleasure، 1945). يقال لنا إن "كل الأشياء ... التي يقال أبدا إنها كائنة تتكوّن من واحد ومن عديد، وفي طبيعتها يقترن الحدّ واللامحدودية" *hôs ex henos men kai pollôn ontôn tôn aei peras de kai apeirian en autois sumphuton legomenôn einai echontôn* (16 ج-10). هنا نجد الصورة المعقولة والحالات المتعدّدة وقد أعيدت تسميتها بالحدّ واللامحدودية. لا بأس حتى هنا. ثم يمضى أفلاطون فيقترح طريقة للتصنيف، قد تكون نافعة جدا لأغراض معيّنة، إلا أنها تترك مشكلة علاقة المتعدّد بالواحد في الخلفية، دون أن تقرب منها. وهكذا، فالطريقة التي كان 'سقراط' "دائما مخلصا لها"، والتي أوجى إلينا بأن ننتظر منها الكثير، يتّضح أنها (16 ج-هـ) لا شيء غير صيغة معذلة من طريقة التجميع والتقسيم، التي وُصفت في الـ *هيفيدروس* وجرّبت بحظوظ متفاوتة في الـ *سوفيست* وـ *الديالكتيكوس*. كيف عُذلت الطريقة؟ أولا، يظهر الواحد والمتعدّد هنا في هيئة الحدّ واللامحدودية. في رأيي أن المتعدّد، واللامحدود، والأكثر - و- أقلّ، والوعاء *hupodochê* في الـ *تيميوس*، كلها أسماء للمعطى اللامتشكل الذي يجابه العقل ويتحدّاه - ذلك المعطى الذي لا يُستأنس - لا يتبرر في المعقولة - إلا حين تحتضنه وحدة الصورة. هذه هي الإنارة التي يأتي بها الفكر الفاعل *noêsis*. التقسيم الذي يلي ذلك هو التمثيلية الضرورية عمليا للتفكير النظري *dianoia*. يتمثل ثاني عناصر التعديل في تحرّر الطريقة من قيد التفريع الثنائي المتبع في الـ *سوفيست*، والذي قد يصلح لتصنيف شكلي لكنه لا يصلح في بحث أرحب كالذي نحن بصدده هنا.

كيف يمكن أن نأخذ مأخذ الجدّ كلمات 'سقراط' في 16- ب- ج- حيث نجدّه يقول إن كل ما نملكه من معرفة خرج إلى النور بواسطة الطريقة التي يزعم أن يقدّمها *panta gar hosa technês echomena anêurethê pôpote dia tautês phanera gegone*، في حين أن لنا أن نكون متأكدين من أن أفلاطون كان يعلم أن ما أحرز من تقدّم في الرياضيات وما أتبع له هو نفسه من بصيرة ميتافيزيقية عميقة، لا هذا ولا ذاك قد تحقّق بواسطة الطريقة التي

يعتزم تقديمها؟ حتى طريقته في البحث عن طريق الفرضيات، والتي يبدو أنه كان قد أهلها في هذه المرحلة، كانت أكثر جدارة بأن يُنسب إليها هذا الفضل.⁽⁷⁶⁾

2

اللامحدود والحدّ مبدئين أوليين في الفيليبوس. لا يهم ما إذا كان أفلاطون قد استعار ذلك من الفيثاغورية أو من أي مصدر آخر. كان أفلاطون سمحا في تبني أي أفكار يستطيع أن يستخدمها في نسج فلسفي ذاتي المعقولة، حيثما وجدها. قد يكون مصدر تلك الأفكار مما بهم المورخ، أما بالنسبة للفيلسوف فليس ذلك بذي مغزى كبير. في الفيليبوس يوصف اللامحدود أيضا بـ الأكثر - وأقل، ونجد ما يعنيه ذلك مشروحا في وضوح تام. في الأكاديميا أعيدت تسمية الأكثر - و- أقل أو حلّ محلّه ال- واحد و- ديداد (ثنائي) الكبير - و- الصغير ال- لامحدود أو ال- لامحدّد، حسبما يخبرنا أرسطو (Aristotle)،
Metaphysics (I. 6). ربما كان تغيير التسمية قد صاحبه تحوّل أكبر نحو إضفاء صبغة رياضية على المفهوم. لكنني لا اعتقد أن أيّا من تغير التسمية أو بروز الجانب الرياضي كان له مغزى فلسفي هام. ليكن ذلك كما يكون: إنني كما ذكرت مرارا، لا يعينني غير الفلسفة التي تركها لنا أفلاطون في محاوراته، وفي الوقت الحالي على الأقل لا اعتزم أن أنشغل بالبحث فيما عسى أن يكون أفلاطون أو غيره قد صنع من الدياد ال- لامحدّد في الأكاديميا.

ثم يكاد أفلاطون أن يبيح لنا صراحة بأن المناظرة بين اللذة والمعرفة بأكملها لم تكن إلا نزيعة لعرض بعض المبادئ والمفاهيم الميتافيزيقية. فما هو 'سقراط' فجأة 'يتذكر' شيئا كان قد سمعه، أو ربّما كان قد رآه في حلم (20 ب)

⁽⁷⁶⁾ لعله من المناسب أن أوضح هنا أنني حين أتحدّث عما في هذه المحاور أو غيرها من اضطراب ظاهري فإني لا أقول فعل أولئك الباحثين الذين ينتفخون زهوا إذ يجلدون أفلاطون على كل حجة ضعيفة وكل خلل منطقي وكل تناقض شكلي تكتشفه شطرنجهم لرخيصة. إن أفلاطون بعقله الفعّالة الجبارة كان أقدر من يندر على كشف ما في كتابته من مزلق. إن ما أريده أنا بقدي هو عكس ما يريده أولئك. ما أريده أنا هو إظهار أن أفلاطون لم يقصد أبدا أن يعطينا أفكارا ونتائج نقبلها ونسلم بها، إنما كان قصده أن يتيح لنا أن ننطلق معه في مغامرات فكرية طبقا للحقيقة التي قد يحسها سنأها بصائرنا لكننا أبدا لن نستطيع أن نجسها في مقم صياغتنا الفكرية - اللغوية. إنني حين أقد أفلاطون إنما أقول ذلك امتثالا لما أراه هو منا حين ملأ أصاله حاجي والغزالي وفخاذا منطقيّة.

— إن الحياة الطيبة للكائن الإنسانى لا هى حياة اللذة المجردة من العقل ولا هى حياة العقل الخالية من أى متعة. إن هذا ليكون كلاما مفرقا فى الابتدال والتفاهة لو لم يكن بدوره ذريعة لتقديم مبدأ المزيج المُقاس *measured mixture* كأساس لكل قيمة مفغلة؛ وهذا بدوره تطبيق لوحدة الحدّ واللامحدودية كأساس لكل قيمة إيجابية. كانت فلسفة أفلاطون قد نضجت وأنبعت تماما فى الجمهورية: كل ما يقمعه لنا فى المحاورات المتأخرة هو نفس الثمر مطهوا طهوا جديدا.

ثم نقفز قفزة أخرى فى أثر المفاهيم الخالصة، وتُحف بـ 'تصنيف' هو ليس بتصنيف بل تفصيل خلاق لأنواع الكينونة. يعرض 'سقراط' أن يصنع "من كل ما يوجد الآن فى الكون" تقسيما ثنائيا، ولكنه على الفور يضيف "أو ثلاثيا". بعد ذلك نجدنا قد وصلنا إلى تقسيم رباعى. نبدأ باللامحدود والحدّ كما فى أوّل تقسيمين قمنا بهما. مزيج هذين يعطينا القسم الثالث، وسبب المزج يصل بالرقم إلى أربعة (23 ج - د). من الواضح أن هذا لا علاقة له بطريقة التجميع والتقسيم.

يبدو أن التصنيف الرباعى المقدم فى الديليبيوس كان — مثله مثل الأجناس الأعظم *megista genē* فى السوفيست — واحدة من السدى التى كان أفلاطون يولع باللهو بها من وقت لآخر. كانت تستهويه فكرة فيعمل عليها أو يعمل بها فى حماس لبعض الوقت، ثم يهملها. هكذا كانت طريقة الفرضيات، طريقة التجميع والتقسيم، الأجناس الأعظم *megista genē* — وإننى أحسب أن الحدّ واللامحدود، والواحد والدياد اللامحدّد كانا أيضا من هذا القبيل. وإنى أتصور أن كلا من هذه الأفكار كانت تجد من بين أعضاء الأكاديمية من يصنع منها صنما يتعبّد فى محرابه.

3

لكن التجميع والتقسيم يظل فى خلفية ذهن أفلاطون. يقترح أن نأخذ اثنين من أقسامنا الأربعة، نفككهما إلى عدّة أقسام، ثم نجمع المتعدّد مرة أخرى فى واحد (23 هـ). إنتر كيف يمضى هذا!

نأخذ اللامحدود لنرى باى معنى هو متعدّد. لا نخضعه لأى تقسيم نظامى كما فى طريقة التجميع والتقسيم، لكننا نجد أنه يحمل تكاثره فى ذات طبيعته،

ويتضح أن تكراره ليس تعدداً من وحدات متميِّزة، بل هو ميوعة زلقة لا نستطيع أن نصفها بشيء أكثر ثباتاً من أكثر- و- أقل، وهذا لامحدود ولامحدّد (24 أ - ب). ثم نجد أن هناك العديد من هذه اللامحدودات، كل الأشياء التي نستطيع أن نتحدث عنها بوصفها أكثر أو أقل، أكبر أو أصغر، أسخن أو أبرد، هي أمثلة للامحدود. كل الأشياء التي تقبل العدد والمفاهيم الحسابية تدخل تحت الحدّ (24 ج - 25 ب). هنا إذن لم تكن نُقسَم بل نجتمع، وبعد التجميع لا نمضى إلى تقسيم. إن حدسى هو أن أفلاطون كان يجرب، يستكشف أراضى بكرًا.

ثم نمضى باحثين عن النوع الثالث، المزيج، فنسمع أن "ها هنا نجد أصل الطقس الجوى المعتدل وكل ما هو بديع من الأشياء، أى فى مزيج اللامحدود مع ذلك الذى له حدّ" (26 ب). الترجمة فى الطبعة الإنجليزية لـ هاكفورت (Hackforth). ليس هنا حتى مجرد التظاهر باستنتاج نظامى. مفهوم المزيج المقاس، التوازن الصحيح، كمصدر للصحة، والطقس المعتدل، وكل ما هو بديع وحسن من الأشياء، هذا المفهوم يُعرض علينا ببساطة كهيئة من إله. لا أملك إلا أن أقول إن عندنا هنا مثالا جيّداً لما أعنيه حين أقول إن الفلسفة هى إعلان نبوءة بمفاهيم إبداعية تحدث المعقولة.

فى فلسفتى يظهر الحدّ واللامحدود فى هيئة عقل فاعل يضيف أنساقاً معقولة (صورة) على المعطى (الموجود) اللامُعَيّن (السديمى)، لتتحقق الموضوعة objectification الضرورية للعقل الفاعل. الوجود الفعّ الذى لا معنى له، ومن ثمّ لا حقيقة له، ينال الحقيقة فى النسق المعقول. هذا هو ما يسميه أفلاطون التكوّن إلى الكينونة *genesis eis ousian*: كل واقع فعلى هو وليد العقل الفاعل والوجود المعطى اللامُعَيّن، *to toutôn ekgonon* (26 د).

نأتى الآن إلى النوع الرابع. التكوّن *genesis* يتطلب سبباً. وهنا مرة أخرى نلقى إعلان نبوءة: "إذن فطبيعة الصانع لا تختلف عن السبب إلا بالاسم، ومن الصواب القول بأن الصانع والسبب شئ واحد؟" *oukoun hê tou to poiountos phusis ouden plên onomati tês aitias diapherei de poioun kai to aition orthôs an eiê legomenon hen;* الترجمة الإنجليزية لـ هاكفورت (Hackforth). فى العقل الفاعل فقط يمكن للضرورة أن تُعقل. إن إيماننا 'العلمى' (اللاعقلانى حقاً) بالأسباب 'الموضوعية'، 'الطبيعية'، متى حسبناه شيئاً أكثر من اختلاق *fiction* نافع، يكون بالغ الضرر، إذ يمتنع معه كل فهم حقّ.

يمضى 'سقراط' فيؤكد أن "جماع الأشياء أو هذا الذى نسميه الكون ... يحكمه العقل وعقل فاعل مدبر رائع" (28 د)، وفى 29أ-30- د أظننا نستطيع أن نرى أفلاطون مشغولا بالفعل بتخطيط التيمابوس.

4

فى الفيليبوس من البداية للنهاية، الخير هو الخير للإنسان، هو ما يودى لحياة سعيدة، كما يقرّر سقراط فى وضوح عند بدء المناقشة: "ما علينا أن نحاوله الآن هو أن يصف كل منا حالة أو وضعاً للروح يجعل حياة كل إنسان حياة سعيدة" (1 د).

إننى لأجده شيئاً لا يستسيغه عقل أن يكون قد خطر لى أحد أن 'الخير' الذى نسال فى الفيليبوس عما إذا كان هو اللذة أم المعرفة يمكن معادلته بصورة الخير. هذا تصوّر مسخيف. الخير فى الفيليبوس هو ببساطة الخير العملى الذى يستهدفه الناس العاديين فى حياتهم اليومية المعتادة. فى الجمهورية، حين نرى أنه بعد أن يتحدّث سقراط عن الخير بلغة ملهمة، وبعد أن يقول إن الخير يتجاوز الكينونة ويتجاوز المعرفة، فإن السؤال يُطرح ثلاثاً (505 ب، 506 ب، 509 أ) عما إذا كان الخير هو اللذة أو الفكر — لا أستطيع أن أرى ذلك إلا سخرية لأذعة لأفلاطون من بعض الأشخاص متبلدى الحس — سواء داخل الأكاديمية أو خارجها — الذين أباحت لهم بلادتهم أن يطرحوا السؤال. لكنّ ربما يكون أفلاطون، إذ وجد الجدال محتدماً فى هذه الجهة أو تلك، حول جدارة اللذة أو المعرفة بأن تعدّ الخير الذى ينبغى للناس أن يسعوا إليه، خطر له أنه قد يوضّح الأمر فى محاورة وفى نفس الوقت يتخذ منها مناسبة للبحث فى بعض المسائل الأكثر عمقا.

وأراه من الخطأ أيضاً أن توصف الفيليبوس بأنها 'محاورة سقراطية'. إنها ليست من محاورات 'الحوار السقراطى'،⁽⁷⁷⁾ ومعالجة اللذة فيها ليست سقراطية الطابع. الهمّة الأخلاقى ومثاليات الحياة فيها هما بالطبع مما يتوافق مع موقف سقراط لكن هذا هو ما ينبغى أن نتوقه لأن أفلاطون ظل مخلصاً لمثاليات سقراط ومبادئه الأخلاقية.

(77) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

تظهر المناقشة التمهيدية بين سقراط وپروتارخوس فى وضوح أن المناظرة بين حياة اللذة وحياة الفكر لا يمكن إنهاؤها بالحجة المنطقية. سقراط على حق من الناحية الشكلية حين يقرر أن القبول بأن كل اللذات، من حيث هى لذات، هى واحدة، لا يسمح لپروتارخوس بأن يضيف أن كل لذة هى خير. لكن پروتارخوس أيضا على حق حين يقرر أن من يتخذ نقطة بدء له القول بأن اللذة خير من حيث هى، لا يمكن أن نتوقع منه التسليم بأن بعض اللذات حسن وبعضها ردىء. موقفا سقراط وفيليبوس هما منظوران للعالم متعارضان، لا سبيل إطلاقا لإخضاعهما لمعيار مشترك. ليس أيهما قابلا للإثبات بلغة يمكن فهمها من منظور الجانب الآخر ولا للتفنيد بلغة المنظور الآخر. هكذا كان الحال مع كاليكليس؛ وهكذا كان الحال مع ثراسيماخوس (الذى لم يكن من دعاة اللذة بل القوة)؛ وهكذا الحال مع فيليبوس. إنما يستطيع سقراط مواصلة النقاش مع پروتارخوس لأنه لم يكن مثل كاليكليس بل كان أشبه ببولوس ولم يكن يدعو للذة بغير حدّ وبلا تحفظ.

فى القوانين يحاول أفلاطون أن يثبت بالحجة تميز حياة الاتزان والحكمة والشجاعة والصحة على حياة على النقيض من هذا، على أساس أن الأولى تربو فيها اللذة على الألم (732 د - 734 هـ). فى رأى أن الحجة هناك لا تفلح إلا فى إظهار لاجدوى كل الحجج التى من هذا القبيل.

5

لا اعتزم أن أعلق تفصيلا على مناقشة اللذة فى 31- ب وما يليها. سأكتفى بالتعبير عن فكرة عابرة أو خاطر قد يرد هنا أو هناك.

على امتداد الجورجياس ولكن على الأخص فى المناقشة مع بولوس، تتعارض اللذة فى وضوح مع الخير. أن تؤخذ اللذة كمعيار أو كهدف للحياة الطيبة هو علامة على الحمافة. لا تناقض فى هذا مع موقف سقراط فى الپروتاجوراس، حيث تؤخذ اللذة كهدف افتراضى للعمل، فى تحليل نظرى لظاهرة الغواية *akrasia* (العمل بعكس ما 'يعرف' الشخص أنه الصواب). ليس ثمة تناقض بين معالجات أفلاطون لموضوع اللذة فى مختلف أعماله. لعلمه

كانت هناك (لا بدّ أنه كانت هناك) اختلافات مزاجية بين توجّهين سقراط وأفلاطون في أمر اللذة، وهناك بالتأكيد اختلافات في الحالة المزاجية بين أعمال أفلاطون التي كتبت في أوقات مختلفة. من غير الواقعي أن نتوقع غير هذا. لكن ليست هناك تناقضات أو اختلافات لا يمكن التوفيق بينها.

في 31- ب يقول 'سقراط' إننا لا نستطيع أن نناقش اللذة بطريقة وافية في انفصال عن الألم. في القوانين نقرا: "إذ أن الألم واللذة كأنما هما في الطبيعة نبعان توأمان، من يأخذ من النبع الصحيح، في الوقت الصحيح، وبالقدر الصحيح - مدينة كانت أو إنسانا أو أي كائن حي - يعيش سعيدا، لكن من يأخذ بجهالة، وفي غير الوقت الصحيح، يكن نصيبه على العكس من ذلك" (636 د- هـ. الترجمة الإنجليزية لـ تيلر A. E. Taylor). هذه فكرة يمكن أن نرجع بها إلى حدوتة سقراط 'الإيسوبية' "Aesopian" في الفايون (60 ب - ج).

يقول 'سقراط' إننا نجد اللذة والألم في النوع العام *koinōi*، وعندما يُسأل إلى أي نوع يشير بهذه الكلمة يتّضح أنه نوعا الثالث العديد، الذي أحلنا إليه الصحة والتناغم، نوع المزيج.

يقول 'سقراط' إن شخصا يختار حياة الفكر والعقل قد يحيا معافى من اللذة والألم كليهما، وأن مثل هذه الحياة قد تكون بالفعل الأسباب بحياة إلهية، فيواقفه پروتارخوس في حماس: "من المؤكد أنه لا يمكننا الظن بأن الآلهة يشعرون بلذة أو بعكسها" (33 ب). هذا توجّه أفلاطوني تماما. سبينوزا Spinoza أيضا عبر عن هذا التوجّه ذاته. وبالطبع لو أننا قصرنا اللذة والألم على الأحاسيس المصاحبة للعمليات الجسدية، فإن عقلا خالصا، إن كان هذا شيئا ممكنا، ما كان ليعرف لا تجربة اللذة ولا تجربة الألم. لكن إذا كان العقل بالضرورة وبجوهره خلّاقا، فإن كيانا عقليا خالصا كان لينعم بحياة إبداعية عارمة البهجة. حتى إله أرسطو Aristotle، لو لم يكن قدره أن يبقى خاملا بلا حراك، لكان ينعم بحياة سارة.

في 34- ج - 35- د يبين أفلاطون، في تحليل طويل دقيق، أن الرغبة يجب أن تنسب للروح لا للجسد، وأن "أجسادنا لا يمكن لها أن تشعر بالعطش أو الجوع أو أي شيء من ذلك القليل". هذا تحسين وتصحيح لافلسفة الفايون وإنما لسيكولوجيتها - تصحيح جاء أول ما جاء في الجمهورية، ولو أنه عابه هناك للأسف القول بأن 'الأجزاء' المختلفة للروح لها رغائبها الخاصة بها. في

تعليقي على تلك الفقرة من الجمهورية (430 هـ - 431 ب) قلت بأفضلية رأى سقراط القائل بأنه حتى فى حالة الاختيار الردىء *akrasia* فإن العقل هو الذى يملئ الاختيار.

التحليل المطول لمزيج اللذة والألم الذى لا يكون إلا فى الروح وحدها (47 د - 50 ج) يوحى بأن أفلاطون كان أنذاك شديد التعلق بطريقة التقسيم. من الجائز أنه كان يجدها مفيدة جدًا لأغراض التعليم. ولكنها، كما يبين نموذجها هنا بوضوح، لم تكن تقسيما ملتزما بأى قواعد ثابتة. يبدأ التقسيم على أساس مبدأ معين ثم يتحول إلى غيره. ربما يمكننا أن ننظر إلى شكل الطريقة المتمثل هنا كتطوير لتمييزات بروديكوس *Prodicus*، ربما مع تخليصها من بعض الاعنابطة والنزق.

6

كانت مسألة الكينونة والـ صيرورة فى بؤرة فكر أفلاطون فى فترته المتأخرة. نستطيع أن نرى هذا فى فيليبوس 53- د - 54- أ. روح اللهو المرحبة التى تتبدى فى إتيانه بـ تيمة العشق هنا تُظهر، فيما أرى، أن عقله كان مشغولا بالرؤية التصوفية لعالم الصيرورة ككل، توافقا للتحقق فى أزلية الكينونة الحقة.

إننى أرى هذا ذا صلة بمبدأ الإنجاب فى الجمال *tokos en kalôi*، الذى قدّمه أفلاطون فى المادية، والذى كان عند أفلاطون مبدأ ميثافيزيقيا وكونيا أساسيا. يجد أفلاطون مبدأ الإنجاب فى الجمال متمثلا أولا فى الإنجاب البيولوجي لكنه يصبحنا صعودا إلى الخير الأعظم. إنه نفس الإنجاب فى الجمال الذى نجده فى الصعود إلى صورة الخير فى الجمهورية، والذى نجده فى الرؤية الطبواوية فى أسطورة الفايديروس، والذى يتجلى فى كل الفايديون، والذى نستشفه من دينامية السوفيست، ومن إبداعية التيمايوس.

الجميل، الذى هو صورة كمال، إذ يكون فى حضن العقل الفاعل، يجد لذاته تعبيرا خلاقا فى إنجاب صور كمال أخرى. الحقيقة فاعلة خلاقية. هذا ما مال أفلاطون لتوكيده فى السوفيست والتيمايوس. لكن ذلك لم يكن تحولا فى فكره. كانت البذرة هناك منذ البداية؛ مع مرور الوقت أتاحت لها الفرصة

والمجال لتنبؤ. — وليس هذا مقطوع الصلة بفكر أفلاطون في 'الإلهام' في الد
ليون وفي مواضع أخرى.

التَّوَقُّقُ للأزلية الكامن في رغبة الإنجاب في الجمال ليس رغبة في امتداد
زمنى أو في دوام زمنى، إنما هو تطلُّع لأزلية اللحظة الخلافة.

7

ما يقوله أفلاطون عن الديالكتيك *hê tou dialegesthai dunamis* في
الديالكتيكيوس 57- هـ -59-ج لا يضيف شيئاً لما يمكننا أن نعرفه من
الجمهورية. نبرة هذه الفقرة من الديالكتيكيوس ومحتواها يوحيان بأنها موجَّهة
لجدل ما كان يدور داخل الأكاديمية.

في 61-أ يقول 'سقراط' ملخصاً نتيجة النزاع بين اللذة والمعرفة: "إن
فالخير النهائي، التام، والذي ينبغي على الجميع اختياره لن يكون أيًا من
هذين؟" *oukoun to ge teleon kai pasin hairaton kai to*
pantapasin agathon oudeteron an touton eiê; يترجم هالكفورت
Hackforth هذه العبارة هكذا: "Then neither of the two can be the
the absolute Good", "perfect thing that everyone desires
استخدام هالكفورت لكلمة "absolute" (المطلق) مع كتابة كلمة "Good"
بالحرف العالى مضلل بدون مبرر. وتستمر الصياغة المضللة في السطور
التالية حيث نجد "grasp the Good" ("يدرك الخير") و "a way
towards the Good" ("سبيل إلى الخير") بينما هو واضح تماماً أن الخير
الذي يتحدث عنه 'سقراط' يوجد في حياة تتمتع بمزيج من اللذة والفكر (61 أ -
ج). ليس هذا مجال الخير الأعظم، الذي هو الحقيقة النهائية في الجمهورية.

الفقرة الملغزة في فيليبيوس 64- أ - ج التي يجدها هالكفورت Hackforth
محيّرة، هي رحيق أفلاطوني خالص. كنا في الديالكتيكيوس بصفة عامة نتعامل مع
أشياء على مستوى الإنسان، مع اللذة والفكر والسعادة والخير، نتعامل مع هذه
الأشياء كما نلقاها في دنيانا هذه في زماننا هذا، في عالم الصيرورة. وها هو
أفلاطون يومض إلينا بإشارة لينكرنا بأن كل ذلك لا يمكن أن يكون له جوهر،
لا يمكن أن يكون أكثر من محض حلم، إذا لم نجد له صلة بالحقيقة *alêtheia*

على المستوى الميتافيزيقي. إن فعلنا، فعندئذ، وعندئذ فقط تكون حياتنا وتكون الأشياء الحسنة في حياتنا حقيقية.

عندما يتحدث 'سقراط' في 64- ج عن الوقوف عند الباب الأمامي لمسكن الخير نكون قد عدنا إلى الحياة الطيبة للناس، ومن جديد يجب أن تؤخذ ترجمة هلكورث Hackforth بقدر من الحيلة.

8

من الخطأ أن نحاول قصر الأشكال المختلفة التي يقم بها أفلاطون مفهوما ما على التوافق الشكلي مع بعضها البعض. هكذا يحاول الباحثون عثا أن يُقحموا شروح أفلاطون وتطبيقاته المتباينة لطريقة التجميع والتقسيم في صياغة متجانسة. إنني أعتقد أن أفلاطون لم يكن عنده أبدا صيغة مكتملة للطريقة. هذا هو السبب في أن باحثينا، رغم كل تبخّرهم وكل دأبهم الذي يُحسدون عليه، يعجزون عن الوصول إلى وصف للطريقة يتفقون عليه.

لكي نعطي الملاحظات السابقة بعض المضمون، دعونا ننظر في صفحة واحدة من النص، *الدفيبيوس* 23- ج - 24- ب. — في 23- ج نقسّم كل الأشياء في الكون إلى قسمين؛ كلا، لنقل ثلاثة؛ حسنا، دعونا نصيّف رابعا؛ قد نحتاج أيضا لقسم خامس. من الواضح أن هذا ليس تقسيما كما يُفهم التقسيم في طريقة التجميع والتقسيم. — الله قد أظهر لنا فكرة اللاحدود والحدّ، أو ربما كان 'سقراط' قد حلم بها: الفكرة هي بصيرة خلاقة، ما كان من الممكن أن تُستخرج بعملية منطقية من مقدمات أيّا كانت تلك المقدمات. وكذلك لم يكن من الممكن أن نعرّث عليها في معطيات التجربة. بالطبع، كل التمييزات التي نبتكرها يمكننا في يسر أن نجدّها في العالم — بعد أن نكون قد وضعناها نحن هناك، فلا يعود ثمة انفصال لها عن الطريقة التي نرى بها الأشياء. ثم في 23- هـ يعطينا أفلاطون خليطا من هذا 'التقسيم' الخاص مع التقسيم المنهجي: سنرى كلّ من اللاحدود والحدّ "ينقسم إلى عديد ويتفرّق" ثم يُجمع من جديد في واحد. وفي 24- أ اللاحدود هو متعّد. ولكن بعد ذلك مباشرة نراه في جوهره امتدادا متصلا *continuum* غير منقسم. هو المتعّد وهو الديداد وهو الـ لانتهائي وهو الـ وعاء *hupodochē* غير المتشكل، هو كل هذا وفي نفس الوقت هو ليس أيّا من هذا. — ما كتبتّه هنا ليس نقدا لأفلاطون: غرضي أن أبين أننا عثا نحاول العثور على منظومة محدّدة في كتابات أفلاطون. أفلاطون

هو شاعر وخبان الفكر: يعطينا رؤى كالكيسكوبية kaleidoscopic للـ حقيقة — حقيقة تلبى أن تحبس في قالب واحد.

يلاحظ هاكفورث Hackforth (المقدمة، صفحة 3) التماثل بين "تضاد الـ لامحدود والحد في الفيليبوس والتضاد بين شواش ما قبل الكون pre-cosmic chaos والصور والعدد eidê kai arithmoi التي بها نظم الشواش في الـ تيميبوس". هكذا نستطيع أن نرى أن الـ لامحدود والحد، والشواش والصور والعدد، والذيات الـ لامحدود والواحد، كلها صياغات مختلفة لفكرة الـ واحد والـ متعدّد الأساسية التي نجدها في الـ فايدروس والجمهورية. كان أفلاطون — عبقري الفكر والبصيرة — يعرف أنه ما من صياغة لفظية يمكن أبدا أن تنفي بالحقيقة. في الجمهورية يعطينا أمثلة الكهف، والخط المنقسم، وتشبيه الشمس، تعبيراً عن فكرة واحدة أساسية. للتعبير عن علاقة الصور المعقولة بالحالات الفعلية العديدة المحددة التي تتمثل فيها (الـ واحد في الـ متعدّد، هو تعبير آخر عن هذا) يتحدّث عن المشاركة، الاجتماع، المحاكاة، وما إلى ذلك، ثم يجد في الـ پارمنيديس أن كل أساليب التعبير هذه غير مرضية. يبدو أن الـ ذيات الـ لامحدود — الذي لا نجده في المحاورات — كان تطبيقاً معيّنًا لفكرة الـ حد والـ لامحدود، الواحد والمُتعدّد. الـ ذيات الـ لامحدود، مثله مثل لامحدود الأكثر — و- أقل، هو امتداد متّصل continuum. بوصفه هذا هو لامحدود ولا معقول. كي يُقبل يجب أن يخضع لحدّ العدد. فإذا كانت صيغة الـ واحد والـ ذيات الـ لامحدود قد أخذت بلبّ أعضاء الأكاديمية لبعض الوقت، فما الغرابة في ذلك؟ كل ما أهيل على هذا المصطلح قديماً وحديثاً من غموض وإغراق في غياهب الأسرار هو محض عصفافة.

التفسير الذي يقدمه 'سقراط' لاكتشاف توت المصري لمفهوم حرف الهجاء (18 ب - د) هو مثال جيّد جدًا للفعل الخلاق الذي به يبيّن العقل المعنى في المتعدّد. خلق مفهوم الحرف — الذي يعرف كل لغوي أنه شيء مصطنع تماماً — يعطى تيار الأصوات غير المفصل معقولة ويأتي إلى الوجود باللغة المكتوبة. نفس تيار الأصوات ذلك إذ يُسمع لا يصبح معقولاً إلا حين يجزئه العقل إلى كلمات متميزة. هذه مجرد حالة خاصة من بسط العقل للصورة على المعطى اللامعقول ليصبح معقولاً. هذا، فيما أرى، هو المعنى الأصلي لمفهوم المعقول السقراطي. من المؤسف أن أفلاطون في سنواته الأخيرة رأى أن يربط الفكرة بطريقة التجميع والتقسيم التي كان قد استحدثها، وهي طريقة كان من الممكن أن تخدم أغراض أرسطو Aristotle العلمية، لا اهتمامات أفلاطون الرياضية والفلكية والفلسفية، ناهيك عن اهتمامات سقراط الأخلاقية.

يضع 'سقراط' جانباً تقسيم اللذة، الذي كان قد وعد بإنجازه، ويعود إلى فكرة الحدّ واللامحدود ويعرض أن يطبّق طريقة التقسيم هناك (23 ج - 26 د). وإذا به تقسيم لا يشبه كثيراً ولا قليلاً ما كان لنا أن نتوقع على ضوء ما جاء في الفايديروس أو السوفيست أو الديالكتيკوس. أما التجميع، من ناحية أخرى، فنرى أنه إسقاط لوحدة تعطى المعقولة للمتعدد اللامتشكّل؛ بعبارة أخرى، إنه إنشاء صورة (نسق). كان أفلاطون يبحث عن أدوات فكرية جديدة لتمثيل الشدّ والجذب الأزلي المتبادل بين الواحد والمتعدد، الكينونة والضرورة، ثبات المعقول وتحوّل العالم الموضوعي. كانت هذه واحدة أخرى من تجرّباته التي لا تنتهي، وسيماء التجريب مطبوعة على كل جوانبها. عند تقديم فكرة المزيج *meikton* كنتاج للحدّ والأكثر - و - أقل *to mallon te kai hēton*، يمزجها بفكرة المعيار *measure* كمصدر لكل ما هو حسن. إذ يفعل هذا فإنه يحرم الحدّ من شموليته. الحرارة لامحدودة؛ أي درجة حرارة معيّنة هي مزيج *meikton*؛ لكن درجة 300 مئوية، من حيث هي درجة حرارة، تماثل تماماً 30 مئوية، لكنها ليست 'المعيار' الذي يعطينا جواً معتدلاً. من الواضح أن اهتمام أفلاطون بالاعتبارات الأخلاقية كان هنا هو الأعلى. أيّاً ما كان مصير الفكرة في الأكاديميا، فإنني لا أظن أن أفلاطون ظل راضياً عنها لوقت طويل. كان على الدوام متصبّداً لأفكار جديدة، ولم يكن أبداً ليرضى عن فكرة ما لوقت طويل؛ ذلك مصداق عبقريته. عندما نمسك بفكرة معيّنة، أو نظرية، أو عقيدة، أو ما شئت من هذا القبيل، ونحاول أن نعطيها ثباتاً لم يُرده لها مبدعها، فإننا نصحّي بما له أعظم قيمة، البصيرة التي تتضمنها، التي يمكن أن تُلمح، تُشهد في حركة الفكر الحيّة، لكنها أبداً لا يمكن أن تُحبس في نظرية أو عقيدة جامدة. هذا هو المغزى الحقّ لإصرار أفلاطون على تأكيد أن أعمق أفكاره لا يمكن حبسها في أي نصّ كتابي، إنه هذا وليس السرّيّة المذهبية التي ينسبها إليه شليزك Szlezak وغيره من الباحثين المحدثين.

بعد أن جعل كل صيرورة تنتج عن امتزاج الحدّ واللامحدود، وبعد أن أضاف المزيج الناتج كمبدأ ثالث، نجد أفلاطون لا يشعر بالرضا. والحقّ معه. فلو أننا وقفنا عند هذا لكانا قد انضممنا للحشد الحاشد من الاختزاليين *reductionists*، القدامى منهم والمحدثين: نعطي بياناً جيّداً عن الصيرورة، ثم نورد قائمة بالعناصر التي استخدمناها في بياننا الموضوعي. لكن أفلاطون كان يعرف أن ذلك لا يفي بغرضه، فيأتي بالمعلّل الفاعل الذي هو من وراء كل ذلك، يأتي به كمبدأ رابع. إذا أردنا الحقّ، فالفعل الخلاق ككل هو وحده القابل لأن يُعقل حقاً. قد نجّرته، فكرياً، على أكثر من نحو، لخدمة أغراض مختلفة. لكننا

نسيء لأنفسنا إن نحن قنعنا بالشطايا، كما يفعل كثيرون ممن ينتمون للفلسفة وللعلماء.

يطرح بيرنيت Burnet السؤال: لأي من 'أنواع' الديليبيوس تنتمي الصور؟ ثم يقول إن الصعوبة تنشأ "من واقع أن أفلاطون يحجم عن إعطاء مذهبه في هذا الموضوع كاملاً في هذه المحاوراة" (*Greek Philosophy: Thales to Plato*, 1914, p.332). ليس الأمر هكذا في رأيي. أفلاطون لا 'يحجم' عن إعطاء 'مذهبه كاملاً': هو لا يعطيه لأنه لم يكن له أبداً 'مذهب كامل'؛ وهو لم يكن له أبداً 'مذهب كامل' لأنه كان يعرف أنه ليس من 'مذهب كامل' يمكن أن يفى بالحقيقة. أفلاطون أبداً لا يعطينا، لا عن هذا ولا عن أي مسألة أخرى، مذهبا 'مكتملاً'، لأنه كان يعرف أن ذلك فيه هلاك الفلسفة. أردت أن أعلق على مقولة بيرنيت على هذا المستوى الأساسي لأن ذلك يمس صميم الفلسفة. لكنني لا أرى صعوبة في الإجابة على السؤال: الصور لا تنتمي وحسب للحدّ، إنها ذات الحدّ.

الفصل الثاني عشر

الديميائوس

1

تُعد الديميائوس بأن تعطي بيانا عن تكوّن الكون حتى خلق الإنسان. ولكن قبل أن نخاطر بهذه النية نمرّ بمخل غريب حيث يعطينا سقراط ملخصا لمناقشة يُفترض أنها جرت في اليوم السابق. ونجد الملخص عبارة عن بيان بالخطوط العريضة للدولة النموذج التي وُصفت في الأبواب من الثاني حتى الجزء الأول من الباب الخامس من الجمهورية. يقول سقراط إنه يوّد لو سمع أحدا يعطي بيانا عن تلك المدينة النموذج "وهي تخوض صراعا ضدّ جيرلنها، وكيف حاربت بطريقة لانقة" (19 ج. الترجمة الانجليزية لـ جويت Jowett). ونجد كريتياس مستعدّا لإجابة مطلب سقراط بحكاية رواها كهنة مصريون لصولون عن صراع جبار خاضته أثينا ضدّ أطلانتس قبل عهد صولون بتسعة آلاف عام. ويقدم كريتياس تخطيطا أوليا للحكاية التي يُتفق على أن يدلى بها تفصيليا في اليوم التالي — موضوع الكريتياس التي بدأها أفلاطون ولم يكملها.

الموجز التخطيطي الذي قّمه سقراط للمدينة النموذج التي وُصفت في الجمهورية قد أوعز للباحثين بشتى التصورات الجامحة. إذ يلاحظ جون بيرنيت John Burnet أن الموجز لا يشمل البابين السادس والسابع، نجده يقول: "هذا لا يمكن أن يعنى إلا أن الديميائوس وما كان في النية أن يليها كان مقصودا أن تحلّ بطريقة ما محل الأبواب الأخيرة من الجمهورية" (Greek Philosophy: Thales to Plato، 1914، p.339). إنني لأجد هذا كلاما لا يقبله عقل. إن فلسفة البابين السادس والسابع (مع الجزء الأخير من الخامس) هي عندي لبّ الأفلاطونية وقلبها النابض. نجد تلك الفلسفة في كامل حيويتها

ليس فحسب في *السوفست* و*الفيليبوس* و*التيمايوس* وإنما أيضا على امتداد *القوانين* وخاصة في الأبواب الثلاثة الأخيرة. مدينة *الجمهورية* النموذج هي ما 'حلت محلها' *القوانين*، وليس فلسفة *الجمهورية* في المعرفة والحقيقة.

يبدو أن أفلاطون اخترع 'مناقشة اليوم السابق' ليمهد لل*كروتيايس*. كان يحتاج تخطيطا لمدينة نموذجية لهذا الغرض ووجد تلك التي كان قد اخترعها للجمهورية جاهزة فاستخدمها. ليس هناك ما يدعو لافتراض أنه أراد أن يستحضر العمل السابق من حيث هو.

2

كانت الكوزمولوجيات أول نتاج المغامرات الفكرية للعقل الإنساني. كل الثقافات البدائية، كل الحضارات القديمة، كانت لها كوزمولوجياتها أو أساطيرها الكوزمولوجية. أوائل المفكرين الأيونيين كانوا كلهم بناء كوزمولوجيات. سقراط كان عنده من الأسباب الخاصة ما دعاه لأن يتخلى عن سلوك هذا السبيل. المسائل التي كانت هي كل هم سقراط كانت عند أفلاطون أيضا في المكان الأول من الأهمية. لكن أفلاطون لم يكن يرى ضررا في أن يُعمل فكره وخياله في بناء كوزمولوجية، بشرط أن تكون حدود المغامرة الفكرية واضحة تماما. هكذا نراه يجعل *تيمايوس*، قبل أن يقدم عرضه، يذكرنا أولا بالتمييز بين المعقول والمحسوس (27 هـ - 28 أ)، ثم ينتهنا إلى أن وصف ما هو مجرد ظل سيكون بدوره مجرد ظن؛ فمكانة الكينونة بالنسبة للvisورة تضاهي مكانة الصدق بالنسبة للظن (29 ج). ثم يواصل القول: "يجب أن تقنعوا إذا جاء بياننا محتملا بقدر أي بيان آخر ... يجب ألا تتوقعوا شيئا أكثر من حكاية *muthos* محتملة في مثل هذه الأمور" (29 ج - د. الترجمة الإنجليزية لـ *دزموند لي* (Desmond Lee)). كل هذا يتوافق تماما مع منظور *الجمهورية* بشأن المعرفة والحقيقة: إننا هنا نتحرك داخل الجزء الأدنى من القسم الأعلى من الخط المنقسم. كل 'المعرفة العلمية'، كل معرفة واقعية عن الدنيا، هي عند أفلاطون منحصرة في ذلك النطاق. جدير بالملاحظة أنه، بعد أن يقال لنا إن "وصف ما هو غير متغير وثابت ومعقول في وضوح، سيكون غير متغير وثابت"، نجد ذلك متبوعا على الفور، في نفس الفقرة، بهذا التحفظ: "أي أنه سيكون غير قابل للتفنيد وغير معرض للجدل بقدر ما يمكن لوصف بالكلمات أن يكون" (29 ب-ج)، وهذا بدوره يتفق تماما مع *الجمهورية* و*الفايروس* والرسمية السابعة.

لعل ما دفع أفلاطون للمغامرة بالنزول إلى ذلك الخضم الكوزمولوجي غير الأمن هو نفس الشعور الذي ألهم كل فكر أفلوطين *Plotinus*، نفس الذي ألمى على وايتهد *Whitehead* أن يكتب رائعته *Process and Reality*، نفس الذي حفز كل بناء المنظومات الميتافيزيقية الكبرى، والذي يمكن أن أعتبر عنه بهذه الكلمات: نحن جزء من الكل، ونحن لا نستطيع أن نكون نحن أنفسنا كلاً، إلا إذا رأينا أنفسنا في الكل.

في بداية حديثه التمهيدى، يلخص تيمايوس في إيجاز محكم موقف الجمهورية من المعرفة والحقيقة: "في رأبي أن علينا أولاً أن نميز بين ما هو كائن دوماً وليس خاضعاً للسيرورة وذلك الذي هو دائماً في سيرورة وليس له كينونة أبداً. ذاك معقول، نبلغه بالعقل، ودائماً هو كما هو؛ والآخر ندرکه بالحس غير العقلاني، وهو دائماً مادة للحس، دائم السيرورة والفتاء، لكنه أبداً لا تكون له كينونة حقّة" (27 د - 28 أ). على الفور يضع هذا كل مناقشة الـ تيمايوس في إطارها الصحيح. إن أفلاطون لا يرجع أبداً عن نبذ سقراط للبحث الفيزيقي في 'السيرة الذاتية' في *الديالوجون*. هكذا ينهي تيمايوس حديثه التمهيدى محذراً سقراط ألا يتوقع ما هو أكثر من 'حكاية *muthos* محتملة' (29 د).

ها هنا نجد تمييز سقراط الجذري بين المعقول والمحسوس، وربط أفلاطون مستويات المعقولة بمستويات أو درجات الحقيقة، ومبدأ الميتافيزيقا الأفلاطونية الأساسية: التضاد بين الحقيقة والوجود الزائل — كل هذا نجده، في هذه الكلمات القلائل، محبوباً في نسيج واحد متماسك. قال لنا أفلاطون مراراً عدّة، إن ما هو حقيقي تماماً وحده قابل لأن يُعرف بالمعنى الحقّ للمعرفة، وما هو هنا يكرّر هذا في أوضح عبارة. فأفلاطون يندرننا منذ البداية بأن الكوزمولوجيا التي نزمع أن نلج دروبها لا يمكن أن تكون موضوع معرفة حقّة.

ويعود تيمايوس يحثّ سقراط في عبارة صريحة: "لا تدهش يا سقراط إننا إن كنا في شأن كثير من المسائل المتعلقة بالآلهة وبالعالم التغير ككل نجد أننا لا نستطيع من كل الوجوه وفي كل حالة أن نقدم بياناً متناسقاً وديقاً ... إننا كليناً، أنا وأنت، ... لعلنا إلا بشراً ... وينبغي ألا نتطّلع لأكثر من حكاية محتملة في مثل هذه الأمور" (29 جـد). كل ما نعرفه عن العالم — حتى عن أكثر جوانب العالم اتساقاً نسبياً وثباتاً نسبياً — لا يمكن أبداً أن يكون أكثر من حكاية محتملة، "فمتى قبلنا في هذه الأمور الحكاية المحتملة يجدر بنا ألا نسعى للمزيد في شأنها" *hōste peri toutōn ton eikota muthon apodechomenous* هذا مبدأ أساسى في الأفلاطونية نحن في أممّ الحاجة لأن نستوعبه.

في 51-ب - هـ يعود أفلاطون مرة أخرى لموضوع الصراع بين المفهوم المادّي والمفهوم المثالي للحقيقة الذي كان قد مثّله في السوفيست بمعركة الآلهة والمزّدة. الموضوع في الواقع يضرب بجذوره في التمييز الموقراطي بين المعقول والمحسوس، الذي يعاود الظهور في الجمهورية في هيئة التباين بين مجال الحقيقة ومجال الظلال، الذي نجده مصوراً بدقة في أمثلة الكهف، ومن جديد في التمييز بين المعرفة *epistêmê* والظن *doxa*، المتمثل في الخط المنقسم. فحين يؤسس أفلاطون هنا حقيقة الصور المعقولة على التمييز بين المعرفة والظن فهو إنما يعود لتوكيد التمييز الذي أرساه في الجمهورية بين كل 'معرفة' إمبريقية من ناحية والفهم العقلاني من ناحية أخرى. هنا أيضاً نستطيع أن نرى في وضوح أنه من المستحيل أن نفصل في فكر أفلاطون بين البعد الإبيستيمولوجي والبعد الميتافيزيقي. من الواضح أيضاً أن أفلاطون، وإن يكن من المؤكد أنه طور البصيرة السقراطية، فإنه أبداً لم يجد عنها.

3

البصيرة التي أعطيت تعبيراً صريحاً في السوفيست، بأن ما هو حقيقي لا بدّ أن يكون حياً وعاقلاً، ينبثق زهرها في التيمايوس، إذ نجد في 29-د - 31-ب ال واحد البارمنيدى وقد اكتمل بالحياة والعقل.

العقل *nous* عند سقراط هو ما يجعل منا كائنات إنسانية، يعطينا طبيعتنا الإنسانية ويعطينا قيمتنا. يصعد أفلاطون بهذه البصيرة إلى المستوى الميتافيزيقي: العقل *nous* هو ما يجعل الكون هو ما هو ويضفي المعقولة على كل كينونة وكل صيرورة. من الخطأ أن تُترجم *aitia* في أعمال أفلاطون بـ 'السبب' (cause). 'السبب'، في التفكير العلمي، يشير إلى وضع للأحوال *state of affairs* يسبق وضعاً آخر للأحوال. في فيليبوس 26-هـ يقول أفلاطون إن الـ *aitia* و'الصانع' اسمان لنفس الشيء. وأيضاً، ذلك الذي يُصنع وذلك الذي يحدث هما اسمان لنفس الشيء (فيليبوس، 27 أ).

في 28-أ يقول تيمايوس: *pan de au to gignomenon hup' aitiou tinos ex anagkês gignesthai` panti gar adunaton chôris* أي، أيضاً، كل ما يحدث، يحدث بالضرورة بفعل فاعل؛ ليس ممكناً بدون فاعل، لأي شيء أن يحدث. لي Lee يترجم هكذا: "In addition، everything that becomes or changes must do so owing to some cause; for nothing can

"come to be without a cause." (بالإضافة لذلك، كل ما يحدث أو يتغير لا بد أن يفعل هذا بفعل سبب ما؛ فلا شيء يمكن أن يحدث بتغير سبب (").
ترجمة جويت Jowett أكثر أمانة لروح نص أفلاطون: "Now everything that becomes or is created must of necessity be created by some cause for without a cause nothing can be created". ("فكل شيء يحدث أو يُخلق لا بد بالضرورة أن يُخلق بفعل سبب ما، فبغير سبب لا شيء يمكن أن يُخلق"). علينا أن نحرص كثيرا على ألا نقرأ في كلمات أفلاطون المفهوم العلمي للسببية. بمعنى أفلاطون فيبين أن انتاج شيء على مثال اللامتغير مغاير لانتاج شيء على مثال المتغير. ينبغي أن ينتهنا هذا إلى الاختلاف الجذري في منظور أفلاطون لمسألة السببية. قال *aitia* عند أفلاطون، تماما كما هو عند سقراط، ليس 'سببا' خارجيا بل هو دافع عاقل، هو قصد (reason why): قد نقول إنه 'غاية' بشرط ألا يغيب عنا أنه ليس غاية خارج الفعل بل هو تعبير عن غائية أصيلة في الفعل. هذا ما أسميه مبدأ الفعل الخلاق principle of creativity.

حدث أو صيرورة شيء ما (أي حدث) لا يفسمره (كما يظن علمائنا) وصف أوضاع الأحوال التي تسبقه، مهما بلغ ذلك الوصف من التدقيق والشمول، بل تفسره الغاية التي تظهر الحدث كتوكيد خلاق للكُلِّ (الحقيقة) الذي لم يكن وضع الأحوال السابق إلا مظهرا موضوعيا له. (لعلى، كما في أحوال أخرى عديدة، قد تجاوزت أفلاطون: إن لم تكن عندي إضافة أسهم بها، فلماذا إذن أكتب؟ لكنني فيما قلت هنا لا أعارض أفلاطون. حيث أعارض أفلاطون فعلا، كما في مسألة البقاء الشخصي بعد الموت، فإني أعلن هذا صراحة.)

فكرة السبب هي من خلق العقل. حين فصل كُنت Kant العقل Vernunft، reason من جماع فعل العقل الفاعل ثم مضى يميز بين العقل reason والملكات الأخرى (الفهم، understanding، Verstand، والإحساس sensibility، Sinnlichkeit)، وزاد بأن قسم العقل نفسه إلى عقل نظري speculative وعقل عملي practical، فإنه لم يفعل غير أن أضعف البصيرة السقراطية، بصيرة أن المفاهيم التي تشكل عالم المعقول ينشئها العقل. العقل الفاعل هو الحقيقة الواحدة التي نعرفها. الخط المنقسم عند أفلاطون لا يؤسس ملكات منفصلة بل يشير إلى مستويات متباينة من الكمال في العقل الفاعل.

فكرة 'السبب' كما نفهم عادة لا بد أن تكون أكثر اختلاقات fictions العقل وغولا في غياهب الماضي السحيق، وهي من الرسوخ في عقولنا بحيث تبدو آمنة من كل تحذُر. لا بد أنها كانت بين أقدم إبداعات النوع الإنساني، ولا جدال

في أنها أحمنت خدمة الجنس البشري، فما كان البشر بمستطيعين أن يبدأوا مسيرتهم الطويلة في تسخير الطبيعة بدون هذه الأداة. لكن أن لنا أن نكشف الوهم، مهما كانت فائدته وضرورته لخدمة أمور معيشتنا. الصيرورة المبدعة ليس لها سبب، بل لها مناسبة، لها أساس، لها نبع، أو ما شئت من التعبيرات. المناسبة تفتّح تفتّحاً خلاقاً. أسأل شاعراً، أسأل عاشقاً. هذه الفكرة بالطبع لا تمكننا من إنجاز عمل في عالم الواقع. لكن إقحام أسطورة السببية في الفلسفة أوقع الفلاسفة فيما لا نهاية له من المعضلات الكاذبة، التي لا يمكن أن نجد لها حلاً أبداً، إنما يمكن في يسر الإفلات من أحابيلها يعون فكرة الإبداع. الصيرورة سرّ لا يضحى معقولا إلا في ضوء مبدأ الفعل الخلاق.

4

في ترجمته للبوليتيكوس، يقول ج. ب. سكيب J. B. Skemp، معلّقاً على تيمابوس 33- ب - ج، حيث يرد وصف الجسم الحي للعالم: "ها هنا نقلت تفكيراً أنثروبومورفياً مبكراً عن الكون" (صفحة 87). أن نقف عند الطبيعة الأنثروبومورفية⁽⁷⁸⁾ لهذا الوصف يعنى الخط من فكر أفلاطون. الأنثروبومورفية هنا، أي ما كان منبعها، كانت عند أفلاطون أسطورية مقصودة، لكن البصيرة المتضمنة فيها كانت ميتافيزيقية عميقة، أو كما أفضل أن أقول، كانت نبوية. إنها تعطينا منظور كون حي عاقل.

في 34- أ - ب نجد الد واحد البارمنيدى، الكامل المكتمل، ملخّصاً في صيغة ما كان الإيلى الجليل لينكر منها شيئاً، لولا فارق وأى فارق! فهذا الد واحد مخلوق. حتى 'نموذجه' المعقول لا يمكن معادلته بالحقيقة النهائية. رغم أن العلاقة بين المصانع *muthos* أفلاطون لا يحدّد صراحة، في الأسطورة والنموذج، إلا أنني أراه متسقاً مع كل منظور أفلاطون أن تكون الحقيقة النهائية

(78) ترخّب مساحة الفكر الإنساني بتزايد وتشعب المفاهيم التي تكوّن مجال الفكر. وفي فترة سبّات الفكر العربي، التي طال مداها، اكتسب الفكر الإنساني الكثير من المفاهيم التي نحن في أشد الحاجة لاستيعابها، فهذه أدوات التفكير التي بدونها يبقى تفكيرنا منحصراً في دائرته الضيقة، لا يتجاوزها. وأيسر سبل استيعاب المفاهيم الجديدة في لغتنا هو تعريب المفردات الدالة على تلك المفاهيم في اللغات الحيّة التي نشأت فيها. وقد نستطيع أن نوجد لبعض المفاهيم مفردات مناسبة بالنحت أو الاشتقاق. ولكل من الطرفين - التعريب والنحت أو الاشتقاق - ما لها وما عليها. هل نترجم anthropomorphic thinking بـ 'تفكير مؤنسن' مثلاً؟

هي الخير، الخير الفاعل الخلاق، الذي يحقق خيره العاقل ذاته، طبيعا وبالضرورة، في فعل الخلق. هذا أفلوطين وسبينوزا في أن معًا. لم يزيّف أفلوطين فكر أفلاطون بل أعطاه تعبيراً أسطوريّاً أصيلاً. منظومة سبينوزا⁽⁷⁹⁾ أيضاً أسطورية: لن نصل إلى جوهرها إلا حين نراها هكذا، وعندئذ فقط تجد مظهرية براهينها الرياضية ما يشفع لها فيما تنطوي عليه من رؤية أساسية.

يمضى تيمايوس بعد ذلك ليبيّن ما الذي دعا مشكّل هذا الكون المتغيّر أن يشكّله أصلاً. "كان خيراً، وما هو خَيْرٌ ليس فيه هبّاءة من حسد؛ وإذ لم يكن فيه حسد فقد رغب أن يكون كل شيء مماثلاً له قدر الإمكان" (29 د - هـ. الترجمة الإنجليزية لـ لي Lee). التيمايوس تقدّم في وضوح مبدأ الفعل الخلاق the principle of creativity. الديمورجوس *dèmiourgos* (الصانع) خلق العالم لأنه، إذ هو خَيْرٌ، أراد لخيره أن ينتشر. خير الخير النهائي قيّض، يؤكد ذاته في عطاء خلاق، في فعل الحب. في صباي كتبت خلاصة تخطيطية للمنظومة الفلسفية التي كنت قد كوّنتها في ذهني. أذكر أنني صغت التخطيط في ستين نقطة، انتهت إلى أنه في التحليل النهائي فإن أصل صيرورة كل ما هو كان هو إرادة، والإرادة غائية، والغاية حب. من ثمّ انتهيت إلى أن الحقيقة النهائية هي الحب. إنني أجد نفس الفكرة في هذا الذي يقوله أفلاطون هنا. صانع العالم كان خيراً، ولأنه كان خيراً فقد أراد أن يكون الخير في كل شيء. السبيل الوحيد لأن نجد صيرورة العالم معقولة هو أن نرى المصدر النهائي لكل شيء كقوة خلاقة عاقلة وخيرة. لكني لا أرى هذه الفاعلية الخلاقة كعملية خلق من قبّل خالق متسام *transcendent*؛ إنها فاعلية خلاقة تطوّر وتشكّل كينونتها الذاتية. وكما يضيف أفلاطون: "هذا مبدأ لأصل عالم التغيّر صحيح بقدر ما يمكن لحكمة البشر أن تدرك، وينبغي لنا أن نقبله"، *tautên dê geneasôs kai kosmou malist' an tis archên kuriôtatên par' andrôn* (29) *phronimôn apodechomenos orthotata apodechoit' an* 30. الترجمة الإنجليزية لـ لي Lee).

"إذ وجد الله الكون المرني في حالة ليس فيها استقرار، بل وجدته في حركة غير متناغمة وغير منتظمة، حوّله من اللانظام إلى النظام..." (30 أ). هنا علينا أن نتمهّل عند نقطتين. لو أن الحقيقة النهائية كانت كياناً پار منيدياً بسيطاً

(79) انترجم Spinoza's system بـ 'منظومة سبينوزا'. إنني أرى أن ترجمة system في سياق الإشارة لفكر فلسفي شامل بـ 'نظم' لا تفي بالغرض.

غير متمايز، لما كان من الممكن أن نجد تفسيراً لصيرورة أي شيء على الإطلاق. لا بدّ من شيء في مواجهة الـ واحد الكامل. يختار أفلاطون أن يرى ذلك الشيء كعالم مضطرب مستقلّ الوجود. ربما كان ذلك راجعاً لتعلق أفلاطون المزاجي بالبسيط واللامتغير. لكن ذلك بتركنا متقلين بمشكلة مصدر أو أصل ذلك العالم المضطرب. أنا أجد ذلك الشيء في بُعد الوجود (مجرد كينونة المعطى الجرداء الصماء)، في مواجهة بُعد الحقيقة: هذان بُعدان في العقل الفاعل الخلاق النهائي⁽⁸⁰⁾ الذي أسّميه أيضاً الـ أزل الخلاق. هذا هو المنظور الذي أقنمه في الباب الثاني من *Let Us Philosophize*.

لغة أفلاطون (مثلاً في 27 هـ - 28 أ) قد توحي بأن موقفه تجاه التغيير والصيرورة بقي متأرجحاً برغم أنه مال في محاوراته المتأخرة للتوكيد على الحياة والعقل والفاعلية كسمات جوهرية للحقيقة. لكنه حين يقول إن "ذاك الذي يبقى هو هو بلا حراك أبداً لا يمكن أن يكبر أو يصغر بفعل الزمن؛ ولا يمكن أن يقال عنه إنه حدث في الماضي، أو إنه يحدث الآن، أو إنه سيحدث في المستقبل؛ ولا هو يخضع لأيّ من تلك الحالات التي تؤثر في الأشياء المتحركة المحسوسة التي يسببها التوالد" (38 أ. الترجمة الإنجليزية لـ جويت (Jowett) — حين يقول هذا ينبغي أن نكون قادرين على فهمه بطريقة أفضل. الواقع الزائل وحده هو في الزمن ويخضع للذوق الهيراكليتي *the Heraclitian flux*؛ أما العقل الفاعل الخلاق الذي بدونه لا يكون للواقع الفعلي أي كينونة فهو متجاوز للزمن *supra-temporal*. لو أن العقل الفاعل الخلاق كان هو نفسه متغيراً، لما كانت هناك حقيقة ولا كينونة حقّة على الإطلاق: عندئذ تكون عندنا أفكار باركلي *Berkeley* مع غياب الله، وهذه استحالة. الفقرة 37-ج - 38-ب بأكملها تضع مسألة الزمن والأزل تحت ضوء ساطع. ترى هل كانت هذه الفقرة في ذهن أوغسطين *Augustine* حين عالج مسألة الزمن في الباب الحادي عشر من *الاعتراقات*؟

(80) أجريت هنا تعديلاً على الأصل الإنجليزي الذي وجدته غير دقيق، فأتنا أضع "الحقيقة" في مواجهة 'الوجود' كعدين للحقيقة التي هي الأزل الخلاق. 'الحقيقة' هي المعقول بينما الـ حقيقة (البتى أجد وسيلة للتمييز بين الكلمتين بطريقة أوضح من هذه) هي العقل الفاعل.

حين نصل إلى خلق الطبقات الأدنى من المخلوقات الحية، المخلوقات التي تلى طبقتي الألهة المخلوقة، نجد نقطتين جديرتين بالملاحظة. نجد الصانع أولاً يخبر الألهة بأنهم في حقيقة الأمر قانون لكنه بما فيه من خير لن يسمح بأن يغنوا. هل يتناقض هذا مع 'التدليل بالبرهان' في *الديفيدروس* و *القوانين* على خلود الروح كمبدأ للحركة؟ ربما. لكنه لا يؤثر على الفكرة الأساسية في قلب *الديفيدون* وكل المنظور السقراطي، فكرة أزلية الروح. هنا في *الديميوس* يعلن الصانع: كل ما هو مركب يمكن أن يُفكك *to men oun de dethen pan luton* (41 أ-ب). كل روح معينة هي مجمعة ومن ثم فهي قابلة للفساد. (دعونا نترك جانباً الآن مسألة ما إذا كان ذلك سيحدث أم لا.) لكن الروح بفاعليتها وإبداعيتها هي حقاً في الأزل، هي لحظة من الحقيقة الأزلية، أو، إذا سُمح لي باستخدام مصطلحي الخاص، هي لحظة من الأزل الخلاق. وإذا أقول هذا أكون قد قَدِّمت ثانية النقطتين اللتين أُشرت إليهما من قبل: الصانع في أسطورتنا *muthos*، بينما يوجه الألهة لخلق الحيوانات التي ستعمر الأرض، يحتفظ لنفسه بخلق روح الإنسان. هذا يشير إلى إلهية الروح، الرسالة المحورية في *الديفيدون*.

حين يقال لنا إن "الأصول الأكثر بُعداً" للنار والأجسام الأخرى "لا يعرفها غير الإله والناس الذين يحبهم الإله"، هل يُفترض أن نفهم أن الأصول الأولى للأشياء "يعرفها الناس الذين يحبهم الإله" بنوع من الوحي التصوُّفي؟ أم أن الحكماء (الذين بوصفهم حكماء يحبهم الله بالضرورة) يعرفونها بمعرفة سرية مخبوءة عن العامة؟ هل في هذا تأكيد للرأي القائل بأن أفلاطون كانت له فلسفة خفية؟ أعتقد أننا لا ينبغي أن نتعسف في قراءة كلمات أفلاطون هنا. ربما كانت العبارة لا تعني أكثر من القول بأنه، في حين أن ما يزعم *ديميوس* أن يشرحه يمكن أن يفهمه كل الناس لأنه منحصر في مجال الصيرورة، فإن الأصول الأولى، 'السبب' *aitia* الحق، لا يمكن أن يدركه إلا الفيلسوف الحق الذي يستطيع أن ينال، بالديالكتيك الأصيل، رؤية الحقيقة النهائية.

فكرة الشواش الأزلئ original chaos التى قَدمت فى 30- أ تظهر من جديد فى 47-48 فى التضادّ بين العقل والضرورة. العالم ليس نتاجا للعقل الخاص. لكى يُعقل العالم الفعلى المنقوص، نحتاج عنصر الوجود الأجرد، الذى يسمّيه أفلاطون هنا 'الضرورة'. الـ ضرورة التى يكون على العقل التعامل معها فى مسار الخلق هى - على الأقل فى تأويلى الخاص - المعطى الوجودى الضرورى (أو ضرورة أن يكون الوجود معطى). بغير بُعد الواقع الموضوعى (= الوجود)، لكن العقل يبقى فى سكونة لازمنية timeless مثل 'العلّة الأولى' ('السبب الأول') عند أرسطو Aristotle. علينا أن نفكر فى الـ حقيقة (الـ خير، الله، الـ واحد) باعتبار أن لها بُعد الوجود هذا، الذى فيه أو من خلاله تُؤكد الحقيقة ذاتها دوما فى حقائق زائلة.

الحقيقة الأزلية لا يكون لها وجود موضوعى إلا فى واقع هو بجوهره عابر: هذا ما أسميه بمبدأ الزوال principle of transience فى الباب الثانى من *Let Us Philosophize*.

فى المنظور النهائى للحقيقة يلزمنا أن نرى بُعد العقل يصارع لامعقولة الوجود الأجرد.

من جديد تعود الفكرة للظهور فى 49- فى هيئة الوعاء، *hupodochê*، أو حاضنة الصيرورة، *pasēs einai geneseōs hupodochên autên*، ولو أن أفلاطون هنا يقدّم الوعاء كمبدأ ثالث بجانب المعقول والمحسوس. من قبل وجدنا العقل والصور المعقولة من ناحية والأشكال المتحوّلة من ناحية أخرى. لكن الأشكال المتحوّلة ما كانت لتكون لو لم يكن عندنا بجانب العقل شيء يمكن أن تصاغ منه أو فيه الأشكال العابرة. هكذا نجدنا أمام الوعاء باعتباره النوع الثالث من الكينونة. (استخدام لى Lee لعبارة 'صور الحقيقة' "forms of reality" هنا لا يمكن إلا أن يكون مصدرا للاضطراب). إننى أسمى هذا بُعد الوجود أو المعطى أو الواقع. يمكنك أن تسميه المكان، أو الزمان-المكان، أو المادة بمعنى 'هولى' أرسطو Aristotle's *hulê*. كل هذه تصوّرات خيالية (اختلاقات) fictions، وكلها صالحة بنفس القدر. ما يهم هو أنه فى سبيل أن يُعقل العالم كما نجدنا أمامنا، لا يمكن أن تكون الـ حقيقة النهائية مثل الـ واحد البارمنيدى the Parmindindean One، بل لا بدّ أن تكون متعدّدة الأبعاد. أعتقد أن هذا كان هو أيضا درس البارمنيدى.

بعد ذلك يُطرح السؤال ما إذا كان ينبغي لنا أن نتحدّث عن كون واحد أو عديد من الأكوان أو لانهائية من الأكوان. هنا نجدنا أمام صيغة أخرى من

أحجية 'الرجل الثالث'. إذا كان الكون قد صُنِعَ على مثال النموذج المثالي، *kata to paradeigma dedêmiourgêmenos*، فلا بد أن يكون واحداً، "فذلك الذي يضم كل الكيانات المعقولة لا يمكن أن يكون له ثان، وإلا لزم أن يكون هناك آخر يضم كليهما ... إذن لكي يماثل كوننا المخلوق الحي الكامل في كونه فريداً، لم يصنع المصانع كونين أو عدداً لانهائياً، إنما كوننا كان وهو الآن وسيبقى دائماً خلقه الوحيد" (31 أ). هنا لم تُستخدم حُجَّة الارتداد اللانهائي *infinite regress* لأن بؤرة النقاش هنا هي تفرّد العالم المخلوق؛ لكن مبدأ أن المثال المعقول لا يحتاج هو ذاته مثالا أسبق قائم هنا أيضاً: المعقول مُكْتَفٍ بذاته. بشكل أبسط يمكننا أن نقول، بما أن المسألة الميتافيزيقية تتعلّق بأصل كل كيئونة، فإن تعدّد الأكوان لا يمكن أن يعنى إلا عديداً من أنظمة، مستقلة عن بعضها البعض، تابعة كلها للحقيقة النهائية. الفلاسفة المحدثون الذين يناقشون تعدّد الأكوان يحاولون سدئ التعامل مع مسألة لا يمكن حتى أن تصاغ صياغة ذات وضوح ذاتي.

7

حين يزعم تيمابوس أن يدخل في تفاصيل صنع الكون، يقول إن علينا أن ننظر في طبيعة النار والماء والتراب والهواء. "إذ أن أحداً لم يبيّن بعد أصلها، بل نتحدث كأنما الناس يعرفون ما النار وما كل واحدة من تلك العناصر" (48 ب). الخطأ الأساسي في التفكير الفلسفي الراهن هو أننا عاجزون عن أن نرى أن ما يقوله أفلاطون هنا صحيح في يومنا هذا كصحتّه في زمن أفلاطون. يعضي أفلاطون قائلاً: "ليس لنا نحن أن نصف المبدأ الأول أو المبادئ الأولى (سمّها كما تشاء) للكون، لسبب بسيط هو أنه سيكون من الصعب شرح منظورنا في سياق المناقشة الحالية. ... سأتمسك بمبدأ القول المحتمل الذي قدّمته في البداية ..." (48 ج - د). أن نأخذ في الاعتبار "المبدأ الأول أو المبادئ الأولى" لا يكون ممكناً إلا حين نعمل في مجال المعقول الخالص، أعلى الأقسام في "الخط المنقسم". هذا لا موضع له هنا لأننا هنا، مثل بارمنيديس في الجزء الثاني من قصيدته الفلسفية، قد عبرنا الحدّ الفاصل وولجنا طريق الـ ظاهر⁽⁸¹⁾، حيث لا يمكننا تبين أي مبادئ حقة — علينا أن نقع بالحكاية المحتملة، وهذا كل ما يعدنا به أفلاطون.

(81) طريق الـ ظاهر: تنقسم قصيدة بارمنيديس الفلسفية إلى جزئين، الجزء الأول 'طريق الحق' يتناول المبادئ الأولى، والجزء الثاني 'طريق الظاهر' يتناول ظواهر الأشياء.

الضرورة هي العامل اللاعقلاني في الكينونة، هي إعطائية المعطى *givenness of the given*، كون هناك معطى نهائي لا يمكن إرجاعه لما عداه *irreducible*. موطنه ومرتعه هو الوعاء والحاضنة، الـ *hupodochê* لكل وجود عابر. الـ *التيمايوس* هي 'طريق الـ ظاهر'، في أعمال أفلاطون: اضطرر أفلاطون، كما اضطرر *پارمنيديس*، لأن يتنازل فيتواءم مع حاجة البشر للتجوال في دروب مناطق التهيؤات.

لنا أن نلاحظ أنه لا مكان لمادة لا حياة فيها في الـ *التيمايوس*. إذا كانت الأرض إلها أو إلهة، وإذا كان الكون كله يتكوّن من إلهة أو إلهات، فأين يمكن أن يكون أي شيء بغير حياة؟

وصف *لوك* *Locke* الأشياء خارجنا بأنها "مادة غيبية، خاملة، لا تفكر". أي حق كان له في أن يقول ذلك؟ إذا خلصنا أنفسنا من خرافة مفهومنا المسبق عن 'المادة' يمكننا أن نرى كل الأشياء من حولنا تظهر إدراكا وإبداعا وحياة. إننا لا نستطيع أن نثبت هذا، ولك أن نقول أن هذه رؤية خيالية، محض شعر. ولكننا أيضا لا نستطيع أن نثبت العكس. كل ما نستطيع أن نقول هو إن أساليب العلم الموضوعي لا يمكن أن تعطينا فهما لحقيقة الأشياء الداخلية؛ ومن ناحية أخرى فإن الفلسفة النظرية والشعر لا يمكن أن يعطينا معرفة بالواقع الفعلي للأشياء.

8

حين يقول أفلاطون في الـ *التيمايوس* إنه "يصعب أن نقول بيقين كامل أي العناصر ينبغي حقًا أن نسميه ماء بدلا من نار، أو حقًا أيها ينبغي أن نسميه بأي اسم بدلا من أي اسم آخر" (49 ب)، نرى كيف أن سيولة اللغة وسيولة الأشياء كليهما وجهان لا ينفصلان من السيولة الشاملة للموجودات. هذه الفكرة مضمرة في *ديالكتيك* الـ *پارمنيديس* وفي المفهوم العام للـ *ديالكتيك* في الجمهورية.

عَوْدًا إلى مجاز الإنجاب الأثير عند أفلاطون، نجده يقول إننا نستطيع أن نمثل الوعاء *hupodochê* بالأم والصورة المعقولة بالأب ونتاج اتحادهما بوليدهما (50 د). أفلاطون يداوم تغيير مجازاته لأنه، أكثر من غيره من

الفلاسفة، يرى في وضوح تام أن كل بحث في المبادئ الأولى هو محاولة للتعبير عما هو في جوهره يتلّى على كل تعبير *essentially ineffable*.

حيث إنه لا بدّ للوعاء من أن يتلقى كل أشكال الأشياء المعقولة والأزلية فيجب أن يكون في ذاته خلواً من كل صفة. وعلى ذلك فإن الوعاء "غير مرني وغير مشكل، شامل لكل شيء، يتصف بطريقة محيرة تماماً بالمعقولة، ومع ذلك يصعب جداً إدراكه" (51 أ - ب).

نقرأ أن العناصر التي تكوّن منها العالم كانت في البدء بغير تناسب أو قياس، *panta taut' eichen alogôs kai ametrôs*، بحيث إن الصانع حين تهيأ لصنع الكون، كانت أولى خطواته أن يعطي تلك العناصر الشكل والعدد، *dieschêmatizato eidesi te kai arithmois* (53 أ - ب). هكذا نرى أن الوعاء والمكان والمادة والوجود الأجرد يمكن معادلتها باللامحدود واللامحدّد ولا تكتسب النظام والترتيب إلا بالخضوع للصورة المعقولة.

9

لا يمكن لأحد أن يفترض أن أفلاطون أراد منا أن نأخذ بجنتية حكايته عن تكوين الكائنات الإنسانية والجسد البشري، فلماذا إذن يكون علينا أن نفترض أن بقية الكوزموجونيا *cosmogony* ينبغي أن تؤخذ بجنتية في حين أن أفلاطون يخبرنا المرّة بعد المرّة أنه لا يمكن أن تكون هناك معرفة حقّة بعالم الظواهر؟

القسم الختامي عن نشوء 'الحيوانات الأخرى' (ومن بينها المرأة) التي لم تكن جزءاً من الخلق الأصلي (90 هـ - 91 ج)، هذا القسم هو من خامة أساطير أفلاطون عن حياة العالم الآخر. ألا ينبئنا هذا بأن الـ *ديميابوس* برمتها لم يكن مقصوداً بها أبداً أن تكون أكثر من حذوتة⁽⁸²⁾ أفلاطون لم يعتقد أبداً بأن من الممكن أن تكون لنا معرفة عقلانية عن عالم الظواهر فيما عدا النظريّات الرياضية التي قد نكوّننا لنفسر بها الانتظام في تحركات الأجرام السماوية وفي

(82) لا يتناقض هذا مع كوننا نجد في الـ *ديميابوس* بصائر ميتافيزيقية بلغة العمق. لم يكن ممكناً لأفلاطون أن يهزل دون أن يعكس في هزله عمق بصيرته، تماماً كما أننا نجد في هزاية *العاصفة* لـ شكسبير *Shakespeare's The Tempest* أعرق الفكر الفلسفي.

مجال الهارمونييا. فيما عدا ذلك، فحتى 'العلوم' المحترمة، الطب، والزراعة، والملاحة وبناء السفن، والعسكرية، وما إليها، كلها قاطبة ليست إلا ظنًا وحننًا.

من قبل قيل لنا: "متى ترك المرء، بقصد الاسترخاء، مناقشة الأمور الأزلية، فمن المعقول والمقبول أن يشغل فراغه بطريقة تأتي بمسرة لا يعقبها ندم، بالنظر في حكايات محتملة عن عالم التحول" (59 ج - د). ينبغي أن نأخذ أفلاطون بكلمته في هذا. خارج نطاق المفاهيم الخالصة - المجال الحق للفلسفة - ليس لنا غير الحكايات المحتملة، نمارس فيها فاعلية عقننا. هكذا فإن كل كوزمولوجيا التيمابوس، ينبغي أن تغدّ، حسيما يعلن أفلاطون نفسه، لا أكثر من مران تخيلى. ولم يتوقع أفلاطون أبدا من 'علوم' الطبيعة أن تتجاوز ذلك. وأها لدينا! لقد اكتشفنا أن حكاياتنا المحتملة تعطينا قوى شيطانية استهوتنا، ملأتنا غرورا، واقتضت منا، وظلت تقتضى منا، ثمنا باهظا. أما كان خيرا للإنسانية لو أننا بقينا قاتنين بخضوعنا البدائي للطبيعة، وبأساطيرنا البدائية عن نشأة العالم، بصحبة بصائرنا البدائية فى أعمق الحقائق وأصدق القيم؟ ماذا تصيف كل علومنا وكل تكنولوجيتنا لحياة سافو Sappho أو حياة أفلاطون أو حتى حياة صبي، راعى غنم بسيط، من أزمان ما قبل التاريخ؟

10

حين يشرع أفلاطون فى أن يشرح كيف تتصف الأجسام بصفاتهما المحسوسة، يبيّن مبادئ منهجية مهمة لم نستوعبها بعد. لا يمكننا تفسير المحسوسات موضوعيًا بغير أن نأخذ الحسن كشيء مسلم به؛ ولا يمكننا أن نفسر الحسن موضوعيًا بغير أن نأخذ المحسوسات كشيء مسلم به (61 ج - د). لا يمكن أن يكون هناك تفسير موضوعى نهائى وتام لأى شيء. أن ننسى هذا يوقعنا فى خطأ الاختزالية reductionism. ضحك المحدثون كثيرا من بلاهة ماهيات quiddities المدرسيين Scholastics، لكن فيما وراء تلك البلاهة كانت هناك بصيرة سقراط العظيمة: فى منتهى الأمر فإن التفسير الوحيد لكون شيء ما حارًا هو أنه حارٌ بالحرارة — هو حارٌ بالنسبة لنا لأن العقل خلق فكرة الحار ليبرز عمّة التجربة المعطاة فى نور المفهوم المعقول.

بعد أن يعطى تيمابوس بيانه عن أجزاء الروح، الغائية والإلهية، يضيف أن صحة بيانه لا يمكن توكيدها إلا عن طريق توكيد إلهي، إلا أنه يمكننا أن نخاطر الآن بأن نزع أنه بيان محتمل (72 هـ). لا يغيب عن أفلاطون أبدا التمييز بين مجال المعرفة ومجال الحس. إننا نحسب أننا قد أصبحنا أكثر حكمة وأكثر

حينما من أن تكون بنا حاجة لذلك التمييز، وحيثما نظن أننا قد نطبّقه، فإننا نعكس الترتيب الأفلاطوني. إننا مخطئون تماما. إن تكون فلسفتنا فى عافية ولن يكون علمنا فى عافية حتى ندرك أننا لا نحظى بالفهم العقلانى إلا فى الفلسفة وأن كل علم علومنا الموضوعية هو ظنّ. أى هذين الجانبين نخصّه باسم 'المعرفة'، لا يهّم كثيرا — لكن علينا أن نتبين فى وضوح طبيعة كل من نوعى النشاط المتميزين هذين.

أكثر من مرّة وفى أكثر من سياق يعلق دزموند لى Desmond Lee على غياب فكرة الزخم momentum عند أفلاطون وفى الفكر اليونانى عامة. فى ملاحظته التمهيدية للقسم الذى يبدأ فى 79- أ يكتب: "الكن اليونانيين لم تكن لديهم فكرة عن القصور الذاتى، معتقدين أن كل حركة يلزمها الاستخدام المستمر للقوة". إننى علقت على هذا التوجّه من قبل، ولكن بما أنه ينطوى على خطأ أساسى فى تفكيرنا، فلا أراى بحاجة للاعتذار إذا ما كرّرت ما قلته من قبل. تظهر ملاحظة لى Lee كم يسهل علينا أن نخطئ أسطورة علمية نافعة فنحسبها صدقا مطلقا. الفيزيكا الحديثة تقول لنا إن القصور الذاتى inertia خاصية للجسم تجعله يقاوم التغيرات فى سرعته أو، إذا كان ثابتا، يقاوم الحركة. جنبة غامضة عابثة اسمها الخاصية تقود حركة مقاومة خبيثة (مسلحة بكل تأكيدات بأسلحة الدمار الشامل)، تحرّض أى جسم متحرّك على مقاومة أى تغيير فى سرعته، وفى نفس الوقت تحرّض أى جسم ثابت على مقاومة الحركة. بالطبع سيقول لنا علماءنا إنهم لا يعنون ذلك على الإطلاق. كل ما يعنونه هو أننا نستطيع أن نجري حسابات نافعة على فرضية أن هناك خاصية كهذه. لكن هل يفسّر ذلك الـ لماذا؟ أى محاولة للمضى فيما وراء المعادلات الرياضيّة المعقّمة، أى محاولة للتفكير طلبا للتفسير، تضطرنا للجوء للأساطير. فى منتهى الأمر علينا أن ننتهى إلى أن العلم لا شأن له بالتفسير أو بالفهم أو بالصدق النهائى.

لا يمكن أبدا أن نعرف ما الذى يجعل الأشياء تتحرّك: لكننا نعرف ما الذى يجعلنا نحن نتحرّك. هل هو مخالف للعقل كثيرا أن نتصوّر أن ما يجعل الأشياء تتحرّك مماثل لما يجعلنا نحن نتحرّك؟ ربّما، ولكن يكون علينا عندئذ أن نتخلى عن كل أمل فى الفهم. إذا أصررنا على الفهم، فالمسبيل الوحيد المتاح لنا أن نصنع أساطير تجعل الأشياء معقولة. ولكن، من جديد، علينا أن نعرف أن أساطيرنا ما هى إلا أساطير. علينا أن ندرك أن الفهم إنارة تنتجها عقولنا وتبثّها فى الأشياء. لكن أيضا مرّة أخرى أقول إنه إذا لم تكن المعقولة (ومنتبتها، العقل الفاعل الخلاق) سمة أصلية فى الحقيقة النهائية، فلمست أرى كيف كان من الممكن أن تنشأ فينا.

في الفايديروس يقرّر أفلاطون أولا - في 'البرهان' الشهير على خلود الروح (245 ج - 246 أ) - مبدأ التلقائية autonomy كمبدأ أساسي لكل تفكير ميتافيزيقي. وبعد ذلك بقليل يقول في 246- ب، جميع الروح ترعى جميع ما هو بغير روح، *psuchê pasa pantos epimeleitai tou apsuchou*. هذا مبدأ غاب عن بصر الفلاسفة المحدثين، أو قل إنهم عُنِيَ عنه حقيقة مبادرتنا الذاتية (عفويتنا) spontaneity وفعاليتنا الخلاقة التي نعيها وعبا مباشرا ينكرونها، مفضلين عليها مفهوم السببية الطبيعية، التي أبدا لم تكن وأبدا لا يمكن أن تكون إلا فرضية لا يمكن إثباتها وليس لها معقولة حقة.

في النهاية، نجد أن 'مغزى' المحاوره سقراطى تماما. الفقرة المطولة 89- هـ -90- د تماثل كثيرا الأحاديث التربوية في الديوثيديموس والليزيس. لا يسعنى إلا أن أقتبس المطور التالية:

"لكن من كان صادقا في حب المعرفة والحكمة الحقة، وفعل عقله أكثر من أى جزء آخر فيه، لا بد أن تكون له، إن بلغ الحق، أفكار خالدة والهيبة، ويقدر ما يتاح للطبيعة البشرية أن تشارك في الخلود، لا بد أن يكون خالدا تماما، وحيث أنه يراعى دائما القوة الإلهية، وقد حفظ العنصر الإلهى بداخله فى أكمل حال، فإنه سيكون كامل السعادة". (الاقتباس فى الطبعة الإنجليزية من ترجمة جويت Jowett البديعة).

هذا هو كل ما يبلغه الكائن الإنسانى من خلود. الصلة التي أوجدت هنا بين رعاية الروح التي كان سقراط يدعو إليها والسعادة الحقة ليست مجرد تلاعب بتمائل التعبيرين *ton daimona* و *eudaimona einai* فى اليونانية.

ملحق 1

حياة أفلاطون

مصادرنا عن حياة أفلاطون شحيحة ومتأخرة، ومعظمها لا يمكن الاعتماد به كثيرا. فيما يلي أوجز ما يمكن الوثوق به إلى حدٍ معقول.

ولد أفلاطون نحو عام 427 ق.م، وكان والده، أريستون وبيريكتيونى، ينتمى كل منهما لأسرة أثينية عريقة. لكن الحرب البيلوبونيسية المدمرة كانت قد نشبت قبل سنتين من مولده ودامت حتى تجاوز العشرين، فنشأ وسط جو المأسى والكوارث التى جاءت بها تلك الحرب الغشوم التى انتهت بهزيمة مهينة لأثينا.

تبدت مواهب أفلاطون الإبداعية مبكرا، واتجه لتنظيم الشعر والتأليف المسرحى، لكن يبدو أن تأثيره بشخصية سقراط وفكره صرفه عن الشعر إلى الفلسفة. ومن المرجح أن يكون أفلاطون قد رأى سقراط وهو لم يزل طفلا صغيرا، ومن المؤكد أنه لازمه فى السنوات العشر الأخيرة قبل موته.

بعد إعدام سقراط فى عام 399 غادر أفلاطون أثينا وأمضى اثنتى عشرة سنة فى ترحال، التقى خلاله بعدد من دارسى الفلسفة والرياضيات، ويحتمل أن يكون قد أمضى بعض الوقت فى مصر. ولعله كتب معظم أعماله الباكورة فى فترة الترحال هذه. بعدها عاد إلى أثينا حيث أسس فى عام 387 مدرسته الفلسفية فى حديقة خارج أسوار المدينة مكرّسة لأكاديموس، فُقرت المدرسة باسم الـ أكاديميا. وبقيت أكاديميا أفلاطون منارة للإشعاع الفكرى أكثر من تسعة قرون متصلة حتى أغلقها الإمبراطور جستينيان عام 529م. بحجة تعارض

تعاليمها مع تعاليم الكنيسة، رغم أن الكنيسة في نشأتها كانت قد استعارت الكثير من الفكر الأفلاطوني.

بعد تأسيس الأكاديمية تفرغ أفلاطون للدرس والتعليم، ويبدو أنه انقطع عن الكتابة زمنا، غير أنه عاد إليها في وقت متأخر — عاد إليها مع اختلاف في أسلوب الكتابة وفي الموضوعات التي تعالجها تلك الكتابات المتأخرة.

لكن يبدو أنه رغم حرص أفلاطون على التفرغ لمدرسته في العقود الأربعة التي تشكّل النصف الثاني من حياته، فإن الظروف اضطرتّه لترك مدرسته والسفر إلى سراقوسة في صقلية، في 367، 361، استجابة لطلب ديون، شقيق زوجة ديونيسيوس الثاني، ملك سراقوسة، في محاولة لإقناع الملك الشاب بأن يجذ في دراسة الفلسفة، حتى يحكم حكما مستنيرا يحقق بعض حلم أفلاطون في قيام نظام سياسي تسوده الحكمة. إلا أن المحاولة، لأسباب عديدة، باءت بالفشل، بل كانت خاتمتها مأساوية.

مات أفلاطون في 347 في نحو الثمانين، بعد أن كان قد فرغ لتوّه من تأليف كتابه الأخير، القوانين، وقبل أن يتاح له أن يراجع مراجعة أخيرة. وخلفه في رئاسة الأكاديمية سيبوسيبوس ابن شقيقته.

ملحق 2 أعمال أفلاطون

كانت الإنسانية جذسحوظة إذ وصلت إلينا كتابات أفلاطون كاملة على الأرجح. وكانت قد جُمعت في وقت باكر، وفي وقت باكر أيضا رُتبت في تسمع رباعيات، والأعمال التي وصلت إلينا عبر العصور الوسطى تضم المحاورات وثلاث عشرة رسالة وكتاب 'تعريفات'. لكن بعد استبعاد عدد من هذه الأعمال التي اتفق المختصون على كونها دخيلة، يبقى نحو 28 'محاوره' (بحسبانها الرسائل مجتمعة 'محاوره'). وبعد نقاش طويل توصل الباحثون إلى ما يشبه الإجماع على تقسيم هذه الأعمال إلى ثلاث مجموعات، باكرة ووسيطه ومتأخرة، إلا أن ترتيب المحاورات زمنيا داخل كل من المجموعات يظل، باستثناءات قليلة، محل خلاف كثير.

المحاورات الباكرة: الدفاع - كريتون - لاخيس - خارمنيس - ليزيس -
يوثيفرون - يوثيموس - هيبباس الكبرى - هيبباس الصغرى - جورجياس -
بروتاجوراس - ايون - كراتيلوس - مينيكسينوس.

المحاورات الوسيطة: مينون - فايون - المأدبة - فايروس - الجمهورية
- (أنا أميل لأن أضع البروتاجوراس ضمن هذه المجموعة).

المحاورات المتأخرة: بارمنيس - ثياتيتوس - سوفيست - بوليتيكوس -
فيليبوس - تيمايوس - كريتياس (لم تُستكمل) - القوانين.

نشرت أعمال أفلاطون مطبوعة لأول مرة في البندقية عام 1513، تلت ذلك طبعة بازل (سويسرا) عام 1534، ثم جاءت طبعة مستيفانوس Stephanus عظيمة الأهمية التي نشرت في باريس عام 1578 في ثلاثة

مجلدات، قُمت كل من صفحاتها خمسة أقسام مرقومة أجدديًا. وقد أصبحت الإشارة إلى أرقام صفحات طبعة ستيفانوس وتقسيماتها الأبجدية هي الوسيلة المعتمدة في الإشارة إلى أعمال أفلاطون.

لعل أشهر الطبعات الحديثة الكاملة هي الطبعة التي أعدها جون بيرنيت John Burnet وصدرت عن دار Oxford: Clarendon Press في مطلع القرن العشرين، في خمسة مجلدات، ويشار إليها عادة بـ Oxford Classical Text، وبدءا من عام 1995 شرعت الدار في إصدار طبعة جديدة منقحة. وهناك طبعة في اثني عشر مجلدا ضمن مجموعة Loeb Classical Library يظهر فيها النص اليوناني مصحوبا بترجمة إنجليزية في صفحات متقابلة. وهناك كذلك طبعة في أربعة عشر مجلدا تظهر النص اليوناني مع ترجمة فرنسية في صفحات متقابلة، نشرت تحت إشراف l'Association Guillaume Budé وتعرف باسم طبعة Budé.

بالإضافة للترجمة الإنجليزية والترجمة الفرنسية في هاتين الطبعتين الكاملتين، هناك ترجمات عديدة للأعمال الكاملة بمختلف اللغات الحية، لعل أقربها منالا في اللغة الإنجليزية ترجمة جويت Benjamin Jowett، وتتوالى الترجمات الجيدة للمحاورات المفردة دون انقطاع.

على حدّ علمي ليست هناك ترجمة عربية للأعمال الكاملة (وسيسعدني أن يصحّح لي أي أحد خطئي إن كنت مخطئا في هذا)، ولكن هناك عددا من ترجمات لمحاورات مفردة، كثير منها جيد ولا شك، إلا أنني وقد رأيت ترجمات رديئة جدا، لا أطمئن لأن أنكر أي ترجمة تحديدا دون أن يكون قد أتيج لي الاطلاع عليها.

ملحق 3

مؤلفات استشهد بها أو أشير إليها في ثنايا الكتاب

(يضم النُّبْتُ التالى بعض المفكرين الذين أشيرَ إليهم وأهم أعمالهم حتى لو لم يكن قد استشهد ببعض تلك الأعمال على وجه التحديد).

Anonymous, *The Cloud of Unknowing*, translated into modern English with an introduction by Clifton Wolters, 1961.

Aristotle, *Categoriae*, *De Interpretatione*, *Analytica Priora*, *Analytica Posteriora*, *Topica*, *De Sophistici Elenchis*, *Physica*, *De Generatione et Corruptione*, *De Anima*, *Metaphysica*, *Ethica Nicomachea*, *Politica*, *Rhetorica*, *De Poetica*.

Aristophanes, *The Clouds*.

Augustine of Hippo, *Confessions* (written towards the end of the fourth century of the Christian era).

Bergson, Henri, *L'Evolution créatrice*, 1907.

Berkeley, George, *A New Theory of Vision*, 1709, *Principles of Human Knowledge*, 1710, *Three Dialogues between Hylas and Philonous*, 1713, *Siris*, 1744.

Blake, William, *Auguries of Innocence*.

Bradley, F.H., *Appearance and Reality*, 1893.

Bronte, Charlotte, *Jane Eyre*, 1847.

Bunyan, John, *The Pilgrim's Progress*, 1678.

- Burnet, John, *Greek Philosophy: Thales to Plato*, 1914.
- Bywater, Ingram, tr. Aristotle, *De Poetica*.
- Cornford, Francis Macdonald, *Plato's Theory of Knowledge*, 1935, *The Republic of Plato translated with Introduction and Notes*, London, 1941, 1945.
- Descartes, René, *Discours de la Méthode*, 1637, *Méditations*, 1641.
- Dover, Kenneth, *Plato's Symposium*, edited with Introduction and Commentary, 1980.
- Edghill, E.M., tr. Aristotle, *Categoriae, De Interpretatione*.
- Field, G.C., *Plato and his Contemporaries*, 1930, 1948.
- Guthrie, W.K.C., tr. the *Protagoras* and the *Meno*, 1956.
- Hamilton, W., tr. the *Gorgias*, 1960.
- Hardie, R.P. and Gaye, R.K., tr. Aristotle, *Physica*.
- Heraclitus, the fragments of Heraclitus are accessible at
- Hobbes, Thomas, *Leviathan*, 1651.
- Hume, David, *A Treatise of Human Nature*, 1739-40, *Enquiry concerning the Human Understanding*, 1748, *Dialogues concerning Natural Religion*, 1779 (posthumously, but written c. 1750).
- Irwin, T.H., "The Intellectual background", *The Cambridge Companion to Plato*, ed. Richard Kraut, 1992.
- Jenkinson, A.J., tr. Aristotle, *Analytica Priora*.
- Joachim, Harold H., tr. Aristotle, *De Generatione et Corruptione*.
- Jowett, Benjamin, tr., *The Dialogues of Plato*, 1871.
- Kant, Immanuel, *Critique of Pure Reason*, 1781, 1787, *Prolegomena to Any Future Metaphysics*, 1783, *Groundwork of the Metaphysics of Morals*, 1785, *Critique of Practical Reason*, 1788, *Critique of Judgment*, 1790, 1793.
- Keats, John, *Ode on a Grecian Urn*.

Khashaba, D. R., *Let Us Philosophize*, 1998, 2008, *Plato: An Interpretation*, 2005, *Socrates' Prison Journal*, 2006, *Hypatia's Lover*, 2006, *The Sphinx and the Phoenix*, 2009, *Plato's Memoirs*, 2010.

Kraut, Richard, *The Cambridge Companion to Plato*, ed. Richard Kraut, 1992.

Landor, Walter Savage, *On His Seventy-Fifth Birthday*.

Laurence, Stephen and Macdonald, Cynthia, eds., *Contemporary Readings in the Foundations of Metaphysics*, 1998.

Lee, H.D.P., tr., *The Republic*, 1955, tr. *Timaeus and Critias*, 1965.

Leibniz, Gottfried Wilhelm, *Discours de Métaphysique*, 1686, *Nouveaux Essais sur l'Entendement humain*, 1704, *Essais de Theodicée*, 1710, *La Monadologie*, 1714. Leibniz's seminal ideas are dispersed in many essays and fragments, available in many collections. *Leibniz Selections*, edited by Philip P. Wiener, 1951, is a fairly comprehensive handy volume. Bertrand Russell's *A Critical Exposition of the Philosophy of Leibniz*, 1900, 1937, contains a helpful appendix of leading passages.

Lindsay, A.D., tr., *Plato's Republic*, 1935.

Locke, John, *An Essay concerning Human Understanding*, 1690.

Machiavelli, *The Prince*, 1532.

Milton, John, *Paradise Lost*, 1667.

Moore, G.E., *Principia Ethica*, 1903.

Morrow, Glenn R., *Plato's Epistles*, Translation, with Critical Essays and Notes, 1935, 1961.

Mueller, Ian, "Mathematical method and philosophical truth", *The Cambridge Companion to Plato*, ed. Richard Kraut, Cambridge, CUP, 1992, p.182.

Mure, G.R.G., tr. Aristotle, *Analytica Posteriora*.

Murray, Penelope, *Plato on Poetry*, 1996.

Nietzsche, Friedrich, *The Birth of Tragedy*, 1872, *Thus Spake Zarathustra*, 1883-92, *Beyond Good and Evil*, 1885.

Parmenides, the philosophical poem of Parmenides consisted of a Proem, followed by "The Way of Truth" and "The Way of Appearance". Only certain fragments have reached us. An easily-accessible internet source for the fragments in English:

Pascal, Blaise, *Lettres provinciales*, 1656-1657, *Pensées sur la religion*, 1669 (posthumously).

Pickard-Cambridge, W.A., tr. Aristotle, *Topica*, *De Sophisticis Elenchis*.

Plato, *Apology*, *Charmides*, *Laches*, *Lysis*, *Euthyphro*, *First Alcibiades*, *Hippias Major*, *Hippias Minor*, *Ion*, *Crito*, *Gorgias*, *Euthydemus*, *Menexenus*, *Cratylus*, *Meno*, *Phaedo*, *Protagoras*, *Symposium*, *Phaedrus*, *Republic*, *Parmenides*, *Theaetetus*, *Sophist*, *Politicus*, *Philebus*, *Timaeus*, *Critias*, *Laws*, *Epinomis*, *Epistles*.

Plotinus, *The Enneads*.

Quinc, W.V.O., "On What There Is", reproduced in Laurence, Stephen and Macdonald, Cynthia, eds., *Contemporary Readings in the Foundations of Metaphysics*, 1998.

R. Hackforth, *Plato's Examination of Pleasure*, 1945 (A Translation of the *Philebus* with Introduction and Commentary).

Roberts, W. Rhy., tr. Aristotle, *Rhetorica*.

Ross, W.D., tr. Aristotle's *Metaphysica*, *Ethica Nicomachea*.

Rowe, C. J., Plato's *Phaedo*, edited with Introduction and Commentary, 1993.

Russell, Bertrand, *Problems of Philosophy*, 1912. Russell's numerous works, always thought provoking, always a delight to read, are not listed because they do not bear directly on the subject of the present book.

Russell, Bertrand, and Whitehead, A.N., *Principia Mathematica*, Vol. 1, 1910, 1915; Vol. 2, 1912, 1927; Vol. 3, 1913, 1927.

Santayana, George, *The Life of Reason*, 1905-1906, *Three Philosophical Poets: Lucretius, Dante, and Goethe*, 1910, *Scepticism and Animal Faith*, 1923, *The Realms of Being*, 1927.

- Schiller, Friedrich von, *Die Jungfrau von Orleans*, 1801.
- Schopenhauer, Arthur, *The World as Will and Idea*, 1818.
- Skemp, J.B., *Plato's Statesman*, a translation of the *Politicus* with introductory essays and footnotes, 1952.
- Smith, J.A., tr. Aristotle, *De Anima*.
- Spinoza, Benedict, *Ethica ordine geometrico demonstrata*, 1677 (posthumous).
- Szlezak Thomas A., *Reading Plato*, 1993, English translation by Graham Zanker, 1999.
- Taylor, A.E., *Plato: The Man and His Work*, 1926, tr., *Plato's Laws*.
- Thoreau, Henry David, *Walden*, 1854.
- Tolstoy, Leo, *A Confession, The Gospel in Brief, and What I Believe*, Translated with an Introduction by Aylmer Maude, 1940 — A good compact volume of some of Tolstoy's religious writings.
- Tredennick, Hugh, *The Last Days of Socrates*, 1954.
- White, Nicholas P., "Plato's metaphysical epistemology", *The Cambridge Companion to Plato*, ed. Richard Kraut, Cambridge, CUP, 1992, pp.280-285.
- Whitehead, Alfred North, *Science and the Modern World*, 1926, *Religion in the Making*, 1926, *Process and Reality*, 1929, *The Aims of Education*, 1932, *Adventures of Ideas*, 1933, *Modes of Thought*, 1938, *Essays in Science and Philosophy*, 1948 (posthumous).
- Wittgenstein, Ludwig, *Tractatus Logico-Philosophicus*, 1921, *Philosophical Investigations*, 1953 (posthumous).

في ترجمة المصطلحات الفلسفية استعنت بالمراجع التالية:

مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، 1983.

مراد وهبة، المعجم الفلسفي، 1998.

عبد الرحمن بدوي، المنطق الصوري والرياضي، الطبعة الرابعة، 1997.

المؤلف/المترجم فى سطور :

داود روفانيل خشبة

ولد داود روفانيل خشبة عام 1927 بشمال السودان لأبوين من صعيد مصر. ورغم أنه عشق الفلسفة منذ صباه، فإن ظروفًا غير مواتية اكتنفته طويلاً، فلم يُتَّح له أن يكمل كتابه الأول إلا فى أواخر عقده السابع. نُشر له باللغة الإنجليزية:

Let Us Philosophize 2008، 1998

Plato: An Interpretation 2005

Socrates' Prison Journal 2006

Hypatia's lover 2006

The Sphinx and the Phoenix 2009

Plato's Memoirs 2010

شرع المركز القومى للترجمة بالقاهرة فى ترجمة كتبه إلى العربية، وقد صدر منها قبل هذا الكتاب:

يوميات سقراط فى السجن، 2010، ترجمة المؤلف.

هيبتايا والحب الذى كان، 2010، ترجمة سحر توفيق.

يصف المؤلف فلسفته بأنها صيغة أصيلة من الأفلاطونية، بمثل ما كانت فلسفة أفلوطين صيغة أصيلة من الأفلاطونية.

التصحيح اللغوى : أمل عبد الفتاح

الإشراف الفنى : حسن كامل

منطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

لعل أفلاطون لم يُدرس قط بمثل التركيز الذي دُرِس به -
على المستوى العالمى - فى الأونة الأخيرة، لكن لعله أيضاً لم
يتعرض قط لمثل سوء الفهم والمسخ والتشويه الذى تعرض له
فى هذه الفترة نفسها.

فهنا لأفلاطون وفهنا لطبيعة التفكير الفلسفى وجهان
لقطعة نقود واحدة، والفهم السائد فى الدوائر الأكاديمية يمسح
فهنا للفلسفة كما يمسح تأويلنا لأفلاطون. لم يكن غرض
أفلاطون فى كتاباته أن يقدم منظومة فلسفية مكتملة، وإنما
كانت غايته أن يقدم فى روح قرائه شرارة الفهم تلك التى
"فجأة تولد فى الروح مثلما يومض الضوء حين توقد نار
وتتغذى بذاتها من ذاتها"، كما يقول فى إحدى رسائله.

أهدانا أفلاطون أعمق البصائر فى أنفسنا وفى الحقيقة فى
كساء من أساطير مجنحة، وإذا بباحثينا الجهابذة يحيلون
الأساطير إلى عقائد دوجماتية سخيفة، إلى نظريات واضحة
الخلل، ويضيع كل شىء: الجوهر الموحى والرؤية الملهمة.

يدخل المؤلف فى حوار حى مع أفلاطون ويقدم الفلسفة
التى يستمدّها لنفسه من ذلك الحوار، أو على حد قول
المؤلف: "أرد ينباع أفلاطون الفيأضة لأروى حدبقتى، وأقدم
صيغتى الخاصة من الأفلاطونية"، تماماً كما فعل أفلوطين من
قبل.

كانت الفلسفة عند أفلاطون أسلوب حياة بل كانت
الفلسفة هى تمام الحياة الإنسانية الحقّة، وفى هذا الكتاب لا
تغيب عن المؤلف أبداً هموم الإنسان وصراع الإنسانية ضدّ ما
يثقّلها من ظلم ومن ظلام.